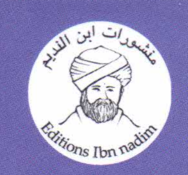




محمد شعبان صوان

معضلة التنمية الاستعمارية

نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار

ابن النديم للنشر والتوزيع

دار الروافد الثقافية - ناشرون

محمد شعبان صوان

باحث وكاتب من فلسطين.

هذا الكتاب

الاعتقاد بأن الاستعمار عملية جرت لمجرد الإضرار بضحاياها، يوقع في معضلة تفسير بعض الجوانب "الإيجابية" التي ينزعها أنصار التغريب من سياقها لتبييض صفحة الاستعمار ومهمته "التقدمية"، ولهذا وجب تعديل النظر للعملية الاستعمارية من كونها تستهدف الإضرار البحت إلى كونها بحثاً عن المصالح الذاتية التي من طبيعتها الاستئثارية كثرة الإضرار بالغير مع إمكان الإفادة غير المقصودة لذاتها ما دامت تخدم المستعمِر، ولكن هذا لا يعني أن كثيراً من الأضرار لذات الإضرار لم تتخلل العملية الاستعمارية، وذلك نتيجة استعار الكراهية بين الظالم والمظلوم، وفي التقدير النهائي فإن الاستعمار قطع طرق تطور الآخرين ذاتياً، أما ما "أفادهم" به فقد كان بإمكانهم تحصيله بتدرج طبيعي لو تُركوا وشأنهم ينمون نمواً طبيعياً ويقتبسون مما حولهم من تجارب متقدمة حسب حاجاتهم دون تطفل خارجي، وكانوا سيتطورون دون أن يدفعوا للاستعمار الخسائر الجمة، أي ليس للاستعمار فضيلة حصرية يتشدق بها، والإمبرياليون اليوم يحاولون قطف ثمار الاستعمار القديم بوسائل حديثة متطورة تحت شعارات "إنسانية"، تغنيهم عن تكاليف إرسال الحملات العسكرية التي لم تنقطع أيضاً، ولكن هذه "الإنسانية" مليئة بالوحشية التي يدركونها جيداً، وعليهم تركها لو كان هدفهم هو إفادة الآخرين كما ادعوا فعلاً، فليس من خدمة يؤدونها أفضل من كف أيديهم.

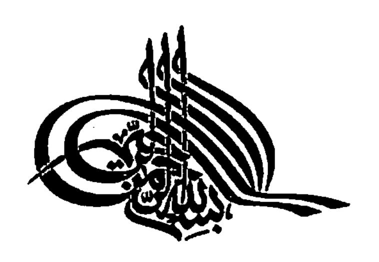
ISBN 978-9931-369-82-0
9 789931 369820 >

ابن النديم للنشر والتوزيع
الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل
رقم 1 المحمدية
تلفاكس: 21341359788+
خلوي: 213661207603+
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية - ناشرون
هاتف: 204180 (96171)
ص.ب: 6058 – 113 الحمراء
بيروت – لبنان
email: rw.culture@yahoo.com

معضلة التنمية الاستعمارية

نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار



الغلاف الأمامي: وضع الاحتلال الصهيوني في فلسطين يلخص حقيقة إنجازات الاستعمار وفقاً لآخر معاقله التقليدية الحية، فهو يطور المستعمرة تطويراً مذهلاً، كمدينة حيفا مثلاً، ولكن لا يستفيد من هذا التطوير سوى مستوطنيه الأغراب، وذلك بعد طرد أصحاب الأرض المستبعدين من هذه الجنة رغم أنها في بلادهم، أما من بقي من السكان الأصليين على أرضه، فمصير غزة المدمَّرة يلخص حاله، ومهما بلغت الرشوة أو القهر، فصاحب الحق سيثور كما يوضح التفصيل في الوسط من لوحة الانتفاضة للفنان المعروف إسماعيل شموط رحمه الله.

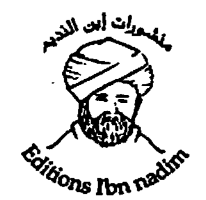
الغلاف الخلفي: شعار شركة خليج مساشوستس الاستيطانية (1629) في أمريكا يصور على سبيل الدعاية هندياً متخلفاً وعارياً ينادي الإنجليز المتفوقين كما نادى المقدوني بولس الرسول في الرؤيا (أعمال الرسل 16/ 9) : تعالوا وساعدونا، أسفرت "المساعدة" الإنجليزية عن إبادة السكان الأصليين، ومع ذلك احتفلت الولايات المتحدة بنفس الشعار في الذكرى المئوية الثالثة (1930).

ابن النديم للنشر والتوزيع دار الروافد الثقافية - ناشرون

معضلة التنمية الاستعمارية

نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار

تأليف
محمد شعبان صوان

معضلة التنمية الاستعمارية

نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار

تأليف: محمد شعبان صوان

الطبعة الأولى، 2015

عدد الصفحات: 533

القياس: 17 × 24

الترقيم الدولي ISBN: 978-9931-369-82-0

الإيداع القانوني: 2014-4780

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية
خلــوي: 03 76 20 661 213+

وهــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 35 41 213+
خلــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

هاتف خلوي: 204180 (96171)

ص. ب.: 113/6058

الحمــراء، بيروت–لبنان

Email: Rw.culture@yahoo.com

المحتويات

ملاحـــــــق

مقدمة

عندما يتحدث ضحايا الاستعمار عن الدمار الذي نتج عنه أو التخلف الذي تركه بعده ينبري نفر من المعجبين بالمدرسة الاستعمارية، لاسيما بعد فشل الدولة الوطنية، لذكر المشاريع التنموية التي بناها المستعمِرون في بلادنا ويصل بهم الحماس إلى تمني عودة الاستعمار ليمارس مهمته الحضارية وينقذ هذه البلاد من قبضة الاستبداديات التي أتت على الأخضر واليابس، وينسى هؤلاء أن الدولة الوطنية نفسها هي البديل الذي اختاره الاستعمار ليحل محله في البلاد التي غادرها بعدما طرأت عدة ظروف موضوعية جعلت استمرار الامبراطوريات الاستعمارية مستحيلاً، وأن منطق هذه الدولة الوطنية حكم الأنظمة التي أمسكت زمام الحكم في هذه الدول، فلم يعد أي نظام بقادر على التحرر من بنية دولة التجزئة مهما كانت هويته العقائدية متجاوزة لها سواء كان قومياً عربياً، فارسياً، تركياً، أم إسلامياً أممياً، ولهذا يصح القول إن دولة التجزئة حكمت الذين حكموها ولم يكن هؤلاء الحكام بقادرين على التحرر من قيودها، والتاريخ المعاصر شاهد على طيف من الأنظمة مختلفة الانتماءات التي وصلت لحكم الدولة الوطنية ولم تستطع الخروج عن منطق التجزئة فأفسدت أنفسها ومبادئها ولم تقدم شيئاً لإصلاح خلل التجزئة الذي انتصر عليها في النهاية.

ولهذا يبدو الحلم بعودة الاستعمار أو بتبييض صفحته مزايدة على الخيار الاستعماري نفسه والذي لم يعد قادراً على الاستمرار بصورته السابقة واختار الهيمنة بصور جديدة أطلق عليها الاستعمار الجديد وكان على من

يتغنى بأنغام المستعمِرين أن يخضع لما اختاروه للمستعمَرين بعد عجزهم عن الإنفاق على جيوشهم المنتشرة في أنحاء الأرض.

ولو تجاوزنا هذه الحقيقة لفتح ملفات التنمية الاستعمارية لفحص دعوى التطور والتقدم الذي حصل في ظلها سنجد بالفعل كثيراً من التطور الذي أحدثته ولكنه يصح للرد فقط على المنطق الذي ظن أن العملية الاستعمارية قامت لأجل التخريب وحده، وهذا أمر بعيد عن الواقع، فالتخريب لأجل التخريب لا يقوم به إنسان سويّ فضلاً عن حضارة ملكت زمام التقدم العلمي ولا يتصور أن يحكم المرضى دولاً كبرى كالتي ارتكبت تلك الجرائم، ولكننا بحاجة إلى نظرة أقرب للطبيعة البشرية ومن ثم للعملية الاستعمارية للوصول إلى صفات أقرب من مجرد كيل الشتائم وذلك لنستطيع التعامل معها، فنصف العلاج هو تشخيص الداء.

ولكن من الذي ادعى أن غير الأسوياء فقط هم الذين يخطئون ويرتكبون الجرائم، إن المريض لا تكليف عليه ومن ثم لا عقاب، ولهذا لا تطبق العقوبات على الأحداث والمجانين، ولو كان كل من يرتكب جريمة "غير سوي" لأعفى القانون كل المجرمين من العقوبة لعدم أهليتهم، والخلاصة أن جميع البشر يرتكبون الأخطاء والجرائم، ولكن بسبب، وهذا هو اختلافهم عن المرضى الذين يرتكبون الانحرافات بلا سبب، وسبب ارتكاب الأخطاء عند معظم البشر هو محاولة الحصول على المكاسب بغض النظر عن أنواعها المادية كالمال والسلطة، أو المعنوية كالظهور والحسد والغيرة، وهنا يمكننا تشخيص سبب الاستعمار، إذ لم يأت المستعمرون من بلادهم للهيمنة على الآخرين بسبب حب التخريب، بل بسبب الطمع في المصالح، وعندما نتحدث عن مصالح كيانات وشعوب مختلفة فمن السهل أن نرى التناقض بينها، لأن الإنسان لا يبحث عن سد رمقه كالحيوان الذي هو أفضل من البشر في هذه الناحية، بل يبحث عن الهيمنة والتراكم والظهور، فلا يكفي المستعمِر أن يأكل ويشرب بالمعروف بل يريد احتكار الثروات والموارد لكي لا يأخذها غيره، ومن هنا كان تضارب المصالح الذي يؤدي إلى تصاعد التناقضات والصراعات إلى حد إرادة الإضرار لأجل

الإضرار وحده، وربما قام ببعض مظاهر التعمير في البلد المستعمَر ليخدم أغراضه بالطبع ولكنه يدعي أنها تخدم السكان المحليين، والحكم الفصل في ذلك يستند إلى مآل هذه المشاريع ومن الذي استفاد منها بالفعل وليس إلى مجرد بنائها، وهنا يظهر خطأ استدلال المدرسة الاستعمارية.

ولهذا فإن ضحايا الاستعمار يخطئون عندما يظنون أنه جاء للهدم فقط، إن هذا قد يحدث ولكن في مراحل متأخرة من الصراع، وتلاميذ الاستعمار يخطئون عندما يعددون مشاريعه رداً على أولئك، فالاستعمار جاء ليعمر نعم، ولكن ليعمر بيته هو وليس بيت المستعمَر، وتحت هذا البند تندرج كل مشاريعه العمرانية والتمدينية التي لا تؤدي في النهاية للمستعمَر المفتقد للبنية المتكاملة لهذه المشاريع ما أدته للمستعمِر الذي بناها جزءاً من نهضته الشاملة وألحقه بها بل ربما كانت على حساب الأول وأدت إلى تراجعه، وليس مجرد وجودها في بلده دليلاً على خيرية مستعمِره وحسن نيته، ولا يمكننا الحديث أيضاً عن "التقاء المصالح" وذلك لتباعد النتائج بين المستعمِر والمستعمَر والتي كانت واضحة منذ البداية في نية المهيمن، وهي أن يفيد نفسه أولاً فإن استفاد غيره فلا بأس، ولكن في ظل إرادة الهيمنة لا يمكننا الحديث عن منطق العيش وترك الآخرين يعيشون لأن هذه الإرادة تؤدي غالباً إلى الاستئثار المضر بالطرف الضعيف، كما أنها لا تؤدي إلى بناء ما لا فائدة منه للمستعمِر فضلاً عما يضره، وفقاً لميزانه هو للضرر المتأتي من عدم الاحتكار والهيمنة، حتى لو كان فيه فائدة كبيرة للمستعمَر، وهذا ما كان واضحاً منذ البداية وما حدث بالفعل.

فمنطق الاستعمار هو المنفعة لنفسه وليس مجرد تخريب الآخرين، ولكن المنفعة الذاتية تتطلب غالباً هذا التخريب وقد تنطوي أحياناً على منافع جانبية يستفيد منها الضعيف دون قصد المستعمِر ودون أن تصنع لدى المستعمَر ما صنعته للمستعمِر، وهنا يجب أن يتركز هجوم الضعيف: أنه تم استغلاله لصالح القوي ودون أن يدمجه القوي في عالمه كما ادعى وهذا ما أنتج معظم الخراب، ولا ينفي بعض الظواهر السطحية التي لا تقوم دليلاً على النهضة الشاملة ولا نشر الحضارة ولا جلب المدنية التي ادعاها

الأقوياء في البداية كاذبين، ولو أصررنا على أن الاستعمار مجرد مخرب فسينقض كلامنا مجرد طريق ممهد في المستعمرات أو ميناء أو مصنع كما تحاول المدرسة الاستعمارية طرح هذه الأدلة، ولكن عندما ننظر لما صنعه الطريق الممهد للمستعمِر والمستعمَر نجد البون الشاسع الذي يبين حقيقة الاستئثار والاستغلال والتراجع إلى الوراء الذي قام به الاستعمار في مستعمراته، فمجرد وجود الفرق الحضاري الشاسع بين المستعمِر ومستعمراته دليل واضح على أنه لم يرد أن يشاركها مستواه كما ادعى وأنه لم يقم سوى بالاستغلال وهو ما أدى إلى التراجع العام، دون أن ينفي ذلك وجود منشآت عمرانية، ولكنها لم تخدم الضعيف كما خدمت القوي وفي النهاية لم يحصل الضعيف على بنية شاملة تبرر الهيمنة عليه واحتلال بلاده والتحكم بمواردها وتقييد حرية أبنائها وقتلهم والاستيلاء على أملاكهم وكل ذلك ذهب لصالح القوي وأدى بالمجمل إلى تراجع الضعيف رغم المظاهر السطحية من التعمير والتي كان من الممكن أن يحصل عليها لو تُرك يتطور ذاتياً ويقتبس من إنجازات الحضارات حوله بما يلائم أوضاعه لا بما يُفرض عليه في سبيل تحقيق مصالح غيره.

وإذا كان مؤسسا الشيوعية الحديثة كارل ماركس وفريدريك إنجلز قد خُدعا بإنجازات الاستعمار في مستعمراته وظنا أنه يقوم برسالة تمدينية يحطم بواسطتها البنى الاجتماعية الاقتصادية "المتخلفة" ويمهد الطريق لدخول المستعمرات الراكدة في حركة التاريخ والتطور، فإن هذه المدرسة تراجعت عن هذا الأمل بالحديث أولاً عن الاضطهاد الاستعماري وضرورة الثورة عليه ثم عن ربط تقدم الدول الاستعمارية بتخلف المستعمرات.

والخلاصة أن الاستعمار ليس تخريباً في سبيل التخريب بل تخريب لأجل الحصول على منفعة ذاتية قد تتطلب نفع الآخرين دون قصد مباشر ولكنه لن يبادر إلى منفعة الآخرين تطوعاً ومجاناً واستقلالاً عن منافعه الخاصة لأن هذا يضر منطق الاستئثار والاحتكار والهيمنة، 1- فما ينفع الاستعمار وينفع الآخرين فلا بأس به، وهو قليل، 2-وما لا ينفع الاستعمار وينفع الآخرين، وهو الأهم، فلا يريده، 3-وما ينفع الاستعمار ويضر

الآخرين، وهو الأكثر، فمرحباً به عنده، 4-وما يضر الاستعمار ويضر غيره، يمتنع عنه "تكرماً وتفضلاً" مع أنه لن يقدم عليه بكل الأحوال، أي أن الاستعمار لن يقدّم إلا ما يفيده سواء كان مفيداً للآخرين وهو الأقل، أو ضاراً بهم وهو الأكثر، وسيمتنع عما يضره أو حتى لا يفيده ولو كان مفيداً للآخرين، وهو كثير أيضاً، وحساب الضرر يقاس بعدم الاحتكار وعدم الهيمنة وعدم الاستئثار وعدم السيطرة وليس بعدم الحصول على أساسيات الحياة بالمعروف، وإذا امتنع عما يضره ويضر الآخرين ملأ الدنيا صراخاً وصياحاً عن إنسانيته وإيثاره وخيريته، وهو ليس كذلك في الحقيقة، ومحصلة المقدَّم هو قلة الفائدة مما يقدمه الاستعمار من خير، أما الأكثر فهو التضرر مما يقدمه من شر أو مما يمتنع عن تقديمه من خير أو من تمننه بامتناعه عن الشر.

العلاقة	مثال	الظرف	الكمية	الأثر على المستعمَر
تقديم خير	مساعدة على النهوض	التقاء المصالح	قليل وغير مقصود لذاته	تطور بمقدار فريد أو محسوب
تقديم شر	احتلال وقتل ونهب ثروات	تضارب المصالح	كثير	تدمير
امتناع عن تقديم خير	عدم تعميم التعليم	تضارب المصالح	كثير	تراجع
امتناع عن ارتكاب شر	محاربة الرق في زمن الصناعة،أو مناهضة الاستعمار،وعدم العودة العامة للاحتلال العسكري	التقاء وهمي للمصالح	كثير	مقدمة لشر جديد،أو تمنن يؤدي إلى الانبهار فاستمرار الاستغلال بصوره الجديدة

الباب الأول

تقديم "الخير": التطوير الاستعماري بين الإفادة والإبادة

1 - اليابان ذات النموذج الفريد:

مازال النموذج الياباني الفريد يقف دليلاً على قدرة المستعمِر الأمريكي على تطوير مستعمرته والنهوض بها ولكنه أيضاً دليل على أثرة الاستعمار الذي لم يعمم هذا النموذج الذي يجعلنا نتساءل عن السبب الفريد في السماح بتطور اليابان ودعمها للوصول إلى التقدم، وذلك دون الانتقاص من قدرة الإنسان الياباني وعلو همته ولكن ما قام به لم يكن ممكناً إلا بالظروف المؤاتية التي وفرها العدو الأمريكي المنتصر في الحرب الكبرى الثانية وأفسح بها المجال أمام تفتح الإمكانات اليابانية، وما يؤكد ذلك أن شعوباً أخرى في تاريخ الولايات المتحدة خطت بهمة نحو تبني حضارة الرجل الأبيض ولكن قوته كانت مضادة لتطور هذه الشعوب المهزومة مما أدى إلى تحطيم محاولاتها وغرقها في التخلف والبؤس والحرمان.

أما في اليابان فإننا نطالع السر في تبني الولايات المتحدة لعملية تطويرها ومعاملتها بدلال لم يتوفر لغيرها من المستعمرات، وذلك بالسماح بإطلاق طاقات اليابانيين ذوي الوعي وبعد النظر وتمكينهم من المحافظة على سوقهم المحلية والحد من اقتحام الاستثمارات الأمريكية بعد الحرب الثانية في الوقت الذي استهدفت الولايات المتحدة السيطرة على بقية حلفائها بواسطة الاستثمارات "وتعود قدرة اليابان على إقناع الولايات المتحدة بقبول

هذا الموقف العنيد، رغم الاحتلال الأمريكي، إلى الدور الخاص، ربما، الذي رُتب لليابان: القلعة الرئيسية للرأسمالية في الشرق الأقصى، والحليف الرئيسي للولايات المتحدة في تلك المنطقة"[1]، وذلك بعد اجتياح أمواج المد الشيوعي الصين وفيتنام وكوريا ولاوس.

2 - تركيا والحد الأقصى لنمو العالم الإسلامي:

يقول الكاتب جاك بنوا ميشان إنه منذ سنة 1946 أصبحت تركيا ورقة رابحة بارزة في الحرب الباردة لأنها تستطيع وحدها معارضة النزعة التوسعية الروسية وأن تؤلف درعاً يحمي "الشرق الأوسط"، وإن إضعافها سيكون خطراً ومن الحكمة تعزيز قوتها العسكرية، وستسير سياسة البيت الأبيض من تلك اللحظة على هذا النهج وهو ما ستحققه "المهمة الأمريكية لمساعدة تركيا" التي أنشئت في واشنطن بعد إعلان الرئيس ترومان في سنة 1947 أن أمريكا ستتولى التزامات بريطانيا في هذا الجزء من العالم بعد إعلانها عن عجزها عن مواصلة هذه الالتزامات، وبداية من سنة 1948 استهل إصلاح الجيش التركي، ولكن ما هو الدعم المقدم؟ وكيف يمكن مقارنته بما قدم لليابان من حيث النوع والنتيجة؟

لما كان المطلوب هو دعم القوة العسكرية التركية وليس إقامة معقل رأسمالي كاليابان في مواجهة الشيوعية فقد اقتصرت المساعدة على الجيش فقط ولم تتخلل أرجاء المجتمع التركي، فقد "ظهرت الدبابات والشاحنات والسيارات المصفحة والجيبات، وتدرب المجندون الشبان على الاتصال بجهاز اللاسلكي" وفي هذا المجال تحقق مراد الولايات المتحدة "وسرعان ما فاقت النتائج أكثر التوقعات تفاؤلاً، ولم يصدق المدربون الأميركيون عيونهم. . .ف"كثفت الولايات المتحدة مساعدتها لتركيا، وسوف تبلغ مساهمتها في إعادة تسليح الجيش التركي ملياراً ونصف مليار دولار"، ومن

---

(1) هاري ماجدوف، الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981، ص176.

جهتها فإن تركيا أدت ما عليها فأصبح اقتصادها "متعسكراً"، وفاقت ميزانيتها الدفاعية بأكثر من ضعفين أكثر اللحظات حرجاً في الحرب الكبرى الثانية، وابتلع الجيش نصف الموارد القومية "بما يفوق طاقة البلاد على الاحتمال، ومن شأن هذه الأعباء الهائلة أن تبرر جزئياً متاعب تركيا المالية".

ولكن أين ظهرت النتائج التي "تبرر كل هذه التضحيات"؟ في الميدان العسكري وحده والذي احتج بأعبائه أتاتورك فيما سبق للتخلي عن مسئوليات تركيا الإسلامية وإدارة ظهرها لماضيها العثماني الذي أرهقها بجهود فوق طاقتها بزعمه، وعاد الجيش التركي في ظل الولايات المتحدة ليتقدم على جيوش القارة الأوروبية ويستعد لتعبئة لا تقدر عليها بريطانيا ولا فرنسا ولا إسبانيا ولا إيطاليا ولا مجمل الدول التابعة للاتحاد السوفييتي، وأصبح الجيش التركي هو الجيش الأول في أوروبا وبُذل له جهد لا يقل إبهاراً في مجال السلاح الجوي فأصبح له ست قواعد عسكرية وسلاح طيران مؤلف من 400 طائرة مطاردة و25 ألف عنصر مدرب تدريباً فريداً (1960).

وبدلاً من الفتوحات الإسلامية أصبح الجيش التركي يساهم في الفتوحات الأمريكية "بسلوك بطولي" كما فعل في كوريا حيث أذهل اندفاعه الأمريكيين وسقط منه مئات القتلى هناك، وكانت نتيجة كل ما سبق هو الحصول على شهادة التقدير الأمريكية في سنة 1952 إذ "صار في وسع أساتذة البنتاغون أن يفخروا بتلميذهم، فقد اجتاز بتفوق امتحان الدخول" وأبلغ رئيس لجنة قادة الأركان في الجيش الأمريكي، الرئيس التركي أن بلده "يستطيع الجلوس إلى طاولة الأمم الغربية، وبعد أيام... أصبحت تركيا رسمياً عضواً في حلف الناتو، وعنونت الصحف في لندن وباريس ونيويورك : أقوى جيش في أوروبا ينضم إلى الحلف الأطلسي"[2].

(2) جاك بنوا ميشان، الملك سعود: الشرق في زمن التحولات، دار الساقي، بيروت ولندن، 2010، ترجمة: نهلة بيضون، ص97-101.



الجيش التركي في حرب كوريا (1950–1953) تخلى
عن الفتوح الإسلامية وأصبح يشارك في الفتوح الغربية

أي أن أتاتورك تحجج بالأعباء العسكرية للتخلص من هوية تركيا الإسلامية ليعود خلفاؤه للانغماس في هذه الأعباء وأن يكون كل شعبهم "صالحاً للخدمة العسكرية"، ولكن في سبيل الغرب الذي منحهم المساعدة وشهادة التقدير على أن يظل ذلك محصوراً في أداء المهمة المرسومة، وفي الوقت الذي وصلت فيه اليابان بالمساعدة الأمريكية إلى أعلى مراكز النخبة الصناعية في العالم، ظلت تركيا في فناء الغرب الخلفي تؤدي الخدمة لمصالحه في حلف الأطلسي دون السماح لها حتى بدخول الاتحاد الأوروبي الذي دخله متسوّلو أوروبا دون استثناء، وتحجج الأوروبيون حين لم يتحدثوا عن العائق الديني بالخوف من طوفان الهجرة التركية مع أنهم سمحوا لكل مشردي أوروبا بالانضمام لاتحادهم.

3 - التعليم في المستعمرات لغايات استعمارية محددة:

يضرب التعليم الذي جاء به الاستعمار، والذي يحتج به أنصار المدرسة الاستعمارية على مزايا التطوير الاستعماري، مثلاً معاكساً واضحاً على خضوع مسئوليات المستعمِر المفترضة لمصالحه وحاجاته الذاتية التي تستهدف في النهاية الحصول على خضوع المستعمَر، وتتضح هذه الحقيقة في الكتل المستعمَرة الكبرى، ففي إفريقيا مثلاً، حيث خضعت معظم القارة للهيمنة الاستعمارية وفي البلاد "التي لم يكن بها تراث تعليمي أو تلك التي كان نقل المعارف يتم فيها تراثياً عن طريق النقل الشفهي، فإن الاستعمار لم يدخل عليها تعديلات تُذكر: ففي إفريقيا الفرنسية كلها لم يكن هناك سوى ثلاثمائة يحملون شهادة الابتدائية في عام 1940 ولم تكن تتعدى نسبة التعليم الابتدائي بها 5% في عام 1945، وبلغت في عام 1960 في المتوسط 10% من سكان مجموعة بلاد الساحل تحت الوصاية الفرنسية، وفي المغرب، في عام 1956، كان أقل من 12% من الأولاد في سن الدراسة ملحقين بالإطار التعليمي الحديث، وأما الجزائر ذلك الجزء الذي لا يتجزأ من فرنسا فلم يكن بها سوى 20% من الأطفال بالغي سن الدراسة ملحقين بالمدارس في عام 1961، أما الكوادر التعليمية في الثانوي والعالي فقد ظلت هامشية حتى الخمسينيات والستينيات في الشمال الإفريقي والبلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى فيما عدا جنوب إفريقيا التي كان سكانها البيض جميعاً في المدارس، والواقع أن نسب التعليم لم تبدأ في الارتفاع بسرعة إلا بعد الاستقلال، يجدر بنا إذن أمام هذه الأرقام أن نقلل نسبياً من الحماس الحضاري للعمليات الاستعمارية التي لم تعمل في أي بلد من البلاد على جعل التعليم ديموقراطياً... فلنسجل أن الحضارة كانت لا تعطي سوى بأقل مقدار للذين يفترض بأنها غمرتهم بفوائدها" كما تقول الكاتبة ذات الأصول التونسية اليهودية صوفي بيسيس[3]، وكلامها عن ارتفاع

---

(3) صوفي بيسيس، الغرب والآخرون: قصة هيمنة، دار العالم الثالث، القاهرة، 2002، ترجمة: نبيل سعد، ص132-133.

مستوى التعليم بعد الاستقلال يؤكد أن ثمرات الحضارة يمكن أن يحصل عليها المستعمَر دون الحاجة لوجود الجيوش الغريبة على أراضيه والتي اتخذت من قدرتها "الحصرية" على جلب الحضارة "للمتخلفين" مبرراً لاستعمارهم، ولكن هاهم يؤدون في تلك المهام أفضل من أدائها، فما هي الحاجة إلى وجودها ثقيل الظل؟ وسنرى أن هذا الأداء في البلاد التي ظلت مستقلة لم يكن بحاجة إلى الإدارة الاستعمارية لتطلقه وأن فورات التعليم حدثت دون وجود جيوش استعمارية في دول هامة.

ولم ترغب فرنسا في تكرار "الخطأ" الذي وقعت فيه بريطانيا في الهند كما سيأتي ففككت عند بداية الاحتلال نظام التعليم الجزائري وأصبح المجتمع باعتراف الكاتب الفرنسي الشهير أليكسيس دي توكفيل أكثر جهلاً وبدائية عما كان عليه قبل الفرنسيين، ومن أمثلة الأرقام الدالة أنه في سنوات نهاية الاستعمار الفرنسي (1945) كان عدد الطلاب الجزائريين المسلمين في جامعة الجزائر (افتتحت سنة 1879) 150 فقط من ضمن خمسة آلاف[4]، ويجب أن نتذكر جيداً أن الثمن الذي دفعته الجزائر لهذا العدد الضئيل من المتعلمين كان استشهاد مئات الآلاف من المدنيين في العدوان عليها قبل هزيمة الأمير عبد القادر رحمه الله[5]، هذا فقط في بداية الاستعمار دون الدخول فيما بعد وفي شهداء الثورات المتلاحقة التي توجت بالثورة الكبرى ذات المليون ونصف المليون شهيد حين أحس الجزائريون أن سلبيات الاستعمار تطغى على كل "إيجابياته" رغم الشعارات البراقة من جانبه ورغم المحاولات الحثيثة التي بذلها كثيرون في سبيل الاندماج بفرنسا دون جدوى، وكان سؤال الوطنيين في النهاية رداً على دعوات التجنيد في جيش فرنسا في الحرب الكبرى الثانية: "لم تعطنا فرنسا شيئاً، فلماذا نموت

---

(4) Charles Issawi, An Economic History of the Middle East and North Africa, Routledge, London and New York, 2010, pp. 111-113.

(5) يوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2011، ترجمة: محمد إبراهيم الجندي، ص153.

في سبيلها؟»[6]، وهو شعار يلخص المشاعر تجاه الاستعمار في أيامه.

أما عن سبب تلك المحدودية التي انتشر بها التعليم الاستعماري فهو يتضح من أهداف الاستعمار من عملية التعليم والتي لم يكن تطوير المستعمرة من ضمنها، وعن هذه الأهداف يتحدث الدكتور والتر رودني فيقول إن الهدف الرئيس لبناء المدارس في المستعمرات هو تدريب الأفارقة لتوفير الموظفين للإدارات المحلية والشركات الأوروبية، ولم يكن النظام التعليمي نابعاً من البيئة الإفريقية ولا استهدف التطوير المادي والاجتماعي أو إعطاء الشباب ثقة بأنفسهم بل حاول غرس الإذعان في نفوسهم[7]، وإن الاستعمار الفرنسي مثلاً أدرك أنه لابد من افتتاح بعض المدارس في المستعمرات الفرنسية بإفريقيا لغرس اللغة والثقافة الفرنسيتين في بعض الأفارقة لتتوحد هويتهم اللغوية والدينية مع فرنسا أكثر من بريطانيا أو البرتغال أو أي منافس أوروبي آخر، كما كان التعليم لازماً لإيجاد الكوادر الإدارية التي تسهل عمل الإدارة الاستعمارية وجعل العمال أكثر كفاءة في خدمة الاستيطان الفرنسي وبث الطاعة بين الجماهير الإفريقية بواسطة تلك الكوادر وبنشر لغة المستعمِر لإزالة الحاجز اللغوي الذي يفصل المستعمِرين عن المستعمَرين، ومما أداه أيضاً تلبية الاحتياجات الاقتصادية كالنجارة وصناعة الأحذية للمستعمِرين بعيداً عن حاجات المجتمعات الأصلية، كما أدى التعليم مهمة وصل الكوادر الإدارية الاستعمارية بجماهير الأفارقة عن طريق تدريب أبناء الزعماء التقليديين الذين تتبعهم هذه الجماهير، وكان من الضروري ربط المستعمرات بالبلد الاستعماري برابطة نفسية صلبة ليصبح الأهالي فرنسيين في اللغة والتفكير والروح في اليوم الذي ينتهي إليه سعيهم للتحرر، وعندما أدرك المستعمِرون اقتراب نهايتهم توجهوا إلى الكوادر التي اختلقوها فسلموها مقاليد الحكم لضمان استمرار الولاء للدولة الاستعمارية،

---

(6) مارك فرو (تحرير)، الاستعمار الكتاب الأسود (1600-2000)، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ترجمة: محمد صبح، ص519.

(7) د. والتر رودني، أوروبا والتخلف في إفريقيا، سلسلة عالم المعرفة (132)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1988، ترجمة: د. أحمد القصير، ص352.

"وفي ظل الأوضاع الإفريقية نجد أن كل من التحق بالمدرسة في فترة الاستعمار قد انضم فعلاً إلى الصفوة، وذلك لأن الأعداد التي تمتعت بهذا الامتياز كانت ضئيلة حتى على مستوى المرحلة الابتدائية"، وقد أوجد المستعمِرون إداريين ومعلمين وضباطاً وموظفين من أجل الحفاظ على العلاقات الاستعمارية واتخذوا إجراءات لضمان استمرار هؤلاء الأشخاص في الإمساك بزمام الأمور في المستعمرات بعد الاستقلال[8].

وإن هذا السرد الذي قد يُتهم بالأحادية وإغفال منافع التعليم إنما يتبع ما حققه النظام التعليمي الاستعماري وفق ما حدده لنفسه، أما المنافع الأخرى غير المقصودة فلا يمكن أن تعزى إلى التربويين الاستعماريين بل تمت على الرغم منهم وبفضل جهود ونضال الأفارقة[9]، ويشير كثير من المؤرخين إلى كون النتائج الإيجابية للتعليم لم تكن من مقاصد الاستعمار[10]، وسنرى أن هناك نتائج من المؤكد أنها كانت غير مقصودة في تعليم الهنود الحمر في أمريكا، وفي النهاية لم نر ما يتحقق كاملاً إلا ما قصده المستعمِرون من العملية التعليمية، أما التطور والتقدم على غرار السادة المستعمرين فمازال بعيد المنال جداً، إذ كانت نسبة الجهل في إفريقيا عند الاستقلال تتراوح بين 80-85%، فانبرى الأوروبيون لوصف الأفارقة بالأمية الفطرية مع أنهم هم أنفسهم الذين يتباهون بكونهم علّموا إفريقيا[11]، ولا يمكن فهم طريقة الجمع بين التبريرين سوى من باب الهوس بإطراء الذات مهما كانت الحقائق الداعمة هزيلة.

وقامت بريطانيا بمحاولة مشابهة في مستعمرتها الأثيرة في الهند، وكان مهندسها هو توماس مكولاي في مذكرته التربوية سنة 1835 والتي يلخص

---

(8) نفس المرجع، ص372-382 و400.

(9) نفس المرجع، ص382.

(10) Robert Aldrich (Ed), The Age of Empires, Thames & Hudson, London, 2007, p. 147.

- مارك فرو، ص23.

(11) د. والتر رودني، ص359-360.

فلسفتها قوله إن "علينا أن نبذل قصارى جهدنا لنربي طبقة تترجم ما نريد للملايين الذين نحكمهم، طبقة من أشخاص هنود الدم والبشرة، لكنهم إنكليزيو الذوق والأفكار والتوجه والأخلاق والعقل"، والوسيلة لذلك فتح مدارس مجانية لتعليم اللغة والدين لأن "اللغة الإنكليزية ليست مجرد وسيط للمعرفة والنور بل هي أولاً وأخيراً طريق الإيمان ببريطانيا" (هل نلمس هذه الحقيقة في أجيالنا الحديثة؟)، وكان الهدف هو "كسر العمود الفقري" للهند والمتمثل في لغته وثقافته وتراثه الروحي لإيجاد رجال يفكرون ويتكلمون بروح إنكليزية ينظرون إلى المستعمرين من خلال الأدب واللغة الاستعمارية فلا يعدونهم غرباء "لأنهم تعلموا ما تعلمنا واهتموا بما اهتممنا والتزموا بما التزمنا" وسيتغير من ثم اتجاه العقل الهندي وسيكف عن السعي للاستقلال لأن المحتلين أصدقاؤه ومعلموه وليسوا أعداء مغتصبين[12]، وبالطبع كانت أرواح الأجداد الآريين حاضرة لتبرير الحقوق التاريخية للإنجليز في الهند والتي تناديهم لإحياء الحضارة الآرية التي شوهها اجتياح المسلمين البرابرة[13] كما كانت نفس الأرواح حاضرة لتبرير وجودهم في أمريكا أيضاً بدلالة بعض القبائل الهندية الشقراء، كما كانت الأصول الإفريقية حاضرة لتبرير قيام الكيانات الاستعمارية الغربية في ليبيريا وسيراليون، وكما كانت أرواح بني إسرائيل حاضرة لتبرير "الحقوق التاريخية" للصهاينة في فلسطين، إذ كلما طمع المستعمرون بأرض، اكتشفوا وجود "أجدادهم" فيها منذ الأزل والذين مازالت أرواحهم تنادي الأحفاد للعودة والقضاء على "المغتصبين" الذين هم السكان الأصليون، ويا للصدف السعيدة (!)

المهم أن كل هذه الجهود التعليمية لم يكن القصد منها أكثر من إيجاد سماسرة التبعية لبريطانيا ولم تكن نيتها ومن ثم لم تكن نتيجتها التطوير الحضاري للهند على غرار بريطانيا بدليل أنه في الوقت الذي كان يجري فيه

(12) منير العكش، أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الإنكليزية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2009، ص101-107.

(13) نفس المرجع، ص104-105.

إعداد الكادر الوظيفي والثقافي في العملية التعليمية كانت تجري عملية القضاء على الصناعات الهندية التي نافست الصناعة البريطانية، وهي سمة سنجدها في مصر أيضاً حيث سيعمل الإنجليز على عرقلة نمو الصناعة المصرية لعدم منافسة الصناعة البريطانية وسيصرح المعتمد البريطاني بشكل واضح لا لبس فيه إنه لا يضع في حسبانه إلا المصالح التي يمثلها وسيستمر على هذا النهج[14]، وذلك عندما كان ما يزال مندوباً عن حملة سندات الدين المصري في إدارة الدين العام في مصر بعد إعلان الإفلاس (1875)، وبعد ذلك كان يحتكر تحديد مصلحة مصر من وجهة نظره الفردية[15]، وكان ذلك كما مر لخدمة المصالح التي يمثلها في عرقلة الصناعة المصرية.

وعن التعليم في مصر تحت الاحتلال البريطاني تشير المراجع إلى أن الحاكم البريطاني اللورد كرومر (1883-1907) كان يحتقر أهل مصر ويعدهم غير قادرين على حكم أنفسهم ومن جنس الرعايا، وبعدما لمس "مخاطر" التعليم في الهند على "الاستقرار" بتخريج طبقة من المثقفين الناقمين بسبب الأفكار التحررية اعتقد مع مجموع البريطانيين استحالة استفادة أبناء المستعمرات من التعليم البريطاني، فأصبحوا غير جديرين حتى بنموذج محو الهوية والاندماج الذي دعا له مكولاي، فلم يأبه الاحتلال البريطاني بتكوين نخبة تتمسك بالثقافة البريطانية على غرار ما فعلته فرنسا بإفريقيا، وقرر ألا يكرر التجربة الهندية في مصر وأن يقصر التعليم على الأساسيات ومتطلبات الإدارة الحاكمة[16]، ولهذا لم يكن من العجيب ألا يهتم بتطوير التعليم وأن تكون نسبة مخصصاته المالية من مجموع الميزانية منخفضة جداً وأن يوجهه نحو المجال الفني وأن تنخفض نسبة المتعلمين في نهاية عهده عما كانت عليه قبل الاحتلال، فقد ألغى التعليم المجاني المعمول به قبل الاحتلال وفرض رسوماً مدرسية بشكل متزايد وتمسك

---

(14) روجر أوين، اللورد كرومر: الإمبريالي والحاكم الاستعماري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ترجمة: رءوف عباس، ص170 و414-418.

(15) نفس المرجع، ص414.

(16) Charles Issawi, p. 113.

بسياسة الحد من عدد الخريجين المصريين حتى في ظل عدم كفاية عددهم لمتطلبات الجهاز التعليمي إذ أن التوسع في التعليم خارج إطار النخبة سيوجد طبقة من الفائضين تهدد الاستقرار بسبب نقمتها على عدم توفر الوظائف لأفرادها، وكان "يحتقر لدرجة الإهانة أولئك القلة من المصريين من الذين استطاعوا إنهاء دراساتهم الجامعية في الخارج وعادوا لمصر وقد "تأوربوا" "، وفي عهده قلص وجود المصريين في الرتب العليا في المرافق العامة "بشكل كبير مقارنة مع مراتب الإنكليز والأوروبيين التي فاقتها بنسب عالية"[17]، ولهذا اتحد المصريون حتى الموالين للاحتلال منهم في الهجوم على تلك السياسة البريطانية في التعليم، وأتى الهجوم عليه حتى من البريطانيين أنفسهم، ويوجز أحد المؤرخين إنجازات كرومر بالقول إنه رغم إدراكه لأهمية التعليم في بلد كمصر فإن ما تحقق في الميدان كان قليلاً وكانت المنجزات بالغة الضآلة وأن هرم التعليم كان مقلوباً أهمل فيه التعليم الابتدائي لصالح الاهتمام بعدد من المدارس العليا للنخبة وفقاً لتقرير لجنة ميلنر البريطانية[18].

ويقول أحد المؤرخين إنه من المجمع عليه أن التعليم الاستعماري البريطاني والفرنسي كان يفسح المجال لقلة من الطلبة للوصول إلى التعليم الجامعي، أما التعليم البلجيكي فكان يشجع على تهيئة الطلاب لسوق العمل بواسطة القراءة والكتابة الأساسيتين وبعض التدريب المهني واحترام أخلاق العمل، ولم يكن الإنفاق كبيراً على التعليم، إذ أخذ 3% فقط من الميزانية العامة، وكان راتب المدرس ضئيلاً، وحتى الخمسينيات كان التعليم العالي محصوراً بمراكز قليلة تؤهل الطلبة للوظائف الفنية المساعدة والكتابية[19].

---

(17) بيتر مانسفيلد، تاريخ الشرق الأوسط، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ترجمة: أدهم مطر، ص160 و162.

(18) نفس المرجع، ص157-162.

- ز. ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، دار الحقيقة، بيروت، 1973، ترجمة: مصطفى الحسيني، ص154.
- روجر أوين، ص419-422 و475.

(19) Robert Aldrich, p. 235.

ولم يقدم الإيطاليون شيئاً تقريباً إلى التعليم في ليبيا، وبعد الحرب الكبرى الثانية لم يكن فيها سوى رجلين يحملان شهادة جامعية وفقاً لتقرير الأمم المتحدة آنذاك[20]، كما تجنبوا عمداً القيام بتطور تعليمي مفض إلى تكوين نخبة متعلمة على الطريقة الغربية في إرتريا خوفاً على استقرار المستعمرة[21].

أما التعليم الهولندي في إندونيسيا فقد تقدم في ظل رعب الحكومة الاستعمارية من تصاعد المد الاشتراكي ونشاط نقابات العمال، ولكن النوايا كانت ملتبسة بين إرادة التطوير الاجتماعي أم مجرد الحصول على يد عاملة مؤهلة لضمان كفاية الإنتاج، و"على الرغم من هذه الإرادة الطيبة في الظاهر فإن الدولة لم تكن تقوم بأي جهد تقريباً لتطوير بنى التعليم في جزر الهند، وظل مستوى التعليم لدى الإندونيسيين منخفضاً جداً"، ولم تكن هناك جامعات في جزر الهند وكان على راغب التعلم أن يتكلف السفر إلى هولندا، ووقف في وجه طموحه للحراك السياسي والاجتماعي تصميم الأوروبيين على إبقاء الحكومة في أيديهم وعدم قبولهم ابن البلاد في صفوفهم "حتى ولو كان متعلماً ومثقفاً" رغم تظاهرهم بالمساواة "وليس للمجتمع الأوروبي هكذا عدو ألد من ابن البلاد الذي رباه وكاد يرفعه إلى منزلته، دون أن يفتح له مع ذلك المجال للانضمام إلى صفوفه"[22].

وفي سنة 1952 عبر وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن عن التوجه البريطاني تجاه التعليم في المحميات الخليجية بإبداء مخاوفه من انتشار التعليم في المشيخات النفطية الثلاث: الكويت والبحرين وقطر، لأن انتشاره سيتيح المجال لاطلاع الشباب على الصحف العربية المناهضة لبريطانيا لاسيما الصحف العراقية، بالإضافة إلى الاستماع إلى الإذاعة المصرية[23]،

---

(20) Charles Issawi, pp. 112-113.

(21) Robert Aldrich, p. 259.

(22) مارك فرو، ص265.

(23) الدكتور علي محافظة، بريطانيا والوحدة العربية 1945-2005، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، ص128.

ولعل هذا التوجه هو الذي يفسر تواضع الإنجازات التعليمية في تلك المشيخات تحت الحماية البريطانية.

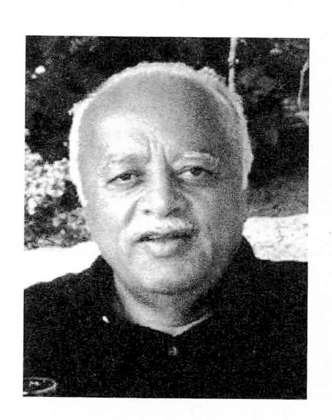
وفي البلاد التي عرفت نهوضاً تعليمياً نسبياً يورد أحد المؤرخين إحصاءات عن العراق والأردن حيث الهيمنة البريطانية في نهاية الثلاثينيات تكشف أن عدد الطلبة في المدارس كان يتراوح بين 10-15% فقط من عدد من هم في سن التعليم[24]، أما في فلسطين الانتدابية فلم تختلف الأوضاع كثيراً إذ كان عدد الطلبة العرب في مدارس الانتداب سنة 1930 لا يتجاوز 18% ممن هم في سن الدراسة، رغم أن النسبة كانت ستزيد كثيراً لو تم قبول كل المتقدمين طلباً للتعليم فضلاً عما كان سيحدث لو كان التعليم إجبارياً، أما الطلبة اليهود فكانت نسبتهم 88% من اليهود في سن الدراسة، وهو ما يوضح أولوية إنشاء الوطن القومي اليهودي الذي لم يكن هدفاً مخفياً، وكان متوسط ميزانية التعليم 5% من مجموع الميزانية، أما ميزانية الدفاع فتراوحت بين 20% -60% [25]، مما يوضح الهدف من وجود بريطانيا في فلسطين وأنه على الأقل لم يكن بهدف نشر الحضارة والتعليم(!)

وقد عارضت الإدارة البريطانية بكل قوتها تأسيس جامعة عربية على غرار الجامعة العبرية التي تم افتتاحها بالقدس سنة 1925، وهذا مثل واضح على تسخير التعليم لصالح الغايات الاستعمارية، وقد وقعت مشادة في الأمم المتحدة سنة 1948 بين الأستاذ أحمد الشقيري الذي ترأس وفوداً عربية وبين الوفد البريطاني وخبرائه القانونيين على القضية الفلسطينية ومظالم بريطانيا استناداً إلى القانون الدولي، فخاطب رئيس الوفد البريطاني بعدما خرج عن وقاره الأستاذ الشقيري بقوله: "ألا ترى أنه كان للإنكليز فضل كبير في فلسطين، وها قد أصبحْت في المحافل الدولية تجادل عن معرفة واسعة في القانون الدولي؟" فأجابه الشقيري رحمه الله: "وما نفع القانون

(24) ز. ي. هرشلاغ، ص309-310.

(25) الدكتور محمد عرابي محمد نخلة، تطور المجتمع في فلسطين 1920-1948، ذات السلاسل، الكويت، 1983، ص333 و341 و351 و375.

الدولي إذا كان صاحبه قد أصبح لاجئاً؟" ، فانصرف الإنجليزي "لا يملك جواباً"[26]، وهذه هي معضلة كل التنمية والبنية التحتية التي صنعها الاستعمار في فلسطين ثم سلمها للصهاينة الذين طردوا أهلها منها، ثم كان التعليم تحت الاحتلال الصهيوني وسيلة لدفع الخريجين الفلسطينيين في الضفة الغربية لمغادرة بلدهم حيث لا يجدون فرص العمل المناسبة كما سيأتي في الحديث عن الحياة تحت الاحتلال في فلسطين، مع ملاحظة أن الكيان الصهيوني لم ينفق قرشاً واحداً على بناء الجامعات، إلا في حالة الجامعة الإسلامية في الخليل حيث كان هدف بنائها سياسياً وليس تنموياً.



الأستاذ أحمد أسعد الشقيري (1908–1980) أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية كان من النخبة التي تلقت أعلى درجات التعليم المتاح في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين وتمكن بذلك من أن يصول ويجول في المحافل العربية والدولية دفاعاً عن القضية الفلسطينية ولكن الثمن الذي دفعه للحصول على هذا التعليم كان باهظاً جداً لأنه كان ترك وطنه الذي شُرد منه وأصبح لاجئاً وهذه هي معضلة كل الإجراءات البريطانية "الإيجابية" في فلسطين التي سُلمت برمتها للصهيونية ولم ينتفع الفلسطينيون بشيء مما بناه المستعمرون

والخلاصة أنه رغم كون التعليم هو "الإرث الأكبر الذي خلفته الإمبريالية" ، فإن من انتفعوا به كانوا قلائل من المحظوظين[27]، وذلك لسبب بسيط وهو أنه لم يستهدف التطوير العام للمستعمَر بل استهدف غايات لصالح المستعمِر وحده وهذا من أمثلة ما يصنعه التضارب في المصالح بين القوي المهيمن الذي يدعي تقديم الخدمة والضعيف ضحية هذه النوايا "الخيرة" (!)، وسنرى فيما بعد أنه كان بإمكاننا الحصول على منافع هذه

(26) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ج1 (المذكرات–1) ص638 (أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية ص536).

(27) إريك هوبزباوم، عصر الإمبراطورية (1875–1914)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011، ترجمة: فايز الصياغ، ص162.

"الخدمة" الاستعمارية لو تركنا الاستعمار نتطور ذاتياً دون تطفله وأننا كنا بصدد هذا التطور بالفعل.

وعلى الجانب الاستعماري وجدنا دول الاستعمار تستخدم التعليم لتفكيك المجتمعات المعادية، كما فعل التعليم الأجنبي في الدولة العثمانية، ولعل المثلين الأرمني والعربي يوضحان المقصود، وفي ذلك يقول مؤرخ صهيوني بشماتة واضحة إنه يجب عدم نسيان أن المفهوم القومي في البلاد العربية قد اخترق الشرق "بمساعدة مدارس الإرساليات وكلياتها، التي كان الكثير منها أمريكياً، ووبخ جمال باشا، والي سوريا، القنصل الأمريكي في دمشق قائلاً: أنا أدري لماذا الأتراك مكروهون في هذا البلد، فالكلية السورية البروتستانتية تولد الاحتقار للأتراك، والكتب التي تدرسها تلك المؤسسات تبث تلك الروح"[28].

وهذا هو نفس الأثر الذي تركه التعليم الأجنبي على الأقليات المسيحية التي عاشت قروناً في انسجام مع الغالبية المسلمة، وذلك وفقاً لعدة مؤرخين أشاروا إلى تأثير المبشرين الذي وصفه بعضهم بالمدمر[29]، وأنهم علموا تلاميذهم شعور التفوق والتماثل مع قوى الاستعمار الأوروبي فتاقوا إلى تحويل نجاحهم الاقتصادي داخل الدولة العثمانية إلى نجاح سياسي[30]، وهو الاستقلال الذي لم يكن الغرب ليسمح به في دواخله هو

---

(28) مايكل أورين، القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ عام 1776 حتى اليوم، كلمة، أبو ظبي، وكلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2008، ترجمة: آسر حطيبة، ص359.

(29) Salahi Ramsdam Sonyel, The Ottoman Armenians, K. Rustem & Brothers, London, 1987, p. 6.

- مصطفى كامل باشا، المسئلة الشرقية، مطبعة اللواء، القاهرة، 1909، ج 2 ص184-185.
- Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge University Press, 2002, p. 202.
- Jeremy Salt, Imperialism, Evangelism and the Ottoman Empire 1878-1896, Frank Cass, London, 1993, p. 153.

(30) جستن مكارثي، الطرد والإبادة مصير المسلمين العثمانيين (1821-1922 م)، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2005، ترجمة: فريد الغزي، ص30.

كما أثبتت الحرب الأهلية الأمريكية في نفس الزمن، ولم تكن الدولة العثمانية استثناء فكان ما نجم عنه أنهار الدماء التي سالت من الجانبين فيها، ولكن التاريخ الذي يكتبه المنتصر أشاد بالأمريكيين الشماليين رغم القتل والدمار الذي نجم عن رفضهم استقلال الجنوب، وأدان العثمانيين بسبب الممارسة نفسها.

وعن مقاصد التعليم الأجنبي يقول المؤرخ الأمريكي الصهيوني آنف الذكر إن المبشرين أوصلوا الأناجيل إلى الشرق وكان هدفهم الرئيس تحويل الشعوب المحلية إلى المسيحية وإعادة اليهود إلى فلسطين، ولكنهم بنوا أيضاً المدارس وطبعوا الكتب ونشروا التعليم على الطريقة الغربية، كما أسسوا أول الجامعات في المنطقة التي قدمت مفاهيم الديمقراطية والقومية على النمط الأمريكي[31]، مما جعل هذه المؤسسات، ككلية روبرت في اسطنبول، والكلية البروتستانتية السورية التي أصبحت الجامعة الأمريكية في بيروت، "مستنبتات مهمة معادية لتركيا"، فقد "بدأ العرب والأكراد والأرمن يحلمون ويخططون للحصول على الاستقلال" مما جعل لورنس العرب يرى أن هاتين الكليتين كانتا "دون قصد تماماً" تعلمان الثورة لشعوب الدولة العثمانية[32]، وبهذا يمكننا أن نقارن بين فوائد ومضار أناس قدموا بلادنا لنشر الإنجيل فمهدوا لقيام الكيان الصهيوني وفتتوا مجتمعاتنا وحصلنا في المقابل على بعض الشهادات العلمية منهم، ولعل ذلك يشبه إفادة أهل فلسطين من تعليم الانتداب البريطاني في مواجهة ظروف التشرد والشتات التي صنعها ذلك الانتداب نفسه[33].

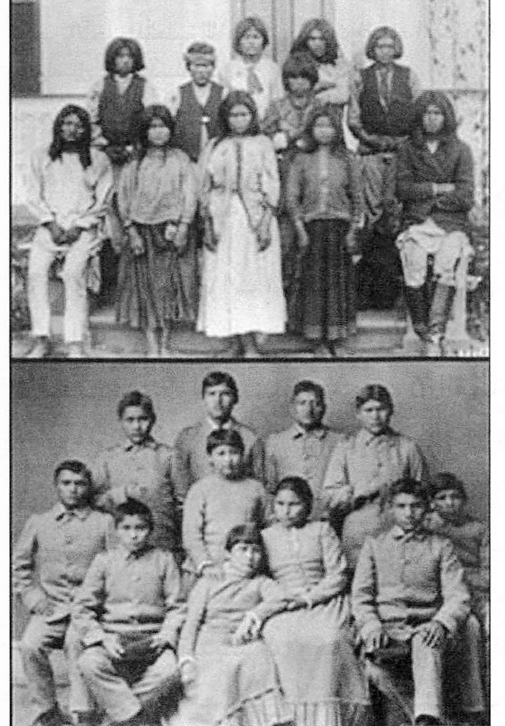
وأما التعليم الذي حاولت الولايات المتحدة فرضه على أبناء السكان الأصليين فقد كان هدفه أيضاً تفكيك المجتمعات الأصلية وفق شعاره "قتل

(31) مايكل أورين، ص580.

(32) دوجلاس ليتل، الاستشراق الأمريكي: الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ 1945، المركز القومي للترجمة، 2009، ترجمة: طلعت الشايب، ص65.

(33) Charles Issawi, p. 78.

الهندي وإنقاذ الإنسان" أي تخليص الهندي من كل ما له علاقة بهويته وجعله إنساناً آخر، وهو ما وصفه أحد المؤرخين بالتعليم من أجل الإبادة، وجسدت هذه الفلسفة المدارس الداخلية التي أرسل إليها أبناء الهنود ووصف بعض المؤرخين الأعمال الوحشية التي كانت تمارس فيها ضد الصغار بأنها إبادة جماعية راح ضحيتها نصف التلاميذ الذين دخلوا هذه المدارس، أما الذين ظلوا أحياء فخرجوا منها بجروح نفسية عميقة شوهت حياتهم من جراء التعرض للإهانات النفسية والجسدية وذلك لأن سياسة الإبادة التي اتبعت في هذه المدارس جعلت من الإهانة المستمرة سياسة متبعة تهدف إلى الحط من شأن الهندي وفي نفس الوقت لم تؤد إلى بناء خيار آخر وذلك مثل كل السياسات الحكومية في ذلك الوقت والتي أفقدت الهندي ما في يده ولم تعوضه ببديل عنه (الملحق الرابع)، وقد وجدنا من نتائج التعليم الأمريكي غير المقصودة اندماج أبناء القبائل الهندية المختلفة في أجواء متقاربة مما شجع نمو روح الوحدة الهندية الشاملة بينهم وهذا مثل واضح على النتائج غير المخطط لها في نظام وجد أصلاً لمحو الهوية الهندية[34].



الصور الدعائية التي نشرت عن تحسن أحوال أبناء الهنود في المدارس الداخلية: مجموعة من طلبة قبيلة الآباتشي في أول يوم دخلوا فيه المدرسة وبعد أربعة أشهر.

---

(34) http://ragazine.cc/2013/03/amerindian-schools (27/8/2014).



الوجه الآخر للتعليم الأمريكي: مقابر أبناء الهنود الحمر في إحدى المدارس الداخلية الرئيسة (كارلسيل في بنسلفانيا) في سنة 1885[35]

4 - مشاريع البنية التحتية في خدمة الأغراض الاستعمارية:

ونجد التطويرات الاستعمارية الأخرى كذلك بدرجات محسوبة بدقة لخدمة الأهداف المتعلقة بفائدة المستعمِر وحده، ومن ذلك مثلاً ما يلاحظه الخبير الاقتصادي شارل عيساوي من كون القطاع الزراعي هو القطاع الاقتصادي الأكبر في الشرق ومع ذلك فهو القطاع الأقل تغيراً بكثير من بقية القطاعات، وأن التحول نحو زراعة محاصيل التصدير تجاوباً مع رغبات الاقتصاديات الاستعمارية لم يؤد إلى تغيرات تقنية كبرى، وفي معظم الحالات أمكن مواءمة تلك المحاصيل التجارية مع الطرق الزراعية التقليدية بأدواتها ووسائلها القديمة، وكانت زراعة القطن في مصر والسودان هي الاستثناء الأهم في ذلك إذ اقتضت مشاريع ري كبرى كالسدود

---

(35) نفس المرجع.

والخزانات[36] والتي استهدفت في النهاية توفير ذلك المحصول لمصانع بريطانيا على حساب الصناعات المحلية في المستعمرات، وكانت سياسة الاحتلال البريطاني في مصر قائمة على دعم "نوع وحيد من الأشغال العامة وهو الري"[37].

أما الاحتلال الفرنسي للجزائر فقام بالفعل بإنجازات تطورية، ولكن من استفاد منها هم المهاجرون الأوروبيون الذين استوطنوا البلاد التي ألحقت بالبر الفرنسي، ويقول الباحث الاقتصادي المعروف شارل عيساوي وهو بالمناسبة لا يكن عداء للغرب: "إن تجربة شمال إفريقيا تظهر أن السيطرة الأجنبية المباشرة يمكن أن تقود إلى تطور كبير في الموارد بفوائد قليلة جدا للسكان الأصليين"[38]، وعن مشاريع الطرق البرية مثلاً فإننا نجد فرنسا تنشئ في الجزائر طرقاً رئيسة "لتسهيل السيطرة والعمليات العسكرية، وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر كانت الجزائر تملك شبكة طرق جيدة خدمت الأهداف العسكرية والاقتصادية[39]، وإذا كانت الأهداف العسكرية معروفة فإن الأهداف الاقتصادية تتضح من كون ما يقارب 38% من الأراضي المزروعة ملك 25 ألف مستوطن أوروبي في الوقت الذي يتقاسم فيه أكثر من عشرين ضعف هذا الرقم من الجزائريين بقية الأراضي، ويمتلك الأوروبيون كل كروم العنب بسبب جودة الأراضي التي استحوذوا عليها والتقنية العالية التي استخدموها فيها وكانت نفقاتها تزيد عن نفقات أراضي الجزائريين بعشرات الأضعاف، تماماً كوضع المستوطنات الصهيونية في أراضي الفلسطينيين، وقد اعتمدت فرنسا في إنتاج هذا المحصول بعد دمار زراعته لزمن في البر الفرنسي على شمال إفريقيا، وكان 40% من رأس المال الأوروبي في الجزائر مكرساً له، مما يعطي صورة عن الخدمات الاقتصادية التي كانت مطلوبة من شبكة الطرق[40].

---

(36) Charles Issawi, pp. 118, 129.

(37) بيتر مانسفيلد، ص158.

(38) Charles Issawi, p. 226.

(39) نفس المرجع، ص53.

(40) نفس المرجع، ص126 و140.

وكانت هذه وجهة نظر الوطنيين في المغرب فيما فعلته فرنسا في بلادهم أيضاً: "إن فرنسا كانت تنهب الخيرات من فوسفات وحديد ومعادن أخرى، وقد صممت شبكة السكك الحديدية للمساعدة في نقل هذه المواد الأولية إلى الموانئ ومنها إلى فرنسا"، وهذا ما يقوله الماليزيون عن مطاط الهند الصينية، والإندونيسيون عن نفطهم والأفارقة عن الفول السوداني والكاكاو والبن "حيث تُنهب هذه البلدان بشكل منظم حتى العظم"[41]، ومن مشاريع السكك الحديدية أيضاً ما بناه الإنجليز بين مصر وحيفا وبين بغداد والبصرة أثناء الحرب الكبرى الأولى في الوقت الذي قاموا فيه بتدمير سكة حديد الحجاز[42]، والتي كانت أعظم أهمية للمنطقة ومازالت على حال التعطيل إلى اليوم.

وقد علق جواهر لال نهرو على المفارقة في مشاريع البنية التحتية الاستعمارية بالقول إن "إحدى السمات الأكثر أهمية للهيمنة الإنجليزية في الهند هي أن أكبر الأضرار التي سببها لهذا الشعب تبدو من الخارج نعماً من السماء: سكك حديدية، تلغراف، هاتف، إذاعة...رحبنا بها، فلقد كانت ضرورية، ونعترف لإنجلترا بالجميل لأنها جلبتها لنا، إلا أننا لا يجب أن ننسى أن هدفها الأول تدعيم الإمبريالية البريطانية على أرضنا، إذ تسمح بتشديد الضغط الإداري، والحصول على أسواق جديدة لمنتجات الصناعة الإنجليزية"[43].

وقام الاستعمار الإيطالي بتحديث شبكة الطرق في إرتريا بهدف تسهيل التحركات العسكرية الإيطالية باتجاه إثيوبيا، ثم أراد تهيئة مستعمراته في شرق إفريقيا (إرتريا وجزء من الصومال وإثيوبيا) للاستيطان الإيطالي المكثف ولهذا بدأ بخطة تطوير مدني طموحة[44] تناسب سكنى ملايين الإيطاليين، ولم يكن ذلك كرمى لعيون الأفارقة بالطبع.

---

(41) مارك فرو، ص34.

(42) Charles Issawi, p. 57.

(43) مارك فرو، ص34-35.

(44) Robert Aldrich, pp. 272, 275.

أما في مستعمرة عدن فقد كان الوضع كما وصفه أحد الجنرالات البريطانيين : "الواقع أننا باحتلالنا للمنطقة تصرفنا بطريقة أنانية بالتركيز على تجارتنا، ولم نفعل شيئاً للسكان المحليين، لم نعبّد طريقاً خارج المدينة (عدن)، ومع أننا أقمنا إدارة فضفاضة في البلاد، وبذلنا محاولات ضعيفة لإنشاء مدارس، فإننا لم نسع إلى جمع القبائل المتحاربة في دولة موحدة، أو ندخل تحسينات مهمة في نمط معيشتهم، وكانت النتيجة أن العرب لم يشعروا قط بالولاء لنا، والطريقة الفعالة الوحيدة هي جعل الحكام إلى جانبنا عن طريق رشوتهم بالأسلحة والذخيرة والمال... ولما جاء التحدي المستوحى شيوعياً من الشمال، بدأت السيطرة في الانهيار"[45].

ولما كانت فلسطين مرصودة لبناء الوطن القومي اليهودي كانت مشاريع البنية التحتية موجهة في هذا الاتجاه الذي ربما اتخذ شكلاً براقاً من الخارج ولكنه أضر السكان الأصليين في المدى القريب فضلاً عن البعيد، ولعل شركة الكهرباء الفلسطينية (1921) مثل واضح على ذلك، فقد منحت سلطة الانتداب امتياز توليد الكهرباء لمدة سبعين عاماً لرجل الأعمال اليهودي روتمبرج الذي كان يعمل بتعاون وثيق مع المنظمة الصهيونية، وقد أدى هذا الامتياز إلى جني أرباح طائلة ضاعفت رأس مال الشركة خمسة أضعاف، وكان من حقها استعمال مياه نهر الأردن وروافده لتوليد الكهرباء ومنع المياه عن الناس والأراضي كما تقتضيه طبيعة الاحتكار وطرد العرب من أراضيهم "وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أن مشروع روتمبرج كان وسيلة فعالة وسريعة لتهويد فلسطين، فقد استهدف هذا المشروع...زيادة عدد المصانع اليهودية مما يجعل الحاجة ماسة إلى مزيد من الأيدي العاملة اليهودية لتشغيلها في المصانع، وهو أمر يؤدي إلى زيادة تعداد الأقلية اليهودية لتغدو في قابل الأيام أكثرية يهودية"[46]، ولهذا لم ينبهر أهل فلسطين بهذا التطوير

---

(45) الدكتور علي محافظة، ص216.

(46) دكتور حسن صبري الخولي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، دار المعارف بمصر، 1973، ج 1 ص504-507.

الاستعماري منذ لحظة نشوئه وعارضوا مشروع روتمبرج من البداية(47)، وقد دعم الانتداب البريطاني الاقتصاد الصهيوني كذلك بمنح امتياز استغلال معادن البحر الميت لليهود كذلك (1927)(48)، وكانت شركات الكهرباء والبوتاس والملح في فلسطين الانتدابية كلها يهودية وتسيطر على نحو 90% من نشاط شركات الامتياز في البلاد(49)، ووصلت مساهمة الصناعة اليهودية زمن الحرب الكبرى الثانية إلى 85% من إجمالي إنتاج فلسطين الصناعي(50)، وقد هيمن اليهود على الصناعات الغذائية والنسيجية وصناعة المعادن وكانت مساهمة العرب في بعضها هامشية ولا تتعدى النصف في بعض الجزئيات(51)، وهذا هو معنى التنمية لأجل الآخرين.

ويروي تاريخ السكان الأصليين في الولايات المتحدة أنه رغم الهجمة الساحقة التي تعرضت لها الأراضي الهندية على امتداد أربعة قرون (1492-1890) حتى نزعت من الهنود أوطانهم وحصرتهم في أراض قاحلة لا يرغب فيها أحد، فإن بعض هذه القبائل تمكنت من الحفاظ لبرهة على حقوقها وإيقاف الاجتياح نتيجة تطابق مصالح بينها وبين قطاعات متنفذة في المجتمع الأمريكي، كما حدث بعد هزيمة الهنود في ولاية تكساس في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر ومع ذلك كان من مصلحة رعاة البقر، المتنافسين مع المستوطنين، الحفاظ على المحميات الهندية الواسعة بعيداً عن الاستيطان لتكون مراعي لماشيتهم، وقد تمكن هذا الاتفاق من لجم التوسع الاستيطاني برهة من الزمن(52)، لصالح رعاة البقر ذوي النفوذ بالطبع

---

(47) سحر الهنيدي، التأسيس البريطاني للوطن القومي اليهودي: فترة هربرت صامويل 1920-1925، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2003، ترجمة: عبد الفتاح الصبحي، ص258-261.

(48) دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص507.

(49) الدكتور ماهر الشريف، تاريخ فلسطين الاقتصادي-الاجتماعي، دار ابن خلدون، بيروت، 1985، ص118-119.

(50) نفس المرجع، ص140.

(51) نفس المرجع، ص148.

(52) Benjamin Capps, The Great Chiefs, Time-Life Books, Alexandria-Virginia, 1982, pp. 119, 124.

وليس لأجل الهنود، ولكن في النهاية غلب الطابع الاستيطاني على السياسة الأمريكية وتم الاستيلاء على الأراضي الهندية بعد انتهاء فورة الظاهرة الرعوية.

وعن محصلة مشاريع البنية التحتية الاستعمارية يلاحظ أحد المؤرخين أنها ربطت مستقبل المستعمرات بالدول الاستعمارية حتى بعد مغادرة الاستعمار تلك المستعمرات "فحيثما كان يستقر الاستعمار كانت ترسو معه التكنولوجيا التي يحتاج لها هو أولاً وتنمو تحت إشرافه ولمصلحته، ويشير أرمان ماتلار إلى الأمر قائلاً: "نجد أسطح (أسطع) مثال لانخراط سكك الحديد في المشروع الاستعماري في أفريقيا"، حيث شُقت وبُنيت هذه الأخيرة لربط المراكز الإدارية الواقعة على الساحل بالمناجم داخل البلاد، وقد جاء تبني الحكومات الاستقلالية الحالية لهذه الشبكات دون إدراك منها للأسس التي قامت عليها وللسياسة التي وقفت وراءها، الأمر الذي يؤدي في الكثير من الأحيان إلى هذا التطابق المفارق بين مشاريع هذه الحكومات "الوطنية" ومشاريع الاستعمار التي قامت عليها، ولو بشكل معكوس، فحافظت من حيث لا تدري على منطقها، ويمكن أن نلاحظ هذه الظاهرة في غير بلد إفريقي وآسيوي وجنوب أمريكي اليوم، فالأشخاص يموتون لكن البنى لا تموت"، ولهذا فإن ما زرعه الاستعمار غرس عميقاً في النسيج التحتي وفي المؤسسات الرسمية والخاصة رؤى الخطط الاستعمارية التي تجسدت في البنى وليس في خطابات مجردة ولهذا فإن مفاعيلها تبقى حية في الفكر والممارسة[53].

5 - التنمية المالية لسداد الديون الأجنبية:

تمتعت مصر تحت الاحتلال البريطاني بتنظيم ماليتها تنظيماً لم يحظ به مجال آخر، ويزول العجب عندما نطلع على السبب : "أظهر الميزان السلعي

(53) فردريك معتوق، مرتكزات السيطرة الغربية: مقاربة سوسيو-معرفية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009، ص85.

المصري فائضاً طوال فترة الحكم البريطاني حتى الحرب العالمية الأولى، فكانت قيمة متوسط الصادرات المصرية في 1910-1914 حوالي 32 مليون جنيه مصري وفي الواردات حوالي 25 مليون جنيه مصري، وأُنفق معظم الفائض في الحساب الجاري لمستحقات الديْن السنوية"[54].

وعن تنظيم المالية المصرية يقول الخبير شارل عيساوي إنه تحت الحكم البريطاني حظي الديْن المصري بالأولوية القصوى لأن التخلف عن السداد كان سيؤدي إلى تدخل فرنسا والقوى الكبرى، وقد كان عبء الديون كبيراً إذ اقتطع 40% من ميزانية الحكومة المصرية في البداية ثم أصبح ربع هذه الميزانية، ورغم عدم وقوع إفلاس جديد وتنظيم الإدارة والمالية والري والمواصلات في مصر (أي ما يتصل بالمصالح الاستعمارية المباشرة)، فإن إهمال المجالات الأخرى لاسيما التعليم والصناعة (أي ما لا يفيد الاستعمار) كان له عواقب مشئومة في العقود التالية[55].



اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر (1883–1907) وحاكمها الفعلي، كان شعاره أنه ينفذ المصالح التي يمثلها ولهذا صبت قراراته في سلة المصالح البريطانية في مصر على حساب مصالح المصريين

(54) ز.ي.هرشلاغ، ص165-166.

(55) Charles Issawi, p. 67.

وعن "إنجازات" الاحتلال يقول هرشلاغ إنه فيما عدا المجال المالي والنقدي فإن الحكم الإمبريالي راعى مصالحه الأنانية ولم يبذل أية محاولة جدية للإصلاح ولم يمنح مصر الدفعة الكبيرة نحو انطلاق صناعي حديث[56]، وقد رأينا أنه حتى في المجال المالي كان الاحتلال يراعي مصالحه الأنانية ولهذا فمن الأصح القول إن الحكم الإمبريالي لم يعمل على إفادة مستعمرته خارج إطار فائدته الذاتية.

6 - التطوير غير الغربي يؤكد نظرية الاستغلال الغربي:

يقول المؤرخ أناتول ليفن: "لقد فشلت الإمبراطوريات الغربية فشلاً ذريعاً في تطوير أغلب مستعمراتها، كما يشهد بذلك الانحطاط المأساوي للصناعات الهندية وحصة مشاركتها في التجارة العالمية تحت الحكم الاستعماري البريطاني، وهذا بالطبع لم يكن إلا جزءاً من المسألة، إذ كان الهدف هو جعل المستعمرات أسواقاً مأسورة، وليست منافِسة (تأكيد لفكرة أن الأذى نتج عن الطمع وليس لمجرد الأذى) وهو منهج قلدته إدارة بوش عند توزيع عقود إعادة إعمار العراق بين الشركات الأمريكية الكبرى بدلاً من إسناد ذلك إلى الوزارات العراقية".

"والإمبراطوريات الوحيدة التي نجحت في تطوير ممتلكاتها الإمبراطورية كانت روسيا واليابان، فقد تعاملت معها اقتصادياً على أنها جزء من الإمبراطورية كلها، إن حكم اليابان في تايوان وكوريا الجنوبية، وبالرغم من قسوته الشديدة، (فإنه) وضع أسساً للتقدم الاقتصادي والاجتماعي اللاحق الذي شهدته هذه الدول، وبالمقابل فإن الفيليبين، المستعمرة الأمريكية السابقة في شرق آسيا، هي المثال المقعد في المنطقة والعاجز كلياً اقتصادياً"[57].

---

(56) ز. ي. هرشلاغ، ص166.

(57) أناتول ليفن، أمريكا بين الحق والباطل: تشريح القومية الأمريكية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ترجمة: د. ناصرة السعدون، ص216.

ويلاحظ المفكر نعوم تشومسكي نفس الملاحظة مؤكداً أن اليابان كانت قوة استعمارية وحشية إلا أنها صنّعت وطورت مستعمراتها "بخلاف ما فعل الغرب"، مضيفاً إلى هذا ملاحظة هامة أخرى وهي أن أول استعمار أصاب جزءاً من شمال أوروبا "جعله يحتفظ بالخصائص المميزة للعالم الثالث"[58]، والمقصود هو إيرلندا التي وقعت تحت الاحتلال الإنجليزي، ويشير المؤرخ هاري ماجدوف إلى أن الحكم البريطاني حال "دون الإيرلنديين والنمو الصناعي، وتم توجيههم نحو اقتصاد يقوم على تصدير الحبوب"[59].

7 - محاربة الشر بعد انتهاء صلاحيته وقضاء الوطر منه تمهيداً لشرور جديدة:

تزخر الكتابات المبهورة بالغرب وإنجازاته بذكر بعض المحاسن التي قام بها ضد بعض الممارسات السلبية كالرق والاستعمار، وتنسى هذه الآراء أن محاربة تلك السلبيات التي كانت غربية بالدرجة الأولى لم تتم إلا بعدما قضى الغرب وطره منها وبعدما زالت صلاحيتها في برامجه لاسيما عندما تعلق الأمر بالمنافسة بين القوى الاستعمارية ذاتها، ولعل أبرز قضيتين طرحتا في هذا المجال هما إلغاء الرق وإزالة الاستعمار.

أ - إلغاء الرق:

وهو أمر حدث بعد قرون طويلة من استغلال الغرب بشكل رئيس البشر في إفريقيا وتسخيرهم في بناء التراكم الاقتصادي لنهضة أوروبا وأمريكا، وحدث الإلغاء تدريجياً في القرن التاسع عشر بدءاً من بريطانيا وانتهاء بالولايات المتحدة، أما عن بريطانيا فإننا نجد أنه "في ظل الهيمنة

(58) نعوم تشومسكي، قوى وآفاق: تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، 1998، ترجمة: ياسين الحاج صالح، ص63.

(59) هاري ماجدوف، ص42.

المتصاعدة للرأسمالية الصناعية، كان ثمة تفضيل متزايد لاستخدام العمالة الحرة على استخدام عمل العبيد"، وأن هذا التفضيل تم في إطار التغيرات الاقتصادية التي حتمت التضحية بالعبودية على مذبح أشكال جديدة من الإنتاج، أما في المناطق التي لم تحدث فيها هذه التغيرات، كالجنوب الأمريكي مثلاً، فقد استمر الرق وشهد تصاعداً ملحوظاً رغم أن العبودية لم تعد متوقفة على النخاسة[60]، ولهذا يجب عدم إغفال المصالح المادية التي رأت في الرق وتجارته ما يناقضها فدعمت إلغاءهما وإحلال العمل الحر والتجارة الحرة محلهما[61]، والمهم أن إلغاء الرق لم ينتج عنه إلغاء الاضطهاد والاستغلال، وفي ذلك يقول المؤرخ أندريه شوميه إن الرق أُلغي رسميا في بريطانيا سنة 1834 لكن نظاماً لم يكن أقل قسوة منه حل في الهند إضافة لظروف العمال في المصانع، إذ نتج عن الحاجة لليد العاملة اختراع نظام التعاقد لتجنب استخدام العمال الأحرار، فاضطرت أعداد كبيرة من الهنود الآتين من مناطق الفقر والمجاعة للالتزام بالعمل خمس سنوات كالدواب في المستعمرات البريطانية حيث لا يُدفع إليهم إلا ما يقي الجوع، ولما كانوا غير قادرين على الادخار، فقد ظلوا مقيدين بتلك العبودية حتى الموت، ولم يغير هذا النظام شكلياً إلا في سنة 1922 دون تعديل جوهري في شروط العمل[62].

---

(60) إريك وولف، أوروبا ومن لا تاريخ لهم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2004، ترجمة: فاضل جتكر، ص446-448.

(61) Ronald Segal, The Black Diaspora: Five Centuries of the Black Experience Outside Africa, The Noonday Press, New York, pp. 24, 53.

(62) مارك فرو، ص359-360.



دفن مئات من الهنود ضحايا مجزرة الركبة الجريحة (داكوتا الجنوبية 1890) التي أنهت الحروب الهندية التي قضت على حرية وحياة ومقاومة السكان الأصليين في أمريكا والتي بدأت مع بداية الحرب الأهلية كجبهة موازية ثم احتدمت ربع قرن بعد نهاية الحرب (1865–1890) تحت نفس الراية وبنفس القادة والجنود الذين زعموا أن هدفهم تحرير العبيد لأجل نشر الحرية فيما هم يقضون عليها في الجبهة الهندية

ثم حانت ساعة إلغاء الرق في الولايات المتحدة لأسباب اقتصادية تتعلق بصراع بين نظامين مختلفين في الحياة: نظام زراعي، ونظام صناعي يرغب في تحطيم قومية المزارعين والحفاظ على الاتحاد[63]، وذلك هو ما يراه أيضاً أصحاب القضية من ذوي الأصول الإفريقية أنفسهم بعد وصول التناقض بين المصالح المادية للشمال والجنوب إلى نقطة الحسم، وكانا من قبل متفقيْن على عملية التوسع على حساب السكان الأصليين[64]، فاندلع

(63) Francis Paul Prucha, The Great Father: The United States Government and the American Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1995, pp. 479, 468.

(64) Francis Jennings, The Creation of America Through Revolution to Empire, Cambridge University Press, 2000, pp. 288-289.
- Francis Paul Prucha, p. 196.

الصراع بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي لرغبة الشمال في الحفاظ على الاتحاد تحت نظام سياسي موحد مما أقفل الباب أمام خيار الانفصال في وجه الجنوبيين، وكان الشماليون غير مهتمين بإلغاء الرق نفسه بل بقطع الطريق على زيادة نفوذ الجنوب في مؤسسة الحكم، وقد أعلن الرئيس أبراهام لنكولن أن هدفه هو الحفاظ على الاتحاد سواء ببقاء الرق أم بزواله، وكان انتشار الرق هو الوسيلة لدعم مكانة النخبة الجنوبية، ولهذا لم يكن مصير الرقيق هو الذي أرّق الشمال بل القوة التي يكتسبها الجنوبيون في منافستهم مع أولئك الشماليين عندما تنتشر المؤسسة الاقتصادية التي يعتمدون عليها وهي الرق، وقد كان الشمال عنصرياً بقدر ما كان الجنوب كذلك، ولهذا رفض المنتصرون في الشمال أن يفرضوا سياسات تتعلق بنبذ العنصرية على الجنوب مما يرفضوه لأنفسهم، وكانت نتيجة الحرب الأهلية تحول الانقسام بين العبيد والأحرار إلى انقسام بين السود والبيض[65]، والدليل الأوضح على أن غاية الحرب الأهلية لم تكن نشر الحرية هو أن الشمال الصناعي بعد انتصاره على الجنوب بإلغاء مؤسسة العبودية الإفريقية استدار نحو السكان الأصليين وخاض، بنفس الجيش والقادة والجنرالات والجنود الذين حرروا الرقيق، حروباً هندية طاحنة لمدة ربع قرن بعدما كانت هذه الحروب قد بدأت فعلاً أثناء الحرب الأهلية وفتحت جبهة موازية لها تم فيها سلب حياة الهنود ووجودهم وأملاكهم فضلاً عن حريتهم، ومع ذلك ما انفك الأمريكيون يعتقدون أنهم شعب مختار واستثنائي قدره هو تغيير العالم للأفضل[66]، "وسرعان ما أخذ القوم ينشرون في العالم أحاديث مفادها أنهم خاضوا الحرب (الأهلية) لأسباب أخلاقية فقط"[67]، ووجدوا من يصدقهم ويروج أحاديثهم.

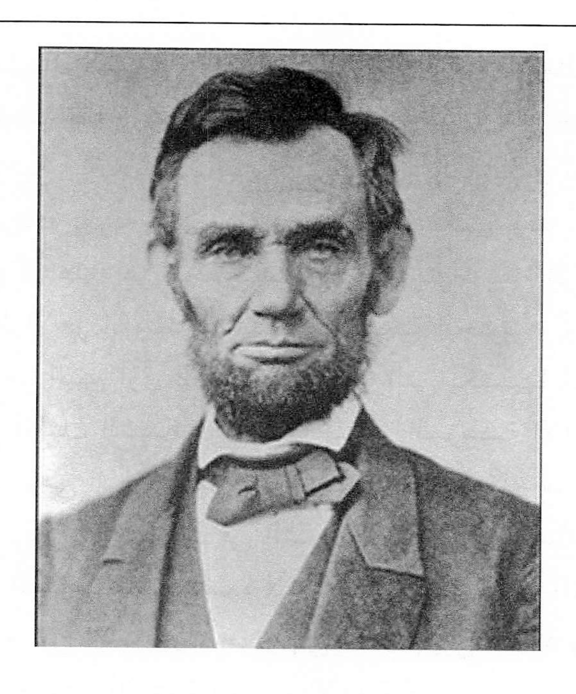
---

(65) David Reynolds, America, Empire of Liberty: A New History of the United States, Basic Books, New York, 2009, pp. 123, 139, 149, 177.

- د. والتر رودني، 322.

(66) Francis Jennings, p. 288.

(67) كارل هاينتس دشنر، المولوخ: إله الشر-تاريخ الولايات المتحدة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2003، ص183.



الرئيس أبراهام لنكولن (1861–1865) أعلن في مواجهة انفصال الجنوب أن هدفه هو الحفاظ على الاتحاد سواء بزوال الرق أم باستمراره، وإلى جانب حربه الأهلية التي صورت بأنها في سبيل تحرير الرقيق شن حرباً ضروساً موازية على السكان الأصليين على جبهتين استيطانية وحربية: فقد صدر في عهده قانون السكن Homestead Act (1862) لتشجيع الاستيطان في الغرب بمنح مساحات واسعة مجانية لأول مرة لكل أمريكي راغب في الإقامة في الغرب كما صدر قانون موريل (1862) الذي منح الولايات التي ظلت متمسكة بالاتحاد مساحات بعشرات آلاف الأفدنة لكل مندوب من مندوبيها في الكونجرس للتربح من بيعها لصالح إقامة الكليات العلمية، وعلى الجبهة العسكرية تميز عهده أيضاً بمعاناة الهنود الشديدة إذ وقعت فيه مجزرة نهير الرمل Sand Creek حيث قُتل مئتان من الهنود من قبيلة الشايان تحت قيادة الزعيم المسالم الإبريق الأسود Black Kettle وهم تحت الحماية الرسمية للجيش الأمريكي (1864) في ظل صمت مطبق من "المحرر العظيم" وشنت حرب الإبادة ضد قبيلة الآباتشي وعلقت المشانق لثوار قبيلة داكوتا في أكبر عملية إعدام جماعي في التاريخ الأمريكي (1862) وتم اتباع سياسة الأرض المحروقة في الهجوم على قبيلة النافاجو لترحيلها بالقوة من موطنها (1862–1864) إلى محمية قفراء تبعد 300 ميل حيث مات المئات من الهنود أثناء عملية الترحيل وأثناء بقائهم في ظروف التربة الجرداء والمياه الفاسدة وقلة الغذاء وهجوم الأمراض إلى أن تمت إعادتهم إلى موطنهم سنة 1868 بسبب عدم رغبة الرجل الأبيض في تلك الأرض، وكل ذلك يكذب أسطورة الحرية التي قاتل الشمال من أجلها.



تدمير أتلانتا عاصمة جورجيا بأيدي الجنود الشماليين أثناء الحرب الأهلية الأمريكية: لم تقع الأهوال كرمى لعيون العبيد الأفارقة بل في سبيل هيمنة نظام اجتماعي صناعي رأسمالي استغلالي على نظام زراعي استغلالي أيضاً

أما فيما يتعلق بالأضرار التي نشأت عن الحملة لإلغاء الرق فيكفي أن نذكر أن إلغاء العبودية كان هو المبرر "الأخلاقي" لموجة الاستعمار[68] لاسيما في إفريقيا[69]، وهو ما يؤكد أن الأمر لا يعدو تغيراً في أشكال الاستغلال وليس تطوراً أخلاقياً وذلك حسب التغيرات التي خضعت لها المراكز الأوروبية.

ب - إزالة الاستعمار:

الحديث عن دور الغرب في إزالة الاستعمار يبدد الوهم بالخيرية

---

(68) كليفورد لونجلي، الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003، ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم، ج3ص16.

(69) مارك فرو، ص122 و452 و456.

- هاري ماجدوف، ص36.

الغربية التي يحاول البعض رسمها للمستعمِرين الذين تخلوا "طوعاً" عن الهيمنة الاستعمارية لصالح ضحاياهم السابقين(70)، إذ نجد ابتداء أن الولايات المتحدة تبنت فكرة حق تقرير المصير في الحرب الكبرى الأولى لكي تخطف الأضواء من الثورة البلشفية التي سبقتها في هذا النداء(71)، ولهذا لم يكن تطبيق هذا الحق نظيفاً وخضع للمساومات بين القوى الاستعمارية في ترتيب أحوال العالم بعد انتصار الحلفاء في الحرب وانسحاب الولايات المتحدة نحو العزلة، وفي ذلك يقول أحد مؤرخي الاستعمار البارزين إن الاستعمار قام بإعادة تكوين المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في البلدان التابعة لتخدم حاجات المراكز الدولية وتعزز علاقة السيطرة والاستغلال، وفي هذه الظروف يمكن منح المستعمرات استقلالها السياسي دون إحداث تغيير للمصالح التي أدت إلى فتح هذه المستعمرات ابتداء، ولكن هذا لا يعني أن الاستعمار أزيل اعتباطياً، فقد عملت الثورات الجماهيرية والخوف من توسع المعسكر الاشتراكي ومناورات الولايات المتحدة لخلافة الامبراطوريات الاستعمارية الآفلة على إزالة الاستعمار بعد الحرب الكبرى الثانية(72)، ورغم أن البريطانيين مثلاً ظنوا أن امبراطوريتهم ستدوم إلى الأبد فإن تصاعد نفقات وتكاليف الاستعمار جعلهم يحاولون تخفيف الأعباء بمنح الاستقلال الصوري مع تأمين مصالحهم بواسطة المعاهدات، وقد شجعت ألمانيا وإيطاليا الطموحات القومية ضد الحلفاء في الحرب الكبرى الثانية ثم قامت الولايات المتحدة بعد الحرب بتبني عملية إزالة الاستعمار فأصبحت الامبراطورية عائقاً أكثر منها مصدر قوة للآفلين

---

(70) صوفي بيسيس، ص130.

(71) دوجلاس ليتل، ص281-282.

- ميخائيل سليمان (تحرير)، فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كلينتون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996، ص49-50 (هشام أحمد، جذور إنكار الحق: الموقف الأمريكي من حق تقرير المصير للفلسطينيين-من وعد بلفور إلى الحرب العالمية الثانية).

- دانييل يرغن، الجائزة: ملحمة البحث عن النفط والمال والسلطة من بابل إلى بوش، دار التكوين للنشر والتوزيع، دمشق، 2004، ترجمة: حسام الدين خضور، ص226.

(72) هاري ماجدوف، ص143.

فاتجهوا للانسحاب[73] وساعدت البنى الاجتماعية والاقتصادية للقوى الثورية التي خلفت المستعمرين على الحفاظ على المصالح الاستعمارية وعدم تحقيق الاستقلال الحقيقي عن القوة المستعمِرة[74]، وأدى ذلك في بعض الأحيان إلى الانتقال من هيمنة بريطانية أو فرنسية إلى أخرى أمريكية تحت تأثير الانبهار بفكرة إزالة الاستعمار وهو انبهار أدى في النهاية بالقوى الباحثة عن النهوض وتحقيق الاستقلال إلى الاصطدام بالولايات المتحدة صداماً غير متكافئ بالطبع مما أدى إلى حدوث الهزائم الكبرى التي تدل على استحالة تطابق مصالح الإمبريالية بشتى أنواعها مع الضحايا، كما يبين النموذجان السوري بعد الحرب الكبرى الأولى والمصري بعد الحرب الكبرى الثانية.

حارب قسم من العرب في الحرب الكبرى الأولى إلى جانب الحلفاء بعدما ركنوا إلى التعهدات البريطانية بمنحهم الاستقلال وإنشاء الدولة العربية التي سلمت بمصالح بريطانيا وفرنسا فاستثنت مصر وشمال إفريقيا وعدن من طلب الاستقلال، وسلمت بالمصالح البريطانية في الخليج كذلك، ولكن كل ذلك لم يكف الحلفاء فغدروا بالعرب واقتسموا أراضيهم وتهيئوا لإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ولم يجد العرب غير التعلق بأهداب الولايات المتحدة غافلين عن حقائق الحضارة الغربية والتاريخ الأمريكي التي تستبعد هذه الآمال التي عبر عنها المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق (يوليو/ تموز/ جويلية 1919) والذي توجه إلى لجنة كنغ-كراين التي أوفدها الرئيس الأمريكي لاستطلاع رأي الشعب في سوريا الكبرى بالبيان الذي تضمن الطلب بالانتداب الأمريكي على سوريا وفقاً للمعاني التي أعلنها الرئيس ويلسون والتي تنص على أن القصد من دخوله الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار ومن ثم يصبح الانتداب الوارد في عهد عصبة الأمم مجرد مساعدة فنية واقتصادية لا تمس الاستقلال السياسي وذلك

(73) يوجين روجان، ص270.

(74) هاري ماجدوف، ص143-144.

بناء على الاعتقاد أن "الشعب الأمريكي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار، وأنه ليس له مطامع سياسية في بلادنا"(75)، ولهذا صرح الأمير فيصل بن الحسين في أكتوبر/ تشرين الأول 1919 بأنه يقبل أي حل تفرضه الولايات المتحدة(76)، وهي فكرة ستظل تلازم بعض الزعماء العرب ومنهم من صرح في سبعينيات القرن العشرين أنه لأجل "خاطر" "صديقه" الرئيس الأمريكي سيوقع على ما يطلبه منه بشأن الصلح مع الصهاينة دون قراءة أو مراجعة(77).



ممثلو شعب سوريا الكبرى في المؤتمر السوري العام (1919) توجهوا للجنة كنغ-كراين الأمريكية بطلب الانتداب الأمريكي هرباً من غدر الحلفاء الأوروبيين فلما حلت الولايات المتحدة محلهم فيما بعد كان ذلك طامة كبرى على أمتنا

(75) زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، بيروت، 1977، ص319.

(76) نفس المرجع، ص243.

(77) محمد إبراهيم كامل، السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ص448 و560 و579-584.

المهم أن الولايات المتحدة التي تعلقنا بها منذ ذلك الزمن ووضعنا مصيرنا بين يديها سلمتنا لقمة سائغة إلى الحلفاء ونشطت لتنفيذ وعد بلفور، ذلك أننا لم نكن بمستوى تقرير المصير حتى عند من أطلقوا الدعوة إليه[78]، فكانت هذه هي نتيجة التصديق بموقف الولايات المتحدة المناهض للاستعمار والمؤيد لحق تقرير المصير، وما زلنا نعاني من نتائج تلك الحقبة من تجزئة وتبعية إلى اليوم.

وبعد الحرب الكبرى الثانية كان إعجاب قيادة الثورة في مصر (1952) بالنموذج الحضاري والسياسي الأمريكي[79] وتصديق كونه ضد الاستعمار هو المدخل الذي بدأت به العلاقة مع الولايات المتحدة[80] التي كان دعمها لقيام الثورة[81] في أثناء تطبيق خطتها الشاملة للحلول محل الإمبراطوريات الأوروبية الآفلة في المشرق العربي[82]، في زمن تجمعت فيه الأدلة على قرب الانفجار في الشرق وضرورة استباقه كي لا تخرج الحوادث عن السيطرة ويحدث ما لا يحمد عقباه لصالح الشيوعية أو الوطنية المحلية[83]،

---

(78) http://www.arabrenewal.info/2010-06-11-14-13-03/51024- (في ذكرى نكبة فلسطين نعم، الكيان الصهيوني هو الديمقراطية الوحيدة في المشرق العربي).

(79) سعد محيو، مأزق الحداثة العربية من احتلال مصر إلى احتلال العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ص168.

- د. محمد عبد الوهاب، عبد الناصر والسياسة الخارجية الأمريكية 1952-1956، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006، ص72-74.

(80) بنوميشان، ذكريات سياسية 1957-1958، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2002، ص23-26.

(81) تيم وارنر، إرث من الرماد: تاريخ "السي. آي. إيه"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2011، ترجمة: أنطوان باسيل، ص181.

- د. محمد عبد الوهاب، ص80-81.

- مايلز كوبلاند، حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية الأميركية ودوره في مصر وسوريا ولبنان وإيران، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2007، ترجمة: صادق عبد علي الركابي، ص220 و224 و227 و230 و237 و240 و242 و283-284.

(82) سعد محيو، ص162 و191.

- بيتر مانسفيلد، ص280.

(83) دوجلاس ليتل، ص286-292. =

وكانت أمريكا تضمر النية لاستخدام الثورة أداة في يدها لهذا الغرض كما تبين من سياستها لاحتواء قيادتها كما سيأتي، ولهذا دعمت السياسة المصرية في أكثر من موقف: فضغطت على بريطانيا للانسحاب من مصر والسودان[84]، وكانت حكومة الثورة قد طلبت المساعدة الأمريكية دون الاشتراك في المفاوضات[85]، ودعمت أمريكا إسقاط حلف بغداد[86] وناهضت الاحتلال الفرنسي في الجزائر[87] ووقفت بحزم ضد العدوان الثلاثي[88]، مما كان له أبلغ الأثر على مكانة القيادة المصرية دولياً[89] وهو ما سيخيف الأمريكيين كما سيأتي، ولكن ما فوجئت به أن الرئيس جمال عبد الناصر رفض التصرف كأنه تم شراؤه[90]، وآلمها رفضه الانضمام لأحلاف ضد الاتحاد السوفييتي[91] واتصاله بأبغض كيان للأمريكيين آنذاك

= - د. محمد عبد الوهاب، ص57.
- مايلز كوبلاند، ص209 و220.

(84) رءوف عباس، صفحات من تاريخ الوطن، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011، ص322 و330.
- جاك بنوا ميشان، ص311-313.
- مايكل أورين، ص499.
- بيتر مانسفيلد، ص280.
- سعد محيو، ص170.

(85) الدكتور علي محافظة، ص98-101.

(86) بيتر مانسفيلد، ص276.
- سعد محيو، ص176.

(87) مايكل أورين، ص499 و504-505.

(88) جاك بنوا ميشان، ص339-528.
- الدكتور علي محافظة، ص157-164.
- بيتر مانسفيلد، ص289.
- سعد محيو، ص185.
- دوجلاس ليتل، ص307-314.
- د. محمد عبد الوهاب، ص209-211.

(89) مايكل أورين، ص499.
- مايلز كوبلاند، ص291.

(90) تيم وارنر، ص181.

(91) يوجين روجان، ص382.

وهو الصين الشعبية[92] مع أنه كان يفضل العلاقة مع الأمريكيين ويساومهم بتلك الاتصالات[93]، فالغرب لا يعرف في علاقته بالآخرين سوى عبوديتهم له ويرفض أن يكونوا أنداداً أو حتى لهم هامش من الاستقلالية، وقد شكى الرئيس ناصر للصحفي الفرنسي بنوميشان سنة 1957 من الطريقة المتعالية التي تعامل بها الأمريكيون معه ومن محاولتهم شراءه بالمال[94].


بعد أن هزمت مصر قوات إسرائيل
بريطانيا وفرنسا تقرران
الهجوم على مصر
إنذار إلى مصر ينتهي الساعة السادسة صباح اليوم
الدولتان تطلبان احتلال بورسعيد والاسماعيلية والسويس
الجيش المصري يطهر سينا من قوات اسرائيل
الطبعة الثانية
اسقاط ٧ طائرات وتدمير ١٢ صفحة للعدد
بريطانيا وفرنسا تستخدمان

فشل العدوان الثلاثي على مصر في ظل نظام دولي تميز بصراع الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة مع القوى العظمى الجديدة ومحاولة الولايات المتحدة لوراثة مواقع النفوذ الاستعماري القديم

ورغم القبول الأمريكي المبدئي بتركيز الثورة على الشأن المصري الداخلي وعدم سعيها للاصطدام بالكيان الصهيوني[95] بل وحتى برم

---

(92) بيتر مانسفيلد، ص287.
- يوجين روجان، ص383.
- د. محمد عبد الوهاب، ص183.
- رءوف عباس، ص343.

(93) يوجين روجان، ص283.

(94) بنوميشان، ص25-26.

(95) د. جيرمي سولت، تفتيت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، دار النفائس، دمشق، 2011، ترجمة: د. نبيل صبحي الطويل، ص209-210.
- سعد محيو، ص175.
- رءوف عباس، ص328.
- مايلز كوبلاند، ص224 و288.
- بيتر مانسفيلد، ص285.

الأمريكيين من الجموح الصهيوني[96] فإن هذا الانسجام لم يستمر في ظل عدوان الصهاينة الذي سعت أمريكا لتهدئة المخاوف تجاهه بمشاريع التسوية لجر مصر بعد ذلك وبعد زوال الاحتلال البريطاني، للاصطفاف ضد الخطر السوفييتي[97] وهو ما لم يوافق عليه الرئيس عبد الناصر وتبنى فكرة عدم الانحياز التي لم ترق للأمريكيين[98]، فاتخذت إجراءات لتحجيمه[99] والتخريب ضده[100] واستبداله[101] ودعم الأنظمة الموالية للغرب في المنطقة[102] ومحاولة اختلاق قطب سعودي لمواجهته[103] مع مواصلة المحاولات لاحتوائه والحصول على قبوله الاصطفاف ضد السوفييت، ورأت الولايات المتحدة والغرب في الوحدة السورية المصرية خاصة وفي سياسة القيادة المصرية عامة فرصة لمواجهة المد الشيوعي[104]، كما كان

---

(96) سعد محيو، ص170.
(97) رءوف عباس، ص322 و331 و368.
(98) بيتر مانسفيلد، ص284.
- يوجين روجان، ص382.
- دوجلاس ليتل، ص295.
(99) سعد محيو، ص180.
(100) تيم وارنر، ص182.
- مايلز كوبلاند، ص303 و307.
(101) تيم وارنر، ص379.
- رءوف عباس، ص345-351.
- مايلز كوبلاند، ص243.
(102) رءوف عباس، ص351.
(103) مايلز كوبلاند، 294-295.
- بيتر مانسفيلد، ص294.
- مايكل أورين، ص501.
- جاك بنوا ميشان، ص538-541.
- الدكتور علي محافظة، ص168.
- د. محمد عبد الوهاب، ص219.
- دانييل يرغن، ص611.
(104) بيتر مانسفيلد، ص308-309.
- الدكتور علي محافظة، ص189.
- دوجلاس ليتل، ص316.

انقلاب 14 تموز 1958 في العراق فرصة أمريكية للتفكير في تشجيع القيادة المصرية على "تولي أمور العراق" وتشجيع خصوم عبد الكريم قاسم، ولم تكن مصر في حاجة إلى هذا التشجيع الأمريكي للعمل ضد اللواء قاسم بسبب الخصومة بين القيادتين العراقية والمصرية آنذاك[105]، وازدهرت العلاقات الأمريكية المصرية ثانية زمن الرئيس جون كينيدي[106] الذي تفهم التدخل المصري في اليمن واعترف بالنظام الجمهوري الجديد[107]، بل لقد طلب قبل اغتياله بيوم من رئيس الوزراء البريطاني سحب المرتزقة البريطانيين من اليمن[108]، ولكن العلاقات المصرية الأمريكية عادت للتدهور ثانية بعد اغتياله[109] الذي أعقبه توجس أمريكي من الاشتراكية العربية واعتقاد الولايات المتحدة أن عليها أن تحاول الحفاظ على نفوذها في مصر رغم "الاستفزاز"[110]، ثم انحياز الرئيس جونسون للكيان الصهيوني في الحرب، وظهرت في هذه الفترة سياسة الحلف الإسلامي بمشورة أمريكية وتعاون سعودي مع شاه إيران ضد القومية العربية[111] ولم تتوان عن

= - رءوف عباس، ص340.

- الدكتور مجيد خدوري، الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الأفكار والمثل العليا في السياسة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1985، ص134.

- الدكتور مجيد خدوري، عرب معاصرون: أدوار القادة في السياسة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1972، ص111 و300.

(105) دوجلاس ليتل، ص348.

(106) بيتر مانسفيلد، ص309.

- مجيد خدوري، 1972، ص118.

- مايكل أورين، ص506-507.

(107) الدكتور علي محافظة، ص217.

- سعد محيو، ص210.

- دوجلاس ليتل، ص318-319.

(108) الدكتور علي محافظة، ص217.

(109) بيتر مانسفيلد، ص309.

(110) الدكتور علي محافظة، ص196.

(111) نفس المرجع، ص238.

- بيتر مانسفيلد، ص308.

- مايلز كوبلاند، ص331.

تحريض الغرب والصهيونية على الهجوم على مختلف الجبهات العربية بما في ذلك الأراضي الفلسطينية في سبيل "تصفية أجساد المبادئ الهدامة"[112] (!)، ثم لتعود السياسة المزاجية لتتراجع عن ذلك بعد اقتراب الكارثة (1967) وتعترف بأن تحريضها "لا قيمة له" (!)[113] ولكن دون أن تصغي إليها الدول الكبرى هذه المرة بعدما نالت وطرها من ذلك التحريض العربي.

وظلت القيادة المصرية إلى آخر لحظة قبل النكسة تظن أن الولايات المتحدة ستكبح جموح الصهاينة وتمنع اعتداءهم[114] وهو ما لم يحدث واصطف الغرب إلى جانبهم بل بدأت العلاقة الأمريكية الصهيونية الوثيقة منذ ذلك الوقت[115]، وظلت السياسة المصرية تحاول الاحتفاظ بعلاقة مع الولايات المتحدة والغرب بقبول قرارات الأمم المتحدة والميل لتسوية تفاوضية مع الصهاينة وقبول مشروع روجرز ووقف إطلاق النار في حرب الاستنزاف وإرسال النداء الأخير للرئيس نيكسون[116] ولكن كل ذلك لم ينفع في تجنب اتهام الرئيس ناصر بخرق اتفاق شفوي بعد أزمة السويس بالتوصل إلى معاهدة سلام مع الكيان الصهيوني[117]، ثم في الوصول إلى النهاية، الغامضة حتى اليوم، للحكم الناصري.

والخلاصة أن العلاقة تراوحت بين مد وجزر، دعم فيما تلتقي فيه المصالح على أمل أن يكون هذا التلاقي مجرد تبعية، ومواجهة عند الإصرار على الاستقلال المصري والعربي، ولو استعرنا وصف أشد منتقدي الحقبة

---

(112) حمدان حمدان، عقود من الخيبات: كيف وصلنا إلى هنا؟، بيسان للنشر والتوزيع، 1995، ص489-491.

(113) الدكتور علي محافظة، ص240.

(114) بيتر مانسفيلد، ص312.

- د. جيرمي سولت، ص265.
- سعد محيو، ص197-198.

(115) يوجين روجان، ص440.

(116) بيتر مانسفيلد، ص315-316.

- يوجين روجان، ص441.

(117) سعد محيو، ص188-189.

الناصرية، وهو الأستاذ محمد جلال كشك، لرأيناه لا يخرج عن هذا الإطار وذلك بقوله: " إنها لعبة شديدة التعقيد، أراد عبد الناصر فيها أن يوظف الولايات المتحدة لخدمة أهدافه التي كانت بلا شك وطنية في جوهرها...إن المصالح الأمريكية والروابط الأمريكية كانت موجودة وملتقية ومتفقة مع السياسة الناصرية في الفترة من 1952 وربما إلى 1965 بدرجات متفاوتة، ومع استمرار تباعد محوري التلاقي، الذي بدا ملتحماً في 1952 ووصل ذروة التعانق في 1956 في معركة القناة، ثم بدأ في الانفراج (أي التباعد) والتلاقي المضطرب إلى أن تمت القطيعة في 1965*... فالعلاقات منذ 1964 أو 1965 كانت تدهورت تماماً بين واشنطون والقاهرة، والأجهزة الأمريكية المؤيدة لناصر كانت قد هُزمت أمام الأجهزة النفطية والإسرائيلية والبيروقراطية المعادية لنظام حكمه، وكانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرار تحجيمه إن لم يكن إسقاطه، فلا عجب ولا غرابة أن تحاول الأجهزة الأمريكية تشويه سمعته"[118]، فإذا كان هذا هو وصف أشد كارهي الرئيس ناصر فلا بد من مغادرة الأوصاف الحاسمة كالعمالة والخيانة بلا حدود.

وفي ظل الرفض الأمريكي للعلاقة الندية أو لوجود قوى عظمى غيرها

(*) أكد الرئيس جمال عبد الناصر هذا الأمر في مؤتمر الخرطوم بعد نكسة 1967 وقال إن الخلاف مع الأمريكيين وقع منذ سنتين وكان سببه طلب أمريكا وقف الأبحاث الذرية ووقف إنتاج الصواريخ مع حق التفتيش على ذلك ووقف سباق التسلح مع الكيان الصهيوني، وقد رفضت مصر ذلك واشترطت أن يشمل الحظر كيان العدو أيضاً، ثم تدهورت العلاقات أكثر بإصرار الولايات المتحدة على تفوق الصهاينة وباكتشاف صفقة السلاح الألمانية الغربية، وأوضح الرئيس أيضاً أن سر الخلاف بينه وبين الأمريكيين هو قضية فلسطين وأنه كان بإمكانه السكوت عن حقوق شعب فلسطين "لتمشي الأمور" ولكنه لم يقبل، فانقطعت المساعدات الأمريكية نتيجة رفض الطلبات الأمريكية، وبررت الولايات المتحدة ذلك بأن هذه المساعدات تستخدم لتطوير الأسلحة، وكانت قيمة المساعدات 60 مليون جنيه مصري "كانوا يأخذونها منا وينفقونها في مصر" (أحمد الشقيري، ج 2 "المذكرات/ 2" ص 1844-1845 "الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤساء: من بيت عبد الناصر إلى غرفة العمليات/الجزء الثاني" ص 120-121).

(118) محمد جلال كشك، ثورة يوليو الأمريكية: علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988، ص22 و148 و507.

في المنطقة أو حتى قوى إقليمية صاعدة وكونها تريد طرد الأوروبيين لتحل هي محلهم وتملأ هي فراغهم لا ليكون السكان المحليون سادة أنفسهم[119]، ورغم كل التلاقي في السياسات السابقة بين مصر والولايات المتحدة فإن الأمريكيين رفضوا السماح للرئيس ناصر بالاستمرار في تحقيق النجاح[120] وفي الوقت الذي كانوا يتصدون للعدوان الثلاثي كانوا مشغولين بالتصدي لطموحات مصر ومهتمين بعدم بروز القيادة الناصرية وبضرورة تحجيمها لكي لا تصبح نجاحاتها خطراً على المصالح الغربية[121]، وأصروا على إجبار مصر على تغيير سياستها[122] وكل ما سمحوا به هو عدم فقدان الأمل ببقاء مصر في فلكهم[123] واستمرار المحاولات لكي ينضم الرئيس ناصر إلى معسكرهم تماماً[124] ولكن خاب أملهم بذلك، وأيضاً على الجانب الآخر في ضوء عدم قبول القيادة المصرية والعرب عموماً بالإملاءات عن الخطر السوفييتي المزعوم أو تجاوز الخطر الصهيوني الملموس[125]، أو بنوعية الحل الاستسلامي الذي تتصوره القوى الكبرى للقضية الفلسطينية[126]، انتهت العلاقة بضرب تجربة النهوض المصرية في نكسة 1967 حين كشفت المطالب التي حاولت الولايات المتحدة فرضها على مصر (الخروج من الصراع العربي الصهيوني وتصفية الاتحاد الاشتراكي وتحديد عدد الموظفين وعدد الجيش وإلغاء التأميم والقطاع العام)[127] عن أبعاد تصل إلى تدمير بنية هذه النهضة ولا علاقة لها بأي خلاف سياسي

---

(119) نفس المرجع، ص191.

(120) بيتر مانسفيلد، ص288.

(121) سعد محيو، ص176-184.

(122) يوجين روجان، ص383.

(123) بيتر مانسفيلد، ص287.

(124) يوجين روجان، ص382.

(125) نفس المرجع، ص440.

- عن مطلب الأمريكيين من الثورة باكراً: مايلز كوبلاند، ص231.

(126) رءوف عباس، ص317-343.

(127) مايلز كوبلاند، ص333.

- سعد محيو، ص192.

محدد، ثم كان الموت الغامض للرئيس ناصر والذي أدخل النظام السياسي بعده في بيت الطاعة الأمريكي بعدما تغلغل النفوذ الأمريكي في ثنايا البيت المصري أثناء المراحل السابقة وتمكن من استقطاب الطبقات الانفتاحية الحاكمة فيما بعد، وهو داء مازالت البلاد تعاني منه إلى هذا اليوم، فكان هذا هو ثمن تصديق خدعة إزالة الاستعمار إذ أرادت القوى الإمبريالية التي أزالت الاستعمار أن تضعنا تحت هيمنتها لنستبدل سيداً بسيد.



الرئيس جمال عبد الناصر بدأت علاقته المعقدة بالولايات المتحدة نتيجة إعجاب بنموذج حضاري يقف ضد الاستعمار القديم، كانت الرغبة عند الطرفين تسخير الطرف الآخر، لم يوافق الرئيس على كل الترتيبات التي أرادت أمريكا إملاءها عليه، وخشيت هي من نمو الطموح القومي أن يخرج المشرق عن سيطرتها، وبعد زمن من الارتباط فالتوتر وقع الانفصال بين الطرفين ووقفت الولايات المتحدة تتفرج بحبور على كلب حراستها الصهيوني وهو ينقض على مصر في سنة 1967، ففي ظل أية علاقة غير متكافئة القوى تكون الغلبة للطرف الأقوى الذي جر المنطقة كلها للتبعية الأمريكية السافرة بعد وفاة الرئيس ناصر الملغزة

ولم تفت المفارقة الأمريكية أحد المؤرخين الذي قال إن الولايات المتحدة وقفت إلى جانب حلفائها الأوروبيين ضد الشيوعية، ولكنها تحالفت مع الوطنيين المحليين ضد الاستعمار، ومن البلاد التي يعود الفضل جزئياً أو كلياً في استقلالها إلى أمريكا، ليبيا وسوريا وإيران، وقد اكتشف الأمريكيون تناقض متطلبات الحرب الباردة ومناهضة الاستعمار، وبعدما ساعدوا في استقلال إيران تحالفوا مع بريطانيا لطرد زعيم إيراني شعبي عام 1953 هو محمد مصدق، وبعدما انضمت الولايات المتحدة إلى السوفييت في منع بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني من الإطاحة بالرئيس جمال عبد الناصر، ساند الأمريكيون الصهاينة بصفتهم حصناً منيعاً في مواجهة السوفييت، وكانت "إنجازات" أمريكا التي تدعو إلى "الفخر" هي تحالفهم الوثيق مع "إسرائيل"، وترتيب معاهدة السلام بين الصهاينة ومصر، والحد من النفوذ السوفييتي (والملاحظ أنها جميعاً إنجازات لصالح الهيمنة الأمريكية)، "ومع ذلك (!) فقد ظلت الولايات المتحدة في عيون كثير من شعوب المنطقة مناصرة لحكومات استبدادية قمعية، وراعية لاستيطان الإسرائيليين في الضفة الغربية وغزة، ومروجة للتبذير القائم على الثروات التي يدرها النفط في دول الخليج"[128] (وهل على شعوب المنطقة أن تحتفي "بالإنجازات" التي صنعتها الولايات المتحدة لنفسها ونالت بها جوائز نوبل، مع مجرمي الحرب الصهاينة مناحيم بيغن وإسحق رابين وشمعون بيريز وعلى حديث أطلقه أوباما في الهواء ولم ينفذ منه شيئاً، في الوقت الذي يجب علينا غض النظر عن جرائمها ضدنا؟؟).

■ الاستنتاج عن دعاوى الحسنات الاستعمارية

عندما قام المستعمِرون بغزو غيرهم كان هدفهم تحقيق مصالحهم الذاتية وليس مصالح ضحاياهم، ولكن بحكم كونهم في بيوت أولئك الضحايا فإنهم أفادوهم، عندما أنشئوا في تلك المستعمرات بعض المنشآت

(128) مايكل أورين، ص583-584.

الحيوية، بعض الفوائد الجانبية غير المقصودة لذاتها بل كان الهدف منها ربح المستعمِر نفسه بدليل أنها لم تنتج للضحية ما أنتجته من فوائد للسادة الذي قاموا بإنشائها، والغفلة عن هذه الحقيقة توقع صاحبها بالاستلاب للمستعمِر بحجة قيامه "بإفادة" ضحاياه فوائد خيرية إنسانية لاسيما عند الاطلاع على بعض "إنجازاته" ضد شرور انتهت صلاحيتها ولم يعد مرتكبوها السابقون يجنون منها الفوائد أو أن مصالحهم تحولت إلى ممارسة شرور جديدة تحل محل القديمة فتصبح عملية الإحلال "بطولة" تاريخية وهي ليست كذلك في الواقع، كما أن كل "الفوائد" التي جناها المستعمَر من المستعمِر، كان من الممكن أن يحققها دون التكاليف الباهظة التي دفعها للاستعمار، لو أنه تُرك يتدبر شأنه بنفسه ويقتبس من تطورات غيره وفق حاجاته الذاتية لا وفق مصالح غيره، وسيتبين لنا أن الاستعمار قطع طرق التطور الحضاري في كثير من الأنحاء التي حل بها ووجه مسيراتها نحو فوائده الذاتية.

الباب الثاني

أضرار الاستعمار

ما سبق كان محاولة لتفسير الجوانب التي يراها البعض إيجابية في الظاهرة الاستعمارية ويقومون بالترويج لها بصفتها دليلاً على قيام الاستعمار بنشر الحضارة، ولكن ما يدحض هذه الصورة الوردية، حتى لو استبعدنا كل ما مر من كون هذه الإيجابيات كانت مسخّرة لفائدة المستعمِر وحده وأنها إذا لم تؤد إلى إيذاء المستعمَر فإنها لم تؤد إلى نهضته، فإن وجود الكم الهائل من الأضرار التي ارتكبها الاستعمار، يمحو "الفوائد" التي أصبناها منه، ويؤكد أن المستعمِرين ما جاءوا إلا للاستفادة والاستغلال، فأضروا غيرهم حيث أفاد هذا الإضرار، وكان هذا هو الوجه الغالب، و"أفادوا" غيرهم حيث أفادهم أن يفيدوهم، وهذا هو الوجه الأقل انتشاراً بدليل وضع المستعمرات البائس والمستمر بعد سنوات طويلة من الاستعمار.

ولو أردنا أن نعد جوانب الضرر الاستعماري لضاق المقام بذلك، فما الذي سنذكره وما الذي سننساه؟

- هل نذكر إبادة عشرات الملايين من سكان الأمريكتين وأستراليا؟ إذ يقدر المؤرخون عدد السكان الأصليين في الولايات المتحدة وحدها بين 5 ملايين[1] و18,5 مليون لم يبق منهم بعد نهاية الحروب الهندية وإغلاق التخوم سنة 1900 إلا ربع مليون نسمة[2]، هذا فضلاً عن عشرات الملايين

---

(1) مارك فرو، ص64.

(2) منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية: حق التضحية بالآخر، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2002، ص24.

الذين أبيدوا في أمريكا اللاتينية بوحشية مباشرة لم يغطها القانون كالولايات المتحدة، ومن أمثلة ذلك تضاؤل عدد سكان أمريكا الوسطى من 25 مليوناً عند اكتشاف أمريكا (1492) إلى مليون ونصف بعد قرن ونصف (1650)[3]، وتصل تقديرات الإبادة الأمريكية إلى 100 مليون ضحية أقر بها مجموعة من الباحثين[4].

وعلى كل حال، ومهما كانت أعداد الضحايا، فعلى الجانب الأمريكي والأوروبي ألا يفرح بتخفيض عدد السكان الأصليين زمن اكتشاف أمريكا ومن ثم تخفيض عدد ضحايا الإبادة، لأنه لو كان عدد الهنود ضئيلاً زمن الكشوف فإن ذلك حجة على المستعمِر أكبر من وجود عدد كبير منهم، إذ يؤكد العدد القليل أن الرجل الأبيض ضاق حتى بقلة من البشر تختلف عنه ولم يتحمل وجودها فأبادها، وهذا ما حدث في أستراليا حيث لم تكن أعداد الأهالي الأصليين كبيرة قط، وهذه أنانية وإجرام لا يقل عن إبادة الأعداد الهائلة (من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً).

ويتحدث مؤرخ عن الهدف من الإبادة فينكر كونها جرت بهدف إفناء كائنات بشرية، وهو ما أؤكد عليه في هذه الدراسة، وأن الهدف كان الاستجابة لدوافع اقتصادية وسياسية لم تكن معروفة للهنود وكانت غريبة عنهم فأنتجت تلك النهاية المأساوية التي يصح إطلاق اسم الإبادة عليها[5]، وهو ما يوضح لنا أن الإجرام يكون دائماً أو غالباً استجابة لدوافع نفعية وهذا ما يسهل علينا التعامل معه ومواجهته بالضغط على هذه المصالح خلافاً لارتباكنا لو تصورنا أن الجريمة لا تفسير لها سوى شر غير مفهوم الدوافع.

---

(3) إريك وولف، ص197.

(4) David E. Stannard, American Holocaust: The Conquest of the New World, Oxford University Press, p. 151.

- موسوعة ويكيبيديا: David Stannard

http://en.wikipedia.org/wiki/David_Stannard (8/8/ 2014).

(5) مارك فرو، ص67.

- أم نذكر الملايين الأخرى من سكان إفريقيا الذين نُقلوا وقُتلوا واستُعبدوا في تجارة الرقيق؟ وهم في أشهر التقديرات 28 مليون نسمة تم نقل نصفهم إلى الأمريكتين ومات النصف الثاني أثناء عمليات الأسر والنقل(6)، هذا إذا أغفلنا تقديرات أخرى لا تقل وجاهة وتقول إن عمليات الأسر والنقل كانت تتطلب قتل أضعاف من وصلوا بالفعل إلى أماكن العمل وقدرت عدد من خسرتهم إفريقيا ب 60-200 مليون نسمة(7).

ولهذا قالت مؤرخة إنه فيما يتعلق بسكان أمريكا وإفريقيا كان الاتصال بأوروبا عصر النهضة بداية فترة "مميتة" مازالت آثارها حية إلى اليوم(8)، ثم يأتيك من يحدثك عن نِعَم الاستعمار (!)

- أم نذكر الملايين الذين قُتلوا في عمليات القمع الاستعماري التي كان أبرزها في فيتنام والجزائر والهند وجنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا وبلاد الشام لاسيما فلسطين، وكانت مآثر القتل تسرد في الكتب المدرسية بابتهاج عن حرق القرى أثناء احتلال الجزائر وعن وضع المسلمين والهندوس على أفواه المدافع إبان ثورة 1857 في الهند، وعن وضع السيف

---

(6) John D Clare, The Age of Expansion 1750-1914, Nelson, Surrey- UK, 1996, p. 20.

وهناك تقديرات رقمية مقاربة مع تفصيلها في:

- Ronald Segal, pp. 4, 36.

وهناك مجموعة من التقديرات في:

- صوفي بيسيس، ص35-37، حيث تذكر أن عدد سكان إفريقيا انخفض بمقدار النصف بين 1650-1800.

(7) رجاء جارودي، فلسطين أرض الرسالات الإلهية، دار التراث، القاهرة، 1986، ترجمة: دكتور عبد الصبور شاهين، ص459.

- د. عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، 1997، ص39.

- الدكتور رمزي زكي، التاريخ النقدي للتخلف: دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكون التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة (118)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر 1987، ص26.

(8) صوفي بيسيس، ص37.

في أهل مدغشقر، وكان هناك رفع للرءوس على الرماح في فيتنام[9]، ومجازر إبادة في الكونغو[10] صدمت حتى بقية المستعمِرين[11]، ثم حديثاً في العراق حيث جرى القتل المليوني عن سابق إصرار وتصميم، وتبرير لاحق؟

"-ليسلي ستال: سمعنا أن نصف مليون طفل عراقي قد ماتوا (نتيجة العقوبات ضد العراق)، أقصد أكثر من الأطفال الذين ماتوا في هيروشيما...هل الثمن يستحق ذلك؟

- مادلين أولبرايت (السفيرة الأمريكية في الأمم المتحدة إذ ذاك ووزيرة الخارجية بعد ذلك): إننا نعتقد أن الثمن يستحق ذلك" (مقابلة في برنامج "60 دقيقة" التلفزيوني 12 أيار / مايو 1996)[12].

وهو تصريح يؤكد حقيقة النوايا الاستعمارية، التي يُفترض أنها غادرت عصر الاستعمار القديم وتطورت عن الرغبات السادية في التعذيب والإيذاء، وما يمكن أن تصل إليه من إجرام في سبيل مصالحها، التي لا تمانع في تحويل البلاد إلى أراض للموتى والمحتضرين[13] واستغلال الضغوط الإنسانية استغلالاً اقتصادياً بارعاً[14]، كما يؤكد على سذاجة بل تواطؤ من استنجد بالمستعمِرين المجرمين بحجة إنقاذ بلاده من استبداد محلي لم تكن أية جريمة من جرائمه تعادل في الميزان ما يرتكبه المجرمون الدوليون ضد المدنيين العاجزين[15].

ولم تقتصر الأضرار على سفك الدماء وحده لأن الهدف لم يكن الدم

---

(9) مارك فرو، ص19-20.

(10) Robert Aldrich, p. 226.

(11) مارك فرو، ص454.

(12) جيف سيمونز، التنكيل بالعراق: العقوبات والقانون والعدالة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ديسمبر 1998، ص257.

(13) نفس المرجع، ص291.

(14) نفس المرجع، ص276.

(15) نفس المرجع، ص291.

في حد ذاته بل تحطيم البنى الاجتماعية المكتفية بذاتها وإلحاقها بالاقتصاد الاستعماري وجعلها مزودة إياه بالموارد الاقتصادية كالأرض والعمل والمحاصيل الزراعية والخامات المعدنية الأولية وموارد الطاقة، وجعلها بعد ذلك سوقاً لبضائعه أو مرتعاً لمهاجريه، بل لقد وجدنا أن كل الشعارات البراقة التي رفعها الغرب كانت غطاء للكوارث التي أنزلها بالأمم الأخرى، فالتجارة الحرة هي التي قضت على الصناعات الحرفية في الهند وغيرها ونشرت الأفيون في الصين، وتقسيم العمل الدولي هو الذي قضى على الاكتفاء الذاتي وحول المستعمرات إلى ملاحق للدول الاستعمارية فأصبحت مصر مزرعة لقطن بريطانيا وشمال إفريقيا مزرعة لخمور فرنسا وبلاد النفط وقوداً للغرب، وتحرير العبيد كان المبرر لاستعمار إفريقيا[16]، وعبء الرجل الأبيض والرسالة الحضارية والقدر الجلي هي أغطية الإبادة في أمريكا وأستراليا.

هذا عن التبريرات بالشعارات، ولكننا وجدنا أيضاً أن ضحايا الاستعمار كانوا كثيراً ما يطالبونه بتطبيق الشعارات البراقة التي رفعها وكان خلافهم مع الإدارات الاستعمارية هو عدم تطبيقها لما تنادي به من صالح المستعمَرين، وهو ما يؤكد مرة أخرى أن الشعارات كانت مجرد غطاء لسياسات المصالح، وإنه لمن أقوى الأدلة على "صدق" المستعمرين الاستيطانيين في دعاواهم عن نشر التحضر بين السكان الأصليين هذا المسح السريع: كان نضال الهنود الحمر في بلد الحرية (الولايات المتحدة) من أجل تركهم أحراراً وفقاً لقانون الرجل الأبيض نفسه كما جاء في صيحة أحد زعمائهم المشهورين: دعوني أعيش حراً Let Me Be Free[17]، وكان طلب الجزائريين من بلد الثورة الفرنسية صاحبة شعار المساواة هو المساواة بين

(16) مارك فرو، ص122.
- هاري ماجدوف، ص36.

(17) دي براون، تاريخ الهنود الحمر، دار الحوار، اللاذقية، 1982، ترجمة: توفيق الأسدي، ص246.

-David Lavender, Let Me Be Free: The Nez Perce Tragedy, University of Oklahoma Press, Norman, 1999, p. 339.

الجزائري والفرنسي، وفي هذا المجال برز السياسي الجزائري صاحب التأثير الواسع فرحات عباس (1899-1985) الذي اشتهر بدعوته لاندماج الجزائريين في الأمة الفرنسية وإنكار وجود شعب جزائري وقال: فرنسا هي أنا، واستنكر قيام الثورة الجزائرية (1954) ولكنه غير موقفه جذرياً بعد ذلك في مواجهة الاضطهاد الفرنسي المستمر[18]، وكان مطلب الفلسطينيين من بلد الديمقراطية (بريطانيا) زمن الانتداب هو تطبيق الديمقراطية في فلسطين والاهتمام برأي الشعب الفلسطيني في تطبيق وعد بلفور وسياسة الوطن القومي اليهودي مع رفض بريطاني حاسم لذلك[19].



فرحات عباس سياسي جزائري شهير بدأ حياته ضحية تصديق شعارات فرنسا البراقة ككثير من سياسيي بلادنا الذين وقعوا ضحية التضليل الغربي، وعندما اكتشف الحقيقة انقلب إلى الطرف الآخر المطالب بالاستقلال

كانت نتيجة مطالبة الغرب بتطبيق شعاراته فاشلة في جميع الأحوال: حصد الهنود الحمر الإبادة بدلاً من الحرية، وحصد الفلسطينيون النكبة بدلاً من الديمقراطية، واستطاع الجزائريون طرد الفرنسيين الذين فضلوا الخروج من الجزائر على تطبيق المساواة على مستعمرتهم[20].

---

(18) يوجين روجان، ص302-305.

- موسوعة ويكيبيديا العربية: فرحات عباس

(19) سحر الهنيدي، ص160-161 و185-215 و400-403.

- دكتور حسن صبري الخولي، ج1 ص540 و556 و573 و631.

(20) مارك فرو، ص562.

وتحاول بعض الكتابات والآراء التبريرية واسعة الانتشار إلقاء عبء الكوارث التي صنعها الاستعمار على كاهل القدر بصفتها أضراراً غير مقصودة أو مجرد أضرار جانبية أو لم تعد بالفائدة على المستعمِرين[21] الذين كانت مقاصدهم خيرة وغير مادية[22]، وقد جاءوا تلبية لحاجات السكان الأصليين أكثر من تلبية دوافعهم الذاتية[23]، ووجدنا حتى الرق نفسه بهذا المنطق لم يفد أوروبا بل "أفاد" إفريقيا إذ حصلت على البضائع الاستهلاكية مقابل أبنائها الذين اختُطفوا واستُعبدوا أو قُتلوا (!) [24] وعلى نسلهم تقديم الشكر للسادة إذ انتزعوهم من تخلف إفريقيا (!) [25] وهو مستوى متدن من الحديث لا يرقى إلى الدرجة العلمية ولا يجب الانشغال بالرد عليه وإن كان مفيداً في إظهار أن الدفاع عن الذات فقط مهما كان الجرم عظيماً هو الدافع وراء حملة إعادة الاعتبار للزمن الاستعماري.

وعن كون الأضرار جانبية فهي نظرة استعلائية لا تأبه بتحميل الأعراق الدنيا نفقات فاتورة التقدم الذي ينعم به قلة من سكان الأرض على حساب الغالبية العظمى، وتجعل من مصير هذه النخبة الوردي ما يستحق ما دفعه الآخرون، بنفس الطريقة الساقطة التي تكلمت بها مادلين أولبرايت عن قتل نصف مليون طفل عراقي لمصلحة الأهداف الأمريكية الإجرامية، مما يدلنا على مقدار "التقدم" الأخلاقي الذي قطعه الغرب منذ عصر الاستعمار القديم إلى اليوم.

أما عن كون أضرار الاستعمار غير مقصودة فهي حجة تقدم دائماً لتبرير الخسائر التي نجمت عن إبادة الملايين من سكان العالم الجديد بأمراض

(21) صوفي بيسيس، ص135.
(22) إريك هوبزباوم، 2011، ص130.
- صوفي بيسيس، ص125.
- د. والتر رودني، ص251.
(23) د. والتر رودني، ص200.
(24) نفس المرجع، ص147 و251.
(25) صوفي بيسيس، ص131.

العالم القديم، وربما يظن المرء للوهلة الأولى أن هذا الانتشار كارثة عرضية لم يكن للمهاجرين نية ولا يد فيها، ولكن هذا الاعتقاد يتبدد بقيامهم بكثير من الممارسات القمعية الرسمية التي كانت تساعد على إنهاك الهنود بالأمراض ونشرها بينهم ضمن وسائل الحرب عليهم للحصول على أراضيهم كالترحيل القسري والحشر في محميات قاحلة والتجويع بالقضاء على مصادر الرزق ووسائل العيش (إبادة الجاموس أوضح مثال) وما يتبع ذلك من إهمال سياسي يؤدي إلى تأخير المساعدات الغذائية عن القبائل مما كان يقود إلى اندلاع العنف قهراً، بل سجل التاريخ نشر الأمراض عمداً عن طريق توزيع البطانيات الملوثة في بعض الحوادث الموثقة[26]، وتقول واحدة من المؤرخين إن الأوروبيين في القرن الثامن عشر كانوا يملكون المعرفة والتقنية والنية لنشر الجدري بين الهنود الحمر، وإن وقائع حقيقية من الحرب الجرثومية ربما حدثت أكثر مما اعترف به المؤرخون سابقاً[27]، وتشير الأبحاث الحديثة إلى أثر الممارسات الاستعمارية الإنجليزية في الجنوب الأمريكي على انتشار الأمراض بين السكان الأصليين فيه، فقد أدى استرقاق الهنود وتجارة الرقيق وما صاحبها من نقل أعداد كبرى من السكان الأصليين للمتاجرة بهم والعنف الذي رافق ذلك إلى أن تتمكن جراثيم الأمراض الفتاكة من "الوصول إلى أقصى درجات إمكاناتها القاتلة" التي لم تكن لتصل إلى هذه النتائج الكارثية في الجنوب الأمريكي لولا تجارة الرقيق التي جعلت أحد المؤرخين يؤكد أن تبعات الاستعمار الإنجليزي المأساوية فاقت تبعات الغزو الإسباني الدموي لتلك المنطقة[28]، بل أن انتشار الأمراض الوبائية لم يكن عملية نتجت تلقائيا بمجرد وصول الرجل الأبيض والتقائه بالسكان الأصليين، إذ تدخلت العوامل البشرية كأساليب الاستيطان والنشاطات الاقتصادية التي تحكمت في درجة حدوث اللقاءات بين أفراد

---

(26) مارك فرو، ص68.

(27) Paul Kelton, Epidemics & Enslavement: Biological Catastrophe in the Native Southeast 1492-1715, University of Nebraska Press, Lincoln, 2007, p. 260.

(28) نفس المرجع، ص222-223.

العالمين، في جعل الجراثيم تقوم بتأثيراتها القاتلة[29]، وأن هذه الآثار الفتاكة حدثت بعد انتشار النفوذ الأوروبي وليس قبله[30]، ولا ننسى هنا ما سببته سياسة استرقاق الأفارقة من نشر أمراض وبائية جلبها تجار النخاسة من إفريقيا كالملاريا والحمى الصفراء، كما أدى الاحتكاك بين الأوروبيين والسكان الأصليين إلى اكتساب الهنود عادات مرذولة جلبت الأمراض الفتاكة معها كإدمان الكحول بنتائجه القاتلة، والتفسخ الجنسي، وكان الأثر الأمضى لأمراضه العديدة هو إضعاف الخصوبة لدى السكان الأصليين .

وبكل هذا لم يكن من الغريب أن طلائع المهاجرين الأوروبيين عدوا أن الأوبئة التي سبقت وصولهم إنما هي نعمة من الله أيد بها شعبه المختار وأخلى له الأرض من أعدائه ثم حسم الخلاف حولها بمزيد من الأمراض التي لم تبق منهم أحداً، وسرهم كثيرا منذ البداية مشهد الأكواخ المليئة بالجثث، وعزوا هذا التدبير إلى المسيح الذي يرعى كنيسته[31]، وفي الوقت الذي سبقت رذائل البيض وصولهم إلى القارة الجديدة فإن مزايا حضارتهم كالتطعيم ضد الأمراض كانت تصل الهندي متأخرة جداً عن ظهورها لدى مخترعيها بسبب عدم اكتراث الساسة الأمريكيين به[32]، ولم تفده كما أفادت غريمه، ووصله التطعيم بعدما أخذ الموت مأخذه منه ووصلت أعداد الهنود حافة الانقراض[33].

ويؤكد مؤرخ النقاط السابقة بإشارة مهمة وهي أن الأوبئة القاتلة انتشرت في العالم في عصور أخرى وأماكن أخرى بشكل مخيف أحياناً، كطاعون الموت الأسود الذي فتك بأوروبا في القرن الرابع عشر، ولكن

---

(29) نفس المرجع، ص36.

(30) نفس المرجع، ص99.

(31) كارلهاينتس دشنر، ص57.

(32) Russell Thornton, American Indian Holocaust and Survival: A Population History Since 1492, University of Oklahoma Press, Norman, 1990, pp. 100-101.

(33) نفس المرجع، ص82.

- مارك فرو، ص68.

ذلك لم يؤد إلى القضاء على السكان ولم ينتج عواقب وخيمة كالتي حلت بسكان أمريكا الأصليين، وذلك لأن تزايد عدد الوفيات ترافق بانهيار الولادات أثناء ممارسة السياسات التي استهدفت تحطيم المجتمعات الهندية "ومن هنا، لا ينبغي النظر إلى الأوبئة كظواهر بيولوجية مستقلة عن الإرادة البشرية، بل على العكس، كإحدى أوجه الاستعمار"[34]، أما هذه السياسات التي نجمت الأمراض عنها وترافقت معها كالحروب والمذابح والطرد وتحطيم طرق الحياة "فلم تكن عواقب وخيمة للاستعمار، بل كونت جوهره نفسه"[35].

ويجب ألا يغيب عن البال الإرادة الواعية التي وقفت خلف محاولات تفريغ الأراضي الأمريكية من سكانها الأصليين لإفساح المجال للاستيطان الأبيض كما أشارت واحدة من المؤرخين، وهي حقيقة تؤكد أن البشر أكملوا ما لم تصنعه الأمراض في عملية الإبادة، وهنا تبرز حجة أن تلك الإبادة لم تكن عن سابق نية بل جرت بها الحوادث، فيأتي الرد من عدة مؤرخين بأن النزعات التوسعية ظهرت عند المستعمرات الأمريكية منذ البداية وقبيل منتصف القرن الثامن عشر تكاملت فكرة قيام امبراطورية تستهدف الهيمنة على القارة كلها[36]، أما كون الإبادة حدثت من غير تخطيط فإن هذا لا ينفي أن حوادثها جرت بطريقة واعية ومسئولة[37]، أي لم تكن رمية من غير رام بل كان وراءها بشر فاعلون، ولهذا مازال هناك من لا يمارس النفاق الليبرالي الذي يستفيد من الكارثة ثم يبكي عليها، ومن المنسجمين مع هذا التاريخ الكاتب البريطاني الأمريكي كريستوفر هيتشينز الذي انتمى زمناً إلى معسكر اليسار واحتفى به العرب كثيراً ولكنه انقلب إلى اليمين المتطرف وقال: "من لا يحتفل بإبادة سكان أميركا الأصليين إنسان يكره إنسانيته، إنه مخبل، جاهل، بليد. أما الذين ينظرون إلى الإبادة نظرة نقدية

---

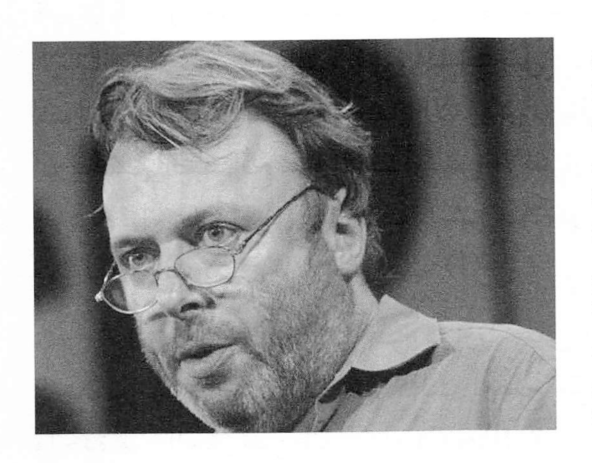
(34) مارك فرو، ص68.

(35) نفس المرجع، ص65.

(36) هاري ماجدوف، ص86.

(37) صوفي بيسيس، ص29.

فهم رجعيون متخلفون لأن التاريخ لا يصنع إلا بمثل هذه الفظاعات، ولهذا فإن التذمر من ذلك لا معنى له لأنه كالتذمر من تحول في المناخ أو الجيولوجيا، أو طبيعة الأرض (أي قدر لا مرد له)، ثم إن هذه الإبادة تستأهل التمجيد والافتخار لأنها كانت سبباً في تحسن الوضع الإنساني"[38].



الكاتب البريطاني-الأمريكي كريستوفر هيتشينز (1949-2011) انتمى إلى اليسار وألف بالاشتراك مع البروفيسور الفلسطيني إدوارد سعيد كتاباً ينقد فيه المقاربة الغربية للقضية الفلسطينية لأنها تقوم بلوم الضحية، كما قام بمحاكمة وزير الخارجية الأمريكية السابق هنري كيسنجر في كتاب آخر، لكنه انقلب على عقبه وذلك فيما يبدو لأنه أصبح أكثر انسجاماً مع التاريخ الغربي من النفاق الليبرالي واليساري، وصار من صقور اليمين، ولعل ولعه بسيرة توماس جيفرسون ورغبته في الانسجام مع حقائق تاريخ بلاده ساهما في انقلابه

وقد لاحظ مجموعة من المؤرخين أن الإبادة تمت في الولايات المتحدة بوسائل أنعم من الطرق التي استخدمها الإسبان من قبلهم، فيقول أحدهم إن المستعمرين الجدد في الكاريبي لم يرتكبوا مجازر كبرى كالإسبان إلا أنهم قضوا على الهنود بطرق جمعت بين الطرد والاضطهاد[39]، وهو ما لاحظه الكاتب الفرنسي الشهير ألكسيس دي توكفيل الذي عاصر الحروب

---

(38) منير العكش، أميركا والإبادات الجنسية: 400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2012، ص147-148.

(39) مارك فرو، ص61.

الهندية في القرن التاسع عشر وقال في كتابه الشهير الديمقراطية في أمريكا : "لقد عجز الإسبانيون عن إبادة جنس الهنود الحمر بتلك الفظائع التي ارتكبوها معهم، وهي فظائع لا نظير لها، وسمتهم بميسم العار، بل إنهم لم يستطيعوا حتى أن يجردوهم كل التجريد من حقوقهم التي لهم، أما أمريكيو الولايات المتحدة فقد حققوا هذا الغرض المزدوج (الحرمان من الحقوق والإبادة) بلباقة مدهشة حقاً، وفي هدوء، وعلى صورة قانونية بشكل عمل خيري، ومن غير إراقة دماء، أو انتهاك لمبدأ واحد عظيم من مبادئ الإنسانية في نظر العالم، فمن المستحيل أن يُقضى على قوم مع احترام للقوانين الإنسانية بأكثر مما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر"[40]، مما يؤكد أن تحقيق المصالح هو الأهم وليس الإضرار لأجل الإضرار، وقد تكون جريمة قتل عامة بحصار لآلاف البشر مثلاً دون إراقة دمائهم "أنظف" من قتل فرد واحد يغرق قاتله في دمائه (!)

أما ما أصاب إفريقيا من كوارث على يد الاستعمار فيُستبعد منه الجانب القدري لأن الجرائم كانت أوضح من أن تغطى، وفي ذلك تقول واحدة من المؤرخين إنه لا أحد يجادل في أن تجارة الرقيق كانت أحد الأسباب الأساسية لدوام افتقار القارة الإفريقية للسكان حتى منتصف القرن العشرين، ويقول مؤرخ آخر إنه إذا كانت كل المجتمعات قد شهدت ظاهرة الرق فلا توجد قارة أخرى عرفت مثل هذا النزيف المستمر والمنظم لفترة ممتدة كالتي شهدتها إفريقيا منذ القرن السابع إلى القرن التاسع عشر ويدخل فيها الاسترقاق العربي إلى جانب الاسترقاق الغربي الذي يتميز بكونه قام بممارسة النخاسة بشكل أكبر وأسرع من مثيله العربي، إذ انتزع من إفريقيا ما يقرب من الضعف في فترة زمنية أقصر ثلاث مرات مما أدى لإحداث تدمير واضح وأكثر تأثيراً على المناطق المنكوبة[41]، ويؤكد مؤرخ ثالث العلاقة

(40) أليكسيس دي توكفيل، الديمقراطية في أمريكا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962، ترجمة: أمين مرسي قنديل، ج1 ص431.

(41) صوفي بيسيس، ص36-37.

بين مشاكل إفريقيا الحالية والممارسات الاستعمارية في استبعاد مشاركة السكان المحليين في عمليات اتخاذ القرارات في الأنظمة الحاكمة[42]، ويفصل مؤرخ رابع الصلة بين "أوروبا والتخلف في إفريقيا" بالقول إن النظام الرأسمالي العالمي كان السبب الرئيس لتخلف إفريقيا في القرون الخمسة الماضية[43] "مبيناً كيف أن تجارة الرقيق الأوروبية ووصمة الاستعمار كانتا السببين الأساسيين وراء تخلف أفريقيا وركودها التقني"[44]، وفصّل الحديث عن تجارة الرقيق بوصفها أحد العوامل الرئيسة لتخلف إفريقيا إلى أن جاء الاستعمار (1885)[45] الذي قام، بذريعة "إنسانية" هذه المرة وهي القضاء على الرق[46]، بممارسة شكل جديد من الاستغلال بإزاحة الفائض المالي والاقتصادي الإفريقي إلى أوروبا[47].

إن إنكار الدوافع الاقتصادية لعملية الاستعمار كالادعاء بإفادة الضحايا من عملية الاسترقاق ووجوب تقديمهم الشكر لمن أجرم بحقهم، وكلها ادعاءات من جنس تبرئة الذات، ولا بأس بالاطلاع على بعض ما قاله مؤرخون بل مسئولون في الدول الاستعمارية.

يقول الرئيس الفرنسي السابق شارل ديغول: "عندما احتللنا الجزائر، مثل بقية المستعمرات الأخرى، كانت لدينا النية في استغلال المواد الأولية التي كانت تغفو حتى ذلك الوقت، وتجفيف المستنقعات وزراعتها، وزراعة الهضاب القاحلة، وكنا نستطيع أن نأمل في فائض كبير عن نفقة الاحتلال، في ذلك الزمن، كان السعي إلى الغنيمة مقنّعاً بإعلان عن دور يقدمونه لنا كواجب نبيل، إذ كنا نحمل الحضارة، لكن منذ الحرب العالمية الأولى والثانية بالخصوص، تفاقمت تكاليف الإدارة، وازدادت مطالب الأهالي من

---

(42) Robert Aldrich, p. 235.

(43) د. والتر رودني، ص7.

(44) نفس المرجع، الغلاف الخارجي الأخير.

(45) نفس المرجع، ص135.

(46) مارك فرو، ص122.

(47) د. والتر رودني، ص215.

أجل تقدمهم الاجتماعي، وهو أمر طبيعي تماماً، ولم تعد الفائدة تعوض التكاليف، والمهمة التحضيرية التي لم تكن في البداية إلا ذريعة، أضحت المسوغ الوحيد لمواصلة الاستعمار، لكن بما أنه يودي بكل هذه التكاليف، لِمَ الإبقاء عليه، إذا كانت غالبية السكان لا تريده؟»[48]، والرسالة واضحة: استعمرنا عندما كان الاستعمار مفيداً، فلما أصبح باهظ النفقات علينا التخلي عنه.

ويقول الزعيم السياسي الفرنسي الشهير جول فيري أحد أنصار الاستعمار المتحمسين والذي وصل إلى الحكم وخطط للتوسع وإيجاد امبراطورية فرنسية إن دوافع الاستعمار هي الحصول على المواد الأولية الرخيصة من عمل الأهالي، لاسيما في إفريقيا، والتمتع بأسواق لضمان تسويق المنتجات الصناعية، وبخاصة في آسيا[49]، ولخص فلسفة الاستعمار بقوله: «الاستعمار ضرورة اقتصادية وعسكرية ومعنوية: فرنسا بحاجة إلى المستعمرات في الوقت الذي ترفع (أي تزيد) فيه الدول الأوروبية الحواجز الجمركية وتحتكر أسواقها وتبحث عن أسواق جديدة، فنحن بحاجة إلى الأسواق العالمية، وأسطولنا بحاجة إلى القواعد البحرية حتى يتمون بالفحم، وفرنسا كدولة عظمى بحاجة إلى سياسة الهيبة والعظمة، فهي بحاجة إلى الاهتمام بأمور العالم والمشاركة فيها، ولا يجوز لدولة عظمى أن تستقيل وتهمل المواضيع العالمية، فإذا شاءت أن تظل دولة عظمى عليها أن تشارك في رسم مصير أوروبا والعالم، عليها أن تنشر في كل مكان لغتها وعبقريتها وسلاحها وأن ترفع علمها»[50]، وينقل عنه ربطه بين المصلحة والمهمة الحضارية إذ يقوم الاستعمار بإيجاد الأسواق وأداء الحقوق تجاه الأجناس الدنيا في نفس الوقت، وفي إيجاز لطبيعة الاستعمار يقول: «السياسة الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية»[51]، ويلاحظ أن هذه

---

(48) مارك فرو، ص562.

(49) نفس المرجع، ص29.

(50) د. وهيب أبي فاضل، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، نوبليس، 2007، ج 4 ص135.

(51) موريس كروزيه (تحرير)، تاريخ الحضارات العام، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2006، ترجمة: يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، ج 6 (تأليف: روبير شنيرب) ص215.

الاعترافات من فرنسا التي أخفت دوافعها الاقتصادية وأبرزت الدوافع الثقافية أكثر من غيرها، وعلى الضفة البريطانية يقول شارلز ديلك أحد أبرز منظري الاستعمار البريطاني: "حيث تكون المصالح يجب أن تكون السيطرة"، ويعلق المؤرخ روبير شنيرب على ذلك بالقول إن "ارتباط السياسة بالأعمال، ظاهراً كان أو مستتراً، يفسر معظم الفتوحات الاستعمارية"[52]، كما كتب أوجين اتيان في صحيفة تان سنة 1897: "إن المقياس الوحيد الواجب اتباعه في كل مشروع استعماري هو درجة فائدته ومجموع العائدات والمكاسب التي يجب أن يدرها للوطن الأم"[53].




جول فيري وشارل ديغول لم يخفيا الأهداف الحقيقية للاستعمار

ويقول المؤرخ إريك هوبزباوم إننا إذا وضعنا تحليلات لينين جانباً "فإن أول ما ينبغي على المؤرخ أن يفعله هو الإقرار بالحقائق الواضحة التي لم يكن لأحد أن ينكرها في تسعينيات ذلك القرن (التاسع عشر) ومفادها أن ثمة بعداً اقتصادياً لتقاسم المعمورة... وبصرف النظر عن الشعارات الخطابية الرسمية، فإن وظيفة المستعمرات والتوابع غير الرسمية تنحصر في مساندة الاقتصاديات المحورية لا التنافس معها..وباختصار، فإنه لا يمكن الفصل

(52) نفس المرجع، ص219.
(53) نفس المرجع، ص212.

بين السياسة والاقتصاد في المجتمع الرأسمالي، مثلما لا يمكن الفصل بين الدين والسياسة في مجتمع إسلامي، والواقع أن محاولة اصطناع تفسير خال تماماً من العنصر الاقتصادي لنشوء "الإمبريالية الجديدة" تفتقر إلى الواقعية"[54]، وهو ما يؤكد أن العلاقة كانت استغلالية وليست متوازنة كما سيأتي، ويقول المؤرخ هاري ماجدوف إن خلاصة المرحلة الإمبريالية مقارنة مع ما سبقها هي فرض أسلوب إنتاج الغازي على المجتمعات المقهورة بطريقتين: استعمال القوة لجعل هذه المجتمعات تلبي حاجات الغازي من مواد خام وتجارة واستثمار عن طريق توزيع العمل بشكل ينفع المركز الاستعماري، والطريقة الثانية هي إبادة السكان الأصليين لإفساح المجال للاستيطان والاستغلال، وهو ما يفسر توسع الهيمنة الأوروبية على مساحة الأرض من 35% في بداية القرن التاسع عشر إلى 67% عام 1878 إلى 84% قبل الحرب الكبرى الأولى (1914)[55]، أي أن هذا الجهد المتواصل للهيمنة لم يكن لأجل التمتع بالنظر لآيات الله في اختلاف ألسنة البشر وألوانهم (!)، وقد ذكرت موسوعة عالم التاريخ والحضارة أنه في ظل الاستعمار الفرنسي كان كل شيء مبدئياً لمصلحة الدولة الأم وهي فرنسا[56]، كما ذكر البروفيسور الأمريكي روبرت إمرسون إن الإمبريالي لا يستولي على بلد آخر ليضطلع برسالة تمدينية بل يقوم بذلك "سعياً وراء الربح أو الفائدة الاستراتيجية أو مجد شعبه"[57].

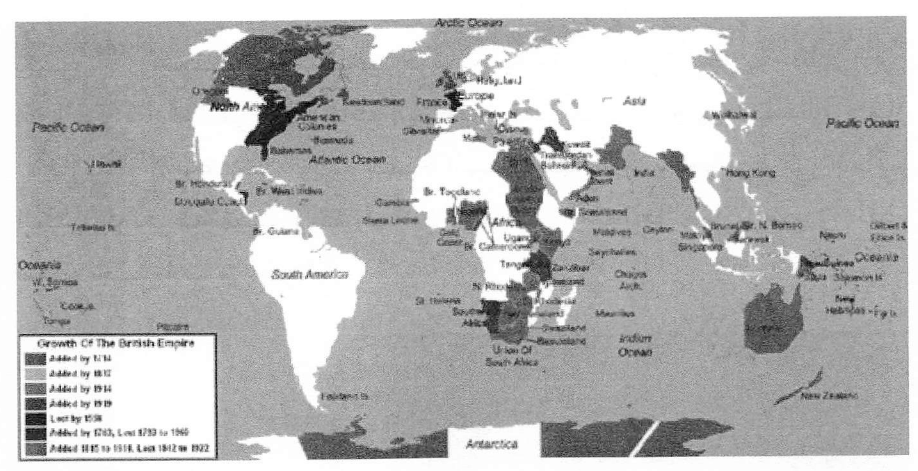
---

(54) إريك هوزباوم، 2011، ص131 و137 و144.

(55) هاري ماجدوف، ص112-113.

(56) د. وهيب أبي فاضل، ج 4 ص138.

(57) رغيد الصلح، حربا بريطانيا والعراق 1941-1991، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1997، ص51.



ليس من المنطقي أن يقول أحد إن انتشار الإمبراطورية البريطانية(58) في كل أنحاء العالم كان لأسباب خيرية

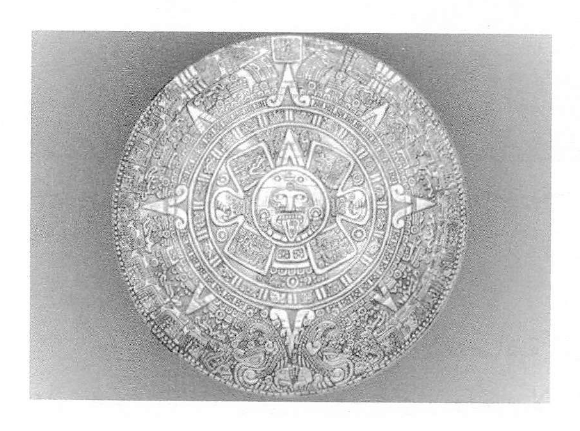
وربما كان إثبات الدوافع الاقتصادية للاستعمار من باب الاستدلال على ضوء الشمس في رابعة النهار ولكن لا بأس بالتذكير: فما هي دوافع نهب مئات الأطنان من الذهب والفضة من أمريكا اللاتينية إلى أوروبا؟ (بين 1503-1660 نقل 185 طناً من الذهب وأكثر من 3180 طناً من الفضة)(59)، هذا إذا لم نذكر السرقات من آسيا وإفريقيا حيث حدثت في تلك الفترة "أكبر عملية سرقة في التاريخ البشري"(60) وذلك بالاقتران مع سرقات أمريكا، وهل كان نقل ملايين العبيد الذين اختطفوا من إفريقيا لمدة أربعة قرون بهدف تعليمهم في مدارس وجامعات أمريكا أم لزراعة المواد الأولية كالقطن وقصب السكر والتبغ والأرز؟ وإذا كان بإمكان البعض الادعاء أن الشمال قد دخل الحرب الأهلية بدوافع أخلاقية، فهل كانت دوافع الجنوب أخلاقية أيضاً وهو يدافع بضراوة في هذه الحرب عن مصدر ثروته ونفوذه المتأتي من اضطهاد البشر؟ ثم ألم تكن تجارة الرقيق هي التي زودت التطور الصناعي في بريطانيا في التقديرات المتواضعة بعنصر ديناميكي

(58) http://yis7ahum.wikispaces.com/Growth+and+Change+in+the+Borders+of+the+British+Empire

(59) إريك وولف، ص199 و204.

(60) الدكتور رمزي زكي، ص31.

رئيس[61] وجعلت من بريطانيا قوة بحرية رئيسة وقوة تجارية عظمى في العالم[62]، أما في الولايات المتحدة فقد كان إنتاجها حصيلة عمل الأفارقة[63]؟ وعموماً فإن "جميع المستوطنات الاستعمارية في العالم الجديد ازدهرت بفضل إبادة السكان الأصليين وبفضل العمل العبودي الذي قام به جنس آخر من أفريقيا"[64].



ذهب حضارة الأزتك انتقل إلى إسبانيا بطرق همجية قضت على قيمته التاريخية وأذابته لأجل القيمة المادية

وهل كان من باب الصدف أن ثلثي صادرات بريطانيا ونصف صادرات فرنسا كانا يذهبان إلى مستعمراتهما؟[65] وهل كانت نسب التجارة الآتية مدفوعة بحوافز إنسانية : فنصيب إيطاليا 90% من تجارة ليبيا زمن الاستعمار، ونصيب فرنسا 82% من تجارة الجزائر، و60% من تجارة تونس بعدما كانت واحدة من المتنافسين قبل الاحتلال، ومثل ذلك الهيمنة على تجارة سوريا ولبنان والمغرب[66]، وهل كانت الحواجز الجمركية التي

---

(61) إريك وولف، ص289.

(62) Ronad Segal, p. 23.

- إريك وولف، ص287.

(63) د. والتر رودني، ص126.

(64) كافين رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، سلسلة عالم المعرفة (97)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1986، القسم الثاني ص105.

(65) الدكتور رمزي زكي، ص66.

(66) Charles Issawi, p. 37-38.

وضعها الاستعمار البريطاني في طريق تصدير البضائع الهندية لبريطانيا وذلك لتشجيع البضائع البريطانية مجرد لهو وتسلية أم جهد منظم لتحطيم الصناعات المحلية؟[67] وهل كان نهب شركة الهند الشرقية خزينة دولة البنغال بعد إلحاق الهزيمة بها (1757) مجرد إعجاب بنقوش الذهب البنغالي؟[68]

وهل كانت الإبادة عملاً خيرياً لإرسال السكان الأصليين إلى حياة أخرى أفضل من الحياة الدنيا أم لأنهم كانوا "نوعاً أدنى وضاراً من البشر والقضاء عليهم شرعي بل حتى مناسب"[69]، ثم تحول القتل إلى تسلية ورياضة للرجل الأبيض في الولايات المتحدة وفيتنام والعراق[70]، وهل يمكن القول إن الدول الاستعمارية لم تستفد من تجنيد أهالي المستعمرات مع كون نصف عدد جنود بريطانيا من مستعمراتها[71]؟ وهل يمكن القول إن الغرب شن حروب الأفيون على الصين لإشاعة البهجة بين أفراد الشعب الصيني مثلاً؟ وهل قام ملك بلجيكا بامتلاك مستعمرة الكونغو ملكاً شخصياً لالتقاط صور المشاهد الطبيعية فيها أم طمعاً في ثرواتها الغنية؟

إن الدوافع الاقتصادية في المغامرة الاستعمارية أوضح من الأضرار التي تسببت بها وكانت ناتجة عن الرغبة بالاستئثار بالمصالح الاقتصادية، ولهذا يميل المؤرخون اليوم إلى تسوية الخلاف مثلاً حول تاريخ الهند، بين المستعمِرين الذين ادعوا أن غزوهم كان نتيجة لا إرادية لسلسلة مبادرات فرضت على شركة الهند الشرقية التدخل لضرورة حماية مصالحها من

---

(67) هاري ماجدوف، ص163.
- إريك وولف، ص355-356.

(68) إريك وولف، ص350.

(69) مارك فرو، ص67.

(70) د. جيرمي سولت، ص386.
- كارلهاينتس دشنر، ص496.
- Alvin M. Josephy, JR., Now That the Buffalo's Gone: A Study of Today's American Indians, University of Oklahoma Press, Norman, 1989, p. 74.
- Angie Debo, A History of the Indians of the United States, University of Oklahoma Press, Norman, 1983, p. 191.

(71) الدكتور رمزي زكي، ص91.

الشركات المنافسة، والمستعمَرين الذين رأوا في هذا المشروع تعمداً للإخضاع بالعنف إلى أقصى درجات الاستغلال، بالقول على سبيل الوصف إن البريطانيين لم يتورطوا جبراً في احتلال الهند لمجرد حماية مصالحهم، ولا كانوا متعمدي تدمير البنى الهندية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن الدوافع الاقتصادية الأولية، وليس الدوافع الأيديولوجية التبشيرية أو التمدينية، ولا الرغبة في السلطة، بل فقط السعي النفعي نحو أعلى ربح بأقل التكاليف البشرية والمادية هو الذي جعلهم يستخدمون تلك البنى الهندية لأجل مصالحهم وهو الذي قاد إلى النتائج التي حلت بالمستعمرة[72].

إن المهم في وجوه الضرر ارتباط ازدهار المستعمِر ببؤس المستعمَر، وهذا ما لاحظه كثير من المؤرخين، منهم على سبيل المثال إريك هوبزباوم الذي قال إن الديمقراطية السياسية في المستعمرات الاستيطانية خارج أوروبا "كانت تفترض استئصال أهل البلاد الأصليين...وحينما لم يكن من الممكن إزالتهم عن طريق دفعهم قسراً إلى محميات، أو إبادتهم، فإنهم لم يكونوا يعدون جزءاً من المجتمع السياسي" وذلك رغم أنه "في عام 1890، كان عدد الهنود مئتين وثلاثين ألفاً فقط من أصل سكان الولايات المتحدة البالغ عددهم ثلاثة وستين مليون نسمة"[73] ورغم ذلك ضاقت على الهنود الأرض الديمقراطية بما رحبت، وفي هذه المستعمرات ارتبط التطوير باجتثاث أو طرد السكان الأصليين إذ "كان رجال ونساء من أصول أوروبية قد استوطنوها وطوروها بعد أن اجتثوا أو طردوا منها سكانها الأصليين، مما أسفر عن قيام المدن، وبعدها دون شك، حضارة صناعية: الولايات المتحدة الأمريكية غربي المسيسبي، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلندا، وجنوب أفريقيا، والجزائر، والجزء المخروطي من أميركا الجنوبية"[74]، ورغم عظم

(72) مارك فرو، ص277-278.

(73) إريك هوبزباوم، 2011، ص63.

(74) نفس المرجع، ص133.

سطوة النزعة الديمقراطية الراديكالية في المستعمرات التي استوطنها البيض فإنها "قصّرت، في العادة، عن أخذ أهل البلاد الأصليين بالاعتبار، (و)الواقع أن الديمقراطيات البيضاء قد استثنتهم كذلك وحرمتهم من المكاسب التي حققها ذوو البشرة البيضاء، أو أنها رفضت اعتبارهم بشراً كاملين"(75).

ويقول هاري ماجدوف إن التوسع الاستعماري تميز منذ أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر بشكل خاص بانتشار القوى المستعمِرة ومهاجريها إلى داخل القارات بأحد شكلين أو بمزيج منهما "1-إزاحة السكان الأصليين إما بقتلهم وإبادتهم أو حصرهم بالقوة في مناطق مخصصة لهم، مما يفسح المجال أمام المستوطنين من أوروبا الغربية لتطوير زراعة وصناعة هذه الأراضي في إطار النظام الاجتماعي المستورد من البلدان الأم -2-قهر الشعوب المحلية وتحويل مجتمعاتها القائمة لتلائم الحاجات المتغيرة للدول المتقدمة التي تفوقها قوة، عسكرياً وتقنياً"(76).



حصر الهنود في أمريكا في معسكر اعتقال كبير في الشتاء القارس تمهيداً لترحيلهم إلى الغرب البعيد في زمن "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن (1863)

---

(75) نفس المرجع، ص136.

(76) هاري ماجدوف، ص29-30.

وتقول صوفي بيسيس إنه لا يوجد "أي شك في أن الرغبة في إفراغ أراضي الغرب الأمريكي من سكانها الأصليين ألفت الدافع الرئيس للحروب الهندية في القرن التاسع عشر، إن الديمقراطية الأمريكية، هذه البنت الشرعية للتنوير، قامت في أقل من نصف قرن على استرقاق شعوب تم ترحيلها من موطنها وعلى إبادة شعب آخر دون أن يثير فيها ذلك الشعور بخيانة المثل الأعلى الذي قامت عليه"[77].

وكما ارتقى الأنجلوساكسون على حساب غيرهم كذلك فعل الإسبان في أمريكا اللاتينية، وفي هذا السياق يشير المؤرخ جوسيب فراديرا إلى المفارقة بين استنزاف وانخفاض عدد السكان الأصليين وازدهار الاقتصاد الاستعماري الذي يخدمونه تحت الحكم الإسباني الذي أجبرهم على العمل القسري[78].

ولهذا ربط عدة مؤرخين ومفكرين بين الإمبريالية الاستعمارية الغربية والأنظمة الشمولية الأخرى كالنازية والفاشية والشيوعية، ويستدلون على ذلك بقيام النازية والفاشية والشيوعية على نفس المسلمات المادية للحضارة الغربية وقيامها بنفس الممارسات والسياسات القمعية، إلا أن جريمة هتلر مثلاً ليست في سياسته بقدر ما هي في ارتكابه هذه الجرائم على الأوروبيين أنفسهم وليس على العرب والهنود والأفارقة[79].

■ الاستعمار قطع طرق التطور الطبيعي للحضارات المختلفة

لم تكن جرائم الاستغلال والنهب والقتل التي أدت إلى التخلف هي الوحيدة التي مارسها الاستعمار بل هي الخطوة التالية لموضوعة نراها تتكرر في تاريخه وهي قطع طرق التطور الذاتي التي كانت الحضارات الأخرى

---

(77) صوفي بيسيس، ص45.

(78) Robert Aldrich, p. 51.

(79) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، 1999، ج2، ص407 و413.
- مارك فرو، ص17-18.
- د. والتر رودني، ص292.

تسير فيها، متقدمة أو متأخرة، وفي ذلك تقول المؤرخة صوفي بيسيس إن الاستعمار حمل الحداثة وبدأ بعض التطورات داخل المناطق التي سيطر عليها، وهي العالم كله، ولكن ذلك لا يمنع من وضع كشف حساب أكثر دقة، رغم النظر باستخفاف إلى محاولة تصور كيف كان من الممكن أن يتطور العالم الأوروبي لو لم تسحقه آلة الاستعمار الماحقة، فقد نتج عن أهم مرحلتين استعماريتين في أمريكا أولاً ثم في بقية العالم، الموت أو انقطاع التواصل لبقية الحضارات، وهو ما لا نظير له في التاريخ القديم، ورغم دراسة بعض مظاهر هذه الظاهرة فإن أحداً لم يتعرف حتى الآن على أبعاد هذا الانقطاع ولم يتابع أحد الهزات التي تبعت الهزة الاستعمارية الأصلية "ومازلنا لا نتعرف تماماً على كل ما خلفه داخل أحداث اليوم الغامضة"[80].

ولعل المثل المصري العثماني يوضح ذلك بجلاء: فطالما صورت مصر تحت الحكم العثماني لمدة ثلاثة قرون تقريباً قبل الحملة الفرنسية (1517-1798) بصورة قاتمة تسودها الفوضى والركود والجهل والتخلف في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى أن بزغ "نور أوروبا" ومهد للحداثة التي شهدتها مصر في زمن محمد علي باشا، وهذا ما زعمته المدرسة الاستعمارية زمناً طويلاً لتأكيد اعتقادها أن الأخذ بالنموذج الأوروبي هو السبيل الوحيد للتقدم، ليتكشف الأمر بعد بحوث عديدة على أن الرأي السابق بني دون بحث أو تمحيص وأن قيام بحوث رائدة في هذا المجال أخضع النظرة السابقة للنقد والمراجعة وأدى إلى اهتزاز الصورة الراكدة التي كونتها وكشف عن "قصور مصادرها، وفساد تعميماتها، وخضوعها لسيطرة فكرة المركزية الأوروبية، فجاءت تلك الدراسات الجديدة بمعلومات وفيرة وآراء جديدة، أكثر دقة وموضوعية، نبهتنا إلى ضرورة إعادة اكتشاف وجه مصر خلال هذه القرون الثلاثة"[81].

---

(80) صوفي بيسيس، ص137-138.

(81) د. أحمد زكريا الشلق، الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق، القاهرة، 2005، ص16. =

ومن هذه الدراسات دراسة الأستاذ ناصر عبد الله عثمان عن الحركة العلمية في مصر في أكثر حقب التاريخ المصري غموضاً وهو القرن السابع عشر لترد على "المزاعم التي تدعي بأن شعلة العلم قد انطفأت تماماً في مصر والدول العربية تحت ظل الدولة العثمانية"، لتكشف أولاً أن "تقلص الينابيع الفكرية لم يكن وليد العصر العثماني أو شيء انفرد به دون غيره، فقد أشارت الدراسة إلى أن هذا الأمر ظهر منذ بدايات القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي"، وأهم ما خرجت به الدراسة أن الجوانب الفكرية في كثير من العلوم قد شهدت تطوراً كبيراً في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، كالحديث والفقة واللغة والتاريخ بفروعه، بالإضافة إلى الأدب الذي لم يكن أسلوبه منحطاً أو ركيكاً كما وصفه المتحاملون على العصر العثماني، والعلوم العقلية التي لم تكن محرمة كما ادعى البعض بل وجدنا عكس ذلك تماماً من الاعتناء والتدريس للمنطق والحساب والطب، كما وجدنا الكتابات الموسوعية غير المقتصرة على تخصص واحد، وكل ذلك طبعاً يجب أن يقاس بمقاييس ذلك العصر لا بمقاييسنا المعاصرة(82).

وعن الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد يقول الدكتور عبد الله العزباوي في كتابه الذي يحمل نفس العنوان والذي وصفه الدكتور يونان لبيب رزق بعدم الانحياز*، إن هذا الفكر كان يغلب عليه

= – ناصر عبد الله عثمان، قبل أن يأتي الغرب: الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006، ص9–11 (مقدمة الأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق).

(82) نفس المرجع، ص373–376.

(*) د. عبد الله العزباوي، الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص 8، وفي إشارة لا دليل عليها في نفس الصفحة يذهب الدكتور يونان لبيب رزق في مقدمته إلى التلميح باتهام قامة شامخة كالأستاذ الدكتور الراحل عبد العزيز محمد الشناوي بأنه كتب كتابه الموسوعي "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها" انحيازاً إلى حملة دول النفط التي استخدمت ثرواتها لتشجيع المؤرخين على تحسين صورة الدولة العثمانية، والغريب أن يصدر هذا الاتهام من أستاذ تاريخ يعرف أن دول

الجمود والتقليد في النصف الأول من القرن، ولكن لم يكن العثمانيون هم السبب في هذا الضعف الذي بدأ منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وإن التعليم لم يكن متدهوراً كما ظن بعض الباحثين بل إنه كان متقدماً وإن شابه التركيز على العلوم النقلية، ومع ذلك لم تختف العلوم العقلية كالطب والرياضيات والفلك، وإن الحركة الفكرية في مصر أخذت منذ أوخر القرن الثامن عشر تحرز درجة كبيرة من التقدم والتطور على أيدي علماء موسوعيين وآخرين خرجوا عن طريقة الحواشي والشروح ونادوا بالتجديد، فلم تكن الحملة الفرنسية هي التي أدت إلى تطور الفكر المصري لأن نهضته بدأت منذ أوائل القرن ونمت في أواخره قبل مجيء الفرنسيين، وكانت هذه النهضة مختلفة عن النهضة الغربية[83].

وخلاصة ما يقوله الدكتور أحمد زكريا الشلق إن مصر لم تكن نائمة قبل أن يأتي الغرب، وأن حركتها كانت مستمرة نحو حداثة من صنع تطورها ضمن المجتمع العثماني الأكبر، وأن تاريخ الحداثة فيها سبق الحملة الفرنسية، وإذا لم تأخذ تلك الحداثة الشكل التقني فقد أخذت الشكل الثقافي والاقتصادي الذي يدحض إمكان سحب صفات سلبية موحدة على القرون العثمانية الثلاثة، فقد مرت بمراحل من الازدهار والتطور ومراحل من التدهور، وإذا كنا نقرأ عن عبقريات كالزبيدي مؤلف تاج العروس والجبرتي صاحب التاريخ فإن هذه العبقريات لم تكن مقطوعة الأصول

النفط جميعها قامت شرعية تأسيسها على التحالف مع بريطانيا لمساعدة هذه الإمارات على الانفصال عن الخلافة الإسلامية، ومن ثم فلن يكون لتحسين صورة العثمانيين أية مردودات إيجابية عليها، وبغض النظر عن أي جهد قامت به في هذا المجال الثقافي دون إدراك مآلاته المنطقية فإن كتاب الدكتور الشناوي لا يندرج تحت هذا البند لأنه مليء بالنقد القاسي لهذه الدول النفطية حيث لزم ذلك في موضوع موقف بعضها المشبوه من مشروع سكة حديد بغداد ولهذا فمن المستبعد أن يكون انحيازه لأية حملة قامت بتمويلها، ولو كان الدكتور رزق قد قرأ الكتاب لاستبعده من دائرة اتهامه دون شك، وربما كان هناك كثير من المؤرخين الآخرين بل والمفكرين اللامعين الذين كان ارتزاقهم من دول النفط أكثر وضوحاً وجلاء من ناقد لم يرحم كالأستاذ الشناوي.

(83) د. عبد الله العزباوي، ص211-214.

بمجتمعاتها، وأثبتت الحداثة التي شهدتها مصر أنه يمكن أن يكون لكل مجتمع طريقه الخاص في التطور الذي يأخذ دائماً شكل التغيرات الاجتماعية الهادئة، ويتراوح كثير من المؤرخين في الحديث عن آثار الحملة الفرنسية بين القول إنها إذا لم تتعمد الإفساد فإنها لم تشجع بشكل جاد على النهوض بمصر والمصريين إلى مرحلة أعلى من التمدن، والقول إن حتمية التاريخ كانت ستفضي بمصر إلى الانفتاح على الحداثة دون غزو فرنسي، وإن مصر كان مآلها إلى التغيير سواء ظهر بونابرت أم لا، والقول إن الاحتلال الفرنسي قطع سياق التطور الطبيعي لمصر كما قطع سياق علاقتها بالدولة العثمانية، وخصوصيتها سياسياً وحضارياً[84].



لم نكن بحاجة "لخدمات" الفرنسيين التي دفعنا ثمناً غالياً مقابلها ومع ذلك لم نصل لمستوى فرنسا من الحداثة

(84) د. أحمد زكريا الشلق، ص15-46 و175-176.

ثم استؤنفت العرقلة بعد رحيل الفرنسيين..

ومن أمثلة ذلك ما حدث في مجمل منطقتنا حيث لم تكف القوى الأوروبية "عن عرقلة أي محاولة تحديث للمناطق التي تود وضعها تحت وصايتها، وتقدم مصر محمد علي والإمبراطورية العثمانية أمثلة معروفة عن تلك العراقيل...إن القوى الاستعمارية قد وضعت حداً، وبأسرع ما يمكن، وبالقوة في أغلب الأحيان، لمثل هذه المشاريع...وبخلاف القوة العسكرية رُفع سلاح حرية التبادل التجاري في وجه الصناعات الوليدة: هذا السلاح نفسه سيعاد استخدامه في أزمنة مختلفة"(85).

وفي حرب الخليج الثانية (1991) خرج وزير الدفاع الفرنسي جان بيير شوفنمان من بلبلة الأحداث الجارية ليستشرف التاريخ ويرى اتصالها بسلسلة أحداث مشابهة في القرن الذي سبقها والتي لا يمحو تعدد التبريرات الاستعمارية المزيفة فيها، الدافع الأوحد الماثل خلفها جميعاً، فقدم استقالته بعدما رأى أن المجزرة الجارية على الأرض لا تتفق مع الهدف المعلن وهو تحرير الكويت وأن هذا الهدف ليس سوى واجهة مزيفة لغرض حقيقي مختلف يؤكد التدمير الجاري أن الجناة يسعون إليه وتفضحه السوابق المشابهة: "لثلاث مرات في غضون قرن، ابتداءً من محمد علي باشا، ومروراً بجمال عبد الناصر، وانتهاء بصدام حسين، يحطم الغرب بوحشية السلاح، حلم نهضة عربية، ودخولاً عريضاً إلى خط صناعة التاريخ العالمي المعاصر"(86).



جان بيير شوفنمان الذي كان وزيراً للدفاع الفرنسي واعترض على قطع طريق العرب الحضاري.

(85) صوفي بيسيس، ص74.

(86) حمدان حمدان، العراق وثمن الخروج من النفق: من محمد علي باشا إلى عبد الناصر فصدام حسين، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2004، ص11.

ويؤيد هذا الاستنتاج نقطتان: الأولى هي التطور الذي حدث في العراق حتى بمقاييس الغرب وأهدافه، والثانية هي كذب الهدف الذي ادعته الولايات المتحدة لعملية قصف العراق حيث شملت الأهداف مواقع ليس لها أي علاقة بتحرير الكويت،

أما النقطة الأولى فيقول عنها المؤرخ الأمريكي جيرمي سولت: "حوّل البعث العراق إلى إحدى البلاد الأكثر حداثة في الشرق الأوسط، إذا كانت "الحداثة" تعني المستشفيات والمدارس والجامعات والتعليم المجاني والحقوق المتساوية بين الرجل والمرأة ونظام الرفاه وحقوق العمال، وبتعبير كنعان مكية: غيّر البعث الصورة للبنية التحتية للعراق، فلقد وفر النظام الخدمات الصحية المجانية ومجانية التعليم للجميع وطور وسائل المواصلات والنقل وأوصل الكهرباء إلى كل قرية في البلاد، في العراق اليوم (زمن الحديث) طبقة متوسطة واسعة وكبيرة، وفيه من رجال الفكر والثقافة النخبة الأفضل علماً وثقافة في العالم العربي"[87].

وعن مكانة المرأة التي تحتل الصدارة في الدعاية الغربية يقول دبلوماسي هندي عاش في بغداد في المدة بين 1976-1878: "إن ثورة صدام هي التي وضعت حداً لتخلف العراق، وأصبح التعليم، بما في ذلك التعليم العالي والتعليم التكنولوجي، الأولوية القصوى، والأهم من ذلك أن قروناً من التمييز القاسي ضد البنات والنساء أُنهيت بحركة واحدة من قلم "الديكتاتور المصلح"...لقد كان تحرير النساء، أي نصف الشعب العراقي، أعظم إنجاز لنظام حكم صدام حسين، ولفهم عظمة هذا الإنجاز ما عليك إلا النظر عبر الحدود العراقية إلى المملكة العربية السعودية التي كانت في الماضي الوكيل المفضل للولايات المتحدة"[88]، والخلاصة أن الغرب فضل استبداداً متخلفاً في نظره على استبداد مستنير بنفس المقياس، وذلك

---

(87) د. جيرمي سولت، ص347.

(88) جيف سيمونز، عراق المستقبل: السياسة الأمريكية في إعادة تشكيل الشرق الأوسط، دار الساقي، بيروت، 2004، ترجمة: سعيد العظم، ص302.

تبعاً لمصالحه الحصرية التي قدمها على الأهداف الحضارية التي يدعيها كذباً ليل نهار.

وأما النقطة الثانية التي تثبت الاستهداف الغربي للنهوض العربي في حرب الخليج الثانية فهي ما لاحظه الوزير شوفينمان مع كثير من المراقبين من شمول القصف الأطلسي على العراق كثيراً من الأهداف التي لا علاقة لها بالهدف المعلن وهو تحرير الكويت و"صار من الواضح والجلي أن الهدف الستراتيجي المتقدم لم يكن فقط تدمير الجنود والأسلحة ومصانعها، بل شل العراق كوحدة اجتماعية عاملة. خزانات البترول، محطات توليد الكهرباء، معامل تكرير المياه للشرب، وكل شبكات المواصلات في البلد، كلها عطلت عن العمل، مستودعات الطعام والمئونة ومخازن الحبوب والبذور ومطاحن وإهراءات القمح ومعامل الزجاج والقناني ومعامل الألبان والأجبان ومشتقاتها، والكلور، ومعامل الورق المقوى -الكرتون- والبلاستيك والسكر والإسمنت والنسيج وغذاء الأطفال، كلها فجرت، معمل الملابس الداخلية قد ضُرب، والمختبر الوحيد لإنتاج اللقاحات للصحة الحيوانية دُمر، والأبنية التي دُمرت أو أصيبت، كان من بينها مكاتب الحكومة والمدارس والمستشفيات والمشافي ودور السينما والنوادي الرياضية، الملاعب والمدرجات... تسعة آلاف منزل في بغداد والبصرة والعديد من المدن الأخرى قد دُمر، حتى خيام البدو لم تسلم ومات تحتها سكانها"[89].

ويدرج الكاتب البريطاني جيف سيمونز ضمن قائمة الأهداف المدمرة التي استهدفت "تدمير معنويات العراق وتماسكه الاجتماعي" : 350 مخزناً وسوقاً تجارياً، و120 مزرعة، و68 مصرفاً، و157 مركزاً لخدمات الماء والكهرباء، و646 مدرسة ابتدائية وثانوية، و16 جامعة وكلية، و28 مستشفى، و45 مركزاً صحياً، ومواقع أثرية قديمة، و20 ألف بيت وشقة ووحدة سكنية، وآلاف المراكز التجارية كالدكاكين والمتاجر والمصارف

---

(89) د. جيرمي سولت، ص378.

والمكاتب والفنادق والمطاعم والبنايات العامة الأخرى "ولم يكن للتدمير العشوائي للمساجد والمدارس ودور المرضى ومعاهد المعوقين وملاجئ المدنيين والمنشآت الزراعية علاقة بإخراج القوات العراقية من الكويت، بل استهدف كل شيء له صلة بتدمير البنية الاجتماعية لدولة وصلت مستوى جيداً نسبياً"[90].

وفي اعتراف مثير قال الرئيس العراقي زمن الاحتلال جلال طالباني في سنة 2008 "إن الأمريكيين جاءوا إلى العراق من أجل القضاء على صدام حسين لأنه كان ديكتاتوراً خطيراً يهدد حلفاء أميركا في المنطقة (وهذا هو ميزان الاستبداد عند الاستعمار) ولا يهدد الشعب العراق فحسب" ولفت طالباني أثناء مقابلة مع صحيفة الخليج الإماراتية الانتباه إلى "الأهمية البالغة التي توليها واشنطن لمنطقة الخليج ونفطها، وقل إن صدام حسين كان يشكل خطراً على الكويت والسعودية ونفطهما، كما كان يشكل خطراً على حليف أميركا الأساسي "إسرائيل"، وأضاف أن أميركا بالقضاء على صدام أنجزت عملاً مهماً بالنسبة لمصالحها في المنطقة... وقال: إن الأميركان يعتقدون أيضاً، وهم على حق، أنهم سيكسبون بعض المزايا الاقتصادية النفطية في العراق، وأضاف أن توقيع شل وشركات أخرى على اتفاقيات مهمة مع الحكومة العراقية دليل واضح على ذلك" وعد كسب الأميركيين حلفاء عراقيين مهمين جداً بالنسبة لمخططاتهم في المنطقة من أهم نتائج التدخل في العراق[91].

---

(90) جيف سيمونز، 1998، ص40.
- الدكتور علي محافظة، ص379.

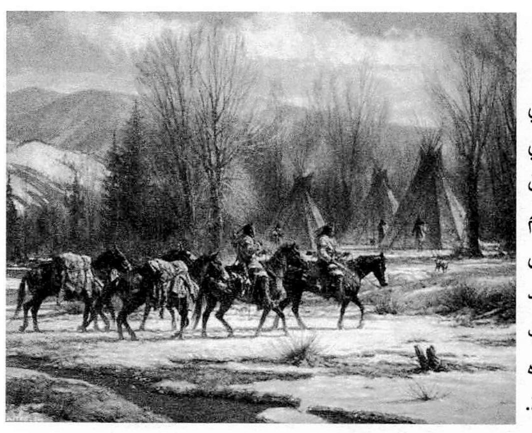
(91) صحيفة "الدستور" الأردنية: طالباني: أميركا احتلت العراق من أجل إسرائيل والنفط (2008/12/25)
- صحيفة "النهار" الكويتية: طالباني: أميركا احتلت العراق من أجل إسرائيل والنفط (2008/12/25)

http://www.annaharkw.com/annahar/Article.aspx?id=113373



طريق الموت بين الكويت والعراق (12 مارس 1991): تجاوزت أهداف الحرب تحرير الكويت لاسيما بقصف الجيش العراقي المنسحب وتبين أن الهدف يتصل بتدمير البنية العراقية والجيش العراقي خدمة للكيان الصهيوني ولهدف منع قيام قوة إقليمية تزاحم الكبار في المنطقة (الصورة من صحيفة الغارديان).

وفي القارتين الأمريكيتين دمر التدخل الغربي حضارات كبرى مزدهرة في المكسيك وبيرو كما قطع الطريق على تطورات استلهمت نفس نموذجه الحضاري في جنوب الولايات المتحدة واعترف الأمريكيون أنفسهم بتحضر القبائل هناك إلا أن الطمع بأراضيها وثرواتها أدى إلى تحطيم تجربتها بالقوة المسلحة ليقذف أفرادها في قاع المجتمع الأمريكي وأشده بؤساً وحرماناً وأكثره أمراضاً طبيعية واجتماعية، وقد قطع الأمريكيون طريق تطور آخر في السهول الوسطى استفاد من التقنيات والتجديدات التي أدخلها الأوروبيون كالبندقية والحصان والأدوات المعدنية التي أحدثت تطوراً ثورياً لدى السكان الهنود فتطورت مجتمعات القبائل المتنقلة تطوراً ملحوظاً مادام الأمريكي بعيداً عنها بسلبياته فلما اقترب منها سحقها وقضى على وجودها والتطورات التي أحدثتها الاقتباسات من تجديداته هو، وذلك طمعاً في أراضيها والثروات التي تحتويها (الملحق الرابع).



تطورت حياة السكان الأصليين في سهول أمريكا نتيجة التجديدات التي أدخلها الرجل الأبيض كالحصان والبندقية فاتسعت خيامهم وكثر متاعهم نتيجة انتقال الأحمال من الكلاب إلى الجياد وكثر طعامهم نتيجة زيادة الصيد بالأسلحة الحديثة ولكن اقتراب الاستيطان من بلاد الهنود دمر هذه المجتمعات وما فيها من إنجازات جديدة.

ويدحض أحد المؤرخين الفكرة التي أشاعتها المدرسة الاستعمارية عن وجود فوضى شاملة في الهند عشية الغزو الاستعماري الذي يوصف بأنه وضع حداً لها وأعاد ترتيب الأمور، فيقول إنه بعد تفكك امبراطورية المغول في الهند بعد وفاة الإمبراطور أورانغزيب (1707) لم يكن هذا التفكك انهياراً عاماً بقدر ما كان عودة المجال الهندي إلى نظام التجزئة السياسية الأكثر شيوعاً في تاريخه، كما بدأت الدول التي خلفت المغول بعمليات تحديث يمكن مقارنتها بالعمليات التي كانت جارية في غرب أوروبا في نفس الوقت، وكان جنوب آسيا منذ القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر موطناً لأضخم إنتاج نسيج في العالم ووصلت صادراته حتى المكسيك، ولم يكن هذا الإنتاج متخلفاً عن الغرب تقنياً، فكان الاقتصاد الهندي مزدهراً وليس في حالة من الفوضى كما أشاع المستعمرون عشية اقتحامهم الهند، وكانت نتيجة الاستعمار كما يشكو الضحايا (1930) رداً على احتجاج الإنجليز بقيامهم بمشاريع عديدة أنه بعدما كانت الهند قد شرعت في القرن الثامن عشر ببناء مدن هامة وأصبح لديها موانئ نشطة وطبقة تجار هامة، أوقف الإنجليز هذا التطور الطبيعي، وقاموا بإجراءات عديدة تستهدف تحطيم التجارة والصناعة المحليتين، أفلست الصناعات الهندية المحلية، وتحول كدح الفلاحين لزراعة المواد الأولية لتموين المصانع البريطانية وتأمين ازدهارها، وفي الوقت الذي تزود الهند العالم بأكثر من 60% من

الرز، يموت الفلاح الهندي جوعاً، ولا يشبع 90% من سكان هذه البلاد الخصبة، وأدت عرقلة التنمية إلى منع الإصلاحات الاجتماعية والدينية التي كانت ستحدث لو حافظت الهند على حريتها، وبعد قرن من الاحتلال البريطاني كان 90% أو أكثر من سكان الهند أميين، بعدما كان للهند جامعاتها ومدارسها، والخلاصة أن إنجلترا "أوقفت تطورنا الطبيعي وشلت حياتنا الوطنية"[92].

وسنجد تباعداً كبيراً بين هذا الوصف ووصف المؤلفات المتأثرة بالمدرسة الاستعمارية التي تعرض الحكم البريطاني في الهند على النحو التالي: "كانت الهند أهم المستعمرات الإنكليزية، عرفت ب "لؤلؤة التاج البريطاني"، عين الإنكليز حاكماً عليها يمثل التاج البريطاني، اهتموا بها اهتماماً خاصاً، كافحوا الأمراض، حسنوا الاقتصاد، منعوا عدداً من العادات السيئة فمنعوا مثلاً قتل البنات الصغيرات، وحرق الأرملة أو دفنها بعد موت زوجها، نشروا التعليم واللغة الإنكليزية التي أصبحت لغة البلاد الرسمية في بلاد تتعدد فيها اللغات"، فلا ذكر لكون كل "الإصلاحات" البريطانية بل أن عملية الاحتلال برمتها لم تكلف بريطانيا فلساً واحداً وأن دافع الضرائب الهندي هو الذي مول الاحتلال[93]، وإذا كانت بعض النفوس قد أُنقذت فلا ذكر لمن سالت دماؤهم من الهنود في عملية التجنيد للقتال في جميع أنحاء العالم دفاعاً عن قضايا استعمارية لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ولا ذكر أيضاً لنسبة التعليم التي لم تتجاوز سنة 1921 7% من السكان، ولا ذكر لمن استفاد من "تحسين الاقتصاد" (أي الإنجليز أنفسهم) ولا كيف تم هذا "التحسين" (تدمير الصناعة المحلية وتسويق البضائع البريطانية ونشر زراعة المواد الأولية كالأفيون والإفادة من ميزان المدفوعات الهندي ومركزه المالي): استفاد منه البريطانيون الذين دمروا الصناعة المحلية متذرعين بالأحوال السيئة للعمال الهنود[94]، وذلك "كحرصهم" على فقراء

---

(92) كل الحديث عن الهند من المرجع التالي: مارك فرو، ص280 و351-358.
(93) نفس المرجع، ص294 و316.
(94) نفس المرجع، ص359.

مصر بتوفير الصناعات البريطانية الرخيصة لهم ومحاربة الصناعات المصرية (!)، فهكذا تكون "إصلاحات" الاستعمار دائماً تصب نقوداً في جيبه ولا بأس بإصلاحات لا تكلف شيئاً توقف سلبيات غير مفيدة كحرق الأرامل وتعطي دفعة لعمليات استغلال جديدة ومفيدة كالتجنيد في حروب الاستعمار[95]، ومن هنا قالت المؤرخة ماري فوركاد إن الربح هو الهاجس الذي يشغل الاستغلال الاستعماري وإن الاستعمار لم يتدخل في المجتمع الهندي إلا بالقدر الذي يتناسب مع السيطرة والمصالح الاستعمارية[96]، كما نشر الإنجليز ضمن "تحسين" الاقتصاد زراعة الأفيون ليتاجروا به في الصين حيث يمولون شراء الشاي للجزر البريطانية[97]، ومما يشير إلى مدى نزاهة ذلك العرض المجتزأ أنه يتحدث مباشرة بعد الهند عن الصين فلا يأتي على ذكر حروب الأفيون وما فعلته هناك: فالقول فقط إن الصين أغرت الإنكليز وباقي الدول الاستعمارية لكونها سوقاً عظيمة تقاسمتها تلك الدول فحصلت بريطانيا على حق التجارة في خمسة مرافئ وسيطرت على هونج كونج[98]، أما كيف تم ذلك (شن الحروب لإجبار الصين على شراء وتعاطي المخدرات) وما الذي كانت بريطانيا تتاجر به (الأفيون للصين مقابل الشاي للإنجليز) فلا ذكر له مطلقاً.



نشبت حروب الأفيون (1839–1842) و(1856–1860) لترويج المخدرات في سوق الصين الواسعة لأنها كانت تؤدي إلى أرباح واسعة يجنيها تجار أوروبا.

---

(95) نفس المرجع، ص316 و323.

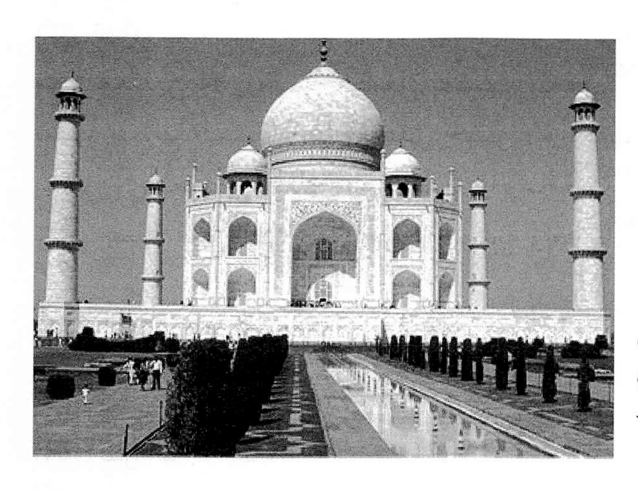
(96) نفس المرجع، ص338.

(97) نفس المرجع، ص294.

(98) د. وهيب أبي فاضل، ج 4 ص133-134.

وفي مقارنة بين الإنجليز والمغول المسلمين يقول الهنود إنه من الصحيح "أن المسلمين مع كبار المغول غزونا، لكنهم كانوا يقيمون بيننا ويتزوجون منا ويخلفون ذرية في أرضنا ويولدون فيها ويموتون فيها، وكانوا يحيطون أنفسهم بمستشارين ووزراء هندوسيين يديرون شئون البلاد... لكن الإنجليز... إنهم يأتون إلى الهند فقط لاستغلالنا واكتساب الثروة.... عندما نزلوا من مراكبهم، كنا نخرج من فترة الفوضى، وكنا في سبيلنا لتطوير أنفسنا طبقاً لتقاليدنا وأفكارنا، لكنهم أوقفوا تطورنا ليفرضوا علينا حضارتهم بالقوة، وكل ما فعلوه هنا، فعلوه لمصلحتهم وضدنا، لم نعد نحتمل أكثر من ذلك"، كما تحدث آخرون عن "سيناريو الهند من دون الإنجليز" مثبتين "مقدار النهضة التي يمكن للهند أن تنجزها فيما لو تُركت حرة التصرف"(99).

"كان الأباطرة الأفغان والمغول ينفقون حيث هم الضرائب الثقيلة التي يجمعونها، وكانت هذه الدخول تنمي البلاد، حتى وإن كانت إنشاءاتهم العظيمة تشهد على غرورهم، إلا أنه مع مجيء الإنجليز انتهت هذه الترتيبات وإنجلترا هي التي تجني الفوائد من البلاد، لقد تحطمت الزراعة والحرف"(100).



تاج محل صرح شاهد على الفرق بين الحضور الإسلامي الاندماجي والاستعمار البريطاني العنصري في الهند.

---

(99) مارك فرو، ص356-358.

(100) نفس المرجع، ص34.

وعن فكرة قطع الطرق الحضارية للآخرين يقول المؤرخ رونالد سيغال إن غرب أوروبا لم يكن متفوقاً بصورة ملحوظة على مناطق في إفريقيا قبل بداية تجارة الرقيق، وإن هذه التجارة هي التي أوجدت الظروف التي جعلت تهمة تخلف القارة تقوم على أساس وطيد، وإنه إذ تحاكمنا إلى معايير التقدم الثقافي المكونة من الأمن والعدالة والغنى المادي والامتداد الإقليمي تحت إدارة مركزية لوجدنا أن التفوق من نصيب إفريقيا[101]، وهو ما أطلق عليه المؤرخ إريك وولف وجود اقتصاد سياسي متطور ومعقد قبل مجيء الأوروبيين[102]، ويقول المؤرخ والتر رودني إن المجتمعات الآسيوية والإفريقية كانت تنمو بشكل مستقل إلى أن وقعت تحت السيطرة الأوروبية التي حرمتها من مواردها وثمار عملها وهذا هو جزء رئيس في التخلف بمعناه المعاصر[103]، ثم يفرد باباً خاصاً للحديث عن نمو إفريقيا قبل وصول الأوروبيين في القرن الخامس عشر حيث أنجزت معظم المجتمعات الإفريقية ما يسد احتياجاتها الصناعية في المجالات المنزلية والزراعية والعسكرية[104]، ولم تكن الانقسامات الإفريقية دليل تخلف بل مرحلة اجتازها غير الأفارقة وكانت إفريقيا تتحرك لاجتيازها[105]، لولا قيام الاستعمار بتشجيع التجزئة والولاءات الانقسامية والقضاء على الدول الكبيرة التي تجاوزت الانقسامات وذلك ليبعد السكان المحليين عن تناقضهم الرئيس مع المعتدين الأوروبيين ويشغل بعضهم ببعض[106]، وقد كان الاستعمار سلبياً إذ ثلم التنمية السابقة على حضوره وأوقفها وردها على عقبيها ولم يدخل أي تعويض لتلك المحاصرة والإعاقة[107]، ولاحظ المؤلف نفسه تشابه عملية قطع الطرق في أمريكا الهندية وإفريقيا[108].

---

(101) Ronald Segal, p. 5.

(102) إريك وولف، ص329.

(103) د. والتر رودني، ص27.

(104) نفس المرجع، ص65.

(105) نفس المرجع، ص210 و367.

(106) نفس المرجع، ص334.

(107) نفس المرجع، ص227.

(108) نفس المرجع، ص341.

ويقول المؤرخ إيليكيا موبوكولو إنه بعد إلغاء تجارة الرقيق الأطلسية خطت المجتمعات المحلية في حوض الكونغو خطوات معقدة للابتكار وإعادة البناء، فلما حل الاستعمار أقر طرقاً من الإنتاج كانت تراجعاً واضحاً من كل الجوانب عما أنجزه السكان الأصليون[109].

وليس الدليل على عدم أهمية التحضر في جدول المستعمرين محصوراً في قطعهم طرق التطور لدى الآخرين وعدم إحلالهم بديلاً قابلاً للحياة والاستمرار، بل نجدهم أيضاً قاموا بتحطيم حضارات مزدهرة تمكنوا منها نتيجة الخلل في موازين القوى، وعن هذه الظاهرة يتساءل المؤرخ إريك هوبزباوم : "هل وقف تقدم بكين الإمبراطورية حائلاً دون إقدام البرابرة الغربيين على إحراق القصر الصيفي ونهبه أكثر من مرة؟ وهل أفلحت أناقة النخبة في عاصمة المغول الآيلة للسقوط ... في التصدي للغزاة البريطانيين؟ وبالنسبة إلى الأوروبي العادي، غدا هؤلاء الناس مدعاة للازدراء"[110]، وقد نعجب إذا علمنا أن إفريقيا نفسها قامت بخطوات تحديثية ضخمة "لم تكن من حيث الجوهر مختلفة عن الطاقة التي حققها اليابانيون (في نهضة عصر الميجي) بعد عام 1867"، وذلك كما يقول أحد مؤرخي إفريقيا البارزين وهو باسيل دافيدسون الذي يلاحظ أن الإصلاحات التحديثية في اتحاد فانتي ومملكة أسانتي في غرب إفريقيا كانت تشبه ما حققته اليابان في نفس الوقت، وهذا ما أكده المؤرخون الأفارقة أيضاً، وقد كتب أحدهم فيما بعد مقارناً بين اليابان وإفريقيا بقوله بمرارة إن "الهدف المرغوب ذاته كان أمام الطرفين، (لكن) المحاولة الإفريقية سُحقت بلا رحمة وأُحبطت خططها" بقوة بريطانيا، وبذلك شارك غرب إفريقيا في مصير النهضة المصرية والصناعة الهندية واختلف عن مصير اليابان والولايات المتحدة اللتين تمكنتا من الاستقلال عن الحكم الاستعماري ومواصلة طريق نهضوي مستقل[111].

---

(109) مارك فرو، ص454.

(110) إريك هوبزباوم، 2011، ص163.

(111) نعوم تشومسكي، 1998، ص63-64.

■ الاستعمار نشر رذائل الحضارة بالتجارة

مع ادعاء المستعمِرين أنهم غزوا الأرض لنشر الحضارة، وجدنا أن الاستعمار نشر رذائل "الحضارة" التي أحدثت نتائج مدمرة طغت أحياناً على المحاسن التي تتغنى بها المدرسة الاستعمارية، وكانت التجارة هي وسيلة التدمير الأكثر فعالية رغم كونها في منظومة الحضارة الإسلامية الوسيلة الأكثر فعالية لنشر الإسلام لاسيما في المناطق الكبيرة التي لم تمسها حوافر جيوش الفتح.

ففي القارة الأمريكية حيث النموذج البدئي للعملية الاستعمارية قام الرجل الأبيض بعرض سلع متنوعة على السكان الأصليين كالأسلحة والملابس والبطانيات والمرايا والخرز والأدوات المعدنية التي لم يستطيعوا مقاومتها، وكان الخمر هو أفتك هذه السلع إذ أدى إلى عواقب مدمرة على المجتمعات الهندية شرحتها في دراسة مستقلة (الملحق الرابع)، ويكفي القول هنا إن تأثير الخمور التي أدخلها المهاجرون الأوروبيون إلى العالم الجديد كان قاتلاً بشكل يقرنه المؤرخون بالأمراض الفتاكة وحروب الإبادة والتهجير وتدمير مصادر الرزق الذي أدى للمجاعات وسوء التغذية، وقد طلب البيض مقابل بضائعهم الفراء أحياناً، والأسرى لاسترقاقهم أحياناً أخرى، وأراضي الهنود أحياناً ثالثة.

وقد نتج عن التجارة مع الرجل الأبيض التبعية الاقتصادية التي أدت إلى تدمير البنى الاجتماعية وتفكيك التفاف المجتمعات حول زعامات ظهر أن بإمكان الرجل الأبيض تزويد الناس بما لا تملكه هذه الزعامات فهبط نفوذها وإن كان ذلك لأسباب مزيفة بل ضارة، كما أدت التبعية إلى زيادة العنف نتيجة آثار الخمور والصراع على الحصول على الأسرى وعلى مواطن الصيد حيث استنزفت كثير من الموارد الحيوانية وانقرضت، بالإضافة إلى انتشار الأمراض والأوبئة التي ساعدت الخمور وتجارة الرقيق على نشرها[112].

---

(112) Paul Kelton, pp. 101-107.

كما كان الاحتكاك بالرجل الأبيض من أسباب انحلال أخلاقيات السكان الأصليين، : "وكان مما أخذه الهنود عن البيض قلة الشرف، وفنون الكذب، فكان تفكيرهم وقانون أخلاقهم، وثقافتهم تنتهي إلى الاندثار فالانحطاط والاضمحلال، ويكتب بيتر لي قائلاً: ما كان حسناً عندهم كان يتعرض للخنق"[113]، وكان من عواقب الاحتكاك الغش التجاري الذي مارسه التجار على نطاق واسع في كل معاملاتهم، فبخسوا الكيل والميزان، وباعوا سلعاً مغشوشة لاسيما الخمور القاتلة، واستخدموا تأثير الخمور في سلب السكارى ونهبهم حتى من أراضيهم فضلاً عن أموالهم كالفراء والجلود.

والغريب أن العلاج الذي طرحته الحكومة الأمريكية للآثار السلبية لاحتكاك السكان الأصليين بالبيض كان إيقاع مزيد من الاضطهاد بهم بدلاً من معالجة منبع الداء، وكان العلاج لديها هو ترحيل الهنود من أراضيهم إلى الغرب القاحل البعيد كي يكونوا "سعداء" بمنأى عن آثار الاحتكاك الضارة، وهكذا كانت المنافع تجر بعضها في منطق الأمريكيين، ولم يكن الاعتراف بخطأ (هو الانحلال) إلا للتغطية على خطيئة (هي التهجير).

أما رذائل التجارة في آسيا فقد أدت إلى نشر استعمال الأفيون في الصين بالقوة المسلحة بعد حروب الأفيون، كما أدت التجارة إلى تحطيم الصناعة الحرفية الهندية وصناعات بقية الأمم التي لم تكن البضائع الأوروبية متفوقة عليها بل كان تفوق السلاح الأوروبي وحده هو الذي أدى إلى تحويل مسارات التجارة واتجاهاتها ليفرض حضور السلع الأوروبية على حساب غيرها[114].

---

(113) كارلهاينتس دشنر، ص57.

(114) هاري ماجدوف، ص106.



حروب الأفيون

وفي إفريقيا أدت التجارة إلى نزوح الثروات من إفريقيا إلى أوروبا "ولم تكن عملية النزوح هذه ممكنة إلا بعد أن أصبحت التجارة عالمية بالفعل" ويزعم الدكتور رودني أن إفريقيا ساعدت على تطور أوروبا بنفس القدر الذي أسهمت به أوروبا في تخلف إفريقيا[115].

ولا يجد أنصار المدرسة الاستعمارية من فضائل لممارستهم سوى القول إن الأفارقة حصلوا على البضائع الأوروبية مقابل العبيد الذين اختطفهم الأوروبيون، وبالحديث وفق هذا المنطق يبين أحد المؤرخين تهافته بالقول إن البضائع التي حصلت عليها إفريقيا نافست بضائع إفريقية ومنعتها من التطور ولم يكن من بين البضائع الأوروبية وسائل إنتاج بل جميعها وسائل استهلاك بل من أسوأ النوعيات حتى بالموازين الاستهلاكية[116].

(115) د. والتر رودني، ص111-112.

(116) نفس المرجع، ص147.

■ الاستعمار الممدّن نشر رذائل الهمجية واحتج بها لتحقيق مصالحه

لم يكتف الاستعمار بنشر رذائل حضارته بل رأيناه يستفيد من رذائل "الهمجية" وينشرها على نطاق واسع ورسمي لتحقيق مصالحه[117]، ومن هذه الرذائل التي قام بنشرها في أمريكا العنف الذي كانت تسببه النزاعات بين القبائل إذ قام بتسعير الخلافات بينها وتزويدها بالأسلحة النارية التي فاقمت هذا العنف لاسيما بعدما زوده الأمريكيون بأسباب متصلة بالصراع على الأرزاق سواء في مناطق الصيد أو للحصول على الأسرى لاسترقاقهم، ثم شجع عادة مرذولة كانت محدودة قبل مجيء المهاجرين الأوروبيين[118]، وهناك من يقول إنها دخلت مع دخول الأوروبيين أنفسهم ولم تكن معروفة قبلهم[119]، وهي سلخ فروة رأس العدو والتي يتفق الجميع على دور الأوروبيين في إشاعتها عندما قاموا في أمريكا برصد مكافآت ضخمة تصل إلى راتب رجل متعلم لمدة عام كامل في زمن قلة التعليم، وذلك لمن يقوم بها الأمر مما ساعد على انتشاره (الملحق الرابع)، ويقول أحد المؤرخين إن الأوروبيين نقلوا الحرب في أمريكا من صراع بين القبائل إلى منهج إبادة عامة ووسيلة لتخريب طرق المعيشة وتحطيم الثقافات[120].

وكذلك أحيا الغرب مؤسسة الرق التي كانت في طريقها إلى الزوال في نهاية العصور الوسطى[121] "قبل أن يعيدها البرتغاليون إلى الوجود اعتباراً من منتصف القرن الرابع عشر لكي يؤمّنوا -بفضل ما جلبوه من يد عاملة مستعبدة أفريقية- إزدهار الزراعة في ماديرا وجزر الكناريا والأزور، أحيا

---

(117) صوفي بيسيس، ص75.

(118) Tony Boddington (Ed), The American West 1840-95, Holmes McDougall Ltd., Edinburgh, Britain, 1977, p. 26.
- Bruce Grant, Concise Encyclopedia of the American Indian, Wings Books, New York, 2000, pp. 276-277.

(119) Robert F. Heizer, The Destruction of California Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1993, p. 267.

(120) مارك فرو، ص69.

(121) الدكتور عبد السلام الترمانيني، الرق: ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة (23)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، إبريل 1985، ص185.

التجار والمستعمرون في الممتلكات الأوروبية الجديدة نظاماً كان يحتضر في أوروبا ذاتها... الواقع أن ما من أمة واحدة من أممها لم تقم -فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر- بمزاولة تجارة مثلثة الأضلاع ساهمت في تكوين ثروات مصنوعاتها وموانيها المطلة على الأطلنطي"[122]، وبعدما أدخل البيض الرق لمناطق لم تعرفه من قبل[123]، أو كانت تعرفه فتضاعفت ممارسته[124]، قاموا بإحياء هذه المؤسسة في إفريقيا بعدما تلاشت تجارة الرقيق عبر الأطلسي في القرن التاسع عشر[125].

ومن الرذائل التي نشرها المتحضرون على نطاق واسع زراعة الأفيون واستعماله، إذ كان معروفاً في الهند قبل وصول البريطانيين "ولكن بشكل بسيط وبنسب قليلة" ولكن الاحتلال زاد من استهلاكه وأعطى الأوروبيون دفعاً "لا سابق له لتجارة الأفيون التي يستخدمونها وسيلة لتمويل مشترياتهم من التوابل والمنسوجات القطنية والحرير" وهذا ما فعله على التتابع البرتغاليون والهولنديون والإنجليز الذين رأوا في الأفيون "مصدراً عظيماً للدخل، سيصنعون منه أداة حاسمة" لبناء الإمبراطورية، وهي المرة الأولى التي يمكن الحديث فيها عن "أموال المخدرات" حقاً، بمعنى الحصول عمداً على الأموال عن طريق المخدرات لتمويل السياسة الإمبريالية بالمراهنة على إدمان الآخرين عليها[126].

وإذا كانت أوروبا قد استفادت من الأفيون في آسيا فقد استفادت أيضاً من التبغ في أمريكا ومازالت المجتمعات الغربية تشكو من ظاهرة تدخين التبغ وتحذر من مخاطرها وعواقبها الوخيمة مع أنها هي التي نشرتها في العالم بعدما كانت ممارسة محدودة في المجتمعات الأصلية في أمريكا حيث تخصص للمناسبات السياسية والاحتفالات الدينية والاجتماعية ولكن

(122) صوفي بيسيس، ص36.
(123) مارك فرو، ص58.
(124) إريك وولف، ص319.
(125) مارك فرو، ص122.
(126) نفس المرجع، ص338-339.

الأوروبيين جعلوا منها ممارسة يومية، ومازالت صناعة مزدهرة تقوم عليها وتجعل التبغ واحداً من أكثر السلع أهمية في التجارة العالمية وذا أهمية كبرى في اقتصاد الولايات المتحدة[127]، وذلك رغم التحذيرات الصحية التي لا تتوقف (وفي ذلك إشارة مهمة لحدود الآثار التي تمارسها مقاييس الحق والباطل حتى لو تعلقت بمنافع آجلة في مواجهة الأهواء والمنافع العاجلة في الحضارة الغربية).

والعجيب أن حضارة العلم والعقل والتقدم كانت ومازالت تحتج بأخطاء المتخلفين لتبرير خطاياها، فإذا مارست تجارة الرق تبرر ذلك بموافقة الأهالي المحليين ومشاركتهم، وإذا احتلت أرضاً واغتصبتها قالت إن من سبقها عليها احتلها وغصبها في فجر التاريخ، وهكذا رأينا "الأب" الذي يدعي تربية "أبنائه" القاصرين يقوم بممارسة نفس الأخطاء التي يمارسها غير الراشدين منهم، وتبرير نفسه أمامهم بممارستهم (على طريقة: يا عزيزي ليس لأحد منا فضل على الآخر لأن كلنا لصوص !) وذلك بدل تقويمها وتصحيحها وتقديم النموذج الأمثل بدلاً عنها في الوقت الذي يدعي فيه الأستاذية والإرشاد والأبوة على العالمين، فما هي فائدة العلم والعقل في "نهاية التاريخ" إذا كانت لا تختلف عن بدايته؟ وما فائدة "الفردوس الأرضي" إذا كانت لا تختلف عن جحيم الهمجية؟ وقد سمعنا حديثاً تلك النغمة التبريرية البائسة بعد احتلال العراق وكشف فضائح الاحتلال الذي لم يجد حجة ليبرر نفسه إلا القول إن ممارساته الإجرامية كممارسات مَن قبله فلماذا الاعتراض عليها، مع أنه ادعى أنه جاء ليصحح الاستبداد والديكتاتورية التي كانت من قبل (!) فإذا كان يرتكب نفس الأخطاء السابقة فيم قدومه إذن إلا للاستغلال والنهب والسلب (!؟)

ومن ضمن عملية الإفادة من التخلف والهمجية والبربرية والوحشية وجدنا الاستعمار يفضل التعامل مع القيادات التقليدية الجاهلة، الرومانسية

(127) New Standard Encyclopedia, Feerguson Publishing Company, Chicago, 1999, Vol. 17, p. T-291.

أيضاً[128]، بدلاً من القيادات المثقفة والمتعلمة[129]، وهي سمة لاحظناها بوضوح في المشرق العربي حيث كانت تلك القيادات ومازالت هي التي تنفذ مطالب الغرب وتحقق له أهدافه وترفض المشاركة في مقاومته.

■ كيف يحدث تضارب المصالح؟

يحدث تضارب المصالح بين الدولة الاستعمارية ومستعمرتها أو البلد الذي تسعى للهيمنة عليه لسبب بسيط هو اختلاف الكيانين وكونهما ليسا كياناً واحداً وأن الحضارة الغربية لم تؤمن يوماً واحداً باستيعاب الآخرين في مشروعها القائم على الهيمنة والاستئثار والنخبوية التي غذتها في الماضي فكرة الاستعلاء العرقي والحضاري التي دعمها "العلم" زمناً طويلاً ثم فكرة "السلام" و"الديمقراطية" و"الإنسانية" التي مازالت تقوم بما قامت به الأفكار الغابرة من تبرير فاضح للعدوان والسلب والنهب.

ويبدو تضارب المصالح بين المستعمِر والمستعمَر في المجالات السلمية التي ادُّعي فيها تطابق هذه المصالح، أما في ساحات الاحتلال والقتل والنهب فلا حاجة لإثبات هذا التضارب وإن كان من الطريف عرض مثل لطريقة نشوئه: فحينما وصل الأوروبيون إلى الكونغو مثلاً طلب ملكها البنائين والقساوسة والكتبة والأطباء، ولكنهم أمطروه بسفن نقل العبيد[130]، مع أن المجتمعات الإفريقية لم تواجه صعوبة في تعلم التقنية الأوروبية وطلب بعضها بالفعل ذلك إلا أن أوروبا هي التي لم تكترث بنقل هذه التقنية وعندما تعلق الأمر بصناعة الأسلحة لم توافق على هذا النقل[131]، وهو مثل صارخ على طريقة تعارض المصالح بين الغرب المهيمن وبقية العالم المهيمن عليه والذي نحن بصدد الحديث عنه.

---

(128) زين نور الدين زين، 1977، ص68 و227 و230.
- دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص322.
(129) سعد محيو، ص100.
- الدكتور علي محافظة، ص238.
(130) د. والتر رودني، ص118.
(131) نفس المرجع، ص154- 156.

وقد سبق الحديث عن أن مصلحة الاستعمار في نشر التعليم اختلفت عن مصلحة المستعمرات رغم أن فعل التعليم واحد، ولهذا كانت النتائج مطابقة لمصالح السادة ولم تؤد للضحية إلا فائدة غير مقصودة حدثت عرضاً ولم يكن من الممكن الاكتفاء بها أو البناء على هزالها، وكذلك كانت البنى التحتية التي أنشأها الاستعمار في مستعمراته جزءاً من خطته الاقتصادية الشاملة ولهذا عادت عليه هو بالفوائد ولم تؤد للضحايا ما أدته للسادة الذين قاموا بتدمير ما صنعه الآخرون مما يتضارب مع هيمنتهم واستعمارهم، وهذا أيضاً ما حدث في المجال الصناعي حيث "اهتم" الاستعمار بتوفير البضائع الرخيصة، التي تنتجها مصانعه، للمستعمَرين، وتباكى على فقرهم الذي لا يستطيع تحمل غلاء الصناعات المحلية، فقام بتدمير هذه الصناعات، "حرصاً" على الفقراء بزعمه (!) ولما باشر الفرنسيون بحفر قناة السويس انهالت دموع الإنجليز على شقاء عمال السخرة المصريين الذين يشتغلون في الحفر، ولكن بكاءهم كان نكاية بالفرنسيين وليس حرصاً على مصر التي قاموا بعد ذلك باحتلالها بالقوة المسلحة.

وكذلك صور المستعمِرون منح الديون والاستثمارات للدول الفقيرة نوعاً من الكرم ومقدمة للنهوض والسير في طريق التنمية، ولكن ما حدث فعلاً هو عكس ذلك تماماً حتى على المستوى المالي حين كانت الديون مقدمة للإفلاس[132]، كما أن الدائنين أحكموا قبضتهم على البلاد المدينة وهيمنوا على مراكز اتخاذ القرار ووصل الأمر أحياناً إلى الاحتلال العسكري للحفاظ على حقوق الدائنين بدلاً من الحصول على التنمية، مع استمرار الحديث عن قيام الاستعمار بالتنمية وهو حديث وجد من يطبل له من أبناء المستعمرات، أما الاستثمارات في المواصلات مثلاً فقد خدمت في معظم الأحيان اقتصاد من أنشأها بتوفير المواد الخام وتسويق البضائع الأجنبية على حساب المحلية وكانت مقدمة لاقتسام النفوذ بين الدول الاستعمارية في البقاع التي قامت استثماراتها فيها في الدول المستقلة.

---

(132) بيتر مانسفيلد، ص107.

ومن صور تضارب المصالح ما حدث عندما اجتمعت توجهات الاستعمار و"الأحرار" في الدولة العثمانية ضد استبداد السلطان عبد الحميد ليتصور الثوار أن الغرب الذي يؤويهم ويحميهم يعطف على الحكم الدستوري والحرية في الدولة العثمانية ليكتشفوا بعد ذلك أن الغرب يعادي كيان الدولة نفسه وليس شخص حاكم مستبد وأن الغربيين لا يغارون على تطبيق الدستور بدليل منعه عن شعب مصر الواقع تحت الهيمنة البريطانية وعدم اتخاذ أية خطوة للنهوض بمستواه للوصول إلى تطبيق الحكم الدستوري، وفي النهاية قام أرباب التغريب بإعلان الحرب على الغرب الذي تربوا في حجره بعدما اكتشفوا تضارب المصالح بينهم، أما الذين استمروا يراهنون على الاستعانة بالإمبرياليين للوصول إلى الدولة الوطنية المستقلة فإنهم رضوا بخدمة مصالح الاستعمار وانفصلوا عن مصالح أمتهم، ومن أبرز الأحداث الدالة على ذلك حضور "أستاذ الجيل" أحمد لطفي السيد حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس سنة 1925 إلى جانب كهنة الاستعمار والصهيونية مثل الوزير بلفور صاحب الوعد المشئوم والجنرال اللنبي الذي أنهى الحروب الصليبية في القدس والمندوب السامي البريطاني في فلسطين الصهيوني هربرت صموئيل وزعيم المنظمة الصهيونية العالمية حاييم وايزمان، وذلك وسط احتجاجات عمت سوريا الكبرى ومصر بسبب زيارة المجرم بلفور، وقد حدث كل ذلك الاحتفاء الليبرالي بالجامعة العبرية والذي مثله أستاذ الجيل المراهن على المساعدة الإمبريالية رغم رفض الانتداب البريطاني قيام جامعة عربية كالجامعة العبرية حتى لا تفسد الود العربي الصهيوني عند شباب فلسطين[133]، ذلك أن الاستعمار الذي استعان أرباب التغريب به عاملهم بغير ما يرضاه لنفسه فوكّلهم بحكم محميات صغيرة ومجزأة وضعيفة وتابعة اختُلقت لتؤدي وظيفة المستعمِر في غياب جيوشه وما زال فشلها يتأكد يوماً بعد يوم وهي غير قادرة على إطعام أنفسها أو الدفاع عن وجودها أو كفاية حاجات مواطنيها إلا بالاستناد إلى الدول

---

(133) دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص672-673.

العظمى التي يناقض وضعها وضع محمياتها فهي مجتمعة في تكتلات كبرى ذوات اقتصاديات متينة وموارد ضخمة وإمكانات كبرى وأعداد سكان كبيرة مما هو غير مسموح للمحميات التابعة التي يعيش كثير منها على الديون المالية والمساعدات الاقتصادية والحماية العسكرية، أي أن تضارب المصالح لم يؤد بنا لبناء أية دولة مستقلة فعلاً.



مدينة حيفا: عندما أرادت بريطانيا والصهاينة تسويق المشروع الصهيوني في بداية الأمر ادعوا أنه سيفيد سكان فلسطين وينمي حياتهم، وكان هذا الحديث يختلف عن حديث الغرف المغلقة وعن السياسة الفعلية التي طبقها الانتداب، وقد قامت في فلسطين تنمية حقيقية بالفعل، ولكن بعد طرد أهلها منها واستئثار الصهاينة بالمنافع. ولإتمام إخراج العملية الاستعمارية بصورة مقبولة تدعي غولدا مائير رئيسة وزراء الصهاينة السابقة في مذكراتها أنها "توسلت" إلى الفلسطينيين (!)، بدعوة من بن غوريون نفسه (!)، عدم الخروج من حيفا، ضمن حملتها الحساسة جداً لحماية حقوق العرب (حياتي، دار الجليل، عمّان، 1989، ص 121)، وهو دليل في نظرها على عدم ضلوع الصهيونية في نكبة التهجير، ولكننا نعجب من كون أصحاب هذه القلوب المرهفة نفسها مازالوا يرفضون عودة من توسلوا هم بأنفسهم إليهم منذ البداية عدم الخروج مما يعني عدم وجود مصلحة يهودية في إفراغ فلسطين (ص 122)، وكل ذنب الفلسطينيين هو سعيهم آنذاك لتجنب أهوال الحرب، مثل أي شعب في أي مكان وزمان، ومازالوا يلحون على حقهم في العودة ومع ذلك ترفض الصهيونية الإنسانية ذات القلب الرءوم التي لم تسع في إخراجهم (!)

ولما قامت بريطانيا بالانتداب على فلسطين بعد صدور وعد بلفور جهدت لإقناع العرب عموماً بأن الوطن القومي اليهودي سيجلب الحضارة للمنطقة وسيرفع من شأنها ولن يؤدي إلى قيام دولة يهودية أو إلى سيطرة اليهود عليهم أو الإضرار بهم، ولكن التطورات التي حدثت بعد ذلك تؤكد أن الحضارة المزدهرة التي جلبها اليهود كانت لهم خاصة دون أهل فلسطين الذين لم يجنوا من هذه الصفقة سوى الخراب والدمار وأن للمنطق

الاستعماري تضارباً موضوعياً مع مصالح المستعمَرين بغض النظر عن النوايا الذاتية والشعارات الإنسانية التي قد يصدقها كثير من السذج الذين يغرقون في لحظة محدودة من الأحداث دون استشراف مآلاتها، وهذا ما حدث أيضاً في الحرب الكبرى الأولى حين التقت مصالح العرب والحلفاء على تبني مشروع الخلافة العربية لنزع الشرعية من الخلافة العثمانية و"تحرير" البلاد العربية من الأتراك، ولكن العرب كانوا يريدون حرية تمثلت في استقلالهم عن الأتراك وقيام دولة موحدة لهم وهي غير "الحرية" التي أرادها الحلفاء وتمثلت في إخراج الأتراك، وهذه نقطة الالتقاء، ولكن تبعها اقتسام البلاد العربية واحتلالها ومنح العرب بالكرم الاستعماري أكثر من عشرين دولة بدل دولة واحدة، ومن هنا كان إصرار الحلفاء على عدم الاعتراف بخلافة حليفهم الشريف حسين على المسلمين أو حتى بملكه على العرب[134]، المشارقة وحدهم، بعدما تنازلت قوميته العربية عن كل شمال إفريقيا إرضاء لمصالح حلفائه الغربيين الذين لم يعترفوا في النهاية سوى بأنه ملك للحجاز فقط، ثم تركوه لمصيره أمام الزحف السعودي بعدما أصر على تنفيذ وعودهم ولم يعد له أهمية في جداولهم الاستعمارية، ومازال العرب يعانون من التجزئة التي نجمت عن هذا السخاء في اختلاق الكيانات إلى اليوم.

ومن وجوه تضارب المصالح إصرار الغرب على الاحتفاظ بمعادلة الهيمنة على منابع النفط بالقوة المسلحة تحت سيادة دول ضعيفة ومتفرقة أصرت بريطانيا في زمن هيمنتها على الخليج مدعومة بقرار أمريكي على شرذمة هذه الدول لخشيتهما من سيطرة دولة عربية كبرى كالعراق أو السعودية أو عمان أو حتى إيران على الثروة النفطية الضخمة التي اكتشفت في هذه الإمارات، "وهو ما يهدد المصالح الاقتصادية البريطانية والغربية"، رغم أن الدول السابقة كانت تدور في الفلك الغربي، وهو ما يؤكد الخوف الشديد من بروز أية قوة ناهضة غنية بغض النظر عن توجهاتها السياسية، ولهذا أريدَ جمع تلك الإمارات تحت لواء مستقل (1971)[135]، وذلك وفقاً لقول تشرتشل :

---

(134) يوجين روجان، ص227.

(135) الدكتور علي محافظة، ص232.

سأبني دولة عند كل بئر نفط أكتشفه في المنطقة[136]، ثم استمرت الخشية من وقوع هذه الثروة تحت يد كيان سياسي واحد[137]، واستمر تفضيل التعامل مع كل دولة نفطية على حدة على التعامل معها مجتمعة[138]، والعمل على استبعاد هيمنة أية قوة غير غربية عليها سواء من الشرق السوفييتي كما أكد على ذلك مبدأ الرئيس الأمريكي جيمي كارتر سنة 1980[139] أو قوة محلية من بينها كما أكد ذلك هنري كيسنجر في سنة 2012 (الملحق الثاني)، وهو ما يفسر العصبية الشديدة والتوتر البالغ بل الهستيريا التي انتابت الغرب في أزمة الخليج سنة 1990، مما اضطره إلى حشد مجموعة من الأكاذيب التي مهدت لحسم المعركة لصالحه: فقد مهدت كذبة الحشود العراقية على الحدود السعودية لاستدعاء القوات الأمريكية إلى المنطقة العربية[140]، ومهدت كذبة سرقة حاضنات الأطفال من المستشفيات الكويتية والتي "كهربت العالم" لشيطنة الموقف العراقي ودفعت البرلمانات العالمية لتأييد التوجه الأمريكي نحو الحرب بدلاً من الاقتصار على العقوبات الاقتصادية على العراق[141]، وكان الضوء الأخضر الذي منحه الأمريكيون للعراق ليقدم على اجتياح الكويت دليلاً سافراً على التعارض في المصالح بين أمريكا ومن ادعت حمايتهم حتى وصل الأمر إلى اتخاذهم طعماً والتلاعب بمصائرهم تحت دعوى حمايتهم والدفاع عن وجودهم وهو ما كان يمكن أن يتم ببساطة بكلمة حاسمة في وجه الاستعدادات العراقية الواضحة، ولكن هذه الكلمة لم تُقل[142]، لأسباب أكثر وضوحاً.

---

(136) حمدان حمدان، 1995، ص6.

(137) دوجلاس ليتل، ص109 و136 و156 و424 و429.

(138) نفس المرجع، ص146.

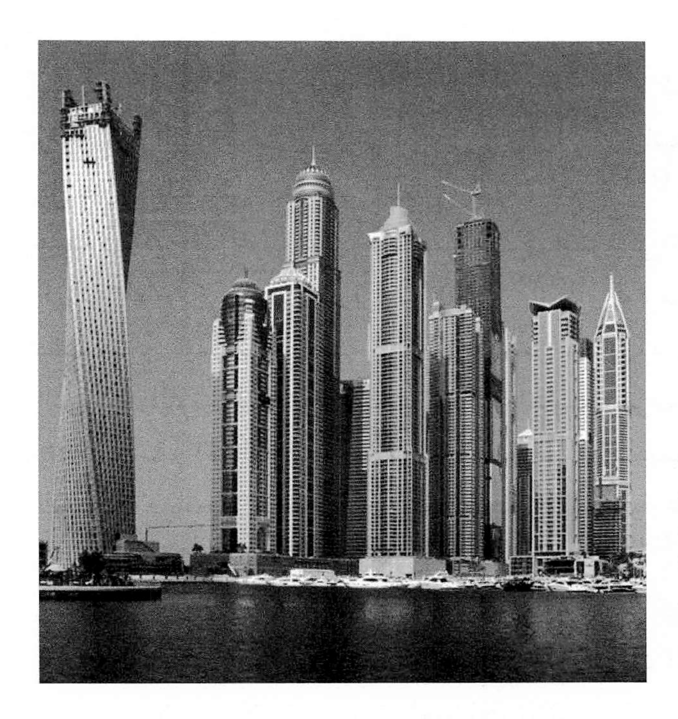
(139) نفس المرجع، ص221.

(140) جيف سيمونز، ص29.

- الدكتور علي محافظة، ص361.

(141) رغيد الصلح، ص357-358.

(142) دوجلاس ليتل، ص423-424.



"تسامح" الغرب مع نموذج الترف الخليجي ليس بسبب كرم الأخلاق والتعفف عن نهب أموال اليتامى بل لأن حصيلة كل هذا الترف تصب في الحصالة الغربية.

ويصف المؤرخ شارل عيساوي حال الآثار الأخلاقية الخطيرة التي نجمت عن الثروة الهائلة المفاجئة التي توفرت بأيدي الدول النفطية بأنها فتحت الشهية ورفعت مستوى التوقعات أكثر من إمكانات إشباعها، فزاد الفساد، وأدت الوفرة إلى الاعتقاد بإمكان الحصول على كل شيء بالاستيراد بدءاً من الأنظمة الدفاعية الإلكترونية مع طواقمها من المرتزقة إلى جامعي القمامة مع عدم اضطرار المواطنين المحظوظين إلى العمل وميلهم إلى الحياة المرفهة معتمدين على صدقات دولهم الغنية، وقد تفاقم هذا الوضع بعد فورة أسعار 1973 التي منحت الدول النفطية زيادة في الدخل غير مسبوقة في التاريخ ولا يناظرها حتى الثراء الذي نجم عن تدفق ذهب وفضة أمريكا على إسبانيا في القرن السادس عشر ولا عن اكتشاف الذهب في كاليفورنيا في القرن التاسع عشر، والمهم في كل ذلك ما يشير إليه عيساوي من أن "القسم الأكبر من هذه العائدات تسرب ثانية إلى الدول المتقدمة" التي دفعت تلك المبالغ ثمناً للنفط في البداية، وقد عادت إليها تلك المبالغ نتيجة صفقات السلاح الكبيرة التي عقدتها الدول النفطية، وبصورة أكبر على شكل

استثمارات في الأسواق الأوروبية والأمريكية[143]، ويمكن أن نضيف إلى ذلك هوس الاستيراد آنف الذكر والذي تضاعف في الفترة ما بين 1973-1977 أربع مرات[144] وتركز على البضائع الغربية وعطل قدرات الإنتاج في تلك الدول النفطية نتيجة الحصول السهل على كل السلع والخدمات الترفية التي قد لا يتوفر بعضها في الدول الصناعية أنفسها، أي أن الأموال الطائلة التي حصلت عليها البلاد العربية المنتجة للنفط عادت إلى الغرب مرة ثانية بواسطة التجارة الخارجية والفوائض المالية وودائع الاستثمار في المصارف الغربية[145]، وهذا هو سر "سماح" الغرب باستمرار طريقة حياة الدول النفطية المترفة وهو ما يراه سدنة التغريب "تسامحاً" غربياً ودليلاً على عدم نهب الغرب ثروات الآخرين (!)

"ويشير الدكتور رمزي زكي إلى الفوائد التي يجنيها الغرب من الفوائض المالية العربية مثل الحصول على فوائد إقراضها إلى الدول المعسرة، أو استعمالها بصفتها قروضاً تستخدمها الدول الفقيرة في شراء السلع الغربية وتنشط بذلك سوق تصديرها، أو في تمويل العجز في موازين مدفوعات الدول الغربية، وهي الفائدة الأهم، دون أن تتحمل تكاليف التعديلات (التكيفات) التي تتحملها الدول الضعيفة حين حدوث العجز لديها، كما يشير إلى المخاطر التي تتعرض لها هذه الفوائض عند استثمارها في الغرب كنزول قيمتها نتيجة تدهور الدولار، وتدهور العائد على هذه الاستثمارات نتيجة التضخم، وقد وصل معدل العائد الحقيقي السنوي على معظم الاستثمارات في الأسواق الأمريكية إلى صفر أو كان سالباً في الفترة ما بين 1974 - 1981، ومن المخاطر أيضاً تفاقم أزمة الديون في العالم الثالث بالإضافة إلى مخاطر التجميد والمصادرة نتيجة أي نزاع بين البلاد العربية والغربية"[146].

---

(143) Charles Issawi, p. 207.

(144) نفس المرجع، ص207.

(145) محمود عبد الفضيل، النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية، سلسلة عالم المعرفة (16)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979 (نسخة مدمجة).

(146) محمد شعبان صوان، السلطان والمنزل: الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة العثمانية =

وتصر الدول الكبرى على تصوير هذه الحالة المختلة بكونها لصالح الدول النفطية و"سيادتها" و"استقلالها" و"استفادة" رعاياها من العوائد الضخمة والغنى الفاحش والترف الشديد، وهي مبالغ مالية كبيرة لا يعرفون حقاً كيف يستفيدون منها سوى بإعادتها مرة أخرى للغرب على شكل ودائع كبرى وأسعار بضائع استهلاكية مصنعة معظمها يندرج تحت باب السفه، هذا فضلاً عن النفط الذي يجري في شرايين الغرب ويحيي اقتصاده، وبهذا تتحقق مصالح الجميع ظاهراً، ولكن من الذي حصر مصالح ملاك النفط في هذه المعادلة المختلة التي تمتدح أدبيات الغرب نموذجها "التنموي" الاستهلاكي رغم الاحتقار الغربي لمثال الثري العربي[147]؟ وماذا لو فكر النفطيون بصيغة مختلفة تستثمر الإمكانات الحقيقية لامتلاك هذه الثروة الكبرى؟ مثل استغلاله لصناعة نهضة مستقلة تغنيهم عن الاستثمارات والتجارة الخارجية وتصنع منهم كياناً عملاقاً يوازي دول الغرب الكبرى؟ وقد أجاب تاريخنا المعاصر عن هذا الاحتمال بالأحداث التي جرت على العراق منذ سنة 1990، وقد شرح المؤرخ البريطاني بيتر مانسفيلد أبعاد ما جرى على العراق في حرب سنة 1991 بعيداً عن الاهتمام بقضية الكويت وحريتها ونظام حكمها بقوله إن الولايات المتحدة وحلفاءها واجهوا معضلة شائكة رغم توحد القوات الساحقة ضد العراق، هذه المعضلة هي أن تحقيق الهدف المعلن للتحالف وهو تحرير الكويت بإخراج القوات العراقية وعودة الحكومة الشرعية لم يكن كافياً وكان لابد من اتخاذ قرارات "ضرورية" أخرى، إذ "من غير المعقول ترك صدام حسين، وآلته العسكرية الضخمة، بما في ذلك الأسلحة الكيماوية، معافاة تماماً، لأن ذلك، وببساطة شديدة،

= ومقاومتها لتمدد الرأسمالية الغربية، دار الروافد الثقافية-ناشرون، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، 2013، ص92-93 نقلاً عن:

- رمزي زكي، الاقتصاد العربي تحت الحصار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989، ص97 و271 و276-289.

(147) بيتر مانسفيلد، ص324-333 و392-393. =

= - زاكري كارابل، أهل الكتاب: التاريخ المنسي لعلاقة الإسلام بالغرب، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ترجمة: د. أحمد إيبش، ص347-353.

سوف يجعلها في موقع القوة الإقليمية الأعظم، بحيث يكون من الصعب مجاراتها، وقد تصل إلى حدود تهديد الشرق الأوسط بالكامل، بما يتمتع (تتمتع) به من قدرات وخبرا(ت) هائلة، استفادت منها في تجارب الحرب مع إيران، ثم قامت بتطويرها، وهكذا، فقد كان لزاماً على الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، تدمير هذه القوة الهائلة التي أخلت بتوازن القوى في الشرق الأوسط"[148].

وهذا الرعب شائع في الأدبيات والتبريرات الغربية بعيداً عن قضية الكويت وكل ما تمثله، ومن ذلك القول إنه "لو نجح صدام حسين في الاستيلاء على الكويت لسيطر مباشرة على 20% من إنتاج الأوبك و20% من احتياطي نفط العالم ولكان في موقع يروع البلدان المجاورة، بما فيها بلدان نفط مصدرة رئيسية، وسيكون القوة المهيمنة في الخليج، مجهزاً جيداً لاستئناف حرب ضد إيران (وهل الغرب أصبح فجأة قلقاً جداً على إيران !)، ولكان امتلك الحرية الاقتصادية للقيام بخطوات أكبر. كان انهيار الشيوعية وصراعات الاتحاد السوفييتي العنيفة قد أبقى قوة عظمى واحدة فقط في العالم، هي الولايات المتحدة. كان ابتلاع الكويت قد يضع العراق على طريق الصيرورة كقوة عظمى جديدة.... العراق الأكبر الذي ما إن ينجح في امتصاصه الكويت حتى يكون على طريقه لتحويل نفسه إلى دولة منيعة ذات سلاح نووي، تلك هي الأهمية الحقيقية "لعامل النفط"، الطريقة التي ستحول النفط إلى مال وقوة: سياسياً واقتصادياً، وعسكرياً... فإذا احتفظ بقبضته على الكويت، فسيكون العراق قوة نفطية على مستوى الكوكب، وسيخضع منتجو النفط الآخرون لما يمليه... لن يستغرق صدام حسين طويلاً ليحول العراق إلى قوة إقليمية وربما قوة عالمية عظمى... وسينتهي نظام ما بعد الحرب الباردة إلى أن يكون أقل اعتدالاً جداً مما كان متخيلاً ومأمولاً في مطلع عام 1990، وباختصار، كان النفط أساسياً في الأزمة، ليس "النفط الرخيص"، بل الأرجح، النفط كعنصر خطير في ميزان القوى

---

(148) بيتر مانسفيلد، ص412.

الدولي، كما كان أبداً منذ الحرب العالمية الأولى، وكان هذا هو أحد الدروس العظيمة للقرن العشرين»[149]، ولهذا أصرت الولايات المتحدة على الهيمنة على نفط المشرق.

ويعلق المؤرخ مانسفيلد بعد سرده حوادث اهتمام الغرب بموقع المشرق العربي الإسلامي منذ قرنين بالقول إن أهمية هذا الموقع ستستمر لأن هذه المنطقة ستظل مصدر الطاقة الوحيد الأكثر أهمية لكل العالم أثناء القرن الحادي والعشرين وستظل أحد أهم المراكز العصبية في العالم، وفي أثناء نهاية القرن العشرين حصلت الولايات المتحدة وأوروبا واليابان على أكثر بكثير من نصف احتياجاتها النفطية من حقول النفط في هذه المنطقة، وكانت النسبة في ارتفاع متزايد، وهو ما سيجعل منتجي النفط وأصحاب الاحتياطيات الأضخم هم أصحاب التأثير الأقوى على الأحداث في المدى البعيد ويستطيعون إدارة التحكم في إنتاج وتصدير نفطهم من مخزون الاحتياط الهائل ولمدة ستدوم لأكثر من قرن[150]، ولهذا حرصت الولايات المتحدة على السيطرة على هذه المنابع ليس بسبب حاجتها الذاتية إلى النفط فيها بل بسبب رغبتها في السيطرة على الحاجات النفطية العالمية لاسيما في أوروبا واليابان[151]، كما حرصت على تدمير أية قوة تحاول الهيمنة عليها[152] حتى لو كانت قوة لا تمنع انسياب النفط بل يلوح شبح سيطرتها فقط فوق آباره، وفي هذا الإطار رأت الولايات المتحدة القوة العراقية التي هددت التوازن في المنطقة[153] وبامتلاك احتياطي ضخم يصل إلى خمس الاحتياطي العالمي لو سيطر العراق على الكويت، مما سيضع الشرق العربي

---

(149) دانييل يرغن، ص939-941.

(150) بيتر مانسفيلد، ص417-420.

(151) الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور، تأثير الخلافات الأمريكية-الأوروبية على قضايا الأمة العربية: حقبة ما بعد نهاية الحرب الباردة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص174 و346 و363.

(152) نفس المرجع، ص168 هامش رقم 29.

(153) بيتر مانسفيلد، ص412.

في موضع قوة مساومة[154] ولو كانت غير مكافئة، ولكنها بالتأكيد ليست مجرد طرف تابع وخاضع، وأصبح الاحتياطي العراقي وحده فيما بعد مغرياً اللصوص بالاحتلال[155]، وأصبحنا في غنى عن القول فضلاً عن التأكيد على أن استقلال الكويت أو سيادتها أو شعبها أو نظام حكمها لم تكن على جدول الأولويات الأمريكية وهو ما صرح به الرئيس الأسبق رتشارد نيكسون بوضوح أثناء الأزمة بتأكيده على العامل النفطي والاقتصادي الذي يجب ألا يخجل الأمريكيين[156]، ومادام هذا العامل قائماً ستظل محاولات الهيمنة جارية، والهدف النهائي لها هو ضمان بقاء أمريكا قوة عظمى وحيدة في العالم والتصدي لأية محاولة لظهور قوى أخرى وإجهاضها، أينما كانت في هذا العالم[157].

وبهذا يتبين أن الترف الاستهلاكي الذي يغرق دول النفط هو الثمن الذي "سمح" الغرب لاسيما أمريكا بدفعه كي لا تتحول هذه الثروة إلى عملاق يناهضها، ولتكون هي بموقع الصدارة بسيطرتها عليه، وما أبخس ذلك الترف من ثمن، وهو يدل على خبث الغرب وليس على أنه لا ينهب ثروات الآخرين كما يحلو للتغريب أن يرى الصورة بعدسات وردية وهمية.

■ **من نماذج تضارب المصالح رغم ادعاء التقائها:**
الاستثمارات الغربية في السكك الحديدية العثمانية

كان استثمار رؤوس الأموال الأجنبية في إنشاء السكك الحديدية العثمانية مثلاً نموذجياً لما سمي "التقاء المصالح" بين التنمية الشرقية والمصالح الغربية، وفي الوقت الذي احتاجت فيه الدولة العثمانية إلى إنشاء

---

(154) دوجلاس ليتل، ص109.
(155) الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور، ص362.
(156) باسيل يوسف بجك، العراق وتطبيقات الأمم المتحدة للقانون الدولي (1990-2005)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص179.
(157) الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور، ص99.

هذه الخطوط الحديدية حين بدأت تنتشر في أنحاء العالم، كانت إمكاناتها المالية قد نقصت إلى حد لم يعد فيه من المتيسر الاعتماد على النفس في بناء هذه المشاريع الحيوية، ولهذا عهد بها إلى أصحاب رءوس الأموال البريطانية والفرنسية الذين اقتضت مصالحهم تحفيز التجارة مع العالم العثماني باستيراد مواده الأولية منه وتسويق السلع الأوروبية فيه وجاء اختراع القطارات ليهيئ وسيلة أكثر فعاليه في نقل البضائع والمسافرين من طرق النقل القديمة، وقد استفاد الشرق العثماني من إنشاء الخطوط الحديدية فوائد جمة أتت استجابة لحاجته الذاتية التي أملت عليه المبادرة بطلبها، ومن هذه الفوائد:

فوائد اقتصادية: كتطوير الكفاءة الإدارية في جمع الضرائب وتشجيع الزراعة بربط أراضيها بمصارف التسويق كالمدن والموانئ وهو ما سيخفض نفقات النقل ويمكّن المزروعات المحلية من منافسة المزروعات الواردة التي تباع بأسعار منخفضة وفقاً لمعاهدات التجارة الحرة، كما ستؤدي زيادة المحاصيل إلى زيادة العائد الضريبي في الدولة، وستخفض القطارات من أجور نقل المسافرين فيزيد التنقل الداخلي المصحوب بانتشار العمران في المناطق التي تمر بها القطارات فزاد عدد السكان وظهرت صناعات متعلقة بالحديد والصلب.

وفوائد سياسية: بتقوية سلطة الدولة في الأقاليم البعيدة التي سيصبح نقل الجند إليها أكثر سهولة.

وفوائد عسكرية: بسرعة نقل الجيوش إلى جبهات القتال كما حدث في حروب اليونان (1897) والبلقان (1912) والحرب الكبرى (1914)[158].

ولكن الآثار لم تقتصر على الفوائد لأن الأطراف التي موّلت هذه الخطوط الحديدية كان لها نصيبها من الإفادة، وليست المشكلة هنا بل في

---

(158) خليل إينالجيك ودونالد كواترت(تحرير)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ترجمة: د.قاسم عبده قاسم، ج2ص 562.

أن فائدة الغربيين كانت على حساب العثمانيين وأدت إلى الإضرار بهم: فمن ذلك تقسيم الدولة إلى مناطق نفوذ بين الدول الكبرى حسب هوية الاستثمارات الغالبة في كل منطقة وهو ما تطور بعد الحرب الكبرى الأولى إلى تقسيم الدولة نفسها بين الإنجليز والفرنسيين وفق ما حازه كل طرف فيما سبق، كما ساهم انتشار البضائع الغربية الرخيصة في تدمير صناعات محلية وتغير توجه التجارة العثمانية التي كان معظمها داخلياً نحو التجارة مع الخارج لاستيعاب بضائعه وتزويده بالمواد الأولية(159).

ومن السلبيات الظاهرة التي أشار إليها المؤرخون الاقتصاديون الضمانات الكيلومترية التي منحتها الدولة العثمانية لأصحاب الامتيازات الذين أنشئوا السكك وضمنت لهم بها حداً أدنى من الأرباح عن كل كيلومتر يتم بناؤه، ومن المؤرخين من رأى ثمن هذه الضمانات مرتفعاً جداً ومنهم من رآها وسيلة رئيسة لنهب الدولة نهبا ربوياً على يد رأس المال الأجنبي(160)، وهناك أيضاً من رأى أن التقدم الذي أحرزته القطارات في الدولة العثمانية وصل إلى نقطة استيعاب الأضرار التي نتجت عن هذه الضمانات وأن المستقبل كان سيشهد مزيداً من التقدم(161)، ويجمل هرشلاغ الرأي بالقول إن تعهد الحكومة العثمانية بحماية المستثمرين له مبرر اقتصادي خصوصاً إذا كان المشروع حيوياً، ولكنه يلوم المستثمرين الأجانب الذين جاوزوا المعقول حين طالبوا في نفس الوقت بالنقيضين: حرية الحركة لرءوس أموالهم من ناحية، والتدخل الحكومي لصالحهم من ناحية أخرى، وهو اعتراض يتضاعف في بلد متخلف يعاني النقص في رءوس الأموال

---

(159) Sevket Pamuk, The Ottoman Empire and European capitalism, 1820-1913, Cambridge University Press, 1987, pp. 68-69.

(160) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص347.

(161) شارل عيساوي، التاريخ الإقتصادي للهلال الخصيب 1800-1914، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ترجمة: د.رءوف عباس حامد، ص346-347.

- ز.ي.هرشلاغ، ص100.
- خليل إينالجيك ودونالد كواترت، ج2ص561. وأيضا:

Charles Issawi, p. 55.

وحالته المالية توقعه بصورة متزايدة ومستمرة في أنياب الدائنين واستعبادهم[162]، ويرى شارل عيساوي أنه رغم السلبيات التي صاحبت إنشاء القطارات فلم يكن لها بديل[163].

ويلاحظ أن قسماً من الفوائد التي عادت على الدولة العثمانية من بناء السكك الحديدية كان لها نتائج سلبية على المدى البعيد لأنها كانت جزءاً من عملية اندماج بالسوق الغربي واقتصاده وليست تطوراً ذاتياً يؤدي إلى نهضة اقتصادية مستقلة كالتي حدثت في أوروبا نفسها، ويرى الدكتور جورج قرم أن تحويل أرباح الاستثمارات الأجنبية إلى الغرب عطل أثر التنشيط التحديثي المتوقع من هذه الاستثمارات[164]، وقد كانت المبالغ التي خرجت من الدولة إلى المستثمرين والمقرضين بين سنتي 1854-1914 أكبر من المبالغ التي دخلتها[165].

ومن تلك النتائج السلبية التي ترتبت على المزايا العاجلة للسكك انتشار الزراعة التجارية[166]، أي زراعة محاصيل لأجل التصدير، مع الابتعاد التدريجي عن زراعة القوت التي تكفي السكان ذاتياً، وكان تطبيق التنظيمات جعل زيادة الإنتاج الزراعي ممكناً بتركيز السلطة وتحسن الأمن وتسجيل الأراضي وفق قانون 1858 وزيادة المساحات المستصلحة[167]، في الوقت الذي جعل تغلغل الاقتصاد الغربي بوسائل المواصلات الحديثة عملية الارتباط به أكثر احتمالاً، وقد حولت الزراعة التجارية في ذلك الوقت أقاليم أخرى في العالم من الاكتفاء الذاتي إلى الاعتماد الكلي على

---

(162) ز.ي.هرشلاغ، ص68.

Charles Issawi, p. 60. (163)

(164) د.جورج قرم، التبعية الاقتصادية: مأزق الاستدانة في العالم الثالث في المنظار التاريخي، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص54.

Sevket Pamuk, p.71. (165)

(166) نفس المرجع، ص69.

(167) عادل مناع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700-1918 (قراءة جديدة)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999، ص194-195.

الأسواق الغربية في تصريف المادة الأولية التي يتخصص بها إقليم ما وفي التزود بالغذاء الذي لم يعد يُزرع في هذا الإقليم كما فعل الاحتلال البريطاني في مصر فيما بعد، ومع أن الزراعة التجارية وفرت للدولة العثمانية موارد مالية إضافية على المدى القصير، فإنها كانت جزءاً من اندماج في السوق الغربية التي اجتاحت العالم ولو تحقق مرادها لتحولت الدولة إلى الإنتاج الزراعي الأحادي الذي يفقدها اكتفاءها ويجعلها ملحقاً بالاقتصاديات الغربية لتتفرد أوروبا بالإنتاج الصناعي الذي يزيد قوتها وهيمنتها على العالم، ولكن هذا لم يحدث نتيجة القوة النسبية التي تمتعت بها الدولة العثمانية في مواجهة الغرب وهو ما افتقدته دولة التجزئة فيما بعد واستسلمت للقوى الكبرى استسلاماً مطلقاً في مجال زراعة التصدير على حساب زراعة القوت، وقد ترافق التحول نحو زراعة التصدير مع زيادة الطلب على الصناعات الخارجية مما ترك آثاراً سلبية على الصناعات المحلية التي كانت تتكامل في السابق مع الزراعة المحلية وتكفي حاجات المجتمع من البضائع المصنعة وتجعله مستقلاً بنفسه ومكتفياً بذاته.

ومن هذه الفوائد التي تحولت إلى أضرار بعيدة المدى أن التوسع التجاري مع الغرب الأوروبي أثّر سلباً على التجارة الداخلية بين أجزاء الدولة العثمانية والتي كانت تحتل المكانة الأولى بلا منازع إلى زمن التغريب، فكانت السكك الحديدية تنقل 75% من صادراتها إلى الأسواق الأوروبية مما أدى إلى تراجع التجارة البينية داخل الدولة[168].

وكانت نتيجة الاختلاف بين ظروف السكك الحديدية في مواطنها الأولى الأوروبية والأمريكية وظروفها في الدولة العثمانية أنها لم تؤد للعثمانيين ما أدته للغرب الأوروبي من نهضة صناعية ويعزو شارل عيساوي ذلك إلى التباين في مجمل البنية الاقتصادية في الحالتين[169]، إذ كانت السكك الحديدية الغربية جزءاً عضوياً من نهضة عامة أدت دورها فيها، أما

---

(168) خليل إينالجيك ودونالد كواترت، ج2ص566.

(169) Charles Issawi, p. 60.

في الحالة العثمانية فكانت امتداداً لاقتصاد إمبريالي تلاقى مع بعض الحاجات المحلية وحاول استنزافها لصالحه مما جعل السكك هنا عائقاً في بعض الأحيان أمام النهضة المحلية نتيجة التسهيلات التي قدمتها للتغلغل الإمبريالي في التجارة والصناعة والزراعة التي لم يتح لها مجال النمو الذاتي كما لو كانت متفردة بالساحة الوطنية، والفقرة التالية تؤكد التضارب بين مصالح الداخل والخارج.

■ **بناة السكك الحديدية يعارضون بناءها خارج سيطرتهم**

ولم يقتصر الأذى الغربي على ما سبق وبدا فيه التباين بين ممارسات الغربيين داخل مجتمعاتهم وأفعالهم مع غيرهم، بل ظهر تعمد الأذى واضحاً في معارضة دول أوروبا الكبرى وبخاصة بريطانيا مشاريع سكك حديدية عثمانية كان الغرض منها إعادة إيقاظ هذه المنطقة وبث الحيوية فيها وإشاعة الازدهار الذي كانت تنعم به في الماضي، وأبرز هذه المشاريع سكة حديد الحجاز التي كان من المخطط أن تربط العاصمة اسطنبول باليمن، وسكة حديد بغداد التي تربط بين برلين والكويت عبر اسطنبول، وقد رأت بريطانيا على وجه الخصوص وبقية أوروبا في هذه المشاريع ما يناقض مصالح هيمنتها فعملت بكل طاقتها لتعطلها وتعرقل إنشاءها مما يؤكد مرة أخرى أن إقدام رءوس الأموال الأجنبية على إنشاء بعض الخطوط الحديدية داخل الدولة بالإضافة إلى مشاريع أخرى في البنية التحتية لم يكن المقصود منها "نشر الحضارة" أو "تمدين الشعوب المتخلفة"،أو حتى تبادل المنافع مع الآخرين، بل كان المقصود منها هو تحصيل المنافع تحصيلاً حصرياً ومنع الفائدة عن الغير في أية لحظة تصطدم مع خطط الهيمنة والسيطرة وحب الاستئثار بجميع الخيرات، أي أن الغرب لا يقدم "مساعدة" دون أن يكون عائدها راجعاً إليه وبشرط ألا تساعد غيره على مزاحمة أطماعه.

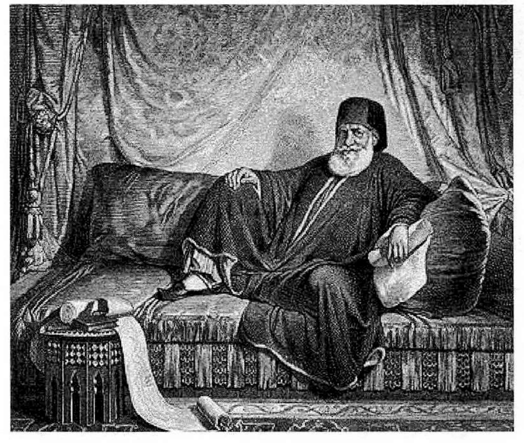


رغم قيام الأوروبيين بإنشاء خطوط حديدية في الدولة العثمانية فإنهم عارضوا بكل قوة إنشاء الخطوط الكبرى وظل الإنجليز يتربصون بسكة حديد الحجاز إلى أن استطاعوا تدميرها بواسطة قوات الثورة العربية الكبرى التي قادها عميل المخابرات البريطانية لورنس.

■ إذا كان المستعمرون وهم في مواقع الهيمنة قد عجزوا عن مراعاة مصالح من هم تحت سلطتهم فمن باب أولى ألا يراعوا مصالح الأمم المستقلة عنهم.

وقد تبدى ذلك بوضوح في محاولات الاتفاق التي بذلتها الكيانات المستقلة للكيانات الاستعمارية حين حاولت الإفادة من ظاهرة "التقاء المصالح" في الحصول على الدعم الغربي لعملية النهوض التي قامت بها كيانات شرقية عديدة لعل أولها الوالي العثماني المصري محمد علي باشا الذي يشير المؤرخون إلى أنه كان "يقدر قيمة الصداقة البريطانية وينشدها" لأن بريطانيا كانت أمامه في البحر المتوسط وخلفه في الهند والبحر الأحمر وخليج البصرة "وقد نال الباشا تقدير الإنجليز في أعقاب حملة فريزر عام 1807" برد الأسرى وتعهد المرضى منهم والمبادرة إلى الاتفاق معهم، وفي عام 1810 اتفق مع شركة الهند الشرقية بأن يحمي القوافل التي تعبر مصر

وألا يجبي رسوماً من المسافرين الإنجليز حاملي المتاع الشخصي وبأن يحمي الرعايا والممتلكات البريطانية إذا نشبت حرب بين بريطانيا والدولة العثمانية، ثم أظهر رغبته في الصداقة البريطانية أثناء حرب اليونان التي دمر الغرب فيها أسطوله، ولم يكن من مصلحة فرنسا نفسها التي دعمته فيما سبق أن تصير قوة مصر في شرق المتوسط أكبر من قوة فرنسا ذاتها(170)، فانسحب من المورة أملاً في نيل تقدير بريطانيا ومساعدتها على زيادة حجم أسطوله وعدم معارضتها لتوسعه في بلاد العرب واستقلاله عن الدولة العثمانية(171).



لم تفلح كل محاولات محمد علي باشا للاتفاق مع المصالح الغربية التي لم تقبل بأقل من الهيمنة الكاملة.

ثم لوح الباشا للإنجليز بمفاوضاته مع الفرنسيين على اشتراكه في غزو الجزائر مبدياً لبريطانيا استعداده للاشتراك معها في وقف التوسع الروسي(172)، وظل حريصاً طوال فترة حكمه على عدم الصدام بالسياسة الأوروبية أو بقوة حربية أوروبية، وأراد نيل الموافقة الأوروبية على مشاريعه

---

(170) يوجين روجان، ص101.

(171) رءوف عباس، ص118-121.

(172) نفس المرجع، ص121.

- د. جوزف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976، ص46.

ضد الدولة العثمانية[173]، ودخل في سباق مع السلطان لكسب ود أوروبا إذ "طبق سياسة إزالة التمييز ضد غير المسلمين وفسح المجال للنشاط التبشيري وللتغلغل الثقافي في بلاد الشام عامة وفي الأراضي المقدسة خاصة"[174]، ولكن كل ذلك لم يشفع له عند المصالح البريطانية التي كانت تريد أداة لها لاسيما في إضعاف الدولة العثمانية وليس حليفاً أو شريكاً[175]، ورأت فيه تهديداً لوجودها[176]، لاسيما كونه قوة فتية قد تحل محل الضعف العثماني وهو ما لا يريده الإنجليز في منطقة الشرق العثماني[177]، ولم ترضها عروضه السخية وفضلت الاعتماد على ذاتها في ضد الروس[178]، وقامت بضرب توسع الباشا بالقوة المسلحة وأجبرته على التراجع والانكفاء، ومع ذلك رحب بأن يكون إقرار العلاقة المصرية العثمانية برضا أوروبي، وسعى لأن ينال موافقة أوروبية على التسوية النهائية لتكون ضمانة لمصر من مطامع أوروبا ومن التدخل العثماني[179]، إلا أن بريطانيا أصرت على تحطيم تجربة الباشا بتقليص جيشه وفتح أسواقه للبضائع البريطانية خلافاً لموقفه الراغب بفرض الحماية على صناعات مشروعه النهضوي ورفضه الموقف البريطاني في هذا المجال مع تسهيله عملية العبور إلى الهند[180] حيث

---

(173) نفس المرجع، ص46 و100 و135 و142.

- يوجين روجان، ص102 و108.

(174) عادل مناع، 1999، ص186.

(175) د. جوزف حجار، ص7 و46.

(176) رءوف عباس، ص121.

- صوفي بيسيس، ص74.

(177) د. جوزف حجار، ص30 و162 و170 و180.

- بيتر مانسفيلد، ص92.

- رءوف عباس، ص119.

- دونالد كواترت، ص120.

- Dick Douwes, The Ottomans in Syria: A History of Justice and Oppression, I. B. Tauris, London, 2000, p. 217.

(178) رءوف عباس، ص121.

(179) نفس المرجع، ص120.

(180) بيتر مانسفيلد، ص92.

محور السياسة البريطانية[181]، وهنا يبدو تضارب المصالح جلياً حتى مع محاولات التوفيق، وفي النهاية أثبتت الحوادث أن أوروبا لا تلتزم حتى بضماناتها، فقد ضمنت سلامة الدولة العثمانية في معاهدة باريس (1856) بعد حرب القرم ثم انقلبت على هذه الضمانات بعد مؤتمر برلين (1878) وقامت باحتلالات عديدة للأراضي العثمانية ومن ضمنها مصر ذاتها (1882) والتي كانت قد ضمنت استقلالها.

■ **المصالح الاستعمارية منوعة وليست مقصورة على جانب مادي واحد**

عند الحديث عن المصالح التي جلبت الاستعمار إلى بلادنا يجب أن نستقي تصنيفها من الواقع التاريخي وليس من النظرة الضيقة التي تحصرها في شكل مادي جامد، وفي ذلك يقول مؤرخ الإمبريالية هاري ماجدوف إنه يجب التأكيد على عدم التمسك بمقولة إن التوسع الاستعماري نتج عن مصالح اقتصادية مباشرة، فربما كان التوسع الاستباقي لمنع الآخرين من التدخل أولاً، أو في سبيل الحصول على مواقع استراتيجية، كما أن المصالح المادية ليست مقصورة على مصادر المواد الخام وفرص الاستثمار والأسواق، وهو ما يتجاهل الدوافع المالية واعتبارات موازين المدفوعات كالتي كانت الهند تؤلفها لبريطانيا قبل الحرب الكبرى إذ كان لديها فائض تجاري كبير مع بقية أنحاء العالم وعجز مع بريطانيا مما سمح لهذه الأخيرة بتسوية حساباتها الدولية، كما سمح الاحتياطي النقدي الهندي لبريطانيا باستخدامه لدعم احتياطيها وللحفاظ على لندن مركزاً للنظام النقدي العالمي، كما أن حصر العلاقة الإمبريالية بين الدول الغنية والدول الفقيرة يتجاوز حقيقة التنافس بين الأغنياء على الهيمنة على الفقراء ليس للاستغلال

(181) مارك فرو، ص358.
- إريك هويزباوم، 2011، ص143.
- د. جوزف حجار، ص100.
- زين نور الدين زين، 1977، ص18 و36.

المباشر فقط بل لاستخدام مواردهم في الصراع على النفوذ بين الكبار[182].

ومن المهم أيضاً التشديد على ما كان يتوقعه القائمون على العملية الاستعمارية من مكاسب وليس ما حققه الاستعمار بالفعل، لأن حساب الحقل يختلف غالباً عن حساب البيدر، كما أن المجرم قد لا يجني ما يتوقعه من الجريمة ولكن هذا لا يعفيه من المسئولية الجنائية، فتبرير البعض بأن هذه الدولة الاستعمارية أو تلك لم تجن الفوائد من الاستعمار لا يعفيها من أصل الجرم حيث يشير المؤرخون إلى التوقعات التي رصدت للعملية الاستعمارية[183].

ويتفرع من رؤية المصالح الاستعمارية بمنظور أوسع الحديث عن الاستعمار الجديد: فقد استمرت مصالح الدول الاستعمارية الآفلة بعد انسحابها من مستعمراتها، وليس من المتوقع أنها كانت ستتخلى عن المصالح التي عجزت عن الاستمرار في الدفاع العسكري عنها، ومن ذلك مثلاً أنه بعد انسحاب بريطانيا من المشرق العربي في بداية عقد السبعينيات من القرن العشرين، حددت ورقة رسمية صدرت من وزارة الخارجية البريطانية المصالح البريطانية الاستراتيجية والسياسية في العالم العربي وهي: استبعاد النفوذ السوفييتي وتوثيق العلاقات العسكرية مع العرب وحصص الشركات الغربية في النفط العربي ووجوب استمرار تدفقه إلى العالم الغربي بأسعار معقولة لاسيما أن ثلاثة أرباع النفط الذي تستهلكه بريطانيا مصادره عربية مما يحذر من ورقة قوة بيد العرب، وهناك أيضاً الأسواق العربية لاسيما سوق الأسلحة الداعم لميزان المدفوعات البريطانية، ومن المصالح أيضاً دعم الجنيه الاسترليني بواسطة الأرصدة الكويتية والليبية وغيرها[184]، ومع أن الورقة كتبت سنة 1972 فإننا نرى استمرارية معظم ما جاء فيها إلى

---

(182) هاري ماجدوف، ص18-20.

- إريك هوبزباوم، 2011، ص144.

(183) إريك هوبزباوم، 2011، ص144-147 و209.

- Robert Aldrich, pp. 48, 82, 85, 88.

(184) الدكتور علي محافظة، ص265.

اليوم، وقد أقلم الاستعمار الجديد نفسه للهيمنة على العالم دون سيطرة عسكرية ومع ذلك تهيمن البنوك الكبرى اليوم على الدول المستقلة أكثر من بدايات هذا النوع من الاستعمار[185] وبهذا تمكنت الصيغة الجديدة من الحفاظ على مصالح الكبار دون استمرار عمليات الاحتلال بل بوجود درجة عالية من التأثير في الشئون السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية للدول المستقلة، وكان التحدي الرئيس الذي واجه الاستعمار في مرحلة استقلال المستعمرات هو طريقة الحفاظ عليها داخل المنظومة الإمبريالية من أجل السيطرة على التجارة والاستثمار والمواد الخام، وقد سهلت عملية إلغاء الاستعمار هذا التحول لصالح السادة القدماء، وكان سبب هذا التحول لصالح الدول الاستعمارية رغم الاستقلال السياسي للمستعمَرين هو استمرار البنى الاقتصادية والسياسية التي أنشأها الاستعمار مما أدى إلى استمرار العلاقات التي كانت سائدة زمن الاحتلال بعد نيل الاستقلال[186]، ولكن هذا لا يمنع من عودة صيغة الاحتلال العسكري في سبيل حزمة من المصالح المتنوعة كما حدث في العراق وأفغانستان ثم التدخل العسكري في ليبيا.

علينا تغيير النظرة الأحادية التي ترى الاستعمار مجرد رغبة إمبريالية في تخلف الآخرين وهي نظرة سرعان ما ستنقلب إلى الإعجاب بالمجرم لو تبين لها أن هذا المجرم لا ينطبق على توقعاتها السادية حتى لو كان يقتل دون إسالة دماء، وفي هذا المقام يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري فيما يصلح رداً على متوقعي التخلف الأقصى وعلى مدعي "التطور" الاستعماري معاً: "إن النظام العالمي الجديد أو الاستعمار العالمي الجديد، على عكس القديم الذي كان يضربنا لنظل متخلفين ويستطيع نهب الموارد الخام (ومع ذلك كان يحقننا ببعض التطوير والتعليم لإيجاد كوادر محلية لتسيير شئون الإدارة الاستعمارية في المستعمرة وللسيطرة الثقافية والسياسية على المستعمَرين)، فهذا الاستعمار الجديد يريدنا أن نتقدم بعض الشيء، بحيث

(185) مارك فرو، ص30.

(186) هاري ماجدوف، ص77 و81-82 و114-115.

نكون نصف منتجين ونصف مستهلكين، نأكل ماكدونالدز ونشرب الكوكاكولا، لأنه لو ظللنا متخلفين من وجهة نظره فلن نشتري حاسباً ولن نستهلك بنطلونات الجينز ولن نأكل الهامبورجر، لذلك المطلوب بعض التقدم مع كثير من الانسلاخ عن الهوية والذات"[187]، "لم يعد هدف الإمبريالية في الوقت الحاضر متمثلاً في إرسال جنود لاحتلال أراضي الآخرين وتسخير شعوبها أو إبادتهم كما كان الحال في الماضي، الهدف الأكبر أن يحوّل كل البشر إلى مادة استعمالية إنتاجية استهلاكية، هذا يتم عن طريق الإعلانات، عن طريق الفيديو، عن طريق إنشاء مدن للاستهلاك واللذة... وهذه الاستهلاكية العالمية لا يهمها على الإطلاق في الواقع أن تقيم الصلاة، إنما ما يهمها أن يسعى ابنك إلى لبس الجينز وأن يسمع موسيقا الديسكو ويأكل الهمبورجر، ولذا فهي رؤية أحادية اختزالية للإنسان"[188].



تنمية النزعة الاستهلاكية في بلادنا من وسائل الإمبريالية الحديثة لتمكين مصالحها وتعطيل نمونا.

(187) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2): العلمانية والحداثة والعولمة، دار الفكر، دمشق، 2010، تحرير: سوزان حرفي، ص299.

(188) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (3): الهوية والحركية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، 2010، تحرير: سوزان حرفي، ص29.

إن الاستعمار إذن يزن كمية التقدم المسموح لنا فيه سابقاً ولاحقاً بمدى تحقيق مصالحه وهو ما لا يمكن أن يصل حد تطوير بلادنا لتصبح عمالقة تنافسه، ومع بقائنا مخدوعين بأن الاستهلاك هو ميزان التقدم، سنظل نستهلك ونستهلك مقلدين الاستهلاك الغربي مع فارق واحد ولكنه ضخم جداً: هم يستهلكون إنتاجهم ونحن نستهلك إنتاجهم أيضاً مما يجعل مصانعهم هي التي تدور وتعود بالفائدة عليهم وعلى اقتصادهم، فلا بد أن يكون فهمنا مطابقاً للواقع وإلا وقعنا في استلاب التغريب، الذي يرى في "التطور" المسموح لنا به تطوراً حقيقياً، أو على الأقل وقفنا عاجزين عن مقاومة ما لا نعرفه عن هذا التمدد الكاسح الذي يريدنا تابعين لنهبه دائماً.

■ استنتاجات الأضرار الاستعمارية

من طبيعة الأهداف النفعية الاستعمارية التسبب في الأذى للمستغَلين كالقتل والنهب والاسترقاق ونشر الأفيون والقضاء على وسائل الرزق ومحاربة الصناعات المحلية، وإضافة إلى الخسائر المادية الكبيرة والمباشرة لهذه الجرائم فقد كان لها ضرر كبير آخر على المدى البعيد وهو قطع الطرق على مسيرة العمليات الحضارية التدريجية في كثير من أنحاء العالم والتي بلغت مدى بعيداً من التطور المستقل وإن ليس على النموذج الغربي عشية حلول الاستعمار بها، كنواح في القارتين الأمريكيتين والصين والهند والمشرق العثماني بالإضافة إلى تطورات إفريقية معتبرة حيث نشأت امبراطوريات حضارية لم تتكرر في أماكنها في عهود الاستعمار فيما بعد، وقد تبدت النوايا السيئة للمستعمِر في استخدام خطايا "المتخلفين"، فضلاً عن سلبياته وخطاياه هو، لتمكين مصالحه، وفي تدمير النماذج الحضارية التي اقتفت آثاره واستفادت من تقدمه، كما سنرى بالتفصيل، وبحسابات الربح والخسارة التي قامت العملية الاستعمارية على أسسها ولكن من وجهة نظر مغايرة لمصالح المستعمَرين الذين من حقهم أن يبدوا كشف حسابهم هم كالحق الذي منحه ظالمهم لنفسه حين فرض عليهم فاتورته، نجد بعد عملية الجرد أن "الفوائد" التي قدمها الاستعمار كان يمكن تحصيلها من طرق

أخرى دون دفع الفاتورة الباهظة التي دفعها المستعمَرون لسادتهم في علاقات ظالمة لم يتغير جوهرها رغم التغيرات الجذرية التي حدثت في شكل العلاقات الدولية وزوال عمليات الاحتلال العسكري إلا القليل منها، وإن العودة لهذا الشكل دليل على بقاء علاقات الهيمنة التي تتطلب "تأديب" المتمردين.

الباب الثالث

الحياة في ظل الاستعمار

فيما يلي بعض النماذج المختلفة من الحياة في ظل الاستعمار والتي توضح المدى الذي وصلت إليه "الرفاهية" التي تمتع بها المستعمَرون:

1 - الجزائر: مليون ونصف المليون شهيد مآل المطالبة بالمساواة الاستعمارية

يقول المؤرخ يوجين روجان إن العالم العربي لم يشهد استعماراً استيطانياً كالاستعمار الفرنسي في الجزائر إلا في فلسطين، وقد واجهت فرنسا مقاومة الأمير عبد القادر بسياسة الأرض المحروقة في المناطق الداخلية بهدف إضعاف التأييد الشعبي للأمير، وقام الجنرال بيجو بإحراق القرى وإفزاع الماشية ودفعها للهرب وإتلاف المحاصيل واقتلاع البساتين وقتل الرجال والنساء والأطفال وعدم قبول الأسر، مما أدى إلى تحطيم اقتصاد الريف، وكان للحرب آثار مدمرة على الجزائر إذ راح ضحيتها مئات الآلاف من الجزائريين، وصارت الجزائر جزءاً من فرنسا ولكن سكانها غير الأوروبيين أصبحوا رعايا وليسوا مواطنين[1] وكان الفرق هائلاً بين الطرفين في مجال الحقوق السياسية والواجبات والمزايا الاقتصادية والأوضاع الإدارية والقانونية[2]، (وهو مجال بحث غير مطروق عند أنصار التغريب

(1) يوجين روجان، ص151-154.
(2) نفس المرجع، ص302.
- لوتسكي، ص302-303.

المغرمين بتشريح التاريخ الإسلامي وذم الرعوية للدولة الإسلامية التي تختلف جذرياً عن رعوية الدول الاستعمارية التي تعني التمييز بلا شك والتي شرعها وبررها في الحالة الجزائرية فيلسوف الديمقراطية أليكسيس دي توكفيل الذي ساند وحشية الجنرال بيجو أيضاً)[3].

ويقول المؤرخ فلاديمير لوتسكي إن الفرنسيين استخدموا أشد الأساليب وحشية لإرهاب الشعب الجزائري، وأبادوا القبائل الموالية للأمير عبد القادر عن بكرة أبيها، ويستشهد بشهادات عاصرت الأحداث أكدت أن الفرنسيين قاموا بقطع آذان الأسرى وسبي الزوجات والأطفال والاستيلاء على القطعان، وعرضوا النساء في المزاد العلني كالدواب، وقطعوا رءوس الأسرى لتلقين العرب درساً في احترام السلطة، "وأدى نير المستعمرين إلى كارثة اقتصادية تامة في الأرياف الجزائرية، ففي غضون الأعوام 1868-1870، عمت البلاد المجاعة واقتات الناس الحشائش وفي حالات كثيرة كانت تلاحظ حوادث أكل لحوم البشر، ورافقت المجاعة الكوليرا التي أودت بحياة عشرات الآلاف من الضحايا"، وفي عام 1866 كان عدد الجزائريين مليونين و652 ألفاً فهبط العدد أكثر من نصف مليون بعد ست سنوات أي مات خُمس مجموع السكان من المجاعة والأمراض والأعمال الوحشية التي ارتكبها الاستعمار.



الاستعمار الفرنسي في الجزائر علمنا المدنية والتحضر بطريقة مازالت راسخة في أذهاننا ونطبقها إلى اليوم.

---

(3) موسوعة المعرفة: ألكسي ده توكفيل
http://www.marefa.org/index.php (8/8/2014)

وعن تنمية الجزائر يقول لوتسكي أيضاً إن الفرنسيين نظروا إلى الجزائر بصفتها سوقاً لترويج البضائع ومصدراً للخامات والمواد الغذائية، بالإضافة إلى كونها مكاناً لتصدير الفائض السكاني الفرنسي، وكان اغتصاب الأرض هو الأسلوب الذي حقق به الاستعمار تبعية الجزائر لفرنسا، وبحلول سنة 1917 كان المستوطنون قد استولوا على 55% من مجموع الأراضي المسجلة في الجزائر معظمها بأيدي 10 آلاف من المستعمرين مقابل الملايين من الشعب الجزائري، وإذا كان استيراد البضائع الفرنسية قد دمر الصناعة الجزائرية فإن تصدير الخامات والغذاء أخضع عمليات إنتاجها أي الزراعة والتعدين للهيمنة الاستعمارية بالاستيلاء على الأراضي، "وأدت السياسة الوحشية، التي انتهجها "الممدنون" الفرنسيون والرامية إلى الاستيلاء على الأراضي إلى تدمير الاقتصاد الفلاحي العربي، ولقمع القبائل المتمردة، دمر الفاتحون الينابيع وحولوا الواحات المزدهرة إلى صحارى، واستولى المعمرون على أحسن المراعي، وأبعدوا الرحل إلى الأراضي القاحلة وإلى البقاع الداخلية من البلاد ذات المناخ القاسي، ولم يستطع المبعدون العثور على العشب لإطعام قطعانهم التي هلكت من شدة الجوع والعطش ومن الصيف القائظ والشتاء القارس".

وقد استولت الاحتكارات الفرنسية على مناجم الحديد والفوسفور، وتأسست بضعة بنوك في الجزائر مرتبطة بالبنوك في فرنسا، ومدت الخطوط الحديدية لتشجيع التجارة وللأهداف العسكرية، وقبل عام 1885 زاد مجموع السكك الحديدية في الجزائر عن 2000 كيلومتر، وكانت التجارة مرتبطة بفرنسا تصديراً للخامات واستيراداً للبضائع، وتقوض بذلك إمكان تأسيس صناعة تحويل جزائرية، وكان العمال الأوروبيون منفصلين عن العمال الجزائريين ويتمتعون بوضع أفضل منهم بكثير، إذ كانت أجورهم أعلى وأعمالهم أسهل وأنظف ويتمتعون بحقوق لم تكن للعمال الجزائريين[4].

ويقول المؤرخ الفرنسي روبير شنيرب إن الاستيطان الفرنسي في

(4) لوتسكي، ص193 و296-303.

الجزائر لم يكن من الممكن أن يتحقق إلا على حساب السكان الأصليين، وكان من المتوقع أن توفر إفريقيا الشمالية موئلاً لعشرين مليون فرنسي بعد قرن من بداية الاحتلال، ولكن الجزائر لم توفر الظروف المؤاتية التي توفرت في كندا وأستراليا، أما جمهور المسلمين فيها فلم يتطور تطوراً يستحق الذكر، ولم يستفد كثيراً من مؤسسات الحماية والتربية، ولم يفتتح أول مستشفى إلا بعد أكثر من ستين عاماً، وقد فتكت الأمراض بأعداد كبيرة من الأهالي لاسيما الأمراض التي زادت بدخول الفرنسيين كالتدرن الرئوي والسفلس، وقضى المحتلون على المؤسسات التعليمية التي كانت تزود الناس بالتعليم الديني ولم تعط تجارب المدارس العربية التي أنشأها الفرنسيون نتائج مشجعة، وأدت التغيرات التقنية إلى القضاء على النشاطات القديمة ولم تتحسن أحوال المتخلفين، وأدى تغير التيارات التجارية القديمة إلى خسارة البربر والعرب بفعل التيارات والأسواق الجديدة التي أدت إلى الهجرات التي فككت عرى الروابط العائلية، ومع تعود قسم من السكان على الأساليب الجديدة في الرعي والزراعة، فقد ظل السواد الأعظم يعيش "عيشة رزية"، وضحت البلاد بزراعة الحبوب والمواشي التي تقوم عليها مطالب الحياة والاكتفاء مع كون هذين القطاعين حيويين جداً للأهالي واتجهت نحو زراعة العنب لأجل خمور فرنسا[5].

ولم تشمل الديمقراطية الفرنسية الجزائريين إذ لم يستهدف التمثيل الجماهير الإسلامية، وبعد ثورة 1898 المطالبة بالاستقلال الذاتي مُنح المستوطنون مزيداً من الحقوق والحريات وبقي الجزائريون في وضع اجتماعي متدن، ووافقت هذه الحالة مصالح الحكام في فرنسا[6]، وجعل قانون صدر في سنة 1865 الجزائريين رعايا وليسوا مواطنين فرنسيين، وكان على من يريد أن يُبحث منحه المواطنة أن يتخلى عن هويته الإسلامية ويقبل بالعيش وفق قوانين الأحوال الشخصية الفرنسية، ورغم بريق المواطنة لم

---

(5) موريس كروزيه، ج 6 ص430-433.

(6) نفس المرجع، ص433.

يتقدم للحصول عليها من ملايين الجزائريين سوى ألفي شخص في مدة ثمانين عاماً[7].

ورغم عدم شمول الجزائريين بحماية القانون الفرنسي فقد كان باستطاعتهم أداء الخدمة العسكرية التي أصبحت تجنيداً إلزامياً قبل الحرب الكبرى الأولى (1913) حين جندت فرنسا في الحرب أكثر من 200 ألف مسلم جزائري قُتل منهم ما بين 25-80 ألفاً غير أعداد هائلة من الجرحى، ومع ذلك كانت القوانين المطبقة على الجزائريين تتسم بالتمييز إذ عاقبتهم على أفعال مسموح بها للفرنسيين، كالحرية السياسية في انتقاد الحكومة، وكانت تذكرهم دائماً أن الجزائري مواطن من الدرجة الثانية في وطنه، وقد دفع هذا الوضع المعجبين بالحضارة الغربية للمطالبة باندماج الجزائر في الأمة الفرنسية، وأنكر بعض المتحمسين منهم وجود هوية جزائرية مستقلة عن فرنسا وقالوا : فرنسا هي أنا، وحتى عندما وصلت الجبهة الشعبية الاشتراكية للحكم في فرنسا (1936) ونادت بعلاقات جديدة مع المستعمرات كان القانون الذي اقترحته بهدف تأبيد الاستعمار الفرنسي (مشروع بلوم فيوليت) لا يتيح المواطنة إلا لعدد ضئيل من الجزائريين لا يزيد عن 25 ألفاً من أصل 4,5 مليون ومع ذلك عارضته جماعة الضغط الاستيطانية والمحافظون مما أدى إلى سقوط المشروع[8] وسقطت حكومة الجبهة الشعبية نفسها.

ثم عادت فرنسا لاستخدام الجزائريين في الحرب الكبرى الثانية وجندت أعداداً كبيرة منهم زادت كثيراً عن مائة ألف، وظن دعاة الاندماج بفرنسا أن هذه فرصتهم للمطالبة بحقوقهم ولكنهم صُدموا لرد الفعل الفرنسي الذي قام بقتل 45 ألف جزائري في أثناء الاحتفالات بانتصار الحلفاء في الجزائر يوم 8/ 5/ 1945 وهو ما قاد إلى الثورة الجزائرية سنة 1954 التي ارتكب الفرنسيون أثناءها كثيراً من عمليات الاعتقال والتعذيب الجماعية

---

(7) يوجين روجان، ص302.

(8) نفس المرجع، ص303-308.

وواسعة النطاق مما أدى إلى تشريد 3 ملايين ريفي جزائري من منازلهم[9] وسقوط مليون ونصف المليون شهيد.



مجازر ماي 1945 في سطيف وقالمة وخراطة كانت رد "الحضارة" على طلب "المتخلفين" الانضمام إلى صفوفها

وكان الانسحاب الفرنسي من الجزائر مفضلاً لدى الإدارة الفرنسية على أعباء دمج الجزائر بمستوى الحياة الفرنسية في زمن الرئيس ديغول[10] في الوقت الذي كان فيه الخلاف الداخلي الفرنسي مستقطباً بين رفض السلطة دمج الآخرين وإصرار المستوطنين على الاستعمار والاستغلال وهو نفس الخلاف داخل المجتمع الصهيوني بين طرف يفضل التنازل عن أعباء السكان الفلسطينيين لصالح نقاوة الهوية اليهودية وطرف يفضل الاحتلال مع الاستغلال، أي الهوية أم الهيمنة، وهو خلاف تقليدي في المجتمعات الاستطانية الديمقراطية وكان محكوماً باستمرار بحسابات المصالح المادية إذ

(9) نفس المرجع، ص415-422.

(10) مارك فرو، ص562.

تنتصر وجهة النظر التوسعية أمام السكان الأصليين الضعفاء أو القلائل كما حدث في أمريكا، وتنتصر اعتبارات الهوية أمام المقاومة الشرسة كما في الجزائر، وما زال الخلاف محتدماً في فلسطين بين أخذ ورد، وهذه أدلة حاسمة على حصرية الحضارة الغربية وكونها مقصورة على النخبة وترفض إشراك الآخرين في مزاياها، ومع ذلك تجد اليوم كثيراً من اللاهثين الساعين للحاق والاندماج بها ولكن دون جدوى.

2 - تونس: نموذج النجاح الاستعماري الذي فضحه البوعزيزي

يذكر المؤرخ شنيرب أن الحماية الفرنسية أبقت السلطة التونسية ولكن هذه الشراكة لم تكن تعني المساواة بين الشريكين، إذ أنها أمنت مصالح فرنسا التي لم يخضع مواطنوها لقوانين تونس، وسيفاخر الجيش الفرنسي بنظام لا يلغي مناصب الحكام المحليين بل يستخدمهم، وأكد جول فري أن تونس ستصبح مستعمرة لرءوس الأموال، وقد استهدفت الحماية الفرنسية تنمية البلاد وفقاً للمصالح الفرنسية، فشقت بعض الطرق وربطت الخطوط الحديدية بالجزائر وأعطيت الأولوية لزراعة العنب على زراعة الحبوب، و"إذا عرفت تونس الهدوء، فإنها لم تتطور قط، فالبلدي فيها لا يزال يعيش حياة فقر وحاجة"، ومن حصل على التعليم نخبة محدودة، والخدمات الصحية "غير مرضية"، وفي الأرياف حيث يعيش المستوطن الأجنبي الغني حياة مترفة "لم يطرأ على المسكن أي تبدل: البدوي يعيش تحت خيمته، والبيوت أكواخ مسقوفة بالتبن الطويل والأعشاب ومؤلفة من غرفة واحدة يسودها الدخان ويغزوها القمل والبراغيث والبق"[11].

وقد ترك الاستعمار الفرنسي تونس في صورة محزنة سنة 1956: نسبة الأمية 70%، و8% من الأجانب يسيطرون على 40% من الدخل، ورغم ذلك فقد حصل على المديح لأن توجهاته خدمت تعزيز الدولة التونسية التي دخلها مستعمراً وركز جهده على دعم أعمال المستوطنين الأجانب فيها ثم

(11) موريس كروزيه، ج 6 ص433-434.

حصلت على ثناء مراجع غربية بفضل اندماجها في الاقتصاد العالمي لاسيما الفرنسي : معدل نمو مرتفع قريب من معدلات النمور الآسيوية، تضاعف متوسط الدخل أربع مرات، انخفاض معدل وفيات الأطفال، انخفاض معدل الأمية، قلة نسبة المتواجدين تحت خط الفقر، معدلات استثمار عالية، ضمان اجتماعي لحماية الفقراء من الخصخصة والتحول نحو السوق الحرة، حد أدنى للأجور أعلى من الدول العربية، ورغم الديون الكثيرة فإن "النجاحات التونسية في مجال التنمية معترف بها عربياً ودولياً، لا بل إن بعض المصرفيين الغربيين يعتبر تونس دولة-نموذجاً، خاصة في مجال إدارة الشئون الاقتصادية"، وما بقي عليها في ذلك الزمن هو، فقط، إثبات قدرة عمالتها على منافسة الأوروبيين بالإضافة إلى التخلص من الديكتاتورية[12]، حتى أحرقت نيران البوعزيزي كل مديح المرجعيات الغربية وثناءها على هذا النموذج.



المواطن العزيز محمد البوعزيزي أحرق نموذج التنمية الاستعمارية التي حازت على تصديق الدوائر الإمبريالية.

(12) سعد محيو، ص247-248.

3 - فلسطين: النموذج الحي للاستعمار

لم يسمع أحد من ضحايا الاستعمار نغمة جلبه الحضارة ونشرها بين المتخلفين كما سمعها أهل فلسطين من الصهاينة منذ مؤسس مشروعهم تيودور هرتزل بل قبله بكثير، وقد وجدت هذه الدعاوى من يروج لها من أهل فلسطين أنفسهم ويسخر ممن يعارضون الصهيونية بسبب أضرارها وتساءل بعض "المثقفين" ما هو الضرر من الصهيونيين؟ مجيباً بسخرية إن هذا الضرر الكبير هو زراعتهم الكروم حيث كانت الأعشاب البرية وإدخالهم المحاريث الحديثة بدلاً من محاريث قديمة منذ عهد النبي نوح، وإنشاء المصارف التي تخلص المواطنين من قيود المرابين، وبنائهم المدارس، ودفع أثمان مجزية للأراضي[13].

وعلى الرغم من هذه الدعاوى، فإن اهتمام الصهاينة الأوائل تركز على مسألة "استرداد الأرض" من الفلسطينيين بوسائلهم الخاصة وبالعمل العبري ورأس المال اليهودي، كما انصب الاهتمام أساساً في تطوير دولتهم بشكل خاص، وآثروا الانفصال دون الاهتمام بأن يصبحوا جزءاً من المنطقة بل مع الإصرار على كونهم المخفر الأمامي للغرب المتقدم في المشرق المتخلف، وهو منطق ما زال الغرب يتقبله[14]، وكل ذلك يفضح دعاوى نشر الحضارة والتقدم، ولو اتسع أفق مداحي الاستعمار الصهيوني ونظروا إلى الأمام قليلاً لعلموا أن كل هذه التحسينات الحضارية كانت لتطوير فلسطين للمستعمِرين وحدهم وليس للمستعمَرين الذين سيكون مصيرهم فيما بعد الفناء أو الطرد، سواء من مدح أو من ذم، وهذا هو حال جميع التطويرات الاستعمارية التي لا تُصنع إلا لفائدة المستعمِر وحده ولكنها تسلب لب قصار النظر الذين يبهرهم البناء الضخم الذي أقامه اللص على أرض كان يعيش فيها قوم بسطاء فقام بطردهم وقتلهم ونهبهم وصنع لنفسه بإمكاناته الكبرى التي جمعها

---

(13) دكتور حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص325.

(14) بيتر مانسفيلد، ص426-427.

من اللصوصية قصراً على الملك المسلوب واستبعد ذرية صاحب الدار من هذه الجنة، فهل هذا الاستئثار يدخل ضمن التحضر؟ لقد أجاب على ذلك أحد قادة الفلسطينيين قبل الشتات وهو موسى العلمي في حديثه مع بن غوريون الذي روى الحادثة بالقول إنه بدأ الحديث عن المستنقعات التي يجري تجفيفها والصحارى التي ستزهر بالخضرة والرخاء الذي سيعم الجميع، فقاطعه العلمي قائلاً: "اسمع يا خواجة بن غوريون، إنني أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة لمائة عام أخرى أو ألف عام أخرى، إلى أن نستطيع نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص"، فاعترف الخواجة بأن كلام العربي صحيح وأن كلماته هو اليهودي مضحكة وجوفاء أكثر من أي وقت مضى[15].

وقد لمس أهل فلسطين هذه الحقيقة عندما طُرد معظمهم من بلادهم على يد "المتحضرين"، فكان من الأفضل أن تبقى بلادهم بسيطة بأيديهم على أن تزدهر دونهم، أما من بقي منهم فتمثل الحياة في فلسطين اليوم النموذج الحي الباقي من الحياة في ظل الاستعمار، وحياة أهلها الذين يفتقدون ما أصبح من أساسيات الحياة دليل واضح على نعم الاستعمار الوفيرة التي تصورها البطالة والفقر والمرض، وفقدان الماء والكهرباء، وهدم المنازل، وتشريد الأسر، والاستيطان الزاحف على الأرض، وحياة البؤس في المخيمات، والاعتقالات الواسعة، والقصف الدوري، والاغتيالات، والحروب المستمرة، كل ذلك يعيد إلى الأذهان "بحبوحة" العيش في ظل الاستعمار ويعطينا درساً عملياً مباشراً عما يمكن أن نحصل عليه لو تحققت أماني الذين يحنون لأيام المستعمِرين.

وفي الحقيقة هذا ما رسمه زعماء الاحتلال منذ البداية، فقبل حرب سنة 1973 أشار موشي دايان على كيانه الصهيوني بإبلاغ الفلسطينيين بأنه "لا حل، وأنكم ستستمرون في العيش كالكلاب، وكل من يريد منكم المغادرة في وسعه أن يفعل"، ولهذا كانت برامج "التطوير" مسخرة لتحقيق

---

(15) د. عبد الوهاب المسيري، أسرار العقل الصهيوني، دار الحسام، القاهرة، 1996، ص64.

هذا الهدف، فقد أعلن أمر رسمي لوزارة الدفاع الصهيونية أنه "لن تمنح أذونات لتوسيع زراعة وصناعة (فلسطينية) قد تنافس دولة إسرائيل"، ومعظم إمدادات المياه في الضفة الغربية وجهت لصالح الاستيطان والكيان ذاته، وحتى التعليم الذي يفترض أنه لصالح التقدم فقد سمح الاحتلال ببناء الجامعات ودون أن يدفع هو قرشاً واحداً إلا على الجامعة الإسلامية في الخليل لهدف سياسي، وكان ذلك الجهاز التعليمي جزءاً من خطة شاملة بهدف تشجيع الخريجين الفلسطينيين على مغادرة بلدهم حيث لا يجدون فرص العمل، وقد تباهى محافظ القدس سنة 1990 أمام الصحافة أنه لم يرع العرب بشيء ولم يبن لهم شيئاً إلا نظام صرف صحي لم يكن يستهدف رفاههم بل حماية اليهود من الإصابة بعدوى الكوليرا المتواجدة في القسم العربي نتيجة عدم وجود الصرف الصحي، فهو لا يريد منح العرب الشعور بالمساواة وإن لم يكلفه ذلك شيئاً مع وجود النصيحة بالقيام ببعض المشاريع بهدف الاستعراض أمام الأجانب والسواح[16].

وقد رد الكاتب العربي حمدان حمدان على لائحة بنيامين نتنياهو الذي عدد فيها ما استفاده أهل فلسطين 1967 من الاحتلال الصهيوني (ارتفاع مستوى الحياة نتيجة بناء البيوت والجامعات والمستشفيات والطرق وامتلاك السيارات والهواتف ووصول التيار الكهربائي) بالقول إن حملة رفع مستوى القدس والضفة الغربية، وليس قطاع غزة، كانت جزءاً من تهيئة هذه الأراضي لاستيعاب الاستيطان من كل أنحاء العالم وهو ما أثبته ذلك الإرهابي نفسه في كتابه عند حديثة عن "عودة" اليهود إلى "أرضهم"[17]، وهو ما ثبتت صحته فيما بعد وتأكد أن كل عمليات التطوير كانت محسوبة لكي يرتفع اليهودي الآتي مما وراء البحار وينخفض الفلسطيني بعدما طُرد

(16) نعوم تشومسكي، 1998، ص39 و44-46.
- نعوم تشومسكي، ضبط الرعاع: حوارات أجراها معه ديفيد بارساميان، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1997، ترجمة: هيثم علي حجازي، ص128.

(17) حمدان حمدان، إغتيال التاريخ: رداً على نتنياهو في مكانه تحت الشمس، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1997، ص127-129.

من بلاده وحُشر في المخيمات ليجرؤ عدوه بعد ذلك على المن عليه بما ألقاه له من فتات ثمناً لتلك البضاعة الغالية وهو ثمن لم يقبل الفلسطيني بالانخداع به ولهذا بدأ انتفاضاته على "نِعم" الاحتلال البغيض منذ سنة 1987 مفضلاً الموت على هذه الجنة المزعومة التي ظهرت حقيقتها بما قسمته اتفاقية أوسلو لها بعدما سعى الصهاينة للخروج من الأزمة التي حشرتهم فيها انتفاضة الحجارة، وأثبت شعب فلسطين مرة أخرى لنتنياهو وأمثاله أن الكرامة والحرية والأوطان لا تباع بكيس من الشاي بعد الطرد والتشريد، ومادام المشروع الصهيوني قد رفع مستوى الواقعين تحت احتلاله، فما باله يرفض عودة من "تركوا" فلسطين من أبنائها دون تخطيط صهيوني كما يدعي أرباب المشروع ومن ثم فلا مصلحة صهيونية في خروجهم؟ ولماذا يصر الصهاينة على حرمانهم من ثمار الجنة الصهيونية التي شملت أهالي الضفة والقطاع؟



قال شمعون بيريز بعد اتفاق أوسلو: "وعندما تصبح غزة ميناء مزدهراً، فبإمكانها أن تصبح أيضاً المحطة النهائية لشبكات الطرق والسكك الحديدية، ومركزاً إقليمياً لصيد الأسماك، ومركز جلب للاستثمارات الأجنبية"[18]، حي الشجاعية في غزة بعد عدوان 2014 نموذج على الحضارة التي جلبها الصهاينة لأهل فلسطين وللميناء المزدهر الذي وعدنا به شمعون بيريز ومن دلائل تحقق وعده أن المركز الإقليمي لصيد الأسماك والذي تحدث عنه صار صيد السمك الكبير فيه حدثاً غير عادي يستوجب الاحتفال وذلك بسبب منع عمق البحر عنه.

---

(18) شمعون بيريس، الشرق الأوسط الجديد، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1994، ترجمة: محمد حلمي عبد الحافظ، ص156.

وعلى كل حال فقد كانت نغمة الانتفاع العربي من المشروع الصهيوني نغمة قديمة لم يترك الصهاينة قبل قيام كيانهم فرصة إعلامية إلا واستغلوها لعزفها بصوت عال، منذ بدايات المشروع على أيدي الدول الاستعمارية لاسيما بريطانيا التي بشرت العثمانيين بالفوائد التي سيجنونها من الصهيونية[19]، مروراً بهرتزل الذي كتب رواية شرح فيها هذه "الفوائد" التي عد منها الرحيل عن هذا الوطن بعض قبض ثمن مجز[20] (!) إلى من بعده من زعماء الصهيونية الذين ما انفكوا يعزفون هذه النغمة زمن الانتداب البريطاني[21]، ويمنون على فلسطين بتحولها من ولاية عثمانية إلى أعتاب دولة مستقلة (أين هي هذه الدولة؟ ويا ليتها ظلت جزءاً من خلافة كبرى) وبزيادة عدد سكانها (الصهاينة !) وبتطويرها (لأجل الصهاينة !)[22]، ووجدوا من يردد هذه الأنغام من أبناء البلاد كما مر، ولكن ما أن حانت ساعة الحقيقة حتى وجد معظم الفلسطينيين أنفسهم مطرودين من هذه "الجنة"، سواء من كذبها وقاومها ابتداء أو من سالمها وصدق بها، وسيكون مصير هؤلاء اللاجئين وفقاً لمختصين في الحكومة الصهيونية سنة النكبة: "سيموت بعضهم ويتحول معظمهم إلى نفاية إنسانية وقمامة المجتمع، وينضمون إلى الطبقات الأشد فقراً في البلدان العربية"[23].

واستمرت آلة الكذب المتحضر تدور حتى بعد حلول النكبة بشعب فلسطين حين ادعت مناهج التعليم الصهيونية أن حياة العرب لم تكن شيئاً قبل قيام الكيان الصهيوني في فلسطين وأنهم ذاقوا طعم الحياة بعد قيامه

---

(19) محمد شعبان صوان، دراسة: آثار التغريب السياسي على المجتمع العثماني، التحدي والاستجابة (الجزء الثالث: الهجرة الصهيونية بين دعم الغرب وتبعية التغريب والمقاومة العثمانية الرسمية والاجتماعية) http://www.ottomanarchives.info/2014/02/03/

(20) الدكتور عبد الوهاب المسيري، من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية (أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني)، دار الفكر، دمشق، 2002، ص123.

(21) دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص461 و473 و495 و520 و565 و571 و610 و700 و704.

(22) نفس المرجع، ج 1 ص676-677.

(23) نعوم تشومسكي، 1998، ص50.

وفقاً لوصف الأستاذ ماجد الكيلاني في دراسته[24]، ومازال الكذب الصهيوني يكرر على مسامع العرب نفس الأسطورة التي خدعت الأمير فيصل بن الحسين ومازال الصهاينة يتكلمون عن تطوير الشرق وتنميته بإمكاناتهم التي رأينا بأعيننا كيف استخدمها هؤلاء في تهجير شعب فلسطين واضطهاده وقمعه وقتله ونال من حوله من الشعوب العربية مما ناله من الصهاينة أيضاً، ثم يأتي شمعون بيريز أيضاً ليسوق عليهم أسطورة قديمة هي "الشرق الأوسط الجديد" حيث "لم نكن يوماً بالشعب الذي يرغب في التحكم بالآخرين"[25] (!) و"لم نزمع قط أن نغدو حكام شعب آخر"[26] (!)، ولا مانع من القول أيضاً إنهم لم يكونوا شعباً ينوي طرد شعب آخر، فالكذب مجاني ومربح، وحيث كلام كثير عن الانتقال من اقتصاد الحروب إلى اقتصاد السلام وعالم الغد وعن مصادر الاستثمار والتمويل وعن المياه والبنية التحتية للنقل والمواصلات والسكك الحديدة والطرق والموانئ ومناطق التجارة الحرة وقناة البحرين وتطوير السياحة[27]، ويذهب في الكذب بعيداً حين يقول إنه "مع السلام القادم والخطط المستقبلية فإن غزة ستزدهر من جديد وسيعيش شعبها في ازدهار وشرف ووفرة" ويمكنها أن تكون مركزاً هاماً للسياحة " وبناء حوض لرسو وإصلاح السفن حول الميناء الجديد الذي سوف يجتذب المزيد من الزوار"[28]، ولأن الكلام مجاني فإن بيريز لا يخبرنا لماذا لم تصب غزة شيئاً من هذه الوعود عندما كانت تحت سلطة الاحتلال لمدة أكثر من عشرين عاماً ولماذا كان "قطاع غزة المكتظ المهمل يعيش في ظروف صحية غير مقبولة، فهو لا يوفر أي مصدر للدخل بالنسبة للسكان الذين ظلوا على مدى عقود رهائن لعداوات وأسرى منذ

(24) ماجد عرسان الكيلاني، التحدي الصهيوني في مناهج التعليم العربي في إسرائيل، مكتبة الأقصى، بيروت، 1972، ص129 وما بعدها.

(25) شمعون بيريس، ص17.

(26) نفس المرجع، ص52.

(27) نفس المرجع،، ص93 و111 و133 و141 و149-158 و167 و173.

(28) نفس المرجع، ص156.

الولادة لحياة من الفقر والحرمان والإذلال"[29]، فهل من العجيب بعد ذلك أن ظلت غزة رهينة لعداوة محتلها ثم تنكرت لكل هذه "الإنجازات" التنموية التي صنعها فيها، أي الفقر والحرمان والإذلال، عندما كانت بعد العشرين عاماً من "الرغد" الصهيوني هي التي قررت نفضه من واقعها وفجرت الثورة عليه في سنة 1987 فلم ينلها من التنمية سوى تكسير عظام أبنائها أو قتلهم، ولماذا يريد بيريز أن يقنعنا أن الكيان الصهيوني سيكون بعد تركه حكم غزة أحن عليها منه أثناء سيطرته عليها؟ وقد كشفت الأحداث أنه رغم الوعود السخية لم ينزل المن والسلوى، ولم تتحقق الأحلام الوردية، وهل مازلنا في شك من الحقيقة بعدما رأينا سلسلة الحروب المتتابعة التي شنها الصهاينة عليها؟

لقد كان انسحاب الصهاينة من قطاع غزة والذي أجمع عليه اليمين واليسار بعد اتفاق غزة-أريحا أولاً ثم انسحاب 2005 على يد اليمين المتطرف، دليلاً واضحاً على كون الهدف هو التخلص من أعباء هذا القطاع المستحيلة[30] وإلقاؤها على آخرين وهذا دليل واضح بعد الفشل الصهيوني في الارتقاء بوضع الفلسطينيين فيه على أن جنة الحضارة لا تشملهم وكونها حصرية بامتياز، كما كانت حيثما حل الاستعمار.

فبماذا يمن علينا بيريز ونتنياهو بالضبط؟

هل يمنان علينا بأن التأريخ أصبح يرى في هذا "الفقر والإذلال والحرمان" في ظل الاحتلال الذي أقر به زعيم الصهاينة، ازدهاراً وفرصاً جديدة وتطوراً في ظروف الحياة -بتعبير يوجين روجان- نتيجة إلحاق الاقتصاد الفلسطيني بالاقتصاد الصهيوني وكون الفلسطينيين يعملون حطابين وسقاة ماء في المجتمع الصهيوني وينتظرون زبائنه ليتسوقوا في بلادهم، أو كما وصف مانسفيلد الوضع بقوله إن انتفاضة الحجارة نشبت لأن "جميع السكان الذين لم يتجاوزوا العشرين من العمر، قد شبوا على ظلم وبطش

(29) نفس المرجع، ص156.
(30) نفس المرجع، ص23.

الاحتلال الصهيوني الإسرائيلي، مغتصباً لأراضيهم، ومستبيحاً لممتلكاتهم، وحيواتهم اليومية، ويتدخل في تفاصيل وطريقة عيشهم ومستقبلهم الذي يرونهم مظلماً، بل قاتم السواد، فأكثر من مئتي ألف عامل فلسطيني-مدقعي الفقر-يضطرهم سوء المعيشة المستفحل إلى العبور يومياً من المناطق المحتلة إلى إسرائيل للعمل في مشاريعها الاستيطانية من أجل كسب قوتهم اليومي الذي بالكاد يسد الرمق، وقد كانت تجبرهم سوء أحوالهم للقبول في العمل بالأشغال اليدوية الشاقة والمضنية والمهينة في غالب الأحيان. . .فالاقتصاد الفلسطيني كان -بطبيعة الحال-خاضعاً للاقتصاد الاستعماري كلياً"[31]؛ ثم "كانت سنوات أوسلو فترة نمو اقتصادي لإسرائيل (و) عانى الاقتصاد الفلسطيني الكساد والجمود، وسجل البنك الدولي تراجعاً واضحاً في مستويات المعيشة طوال سنوات أوسلو، وقدر أن واحداً من كل أربعة من سكان الضفة وغزة أصبح تحت خط الفقر بحلول عام 2000، ووصلت معدلات البطالة إلى 22 بالمائة، وتسبب انخفاض مستوى المعيشة بين عامي 1993 و2000 في خيبة أمل واسعة النطاق في عملية أوسلو" هذا بالإضافة إلى أن سنوات أوسلو شهدت "أعظم قدر من التوسع في بناء المستوطنات الإسرائيلية منذ عام 1967... وبنيت المستوطنات في مناطق أرادت إسرائل الاحتفظ بها إما لقربها من مراكز حضرية داخل إسرائيل، وإما لقربها من آبار مياه جوفية بالغة الأهمية، فتحقق بذلك السيطرة على موارد المياة النفيسة في الضفة الغربية"[32].

4 - مصر: تنمية للاستغلال

يقول المؤرخ شارل عيساوي في مسح موجز لفترة الاحتلال البريطاني لمصر إن هذا الاحتلال شهد زيادة حادة في الدخل القومي منذ بدايته إلى بداية القرن العشرين، ثم شهد الدخل استقراراً إلى ما قبل الحرب الكبرى

(31) يوجين روجان، ص557؛ بيتر مانسلفيد، ص379.

(32) نفس المرجع، ص622.

الأولى، وقد زاد متوسط الدخل الفردي 50% تقريباً، ومن المفترض أن معظم الزيادة ذهبت للطبقات الأكثر غنى، ولكن هناك أدلة على تحسن وضع القاعدة الشعبية العريضة ومنها زيادة القهوة والسكر والتبغ والنسيج، وعلى الجانب الآخر شهد استهلاك الحبوب تراجعاً قليلاً، واستفاد المزارعون من تراجع التجنيد وإلغاء السخرة، وقد تراجع الاستهلاك أثناء الحرب الكبرى الأولى ولكنه عاد إلى التعافي كثيراً في عقد العشرينيات، ثم أدت الأزمة العالمية إلى تراجع الدخل والاستهلاك وهو ما ازداد وضوحاً أثناء الحرب الكبرى الثانية، وبعدها كان هناك بعض التعافي، ولكن في الخمسينيات والستينيات ازداد استهلاك الأساسيات والكماليات بشكل ملحوظ[33].

ومع رفضي المطلق لفكرة وزن الاستعمار بقدرته على توفير استهلاك القهوة والسكر، فإننا حتى لو تحدثنا وفق هذا المنطق لوجدنا الخسارة واضحة أيضاً كما يدل على ذلك توفير الزيادة في الدخل لصالح الأثرياء، بل الدائنين كما سبق ذكره، واستغلال البلاد للحاجات الاستعمارية كما حدث في الحربين بصورة وحشية كما سيأتي، وهي الصفقة التي ثار عليها حتى "حلفاء" بريطانيا الذين سايروا منطقها عشرات السنين أملاً بالوصول إلى نتيجة لصالح مصر، ولما لم يحدث ذلك وصلت العلاقات الوفدية البريطانية إلى إلغاء معاهدة 1936 من طرف واحد واللجوء إلى الكفاح المسلح ضد بريطانيا على يد صديقها مصطفى النحاس الذي وصل الحكم على دباباتها.



مصطفى النحاس باشا (1876–1965) ساير الوعود البريطانية المتعددة زمناً طويلاً حتى أخرجه كذبها ومماطلتها عن طوق طاعتها العمياء فأعلن الكفاح المسلح ضد الاحتلال (1951) بعد يأسه من الإنجليز.

---

(33) Charles Issawi, p. 105.

ولو أصر البعض على استبعاد الخسائر الجمة ورؤية المكاسب المحدودة سنرى أن هذه المكاسب كانت ستصلنا أيضاً بطريقة أفضل لو ظلت بلادنا موحدة تحت حكم مستقل من أهل المنطقة وليست خاضعة لأهواء استعمار يسيرها حسب مصالحه ويجبرها على دفع أتاوة ضخمة لقاء منافع لم يكن هو مصدرها الوحيد، ذلك أن استمرار وحدة بلادنا وتكاملها وتكافلها تحت راية واحدة كان طريقاً مضموناً أكثر من تجزئتها واحتلالها للحصول على التنمية والنهضة، وسنرى فيما يأتي أن المكاسب التي حصلت في مصر نتيجة تنمية الاستعمار مصالحه الذاتية، وازتها في نفس الفترة مكاسب مشابهة في البلاد التي ظلت تحت حكم الدولة العثمانية رغم الضعف والتراجع الذي طرأ على الخلافة في آخر أيامها، وإن حساب المكاسب والمخاسر يجب أن يكون على أساس التساؤل عما خسرناه من الاحتلال والتجزئة وما كان يمكن أن يتحقق لو استمرت وحدة بلادنا التي حرص الاستعمار على تدميرها، وهذا هو لب الخسارة التي لا يعوضها أية زيادة في استعمال الشاي والسكر (!)

وعن بعض تفاصيل الاحتلال البريطاني لاسيما زمن الحرب قال المؤرخ لوتسكي إن بريطانيا ورطت مصر في دخول الحرب الأولى مثلما ورطت باقي مستعمراتها، وأعلنت الأحكام العرفية فيها والتي اقترن فيها الحكم الاستبدادي بالحكم الإرهابي، إذ أُلقي في المعتقلات بآلاف الوطنيين من المثقفين والمحامين والأطباء والمعلمين والطلاب والضباط أيضاً، أو نُفوا إلى الواحات البعيدة أو إلى جزيرة مالطة، وأُغلقت الصحف الوطنية ووضعت بقية الصحف تحت الرقابة الصارمة.

استبدلت بريطانيا قيادة مصرية جديدة هي السلطان حسين كامل بالقيادة القديمة وهي الخديو عباس حلمي الثاني بالقوة، وكره المصريون القيادة الجديدة الألعوبة وحاولوا التخلص منها بالاغتيال أكثر من مرة، وبعد وفاة السلطان العميل رفض ابنه القيام بدوره من بعده، ورغم إعلان بريطانيا أنها ستتحمل أعباء الحرب ولن تلتمس معونة مصر، فقد "استغلت إنكلترا موارد مصر المادية والبشرية استغلالاً واسعاً"، إذ وجهت المدفعية المصرية للدفاع

عن قناة السويس ضد العثمانيين، واستغلت المصريين للعمل في القوات الإضافية التي تعرف بفيالق العمل طوال مدة الحرب، وكانت تحشد في كل مرة 135 ألف شخص، ثلاث أو أربع مرات في السنة، بشكل كانت تدعي أنه طوعي إلا أن الواقع خلاف ذلك لأن إدارتها مارست الضغط والأعمال التعسفية الشاملة حتى تم إلغاء التعاقد الاختياري الشكلي وصار العمل إجبارياً، وكان هذا العمل في الفيالق شاقاً جداً، يهرب منه الرجال إلى الصحراء عند دنو موعده، وكان آلاف الجياع يفرون ويختفون منه، وكان الجيش والشرطة يطوفون البلاد بحثاً عن "المتطوعين" الهاربين ويسوقونهم للعودة تحت الحراسة، وقد اختصت فيالق العمل بالأعمال القذرة كحفر الخنادق ومد السكك الحديدية وأنابيب المياه خلال الصحراء، وإقامة الاستحكامات ونقل الأثقال، وتحمل أفرادها الضربات الأولى لأعداء الإنجليز، ولما هجم الجيش البريطاني على فلسطين مهدت فيالق العمل للهجوم بالعمل والأجساد، وخسرت 30 ألف ضحية، وتجاوز عدد من عانوا منها مليون فلاح وعامل مصري، وكانت مدة العمل فيها ستة أشهر ما يلبث بعدها العاملون أن يتحولوا إلى مقعدين ومنهكين يجب استبدالهم.



السلطان حسين كامل عينته بريطانيا سلطاناً لتناوئ به منصب السلطنة العثمانية التي أعلنت الحرب عليها، ورغم تفخيم الألفاظ فإن صلاحياته كانت أقل من صلاحيات الخديو المعزول، وقد رفضه شعب مصر الذي احتفظ بولائه للخلافة الإسلامية ولم تخدعه أكذوبة الاستقلال، ورفض ابنه الحلول مكانه بعد وفاته، ومن دلائل ذلك الولاء المصري للخلافة إطلاق أسماء قادة الدولة العثمانية آنذاك (طلعت وجمال وأنور) على كثير من مواليد فترة الحرب الكبرى.

ولم يتم الاستغلال البريطاني للعمال والفلاحين المصريين في مصر فقط، بل لقد أرسل الإنجليز سنة 1916 وحدها، 10 آلاف فلاح للخدمة في فرنسا و8 آلاف إلى العراق، "ووُضعت الموانئ المصرية والمواصلات والصناعة والزراعة تحت تصرف الجيش البريطاني، وأعيد تماماً تنظيم اقتصاديات البلاد"، واتُخذت الكثير من الإجراءات لتموين السكان و275 ألف جندي بريطاني في مصر، ومُنع تصدير كل المواد الساسية وراقبت السلطة الأسعار، وقلبت السياسة السابقة التي قضت بزراعة القطن على حساب الحبوب واتجهت إلى زراعة القمح والرز وقلصت زراعة القطن، وعندما شعر الإنجليز بالحاجة إلى القطن ثانية للصناعات العسكرية ألغوا الإجراءات السابقة وأثرى كبار منتجي القطن والمضاربون والوسطاء في تجارته، ونتيجة لقطع الصلات التجارية المصرية بالخارج تطورت الصناعة المصرية المحلية التي خدمتها الحرب كما يفترض بنفس الدور الذي تؤديه الحواجز الجمركية في الأحوال الطبيعية، وفتحت مئات المشاريع الصناعية اليدوية في المنسوجات والخياطة والأحذية والجلود والسكر والمشروبات الروحية والأثاث "وأدت الحرب إلى إثراء الملاكين والتجار وأصحاب المشاريع المصريين إلى درجة لم يسبق لها مثيل، وإلى تقوية المراكز الاقتصادية للرأسمال المصري تقوية محسوسة"، ولكن ذلك أبقى على وصاية الاستعمار البريطاني والرأسمالية البريطانية المصرفية على البورجوازية المصرية واشتدت تبعية مصر الاقتصادية والمالية زمن الحرب، ومنعت السلطات الاستعمارية تحويل الأوراق المالية إلى ذهب وأدخلت الأوراق النقدية للتداول بشكل إجباري وأودعت الرصيد الذهبي للبنك الأهلي المصري في الخزينة البريطانية وانتزعت الذهب والفضة من التداول وصارت السندات المالية الإنجليزية تكفل الأوراق المالية المصرية، وبذلك أصبح الجنيه المصري معتمداً على الجنيه الإنجليزي وتمكنت بذلك بريطانيا من الحصول على انضمام مصر إلى المنطقة الاسترلينية ومن ثم إمكان تسديد نفقاتها العسكرية في مصر بالأوراق النقدية دون الحاجة لإنفاق الذهب، فزادت كمية الأوراق النقدية في السوق وأدى التضخم إلى تضاعف الأسعار في زمن الحرب.

وينقل لوتسكي معاناة الجماهير الكادحة المصرية من ارتفاع الأسعار عن التقارير البريطانية الرسمية التي تحدثت عن ارتفاع مستمر في الأسعار بصورة غير مسبوقة، وهو ما أحدث عبئاً شديد الوطأة على كاهل الطبقات التي تتقاضى أجوراً غير كافية وفاق الحد الأدنى للمعيشة مستويات الأجور الاعتيادية كثيراً، أما الفلاحون فكان وضعهم صعباً إذ قامت سلطات الاحتلال بمصادرة الحبوب والعلف منهم، وتم السداد بأثمان منخفضة ومؤجلة، وكان جباة الحكومة يأخذون من الفلاحين كميات أكثر من اللازم ويبيعونها في السوق بأسعار المضاربات، كما صودرت حيوانات العمل كالجمال والحمير مما أدى إلى خراب الفلاحين، ولم يكن من الممكن الحصول على تعويضات عن هذه الحيوانات، وكان الموظفون الإنجليز يجبون الأموال قسرياً لصالح الجمعيات الطبية دون إيصالها إلى أهدافها بل كانت تتسرب إلى جيوب المبتزين الذين تنافسوا في الابتزاز، وقد أدت هذه العمليات إلى شعور الفلاحين بالمقت الشديد، وفي النهاية فإن "مصادرة القمح والماشية والابتزازات القسرية والتجنيد ونهب الريف المصري ونظام الإرهاب والدكتاتورية العسكرية، كل ذلك كان من العوامل التي أدت إلى إثارة سخط البلاد"[34].

وبعد هذا العرض التاريخي نعجب من مؤرخ بريطاني هو بيتر مانسفيلد يصور ذلك الوضع بصورة "حماس" مصري للمشاركة في مجهود بريطانيا الحربي بالقول إن مصر ظلت "أثناء الحرب محايدة رسمياً كما وتقع على بريطانيا مسئولية الدفاع عنها، لكن المصريين المتحمسين أرادوا المساهمة في المجهود الحربي، فشاركت القوات المصرية في الدفاع عن قناة السويس ضد الهجوم التركي الأول والوحيد، كما خدم أكثر من عشرين ألف مصري في النقل بقوافل الجمال وهيئة العمل في فلسطين وفرنسا، وتكبدوا أثناء ذلك خسائر جسيمة"[35].

---

(34) كل الحديث منذ بداية فقرة مصر مقتبس من: لوتسكي، ص405-410.

(35) بيتر مانسفيلد، ص175.

ونجد عدم انسجام بين "الحماس" المصري، والخسائر المصرية التي يصفها المؤرخ البريطاني نفسه بالجسيمة، إلا إذا أراد أن يقنعنا بأن مصر اتخذت من بريطانيا إلهة تسترخص كل نفيس في سبيلها، وهو ما لم نسمع به لاسيما في ضوء استهداف الزعامات المصرية التي صنعتها بريطانيا حتى السلطان حسين كامل نفسه ورئيس وزرائه وبعض الوزراء[36] بالإضافة إلى محاولة بريطانيا إقناع شعب مصر أنها لا تحارب السلطان العثماني المغلوب على أمره بل حكومة الاتحاديين المستأثرة بالسلطة دونه وغير ذلك من أدلة تدحض وجود "حماس" مصري لتأييد بريطانيا[37]، وهذا ما سطره المؤرخ البريطاني يوجين روجان حين أكد أن "حيلة" رفع مكانة السلطان المصري لإضعاف نفوذ السلطان العثماني "لم تترك أثراً كبيراً على مسلمي مصر ولا على المسلمين عامة، إذ ظلوا يبجلون السلطان العثماني باعتباره خليفة للمسلمين"، وعندما اندلعت الحرب "وقع الجزء الأكبر من عبء دعم مصر للبريطانيين على الطبقة العاملة، صودرت المحاصيل لدعم المجهود الحربي، وجُند الفلاحون في فرق عمل تزود الجبهة الغربية بالدعم اللوجستي، وأدى التضخم ونقص البضائع إلى انخفاض مستوى معيشة جميع فئات الشعب، وصار كثير من المصريين في حالة عوز"[38].

وسنجد حقائق أخرى من التاريخ تصم الوصف التاريخي لمانسفيلد بالاختزال على الأقل لأن هناك جوانب لم يعرضها المؤرخ البريطاني ربما لعدم انسجامها مع "الحماس" الذي وصفه، ونجد بعضها عند الدكتورة تهاني شوقي عبد الرحمن التي لا يمكن وصفها بالحماس للتوجه العثماني ومع ذلك قالت: "وقد مثلت مصر الانقسام في نظرتها للدولة العثمانية في أجلى صورة، فنجد رجال خفر السواحل المصريين ينضمون إلى قوات الجيش الرابع التركي، وانضم آخرون إلى السنوسيين في هجومهم على

(36) لوتسكي، ص411.

(37) الدكتور محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، 1962، ج 2 ص7.

(38) يوجين روجان، ص210.

القوات البريطانية في الغرب، بينما وقف الجيش المصري كي يدافع عن القناة ضد عبور العثمانيين لها"[39]، أما لورنس العرب فيصف ضيق المجندين المصريين في الجزيرة العربية الذين ساقتهم بريطانيا لحرب العثمانيين، وهو ما لا يتفق مع فكرة "الحماس" أيضاً[40].

ويطالعنا الدكتور رءوف عباس بوجهة نظر مصرية عن الاستغلال البريطاني لمصر في الحرب الكبرى الثانية، فيقول إن مصر تحملت "أعباء إعالة قوات الحلفاء وتعرضت لأخطار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، بما تبع ذلك من أزمات اقتصادية واجتماعية خطيرة"، ولم يتحقق الاستقلال ولا العدالة الاجتماعية وكثر الحديث عن الفقر والجهل والمرض وعجز النظام السياسي عن تحقيق الآمال المنشودة، وإن مصر دفعت ثمناً باهظاً لمساندة المجهود الحربي لبريطانيا والحلفاء، ولم تنجح النخبة السياسية المصرية في تحقيق الاستقلال بالتفاوض، وأثبتت الحرب أن معاهدة "الشرف والاستقلال" (1936) كانت وهماً، مما جعل مصر "تموج بحركة سياسية وطنية ناشطة تطالب بالتخلص من ربقة معاهدة 1936 التي وضعت مصر ومواردها وشعبها في خدمة "الحليفة" بريطانيا في حرب عاد غنمها على الحلفاء ويقي غرمها للمصريين"[41].

والعجيب من المدرسة الاستعمارية التي تدعي إنجازات تنموية ازدهر المستعمَرون في ظلها لتدلل على شرعية دعوتها، ما لها لم تأخذ بهذا المقياس نفسه فتقوم بتحريض الأرمن الذين تشير مصادر عديدة إلى أنهم كانوا منسجمين في الحياة العثمانية وكان كثير منهم يعيشون "عيشة يسار ورخاء"[42]، ومع ذلك حرضتهم أوروبا وروسيا حتى سالت الدماء أنهاراً

---

(39) د. تهاني شوقي عبد الرحمن، نشأة دولة تركيا الحديثة 1918-1938، دار العالم العربي، القاهرة، 2011، ص67-68.

(40) الدكتور محمد محمد حسين، ص7.

(41) رءوف عباس، ص231-232 و246 و277-278.

(42) موريس كروزيه، ج 6 ص411.

بينهم وبين العثمانيين[43]، فإذا كان الرخاء هو هدف المدرسة الاستعمارية فلماذا لم تدع الأرمن سعداء في رخائهم العثماني؟ وإذا كان هدفها الحرية القومية فما بالها أنكرتها على رعاياها المستعمَرين ومنت عليهم برخائها المزعوم؟

5 - العراق ومراعاة المصالح الاستعمارية قبل "الاستقلال" وبعده

كانت المصالح البريطانية في العراق زمن الحرب الكبرى الأولى تتركز في ثلاثة مجالات كما يوردها الأستاذ رغيد الصلح: إمكاناته الزراعية التي جعلت السير بيرسي كوكس يقول إن العراق يمكن أن يصبح من أهم مناطق لإنتاج الحبوب في العالم، والثانية هي الموقع الجغرافي حيث يؤلف طريق أوروبا بحراً وبراً وجواً إلى الشرق الأقصى، وبسبب أهمية هذه الخطوط تحولت السياسة الشرقية لدول أوروبا إلى منافسات للسيطرة على هذه الممرات، والمصلحة الثالثة هي الثروة النفطية التي كانت تثير حماساً كبيراً في تسويات ما بعد الحرب[44].

ولما وقع الاختيار في تلك التسويات على بريطانيا للانتداب على العراق قامت بتطوير الجوانب التي تهم مصالحها، "فلقد طرأ تحسن ملموس على المواصلات التي تخدم المصالح البريطانية" كميناء البصرة عقدة المواصلات على طريق الهند ومركز تصدير نفط عبدان، والمواصلات الجوية والخطوط البريدية التي تحظى بأهمية في شبكة المواصلات الامبراطورية، بالإضافة إلى الطرق البرية الخارجية مع دمشق وعمّان، "بيد أن الطرق التي كانت تربط أجزاء العراق نفسه لم تتحسن تحسناً ملموساً، أما الملاحة النهرية فإنها وصلت إلى شفير الإفلاس"، ولا ننسى أن بريطانيا وقفت بكل ثقلها ضد إكمال سكة حديد بغداد وأدى انهيار الخلافة الإسلامية إلى تقطيع أوصال هذا الخط الذي قام أمثاله من السكك القارية في

---

(43) محمد شعبان صوان، دراسة: آثار التغريب الاجتماعي على المجتمع العثماني: التحدي والاستجابة، فصل: أوروبا تثير الفتن بأدوات التغريب
http://www.ottomanarchives.info/2014/02/16/

(44) رغيد الصلح، ص41.

الولايات المتحدة وروسيا بتطورات تنموية مذهلة.

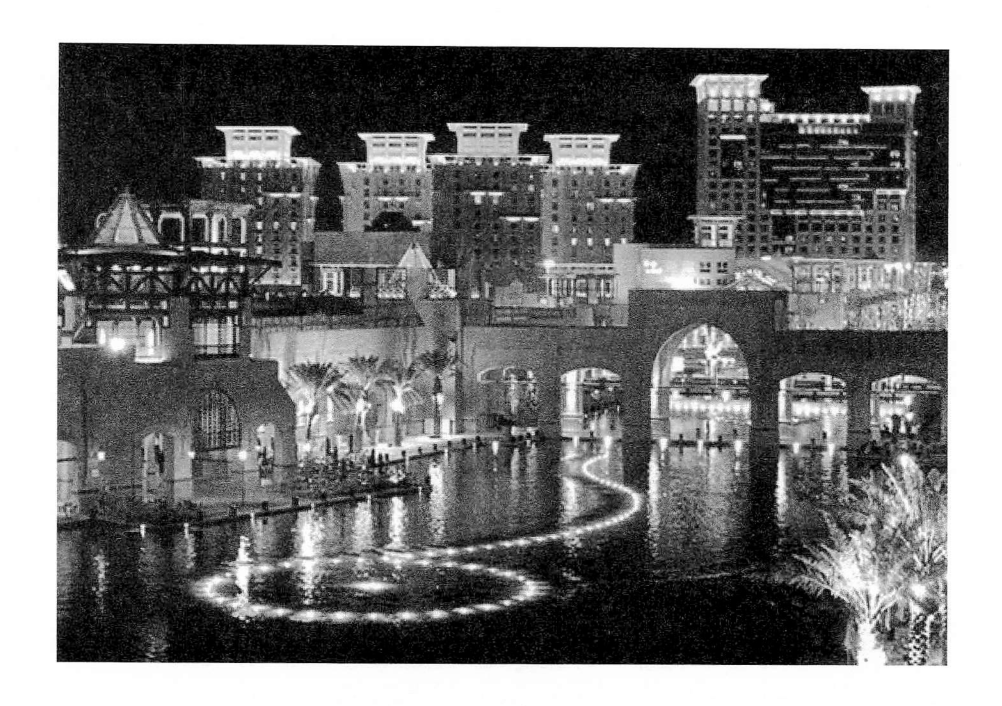
كما حققت التجارة مع أوروبا نمواً مهماً بسبب زيادة الاستيراد منها لاسيما من السيارات والملابس، وحققت الزراعة تقدماً، وكان استخراج النفط هو التطور الأهم في المجال الاقتصادي، ولم تحقق الصناعة تقدماً مهماً وعانت الصناعات الحرفية من التراجع المستمر[45].

ورافق ذلك تقدم في عملية بناء الدولة "لتوفير الاستقرار وتحقيق الخدمات الأولية للمواطنين وحفظ الأمن"، وهذا لا ينفصل عن التفكير الاستعماري البريطاني لاسيما مع تراجع القوة العسكرية إذ كان "مؤاتياً لقيام كيانات مستقلة تابعة لبريطانيا" تُترك فيها النخب المحلية تدير شئون هذه البلاد في المجالات الثانوية مع استمرار ولائها لبريطانيا وحفاظها على مصالحها، وهو ما حدث بتوقيع معاهدة 1930 التي تمت المصادقة عليه بعد سنتين وتأمن بذلك "الاستقلال" الذي حافظ على المصالح والامتيازات وخطوط التموين العسكرية البريطانية[46]، أما النفط فتم تقاسمه بين القوى البريطانية والأمريكية والفرنسية في اتفاقية الخط الأحمر (1928) والتي ظلت سارية المفعول إلى سنة 1946 ولم يكن يغير المعادلات فيها سوى صراع القوى الاستعمارية، ولا ننسى أن بناء دولة التجزئة هو الذي حافظ على استمرار صيانة المصالح الاستعمارية منذ نشوء تلك الدولة إلى اليوم، على أنقاض حالة الوحدة التي دمرتها الدول الكبرى صانعة التقسيم.

6 - الكويت: الثمن الغربي للمعجزة الأسطورية

لا يملك الكتاب الغربيون إلا التعبير عن الانبهار عند الحديث عن الكويت وثروتها وتطورها[47]، فقد قال الكاتب الفرنسي جان جاك بيربي تحت عنوان "الكويت الأسطورية" في كتابه "جزيرة العرب" الذي ألفه في

(45) نفس المرجع، ص52.
(46) نفس المرجع، ص52-57.
(47) بيتر مانسفيلد، ص325.



نهاية العقد السادس من القرن العشرين أي بعد العدوان الثلاثي وقبل استقلال الإمارة عن بريطانيا: "الكويت هي أشهر إمارات الخليج العربي على الإطلاق، وثروتها البترولية الهائلة وتطورها بالغ السرعة يجعلان من العسير، إن لم يكن من المستحيل، التحدث عنها دون استعمال ألفاظ التفضيل والمبالغة: لقد غمرت الثروة الكويت كالوباء، ولم ينج شخص تقريباً من غنغرينا الذهب، والأساطير العربية المذهلة تبدو هزيلة باهتة، ومغامرات علاء الدين عقيمة صغيرة أمام "المعجزة" الكويتية، وقد جمع أميرها، المهراجا الحديث، عام 1956 بالدولار والسترليني ما يوازي أربعمائة مليون فرنك يومياً (هكذا في الأصل)، وإنتاج البترول ينتظر أن يزيد ثلاثة أضعاف في السنوات الخمس القادمة، إن مساحة الكويت أصغر بمئة مرة، من مساحة العربية السعودية ومع ذلك تنافسها على المركز الأول في احتياطي بترول العالم" ثم يروي طرفة فريدة شاعت في زمنه عن العثور على النفط فيها كلما حُفر بئر للعثور على الماء، ومهما كانت حقيقة هذه القصة "فهي توجز حكاية الكويت وطن الذهب الأسود الأسطوري، الذي لم يعد يعيش إلا بالبترول ومن أجل البترول، وحول مرفأ طبيعي صغير على الخليج

الهادئ الأزرق، تحول البحارة اليائسون، وصيادو السمك في ظرف عشر سنوات، إلى تجار، ومقاولي بناء، ورجال أعمال، وأصحاب الكفايات المحدودة منهم يعملون لحساب الشركات البترولية أو الشركات الخاصة بأجور خيالية، ومدينة الكويت العاصمة القديمة هُدمت كلها تقريباً وأُقيم مكانها مدينة حديثة بأبنية بيضاء فخمة، وشوارع عريضة مستقيمة، وعلى الشوارع العريضة الجميلة المزفتة التي حلت محل طرقات القوافل القديمة، تسير متهادية سيارات البويك والكاديلاك التي أرغمت الكويتي على أن ينسى الجمل، والماء العذب هذا السائل النادر الثمين، الذي كان يستورد من العراق، يسيل الآن من الحنفيات المنكلة في بيوت مكيفة بالهواء، واللافتات الضوئية التي تفترس الليل بأنيابها مختلفة الألوان تذكر بمحطة سان لازار أو بيكاديللي أكثر مما تذكر بسوق شرقي، لقد جعلت الظروف الاستثنائية، الكويت أكثر بلدان الشرق الأوسط تقدماً، وفيه تحدث تجربة اجتماعية خيالية يعيش فيها الإنسان خلال بضع سنوات عصوراً طويلة من التطور".

وتحت عنوان "التقدم الخيالي" يقول بيربي إن الكويت أنتجت في سنة 1956، 55 مليون طن رغم هبوط الإنتاج بسبب أزمة السويس وقد جلبت هذه الكمية مبلغ 300 مليون دولار للأمير بالإضافة إلى إيجار وعائدات المنطقة المحايدة" وتطلعت شركة نفط الكويت إلى زيادة الإنتاج بحلول سنة 1962 إلى 180 مليون طن "أي ما يوازي إنتاج الشرق الأوسط لعام 1956 بأسره"، وتستبدل الكويت الغنية بذهبها الأسود منتجات مختلفة زاد حجمها بمرور الزمن "وتقتسم الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا القسم الأكبر من هذه المبيعات المختلفة".

وتحت عنوان "الدولة المثال" تحدث عن "التطورات المذهلة التي تحصل في الكويت" وعن قرار الأمير عبد الله السالم بجعل إمارته مثالاً للدولة الحديثة، فقد أنفق القسم الأكبر من العائدات في مشروعات ضخمة أحدثت انقلابات في مستوى معيشة الكويتيين، ووُفّق ولكن بتكاليف باهظة إلى أن يجعل عاصمته أحدث عاصمة في العالم "بعد أن أمر ببنائها من جديد وزودها بشوارع وطرقات وميناء ومطار ومستشفيات ومدارس وشبكات

لتوزيع المياه العذبة والغاز والكهرباء ومجارير وتكييف هواء، وبهذه الوسائل حول المدينة الصغيرة القديمة الفقيرة القائمة على الرمال إلى جنة في منطقة الخليج" وأصبحت مضرب المثل في التقدم الصحي وانتشر التعليم فيها مجاناً كالخدمات الصحية.

ويرد على توقعات الثورة سنة 1957 بالقول إن الكويتيين "مشغولون دائماً بالأعمال وجمع المال، لذلك لم يعيروا كبير اهتمام مغريات القومية العربية"، وإذا كانت ستقوم ثورة فضد من؟ وتؤكد المؤرخة الأمريكية مريم جويس أن كثيراً من مؤيدي الرئيس جمال عبد الناصر في الكويت صاروا في تلك الفترة "محررين من السحر والوهم، لقد أدركوا أن مشاركتهم في وحدة عربية واسعة سيترتب عليها تضحيات اقتصادية كبيرة" وقد "كان الكويتيون يرفلون بنعمة وراحة لا تجعلهم يتحمسون للوحدة العربية"، مما جعل السفارة البريطانية في الكويت تقوّم الوضع فيها سنة 1960 بالقول إن بعض القوميين المتحمسين قد فتر حماسهم كثيراً في السنة الأخيرة[48]، وفي تقويم أمريكي لسنة 1962 أن دعوة القوميين العرب الكويتيين لم تهيمن على مجموع الكويتيين "كان الكثير من سكان الكويت يؤيدون مصر، لكن لم يكن لدى ناصر أي شيء يقدمه للكويت وليس متوافراً لدى الكويتيين، كان الكويتيون فوق جميع القوميين العرب الكويتيين، فهم لم يكونوا يريدون من ناصر أو من أي أحد آخر أن يهيمن على بلدهم، كانت الانتخابات تقترب، وحتى أكثر المتطرفين من القوميين العرب كانوا راضين أن يكونوا رعايا الأمير عبد الله السالم"[49]، وهذا هو نفس السبب الذي سيجعل الحماس يفتر تجاه العلاقة مع العراق كما سيأتي.

وعن الحماية البريطانية يقول بيربي إنها هي التي حمت استقلال الإمارة رغم "الغارات والهجمات والضغط الشديد من قبل العراق والسعودية سنة 1919 و1922 و1928" وإن بريطانيا هي التي رسمت

---

(48) مريم جويس، الكويت 1945-1996: رؤية إنجليزية-أمريكية، دار أمواج، بيروت، 2001، ترجمة: مفيد عبدوني، ص119 و124.

(49) نفس المرجع، ص166.

الحدود السياسية في مؤتمر العقير سنة 1922 حين كانت البلاد العربية الأخرى كالسعودية والعراق والأردن إما تحت النفوذ البريطاني الشديد أو تحت الانتداب البريطاني، وإن حاكم الكويت يفضل "أن يبقى مستقلاً عن العراق والعربية السعودية وسائر البلدان العربية الأخرى، واليوم (1960) كما كان بالأمس، هو في أمس الحاجة إلى الحماية البريطانية ولكن هذه الحماية تحمل بذور ضعفها معها"، وقد بقي استقلاله الداخلي محافظاً عليه وعهد بالشئون الخارجية والدفاعية إلى بريطانيا الحامية.

ثم يتحدث عم الانقسام الذي قسم المجتمع الكويتي قبل النفط بين مؤيدي الحكم والحفاظ على الاستقلال من جهة والمعارضين المؤيدين للانضمام إلى العراق من جهة أخرى، لأن مطالب هذه المعارضة الاجتماعية والاقتصادية كانت تجعل "من مصلحة الكويت الفقيرة آنذاك أن تتحد مع العراق" ويجب أن نلاحظ أن الحماية البريطانية آنذاك لم تنجز شيئاً يذكر للكويت الفقيرة بعدما منعت وصول سكة بغداد إليها زمن العثمانيين، وجعلتها تفضل الهروب من هذا الواقع للانضمام إلى بلد عربي مجاور، ولكن حلول عصر النفط غيّر حسابات بريطانيا والأهالي أيضاً و"حوّل الكويت إلى بلد الأساطير والثروات والسحر، ونتيجة لهذا التطوير أصبح الطلاب (المعارضون سابقاً) رجال أعمال في وطن منظم يعطي أصدق مثال للازدهار منقطع النظير" مما جعل المشكلات السياسية ليست أساسية ومستعجلة ولكنها قد تصبح كذلك مع موجة العداء الذي يتزايد ضد بريطانيا في العالم العربي (آنذاك).

وهنا نصل إلى الثمن الذي دفعته الإمارة قبل الاستقلال للحصول على الحياة الأسطورية، وتحت عنوان "الكويت واقتصاد المملكة المتحدة" يقول بيربي إن بريطانيا تعد الإبقاء على نفوذها في الكويت "أكثر الأمور أهمية... إن الإمارة الصغيرة تزود المملكة المتحدة بنصف حاجتها من البترول، وهذا السائل الحيوي، يدفع ثمنه بالجنيهات السترلينية في الكويت، الأمر الذي يوفر على الخزينة البريطانية مبالغ طائلة من النقد النادر، وعلاوة على هذا الوفر، تزود الكويت خزينة بريطانيا بمبالغ طائلة من النقد النادر، وأرباح

الأمير المحولة إلى نقد نادر تودع في مصارف لندن، وما من أحد في سوق لندن يجهل أن مجلس التوظيف الكويتي هو أفضل مشتر فردي، والأعمال الكبرى التي تنفذ في الإمارة تشترك فيها عدة شركات أجنبية أكثرها بريطانية، وشركة البترول البريطانية تملك نصف شركة بترول الكويت، لها صوت راجح فيها، تشرف عليها حكومة لندن من خلال الأسهم العائدة للأميرالية البريطانية، وأهم مصالح هذه الشركة التي توزع نشاطها في شتى أنحاء العالم متجمعة في الكويت... وفي عام 1956 بلغ إنتاج الشركة البريطانية للبترول في العالم تسعة وأربعين مليون طن، أكثر من نصفها -سبعة وعشرين مليون طن- جاءت من الكويت وحدها".

ثم يبين "أن الخروج من هذه المنطقة غير وارد بالنسبة لبريطانيا" و"قد تحارب بضراوة الوحش المفترس الجريح للإبقاء على نفوذها ووجودها في الخليج الذي لا تستغني عن بتروله"، ولمواجهة الوضع السياسي الذي قد يحمل الكثير من المفاجآت يميل الساسة البريطانيون إلى إجراء تعديل جذري على سياستهم تجاوباً مع تطورات الأحداث والزمن، ويبدي قناعة باستحالة الاستمرار في تطبيق السياسة الاستعمارية القديمة لأن هذا الاستمرار سيعرض النفوذ البريطاني للتلاشي من المنطقة إزاء القوى الجديدة التي لم تعد بريطانيا تملك السيطرة عليها[50].

وسنجد أن بريطانيا ستنهي انسحابها العسكري من منطقة الخليج بعد عقد من الزمان من كتابة السطور السابقة ولكنها ستقوم بترتيبات تضمن بها استمرار مصالحها بعد خروج جيوشها[51]، ومن ضمن ذلك "تشجيع الكويت على الاستقلال مع الحفاظ في الوقت ذاته على العلاقة الطويلة العريقة بين البلدين" كما تقول المؤرخة الأمريكية مريم جويس[52]، وسنجد أن الملامح الرئيسة في وضع المنطقة ستستمر كالماضي ومن ذلك في

---

(50) جان جاك بيربي، جزيرة العرب، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001، ترجمة: نجدة هاجر وسعيد الغز (1960)، ص252-269.

(51) الدكتور علي محافظة، ص15 و220-232.

(52) مريم جويس، ص83.

موضوع حديثنا: ارتباط الاقتصاد الكويتي بالاقتصاد البريطاني ثم الأمريكي، واستمرار دفاع الغرب بعصبية عن استقلال الإمارة[53]، واستمرار اتخاذ هذا الاستقلال ذريعة للدفاع عن مصالح غربية لا علاقة للكويت بها.

وقد جاء في كتاب "السلطان والمنزل" عن الملمحين الأول والثاني أي استمرار الارتباط الاقتصادي ودفاع الغرب عن هذا الواقع: "لقد كانت ثروات العرب منذ ظهورها في دول التجزئة رهينة للمصالح الغربية إذ لم تستطع دولة الاستقلال استثمار إمكاناتها الكبيرة في مجالها الصغيرة ولم يكن من الممكن في ظل ارتهان القرار السياسي للقُطرية والنزعة الأجنبية استثمار هذه الموارد في المجال العربي أو الإسلامي وذلك رغماً عن كل أحاديث الأخوة والتضامن، ومن أمثلة ذلك ما قاله الدكتور حسن علي الإبراهيم في دراسته السياسية عن الكويت أثناء حديثه عن الأزمة التي نشبت بينها وبين العراق سنة 1961: " كان موقف المملكة المتحدة من بين الدول العظمى موقف تأييد كامل لموقف الكويت، لقد كانت مصالح المملكة المتحدة في الكويت بالغة الأهمية " ثم ينقل عن مرجع أمريكي: " أن الكويت تساوي حوالي بليار دولار في السنة وهي اليوم (زمن الأزمة) أكثر ما تكون أهمية للبريطانيين ... إن احتياطي الكويت من الجنيهات الاسترلينية في بنك إنجلترا، حسب ما أوردته مجلة الإيكونومست البريطانية، يعادل حوالي ثلث مجموع احتياطي بريطانيا من الجنيهات الاسترلينية، وتزود الكويت بريطانيا بحوالي 38 بالمائة من حاجاتها النفطية، وتقدر الأموال الكويتية الموظفة في بريطانيا بأكثر من مئة مليون دولار في السنة، وإذا كان دخل شيخ الكويت من أرباح النفط كبيراً فإن العائدات البريطانية عائدات ضخمة أيضاً"[54].

"وعند حديثه عن الانسحاب البريطاني من الخليج ونفقات القوات البريطانية في نهاية الستينيات قال إن الدافع لانسحاب بريطانيا سياسي لأن

(53) نفس المرجع، ص139 و143و 146 و151 و168.

(54) الدكتور حسن علي الإبراهيم، الكويت: دراسة سياسية، مؤسسة دار العلوم، الكويت، 1980، ص143.

نفقات بقاء قواتها تقارب 12 مليون دولار في السنة، ويعلق: " إن هذا المبلغ أقل بكثير من المبالغ التي تجنيها بريطانيا من نفط الخليج ويبلغ تقديرها 500 مليون دولار في السنة" [55].

"واستمرت ثروة الكويت مرتبطة ببريطانيا والغرب عموماً حتى بعد الاستقلال، وقد جاء في دراسة (للمؤلفة الأمريكية آنفة الذكر مريم جويس) عن الرؤية الإنجليزية الأمريكية للكويت بين 1945 - 1996: "ففي نهاية آذار / مارس من عام 1965 قدر أحد الشيوخ احتياطي الإمارة بمبلغ 400 مليون جنيه استرليني يتم استثمار نصفه في لندن والباقي في اليابان وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية" وتقارن المؤلفة هذه المبالغ بما حصل عليه المجال العربي: "وما بين يناير (كانون الثاني/ جانفي) وسبتمبر (أيلول) من عام 1965 تلقت الحكومات العربية زهاء 35 مليون جنيه استرليني من الاحتياطي الكويتي " ثم أشارت إلى دور العوامل السياسية وحرمان حكومات عربية أخرى من " سخاء وهبات الكويت"[56] وقد صرح السفير البريطاني في الكويت فرانك بيكر في 10/ 8/ 2011 أن "الكويت مهمة جداً لبريطانيا، وحماية أمنها واستقرارها واجبة" [57] وكان قد قال في نوفمبر من عام 2010 إن "العلاقات الكويتية البريطانية "فريدة من نوعها عالمياً" و"إن هذه العلاقة فريدة لأنها تتجاوز مجرد السياسة والدفاع، ومن المؤكد أنه ما من بلد خارج الخليج يمتلك مثل هذه العلاقة"[58]، وأشار الناطق الرسمي باسم الحكومة البريطانية في الشرق الأوسط مارتن داي إلى صور من هذه العلاقة بوجود "استثمارات كويتية ضخمة في السوق البريطاني" طامعاً في المزيد وأن "يصل حجم التجارة المتبادلة بين الكويت وبريطانيا إلى أربعة مليارات جنيه استرليني سنوياً بحلول 2015"[59]، وهو ما أكده وزير

(55) نفس المرجع السابق، ص157.

(56) مريم جويس، ص178.

(57) صحيفة الوطن الكويتية 11/ 8/ 2011، ص22.

(58) صحيفة الوطن الكويتية 2/ 11/ 2010، ص22.

(59) صحيفة الرأي الكويتية، 19/ 3/ 2011، ص7.

شئون الشرق الأوسط البريطاني إليستر بيرت في 1/ 12/ 2011 [60]، كما أشار وزير المالية الكويتي مصطفى الشمالي إلى أن "الكويت من أكبر الدول استثماراً في العقار ببريطانيا" [61]، وقال عمدة الحي المالي في لندن في سنة 2006 اللورد جون ستوترد إن "دولة الكويت ممثلة بقطاعها الحكومي والخاص تعتبر من أكبر المستثمرين في بريطانيا لاسيما في القطاعين المالي والعقاري إلا أنه يصعب تقدير حجم هذه الاستثمارات" [62]، ولهذه الأسباب كان الإنجليز يتصرفون بعصبية عندما يتعرض نفوذهم في الكويت للتهديد، وفي هذا السياق قال الرئيس جمال عبد الناصر صاحب التجارب المريرة مع بريطانيا للوفد العراقي لمحادثات الوحدة الثلاثية سنة 1963: "إنكم لا تعرفون مدى حساسية الغرب في موضوع الكويت" ثم قص على أفراد الوفد قصة عودة العلاقات المصرية البريطانية بعد أزمة السويس وطلب بريطانيا فتح خمس قنصليات لها في الجمهورية العربية المتحدة ورد المصريين بطلب فتح خمس قنصليات عربية في بريطانيا وممتلكاتها ومن ضمنها الكويت، وعندما ذكر اسم الكويت للمبعوث البريطاني كولين كرو "انتفض كأن عقرباً لدغه وقال لنا: أبداً ... كله إلا الكويت، لم يكونوا على استعداد لقبول قنصلية لنا في الكويت، فهذه بالنسبة لهم مناطق ليس فيها "هزار" (!)" ونقل الرئيس كذلك عن خروشوف سكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي: "إن الغرب يمكن أن يدخل الحرب بسبب خوفه من أي تهديد على مصالح البترول" [63].

"ولعل هذا هو سبب التشنج البريطاني عندما اندلعت أزمة الخليج سنة 1990 التي أدت فيها رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر دور المحرض على التصدي للعراق وما قام به من ضم الكويت [64]، ثم كانت المصالح النفطية

(60) صحيفة الوطن الكويتية، 1/ 12/ 2011.

(61) صحيفة الرأي الكويتية، 9/ 10/ 2009.

(62) وكالة الأنباء الكويتية، 19/ 12/ 2006.

(63) محمد حسنين هيكل، حرب الخليج: أوهام القوة والنصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1992، ص275.

(64) حمدان حمدان، الخليج بيننا: قطرة نفط بقطرة دم، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص193.

البريطانية وراء التخطيط للإطاحة بالنظام في العراق قبل 18 شهراً من الاحتلال عام 2003[65].[66].

أي أننا وجدنا الدفاع الغربي عن استقلال الإمارة في عهود الاستقلال ظل كما كان في عهود الحماية البريطانية زمن الدولة العثمانية لمنع تحقيق سكة حديد بغداد، ثم في زمن مشاورات "الحلف العربي" سنة 1935 [67]، وزمن مطالبات الملك غازي[68] وزمن محاولات نوري السعيد المجهضة لضم الكويت إلى الاتحاد الهاشمي[69]، وستكون الولايات المتحدة في صف الموقف البريطاني المدافع عن الاستقلال منذ زمن الاتحاد الهاشمي الذي توجست من خطر دعمه بأموال الكويت[70] وفضلت أمريكا وبريطانيا تقديم الدعم المالي للاتحاد لإسقاط حجته بشأن الحاجة إلى أموال الكويت[71]، ثم تكرر التأييد الأمريكي لبريطانيا "إلى أقصى حد ممكن" في زمن عبد الكريم قاسم[72] واستمر إلى ما بعده (1990)[73] كما مر، وإذا

= - الدكتور علي محافظة، ص21 و425.
- رغيد الصلح، ص342-346 و352-353 و393.
- مريم جويس، ص212.

(65) وثائق سرية بريطانية : التآمر على بغداد يبدأ قبل 18 شهراً من الاحتلال، 2011.
http://www.darbabl.net/akhbarshow.php?id=1905

(66) محمد شعبان صوان، ص283-286.

(67) رغيد الصلح، ص94-95.

(68) نفس المرجع، ص149-151.
- وليد حمدي الأعظمي، الكويت في الوثائق البريطانية 1752-1960، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص ولندن، 1991، ص144-149.

(69) الدكتور علي محافظة، ص13 و172.
- رغيد الصلح، ص312-313.
- مؤيد الونداني، الاتحاد العربي في الوثائق البريطانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، ص45-53 (مقدمة الدكتور سيار الجميل) وص 124-128.

(70) الدكتور علي محافظة، ص195.

(71) مؤيد الونداني، ص65.

(72) دوجلاس ليتل، ص251 و350-351.
- مريم جويس، ص151 و172.

(73) رغيد الصلح، ص344.

كان هذا الدفاع في عهد الاستقلال لأسباب استراتيجية واقتصادية (نفط وأسواق واستثمارات)[74] فقد كان فيما سبق لأسباب استراتيجية تتعلق بسكة حديد بغداد ثم بعد ذلك بالنفط وعوائده واستثماراته.

المهم فيما سبق أن هذه الوفرة الاستهلاكية التي تمتعت بها الإمارة حققت مصلحة مادية آنية للسكان المحليين، هذا إذا كانت حياة الترف والدعة والراحة مصلحة حقيقية في تواريخ نهوض الأمم، مما جعل هذا الوضع ينطبق عليه وصف الدكتور عبد الوهاب المسيري للدول الوظيفية في الزمن المعاصر عند حديثه عن أشكال جديدة من الجماعات الوظيفية في المجتمعات الحديثة: "يمكن تحويل دولة صغيرة ليست بالضرورة استيطانية، إلى دولة وظيفية، وتتم عملية التحويل هذه عن طريق عملية رشوة لشعب هذه الدولة، بحيث يرتفع مستوى معيشته ويتزايد اعتماده على قوة خارجية تضمن بقاءه واستمراره بحيث لا يمكنه أن يحقق البقاء كدولة مستقلة دون استمرار الدعم الخارجي"[75] وذلك في سبيل تحويل هذه الدولة إلى جماعة وظيفية "تعمل لصالح النظام الاستعماري الجديد"[76]، وقد ربط الموقف البريطاني من قضية استقلال الكويت سنة 1961 بشكل واضح بين مفردات الثراء المحلي والاستقلال عن الجوار وتحقيق المصالح البريطانية وفق ما جاء في تعريف المسيري لعملية رشوة النخبة في سبيل الحصول على خدمة النظام الاستعماري، ففي تلك الأزمة ألفت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة وزير الخارجية لاقتراح السياسة المثلى التي يتوجب اتباعها تجاه الكويت، فخلصت هذه اللجنة إلى أن التهديدات التي تواجه المصالح البريطانية في الكويت هي استحواذ العراق أو السعودية على الإمارة، وأن الوسيلة الأفضل للحفاظ على المصالح البريطانية هي الاستعداد الدائم للدفاع عن الكويت "الغني، المستقل، الصديق لبريطانيا"، وإقناعه بالاتكال على المساندة

---

(74) الدكتور علي محافظة، ص178 و369-370.
- رغيد الصلح، 396-398.

(75) عبد الوهاب المسيري، 1999، ج 1 ص373.

(76) عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة، 2002، ص92.

البريطانية في اللحظات الحرجة لئلا يتجه إلى السعودية أو مصر للحصول على الضمانات السياسية والأمنية[77]، ولهذا لوحظ أن التدخل في أزمة 1990 كان أجنبياً وكان الحضور العربي ملحقاً وثانوياً وغير فاعل إلا في إسباغ الشرعية على التطفل الأجنبي.

أما المصالح الحقيقية التي تحققت فهي كما سبق ذكره مصالح الغرب الذي استولى على النفط ليسير في شرايين اقتصاده، وعلى عوائد هذا النفط واستثماراته والتجارة بالأموال التي حصل عليها ملاك النفط واشتروا بها السلع المصنعة الغربية، والأهم من كل ذلك الحؤول دون ظهور قوة محلية تمسك بزمام هذه الثروة وترفع من شأن الأمة التي تملكها، وقد حقق الغرب ذلك دون أن تحقق البلاد النفطية أية مصلحة عليا بعيدة المدى وبديلة عن نموذج الاستهلاك في حال نضوب السائل الأسود، وليس ذلك من قدراتها أصلاً لقلة قاعدتها السكانية وضحالة عمقها الجغرافي وخفة وزنها الدولي وتشرذمها السياسي، ولو طالعنا سلسلة المصالح الغربية التي كانت الوفرة الاستهلاكية ثمنها لوجدنا أن هذا الثمن الذي "سمح" لنا الغرب به كان ضئيلاً جداً مقابل الفوائد الجمة التي سبق ذكرها والتي جناها من الدفاع عن الاستقلال والتجزئة، وإذا قارنا ذلك بالخيارات الأخرى لمسيرة تاريخ المنطقة والتي تم إجهاضها لصالح الخيار الغربي، فإننا حينئذ سنشعر بفداحة الخسارة التي قبضنا ثمنها سيارة أو هاتفاً أو أية سلعة استهلاكية ترفية.

الكويت في ظل الدولة العثمانية قرية تواجه الإمبراطورية البريطانية: حاول الإنجليز اختراق "قرية الكويت" (كما جاء وصفها في وثيقة تعود لسنة 1848 ونشرتها صحيفة الوطن الكويتية في 8/ 9/ 2011) زمن شيخها الثالث جابر بن عبد الله بن صباح (1813-1859) فكان ما رواه الأستاذ سيف مرزوق الشملان في تاريخه: "في سنة ما، جاء الكويت جماعة من الإنجليز وحاولوا إقناع الشيخ جابر برفع العلم البريطاني، فلم يقبل وقال: إن الدولة العثمانية جارتنا وكل ما نحتاجه يأتينا من البصرة، فقالوا: إن الهند من مستعمرات بريطانيا وأنتم

(77) رغيد الصلح، ص235.

محتاجون لها، فلم يجبهم، وأخيراً استأذنوه في البناء فلم يسمح لهم، ثم قالوا: أتمنع الدولة العثمانية كما منعتنا؟ فقال: إذا رأينا في ذلك ضرراً على البلدة منعناها.وقد حاولوا أن يعطيهم ورقة بأنه يمنع الدولة عن ذلك فلم يعطهم، ورجعوا أدراجهم.لما بلغ النبأ متسلم البصرة جاء الكويت زائراً وشكر الشيخ جابراً على موقفه الصلب من الإنجليز، ويقال إن الدولة العثمانية لم ترتب للشيخ جابر المائة والخمسين كارة من التمر والفرمان الشاهاني والعلم الأخضر (علم الخلافة الإسلامية الذي أصبح علماً للكويت حتى حملة مدحت باشا 1871) إلا نتيجة لموقفه من الإنجليز بجانبها"[78].

وفي زمن الشيخ مبارك الصباح أرادت الدولة العثمانية تحويل الكويت إلى محطة نهائية لسكة حديد بغداد وبذل الإنجليز جهوداً كبيرة في التآمر بحجة الدفاع عن "استقلال" الكويت عن العثمانيين ليمنعوا وصول السكة إليها مع أنها كانت ستحول الإمارة إلى محطة نهائية لطريق تجاري عالمي يقطعه قطار الشرق السريع من برلين مروراً بعواصم أوروبا ثم اسطنبول فبغداد فالكويت مما كان سيمنح ميناء الكويت أهمية اقتصادية كبيرة قبل ظهور النفط بعشرات السنين، وما يؤكد ذلك ما جاء في تقرير مؤسسة ماكينزي الاستشارية لسنة 2008 عن الإصلاح الاقتصادي في الكويت: "التجارة من العراق وإليه عبر الكويت تصل قيمتها إلى 40 مليار دولار(سنوياً)، وحتى يكون ذلك لا بد من السكك الحديدية"، هذا ما ستصنعه سكة محدودة،مع العلم أن مجمل التجارة الكويتية بلغت حتى ذلك العام 70 مليار دولار(سنوياً)[79]، فما هي القيمة التي كانت التجارة ستصلها لو أن الكويت أصبحت محطة نهائية لطريق عالمي كسكة تمتد عبر القارات من برلين إلى بغداد منذ مائة عام، أي قبل النفط بعشرات السنين فلا يكون الاقتصاد بعد ذلك معتمداً على تصدير منتج واحد ناضب؟ وهو أمر تحاول الكويت العودة إليه اليوم ولو بصورة جزئية بواسطة مشاريع السكك الحديدية

---

(78) سيف مرزوق الشملان، من تاريخ الكويت، ذات السلاسل، الكويت، 1986، ص130.

(79) صحيفة الوطن الكويتية 17/ 2/ 2008 ص26.

الإقليمية التي مازالت في عالم التخطيط، فكان هذا الاستقلال المحتفى به من مستلزمات المصالح الغربية على حساب مصالح السكان المحليين وإن صورت السياسة عكس ذلك.



اقترن الحلم العثماني بإعادة إحياء الدولة بواسطة ربطها بشبكة واسعة من خطوط الحديد مع رغبة ألمانية بدعم هذا المشروع بعيداً عن أطماع بقية أوروبا، تم تنفيذ سكة حديد الحجاز وأجزاء من سكة بغداد، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحلم بربط السكتين كما كانت ألمانيا تحلم بامتدادات إفريقية، الكويت كانت محطة هامة في هذا الحلم ولكن بريطانيا أجهضته في سبيل مصالحها.

ومن الطبيعي أن يحوز إنجاز "الاستقلال" على ثناء الإنجليز على أنفسهم والذين لم يستطيعوا تقديم أي إنجاز عملي واحد لعملهم آنذاك والذي لم يكن سوى تلبية لمصالحهم ضد العثمانيين والألمان بغض النظر عما دمره من مصلحة الكويت نفسها في اندماجها بدولة إسلامية كبرى: "كان تولي الشيخ مبارك للحكم ضربة قوية ضد التوجهات الموالية للعثمانيين في الكويت (التي مثلها أخواه الحاكمان السابقان المقتولان اللذان لا يذكرهما النص البريطاني !)، كما اتسم حكمه بالإقرار بأن بريطانيا هي مفتاح ضمان حماية الكويت ضد القوى الإقليمية الأخرى التي كان بوسعها هزيمة إمارة الكويت الصغيرة (الصحيح أن تلك "الأخطار" نشأت من قبل القوى العثمانية والمؤيدة للعثمانيين كحائل آل الرشيد نتيجة زيادة النفوذ البريطاني في الكويت، وكان من الممكن تسويتها في ظل العثمانيين أيضاً، أي أن تطفل بريطانيا على المنطقة هو منبع الخلل فيها)، وكانت تلك الحسبة الدقيقة (للشيخ مبارك) تنم عن الحكمة والبصيرة (بالطبع مادامت تحقق مصالح بريطانيا)، حيث أنه مهما كان من أمر الأهداف الإمبريالية البريطانية (حتى لو كانت تعطل ازدهار ميناء الكويت آنذاك؟) فإنها لم تشمل أبداً على حرمان الكويت من استقلالها[80] (أو على الأصح تحويلها لدولة وظيفية تُجبر على تحقيق مصالح الأجانب حتى لو كان ذلك ضد قرارها السياسي ومن ثم ضد استقلالها الذي يدعيه الإنجليز وضد مصالحها كما سيأتي).

والطريف أن بريطانيا التي بذلت جهوداً كبرى لتحقيق استقلال الكويت عن الدولة العثمانية عادت بعد ذلك لتنقض ما فعلته ولتعترف بسلطة الدولة على الكويت ويكون حاكم الإمارة موظفاً عثمانياً في اتفاقية 1913 والتي وصفتها الوثائق البريطانية بأنها "استخدام الكويت من قبل الحكومة البريطانية للحصول على شيء آخر في مكان آخر، والاعتراف بأشياء أخرى

(80) وليام فيسي وجيليان غرانت، الكويت في عيون أوائل المصورين، مركز لندن للدراسات العربية، لندن، 1998، ترجمة: أشرف إبراهيم، ص13.

في أماكن أخرى، كتقديم التنازلات لها في خطة سكة حديد بغداد وما شابه ذلك، وعندما نتذكر بأنه لم يتم أخذ رأي حاكم الكويت أو التشاور معه خلال المفاوضات كما لم يتم إبلاغه عن سير هذه المفاوضات ونهجها، ثم تقدم له بعد ذلك كأمر واقع.... ومهما كانت التفسيرات طويلة بهذا الصدد، فإنها غير قادرة على إزالة الانطباع بأننا استخدمنا الكويت كمخلب لضمان الحصول على منافع أخرى لأنفسنا"، وذلك في الوقت الذي كان الشيخ يخاطب السير بيرسي كوكس بقوله "إنني أعتمد على الحكومة (البريطانية) العظيمة لمساندتي، طالما أنني مخلص في الالتزام والوفاء باتفاقاتي" فيتلقى شكراً "لامتثالكم لوجهات نظر الحكومة البريطانية"[81].

ولما اندلعت الحرب الكبرى الأولى "أعلن الشيخ مبارك ولاءه للحكومة البريطانية نيابة عن نفسه وعن قبائله كما وضع جهوده ورجاله وسفنه تحت تصرف بريطانيا" مقابل الحصول على "استقلال" تحت الحماية البريطانية[82]، وتعرضت تعهداته بالمشاركة في مجهود الحلفاء الحربي "لتحرير" البصرة لأول اختبار عندما اندلعت الثورة ضد صديقه خزعل خان في المحمرة لمشاركته في القتال إلى جانب الإنجليز ضد الخلافة الإسلامية، فأمر الشيخ مبارك الكويتيين بالقتال إلى جانب حليف بريطانيا ضد الدولة العثمانية فعصوا أمره على قلب رجل واحد وتذكر المصادر الكويتية ميل الكويتيين في هذه الحرب إلى جانب العثمانيين وسرورهم عندما تكون "الدولة معتزة" ورفضهم القتال إلى جانب الإنجليز وحليفهم الشيخ خزعل أمير المحمرة رغم أوامر الشيخ مبارك كما جاء مثلاً في كتاب الأستاذ سيف مرزوق الشملان الذي نقل "عصيان الكويتيين وعدم امتثالهم" لأوامر الشيخ الذي "غضب غضباً شديداً" وطلب منهم السير "وعصوا، وقالوا: نموت على الإسلام ولا نموت على الكفر"، "فكيف يقاتلون إخوانهم في الدين

---

(81) وليد حمدي العظمي، ص93-96.

(82) نفس المرجع، ص99-102.

- زين نور الدين زين، ص209.

لأجل الشيخ خزعل خان وكيف يشتركون في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل "[83].



رغم الصداقة الوطيدة بين الشيخ مبارك باشا ابن الصباح والشيخ خزعل خان الكعبي حاكم المحمرة فقد رفض أهل الكويت رفضاً قاطعاً نصرة خزعل حليف بريطانيا ضد دولة الخلافة الإسلامية.

بل إن الباحثة الكويتية الدكتورة سلوى الغانم تروي في كتابها الصادر باللغة الإنجليزية "عهد مبارك الصباح" ؛ استنادا إلى وثائق بريطانية، أن مبارك ذهب إلى أبعد مما سبق حين حاول قبل وفاته سنة 1915م أن "يهب الكويت لبريطانيا" وذلك بتسليم جميع الموارد الكويتية للإنجليز لإدارتها بأنفسهم وخصم نفقات الإدارة لحسابهم وتسليم الباقي له، الأمر الذي أربك المسئولين البريطانيين أنفسهم ووصفته الباحثة المذكورة بأنه "من أغرب ما قدم لمسئول بريطاني في غضون قرون من الانهماك البريطاني في الخليج"،

(83) سيف مرزوق الشملان، ص170-175.

ولم ينفذ الاقتراح نتيجة الرفض البريطاني الممزوج بالذهول[84]، وقد حاول أحد المؤلفين الأجانب التخفيف من وطأة الحدث إلا أن حكمه جاء في ضمن عدة أحكام لا تنطبق على واقع الأحداث ويمكن مراجعة الهامش للاطلاع على قيمتها*، وظلت الكويت في زمن الشيخ مبارك ومن بعده

---

(84) Salwa Al-Ghanim, The Reign of Mubarak Al-Sabah Shaikh of Kuwait 1896-1915, I.B. Tauris, London, 1998, p. 197.

(*) قام الباحث الهولندي بن سلوت بالرد على الدكتورة سلوى بالتخفيف من وطأة خطوة الشيخ مبارك في كتابه "مبارك الصباح مؤسس الكويت الحديثة1896-1915 م"، مدعياً أن ليس هناك شيء غير عادي فيها وليس هناك إشارات حقيقية تدل على أن حكومة الهند كانت مرتاعة، والحقيقة أن أحكام سلوت وتقويماته يجب ألا تؤخذ على محمل الجد لأن كتابه كله مسخّر لخدمة هدف مسبق هو تفخيم شخصية الشيخ وتكبير إنجازاته ومحاولة إثبات الاستقلال الكامل لحكمه عن الدولة العثمانية أكثر مما تعرضه الأدلة الموضوعية ولهذا لم يكن يتحرج من اللجوء إلى إنكار المحسوسات في سبيل إثبات رأيه المسبق مثل ادعائه الغريب بأن الأتراك نسوا عند ادعائهم تبعية الكويت للدولة العثمانية أن "الكتاب الرسمي السنوي العثماني لم يذكر أي قائم مقام للكويت"ص472 وهذا خطأ فادح إن لم يكن كذباً صريحاً وقد رد عليه الباحث الكويتي الأستاذ طلال سعد الرميضي من واقع الكتاب الرسمي العثماني السنوي (السالنامة) الخاص بولاية البصرة لسنوات عديدة حيث ذُكر الكثير منهم (الكويت والخليج العربي في السالنامة العثمانية، 2009، ص85)، كما ادعى سلوت بأن"الحجر الصحي أمر دولي وليس له علاقة بالدولة العثمانية" ص121 وهو ادعاء تكذبه الوثائق البريطانية التي عاصرت الأحداث والتي تؤكد أن مكتب الحجر الصحي العثماني من أدلة السيادة العثمانية ولهذا كانت بريطانيا ترفض إقامته في البلاد التي تطمع فيها كالبحرين وقطر كما كانت الدولة العثمانية تعين مسئول الحجر الصحي حيث تريد إثبات سيادتها كالكويت (دليل الخليج القسم التاريخي، ط قطر، ج3 ص1256 و1406و1526-1527)،وشكك سلوت أيضا فيما أجمعت عليه المراجع التاريخية المختصة -ومنها البريطانية التي عاصرت الأحداث كدليل الخليج- وهو صدور إرادة سلطانية رسمية بتعيين الشيخ مبارك قائم مقام على الكويت، ص171، ويحصر الدليل الذي يشكك فيه في مؤلف واحد نقل عن والي البصرة فقط، ويتجاهل سلوت أن الأمر أذيع في المنطقة ورد عليه أهل الكويت ببرقية للباب العالي تشكر أمير المؤمنين "بما عهد به إلى الشيخ مبارك الصباح ومن منصب القائمقامية وبذلك وله الحمد حلت الراحة العمومية في الكويت وأنحائها" ص67 من كتاب "بيان الكويت: سيرة حياة الشيخ مبارك الصباح" للدكتور سلطان القاسمي ط الشارقة 2004،كما ينكر سلوت المحسوس الذي نقلته المصادر الكويتية من ميل الكويتيين في الحرب الكبرى الأولى (1914-1918) إلى جانب العثمانيين ورفضهم القتال إلى جانب الإنجليز وحليفهم الشيخ خزعل أمير المحمرة رغم أوامر الشيخ مبارك وهو ما ينقله سلوت بإبهام غير علمي (ص523) يخالف ما جاء مثلاً من وضوح في كتاب "من تاريخ =

منطلقاً لقوات الحلفاء ضد العراق العثماني[85]، والعجيب أن يكون هذا هو جزاء العثمانيين الذين أرادوا تحقيق ازدهار الإمارة بجعلها محطة رئيسة لخط تجاري عالمي، ولكن كان طعن الذات هو سمة تاريخنا المعاصر لصالح ذوات الأجانب.

وظل أهل الكويت في عهد خلفه الشيخ جابر المبارك إلى جانب الدولة العثمانية "فازدهرت تجارتهم حتى وصلت بضائعهم إلى سوريا والحجاز ونجد، بل أنها تعدتها إلى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية لأن الحصار البحري قد أحكمه الحلفاء على سواحل سوريا أثناء الحرب العظمى"، ولما عقد الإنجليز مؤتمراً في الكويت سنة 1917 لتوحيد العرب ضد الأتراك مع اندلاع الثورة العربية تكلم الملك عبد العزيز آل سعود والشيخ خزعل خان عن بغضهما للأتراك وحقدهما عليهم، أما الشيخ جابر فقال نحن مسلمون وإذا ما أجمع المسلمون على شخص فنحن له من الطائعين، وكانت العلاقة

= الكويت" للأستاذ سيف مرزوق الشملان الذي نقل "عصيان الكويتيين وعدم امتثالهم" لأوامر الشيخ الذي "غضب غضباً شديداً" وطلب منهم السير "وعصوا، وقالوا: نموت على الإسلام ولا نموت على الكفر"، "فكيف يقاتلون إخوانهم في الدين لأجل الشيخ خزعل خان وكيف يشتركون في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل " (ص170-175) من ط ذات السلاسل في الكويت 1986، بل يجرؤ سلوت على الادعاء بعكس الحقيقة فيحاول إثبات موالاة الكويتيين لبريطانيا استناداً لتقارير بريطانية ربما لم يكن ليحفل بها لو قالت العكس كما فعل في مسائل أخرى، وهكذا يسير الكاتب بهذا الطريق الوعر الذي أوصله لمحاولة تربيع الدائرة أي إثبات الاستقلالية الكاملة لشخصية كتابه حتى عن بريطانيا (ص532- 533 مثلاً) رغم اتفاقية 1899 التي جعلت الشيخ مقيداً بقيود عديدة أوضح من الشمس في رابعة النهار (لا يبيع ولا يؤجر ولا يرهن ولا يفوض ولا ينقل ولا يعطي ولا يقبل...بغير رخصة الدولة البهية القيصرية الإنكليس...ويقيد نفسه وورثته وأخلافه إلى الأبد) حتى أن الكويتيين أنفسهم يحتفلون سنوياً بذكرى خلاصهم الرسمي من هذه المعاهدة ويسمون اليوم بعيد الاستقلال، فأي استقلال يريد المؤلف إثباته في ظل تلك المعاهدة التي كان الاستقلال في الخلاص منها؟ ولا يمكن حصر تجاوزات الكتاب في مقام ضيق كهذا والخلاصة أن أحكام سلوت في كتابه غير موثقة ولا يجب الاستناد إليها لأنها تلوي أعناق الأدلة لإثبات رأي مسبق.

(85) Jonathan S. McMurray, Distant Ties: Germany, the Ottoman Empire, and the Construction of the Baghdad Railway, Praeger, London, 2001, p. 124.

قوية بين الشيخ جابر والأمير سعود الرشيد حاكم حائل المتحالف مع العثمانيين[86].

ولما توفي الشيخ جابر وخلفه أخوه الشيخ سالم المبارك كانت الكويت ماتزال تصدر البضائع إلى سوريا والعراق ونجد والحجاز حتى اسطنبول، مما أغضب بريطانيا لعلمها أن هذه البضائع تصل إلى أعدائها لاسيما في وجود حصارها على سوريا، فهددت الشيخ سالماً بقصف الكويت ولما رجع إلى وجوه قومه "أظهروا عدم موافقتهم على هذا الطلب مهما حدث لهم"، ولكن المسئولين الإنجليز تمكنوا من استمالة الشيخ بعرض تعويضات عليه فكلف ابنه الشيخ عبد الله السالم بالإشراف على ما يخرج من الكويت من بضائع وأطعمة[87]، وأدركت بريطانيا "أن فشل الشيخ سالم في تحقيق الأهداف التي أرادها من اتباع سياسته الجديدة سيعيده إلى السياسة التقليدية للحكام السابقين، وأنه قد تفهم بالفعل أن القوة التي يريدها لنفسه وللكويت لن تأتي إلا عن طريق بريطانيا" كما تقول الدكتورة نجاة عبد القادر الجاسم[88]، وتم إحكام الحصار البريطاني على الكويت "وكانت الأطعمة والحاجيات لا ترد إلى الكويت إلا بمقدار"[89]، ولأن الحرب كانت في نهايتها وقد وقعت معظم الأراضي العراقية تحت الاحتلال البريطاني فإن المؤرخة الكويتية الدكتورة الجاسم ترى أن الهدف من الحصار لم يكن حربياً بقدر ما كان رغبة بريطانية في إفهام شيخ الكويت ضرورة الانصياع لأوامر بريطانيا[90]، وبعد انتهاء الحرب كافأت بريطانيا الأمير بمبلغ من المال ووسام[91].

(86) سيف مرزوق الشملان، ص181-182.

(87) نفس المرجع، ص184-185.

(88) الدكتورة نجاة عبد القادر الجاسم، التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين (1914-1939)، الكويت، 1997، ص92.

(89) سيف مرزوق الشملان، ص185.

(90) الدكتورة نجاة عبد القادر الجاسم، ص92.

(91) سيف مرزوق الشملان، ص185.

وبعدما زار شيخ الكويت أحمد الجابر بغداد مرتين 1935-1936 أبدى الملك غازي رغبته في رد الزيارة "فتدخلت السلطات البريطانية لإحباط ذلك المشروع"[92]، ثم تدخلت مرة أخرى ضد رغبة شعب الكويت رغم ادعاءاتها الديمقراطية التي لا تعمل إلا عند تحقيق المصالح كما تبين من موافقتها على رغبة شعب الكويت في أزمة 1990، على عكس سنة 1938، مما يعطي صورة واضحة عن طبيعة الديمقراطية الاستعمارية الانتقائية.

"وفي شهر كانون الأول/ يناير 1938، تجدد التوتر في العلاقات العراقية-الكويتية عندما بحثت قضية العلاقة بالعراق في المجلس التأسيسي الكويتي، فصوتت الأكثرية إلى جانب الانضمام إليه، مما دعا الأمير إلى حل المجلس، ورداً على القرار، نظم دعاة الوحدة مع العراق مظاهرات احتجاج، وناشدوا فيها العراقيين تأييدهم حتى تصبح الكويت جزءاً من المملكة العراقية، واتخذت المسألة بعداً آخر عندما اقترنت الدعوة إلى الانضمام إلى العراق بالمطالبة بالحياة الدستورية، ولم تنحصر الحركة في الكويت، بل انتقلت منها إلى البحرين ومسقط ومناطق خليجية أخرى انتشرت فيها المطالبة بالخروج من واقع الحماية البريطانية، انتهت تلك الحركة إلى إنزال حكم الإعدام بثلاثة من وجوه المعارضة الكويتية، وتبع ذلك إجراءات متشددة أصابت زعماء المعارضة الآخرين"[93].

أما الديمقراطية البريطانية العريقة فقد انتقلت من مطالبة الشيخ أحمد الجابر بالإصلاحات ومحاولة الاتصال بأعضاء المعارضة إلى الرغبة في تقييد صلاحيات المجلس التشريعي الكويتي ثم إلى إظهار الندم على وجود هذا المجلس كما تقول الدكتورة نجاة الجاسم، ولم ترحب بالقانون الأساسي للمجلس رغم توقيع الحاكم واطلاع الوكيل السياسي البريطاني عليه، فقد خشي الإنجليز أن يوضع دخل النفط مستقبلاً تحت تصرف

---

(92) رغيد الصلح، ص149.

(93) نفس المرجع، ص150.

المجلس، وأغضبها المطالب العمالية التي قدمها لصالح عمال شركة النفط، وخشيت تعرضه لاتفاقية 1899، ولما حُل المجلس وصودرت الأسلحة رضيت بريطانيا كل الرضا وسرها إعلان الحاكم أنه سيحكم بمفرده إلى أن يعود الهدوء[94]، ولما جرت الانتخابات الثانية وتأسس مجلس جديد (1939) طالب مرة أخرى بالنظام النيابي والانضمام إلى العراق رفض الحاكم ذلك وأيده الوكيل السياسي البريطاني وتم حل المجلس "وألقي بالزعماء المحرضين في السجن بينما انفجرت في أنحاء الإمارة اضطرابات دامية"[95]، وفر كثير من المعارضين إلى العراق[96]، ولم يتم تنفيذ الدستور الذي اقترحه الحاكم نفسه[97] ولم تنجح الإجراءات الاستشارية اللاحقة التي اتخذها، وبعد حل المجلس حصل الشيخ "على تأكيد من بريطانيا بأن الحكم والقوة ستظل بيد الأسرة الحاكمة، وبأن الشعب لن يقبل أحداً كحاكم غيره"، وأرسل بقية الحكام العرب من أصدقاء بريطانيا برقيات تأييد كذلك[98].

جرت في أواسط الخمسينيات محاولات عراقية اتخذت صفة الحل الوسط بين مطالبات العراق بضم الكويت، والإصرار على استقلالها، وذلك بحصول العراق على ممر مائي عن طريق تأجير جزيرة وربة والشاطئ البري المقابل لها وقد "وافق شيخ الكويت على ذلك في البداية ثم رفض بتحريض من البريطانيين"[99]، وهي قضية يرى الدكتور مؤيد الونداني أنها "ستستمر في المستقبل مادام العراق محروماً من الشاطئ البحري الذي تمتع به عبر تاريخه الطويل"[100]، وأضيف على ذلك مادام التدخل الأجنبي مستمراً في

---

(94) الدكتورة نجاة عبد القادر الجاسم، ص162 و172 و177 و179.

(95) جان جاك بيربي، ص266.

(96) الدكتورة نجاة عبد القادر الجاسم، ص180.

(97) جان جاك بيربي، ص266.

(98) الدكتورة نجاة عبد القادر الجاسم، ص180-181.

(99) مؤيد الونداني، ص125 و678-682.

(100) نفس المرجع، ص65.

توجيه الأحداث نحو مصالحه ويجد من يصغي إلى وسوسته دون الاهتمام بمصالح أهالي المنطقة.

وفي صراع لم تكن الكويت طرفاً فيه بين بريطانيا وحركة رشيد عالي الكيلاني في العراق (1941)، كانت الكويت هي منطلق الطائرات البريطانية سنة 1941 لقصف الثورة وتمت مكافأة شيخ الكويت أحمد الجابر الصباح على ذلك بوسام نجمة الهند لرتبة الفارس القائد سنة 1944 [101]، وبعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية سنة 1988 كان هناك مشروع عراقي لتحويل مجرى شط العرب مما سيجعل صحراء شمال الكويت خضراء يانعة دون الإضرار الفعلي بإيران[102]، ولم يتم توضيح مصلحة الكويت آنذاك في الإنتاج الزائد للنفط والذي كان سبب الشكوى العراقية[103]، وهل كان من الأفضل تغليب مصلحة آنية عاجلة بتحقيق أرباح كثيرة والاهتمام بالوصول بالإنتاج إلى الحد الأقصى أكثر من الاهتمام بالوصول إلى أعلى سعر للبرميل عن طريق الالتزام بأسعار منظمة الأوبك، والمهم هل كان ذلك سيحدث لولا إشارات التشجيع الأمريكي[104] التي حفزت الطرفين ضد بعضهما البعض؟

وعلى كل حال لما اندلعت الأزمة سنة 1990 وجهها البريطانيون والأمريكيون نحو مصالحهم الذاتية وأغلقوا كل المبادرات السلمية العربية والدولية التي استهدفت نزع الفتيل والقضاء على سبب الخلاف، لاسيما أبرز هذه المحاولات حين صرح الأمير السعودي سلطان بن عبد العزيز تصريحاً مهماً عن عدم استخدام القوة في حل المشاكل بين العرب ومنح العراق منفذاً على البحر بكرم الأخوة العربية الذي لا يسيء إلى أي عربي حين يتنازل لأخيه، وكان من الممكن أن يجنب هذا الأمر الأمة كوارث ونكبات

---

(101) وليام فيسي وجيليان غرانت، ص114.

(102) فؤاد مطر (سلسلة أعماله الشاملة)، الخميني وصدام: القرار الصعب والخيار الأصعب، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، 2007، ص229-230.

(103) رغيد الصلح، ص332.

(104) الدكتور علي محافظة، ص357-359.

لاحقة لو أنه أخذ فرصته المنطقية ولكن الأمريكيين والإنجليز وعلى أعلى المستويات خرجوا يشجبون ذلك ويرفضون تطبيقه تحت شعار "ولا بوصة" مما اضطر الملك السعودي نفسه وصاحب التصريح ذاته للتراجع والاعتذار ودخلت بلادنا في دوامة لا يمكن أن يدعي الفوز فيها أحد غير الأغراب الأجانب المتطفلين[105].

ثم حشر الأجانب الكويت في مشاريع لم تكن لمصالحها علاقة بها، فلم يكن أحد يدري ما هي مصلحة الكويت حين انطلقت منها جيوش احتلال العراق سنة 2003 بعد سنين طويلة من خروج الجيش العراقي من الكويت ووقوع العراق نفسه تحت حصار قاتل حصد الملايين من أبنائه، أما مصلحة المعتدين فكانت واضحة إذ كانوا هم القائمين بالعمل من أجل الكيان الصهيوني والنفط وإيجاد حلفاء عراقيين لمخططاتهم في منطقة الخليج الهامة لهم كما سبق الاقتباس عن الرئيس العراقي زمن الاحتلال جلال طالباني بنفسه[106] الذي اعترف بعد ذلك في مواجهة شكاوى نساء العراق بفشل الحكم الذي نصبه الاحتلال[107]، مع كون حالة المرأة هي ذريعة التدخلات الاستعمارية دائماً.



الرئيس العراقي الذي نصبه الاحتلال الأمريكي جلال طالباني حدد بدقة المقياس الاستعماري الأمريكي للديكتاتورية: تهديد حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة وليس تهديد الشعب العراقي فحسب

---

(105) http://www.arabrenewal.info/2010-06-11-14-22-29/29936 (في ذكرى ضياع فرصة مصالحة ذهبية، إلى متى سنصغي إلى الأجنبي؟).

(106) صحيفة النهار الكويتية، طالباني: أميركا احتلت العراق من أجل إسرائيل والنفط (25/ 12/ 2008)

(107) الرأي نيوز، طالباني يعترف: "أنا أول الفاشلين" (30/ 4/ 2011)

كما لم يدر أحد ماذا كانت مصلحة الكويت في وضعها على كف عفريت بإعطاء عدة إشارات للعراق منذ بداية سنة 1990 بأن أمريكا لا تتدخل في الصراعات العربية-العربية وجعلها طعماً لاستدراج الرئيس العراقي للوقوع في الفخ [108]؟ وما هي مصلحة الكويت بعد ذلك في إجهاض الغرب المبادرات السلمية بسبب إصرار الولايات المتحدة على تدمير العراق سنة 1991، ماذا كانت مصلحتها في تفويت أمريكا وبريطانيا فرص الحل السلمي (الذي لم يغلق بابه في وجه الصهاينة رغم جرائم أكثر من 65 عاماً ولكنه أغلق بابه في وجه العراق في غضون شهرين وفق الفتوى الدينية التي استدعت التدخل الأجنبي) في ضوء كثير من مقترحات الحلول التي عرضت وكانت ستحقق مراد الكويتيين لولا تدخل الغرب لإجهاضها[109] لأنها لا تحقق مراد الولايات المتحدة الذي كان هو القضاء على القوة العراقية االصاعدة وهو هدف فرض نفسه على الأحداث بعيداً عن أي مصالح عربية وتم التخلص من قوة إقليمية في بلاد العرب، وهذه هي المصلحة الغربية الحقيقية التي تحققت (الملحق الثاني)، كما لم يدر أحد ما هي مصلحة الكويت في انطلاق البريطانيين منها سنة 1941 عندما لم تكن طرفاً في الصراع العراقي البريطاني ومع ذلك حشرتها بريطانيا في صفها، أما مصلحة بريطانيا فكانت واضحة وهي ضرب الثوار وهذا ما تحقق، وقبل ذلك أيضاً لم يعرف أحد ما هي مصلحة الكويت سنة 1914 عندما اعتدى الحلفاء من الأراضي الكويتية على دولة الخلافة الإسلامية التي كانت بصدد تطوير الكويت تطويراً كبيراً سبق النفط بعشرات السنين، أما الحلفاء فكانت مصالحهم واضحة وهي الاحتلال والانتصار في الحرب، وهذا ما حصل على حساب الكويت والعراق معاً، ولعل التصريحات السياسية التي قدمتها المراجع السياسية العليا في سنة 2003 توضح بجلاء لا لبس فيه أن موقف الكويت لم يكن نابعاً سوى من عدم القدرة على مواجهة قرار دولة عظمى

---

(108) جيف سيمونز، 1998، ص29.

(109) الدكتور علي محافظة، ص370.

- رغيد الصلح، ص353-355.

بحجم الولايات المتحدة "قررت" استخدام أراضي غيرها في العدوان على أطراف ثالثة "هذه أمريكا... من يستطيع قول لا لها؟"، ولم يستح زعماء عملاء كالرئيس المصري المخلوع حسني مبارك من تبرير ذلك العدوان الأمريكي باحتلال العراق للكويت سنة 1990 بعد مرور دهر على إغلاق ملف تلك الحوادث بتحرير الكويت.

ومن الإنصاف القول أن هذا الضعف سمة ملازمة لجميع دول الاستقلال والتجزئة العربية، وقد أدى كثير منها دور الكيان الوظيفي الذي كان يتلقى الرشوة رسمياً من الاستعمار نظير الخدمات الاستراتيجية التي كان يقدمها سواء نظير منح الامتيازات أو المواقع أو القواعد[110]، وسنعجب لو علمنا أن دول النفط قبل اكتشافه فيها كانت تتلقى الدعم من الخزانة البريطانية لمساعدتها على البقاء وتقديم الخدمات لحكومة لندن، وفي ذلك يقول الأستاذ أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية إن الوطن العربي كان "في أكثر أقطاره، تحت رحمة الدول الغربية حماية ووصاية في السياسة والاقتصاد، من ذلك مثلاً، أن السعودية، وهي قوة اقتصادية عالمية، كانت في عهد مؤسسها الكبير الملك عبدالعزيز آل سعود تتلقى عوناً مالياً سنوياً من بريطانيا أول الأمر، ثم من أمريكا في ما بعد، ومثلها الكويت وقطر والبحرين، والمحميات التسع (السبع) التي أصبحت دولة الإمارات العربية، كانت كلها تتلقى مساعدات مالية مقررة من الخزانة البريطانية عاماً بعد عام. ومن ذلك أن كلاً من ليبيا وإمارة شرق الأردن في أوائل عهدهما كانتا تتلقيان عوناً مالياً يصل إلى نصف ميزانيتهما"[111]، ومن هذه الدول أيضاً محميات الجنوب العربي التي ضمت بريطانيا كثيراً منها في اتحاد الجنوب العربي (1959) وكانت تموله بملايين

(110) الدكتور علي محافظة، ص119 و120-121.
- دوجلاس ليتل، ص354-366.
- دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص641.

(111) أحمد الشقيري، ج 4 (الكتب والدراسات القومية-2) ص3243 - 3244 (الجامعة العربية كيف تكون جامعة وكيف تصبح عربية ص231-232).

الجنيهات[112]، ثم تخلت عنه وعن جميع حكام المشيخات والسلطنات التي أنشأتها هي من قبل وظل حكامها موالين للإنجليز حتى آخر لحظة عندما تخلت عنهم عند حصول اليمن الجنوبي على استقلاله (1967)[113]، كما تخلت عن حكم الملك الليبي إدريس السنوسي سنة 1969، وذلك كله عندما انتهت وظائفهم جميعاً، في الوقت الذي تدخلت فيه لحماية أنظمة مازالت فعالة، ومازالت بعض الدول العربية، لاسيما المفتقرة بحكامها وليست الفقيرة أصلاً، تعتمد على المساعدات الأمريكية لقاء القيام بأدوار الوكلاء وتنفيذ ما هو مطلوب استعمارياً منهم.

وخلاصة الأمر من الحديث عن الدول الوظيفية أنها تُسخر لمصالح الدول الكبرى حتى لو كان ذلك دون وجود مصالح لها في سياسات هذه الدول أو حتى لو كانت هذه السياسات ضد مصالحها الحقيقية أو ضد وجودها نفسه أحياناً وذلك في مقابل ما سماه الدكتور المسيري رشوة تقدم لهذه الشعوب الصغيرة على شكل استقلال محتفى به دون مضمون حقيقي، بالإضافة إلى الوفرة المادية التي ستصبح معيار اتخاذ المواقف مع أو ضد مصالح الأمة العريضة، ولكن حتى هذه الوفرة هي على حساب المستقبل غير المعد له، وعلى حساب الاستقلال الحقيقي عن المراكز الاستعمارية التي تعادي الأمة التي ينتمي الوظيفيون لها، وعلى حساب الشعوب المحيطة التي ينالها الكثير من أذى الوجود الاستعماري في الدول الوظيفية، وليس من العجيب بعد كل هذا أن تتحد رؤى الوظيفيين والاستعماريين فيرى الأوائل أن بقاءهم مرهون بالآخرين وأن حماية البقاء تعتمد عليهم حتى لو توفر مثلها من الأخ العربي الذي يظل محل الشك والريبة[114]، بل محل النميمة والتحريض، قبل العدوان الثلاثي وبعد نكسة حزيران، أي في الملمات، ومن ذلك التأكيد على وجوب تعامل البريطانيين معه "بسرعة

---

(112) الدكتور علي محافظة، ص218.

(113) http://www.arabrenewal.info/2010-06-11-14-13-03/49400 (من تاريخ اليسار العربي وسياساته اليمنية).

(114) مريم جويس، ص151 و154 و184.

وقسوة وبلا رحمة" لأنه "خطر على العالم العربي كله" ويجب أن يستعيد الإنجليز قواعدهم للقضاء عليه[115]، وبذلك تلتحم المصالح الثنائية مع المستعمِرين بمرور الزمن فلا يرى الوظيفيون أي شيء حتى أنفسهم إلا من خلال العدسات المستوردة من السادة وأن يفقدوا الإحساس بذواتهم، المفترض أنها مستقلة، وأن يكون هدفهم هو أن يحصلوا على ثناء هؤلاء المستعمرين[116] الذين يتغزلون في الحكمة الوظيفية الفائقة وبصيرتها وحساباتها الدقيقة[117]، وعلى رضاهم وحمايتهم (كالتدخل البريطاني لحماية النظام العراقي 1941 والتدخل الأمريكي والبريطاني للدفاع عن أنظمة إيران 1953 ولبنان والأردن 1958 والكويت 1990) فتصبح كل مصلحة استعمارية مبررة بالحفاظ على الاستقلال الوظيفي وسيادته وسلامته رغم كذب كثير من هذه الدعاوى كما سبق ذكره، وأمام هذا الكشف الحسابي على كل امرء اختيار ما يناسب أولوياته: هل هو الغرق في المتع المادية العاجلة الممزوجة بالتبعية للأعداء والعزلة عن الإخوة أم بناء مستقبل راسخ لا يفتقد الازدهار في أحضان أمة عظيمة يمكن أن تجعل نفسها بهذه الثروات قوة عظمى كانت الحيلولة دون نشوئها هي السبب الذي خاض الغرب من أجله معارك الحفاظ على استقلال الدول النفطية الصغيرة[118].

7 - الولايات المتحدة وضرب نماذج التحضر الهندي: الطمع المغلف بشروط تمدن مستحيلة

قطعت خمس قبائل في الجنوب الأمريكي لاسيما قبيلة الشيروكي في ولاية جورجيا الأمريكية ومحيطها شوطاً أوسع من بقية القبائل في تبني حضارة الرجل الأبيض حتى أُطلق عليها بشكل رسمي وغير رسمي اسم

---

(115) نفس المرجع، ص69 و197 و201.
(116) نفس المرجع، ص163.
(117) وليام فيسي وجيليان غرانت، ص13.
- بيتر مانسفيلد، 325.
(118) دانييل يرغن، ص6-7 و939-941.

القبائل الخمس المتمدنة The Five Civilized Tribes[119] فبنت المدارس واستقبلت المبشرين وطورت الزراعة والحرف الصناعية[120]، وتزاوجت مع البيض حتى أنه سجل في سنة 1825 وجود 120 زواجاً داخل القبيلة من رجال ونساء بيض[121]، وأصبح لها قيادة سياسية مختلطة الدماء وتعيش على غرار النخبة الجنوبية مالكة العبيد، وتحث أتباعها على التمسك بحقوقهم وهم يسيرون على النهج الأمريكي، بالإضافة إلى وجود مجلس تشريعي بقسميه النواب والأعيان، ونظام قضائي، وفي ذكرى الاستقلال الأمريكي سنة 1827 أعلنت القبيلة استقلالها متبنية دستوراً على غرار الدستور الأمريكي[122]، وكانت قد اتخذت من مدينة نيو إيكوتا New Echota عاصمة لها منذ سنة 1825.

كان هذا الإجراء مستفزاً وليس مفرحاً لولاية جورجيا التي استنكرت قيام دولة داخل الدولة ولم تسر بظهور ثمار الحضارة الأمريكية على "المتخلفين"، وزاد الأمر تعقيداً باكتشاف الذهب في أراضي الهنود[123]، وهو أمر سيكون مبرراً لاكتساح أية قبيلة في الغرب الأمريكي فيما بعد مهما كانت الحصانات القانونية والسياسية التي تحميها بموجب شرعة ومعاهدات الرجل الأبيض، وستثبت حوادث التاريخ أن الاستقلال لم يكن هو سبب العداء الأمريكي للقبائل الجنوبية بقدر ما كان السبب هو الرغبة في القضاء عليها وسلب مواردها، واختلاف المصائر مع بيض الجنوب الأمريكي الذين أعلنوا استقلالهم بعد ثلاثين عاماً ثم تم دمجهم بالمجتمع الأمريكي رغم كل المعاناة التي أصابتهم يؤكد إرادة سحق الهنود لا دمجهم، فمعاناة الجنوب الأبيض تختلف جذرياً عن الاضطهاد الذي لحق بالقبائل الهندية حتى دون

---

(119) New Standard Encyclopedia, Vol. 7, p. 157.

(120) David Reynolds, p. 109.

(121) Bruce Grant, p. 76.

(122) David Reynolds, p. 109.

(123) نفس المرجع، ص109.

أن يعلن كثير منها الاستقلال الذي اقتصر على الشيروكي ولكن المعاناة شملت الجميع، وفي النهاية لم يمنعوا من الاستقلال وحسب بل مُنعوا أيضاً من دخول الاتحاد كولاية أمريكية في مطلع القرن العشرين.

أعلن الرئيس الجديد أندرو جاكسون (1829-1837) رفضه الخطوة الهندية الاستقلالية بحجة أن الدستور يمنع قيام ولاية داخل أراضي ولاية أخرى[124]، ولما اكتُشف الذهب في أرض القبيلة قامت ولاية جورجيا بإلحاقها وإبطال العمل بالقوانين التي يصدرها الشيروكي فيها استناداً لمبادئ توماس جيفرسون أيضاً[125]، وتعرض الهنود للهجوم في أرضهم من قبل الغزاة الجورجيين الذين طمعوا فيما بأيديهم وأثبت التاريخ أن كثيراً منهم كانوا في مستوى حضاري أقل من الهنود[126]، فاستولوا على البيوت والجياد والماشية وهاجموا من اعترض طريقهم في ظل أوضاع قانونية مؤاتية لهم لأن شهادة الهندي لم تكن مقبولة في المحاكم ضد الرجل الأبيض[127]، وأتبعت جورجيا صدور قانون تهجير الهنود (1830) بإصدار مجموعة من القوانين المعادية التي تمنع اجتماعات السلطات الهندية إلا عند التنازل عن الأراضي (كما سمحت سلطات الاحتلال الصهيوني باجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في غزة سنة 1996 لإلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني)، وتمنع عمليات استخراج الذهب وتفرض مسحاً لأراضيهم لتوزيعها بالقرعة على مواطنيها، وألفت حرساً خاصاً لفرض القوانين الجورجية على الهنود، وكان أولئك الحرس من الأشخاص الأشرار الشرسين الذين اقتحموا أراضي الهنود واعتقلوهم وقذفوا بهم في سجون قذرة وربطوهم إلى جذوع الأشجار وجلدوهم، وشجع الرئيس جاكسون ولاية جورجيا على استمرار الضغط على الهنود وفي المقابل ادعى لهم أنه

---

(124) نفس المرجع، ص110.

(125) William J. Bennett, America: The Last Best Hope, Thomas Nelson, Nashville, 2006, Vol. I, p. 241.

(126) Grant Foreman, The Five Civilized Tribes, University of Oklahoma Press, Norman, 1934, p. 356.

(127) Russlle Thornton, p. 115.

غير قادر على التدخل لصالحهم[128].

لجأ زعيم الشيروكي جون روس، وهو من أصول اسكتلندية مطعمة بجذور هندية لأن أحد أجداده الثمانية كان هندياً[129]، إلى نفس أسلحة الرجل الأبيض القانونية، ورفع الهنود قضية وربحوها في المحكمة العليا الأمريكية (1832)، إذ أعلن القاضي جون مارشال في حكمه الشهير إبطال إجراءات جورجيا استناداً إلى الحقوق الهندية التي منحتها المعاهدات بين الهنود وحكومة الولايات المتحدة[130]، والاعتراف بتميز الأمة الهندية وأن علاقتها يجب أن تكون مرتبطة بالحكومة الاتحادية وحدها وليس بالولاية[131]، ومثلما كان الحال دائماً، فاز الضعيف بالقانون والأخلاق والعدل وفرح بذلك "فرحاً يفوق الخيال"[132] (كفرحنا بالقرارات الدولية الفارغة فيما بعد)، وكان من الممكن أن يصل قرار المحكمة حد الاعتراف باستقلال الهنود وجعلهم كالأمم الأجنبية ذات السيادة المستقلة، أي يمكن إقامة علاقات بسفراء معهم[133]، ولكن القوي فرض واقعه على الأرض، فلم يأبه الرئيس الأمريكي بقرار المحكمة[134]، وهناك من يصف المشهد بعجزه عن فعل شيء حتى لو أراد ذلك[135]، وهو عذر أقبح من ذنب ويشير إلى سيادة الطغيان العام وليس مجرد طغيان سلطة منحرفة، والذي جعل من إقرار العدالة مستحيلاً في جمهورية الحرية والإنسانية، واستمرت الضغوط على الهنود ومناصريهم المتعاطفين معهم الذين تعرضوا للهجوم والاعتقال

---

(128) Angie Debo, pp. 120-121.

(129) Francis Paul Prucha, p. 236.

(130) Grant Foreman, Indian Removal, University of Oklahoma Press, Norman, 1972, p. 235.

(131) David Reynolds, pp. 109, 112.

(132) Angie Debo, p. 122.

(133) David Reynolds, p. 112.

(134) William Brandon, Indians, The American Heritage Library, New York, 1985, p. 239.

(135) Francis Paul Prucha, p. 212.

والإبعاد[136]، وغزا الاستيطان أرضهم مما أدى إلى تفكك وحدتهم[137]، وقبول بعضهم، وهم الأقلية، بالتوقيع على التنازل عن أرضهم والرحيل إلى الغرب في معاهدة نيو إيكوتا (1835) والتي منحت قبيلة الشيروكي خمسة ملايين دولار وأرضاً في الغرب مقابل وطنها (نفس فكرة التوطين التي عرضت على الشعب الفلسطيني منذ النكبة)، وتم التعهد بحماية الهنود في الوطن البديل من الضم السياسي والتطفل الاستيطاني[138]، مع مهلة سنتين بداية من التصديق على المعاهدة للرحيل "طوعياً" إلى الغرب[139] رغم أن من وقعوها لم يكونوا يمثلون مجموع القبيلة[140] (ويلاحظ القارئ تاريخ المشروع الصهيوني في فلسطين أن موضوع هجرة سكانها "طوعياً" طُرح أيضاً في الأدبيات الصهيونية)[141].

---

(136) نفس المرجع، ص212.

- Angie Debo, pp. 121-122.
- Russlc Thornton, p. 116.

- إريك وولف، ص404.

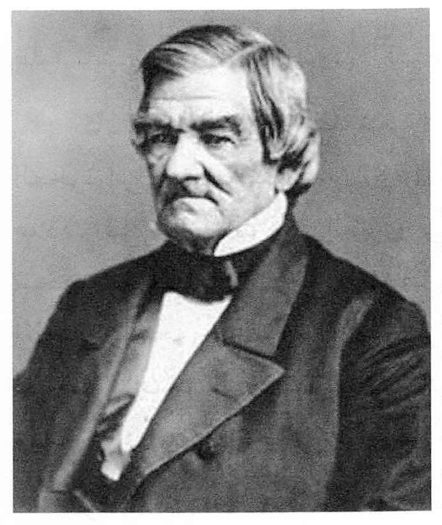
(137) Francis Paul Prucha, p. 236.
- Angie Debo, p. 123.

(138) Francis Paul Prucha, p. 237.
- Angie Debo, p. 124.

(139) Frederick E. Hoxie, Encyclopedia of North American Indians, Houghton Mifflin Company, Boston & New York, 1996, p. 106.

(140) Francis Paul Prucha, p. 237.
- David Reynolds, p. 112.
- Angie Debo, pp. 123-124.

(141) د. عبد الوهاب المسيري، الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح، دار الحمراء، بيروت، 2002، ص123-124.



جون روس زعيم قبيلة الشيروكي لجأ إلى الطرق القانونية والحقوقية لإثبات حق قبيلته المتحضرة في وطنها وتمكن من ربح الجولة ولكن الرئيس الأمريكي رد على قاضي المحكمة العليا كما يرد لسان حال استهتار الأقوياء دائماً بالقيم وذلك بقوله إن القاضي أصدر حكمه، فدعوه يطبقه إن استطاع (!)(142) وهذا هو حالنا مع القوانين الدولية التي تقف دائماً في صفنا ولكن دون فائدة على الأرض.

اعترضت الأغلبية على توقيع معاهدة التنازل، ووقع 16 ألفاً من أفراد القبيلة عريضة احتجاج عليها حملها الزعيم جون روس إلى واشنطن(143)، وذلك بعدما قامت ولاية جورجيا باعتقاله دون تهمة لكي تمنعه من الوصول إلى العاصمة(144) (هل تذكرنا هذه التفاصيل بحصار القيادة الفلسطينية قبل اغتيالها في رام الله؟)ولما أطلق سراحه قدم للمسئولين الأمريكيين لائحة ديمقراطية على المقاس الأمريكي تماماً (كما دأب مسئولونا على تقديم أوراق الاعتماد الديمقراطية إلى الولايات المتحدة والغرب ليثبتوا الجدارة التي لا تأبه بها أمريكا)، وعاش أفراد القبيلة على تناول الجذور وعصارة الأشجار رافضين المساعدات الحكومية كي لا يُحسبوا ضمن الموافقين على المعاهدة، وكانت تصلهم إشعارات بقضايا مرفوعة عليهم بلا حق ومن ضمنها عدم دفع إيجارات لأراضيهم التي يملكونها (!)(145)، ومع ذلك

---

(142) Russlle Thornton, p. 116.

(143) Paula Mitchell Marks, In A Barren Land: American Indian Dispossession and Survival, William Morrow and Company, Inc., New York, 1998, p. 75.

(144) Angie Debo, p. 123.
- William Brandon, p. 238.

(145) Paula Mitchell Marks, p. 74.

ظلوا ثابتين ولكن دون جدوى، فلم تجد الديمقراطية في بلد الديمقراطية.

كان هنود الشيروكي قد شعروا بالخطر الاستيطاني مبكراً ففضل بعضهم الهجرة إلى الغرب منذ عام 1782 أي أثناء الثورة الأمريكية[146]، ووصل عددهم قبل موجة الترحيل الكبرى في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ستة آلاف شخص تقريباً[147]، ومع ذلك ظل معظم الشيروكي متمسكين بوطنهم الأصلي بزعامة جون روس، ولما تزايدت الضغوط ومنحتهم الحكومة سنتين للرحيل، هاجر ألفان تقريباً إلى الغرب وظلت الأغلبية ثابتة في بلدها، ويقدر عدد أفرادها بحوالي 15 ألفاً[148].

ومع ذلك فضلت الحكومة الأمريكية التعامل مع حزب الأقلية وإهمال الأكثرية (ديمقراطية الاستعمار هكذا دائماً)، ووُصف المشهد بأنه نزاع مع الزعامة المستبدة للقبيلة (تهمة الديكتاتورية في كل زمان ومكان!) والتي لا تستجيب لمطالب الحكومة الأمريكية[149] (وهذا هو معيار الاستبداد دائماً!)، ولهذا لا بد من تغيير هؤلاء الزعماء[150] (دائماً)، وبحجة "استبداد" الزعامة الهندية و"استغلالها" لشعبها، ورغم عدم الاهتمام بمنح الهنود نعمة الديمقراطية [151] تم قذفهم جميعاً، الشعب والقيادة، في مجاهل الغرب البعيد مع وعود بالحماية هناك رد عليها المخلصون بطلب الحماية الآن وليس مستقبلاً وفي الوطن وليس في المنافي، وباستقرائهم التاريخ الذي لم يبين أن قوماً رحلوا من أوطان تتوفر فيها معايشهم إلى البرية ليصبحوا متحضرين فيها، وبالقول إن المصاعب التي ستواجه الهنود

---

(146) نفس المرجع، ص50.

(147) Francis Paul Prucha, pp. 235, 273.

(148) Grant Foreman, 1972, p. 286.

وهناك تقديرات قريبة في كل من:

- Francis Paul Prucha, p. 273.
- Russlle Thornton, p. 117.

(149) Grant Foreman, 1972, p. 240.

(150) نفس المرجع، ص239.

(151) William J. Bennett, p. 241.

أثناء الرحيل ستكون أكبر من أي مصاعب تواجههم في مواطنهم الأصلية[152]، وهو ما ثبت صحته عملياً فيما بعد، ولكنه لم يكن يمس سبب الرحيل وهو جشع الرجل الأبيض[153] وليس البحث عن راحة الهندي الأحمر أو حتى حقوقه الدنيا.

عم الاهتياج بين ذوي النوايا الحسنة في الولايات المتحدة[154]، ومع ذلك تم التصديق على المعاهدة المزيفة في السنة التالية لتوقيعها (1836) وإن كان التصديق قد مر بأغلبية صوت واحد في الكونجرس[155] (هكذا دائماً ينتصر العدوان الغربي ولو بأغلبية ضئيلة بعد الضغوط والتزوير ولا تجدي كل الاعتراضات حسنة النوايا أمام اكتساح المصالح كما حدث في مشروع تقسيم فلسطين سنة 1947)، ولما انتهت المهلة الممنوحة للهنود لكي يرحلوا كان الرئيس جاكسون قد غادر منصبه وتولى مكانه خلفه مارتن فان بورين، وكان من أبرز المعترضين على اضطهاد الشيروكي الكاتب الأمريكي الشهير رالف والدو إيمرسون[156]، الذي كتب رسالة اعتراض إلى الرئيس الجديد جاء فيها: "لقد سمعنا من ولايتنا البعيدة (ماساشوستس في نيوإنجلند) بعض الأخبار عن جدارة الشيروكي وتمدنهم، ولقد استقبلنا بابتهاج تقدمهم في الآداب الاجتماعية... وإنه لمن المسلم به عند جميع مواطني الجمهورية... أن هؤلاء الهنود سيعامَلون بشكل لائق وأنهم سيذوقون طعم العدل والحب من جميع من أوكلنا إليهم التعامل معهم"، وفيما يخص معاهدة 1835 قال إيمرسون: "هذا النبذ للقيم والإيمان، وهذا الرفض للعدل، وهذا الصمم عن صرخات العدالة، لم يسمع به في أزمنة السلم وفي تعامل أمة مع حلفائها ورعاياها الذين هم تحت وصايتها منذ بدء الخليقة،

(152) Stuart Banner, How the Indians Lost Their Land: Law and Power on the Frontier, The Belknap Press of Harvard University Press, Cambridge-Massachusetts, 2005, p. 211.

(153) Francis Paul Prucha, p. 195.

(154) Angie Debo, p. 124.

(155) Francis Paul Prucha, p. 237.

(156) David Reynolds, p. 112.

سيدي، هل تظن هذه الحكومة أن مواطني الولايات المتحدة أصبحوا همجاً وحمقى استُؤصلت من نفوسهم مشاعر الحب ومُسحت الطبيعة الخيرة؟ إن روح الإنسان، والعدالة، والرحمة التي هي قلب قلب كل البشر، من ولاية مين (شمالاً) إلى ولاية جورجيا (جنوباً) تمقت هذه المعاملة (للهنود)»[157].

ترحيل قبيلة الشيروكي بعد مغادرة جاكسون منصبه: انتهت المدة التي منحت للهنود كي يغادروا بلادهم الشرقية "طوعاً" إلى الغرب بعد نهاية عهد الرئيس أندرو جاكسون، ورغم أنهم هُجّروا من بعده فإنه يتحمل كامل المسئولية عن عملية التهجير التي شرعها وشرع فيها وقام بمعظمها في زمنه، ثم واصل دعمها حتى بعدما ترك منصبه[158]، وبالفعل فقد ارتبطت سياسة الترحيل باسمه في التاريخ الأمريكي وقليلاً ما يُذكر غيره عند ذكرها، وعند نهاية المهلة المحددة في مايو/ أيار/ ماي 1838 لم يكن قد غادر من مجموع القبيلة سوى ألفين فقام سبعة آلاف من الجنود الاتحاديين والمحليين من الولايات المحيطة بمحاصرة القبيلة التي نُزع سلاحها وإتمام ترحيل معظم من بقي منها (15 ألفاً) إلى المقاطعة الهندية (أوكلاهوما فيما بعد) بين يونيو/ حزيران/ جوان 1838 وإبريل/ نيسان/ أفريل 1839 [159]، وقد جرت عملية النقل ضمن 13 قافلة في كل منها ما يقارب الألف مهاجر، وذلك فيما عرف برحلة درب الدموع لكثرة ما خسره الهنود من الضحايا فيها، وتمكن ما يقارب الألف منهم من الفرار من الترحيل مختبئين في جبال كارولينا الشمالية حيث مازالت سلالتهم تعيش إلى اليوم[160].

---

(157) John Ehle, Trail of Tears: The Rise and Fall of the Cherokee Nation, Anchor Books, New York, 1988, p. 303.

(158) William J. Bennett, p. 243.

(159) Frederick E. Hoxie, p. 106.
- Grant Foreman, 1972, p. 286.

(160) Russlle Thornton, p. 117.
- Carl Waldman, Atlas of The North American Indian, Facts On File, Inc, New York, 2000, p. 209.

وقد روى المؤرخون جانباً من هذه المأساة التي انطلق فيها جنود أمريكا يهاجمون الهنود في بيوتهم بالبنادق والرماح ويجمعونهم كسجناء أينما وجدوهم، فهجموا على أسر على موائد الطعام أو في أسرة النوم أو أثناء العمل في الحقول وعلى الأطفال وهم يلعبون ليسوقوهم بالضرب والسباب وأمام أسنة الرماح إلى مراكز الاعتقال التي بنيت خصيصاً لهذه المهمة، ولم يسمحوا لهم بأخذ شيء يذكر معهم، وربما غادروا بما عليهم من ملابس فقط، وتركوا حقول الذرة والمواشي والجياد ومعظم المنقولات لأي عابر سبيل قد يمر بهذه الأملاك، وكان الأوباش يتعقبون الجنود لحرق بيوت الهنود وسلب ممتلكاتهم ونبش قبورهم طمعاً فيما قد يكون دفن مع أمواتهم، وقد صرح عقيد في الجيش الجنوبي بعد عشرات السنين من تهجير الهنود بالقول إنه شهد الحرب الأهلية الأمريكية بكل أهوالها حيث قُتل الرجال بالآلاف وقطعت أجسادهم ولكن ترحيل قبيلة الشيروكي كان العمل الأكثر وحشية الذي شاهده[161].

كانت رحلة الهجرة صعبة وشاقة في برد قارس وجوع شديد وأمراض فتاكة، وذلك في ظل معاملة وحشية أظهرها الجنود الذين كانوا يقومون بدفع الهنود بقسوة لتسريع الخطى أثناء السير ويمنعونهم من دفن موتاهم إلا عند التوقف، وتعرض الهنود لهجمات قطاع الطرق الذين لم يمنعهم وجود الجيش من الاعتداء على المهاجرين[162]، ووصف أحد المسافرين الأمريكيين الذي التقى بقافلة من المرحلين مشهدهم كالتالي: "كان كثير منهم يركبون الجياد وجمهورهم يمشي على الأقدام وحتى النساء العجائز اللواتي يقتربن من الموت كن يسرن وأحمال ثقيلة على ظهورهن على أرض متجمدة أحياناً دون أي غطاء على الأقدام، وقد علمنا من السكان القاطنين

(161) Russlle Thornton, pp. 116- 117.
- Grant Foreman, 1972, pp. 286-290.
- David Reynolds, pp. 112-113.
- Paula Mitchell Marks, p. 74.

(162) Carl Waldman, p. 209.

على الطريق الذي سلكه الهنود أنهم كانوا يدفنون 14-15 من أمواتهم عند كل نقطة توقف"[163].



رحلة درب الدموع كما رسمها الفنان روبرت لندنو (1871–1970).

كان مجمل الخسائر الهندية مرتفعاً إذن، وقد وصلت نسبة الوفيات من الجوع والبرد والمرض (كالزحار والسعال الديكي والحصبة)[164] إلى ربع المرحلين أو أكثر (4 آلاف)[165]، ولهذا أطلق الهنود على هذه الرحلة المأساوية اسم "درب الدموع" الذي أصبح علماً على كل عمليات الترحيل القسري التي أصابت الهنود[166]، ويقول بعض المؤرخين إن النسبة ارتفعت إلى النصف (8 آلاف) نتيجة لتبعات الترحيل بعد الوصول إلى المقاطعة الهندية[167].

وجرياً على عادة "لوم الضحية" التي يقوم بها المعتدي للتخلص من عبء جريمته، فإن الجنرال وينفيلد سكوت، الذي أشرف على التهجير

---

(163) David Reynolds, p. 113.

(164) Benjamin Capps, The Indians, Time-Life Books, Alexandria-Virginia, 1981, p. 164.
- David Reynolds, p. 113.

(165) Grant Foreman, 1972, p. 312.

(166) Carl Waldman, p. 209.

(167) Russlle Thornton, pp. 117-118.
- دي براون، ص12.

والذي كان يسعى لمنصب البيت الأبيض من هذه "المأثرة"[168] مثل غيره من الرؤساء الأمريكيين الذين بنوا سمعاتهم من اضطهاد السكان الأصليين، قال إن الهنود ملومون لكونهم وضعوا ثقتهم في قيادتهم[169]، وهي نفس النغمة التي عزفها الغرب بعد ذلك عندما قام "بإلقاء اللوم على الضحايا" في القضية الفلسطينية[170].

ملخص الماضي ومآل التمدن الهندي: لقد اتبعت الحكومة الأمريكية سياسة الترحيل في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر لإنهاء وجود القبائل الهندية شرق المسيسبي وإعطائهم أراض في الغرب، وقد تطورت هذه السياسة من تلميح الرئيس جورج واشنطون وحث الرئيس توماس جيفرسون للقبائل على استبدال أراض غربية بأراضيها شرق النهر، ثم تعززت هذه الفكرة بمطالبة بعض الولايات أثناء العشرينيات بنقل الهنود، ثم بعث الرئيس جيمس مونرو رسالة خاصة إلى الكونجرس يشرح فيها "مزايا" انتقال الهنود إلى الغرب، ومن هذه المزايا عدم وجود مطالبات أمريكية في تلك الأراضي ومن ثم يمكن للهنود العيش هناك بحرية، أي أن الحرية ممنوحة لهم حيثما لا يرغب الأمريكي بمزاحمتهم، أي أن رغباته وأطماعه هي التي تحدد ما يمكن أن يستولي عليه وما يمكن للآخرين التقاط بقاياه وفتاته.

ولكن التنفيذ الفعلي لهذه السياسة بدأ في عهد الرئيس السابع أندرو جاكسون الذي سبق أن حارب الهنود، فقد تبنى سياسة النقل بقوة ووقع القانون الخاص بها وصادق عليها الكونجرس في سنة 1830، وكان هذا القانون يعطي الرئيس حق التفاوض مع القبائل لنقلها غرباً بصفة ذلك هو "الحل الوحيد" للمشكلة الهندية ولتأمين "سلامتهم"، وبالفعل تمت

---

(168) David Reynolds, p. 112.

(169) Grant Foreman, 1972, p. 288.

(170) كريستوفر هيتشينز وإدوارد سعيد، إلقاء اللوم على الضحايا: الدراسات الزائفة والقضية الفلسطينية، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، 1991.

المفاوضات بشكل مسرحي هزيل استبعد من مشهده كافة المعارضين الذين كانوا هم الممثلين الحقيقيين للأمم الهندية ووقعت المعاهدات التالية: معاهدة نهير الأرنب الراقص (1830) مع قبيلة الشوكتاو ومعاهدات مع قبيلتي الشيكاساو والكريك والسيمينول سنة 1832 ومعاهدة إيكوتا الجديدة مع قبيلة الشيروكي سنة 1835، إلا أن معارضي الترحيل لم يقبلوا بهذا الجور وأشعلوا مقاومة مسلحة في قبيلة الكريك سنة 1836 وفي قبيلة السيمينول التي استمرت حربها الثانية لمدة سبع سنوات (1835-1842) في غابات ومستنقعات فلوريدا، واشترك في قمعها عشرة آلاف جندي وثلاثون ألف متطوع وتمكن الهنود من قتل 1500 من الأمريكيين وأنفقت الحكومة عشرين مليون دولار، أما قبيلة الشيروكي فلم تنتقل إلا بعدما حاصرها الجيش وأرسل أفرادها بالقوة إلى معسكرات الاعتقال ومنها تم نقلهم إلى الغرب في شتاء 1838-1839 في رحلة عذاب مات أثناءها ربع القبيلة من البرد والجوع والمرض والتعب والقهر فسمى الهنود هذه الرحلة بدرب الدموع، وتمكنت الحكومة الأمريكية من نقل الأمم الخمس المتمدنة إلى الغرب بعدما حطمت تجربتها الحضارية وقطعت الطريق على تبنيها مدنية الرجل الأبيض.

ورغم كل ما سبق واصلت القبائل الخمس المتمدنة لاسيما الشيروكي في وطنها الجديد في المقاطعة الهندية (أوكلاهوما فيما بعد) طريقها السابق فاعتمدت السير على طريق البيض من جديد فألفت مجموعة القبائل الخمس المتمدنة السائرة على طريق الرجل الأبيض[171] والتي أنشأت مزارع فردية كبرى يعمل فيها عبيد أفارقة كما يفعل الرجل الأبيض، وبنت بيوتاً فارهة ومفروشة بالأثاث المستورد من السوق الأمريكي، وبهذا كان الهنود يعيشون كما يعيش جيرانهم البيض من سكان الحدود الأمريكيين، كما تبنوا دساتير ومناهج حكم بمجالس ومقاطعات وانتخابات وفقاً للنموذج الأنجلو سكسوني، وكانت مجتمعاتهم ملتزمة بالقوانين كجيرانهم البيض أيضاً، هذا

---

(171) Bruce Grant, p. 129.

بالإضافة إلى وجود المدارس والإرساليات[172]، وأعادت قبيلة الشيروكي تأسيس نظام التعليم وبنت المدارس الابتدائية والعليا وواصلت إصدار صحيفتها باللغة الإنجليزية ولغتها القومية التي اخترع أحد عباقرتها طريقة جديدة لكتابتها، كما أسست حكومة ذات ثلاث شعب تنفيذية وتشريعية وقضائية واتخذت عاصمة لها وواصلت تبني الديانة المسيحية وبناء الكنائس، ولخص أحد الباحثين إنجازاتها بأنها حاولت "بناء مجتمع قائم على أفضل مواصفات حضارة البيض"[173]، ويلاحظ أحد المؤرخين المفارقة بين المعاناة التي شهدتها قبيلة الشيروكي من عملية الترحيل والازدهار الذي صنعته رغم خسائرها فيقول إن الفترة الممتدة بين نهاية التهجير والحرب الأهلية الأمريكية كانت العصر الذهبي الذي عاشته القبيلة[174].

وقد تتبع بعض المؤرخين خطوات عملية التطور فوجدوا أن الدستور الشيروكي كتب في نفس السنة التي وصلوا فيها إلى موطنهم الجديد (1839) ووضع موضع التطبيق في صيف 1840، وسيتأسس نظام تعليمي في السنة التالية (1841) وفي غضون ثلاث سنوات سيكون لدى القبيلة 18 مدرسة وستطبع صحيفة الشيروكي في غضون أربع سنوات بصفتها أول صحيفة في أوكلاهوما وستكون بلغتين هما الإنجليزية ولغة القبيلة المحلية، وفي غضون 11 عاماً سيتم افتتاح مدرستين للتعليم العالي[175] للذكور والإناث.

ماذا كانت ردة الفعل الأمريكية على كل هذه الخطوات الواسعة التي اتخذتها القبائل المتحضرة في السير في طريق الرجل الأبيض؟ وهل أقنعها كل ذلك لقبول الهندي في المجتمع الأمريكي؟ وهل نجحت كل تلك الإصلاحات في تحويل الهندي إلى رجل أبيض؟

---

(172) Angie Debo, pp. 128-129.

(173) Benjamin Capps, 1981, p. 164.

(174) Frederick E. Hoxie, p. 106.

(175) Benjamin Capps, 1981, p. 24.



ثانوية البنات في مدينة تاهليكوا عاصمة قبيلة شيروكي في المقاطعة الهندية بأوكلاهوما كانت تؤهل الطالبات للتعليم في الجامعات الأمريكية

لقد أصيبت القبائل الهندية في مجتمعها الجديد بصدمتين بعد صدمة الترحيل، الأولى هي الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) والثانية هي قانون التحصيص الذي سمي باسم السناتور هنري دوز الذي اقترحه وتم إقراره سنة 1887 وتطبيقه على القبائل الخمس المتمدنة في بداية القرن العشرين (1903)، وقد تمكن السكان الأصليون من تجاوز الصدمة الأولى وهي التهجير وكذلك الصدمة الثانية وهي الحرب الأهلية، إلا أن الصدمة الثالثة كانت قاتلة لمشروع التمدين الهندي.

استمر صعود القبائل الهندية المتمدنة في موطنها الجديد إلى أن اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي، فانتقل الانقسام إلى المجتمعات الهندية وتحولت الحرب بين الأمريكيين إلى حرب عند الهنود بين موالين للشمال وموالين للجنوب، وكانت الصفة الغالبة على قبيلتي الشوكتاو والشيكاساو مساندة الجنوب أما بقية القبائل ففضلت مبدئياً الحياد(176)، ثم أصبحت الصفة الغالبة على القبائل الخمس موالاة

(176) Frederick E. Hoxie, pp. 123-124.

الجنوب مع وجود أحزاب شمالية قوية بين الشيروكي والكريك، وهي مفارقة أن يتحالف الهنود مع أعدائهم الجنوبيين الذين أجلوهم من أوطانهم ضد الشماليين[177]، وبلغ من حماس الهنود للحرب أن قائد الشيروكي ستاند واتي كان آخر الجنرالات الجنوبيين استسلاماً بعد نهاية الحرب، كما استعرت الحرب بين من كان موافقاً على الترحيل قبل ثلاثين عاماً ومن كان معارضاً له، وهذا العامل هو الذي جعل الحرب مدمرة للهنود، وهي مفارقة أخرى في زمن تأييد الجنوب، أي أن الحرب صارت حربين، وخسر الهنود أعداداً كبيرة من أفرادهم بسبب هذا القتال، وتقدر الخسائر بما بين 6-10 آلاف قتيل من مجموع السكان الذي وصل ستين ألفاً، وتلك نسبة خسارة مرتفعة، وتذهب تقديرات إلى أن قبائل الكريك والشيروكي والسيمينول وصلت نسبة خسائرها إلى ربع السكان[178]، وتؤكد تقديرات مؤرخ قارب الأحداث في نهاية القرن التاسع عشر أن خسائر قبيلة الشيروكي وحدها بلغت 7 آلاف قتيل من مجموع أفراد القبيلة البالغ عددهم آنذاك 21 ألفاً وأن الحرب تركت منطقة الهنود رماداً[179]، وفوق كل ذلك فُرضت على الهنود معاهدات الهزيمة التي أدت إلى تنازلهم عن القسم الغربي من أراضيهم، أي مزيد من السلب، ولم يحصل الذين ساندوا الشمال على شروط أفضل من الذين ساندوا الجنوب، وكانت النتائج حسب قوة القبائل ونفوذها لا حسب ولاءاتها[180]، وخلاصة ما سبق أن الحرب الأهلية الأمريكية كانت كارثة ونكبة على هنود القبائل الخمس المتمدنة، ومع ذلك عادت تلك القبائل ولملمت جراحاتها وتعافت سريعاً من آثار الحرب وواصلت مسيرتها[181].

في سنة 1887 أقر الكونجرس قانون التملك الفردي الذي اقترحه السناتور هنري دوز لتقسيم أراضي الهنود، أي محمياتهم التي ضمنتها لهم

---

(177) Francis Paul Prucha, pp. 415-416.

(178) Frederick E. Hoxie, pp. 123-125.

(179) Russlle Thornton, p. 107.

(180) Angie Debo, pp. 181-182.

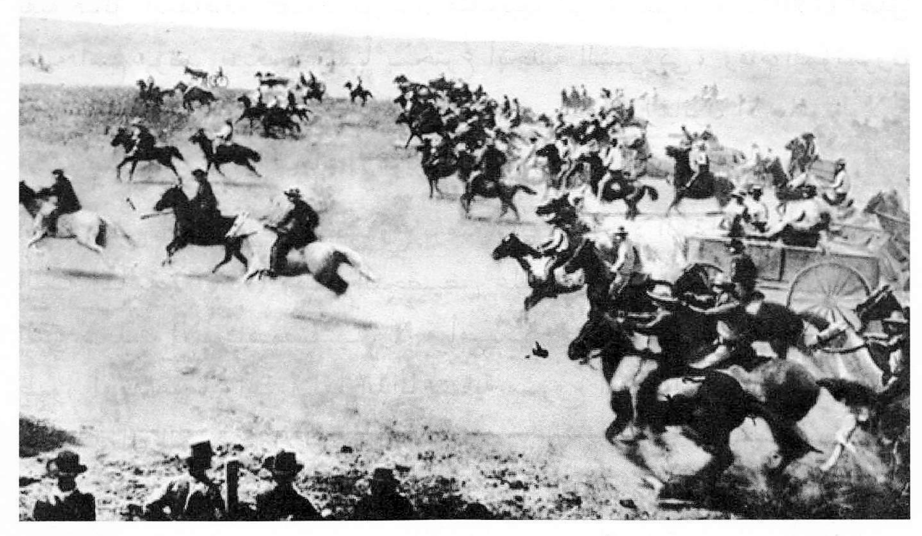
(181) نفس المرجع، ص201.

المعاهدات مع الولايات المتحدة، إلى قطع صغيرة توزع على الأفراد وعائلاتهم لتكون ملكية خاصة لهم مع فتح بقية أراضي القبائل للاستيطان وتملك البيض، وقد سمي القانون كذلك قانون التحصيص أو توزيع الحصص، وقد غلف بادعاءات إنسانية تحرص على تمدين الهنود ونشر الحضارة بينهم بإدخال مفهوم الملكية الفردية لديهم وكان مقترح القانون ممن يوصفون بأصدقاء الهنود، إلا أن النتيجة التي أسفرت عن تطبيق هذا القانون لمدة 47 سنة صورت كيف أن التوجهات الإنسانية يمكن أن تخدم أحط دوافع الطمع المادي، وقد وصفت نتائج القانون بالمدمرة، إذ تم تقسيم 118 محمية هندية وانتقلت نسبة الثلثين من أفضل أراضي الهنود إلى ملكية البيض وكان ما تبقى للسكان الأصليين هو الثلث الأكثر رداءة وقحلاً، ومع بذل المجهودات الكبيرة للاستيلاء على أرض الهنود "وفقاً للقانون وفي سبيل تمدينهم"، لم تبذل جهود موازية لتعليمهم المدنية الجديدة بعد نهب أراضيهم وقضاء الوطر منهم، وكان من أسباب الفشل، إضافة لرداءة الأراضي التي تركت لهم، نقص التدريب وقلة الأموال والاعتمادات، وسيدفع انعدام البديل إلى تمسك الهنود بطرقهم الجماعية القديمة، وسيسفر تطبيق القانون عن زيادة عدد الهنود الذين لا يملكون الأرض من 5 آلاف سنة 1887 إلى مائة ألف سنة 1934 عندما انتهت سياسة التحصيص[182]، وتصور لقطات عاصرت الحدث كيف وقف عشرات الآلاف من المستوطنين الطامعين على حدود الأراضي الهندية بانتظار لحظة فتحها رسمياً للانقضاض عليها والسبق إليها وكيف تم الاندفاع داخلها واحتلالها وشغلها في وقت قياسي في قصره، وعلى سبيل المثال قام 100 ألف مستوطن في 16 سبتمبر 1893 بوضع أيديهم على ستة ملايين فدان في غضون ساعات قليلة فقط[183].

---

(182) Robert A. Rosenbaum, The Penguin Encyclopedia of American History, Penguin Group, 2003, p. 171.

(183) Geoffrey C. Ward, The West: An Illustrated History, Little Brown and Company, Boston, 1996, pp. 391-392.



المستوطنون يندفعون بعشرات الآلاف لسرقة أراضي الهنود بذريعة جعل الهنود متحضرين (!)

في البداية لم يطبق قانون التحصيص على الأراضي التي تقطن فيها القبائل الخمس المتمدنة، وذلك بعدما باعت أراضيها في غرب المقاطعة الهندية فافتتحت للاستيطان سنة 1889 وأصبحت مقاطعة باسم أوكلاهوما[184]، وكان سبب عدم تطبيق التحصيص على تلك القبائل هو الضمانات التي منحها الرئيس جاكسون لها في المعاهدات التي عقدها معهم في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ومنحها فيها أراض في الغرب إلى الأبد مقابل أوطانها الأصلية في الشرق، ولكن في سنة 1901 بدأ الكونجرس بالتحضير لوضع محميات هذه القبائل ضمن قانون التحصيص وذلك بمنح المواطنة للهنود في المقاطعة الهندية التي تحوي هذه المحميات وذلك لجعلهم تحت سلطة القانون الأمريكي، وبالفعل امتد قانون التحصيص

(184) Robert A. Rosenbaum, p. 173.
- New Standard Encyclopedia, Vol. 7, p. F-157.

إلى هناك في سنة 1903[185]، ومع ذلك قامت القبائل الخمس بالتعاون مع بقية قبائل المقاطعة الهندية بإرسال مندوبيها إلى مؤتمر عام (1905) أطلق عليه اسم مؤتمر سيكويا تيمناً بمخترع أبجدية الشيروكي، وقام المؤتمرون بتحضير مسودة دستور لعرضه على الكونجرس بصفته القانون الأساس لولاية هندية مستقلة تدخل الاتحاد الأمريكي باسم ولاية سيكويا.

رفض الكونجرس المشروع برمته وأنهى وجود المقاطعة الهندية في السنة التالية (1906) وطبق التحصيص عليها وألحقها بمقاطعة أوكلاهوما التي دخلت الاتحاد بصفتها ولاية أمريكية جديدة في سنة 1907، وكان ظهور أوكلاهوما واستقلالها إيذاناً بنهاية مشروع استقلال الهنود[186]، وهو ما يؤكد أن المشروع الاستيطاني لم يتأسس إلا على حساب الآخرين، وأن الظلم الذي أصاب الهنود لم يكن حتى في نقلهم من أوطانهم إلى أوطان غريبة وفقيرة، بل في عدم الأمان وعدم الاستقرار في أملاكهم الجديدة[187]، كما تبين سابقاً، واتضح حينئذ أن الصراع على الأرض هو القضية وأنها هي المحور، أو كما كتبت صحيفة الشيروكي، أن أرض الهنود سيسيل لها اللعاب وتثير طمع اللصوص الذين لم يتركوا فرصة للسرقة والسلب بالخداع وبتوظيف كل قدراتهم الفطرية ضد كل الجماعات الهندية التي أصبحوا على صلة بها[188].

لقد برر الرئيس جاكسون عملية نقل الهنود المتمدنين إلى الغرب بالقول إن هذا هو الحل الوحيد للمشكلة الهندية لأن الأراضي غرب المسيسبي غير مطلوبة أمريكياً ومن ثم يمكن تأمين سلامة الهنود حيث لا احتكاك مع البيض، وهو عذر أثبت فشله أمام شره الأطماع إذ لا يمكن المراهنة لمدة

---

(185) Howard R. Lamar, The Reader's Encyclopedia of the American West, Thomas-Y. Crowell Company, New York, 1977, p. 379.

(186) Bruce Grant, p. 129.
- Robert A. Rosenbaum, pp. 126, 173.

(187) Francis Paul Prucha, p. 229.

(188) Benjamin Capps, 1981, p. 164.

طويلة على عزوف اللص عن غنيمة بعيدة، وبُرر قانون التحصيص الذي سلب أراضي الهنود بأنه ضروري لتمدين الهنود عن طريق تعليمهم الملكية الفردية التي لا يمكن التحضر دونها[189]، وأن الملكية القبلية الجماعية تحجز مساحات واسعة أكثر من حاجة القبيلة، ولهذا على الهنود تعلم الطريقة المتحضرة في التملك، ولكن ما حدث بعد إلغاء الملكية الجماعية التي وصفت بأنها تدعم وحدة القبيلة التي هي عائق في وجه تمدين الهمج[190]، (هل ستقبل أمريكا التي تخشى وحدة قبيلة بوحدة عربية أو إسلامية؟)، يؤكد أن تلك التبريرات لم تكن سوى أكاذيب وذرائع لسرقة أراضي الهنود، فقد انتقلت الأراضي الجيدة إلى أيدي البيض ولم يبق مع الهنود إلا الأراضي الفقيرة، وأصبح هنود أوكلاهوما من أفقر الجماعات الهندية في أمريكا الشمالية[191] ولم ينالوا من المكانة التي يستحقونها سوى أن اسمهم أصبح علماً متحفياً على سيارة أمريكية شهيرة، ككثير من الأسماء الهندية التي سرقها الأمريكيون كما سرقوا الأرض والموارد، وبهذا سُرق التاريخ كما سُرقت الجغرافيا، وذلك بعدما هيأ الهنود أنفسهم ووصل مستواهم إلى إعلان ولاية خاصة بهم، ولهذا فإن قانون التملك الفردي لم يكن كما وصفته الدعاية بأنه للهنود كإعلان تحرير العبيد للأفارقة وكإعلان الاستقلال للأمريكيين وكوثيقة الحقوق (الماجنا كارتا) التي أسست الديمقراطية الغربية، دمجت جميعاً في وثيقة واحدة[192] (!)

ورغم الفشل الذريع الذي منيت به شعارات تمدين السكان الأصليين وتحضيرهم، وذلك بانكشاف كذب الولايات المتحدة وزيف ادعاءاتها عن ضرورة تغيير الهنود أسلوب حياتهم لدمجهم في المجتمع الأمريكي، وظهور أن الأرض هي محور الصراع واستبعاد أية أهمية لأي جهد بذله الهنود

---

(189) Rennard Strickland, The Indians of Oklahoma, University of Oklahoma Press, Norman, 1981, p. 32.

(190) William Brandon, p. 388.

(191) Rennard Strickland, p. 36.

(192) Robert M. Utley, The Indian Frontier of the American West 1845-1890, University of New Mexico Press, Albuquerque, 2002, p. 215.

لتطوير أنفسهم، فقد ظل هناك من يلقي اللوم بلا حياء على الهنود ويطالبهم بتغيير حياتهم وإلا فالموت أمامهم[193]، وهي شعارات ثبت أن الهدف منها هو تبرئة الذات الأمريكية من تبعة الجريمة الكبرى الواضحة التي ارتكبت ضد سكان البلاد الأصليين وإظهار تقصيرهم في التلاؤم مع المد الحضاري الكاسح، ولا ندري كيف يمكن أن تتفق الصفة الحضارية مع المطالب القسرية الإبادية؟ وإذا كان كل ما قام به السكان الأصليون من خطوات واسعة في طريق تبني "الحضارة" ليس كافياً في نظر السادة البيض، فيمكننا الجزم بأن كل شروط التحضر ليست سوى شروط تعجيزية، غير بشرية وغير تاريخية، ولا يمكن للإنسان أن ينجزها في الظروف التي طلبها البيض، وأن هدفهم من مطالبة المجتمعات الأخرى بها ليست سوى تبرير لاكتساحها وتدميرها وسلبها وإبادتها بحجة عدم تحضرها، لاسيما وقد شهد المفكر الفرنسي الشهير ومؤرخ الديمقراطية الأمريكية أليكسيس دي توكفيل وهو يكتب أثناء ترحيل الهنود في كتابه الشهير الديمقراطية في أمريكا (1835) أن الحضارة ثمرة عملية اجتماعية طويلة وأن الهنود حاولوا رغم العقبات أن يتبنوا الأساليب الحضارية ولكن جشع الرجل الأبيض وقف في طريقهم وحكم عليهم بالعزلة والظلم والفقر والهلاك[194].

هذا ما حدث في الولايات المتحدة ويقارن به ما قاله روتشيلد عضو مجلس العموم البريطاني في تأييده لمشروع التقسيم الذي طرح سنة 1937 في فلسطين ويبرئ فيه أبناء دينه من مسئولية القضية الفلسطينية "لإنهم أدوا أحسن ما يكون الأداء نصيبهم من عبء النهوض بفلسطين (هل كان هذا النهوض موزعاً على الجميع؟) وزيادة سكانها (أصبحت المشكلة هي الحل: أليس هؤلاء الأغراب هم سبب الصراع؟) وترقية مواردها (لأنفسهم)"[195]،

---

(193) Wiley Sword, President Washington's Indian War: The Struggle for the Old Northwest 1790-1795, University of Oklahoma Press, Norman, p. 7.

(194) أليكسيس دي توكفيل، الديمقراطية في أمريكا، عالم الكتب، القاهرة، 2004، ترجمة: أمين مرسي قنديل، ص291-307.

(195) دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص676-677.

وبهذا يتضح جلياً معنى جلب الحضارة لمنطقة "متخلفة" : فهو إغراقها بالأغراب وتحسين وضعهم فيها مع استثناء السكان المحليين بعزلهم أولاً ثم طردهم في النهاية.

وفي نفس الوقت الذي كان الأمريكيون فيه يستولون على أراضي الهنود "الفائضة" وتبرير ذلك بأن حق القبائل في أراضيها محصور بالاستعمال وليس حق تملك مما يعني إمكان الاستيلاء عليها تحت شعارات الحضارة والزراعة والملكية الفردية، كان الاستعمار الاستيطاني الفرنسي يقوم بإجراءات مشابهة في الجزائر وتحت نفس الذرائع "القانونية" : فالقبائل لا تملك سوى حق استعمال الأراضي ولا تملكها، ولهذا فعليها أن تترك الأراضي "الفائضة" وتسلمها للدولة التي لن تعترف بالقبائل إلا بعد إتمام هذه العملية، ولن يبقى في أيدي الجزائريين إلا ما زرعوه قبل تطبيق هذا القانون (1861) بسنتين والمراعي التي كانوا يملكونها، وتمكنت الحكومة من اغتصاب 61 ألف هكتار من مجموع 343 ألف هكتار انطبق عليها القانون، ولما أثار ذلك الاستياء في البلاد، صدر مرسوم بعد سنتين (1863) نص على الاعتراف بملكية القبائل الجماعية وعدم جواز بيعها، إلا أنه اقترح تقسيم الأملاك الجماعية بين القبائل أولاً ثم بين الأسر، وهو ما مكن المستوطنين من الحصول على الأراضي ومكن الدولة من الاستيلاء على قسم من الأراضي القبلية (كما حدث في أمريكا تماماً)، وهكذا تم الاستيلاء على مليون هكتار من سبعة ملايين في غضون سبع سنوات من تطبيق المرسوم الجديد [196]، أي أن ذلك النموذج التاريخي لم تقتصر آثاره على القبائل الهندية في أمريكا فقد تكرر فيما بعد وغزا العالم باسم نشر الحضارة ولم يقم سوى بالاستغلال ومتطلباته التي غالباً ما تكون ضارة، ومن هنا نبعت أهمية دراسة ذلك النموذج الهندي الذي بدأ به احتكاك البيض مع الآخرين وكانت معرفة تفاصيله استشرافاً لما سيلاقيه العالم فيما بعد.

---

(196) لوتسكي، ص198.

ويؤلف حال السكان الأصليين اليوم ثغرة كبرى في دعاوى التمدين وجلب الحضارة "للمتخلفين"، فبينما تستقبل دول الهجرة كالولايات المتحدة وكندا وأستراليا والكيان الصهيوني عشرات الآلاف من المهاجرين سنوياً وكثير منهم بالقرعة غير الخاضعة للانتقاء أو حتى بالإغراءات المجانية كما يفعل الصهاينة، نجد أن بقايا الأقلية الهندية والأسترالية التي تؤلف نسباً ضئيلة جداً من مجموع السكان في كندا وأمريكا وأستراليا مازالت خارج دائرة الاستيعاب الاجتماعي وتعيش على هامش المجتمع بل في قاعه في أحوال بؤس وفقر ومرض لا يماثلها غيرها من الأقليات مما يؤكد أن إرادة الاستيعاب والتنمية لدى الاستعمار الاستيطاني ليست محكومة بالقدرات المادية التي تشمل ملايين من غير الهنود وبقية الأصليين، ولكن وضع السكان الأصليين يتطلب الاعتراف بما اقترف ضدهم في الماضي الأليم وهو ثمن باهظ يتطلب إدانة الشرعية المقدسة التي قامت عليها تلك الكيانات الاستيطانية وهذا ما ليس في المتناول حتى اليوم، رغم زوال الأخطار من قبل هؤلاء السكان الأصليين الذين لم تعد قوتهم الضعيفة قادرة على تهديد المجتمعات الأمريكية والأسترالية الراسخة، ورغم طنطنة الدعاوى الكاذبة عن آلية التصحيح الذاتي في الحضارة الغربية، كما نجد أن الصهيونية ترفض عودة اللاجئين الفلسطينيين رغم أن في البلاد متسعاً تفضل ادخاره لشذاذ الآفاق الأغراب من أرجاء العالم على إعادته لأصحابه وهو ما يرسخ حقيقة أن إرادة الاستيعاب في الحضارة الغربية ليست محكومة بالقدرات المادية الهائلة.

8 - كاليفورنيا: جانب من المجزرة الأمريكية

عندما استقلت المكسيك عن إسبانيا سنة 1821 كان كثير من سكان تكساس التابعة لها من الأمريكيين الذين شجعتهم الحكومة المكسيكية على الاستيطان في تلك المقاطعة في البداية ثم غيرت رأيها نتيجة شعورها بفقدان السيطرة عليها وقامت بتحديد الهجرة وفرض قوانين شديدة على سكان تكساس، وقد دفعهم ذلك لإعلان استقلالهم سنة 1835 وتمكنوا من هزيمة

الحملة العسكرية المكسيكية ضدهم وأعلنوا جمهوريتهم المستقلة (1836) التي رغبت في الدخول إلى الاتحاد الأمريكي منذ البداية ولكن تمسكها بالرق وتهديد المكسيك بالحرب أجّلا تطبيق هذا القرار عشر سنوات (1845) حين اتخذت الجمهورية الجديدة قرار الانضمام ووافق الكونجرس الأمريكي رغم علمه بأنه إعلان للحرب على المكسيك، وبالفعل بدأت تلك الحرب في سنة 1846 ودخل الجيش الأمريكي الأراضي المكسيكية واستمرت الحرب سنتين تمكن فيها الجيش الأمريكي من احتلال كثير من الأراضي ودخول العاصمة نيو مكسيكو في سبتمبر/ أيلول 1847، وتم التوقيع على الصلح في فبراير/ شباط/ فيفري 1848 بتخلي المكسيك عن نصف أراضيها الذي يضم كلياً أو جزئياً ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيفادا ويوتا وأريزونا ووايومنج وكولورادو ونيو مكسيكو، وكل ذلك مقابل 15 مليون دولار[197].

ضمنت الولايات المتحدة عدم تدخل بريطانيا في النزاع مع المكسيك عندما توصّل الأمريكيون والإنجليز إلى تسوية بشأن إقليم أوريغون الذي كان يتاخم أملاك المكسيك وكان تحت الإدارة الأمريكية البريطانية المشتركة إلى سنة 1846 حينما رسمت الحدود بين كندا البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية ثم أصبح الإقليم مقاطعة سنة 1848[198]، وبهذا دخل الساحل الغربي في الملكية الأمريكية.

اكتشف الذهب في كاليفورنيا بعد مدة قصيرة من دخولها في حوزة الولايات المتحدة سنة 1848، فاندفعت سيول المنقبين والمستوطنين تقتحم المنطقة بعشرات الآلاف منذ سنة 1849، وزاد عدد السكان من 15 ألفاً (1848) إلى 93 ألفاً (1850) في مدة قصيرة وأصبحت كاليفورنا ولاية في سنة 1850، وقد أفادت كاليفونيا إقليم أوريغون بزيادة الطلب على أسواقه

---

(197) دكتور عبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأميركية الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص122-123.

- موسوعة ويكيبيديا العربية: (المكسيك) و(الحرب المكسيكية الأمريكية) (26/ 7/ 2014).

(198) Robert A. Rosenboum, pp. 259-260.

وفي السنة التالية اكتشف الذهب هناك مما تسبب في سيل جديد من الهجرة.

أدت حمى الذهب إلى وقوع الكوارث بالسكان الأصليين في كاليفورنيا وأوريغون، ويذهب المؤرخون إلى أن القتل الذي استعر هناك كان أكبر عملية قتل في التاريخ الأمريكي إذ انخفض نتيجة له عدد الهنود من 100 ألف في أقل التقديرات قبل اكتشاف الذهب إلى 30 ألفاً بعد عشر سنوات (1859) ثم انخفض العدد مرة أخرى مع نهاية القرن إلى 15 ألفاً[199]، وهناك من يذهب إلى أن عدد هنود كاليفورنيا وصل ما بين 300- 700 ألف قبل الاحتكاك بالأوروبيين[200]، وكان هناك من يعارض هذه المجزرة لأسباب إنسانية دون جدوى كالعادة أو حتى لأسباب مادية، ففي تقرير قدم للكونجرس سنة 1850 جاء أن إطعام الهندي لمدة سنة أرخص من قتاله لمدة أسبوع[201].

وموررست المجازر ضد السكان الأصليين بشكل شائع، ولا يميز بين الضحايا، ولأتفه الأسباب[202]، حتى أن بعض المؤرخين جمعوا ملفات عن ظاهرة "تدمير هنود كاليفورنيا" بالقتل والحرب والمجاعة والأمراض والخمور والاسترقاق والاغتصاب[203]، وهي جملة نتائج الاحتكاك بالحضارة البيضاء، وكان من الشائع أن تُهاجم القرى والجماعات وتُباد في لمح البصر، وقد عد أحد المؤرخين عشرات من حوادث التدمير والإحراق والهجوم على قرى الهنود بواسطة حملات أرسلت ضدهم في الفترة بين 1855-1865[204]، واستُخدم الهنود المتبقون في أعمال السخرة والعبودية

(199) William Brandon, p. 297.
وهناك تقدير مقارب في:
- Russell Thornton, p. 109.

(200) Russell Thornton, p. 109.
- Robert F. Heizer, p. v.

(201) William Brandon, p. 298.

(202) نفس المرجع، ص298-299.
- Robert F. Heizer, p. 243.

(203) Robert F. Heizer

(204) Thornton, pp. 107-109.

لمدة سنين، وذهب ضحية خطف الأطفال والنساء لاستخدامهم في العبودية المقنّعة أو السافرة آلاف من الهنود، وقد قدر بعض المؤرخين أن العدد وصل عشرة آلاف بين سنتي 1850-1863[205]، كما أُفسد البيض السكان الأصليين ببيع الخمور لهم مع خلطها بالأحماض الأكالة مما تسبب في تدميرهم[206]، فثار السكان الأصليون على هذا الظلم حتى أن الجنرال جورج كروك أحد العسكريين البارزين الذين قضوا أعمارهم في قتال الهنود بضراوة ووُصف بكونه أكبر من قاتل الهنود في التاريخ الأمريكي اعترف بالظلم الذي لحق بهنود كاليفورنيا بقوله أثناء وصفه تجربته شاباً حول إحدى مدن البحث عن الذهب: "كان من الشائع قتل أي هندي بدم بارد واغتصاب الهندية على يد وحش، ولم يُسمع عن معاقبة رجل أبيض بسبب ظلمه هندياً، وكانت نتيجة ذلك أنه قليلاً ما مر وقت دون أن يكون هناك حرب على ساحل المحيط الهادئ... وإنه من الصعب تصديق المظالم التي عانى منها الهنود في تلك الأيام، وأنا أشك في بقاء أي فرد يحكي قصتهم، لقد كانت مشكلة الجيش أن الهنود وثقوا بنا بصفتنا أصدقاء، وكنا نراقب المظالم التي تقع عليهم دون قدرة على مساعدتهم، ولما لم يعد بإمكانهم التحمل ولجئوا إلى إعلان الحرب كان علينا قتالهم وإن كانت مشاعرنا إلى جانبهم"[207]، وهذا التصريح من جنرال أمريكي معروف يلخص الحالة الأمريكية التي كانت الدولة تضع نفسها فيها إلى جانب مواطنيها الظلمة ضد السكان الأصليين المظلومين، وتفضل تأييد جمهورها على تطبيق القانون الذي سنته هي عليهم، وهي معضلة ديمقراطية لم يتم تجاوزها إلى اليوم، كما يلقي هذا التصريح الضوء على نموذج متكرر في تاريخ الحروب الهندية وهو انقسام الجندي بين قلبه الذي يدرك الحقيقة بفطرته فيعترف بها، وسيفه الذي يقاتل هذه الحقيقة لأجل مصالحه، وهذا هو حال الجهاز الحكومي آنذاك.

---

(205) Robert F. Heizer, pp. xvi, 219.

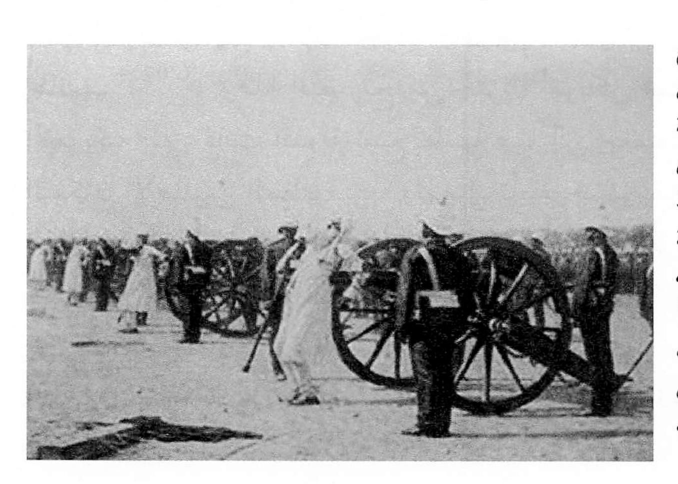
(206) William Brandon, p. 298.

(207) George Crook, p. 16.
- Angie Debo, pp. 158-159.

9 - الهند: جوهرة لم تستفد من قيمتها

كانت الهند من المستعمرات التي قل نظير أهميتها للاستعمار، وفي ذلك يقول المؤرخ إريك هوبزباوم إنها كانت "الجوهرة الأبدع في التاج الإمبراطوري" ومحور تفكير بريطانيا الخارجي بسبب أهميتها الاقتصادية، ففي نهاية القرن التاسع عشر كان 60% من صادرات القطن البريطانية تتجه إلى الهند والشرق الأقصى حيث كانت الهند هي مفتاحه الأساسي وتستقبل أكثر من 40% من تلك الصادرات، وكان ميزان المدفوعات البريطاني يعتمد على الفائض الهندي.

وقد غلف البريطانيون أطماعهم كالعادة بالأقنعة الحضارية، فأعلن اللورد كيرزون نائب الملك سنة 1904 "إن السيطرة البريطانية في الهند أعظم ما حققه الشعب الإنكليزي... سيطرة العدالة التي وفرت الأمن والنظام والحكم السليم لقرابة خمس الجنس البشري كله... على أيدي حكام لا يمثلون سوى عدد ضئيل بين المحكومين أو بقعة زبد بيضاء صغيرة جداً في محيط قاتم وصاخب"[208].



إعدام على فوهات المدافع للجنود الهنود المتمردين سنة 1857، أنهت الثورة حكم شركة الهند ولكن الاستغلال استمر وسط تبجحات بريطانية مستمرة عن المهمة الحضارية، ولكن كل "إنجازات" الاستعمار لم تقنع الشعب الهندي الذي أزاح كابوس الاحتلال البريطاني بعد 90 عاماً

(208) موريس كروزيه، ج 6 ص463.

وهذا هو ملخص حال الاحتلال البريطاني كما يعرضه روبير شنيرب:
لقد كانت الهند في القرن الأول من الاستعمار تحت إدارة شركة الهند الشرقية، وكما سيحدث في الكونغو الذي وقع تحت الإدارة الشخصية لملك بلجيكا فيما بعد، أثارت سياسة الشركة ردود أفعال قوية نسبت إليها الفوضى والمجاعات والابتزازات التي أدت إلى تمرد سنة 1857 بين المجندين الهنود في الجيش البريطاني، فألغيت الشركة سنة 1858 وأصبحت الهند تابعة للتاج البريطاني وحاكمها نائب الملك، وأدى ذلك إلى تبدلات جذرية في نظام الإدارة ولكن بكفاءة أكبر لصالح الاستغلال وليس لصالح الأهالي.

احتفظ الإنجليز بكل المراكز العليا لأنفسم، وكانت الأمية في سنة 1900 تصل إلى 90% بين الرجال و99% بين النساء، وكان الهدف من التعليم هو إيجاد طبقة تتعاون مع الاستعمار، وكان عمل الفلاح هو الذي يوفر المال لتعليم المثقفين من الضريبة العقارية التي تحتل المكانة الأولى في تغذية الموازنة التي لم تكلف بريطانيا فلساً واحداً، وكانت نفقات الإدارة والجيش تستهلك أكثر من نصف الواردات، وكان الحكام البريطانيون لا يختلطون بالسكان ويعيشون في رفاهية منعزلة حياة شبيهة بحياتهم في بريطانيا، وكانت هناك فروق كبيرة بين "مدينة الطين" و"مدينة القصور".

أما عن "الإنجازات" الاستعمارية في حياة الهنود فقد كانت الهند قبل الاستعمار تبيع أكثر مما تشتري "ولكن السيطرة الأجنبية قلبت هذا الاتجاه رأساً على عقب"، فأدى الأمراء ضرائب باهظة وقبض وكلاء شركة الهند ثم الموظفون الاستعماريون رواتب مرتفعة، ودخلت البضائع الإنجليزية لمنافسة البضائع الهندية بنجاح، فأصبحت الهند مدينة وليست دائنة، واقترضت لتسدد نفقات الوجود البريطاني، ودخلت الاستثمارات لتربح في الأسواق الهندية، ورفعت شركة الهند مستوى معيشتها على حساب ملايين الآسيويين، وكانت "كونتية إنكليزية واحدة مجهزة بطرقات مطروقة لا تتوفر للهند كلها"، ثم بنيت خطوط مواصلات لتكون "خير أداة للدولة المستعمِرة"، وبنيت السدود والقنوات لمقاومة المياه والجفاف معاً، وقد رأى المستعمِر فائدة له في التخفيف من بؤس الفلاحين فيما يتعلق بقدرتهم الإنتاجية التي

تعطلها المجاعات، وكان ما هدف إليه "في الدرجة الأولى" زيادة محصول الربيع، ولم يلتفت المستعمِرون لحاجات السكان الغذائية، ففي الوقت الذي احتاجت فيه المستعمرة إلى السكر الرخيص، وظفت رءوس الأموال في السكر بعيداً عنها وعُد الأفيون أوفر نفعاً بسبب الأرباح التي يوفرها للخزينة بعد تصديره إلى الصين، كما تحولت المضاربة التجارية إلى الشاي والبن مع أن "الهندي لا يهوى قط هذه الأشربة"، وكان الهدف من الاستثمار فيها هو تصديرها إلى أوروبا، في الوقت الذي عانى فيه الهنود من الجوع.

وتخلفت الصناعات الهندية أمام مزاحمة المنتجات الأوروبية، ومنذ انتشار الحياكة الآلية في بريطانيا اضطرت الهند إلى بيع القطن الخام وشراء الملابس، وتحولت الزراعة عن المزروعات الغذائية كما حدث في مصر في نفس الفترة، ورغم المظهر النهضوي البراق في أرقام التجارة الخارجية، فقد كانت الوصاية الاستعمارية تعني بيع الحبوب بمئات الملايين "بينما كانت البلاد جائعة"، وبيع القطن والمنسوجات المحلية بثلاثة أخماس ما يُشترى من الخارج فقط، بعدما كان الميزان الاقتصادي قبل الاستعمار لصالح التصدير.

كان سكان الهند "يؤمنون حاجاتهم الضرورية بصعوبة"، ولم تتبدل أحوال الفلاحين، ومعدلات الدخل بين المتدنية والأسوأ منها، وقد استفادت بعض الشرائح من الإدارة الاستعمارية كما في كل المجتمعات التي غزاها الاستعمار الذي يعمل دائماً على إحلال أنظمته مكان الأنظمة السابقة، كما جرت بعض الفوائد غير المقصودة كالتجانس الذي نتج عن شيوع المنتجات الأوروبية التي قصمت ظهر الصناعات الوطنية، وكان اعتقاد البريطانيين لزمن طويل أن ظروف الاختلافات الدينية وتعاون المثقفين معهم ستشل انطلاق حركة قومية، ولكن كما في كل النتائج غير المقصودة لم يحدث هذا وطالب المعارضون بتطبيق شعارات الاستعمار وحقهم في أن يكونوا مواطنين بريطانيين، وهو ما وصل إلى طريق مسدود في النهاية، ورغم تبجح اللورد كيرزون سنة 1904 بأن "مهمتنا عادلة وسوف تستمر" فإن "ذلك لم يحل دون صعوبات الغد التي ستواجهها السيطرة

البريطانية"[209]، وسنجد الاحتلال يغادر الهند بعدما فشل في ضم "المتخلفين" إلى جنة الحضارة، كما حدث بعد ذلك في الجزائر وفي غزة وفي أماكن أخرى كثيرة.

10 - الكونغو: الاستعمار الذي أحرج المستعمرين والوحشية التي ارتكبت باسم الحرية وإلغاء العبودية

يقول المؤرخ البلجيكي جان لوك فالوت إن الاستعمار البلجيكي في الكونغو يمثل النجاح الشديد والفشل الذريع للاستعمار، وعلى المستوى العالمي، لاسيما في البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية كان الكونغو المثال الاستعماري الأكثر إرعاباً والمأساة الإنسانية وإمبراطورية الوحشية المرتبطة "بقلب الظلام" (رواية الأديب البريطاني جوزيف كونراد التي تتطرق لهذه المستعمرة)، ولكن من وجهة نظر أخرى عاصرت الحدث كان الكونغو نموذجاً ليقظة إفريقيا التي سيصنعها طبقة صناعية إفريقية تعطي بديلاً للنموذج العنصري في جنوب إفريقيا، ولكنه كان نموذجاً لكل ما يستحق الإدانة في المشروع الاستعماري، والذي انفجر عندما وصل الذروة الاقتصادية.

عقد ليوبولد الثاني ملك بلجيكا (1865-1909) مؤتمراً جغرافياً في بروكسل لتشجيع التقدم العلمي والقضاء على تجارة الرقيق (1876) وأتبعه بمؤتمر آخر في سبيل نفس الغاية (1889-1890)، ولكن هذه الأهداف السامية أخفت خلفها التطلع للتدخل في مشاريع الهيمنة على موارد إفريقيا حيث مثّل الكونغو منطلقاً للسيطرة على النيل واستثمارات الصين لجعل بروكسل في النهاية مركزاً عالمياً، ويحاول بعض مؤرخي أوروبا أن يخففوا من وقع السلبيات الأوروبية على الواقع الإفريقي زمن الاستعمار بالإشارة إلى دور الحوادث داخل القارة في فرض منطقها على استدعاء المخططات الخارجية [210]، وهذه النغمة لجأ إليها مؤرخون أمريكيون أيضاً عندما

(209) نفس المرجع، ج 6 ص463-470.

(210) Robert Aldrich, pp. 220-224.

- مارك فرو، ص452.

حاولوا التخفيف من وقع الكارثة التي حلت بسكان أمريكا الأصليين بالقول إن فتح أمريكا كان استمراراً للصراعات القبلية التي قسمت الهنود قبل وصول البيض وجعلت قسماً من السكان الأصليين يقف إلى جانب الأمريكيين في عملية الفتح ضد القسم الآخر من الهنود، وهذه الشعوذة الفكرية واضحة البطلان إذا سألنا أنفسنا سؤالاً بسيطاً: هل كانت الكوارث التي حلت بالقارات الإفريقية والأمريكية بعد وصول الرجل الأبيض ستحدث لو استمرت سياقات الصراعات الداخلية دون تدخله ألف سنة أخرى؟ وإذا كان أثر الرجل الأبيض المتحضر المتمدن المتعلم العاقل الحر الإنساني... إلخ، هو إكمال أفعال المتخلفين البدائيين المتوحشين ... إلخ، وتبرير أفعاله بأفعالهم، فما هي قيمة العقل والعلم والحضارة والمدنية والحرية والإنسانية... إلخ التي ادعى أنه جاء لنشرها ومحو التخلف والبربرية والوحشية... إلخ؟

حصل الملك ليوبولد في مؤتمر برلين 1885 على إقرار دولي بملكيته الشخصية لمستعمرة الكونغو[211] التي تكبر بلجيكا بثمانين ضعفاً[212]، وهو أمر غير مسبوق في التاريخ الاستعماري، وكان ذلك مقابل شروط مثالية هي القضاء على العبودية وحماية السكان الأصليين وحرية الوصول إلى السوق المحلي[213]، وكان الملك معجباً بنتائج الاستعمار الهولندي دون اهتمام بقسوة أساليبه كالعمل القسري وسلب الأراضي وهو ما طبقه في الكونغو مع احتكار موارد الدولة ذات المردود والقضاء على المنشآت الخاصة، وفي الوقت الذي كان يتصنع المظهر الإنساني كان عازماً "على عدم تفويت فرصة للحصول على نصيب من فطيرة الحلوى الإفريقية الرائعة"[214]، وقد جنى من مستعمرته أرباحاً طائلة وحصل في المدى القصير على ثناء الأوروبيين

---

(211) د. عبد الوهاب الكيالي (تحرير)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993، ج 3 ص14.

(212) مارك فرو، ص451.

(213) Robert Aldrich, p. 225.

(214) مارك فرو، ص451.

بصفة فعله إشارة إلى إمكان إدخال إفريقيا في نظام العالم المتطور وبكونه انتصاراً أعظم من فتوح السيف الغربي، ولكن حكم ليوبولد كان قاسياً وليس بمثل تلك المثالية المصورة.



الملك ليوبولد الثاني (1835-1909) استخدم المبادئ والشعارات الإنسانية لاسيما إلغاء العبودية غطاء لأبشع الممارسات الاستعمارية، كعادة الغربيين دائماً، وذلك في مستعمرة الكونغو التي تزيد مساحتها عن مساحة بلده بلجيكا بثمانين ضعفاً.

وقد اتخذ الحكم الاستعماري في الكونغو صفة دولية بمشاركة واسعة من الأوروبيين وغيرهم، ورغم أن شرعيته قامت على أساس حماية السكان الأصليين والعمل على تحسين ظروف معيشتهم المادية والمعنوية وإفهامهم فوائد الحضارة، وفقاً لميثاق مؤتمر برلين 1885، فإنه لم تكن الرسالة التحضيرية هي التي تسابقت أوروبا لتحقيقها وأصبحت فجأة مجمعة عليها، بل المصالح التجارية التي أنيط برجال الدين تسويغها وتسويقها في هذا القسم من الأرض "الذي كان مغلقاً حتى الآن انفتح بثرواته التي لا تحصى، بمناجمه، وخصوبة أراضيه، وشمسه المخصبة ومياهه الوافرة" رغم أنه "ليس من شأني الكلام، أكرر، عن التجارة ولا الصناعة، فما أنا إلا الصوت الصارخ في الصحراء: هيئوا سبل المولى، أي: سبل الحق والعدل" (!)، ورغم أن شرعيته قامت كذلك على أساس محاربة الرق، لاسيما العربي، فقد تم استغلال هذه التجارة

والاستفادة منها، وحتى بعد إلغائها استعيض عن الرق بالعمل القسري الذي لا يختلف عنه في المضمون وكان وفقاً لوصف أحد المؤرخين وريثه الشرعي الذي أصبح قانوناً في سنة 1892 وتم بموجبه الإسهام في بناء الطرق وتجهيزات المستعمرين وصيانتها وقطع الأشجار والحمل المضني، وكان ذلك من صور الأعمال الوحشية التي ارتكبها الأوروبيون نتيجة "الجهل وعدم التبصر وسوء النية والاعتقاد الراسخ بتفوق العرق الأبيض" والإرادة الواعية بتبرير اللجوء المنظم للقهر والعنف ضد الأفارقة باسم مقتضيات "التقدم" التي أنتجت نظاماً وليس مجرد تجاوزات معزولة، وكان الهدف هو احتلال البلاد وجمع المطاط والعاج، وقد "وجد الأفارقة أنفسهم مجبرين على مجموعة من القيود، عمل قسري وحمل وأعمال سخرة وتقديم مؤن وضرائب ورسوم، التي يجر عليهم عدم التقيد بها رداً سريعاً من المركز الإداري أو الوكالة التجارية الأكثر قرباً، واقتضى ذلك جهاز قمع ضخماً تكوّن أساساً من جنود أفارقة من خارج الكونغو تحت سيطرة أوروبية لاسيما بلجيكية، وقد ارتكب هذا الجهاز الكثير من الجرائم التي جُمع وصفها من شهادات عديدة، منها ما تحدث عن وضع مجموعة من الأهالي في شبكة وربطها بحجارة ثقيلة وقذفهم جميعاً في النهر، وعن قطع الرءوس، وارتكاب المجازر قبل قطع أيدي الجثث ورميها في الأنهار لتكون الأيدي شاهداً على وقوع العقاب "بالمذنبين"، وعن الجلد مرتين يومياً حتى مائة جلدة وترك المتهم في الشمس أو قتله للعبرة، وعن سكب الصمغ على رأس السجين قبل إشعال النار فيه لتأمل المعذب وهو يموت ببطء، وعن اغتصاب الأطفال، وعن إجبار الشباب على القتل أو اغتصاب أمهاتهم وأخواتهم، وعن تفشي الاعتقالات واحتجاز الرهائن دون تمييز، وذلك كله في سبيل جمع المطاط حتى "أصبح الكونغو نوعاً من نظام اعتقالي واسع يؤلف التعسف فيه القاعدة"، وقد تسبب المطاط كما يقول السكان الأصليون بمصائب كبيرة ولهذا لم يعودوا يرغبون في سماع اسمه، وأصبح الكونغو نموذجاً ومرجعاً للمستعمرات المحيطة بما فيه من نظام اقتصادي قائم على النهب الواسع والقمع العام مما سبب الآلام للسكان المحليين، بالإضافة

إلى أرباح هائلة جناها المستعمِرون[215].



كان العاج واحد من الثروات الضخمة التي سعى الملك ليوبولد للإفادة منها وكان مصدر الدخل الرئيس لمستعمرة الكونغو في ثمانينيات القرن التاسع عشر[216]، وفي سبيل الحصول عليه أطلقت كثير من الشعارات الإنسانية لتغطية الطمع والجشع الاستعماري كالعادة دائماً

وقد خلدت معاناة الإفريقي في رواية قلب الظلام لجوزيف كونراد الذي تحدث عن كون حضارة التنوير قد قادت إلى كابوس الإبادة، ورغم كل ذلك فقد حصل الملك ليوبولد على ثناء أنصار إلغاء العبودية واكتسبت أعماله شعبية وجمهوراً من المخدوعين بالخطاب الإنساني[217]، وأصبح على إفريقيا "القديمة المتخلفة المتوحشة الفقيرة" أن تنحني باحترام أمام إفريقيا القادمة، وكان من صور هذا "التطور" بل رمزه الأسمى بناء سكة حديد الكونغو التي تكلفت بعض مراحلها كثيراً من الضحايا حتى سرى قول بأن كل عارضة خشبية في السكة تكلفت حياة بشرية، هذا بالإضافة إلى عملية الجمع الوحشية للعمالة[218]، وتناقصت أعداد السكان المحليين نتيجة ذلك ونتيجة سوء التغذية والأوبئة أيضاً[219]، وبمرور الزمن أصبحت

---

(215) نفس المرجع، ص747-759.
- Robert Aldrich, pp. 228, 231.

(216) Robert Aldrich, p. 233.

(217) مارك فرو، ص454.

(218) Robert Aldrich, pp. 227, 229.

(219) نفس المرجع، ص235.

التكاليف الباهظة لعملية "التقدم" أكثر وضوحاً من السابق وظهرت حملة مضادة للملك ليوبولد في بريطانيا وبقية أوروبا والولايات المتحدة[220]، لاسيما بعدما قام القنصل البريطاني في ميناء بوما (عاصمة الكونغو آنذاك وتقع على نهر الكونغو قريباً من المحيط الأطلسي) بعملية تحقيق بدءاً من سنة 1903 [221] وكشفت فظائع الاستعمار البلجيكي الليوبولدي ونشرتها في الدول المنافسة لاسيما بريطانيا وفرنسا وأصبحت هذه الإدانة بمثابة تكفير عن جرائم بقية المستعمرين، وأصبحت بلجيكا هي كبش الفداء الذي مسح خطاياهم[222]، أما في بلجيكا نفسها فقد نزعت ملكية المستعمرة من الملك نفسه سنة 1908 وألحقتها بها لتصبح مستعمرة نموذجية دون الالتفات للنقد الأجنبي واتخذت سياسة تكذيب ما نسب إليها من جرائم رداً على تلك الانتقادات[223]، وهذا ما يشير إلى وجوب تنويع المصادر عند الحديث عن آثار الاستعمار وعدم الاقتصار على مصادر الدولة الاستعمارية (ككتاب مصر الحديثة للورد كرومر الطافح بالثناء على الذات) لفهم واقع الاستعمار وهو ما يمكن إلقاء الضوء عليه من مؤلفات الدول المنافسة كما حدث في الحالة البلجيكية، وقد تعاملت بقية الدول الاستعمارية مع إلحاق الكونغو ببلجيكا وفقاً لمصالح المنافسة وتقاسم المصالح.

وكان من التغيرات التي طرأت على الكونغو بعد تحولها إلى مستعمرة بلجيكية لا مستعمرة شخصية للملك، تحولها إلى التعدين حيث اكتشف الذهب، بالإضافة إلى الألماس والنحاس وزيت النخيل، وتوافد الأمريكيون للحصول على المطاط، وتزايدت الاستثمارات في المواصلات والتعدين، ونشأ تحالف بين الرأسمالية العالمية وقطاع الأعمال البلجيكي ومراكز الهيمنة على الموارد المحلية، وظلت عملية اتخاذ القرارات مقصورة على الرجل الأبيض، وحصر التعليم كما مر ذكره في الحاجات الاستعمارية كالتحضير

(220) مارك فرو، ص454-455.

(221) Robert Aldrich, pp. 229-230.

(222) نفس المرجع، ص232.

(223) نفس المرجع، ص233.

لسوق العمل بأسس القراءة والكتابة والتدريب المهني واحترام أخلاقيات العمل، ولم تفد برامج الإنعاش الصحي في زيادة عدد السكان المحليين مرة أخرى بعد التراجع الذي أصابه، ولما قامت الحرب الكبرى الثانية زود الكونغو الحلفاء باليورانيوم والمنجنيز والقصدير والمطاط، وشعر السكان المحليون أنهم عانوا من الحرمان الاقتصادي بسبب حرب أجنبية جمع الرأسماليون أرباحها رغم مواصلة بلجيكا سياسة النمو الاقتصادي، ولم يقابل ميثاق الأطلسي عند إعلانه سنة 1941 عن أهداف الحلفاء التحررية بعد الحرب الكبرى إلا بحماس محدود في الكونغو، وبعدما وضعت خطة تطوير عشرية سنة 1949 كانت نتائجها مختلطة، أما برنامج التطوير الاقتصادي فكان استثمار الشركات الكبرى الثروات الطائلة في البلاد كالمطاط والقطن والكاكاو والأرز والنحاس والذهب والماس والقصدير وغير ذلك [224] (على غرار "الاستثمارات" الغربية الاستغلالية في الثروات النفطية في البلاد العربية في نفس الفترة)، وأما البرنامج الاجتماعي "الناجح" والذي تضمن تطوير المساعدات الطبية والتزويد بمياه الشرب في أنحاء البلاد فقد ظلت إلى جانبه معضلة الهوة في الدخل بين الرأسمالية المرتبطة بالاستعمار والعمالة المحلية وهو ما سيتسبب في عدم الاستقرار الخطير، وعلى الصعيد السياسي ظل السكان المحليون بلا تمثيل رغم قسط من الحريات التي سببها جو المنافسة الدولية بين الإمبراطوريات الاستعمارية الآفلة والإمبراطوريات الكبرى الناهضة، وذلك كما رأى الأهالي المشهد، وقبل يوم الاستقلال في 30/ 6/ 1960 اندلعت ثورة أدت إلى خروج السكان الأوروبيين من الكونغو بشكل مفاجئ وصف بالمثير[225]، وظلت الأصابع الدولية تحرك الأحداث واندلعت حرب أهلية امتدت خمس سنوات[226] ولم تهدأ البلاد حتى في زمن حكم موبوتو سيسيسيكو الطويل.

---

(224) د. عبد الوهاب الكيالي، ج 3 ص14-15.

(225) Robert Aldrich, pp. 233-237.

(226) د. عبد الوهاب الكيالي، ج 3 ص17.

ويعود بعض المؤرخين للمساواة بين جرائم الداخل الإفريقي وجرائم الخارج الأوروبي، وبين وحشية الإفريقي ووحشية الأوروبي، ووضع كل ما سبق على قدم المساواة في إنهاك القارة[227]، وهذا ليس صحيحاً لأن وحشية الداخل وجرائم الأفارقة لم تكن لتؤدي إلى ذلك الاستنزاف التي عانته القارة لولا الحضور الأوروبي الذي أعطى لسلبيات الإفريقي مجالاً واسعاً للعمل، فلو اقتصر الرق في إفريقيا على استرقاق الأفارقة بعضهم بعضاً لما أدى ذلك إلى خسارة عشرات الملايين حين شجعت تجارة الرقيق الأوروبية الممارسات الإفريقية السابقة، تماماً كما أن صراعات السكان الأصليين في أمريكا لم تكن لتؤدي إلى الإبادة لو لم يتدخل التطفل الأوروبي ويوسع مجالها ويمنحها أبعاداً كارثية.

11 - البرتغال: استعمار الاستعمار

لم يحل الاستعمار بالمستعمرات من العالم الثالث وحدها، بل وجدنا أن الاستعمار يحل أحياناً بالبلاد الاستعمارية الأوروبية فتنشأ ظاهرة الاستعمار المركب كما فعلت بريطانيا بالبرتغال بما يؤكد تنوع الظاهرة الاستعمارية وكونها غير محددة بشكل خاص من الاستغلال.

بنيت العلاقات الإنجليزية البرتغالية كما يقول هاري ماجدوف على النموذج الذي صمم ريكاردو وفقه فكرة التجارة الحرة التي تحقق الازدهار لطرفيها اللذين يتخصص كل منهما بصناعة ما تسمح به موارده التي تمنحه مزايا مقارنة بغيره ويحصل بهذه الطريقة على المال الذي يسد به احتياجاته الأخرى، وبهذا كان من المفترض أن تركز البرتغال رساميلها على إنتاج النبيذ وتركز إنجلترا على صناعة النسيج حتى لو كان بإمكان البرتغال إنتاج نسيج أفضل فإنها تمتنع عن ذلك وتهتم بالنبيذ لتحقيق أفضليتها في هذا المجال، مما يثبت التفوق الحتمي للتجارة الحرة بين الطرفين كما تصور صاحب النظرية.

---

(227) Robert Aldrich, pp. 230-231.

كانت الثغرة التي وجدت هنا أن مزية إنجلترا لم تكن في الموارد الطبيعية بقدر ما كانت في قوة أسطولها الذي لم تستطع البرتغال المحافظة على امبراطوريتها دونه، فبعد هزيمتها أمام إسبانيا سنة 1580 لمدة ستين عاماً احتاجت البرتغال إلى المساعدة الإنجليزية للحفاظ على الاستقلال والامبراطورية، واستغلت إنجلترا الوضع واستفادت من الموانئ البرتغالية في المستعمرات لإقامة امبراطوريتها الخاصة والسيطرة على البحر المتوسط والممرات البحرية جنوب المحيط الأطلسي وفرضت في الفترة بين 1642-1703 معاهدات التجارة الحرة على البرتغال والتي أسست التقسيم الدولي للعمل مما جعلها تعتمد على بريطانيا اقتصادياً في سبيل المحافظة على الامبراطورية البرتغالية التي تفتقد الإمكانات العسكرية الملائمة، وقد أدت هذه المعاهدات إلى فتح البرتغال ومستعمراتها أمام السفن الإنجليزية ومنحت التجار الإنجليز امتيازات خاصة وفرضت على البرتغال شراء كل سفنها من إنجلترا.

وقد حصدت إنجلترا الكثير من الفوائد كالتجارة مع المستعمرات البرتغالية وتحديد الرسوم المفروضة على السلع الإنجليزية المستوردة ومنح إنجلترا احتكار تأجير السفن للبرتغال مما فتح أمام الإنجليز تجارة الرقيق الإفريقية وتجارة مستعمرات البرتغال في أمريكا وهو ما أدى إلى ازدهار صناعة السفن وفتح الأسواق أمامهم.

وقد عالجت شروط المعاهدات التي عقدتها إنجلترا مع البرتغال أهم المشاكل الإنجليزية في زمنها، فقد أزالت الحواجز الجمركية التي كانت البرتغال تفرضها لصالح صناعتها، فقضي على صناعة الملابس البرتغالية في مهدها، وتطورت الصناعة النسيجية الإنكليزية وتعززت قدرتها على التغلغل في أسواق أخرى، كما وفرت المعاهدات النبيذ البرتغالي لإنجلترا بعد احتدام المشاكل مع فرنسا والاضطرار للبحث عن بديل للنبيذ الفرنسي، فتدفقت الرساميل البرتغالية على زراعة العنب وصناعة النبيذ وانقطعت الاستثمارات الصناعية والزراعية في المجالات الأخرى، كما انصبت واردات البرتغال من ذهب البرازيل على إنجلترا لتسوية حسابات البرتغال

معها وأدى ذلك دوراً هاماً في التطور الاقتصادي اللاحق لبريطانيا، وفي غياب الصناعة السلعية البرتغالية عن الساحة زاد اعتماد البرتغال على بريطانيا ورغم ازدهار التجارة بين الطرفين فقد فاقت الواردات البريطانية إلى البرتغال كمية الصادرات البرتغالية إلى بريطانيا كثيراً، فساهمت التجارة البرتغالية وذهب البرتغال في تأسيس لندن بصفتها سوقاً لسبائك العالم وكان هذا التطور عاملاً هاماً في أن تصبح بريطانيا مصرفاً عالمياً ودولة رأسمالية رئيسة[228]، فيما تراجعت البرتغال إلى صف دول أوروبا الفقيرة، ويعلق أحد المراقبين بسخرية أن من حسن حظ بريطانيا أنه لم يوجد في الهند نظير لريكاردو ليقنع الإنجليز بأن عليهم الخضوع لقانون المزايا المقارنة ويتحولوا إلى الرعي والاعتماد على شراء بضائع الصناعات النسيجية الهندية، وذلك كما أقنع ريكاردو البرتغاليين بهذا القانون لصالح بلاده إنجلترا وتسبب في تراجعهم[229].

12 - سويسرا: الإفادة من الاستعمار دون استعمار

يبهر النموذج السويسري المسالم ملايين الناس حول العالم، ويتصورون سويسرا واحة بل جنة تتوسط صراعات البشر، ولم تتلوث بالاستعمار والحروب والدماء، ولكن هذه الصورة ليست دقيقة بل قائمة على الخيال أكثر من الواقع، نعم إن السويسريين لم يكن لهم مستعمرات "لكنهم كانوا يمتلكون حصة هامة في رأس المال "الشركة التجارية لغرب أفريقيا"، ولعبوا دوراً رئيساً في الأعمال المصرفية الإمبريالية، كما ظلوا بعيدين عن الحروب التي خاضها رأسماليون آخرون حتى يستطيعوا مواصلة التجارة مع كل من الطرفين، وبذلك يحصلون على الغلة الاستعمارية"[230].

(228) هاري ماجدوف، ص160-162.
(229) نفس المرجع، ص162-163.
(230) د. والتر رودني، ص278.

13 - ليبيريا : استعمار العبيد المحررين

ليبيريا دولة تقع في غرب إفريقيا أنشأتها الولايات المتحدة سنة 1820 لترحل إليها العبيد المحررين الذين لم تشأ أن تستوعبهم في أراضيها بسبب دوافع تتراوح بين الرغبة في "عودتهم" إلى وطنهم إفريقيا وعدم الرغبة في التعايش مع الملونين والاختلاط بهم على أرض واحدة، وكثيراً ما كان العبيد المختطَفون من غرب إفريقيا لا يصلون إلى الولايات المتحدة وتقوم سفن الحراسة "بإعادتهم" إلى ليبيريا بدلاً من مواطنهم الأصلية، المهم أن الدولة التي نشأت على أراضي ليبيريا كانت تابعة للنفوذ الأمريكي في مواجهة النفوذ البريطاني في سيراليون المجاورة (غرباً) والتي أنشأها الإنجليز بنفس الطريقة ولنفس الهدف، والنفوذ الفرنسي في ساحل العاج (شرقاً)، وقد أعلنت استقلالها سنة 1847، ويتضح الأثر الأمريكي في علم ليبيريا المشابه لعلم الولايات المتحدة ومن اسمها المشتق من كلمة ليبرتي أي الحرية ومن اسم عاصمتها مونروفيا الذي أطلق عليها تيمناً بالرئيس الأمريكي جيمس مونرو المؤيد لمشروع استيطان العبيد المحررين، ومن مؤسسات الحكم فيها والتي أنشئت على غرار المؤسسات الأمريكية، ومن انتشار العمارة الأمريكية والانضمام إلى الماسونية فيها، ومن سياستها الموالية للولايات المتحدة والتي اتضحت من دخولها الحربين الكبريين إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا، ومن تصويتها ضمن مجموعة المستعمرات الأمريكية لصالح قرار تقسيم فلسطين (1947) بعدما اتصل صاحب شركة فايرستون بالرئيس الليبيري بعد معارضته فكرة التقسيم وأخبره أن مناوأة القرار ستؤلف خطراً على استيراد أمريكا المطاط من بلاده، ويتضح الأثر الأمريكي كذلك من علاقات ليبيريا المميزة بالكيان الصهيوني خلافاً لبقية الدول الإفريقية، ومن التغلغل الأمريكي فيها وسيطرته على المالية الليبيرية بعد حصولها على القروض الأمريكية.

وبعد إنشائها حكمها الأفارقة الأمريكيون واحتكروا القطاعات السياسية والاقتصادية واستبعدوا السكان الأصليين من المواطنة إلى سنة 1904 وظلوا مهيمنين على البلاد إلى سنة 1980 رغم كونهم أقلية لا تتجاوز 5% من

مجموع السكان، وهناك مصادر تقلص الرقم إلى 3% فقط، ورغم أن هناك من يرى أن ليبيريا لم تعان من الاستعمار، وذلك لأن الجيوش الغربية لم تحتلها كبقية محيطها الإفريقي، فإن الأقلية الأمريكية التي حكمتها كانت استعماراً في حد ذاتها إذ حصدت في المناطق الساحلية معظم الفوائد الاقتصادية، وكان ذلك صورة من صور اتخاذ تحرير الرقيق ذريعة لممارسة أشكال جديدة وبشعة من الاستغلال الاستعماري، ولكن كل ذلك لم يعجب السكان الأصليين رغم الرابطة الإفريقية بين الطرفين واندلعت المقاومة منذ بداية الاستيطان وسالت كثير من الدماء إلى أن استولى السكان الأصليون على الحكم سنة 1980 ثم دخلت البلاد في حربين أهليتين طاحنتين 1989-1996 و1999-2003 نتج عنهما 250 ألف قتيل، ومليون لاجئ مشرد، وهي أرقام ضخمة نظراً لعدد سكان ليبيريا البالغ آنذاك 2,6 مليون نسمة تقريباً (1993).

وتزخر ليبيريا بالثروات ولكنها بلد فقير فقراً مركباً، بل تتميز هي وسيراليون التي تشبهها كثيراً في الظروف عمن حولهما في درجة الفقر، وثرواتها ومرافقها تحت سيطرة الأجانب أولاً، ثم تحت سيطرة سوء التوزيع بين الساحل حيث يعيش سلالة العبيد الأمريكيين المحررين، والداخل حيث السكان الأصليين، ولولا الهيمنة الأجنبية على ثروة ليبيريا باسم الباب المفتوح والتجارة الحرة لكان شعبها غنياً جداً، ومن المفارقات الواضحة لبناء البنية التحتية الذي شهدته ليبيريا مستعمرة العبيد أن أمريكا ارتبطت معها باتفاقية دفاع ومساعدة عسكرية لتكون قاعدة لنفوذها في المنطقة وبنت لها مطار العاصمة مونروفيا، ولأن ليبيريا تمتلك أكبر مزارع المطاط في العالم ومن أضخم خامات الحديد بالإضافة إلى الأخشاب والذهب والألماس كذلك فقد تهافتت الشركات الكبرى عليها وحصلت على امتيازات بمليارات الدولارات وبنت لها شبكة من طرق المواصلات والموانئ لتوصيل هذه الخامات إلى الخارج، كما ولدت الكهرباء اللازمة لمشاريع المطاط والحديد، وقد تربعت ليبيريا على عرش تسجيل أكبر أسطول بحري في العالم لمدة طويلة وأصبحت الآن في المرتبة الثانية بعد بنما ليُسر شروط

تسجيل السفن فيها وعدم فرض الضرائب وانخفاض شروط السلامة التي تشترطها مما يغري الشركات الكبرى برفع العلم الليبيري، وتحصل ليبيريا على أعلى نسبة من الاستثمارات الأجنبية في العالم، ولكن في مقابل كل ذلك، وفي مقابل كونها في زمن من أسرع الاقتصاديات نمواً في العالم وكانت لبرهة تلي اليابان مباشرة (!) نجد على أرض الواقع أن ليبيريا من أفقر الدول في العالم ومتوسط دخل الفرد فيها هو ثالث أدنى دخل في العالم ويعيش ما يقارب 85% من السكان تحت خط الفقر الدولي، وديونها ضخمة جداً تصل أضعاف الناتج المحلي الإجمالي وتمتلك عجزاً في الحساب الجاري وصل قريباً من 60% سنة 2008، وعانت من أسرع عمليات الهبوط الاقتصادي في التاريخ في أثناء حروبها الأهلية التي نتجت عن تركيبتها السكانية غير المتجانسة بفعل التدخل الأمريكي بتوطين العبيد المحررين فيها، ومن ضمن عقبات الاقتصاد الليبيري الافتقار إلى البنية التحتية والتي تخضع فيها للمصالح الخاصة ويؤدي ذلك إلى ارتفاع نفقات النقل رغم شبكة المواصلات آنفة الذكر، كما تعيش في عزلة عن محيطها وتفتقر إلى الصلات التجارية بمن حولها وترتبط في المقابل تجارياً بالولايات المتحدة والعالم الغربي وذيوله العربية والآسيوية، وتؤلف الدولرة، أو إحلال الدولار مكان العملة الوطنية، واحدة من عقبات التطور الاقتصادي في ليبيريا، ورغم إفادتها من المرافق التي بناها الأمريكيون لإحكام الاستغلال والتبعية فإن البلاد كان من الممكن أن تفيد أكثر كثيراً لو ظلت ثرواتها بأيدي أبنائها، وهذه هي الفكرة التي أشرت إليها فيما سبق عن قطع الغرب طرق التطور الحضاري على غيره من الشعوب (موسوعة ويكيبيديا العربية: ليبيريا 15/ 8/ 2014، والموسوعة البريطانية ط 1987 ج29 ص 885-887).

الباب الرابع

هل تعلم الاستعمار من أخطائه؟ وهل انتهت أضراره؟
وما هو دور آلية التصحيح الذاتي في الحضارة الغربية؟
وما هو دور الاستعمار الجديد؟
وهل يمكننا الوصول إلى التنمية في ظله؟

لقد نتجت الممارسات الاستعمارية من سعي الأقوياء في هذا العالم خلف مصالحهم الأنانية سواء المادية أو المعنوية، ومادامت الدوافع مغروسة في النفس البشرية دون ضوابط فيجب ألا نتوقع ارتقاء في المستويات السلوكية، نعم يمكننا أن نتوقع التغيير في الأساليب الإجرامية حسب سهولتها وعوائدها و"كفاءتها" ولكننا لا يمكننا أن نضع هالة أخلاقية غير موجودة حول الدروس القاسية التي تعلم أصحابها عدم تكرار أخطاء مكلفة، لأن المجرم قد يتعلم الابتعاد عن أحد حقول الإجرام بسبب صعوبة ارتياده وكلفته الباهظة، ويفضل ممارسة لون إجرامي آخر أكثر سهولة وكفاءة وربحاً من غيره، لاسيما مع التقدم التقني الذي يوفر الجهد في هذه المجالات، القتل بضغطة زر تطلق قنبلة ذرية "نظيفة" بدل معمعة السكاكين والسواطير الخطرة والقذرة، النهب الإلكتروني بدل تسلق جدران البيوت، والبنك الدولي بدل الجيوش الجرارة، وفي هذه الحالة لا يمكننا أن نقول إن المجرم أصبح ذا خلق بسبب إقلاعه عن الجريمة السابقة فكل ما في الأمر أنه يستفيد من تجاربه لنفسه وليس لصالح الآخرين، لتحسين الاستغلال وليس لسيادة الأخلاق.

نعم تعلم الاستعمار من أخطائه ولكن ليحسن أداءه في الاستغلال وليس ليحسن أحوال ضحاياه، وتلاءم مع الإمبريالية دون مستعمرات كما

سبق ذكره، ولهذا على دعاة فكرة تصحيح الغرب أخطاءه ذاتياً أن يحددوا لنا الوجهة التي يتم "تصحيح" الأخطاء إليها : هل هي في صالح البشرية المستغَلة أم في صالح الأقلية المستغِلة؟ هذا ما حدث في امتناع الولايات المتحدة مثلاً عن التدخلات العسكرية -إلى حد ما وليس مطلقاً- بعد الفشل المدوي في العراق، إذ لم يكن ذلك بسبب يقظة أخلاقية سمعنا عنها من قبل في تبرير الانسحاب من فيتنام فإذا بنا نفاجأ بالتدخل في العراق بعدها لمحو الآثار التي تركتها فيتنام في ضمير أمريكا ووصفها المبهورون بالدروس الأخلاقية فإذا بأصحاب الأخلاق يودون التخلص منها عن طريق العدوان على العراق، ولما حدث الفشل الجديد في العراق أُلبس أيضاً قناع الدرس الأخلاقي ولكن بفضيحة جديدة وهي عدم الإقلاع عن السياسة البغيضة في التطفل على الآخرين وتحريك الشرور ضدهم بهدف الحصول على المصالح الاستراتيجية لحضارة الغرب.

إن الدروس الأخلاقية باهظة الثمن، فهي تتطلب إدانة الماضي الذي قامت عليه شرعية الحاضر، ولهذا ليس من العجيب أن يرفض الغرب إلى اليوم تغيير جوهر سلوكه الاستعماري، فإضافة إلى المنافع المتأتية من هذا السلوك، فإنه مجبر على الدفاع عنه لأن إدانته تعني إدانة الماضي الذي شرع الحاضر "الديمقراطي العقلاني المتطور" الذي يُتباهى به، كما تعني وجوب تغيير السلوك الذي تم سابقاً، أي التخلي عن الديمقراطية العقلانية التي سببت مآسي الآخرين، والأمران مكلفان على الصعيدين النفعي المادي والنفسي المعنوي.

وحتى لو كان الأمر غير مكلف مادياً فهو قاس معنوياً، وهذا هو السبب الذي مازالت الولايات المتحدة لأجله تضطهد السكان الأصليين وتستبعدهم من منظومة رفاهيتها التي هي مستعدة لاستقبال الملايين من المهاجرين الأغراب واستيعابهم ولكنها غير مستعدة لاستيعاب عدد قليل جداً من الهنود الذين تبقوا من حروب الإبادة والسلب والتهجير، لأن تصحيح السلوك تجاه الهنود المعاصرين يقتضي إدانة الرموز التي أسبغت عليها الصفات الإلهية في التاريخ الأمريكي كحرب الاستقلال والدستور ووثيقة الحقوق والآباء الحجاج والآباء المؤسسين والمصير الجلي والتوسع الإقليمي والحرب الأهلية، وجميعها كانت رموزاً سلبية للهندي الأصلي

وإيجابية للمستوطن الأوروبي لأنها أفسحت له مجال البقاء على هذه الأرض على حساب صاحبها الذي تضرر، ومطالبة أحفاد المستوطنين اليوم بتعديل سلوكهم قد لا تكون مكلفة مادياً ولكنها مطالبة بسب الآلهة وتكفير الآباء وتسفيه الأحلام وتفريق الجماعة، وهو ما يجعل الإضرار هنا في سبيل المصالح مطابقاً للإضرار لأجل ذات الإضرار، ومازال المجتمع الأمريكي قادراً على التعاطي مع كثير من مشاكله أكثر من التعاطي مع تبعات اضطهاد السكان الأصليين في القرن التاسع عشر[1]، رغم بعد الزمن وتعاقب الأيام، ولعل هذا هو السر في أن انبثاق الوعي بنكبة السكان الأصليين لم يؤد إلى تغير السياسة الرسمية تجاه محمياتهم البائسة في الولايات المتحدة، وينطبق ذلك على معارضة الأغلبية الديمقراطية الأسترالية إنصاف السكان الأصليين أيضاً[2]، ورفض دفع هذا الثمن (أي إدانة الماضي اللازمة لتصحيح الحاضر) غير مقصور على القرشي زمن بزوغ الدعوة الإسلامية بل يشمل الأمريكي وآلهته التي قتلتنا، والفرنسي وثورته التي سحقتنا، والبريطاني واستعماره الذي استغلنا، وهكذا.

ولا يقارنن أحد تقديم الاعتذار لليهود بتقديم الاعتذار لغيرهم، إذ عندما يعتذر الغربيون لليهود فهو اعتذار داخلي ضمن مكونات حضارة يرونها واحدة أصبحت قائمة على تراث مشترك يهودي-مسيحي، كمن يعتذر لنفسه عن أخطاء يرى أنها أضرته في الماضي ليس لسبب أخلاقي بل هو نفعي، على الأقل في الحاضر، ولو كان الغربيون جادين في اعتذارهم عن محرقة اليهود، فلماذا لا يقدمون المواساة من جيبهم الخاص ويعطونهم قطعة من ألمانيا المذنبة أو بلاد الغرب التي أهملت استغاثاتهم زمن المحرقة وأقفلت أبوابها في وجوههم[3]، ولماذا يصاب الغرب بالرعب والهستيريا عندما يطالبه أحد (كما فعل الرئيس الإيراني السابق أحمدي نجاد) باستيعاب اليهود

---

(1) Grant Foreman, 1972, p. 5.

(2) مارك فرو، ص20 و101-108.

(3) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، بريطانيا وفلسطين 1945-1949: دراسة وثائقية، دار الشروق، 1986، ص23. =

داخل البلاد الغربية التي تظهر محبتهم والهيام بهم؟ وهو ما يعطي نبذة عن طبيعة الاعتذارات النفعية لاسيما وهي صادرة من مَواطن معاداة اليهود التقليدية التي تصر على تسخير الاعتذار لصالح الصهاينة الذين يخدمون الغرب بإبعاد الهجرة اليهودية عنه وبتقديم الخدمات الاستراتيجية في المشرق العربي للدول الكبرى، وهذا يختلف عمن يعتذر لغيره ويعوضه عن خسائره، ومن الأدلة على عدم تغير النفس البشرية أن الهندي الذي جرت المواجهة الأولى معه أصبح نموذجاً لجميع أعداء الغرب الذين لحقوا به، ولم يكن اليهودي الذي قُدمت الاعتذارات إليه هو النموذج المحتذى مع الآخرين بل كان الهندي المضطَهد هو النموذج الذي رُسم العالم الثالث وفقاً له: ابن الطبيعة الذي يمكن تلقينه الحضارة حسب متطلبات المستقبل الأمريكي[4]، وهو الذي إضافة لكونه بعيداً عن منظومة الاستيعاب في المجتمع الأمريكي، مازال مرصوداً لأي استغلال محتمل لو وجد في أرضه القاحلة أي مورد لم يكن متوقعاً في الماضي حينما تُركت هذه الأراضي له بصفتها غير مرغوبة لدى أي رجل أبيض، وعندما يغير السيد رأيه وينوي الاستيلاء عليها بسبب أي اكتشاف نفعي جديد لأية ثروة محتملة: نفط، يورانيوم، خطط لمشاريع جديدة... إلخ، تعود مشاعر العداء والتحفز والكراهية كما كانت أثناء حروب القرون الماضية ليتساءل أصحابها مستنكرين: هل نحن بصدد إعادة أمريكا للهنود؟ فأين هذا من تقديم الاعتذارات المفيدة لليهود؟ وأين عمل آلية التصحيح الذاتي في الحضارة الغربية؟

المهم في كل هذا الحديث وجوب عدم التعويل على حسنة يُتوقع أن يتصدق بها الاستعمار الغربي علينا، سواء كانت تقدماً مادياً أم اعتذاراً معنوياً، وقد أثبتت كل عمليات المعارضة الداخلية المتناقضة مع المصالح

= - دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص742-745.
- مايكل أورين، ص416 و433.
- دوجلاس ليتل، ص162 و176.

(4) ضياء الدين سردار وميريل وين ديفيز، لماذا يكره العالم أمريكا؟، مكتبة العبيكان، الرياض، 2005، ترجمة: معين الإمام، ص391.

المادية في الحضارة الغربية فشلها في إحداث أي تأثير لصالح الضحايا منذ معارضة الاستعمار قديماً والتي قدمت جميع الأدلة العقلية والإنسانية بل والنفعية على أضرار الاستعمار في كل خطوة خطاها حيث نعثر على آراء وخطب رائعة في تفنيد دعاواه[5]، ولكن للأسف دون أن تتمكن من لجمه، وكان التيار العدواني هو الغالب دائماً والتيار الإنساني هو الهامشي باستمرار[6]، وصولاً إلى معارضة العدوان على العراق حديثاً حين وقف الملايين في جميع أنحاء العالم ضد الإقدام عليه دون جدوى أيضاً بسبب المصالح الكبرى المتنفذة والمستفيدة، كما أثبتت تلك المعارضات فشلها في تغيير علاقات الاستغلال الدولي الحديثة رغم تغير أشكال هذا الاستغلال منذ عصر الاستعمار، ولكن مازالت نخبة البشرية تتمتع بمعظم الموارد في ظل عوز الأغلبية كما سيأتي، وبعد 500 سنة من بداية الهجوم الغربي على العالم سنة اكتشاف أمريكا (1492)، مازال "الغزو مستمراً"[7] كما يقول المفكر نعوم تشومسكي.

---

(5) واصف عبوشي، فلسطين قبل الضياع: قراءة جديدة في المصادر البريطانية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1985، ترجمة: علي الجرباوي، ص269-277.
- دكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص527-531.
- مارك فرو، ص623-655.
- موريس كروزيه، ج 6 ص213-214.
- مايكل أورين، ص301 .

- Francis Paul Prucha, p. 428.
- William J. Bennett, p. 243.
- David Reynolds, p. 111.

(6) موريس كروزيه، ج 6 ص214-216.
- مارك فرو، ص654.
- مايكل أورين، ص301.

- Gray Clayton Anderson, The Conquest of Texas: Ethnic Cleansing in the Promised Land 1820-1875, University of Oklahoma Press, Norman, 2005, p. 16.

(7) نعوم تشومسكي، سنة 501: الغزو مستمر، دار المدى للثقافة للنشر، دمشق، 1999، ترجمة: مي النبهان.

■ التنمية العربية والإسلامية على الطريقة الأمريكية في ظل الاستعمار الجديد

* مطالبات الغرب بالإصلاح والتنمية

يلاحظ المتتبع تفاصيل العلاقات بين الأنظمة العربية والإسلامية المعاصرة والولايات المتحدة كثرة المطالبات الأمريكية لهذه الأنظمة بتحقيق الإصلاح والسير على طريق التنمية(8)، ولكن سياسة الغرب عامة وقفت ضد صعود قوى محلية منذ زمن طويل، وتوثقت هذه السياسة باعتراف عميد السياسة الخارجية الأمريكية المعاصرة هنري كيسنجر في مقال كتبه وقال فيه "لمدة أكثر من نصف قرن، وجهت عدة أهداف أمنية السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط: منع أية قوة في المنطقة من الظهور والهيمنة، ضمان تدفق موارد الطاقة التي مازالت ضرورية لتشغيل الاقتصاد العالمي، ومحاولة القيام بدور الوسيط بين إسرائيل وجيرانها من أجل قيام سلام دائم" مقال بعنوان: "توجه جديد للتدخل" (صحيفة الواشنطن بوست 31/ 3/ 2012).



هنري كيسنجر عميد السياسة الخارجية الأمريكية منذ أكثر من أربعين عاماً يؤكد أن سياسة بلاده قامت على أساس منع ظهور أية قوة في المشرق.

فما هي التنمية التي تريدها الولايات المتحدة لبلادنا إذا كانت ضد التنمية التي توصلنا إلى حد القوة؟ وهل هذه الادعاءات الأمريكية مجرد ذر

---

(8) دوجلاس ليتل، ص333-384.

رماد في العيون أم أن لها معنى يريد الأمريكيون تحقيقه في بلادنا؟

❁ دوافع المطالبات المستمرة

إن المطالبات المستمرة بالتنمية والإصلاح ليست مقصورة على الولايات المتحدة، بل تشاركها فيها الدول الغربية عموماً وهي تعود بجذورها إلى أيام الهيمنة البريطانية بعد حصول دولنا على الاستقلال وبقائها في الفلك البريطاني، وكانت هذه التنمية جزءاً من محاولات الغرب الحثيثة لتحقيق الاستقرار[9] ومستوى من المعيشة يبعد شبح المد الشيوعي الذي كان الغربيون يرونه خلف جميع الأبواب، كما كانت وسيلة للحصول على استقرار المصالح الغربية في بلادنا، سواء المصالح النفطية أو العسكرية المتمثلة بالقواعد التي انتشرت في أقطار عديدة كانت تتلقى ثمن تأجيرها رغم استياء شعوبها، والمصالح السياسية المتمثلة في بقاء أنظمة موالية، والمصالح الاستراتيجية كقناة السويس هذا بالإضافة إلى استقرار الكيان الصهيوني الذي جثم على أنفاس شعوبنا بغير إرادة منها.

إن التنمية الاقتصادية والإصلاح السياسي كانا مطلوبين لتحقيق هذه المصالح التي أرادها الغرب من بلادنا رغماً عن إرادة أهاليها ولهذا كان الاستقرار شرطاً رئيساً للحصول عليها وعدم تعريضها للهزات العنيفة التي يمكن أن يغذيها العدو الشيوعي العملاق.

❁ قيود على التنمية والإصلاحات الجذرية

ولكن هذه التنمية كانت مقيدة بالنظام الإقليمي والدولي السائد وهو المحافظة على الأنظمة والحدود الموروثة من عهد الاستعمار، كما كانت مشروطة بعدم الوصول إلى حد الخروج عن بيت الطاعة الغربي وإلا تم تحجيمها وإعادتها إلى سابق عهدها، أي لم يكن مسموحاً لنا بتحقيق النهوض بوحدة تتجاوز هذه القيود والوصول إلى درجة تحدي النظام العالمي

---

(9) الدكتور علي محافظة، ص14و188و198.

الظالم الذي فرض علينا باسم الشرعية الدولية والذي لا يمكن لنا تحقيق تنمية حقيقية كالتي يريدها الكبار لأنفسهم إلا بتجاوزه، فجميع الدول الكبرى التي تسيطر على عالم اليوم تندمج في وحدات كبرى تحقق لها مجالاً تداولياً واسعاً أو كان-و مازال- لها إمبراطوريات رسمية وغير رسمية كالولايات المتحدة وكندا وروسيا وفرنسا وبريطانيا وبقية اتحاد أوروبا والصين، وكذلك القول في القوى الأخرى الأقل شأناً كالهند والبرازيل، وعموماً فإن التنمية الحقيقية تستلزم الاندماج الذي يوفر المتطلبات الرئيسة التي لا غنى عنها للنهوض الاقتصادي[10] وكل قصص النجاح خلاف المجالات الكبرى لها أسباب استثنائية كدعم تلقته من دول كبرى كانت هي جزءاً منها، أو قواعد لها، فازدهرت نتيجة هذا الارتباط ازدهاراً حصرياً لم تحصل عليه جاراتها المستعمرات المستغَلة التي تضم الغالبية العظمى من المستعمَرين والتي انتخب الاستعمار هذه القواعد من بينها، أو أنها حصلت على دعم استثنائي في ظروف الحرب الباردة أيضاً والخوف من شبح الشيوعية، وقد ضحت الولايات المتحدة في سبيل مساعدة هذه الجبهات ومواجهة المارد السوفييتي ببعض مصالحها الداخلية[11] مما لم يكن منهجها المتبع ولا يمكن وضعه إلا تحت بند الطوارئ التي انتفت الحاجة إليها اليوم بعد انهيار المعسكر الاشتراكي المنافس.

*** الصورة المثلى كما يريدها الغرب**

أي أن الاستقرار المطلوب غربيا والتنمية اللازمة له والإصلاح السياسي الذي ينادون به نظرياً لا تتعدى صورته المثلى في أحسن الأحوال بقاءنا شراذم متفرقة من الدول الصغيرة التي يضمن النظام العالمي الغربي وجودها واستمرار حالتها الضعيفة وتتعاقب عليها حكومات بظاهر ديمقراطي يتضمن الطقوس الديمقراطية دون تمثيل حقيقي لإرادة شعوبنا التي تتعارض

---

(10) الدكتور محمود الحمصي، خطط التنمية العربية واتجاهاتها التكاملية والتنافرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1980، ص71-72.

(11) أناتول ليفن، ص531.

جذرياً مع إرادة المهيمنين عليها بطبيعة الحال، وتكون هذه الحكومات قادرة على توفير مستوى من المعيشة يبعد شبح الثورة التي لا يطيق الغرب احتمالها لإمكان خروجها عن السيطرة، مستوى معيشة قادر على شراء ما أمكن من منتجات الغرب دون استيعاب حقيقي لتقنيتها بما يجعلنا منافساً في إنتاجها (وإلا سنُقصف لإعادتنا إلى عصر ما قبل الصناعة !) وتكون فيه موارد أصحاب الموارد المالية بيد الغرب إيداعاً وإدارة وإفادة ونقنع منها بما يجود به علينا من أرباح من حركة اقتصاده.

*** الإصلاح والتنمية ليسا على رأس أولويات الغرب**

ويلاحظ أنه حتى هذا النموذج النظري، أي هذه التنمية المحدودة والإصلاح الترقيعي اللذين طالبت الدول الكبرى لنا بها لم يكونا على رأس أولويات هذه الدول، فإذا وجد نظام يحقق للغرب مصالحه ولكنه ينتهك حقوق شعبه فإن الغرب يقدم المصالح العاجلة على الآجلة فيدعمه بلا تحفظ ويلغي أهمية الإصلاح السياسي من جداوله، سواء كان للنظام برنامج تنموي كنظام شاه إيران السابق الذي أرشده الغرب في جزئيات انتهاك حقوق الإنسان وساعده الأمريكيون والصهاينة على إنشاء استخبارات رهيبة[12] وكالوا له قوافي الثناء والمديح بلا حساب، أو كان نظاماً عتيقاً يفتقر إلى أدنى درجات التنمية المعاصرة كالنظام الإمامي اليمني السابق ومن على شاكلته[13]، وقد دعم الأمريكيون أنظمة استبدادية وقدموا لها المساعدات الوفيرة لأنها تحقق مصالحهم المادية الآنية رغم ما شاب معاملاتها مع شعوبها من عيوب كبرى هددت الاستقرار مثل نظام الرئيس المصري الراحل أنور السادات[14] ثم نظام الرئيس المخلوع حسني مبارك، حتى إذا حانت

---

(12) د.آمال السبكي، تاريخ إيران السياسي بين ثورتين(1906-1979)، العدد 250 من سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر 1999، ص188.

(13) الدكتور علي محافظة، ص238.

(14) سعد محيو، ص214.

لحظة الانفجار الشعبي تبرأت أمريكا من وكيلها ورأت في الثورة مناسبة للبكاء والعويل على الديمقراطية المهدورة وحقوق الإنسان المسفوحة ووجوب العمل السريع على تطبيق الإصلاحات السياسية التي طالما نصحت بها ولم يُسمع لها مع الأسف (!؟) ومن هنا يحدث الالتفاف على محاولات التغيير.

* مصير طاعة أوامر الإصلاح

ولكننا لم نكن على هذه الدرجة من "العصيان" ورفض الأوامر الآتية من جهة الغرب، فإذا كانت الأنظمة العربية والإسلامية قد استبدت زمناً طويلاً خلافاً للديمقراطية الغربية، فإنها كانت حائزة على التعاون بل الإعجاب الغربي، وكانت أكثر طاعة واتباعاً لإصلاحات الغرب في المجال الاقتصادي، إذ اتبعت كثير من البلاد العربية وجربت بالفعل، ولو مرغمة للحصول على المعونات والقروض، وصفات المصرف الدولي وصندوق النقد الدولي التي هيمنت على سياسات هذه الدول الاقتصادية، فهل حصلت على شيء من اللبن والعسل أو حتى على الحد الأدنى من مستوى المعيشة وهو مستوى الكفاف لمواطنيها الذي يبعدها عن شبح الثورة كما أرادت الدول الكبرى؟ إننا لسنا بحاجة إلى منجّم ليكشف لنا طالع هذه "الإصلاحات" ولا ليخبرنا عن مستقبل بلادنا معها لأن التجربة الملموسة والمعاينة عن قرب وواقع البلاد العربية التي لهثت خلف نصائح المؤسسات الاقتصادية الدولية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، ترينا واقعاً مريراً فقد "أصيب عدد ليس بالقليل من الدول العربية بالإرهاق والتعب من الالتزام بتنفيذ توصيات صندوق النقد الدولي حيث أن عمليات الإصلاح التي جاءت نتيجة لهذه التوصيات أدت إلى ظهور اتجاهات معارضة، وعواقب سياسية وخيمة، ومن ذلك على سبيل المثال أن قامت حكومة الأردن عام 1996 بإلغاء الدعم عن القمح في إطار برنامج الإصلاح الاقتصادي الذي قامت به تحت رعاية صندوق النقد الدولي مما أدى إلى تضاعف سعر رغيف الخبز إلى ثلاثة أضعاف وكانت النتيجة تفجير موجة من الشغب، والاضطرابات في منطقة جنوب الأردن قُتل فيها 5 أشخاص، وقد

شهدت اليمن أحداثا مماثلة عام 2005 عندما نفذت مشورة الصندوق، وقامت بإلغاء الدعم عن الوقود جزئياً، وأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً شديداً، وسادت أحداث الشغب والاضطرابات في الدولة التي نشأ عنها بعض الوفيات"[15] كما جاء في تقرير مركز معلومات البنك الذي يحاول التأثير في سياسات المؤسسات المالية الدولية لتعزيز العدالة بواسطة الاتصال بمؤسسات المجتمع المدني في الدول النامية، أي لم يقتصر الأمر على انعدام الاكتفاء الذاتي وانعدام الاعتماد على الذات وانعدام التصنيع والزراعة وانعدام التداول مع الأشقاء في مجال موحد بل وصل الأمر إلى انعدام رغيف الخبز فضلاً عن المستوى المعيشي المقبول.

* عبرة غزة التي لم تصبح سنغافورة

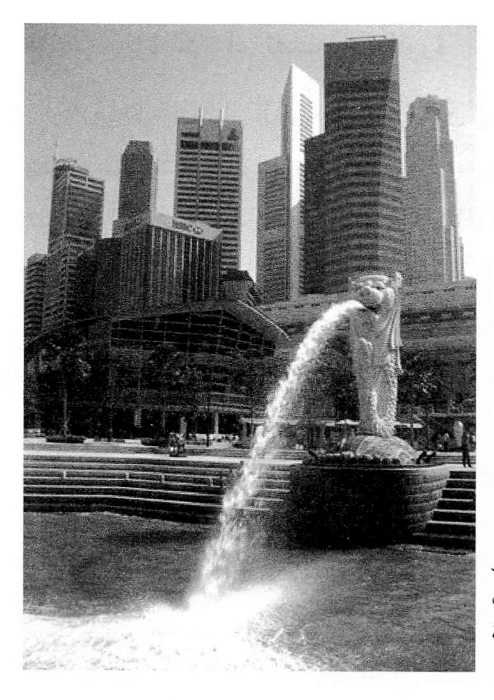
ويذكر الجيل الذي عاصر اتفاق أوسلو سنة 1993 كيف راج الحديث وقتها عن مستقبل زاهر ينتظر أراضي سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، التي قدمت أوراق اعتمادها كاملة للرضا الأمريكي، وكيف ستتحول غزة إلى سنغافورة* الشرق الأوسط، لتدور الأيام عليها ويظهر سيف الإصلاح ضد زعامة الرئيس الراحل ياسر عرفات عندما أريد الضغط عليه سياسياً لتحقيق مزيد من التنازلات للمصالح الصهيونية، مع أنه لم يغير أسلوب زعامته منذ أربعين عاماً كان التركيز الغربي أثناءها على محاولة إخضاعه سياسياً، فقط، لمطالب المشروع الأمريكي الصهيوني، ويكتشف الناس الذين حلقوا بأحلامهم في السماء أن فيها طائرات ستقصفهم بالفوسفور الأبيض وليس

---

(15) موقع مركز معلومات البنك على الإنترنت
http://www.bicusa.org/ar/Institution.8.aspx

(*) تمثل سنغافورة نموذجاً يسيطر على أحلام النخب الحاكمة في الدول النامية كما على رؤية المنظمات المالية الدولية، وهي رؤية تحلم بتحويل البلد كلها إلى "مجموعة من المحلات والسوبر ماركتات والفنادق والمصانع، وينظر الناس إلى أنفسهم لا كبشر، وإنما كوحدات إنتاجية استهلاكية" وذلك بإهمال التاريخ والذاكرة والتقاليد والقيم وكل ما لا علاقة له بالاقتصاد كما يقول المفكر الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، 2002، ج1ص245-246.

بالعسل الأبيض لتعلمهم أصول التنمية والشفافية والديمقراطية وحقوق الإنسانية (!)، وأتى على غزة من الأيام العجاف التي دمرت ما حصدته الأيام السمان من مطار وميناء ومؤسسات ما جعلها تكفر بكل وعود الثواب الأمريكي والجنة الغربية بعدما أصبحت بافتقادها أساسيات الحياة من كهرباء وماء نموذجاً صارخاً لحقيقة التقدم الذي وُعدنا به، لا منذ أيام أوسلو وحدها، ولكن منذ نشوء الصهيونية نفسها، هذا في الوقت الذي تحولت فيه المساعدات المالية الغربية إلى أداة واضحة للضغط على شعب فلسطين ليسير في ركب السياسات المرسومة له في مراكز اتخاذ القرار الأمريكي المسايرة للسياسة الصهيونية التي تريد ابتلاع فلسطين بأبخس الأثمان وأقصر الطرق.



في ظل التسلط الصهيوني والحصار المستمر والعدوان الدوري افتقدت غزة أساسيات الحياة اليومية فضلاً عن أن تصبح مرفهة كسنغافورة (الصورة) التي وعدونا بها.

* نتائج بيت الطاعة الغربي تكذب دعاة الخضوع العربي

وتجربة المساعدات لفلسطين تشبه تماماً المساعدات الأمريكية التي كانت أداة للضغط على شعب مصر لتحقيق المصالح الأمريكية والصهيونية

لمدة زادت عن ثلاثين عاماً بعيداً عن أي إصلاح سياسي حتى ولو ظاهري أو إنجاز اقتصادي حقيقي، وهذا هو أيضاً ما حدث مع معظم أنظمة الاستقلال والتجزئة التي استسلمت للغرب وخضعت له بشكل مطلق، أكثر مما ينصحنا به اليوم دعاة الواقعية التغريبية، وكان بعضها يقبض راتب استسلامه نقداً[16] فلم تجن بلادنا من طاعتها وإذعانها على مدى عشرات السنين سوى زيادة التبعية والتخلف والانقسام والفقر وسلب الحقوق، وذلك لسبب بسيط هو إدراك الغرب أن أي طريق آخر نسلكه أو يسلكه معنا سيؤدي إلى قيام عملاق في بلادنا[17] يزاحمه السيادة عليها، وهو ما لا تسمح به "المنفعة" التي يسير على هداها.

*** وشهد شاهد من أهل الإصلاحات أنها أدوات للمصالح الغربية**

ورغم وضوح العيوب وبروز الخلل وعدم الحاجة إلى اعتراف يوثق هذا الواقع الثابت، فإن الحصول على شهادة خطية من عقر المؤسسات المالية الدولية يؤكد لنا أن الضحايا ليسوا الوحيدين الذين لمسوا هذا الظلم، وهو ما يتبدى في شهادة "الاقتصادي الشهير والحائز جائزة نوبل جوزف إي. ستيغليتز" الذي "أمضى 7 سنوات في واشنطن حيث شهد ولادة السياسة الاقتصادية الشاملة كعضو في إدارة كلنتون ورئيس لمجلس المستشارين الاقتصاديين، وكالاقتصادي الأساسي في البنك الدولي" كما جاء في تعريفه في الكتاب-الشهادة الذي ألفه عن تجربته عموماً والتي لم تقتصر على بلادنا ولكنها تنطبق عليها كغيرها، وقد ترجمت طبعته العربية بعنوان: "خيبات العولمة"، مع أنه من المؤمنين بوجود نتائج إيجابية كثيرة للعولمة ولكنه يحذر من النقطة التي أهملها الغرب في خضم انهماكه الآني بتحصيل مصالحه المادية: "إذ أن كلفة عدم الاستقرار العالمي غالية

(16) أحمد الشقيري، المجلد الرابع (الكتب والدراسات القومية/ 2)، ص3244 (الجامعة العربية: كيف تكون جامعة وكيف تصبح عربية؟).

(17) منير شفيق، النظام الدولي الجديد وخيار المواجهة، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، تونس، 1992، نسخة على موقع الموقف على الإنترنت، ص70-73.

جدا"[18]، فقال في شهادته عن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي: "لقد أمست هاتان المؤسستان اليوم فاعلتين مهيمنتين في الاقتصاد العالمي، والبلدان التي تطلب مساعدتهما... عليها أن تتبع أوامرهما الاقتصادية، هذه التي تعكس إيديولوجيتهما ونظرياتهما بشأن السوق الحرة (التي تصدع الولايات المتحدة رءوسنا بها ليل نهار وتحثنا على تطبيقها دون أن تطبقها على نفسها!!).والنتيجة بالنسبة إلى كثير من الناس كانت الفقر، وبالنسبة إلى كثير من البلدان كانت الفوضى الاجتماعية والسياسية (لعلها فوضى خلاقة !!)، لقد ارتكب صندوق النقد الدولي أخطاء في جميع الميادين التي تدخل فيها: التنمية، ومعالجة الأزمات... إن خطط التصحيح البنيوي لم تجلب النمو القوي، حتى في الدول-بوليفيا مثلاً-التي انصاعت تماماً لتوصياته الصارمة.وفي كثير من البلدان أدى التقشف المفرط إلى خنق النمو"[19].

وعن ارتباطات المؤسسات المالية الدولية يقول: "وراء مشكلة صندوق النقد الدولي، وجميع المؤسسات الاقتصادية الدولية، توجد مشكلة أخرى: مشكلة قياداتها.فمن الذي يقرر ماذا تفعل؟إنها ليست واقعة فقط تحت هيمنة البلدان الصناعية الأغنى، ولكنها أيضاً خاضعة للمصالح التجارية والمالية لمن هم في داخلها... فالمؤسسات الدولية إذن لا تمثل الأمم التي تخدمها... إن سياسات المؤسسات الاقتصادية الدولية هي في أغلب الأحيان وثيقة الانسجام مع المصالح التجارية والمالية لتلك الأوساط المحددة في داخل البلدان الصناعية المتقدمة"[20]، تماماً كما صرح اللورد كرومر قبل ما يقارب القرن والنصف في مصر أنه يخدم مصالح الدائنين الذين يمثلهم، وليس مصالح من يحكمهم، كما سبق ذكره.

ويقول إن النوايا التي أنشأت مؤسسات اقتصادية دولية كانت نوايا

---

(18) جوزيف إ.ستيغليتز، خيبات العولمة، دار الفارابي، بيروت، 2003، ترجمة: ميشال كرم، ص43.

(19) نفس المرجع، ص39.

(20) نفس المرجع، ص40-41.

حسنة، لكنها "تبدلت تماما"في إطار "توافق واشنطن" وهو"التوافق بين صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ووزارة الخزانة الأمريكية حول السياسة الصالحة التي يجب أن تعتمدها البلدان النامية" وهو ما كان"انعطافاً جذرياً في مفهوم التنمية والاستقرار"[21]، وهذه السياسة ليست ناشئة من مجرد سوء الفهم المنطلق من حسن النوايا، لأنها أولاً تحرم الدول النامية اليوم مما مارسته الدول المتقدمة كالولايات المتحدة في تاريخها عندما قامت الدولة "بدور حيوي في توجيه تطور الاقتصاد"[22]وهي تطالب الدولة النامية اليوم برفع يدها وترك العمل ليد السوق وحدها، وثانياً أنها تطالب الدولة النامية برفع الحماية عن منتجاتها في الوقت الذي تحتفظ فيه الدول الغربية بالحواجز الجمركية، وهذا هو "النفاق"[23].

وعن تجليات هذه السياسات يقول: "إن خيبة العالم إزاء العولمة تحت رعاية صندوق النقد الدولي تتجلى حين يعاين فقراء أندونيسيا، أو المغرب... أن المعنيين يخفضون دعم أسعار المحروقات والمواد الغذائية، وحين يعاين الناس في تايلندا كيف ينتشر (مرض) السيدا (المميت) لأن صندوق النقد الدولي فرض تخفيض الإنفاق على الصحة، وحين... إلخ، إن العولمة كما جرى تطبيقها لم تأت بما وعد به أصحابها... فهي في بعض الحالات لم تأت حتى بالنمو، وحينما تمكنت من ذلك، فالنمو لم يفد الجميع.إن النتيجة الواضحة لسياسات "توافق واشنطن" كانت في أغلب الأحيان تأمين منافع لأقلية صغيرة على حساب الغالبية الكبرى، للأغنياء على حساب الفقراء.وفي حالات كثيرة تغلبت قيم ومصالح تجارية على الحرص على البيئة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية"[24]، ويجب أن نتذكر دائماً موقع هذا الشاهد في الاقتصاد الأمريكي والبنك الدولي.

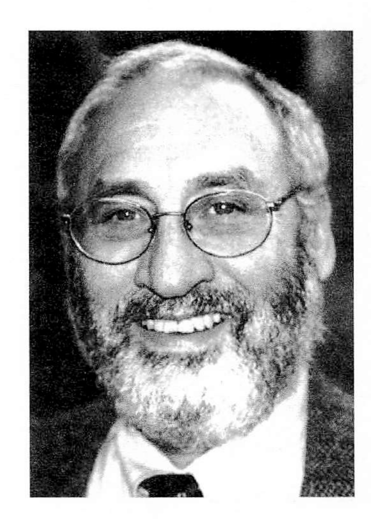
---

(21) نفس المرجع، ص37.

(22) نفس المرجع، ص42.

(23) نفس المرجع، ص28.

(24) نفس المرجع، ص41-42.



جوزيف ستيغليتز شهادة ضد
تنمية العولمة من موقع مسئول

*** عبرة ثورة الشاه البيضاء: فشل التنمية على الطريقة الأمريكية**

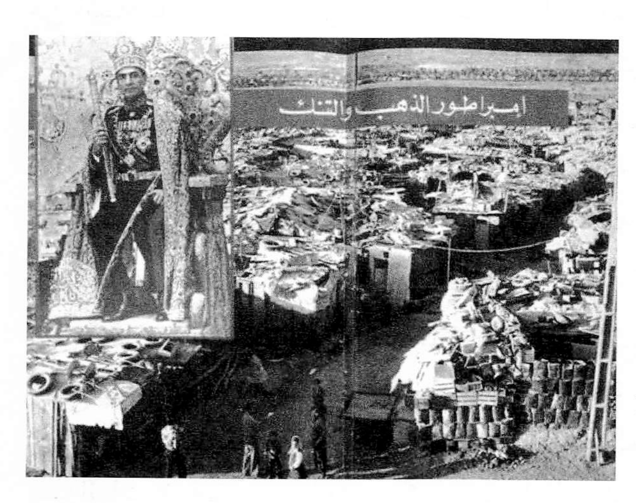
وتدل تجربة إيران الشاه على عبثية التنمية الموصى بها أمريكياً حتى عندما يكون للولايات المتحدة مصلحة حقيقية بالاستقرار حتى لا تتحول البلد إلى صين أخرى تنتصر فيها الثورة الشيوعية كما حدث في الصين سنة 1949 ولهذا "لم تضغط الولايات المتحدة بقوة من أجل الإصلاح والتحديث في أي مكان في الشرق الأوسط بعد 1945 كما كانت تضغط في إيران"[25]، وكان صناع القرار في واشنطن يعتقدون أن التحدي الأكبر لإيران هو التحديث الاقتصادي والإصلاح الزراعي، لأن "الإحباط واليأس يهددان الاستقرار الداخلي للبلاد على نحو خطير"[26] كما أكد خبراء البيت الأبيض، وكان أمل الشاه الوحيد بالبقاء هو القيام بإصلاحات جذرية وبخاصة بعد ثورة 1958 في العراق، فاشترطت عليه الولايات المتحدة إذا كان يريد استمرار مساعداتها أن يطبق برنامجها الإصلاحي الذي وافق عليه في بداية 1963 مطلقاً ثورته البيضاء التي لاقت الدعم الأمريكي لتجنب الانهيار الاجتماعي والحفاظ على إيران "متحررة من أي نفوذ أجنبي (!!)

---

(25) دوجلاس ليتل، ص366.

(26) نفس المرجع، ص368.

وذات حكم مستقر موال للغرب واقتصاد قادر على الاعتماد على نفسه"[27]، وحصل الشاه على القبول الأمريكي والملايين الأمريكية أيضاً، وأسرف الأمريكان في مدحه والثناء على إنجازاته التي قال فيها الرئيس لندون جونسون إنها إحدى النقاط القليلة المضيئة في سياسة الولايات المتحدة الخارجية وإن ما يحدث في إيران هو تقريباً أفضل ما يحدث في أي مكان في العالم، وأصبح الشاه "عمود الاستقرار" في المنطقة كما وصفه كيسنجر معدداً إنجازاته في توزيع الأراضي وحقوق المرأة والازدهار الاقتصادي، وشرب الرئيس نيكسون نخب خطواته التقدمية وكذلك فعل الرئيس كارتر من بعده والذي امتدح سعي الشاه الجريء نحو الديمقراطية (!!) في الوقت الذي شهد سفيره في طهران الثورة على صديقهم بسبب "الإحباط والظلم والفساد وأفق التوقعات المجهضة التي أثارها برنامج الشاه للتنمية الاقتصادية والإصلاح حسب النموذج الغربي منذ 1963"[28]، ولذا فإنه رغم ضغوط الإصلاح الأمريكية في إيران فإنها "لم تفشل فشلاً ذريعاً في ذلك مثلما فشلت هناك"[29] كما يقول المؤرخ الأمريكي دوجلاس ليتل[30]



صورة من مفارقات التنمية التي دعمتها الولايات المتحدة بشدة وإخلاص في سبيل الاستقرار (الصورة من: هنري موسى حاماتي، ملف القبس -2: سقوط الإمبراطورية الإيرانية، دار القبس للصحافة والطباعة والنشر، الكويت، إبريل 1980)

---

(27) نفس المرجع، ص373.

(28) نفس المرجع، ص388.

(29) نفس المرجع، ص366.

(30) معلومات الفقرة كلها من نفس المرجع، ص366-383.

هذه هي التنمية التي يريدها لنا الغرب عندما يكون له مصلحة فيها وهي استقرار بلادنا لمصالحه، وهو استقرار لم يحسن تشخيصه، فما بالنا بموقفه من التنمية الحقيقية التي تعبر عن تطلعات أجيالنا نحو النهضة التي يفترض أن تنزعنا من قبضته المحكمة وتعيد إلينا السيطرة على مواردنا وحسن استخدامها فيما ينفعنا من تعليم وإنتاج يجعلنا نعتمد على أنفسنا وفي غير حاجة للتبعية الاقتصادية لمنتجات الغرب وصناعاته؟

*** التخلي عن فلسطين شرط لتنميتها!**

منذ استيلاء الصهاينة على الجزء الأكبر من فلسطين وطرد سكانها سنة 1948 ليقيموا كيانهم الحضاري وينشروا المدنية في المنطقة دون أهلها (!!)، ظل المجتمع الدولي ممثلاً بمنظمة الأمم المتحدة يطالب السلطات الصهيونية بإعادة هؤلاء اللاجئين إلى وطنهم وشاركت الولايات المتحدة في هذه المطالبات انطلاقاً من الحرص على مصالحها واستقرارها في مواجهة التسلل السوفييتي[31]، والحقيقة أن القيادة الصهيونية كانت آنذاك أبعد نظراً من أسيادها الأمريكان فرفضت جميع طلبات العودة إلى أن بدأت القيادة الأمريكية تتراجع شيئاً فشيئاً وتتبنى الآراء الإسرائيلية "الواقعية والعملية" بشأن العودة حتى وصل الأمر اليوم إلى أن يتبنى الجانب العربي، بل الفلسطيني، "المخاوف" السكانية الصهيونية على الطبيعة اليهودية للديمقراطية الإسرائيلية فيقوم بتشذيب مطالبه لضمان عدم إثارة هذه المخاوف.

وكان من الخطوات التي اتخذتها الولايات المتحدة لتثبيت الأمر الذي أصبح واقعاً يناسب مصالحها، طرح مشاريع التنمية التي تهدف إلى استيعاب اللاجئين حيث يقيمون أو بتوزيعهم على البلاد العربية وفق برامج وعدت بميزانيات ضخمة ومساعدات كبيرة يسيل لها لعاب الإنسان الاقتصادي المجرد من الذاكرة والتاريخ والمبادئ والقيم في وقت لم تكن حقيقة التنمية

---

(31) دوجلاس ليتل، ص448.

التي جاءتنا من الغرب الأمريكي واضحة عند الجماهير العربية التي اكتوت بالخطط الاستعمارية البريطانية والفرنسية ولكنها لم تكن واقفة على حقيقة القادم الأمريكي الجديد التي تكشفت عنه مشاريع التنمية التي حملها إلى كثير من بلادنا والتي انتهت بالكوارث كما مر.

وبغض النظر عن هذه النهايات التي لم يكن مصير التنمية الفلسطينية سيصبح أفضل منها كما يؤكد ذلك مصير مشروع سنغافورة الفلسطينية ووضع الضفة الغربية المحتلة والمقطعة ومستنفدة الموارد اليوم، والتي جعلتها مشاريع التنمية التي أتت بها عملية السلام تابعة للاقتصاد الصهيوني وفاقدة متطلبات الاستقلال، فمن الملاحظ أن الشرط الأمريكي الرئيس لتطبيق برامج تنموية للفلسطينيين هو تخليهم عن وطنهم وقبولهم بالأوطان البديلة ليتمكنوا من الحصول على حياة البحبوحة الأمريكية التي صورت لهم في مشاريع تسوية عديدة لعل من أشهرها المشاريع التالية مع التنبيه على أنني لا أعدد مشاريع تسوية القضية الفلسطينية بل أعرض نماذج لاستخدام التنمية ثمناً لبيع الأوطان بصفته كاشفاً عن ملامح التنمية التي يريدها الغرب لنا:

1 - مشروع جونستون: في سنة 1953 كان من رأي جون فوستر دالاس وزير خارجية أيزنهاور أنه من الممكن توطين اللاجئين في أحواض الأنهار في البلاد العربية كنهر الأردن ونهري دجلة والفرات وسانده في ذلك رئيسه الذي كان مقتنعاً أن التنمية الاقتصادية هي المفتاح لحل مشكلة فلسطين[32]، وعين لهذه الغاية إريك جونستون بصفته مبعوثاً شخصياً لإقناع طرفي الصراع بالتعاون لاستثمار موارد نهر الأردن المائية بتمويل من الولايات المتحدة وصل إلى 66 مليون دولار لدعم خطة مين التي سار فيها الأمريكيون على نهجهم المعروف في تقديم وعود الرخاء بسخاء، بغض النظر عن النتائج الحقيقية، وتضمنت الخطة إقامة السدود والقنوات وعمليات تحويل مجاري المياه على روافد الأردن لتهيئة الظروف لاستيعاب لاجئي فلسطين في أراض بديلة وجر الاعتراف من الدول العربية بالكيان الصهيوني

(32) نفس المرجع، ص452.

بواسطة هذه المشاريع المشتركة ومساعدة الكيان على تهيئة الظروف في نفس الوقت لاستيعاب مزيد من المهاجرين الجدد[33]، مما يشير بوضوح إلى الثمن المطلوب منا دفعه مقابل وعود التنمية، وأركز على كلمة وعود لأن التجارب أظهرت لنا القيمة الحقيقية لهذه الوعود الغربية.

2 - مشروع ألفا سنة 1954: وهو مشروع أمريكي بريطاني مشترك نص على عودة بعض اللاجئين وتوطين غالبيتهم في الدول العربية المجاورة مع إغراء هذه الدول بصفقة تنمية وصلت إلى مليار دولار مع ضمانات أمنية لجميع الأطراف تقدمها الدولتان الكبيرتان، وقد قام الكيان الصهيوني بغارة على قطاع غزة في فبراير/ شباط/ فيفري سنة 1955 أدت إلى تعطيل المشروع[34].

3 - مشروع دالاس سنة 1955: فيما كان مشروع جونستون يواجه الفشل ومشروع ألفا يواجه التعطيل طرح وزير الخارجية الأمريكي دالاس على لجنة الشئون الخارجية في الكونجرس مشروعاً يتضمن عودة اللاجئين إلى وطنهم "إلى الحد الذي يكون ممكناً"[35]، وإعادة توطين الباقين في البلاد العربية التي لجئوا إليها ومساعدتهم على ذلك بمنحهم تعويضات بتمويل من الولايات المتحدة أساساً وبإقامة مشاريع استصلاح أراض وري وتنمية مائية وإيجاد فرص عمل وبناء مساكن وغير ذلك من الوعود التي لا تبخل أمريكا ببذلها في سبيل الوصول إلى مآربها واستقرار مصالحها، وقد استغلت في هذا الظرف أزمة الكيان الصهيوني المالية وحاجة الحكومة المصرية لدعمها لتحقيق الجلاء البريطاني، واشترط مشروع دالاس لتحقيق هذا الفردوس الأرضي شرطاً بسيطاً جداً هو قبول العرب حدوداً ثابتة ودائمة للكيان الصهيوني وتوقيع معاهدات تضمن ذلك، وبالطبع تنازُل اللاجئين عن

---

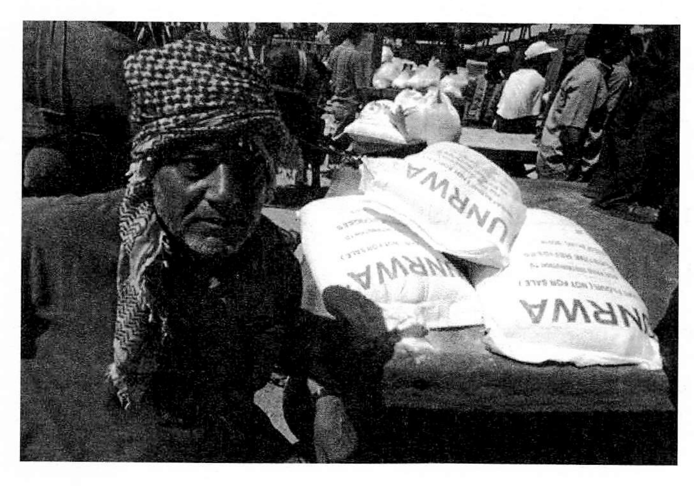
(33) الموسوعة الفلسطينية: القسم العام، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984، المجلد 1، ص152.

(34) دوجلاس ليتل، ص454.

(35) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد 2 ص393.

حقوقهم في وطنهم، فما أبسط الشروط الأمريكية وما أكرم وعودها!

وتتالت مشاريع أخرى تغدق وعود الرفاهية بإسراف وتعد بتدفق الأموال مثل مشروع إيدن (1955) ومشروع همرشولد (1959) ومشروع جوزيف جونسون (1962)، وكانت هذه المشاريع تنطلق من وجهة نظر اقتصادية حصرية وتعتقد أن اللاجئين سيكون لهم خيار آخر لو ارتفع تأثير "المتطرفين" عنهم إذ يمكنهم اختيار إعادة التوطين والتدفق على المصارف الأمريكية لو علموا بأن الولايات المتحدة ستدفع لهم الدولارات[36]، وقد برزت منذ ذلك الوقت المبكر عملية الضغط على المساعدات المقدمة لوكالة غوث اللاجئين لتكون سائرة في طريق إعادة إدماجهم في بلاد اللجوء وليس إبقاء مطالبهم بديارهم حية حتى العودة، وهي ضغوط مازلنا نسمع فحيحها إلى اليوم والسر فيها هو أن الدول الكبرى تريد من المدفوعات أن تكون مساهمة في طي مطالبة الفلسطيني بوطنه لا دافعاً لإبقائها حية.



مساعدات الدول الكبرى للاجئين تستهدف الحفاظ على هدوئهم إلى حين توطينهم وليس عودتهم.

ورغم كل هذه المبادرات لتوطين اللاجئين فإن الكيان الصهيوني كان يرفض أي مشروع يشير إلى تطبيق قرارات الأمم المتحدة أو يعطي اللاجئين

(36) دوجلاس ليتل، ص459.

حقاً ولو كان نظرياً باختيار العودة حتى لو سمح للصهاينة بحق النقض على أي لاجئ يتبين خطر عودته على كيانهم لأنهم ينكرون على ضحاياهم أي منفذ ولو كان ضيقاً قد يفتح لهم باب المطالبة بحقوقهم في المستقبل القريب أو البعيد، ولهذا احتج بن غوريون "بالغزو العربي" ليعلن أن جميع قرارات الأمم المتحدة بخصوص فلسطين أصبحت لاغية وباطلة[37] وذلك بعد أن نال الصهاينة مبتغاهم منها فأقاموا دولتهم وشرعوا وجودها، وهو أمر غاب عن المطالبين بهذه القرارات من جانبنا منذ ذلك الوقت ومازلنا ندور في الحلقة المفرغة للأمم المتحدة إلى يومنا هذا مع أنها ليست على جدول الطرف الآخر.

ولهذا كانت المساعدات الأمريكية للأراضي المحتلة سنة 1967 منذ البداية مساعدات سياسية إنسانية تهدف إلى جعل الحياة اليومية تحت سلطة الاحتلال مقبولة وجمع التأييد لعملية التفاوض التي تدعو الولايات المتحدة لها[38]، ثم أصبح الهدف بعد أوسلو عند الاتحاد الأوروبي، المانح الرئيس، دعم استمرار التفاوض والاستقرار بمفهومه الإغاثي المباشر وهذا بغض النظر عن شعارات طنانة عن فصل الاقتصاد الفلسطيني عن اقتصاد الاحتلال وتنميته تنمية حقيقية دائمة تعتمد على النفس[39]، وقد اعترف الاتحاد الأوروبي في ورقة الخطة للأعوام 2000-2006 بأن مساعداته لم تؤد إلى تحقيق التنمية التي تحشد التأييد الفلسطيني لعملية السلام[40]، وهذه نتيجة طبيعية لأن تنمية الأراضي الفلسطينية لم تكن يوماً هدفاً حقيقياً في ظل الالتزام الغربي عامة والأمريكي خاصة بالجدول الصهيوني الذي لا يسمح حتى بعلاقات الاستغلال الرأسمالي الحديثة القائمة على الهيمنة الاقتصادية بعيداً عن الاحتلال العسكري[41]، ومما ميز خطط المساعدات الغربية

---

(37) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد 1 ص332.

(38) خليل نخلة، أسطورة التنمية في فلسطين، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، 2004، تعريب: ألبرت أغازريان، ص39.

(39) نفس المرجع، ص169.

(40) نفس المرجع، ص130.

(41) نفس المرجع، ص87.

للفلسطينيين فوقيتها الاستشراقية التي تجنبت مشاركة أصحاب القضية في التخطيط لحياتهم ومارست الأبوية عليهم بنوايا سياسية أثرت تأثيراً مباشراً على نتائج الأفعال وحرمت الواقعين تحت الاحتلال من فرص التنمية المزعومة[42].

ورغم قناعة الأمريكيين بأهمية الاستقرار لمصالحهم، فإننا نجد أن المصالح الآنية مقدمة على الاستقرار بعيد المدى الذي يتطلب حلولاً معقدة، ونجد هنا أنفسنا مرة أخرى أمام معضلة الحلول السهلة على حساب استقرار المصالح الأمريكية نفسها التي طالما تعرضت للهزات نتيجة أنانيتها وضيق أفقها وبخاصة أننا نسمع الرئيس الأمريكي أوباما يقول بنفسه مخاطباً المسلمين من جامعة القاهرة: "إن التقدم في الحياة اليومية التي يعيشها الشعب الفلسطيني يجب أن يكون جزءاً من الطريق المؤدي إلى السلام، ويجب على إسرائيل أن تتخذ خطوات ملموسة لتحقيق مثل هذا التقدم"[43]، وإذا كان أوباما صادقاً في كلامه، حرصاً على استقرار مصالح بلاده بالطبع وليس على الحقوق والمبادئ، فإن السلوك الأمريكي كما يبدو يحجم عن خوض الصعاب حتى في سبيل هذا الاستقرار الكلي مادام قد حصل عليه مؤقتاً بالاستسلام العربي الرسمي، وهذا درس على المراهنين على "السلوك السلمي والحضاري" مع آلة الاحتلال الجبارة أن يعوه جيداً، وهو أن سلوكهم المتحضر هذا هو الذي يطيل أمد الاحتلال ومن ثم المعاناة لشعبهم لأنه يطمئن المحتل وراعيه على الاستقرار الذي يتطلعان إليه.

❊ وعود فارغة: التنمية مقابل التصدي للخطر الشيوعي

ومثلما وعدت فلسطين بالتنمية الزائفة مقابل تحقيق المصالح الأمريكية، نالت الدول العربية الأخرى نصيبها من هذه الوعود لتحقق هذه المصالح أيضاً، ومن ذلك:

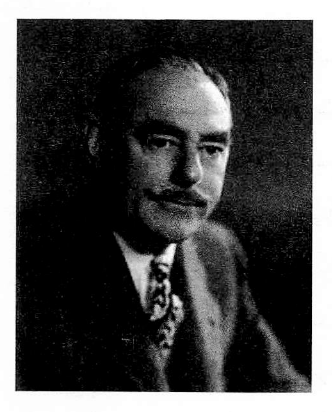
(42) نفس المرجع، ص27 و136-139.
(43) دوجلاس ليتل، ص720.

1 - برنامج النقطة الرابعة: برنامج النقطة الرابعة في بداية الخمسينات هو برنامج مساعدات فنية أمريكية لدول متخلفة تتبع السياسة الأمريكية كي لا تولي وجهها شطر الاتحاد السوفييتي حيث كانت شعوب رزحت زمناً تحت الوطأة القيصرية قد أخذت بأسباب الرقي في ظل الإدارة السوفييتية، وبني البرنامج على أساس خطاب للرئيس ترومان سنة 1947 جاء في النقطة الرابعة منه أن الدول الغنية عليها أن تتحمل مسئولياتها في مساعدة الدول الفقيرة، وشمل البرنامج قروضاً وهبات عينية ومساعدات مالية بهدف تعزيز النفوذ الأمريكي، ولكن وزير الخارجية الأمريكي آنذاك وضح مفهوم البرنامج في شهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس سنة 1950 حتى لا يساء فهمه: "أحسب أن هناك فكرة شائعة تذهب إلى أننا سوف ننشئ مصانع كبيرة ومناجم لتلك الشعوب المتخلفة اقتصادياً، فأنا أعلن ههنا أن ذلك غير صحيح"، وقد علق العالم الاقتصادي الأمريكي فيكتور بيرلو على كلام الوزير بالقول إن الفكرة كانت شائعة كثيراً لأن المسئولين الأمريكيين ظلوا طوال عام بكامله يروجون أسطورة أن الولايات المتحدة عازمة على أن تنهض بعبء برنامج تطويري أصيل، "ثم ما الذي يبقى من هذا البرنامج إذا استبعدت المساعدة في ميدان التصنيع؟"[44]، وهذا نموذج لما وصفته فيما سبق بتفضيل المصالح المادية الآنية على حساب متطلبات الاستقرار الحقيقي الذي تتطلبه المصالح الأمريكية في أي مكان، كما أنه تأكيد على كون "التنمية الاستعمارية" ليست محكومة بمنطق الخيرية وأنها موظفة لمصالح من يقومون بها كما كان دأب الاستعمار القديم.

ومن البلاد التي نالت مساعدات جمة ضمن هذا البرنامج المملكة الأردنية التي ينبئ حالها الاقتصادي المأزوم منذ ذلك الزمن عن فاعلية المساعدة التنموية الأمريكية التي كان لها تأثير سياسي على الأردن أكثر من تأثيرها الاقتصادي إذ أدخلت النفوذ الأمريكي إلى المملكة التي كانت حكراً

(44) فيكتور بيرلو وألبرت إ. كان، أعمدة الاستعمار الأمريكي ومصرع الديموقراطية في العالم الجديد، دار العلم للملايين، بيروت، 1980، تعريب: منير البعلبكي، ص58.

على بريطانيا، وربطت سياساتها بدوامة الحرب الباردة إلى جانب الغرب الأمريكي[45] الذي دفع الملايين لجيوب المستبدين حتى إذا سقط الواحد منهم اعتذر الأمريكيون عما سببوه لنا من خطأ بسيط في الإيتيكيت (!!)



دين آتشيسون وزير خارجية أمريكا (1949-1953) أوضح بأن التنمية التي تريد أمريكا تقديمها ليست برنامجاً تطويرياً وفق أحلام الدول الفقيرة، فإذا كان هذا في عهد الاستعمار الجديد، فكيف يمكن عزو البرامج التطويرية للاستعمار القديم السافر؟

2 - مشروع أيزنهاور: وكما استخدمت الولايات المتحدة وعود التنمية للحصول على تنازل اللاجئين عن ديارهم، استخدمت نفس الوعود مع البلاد العربية لتتنازل عن همومها الحقيقية وتتبنى هموم الغرب ومصالحه في ديارها، وقد عبرت عن ذلك رسمياً في مبدأ أيزنهاور وهو المشروع الذي طرحه الرئيس الأمريكي سنة 1957 بهدف ملء الفراغ الذي تركته القوى الاستعمارية الغربية في مواجهة احتمالات الغزو الشيوعي المباشر أو غير المباشر لمنطقة الشرق العربي الإسلامي، ورغم اعترافه بوجود مشكلات أخرى في المنطقة مثل مشكلة فلسطين ومستقبل اللاجئين وعلاقات الكيان الصهيوني مع الدول العربية ومستقبل قناة السويس، فإنه حاول حرف الرؤية لتتركز على خطر شيوعي موهوم ليحشد الجهود ضده، وحتى العدوان الثلاثي الذي كانت الدماء لم تجف منه بعد، جعله المشروع الأمريكي أمراً ليس ذا بال إذا قيس بخطر الهجوم الشيوعي المرتقب[46].

---

(45) الدكتورة سهيلا سليمان الشلبي، العلاقات الأردنية-البريطانية 1951-1967، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص167.

(46) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد 1 ص334.

وقد عرض المشروع على بلاد الشرق مغريات في مقابل تجاهل همومها، ومطالبتها بالإحساس بمشاعر سيدها الغربي بالخطر الشيوعي وإهمال شعورها بالخطر الصهيوني الجاثم فعلا على صدورها، وتضمنت هذه المغريات شقين: وعود بمساعدات للتنمية الاقتصادية، ووعود بمساعدات بل تدخلات عسكرية ضد العدوان الشيوعي الذي يطرق الأبواب (!!)، وقد بينت الأحداث أن هذه الوعود قدمت مصالح من بذلها على مصالح من صدقها في المساعدات العسكرية حين فصلت التدخلات على مقاس المصالح الأمريكية حتى على حساب من استنجد بهم سواء أثناء التدخل في لبنان سنة 1958 أو الإحجام عن التدخل في الأردن في نفس العام، ولهذا قال من قال آنذاك إن حسابات أمريكا تتضمن الحلول محل الاستعمار البريطاني والفرنسي القديم كما تتضمن مواجهة النفوذ الشيوعي الجديد، أما في التنمية الاقتصادية فإنه بمجرد النظر نعرف حقيقتها من الأوضاع الاقتصادية التي سادت آنذاك في البلاد التي أعلنت موافقتها على مشروع أيزنهاور وهي ليبيا والمغرب وتونس والعراق والأردن وإيران وتركيا وباكستان والتي لم تتحول إحداها إلى جنة التنمية الموعودة في الوقت الذي أدت فيه خدمات جلية كانت تقبض أثمانها من المستفيدين في الغرب الذي يأتي اليوم ليعبر عن "أسفه" لأنه دعم استبداديات عاتية دهراً طويلاً كما فعل أوباما في جامعة القاهرة عندما ذرف دموع البصل على تجربة مصدق الديمقراطية التي أطاحت بها أمريكا وبريطانيا، وكأن كل ما فعله الغربيون في هذا التاريخ الحافل بالقمع الدموي هو الدوس على طرف ثوبنا الذي يمكننا تنظيفه وإصلاحه بسهولة.

* قتل العراق من أجل إنقاذه وتنميته

القتل في سبيل الإنقاذ مفارقة شاع التعبير عنها زمن الحرب الأمريكية في فيتنام حيث كانت المجازر تبرر بالقول إنها وقعت ضد قرى في سبيل "إنقاذها"، ومنذ ذلك الوقت أصبح القتل للإنقاذ علامة من علامات الحضارة الأمريكية.

وفيما يتعلق بالعراق فإنه ليس من السهل إنكار إنجازات الدولة العراقية -قبل العدوان الأمريكي- في مجالات الإعمار والصحة والتعليم والتصنيع والزراعة حتى في زمن الحصار القاتل الذي انعدم نظيره في التاريخ ومع ذلك فشل في تحقيق أهداف الغرب حتى بات العراق وهو مكبل همّاً يؤرق عمالقة الدول الكبرى التي ارتكبت أبشع الجرائم وهي فخورة بها كما بدا من تبرير وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت لقتل نصف مليون طفل عراقي من أجل المصالح الأمريكية التي كلف حصارها على العراق من القتلى أكثر من "الذين قُتلوا بما يسمى أسلحة الدمار الشامل على مر التاريخ" باعتراف بعض الصقور-بل الوحوش-من المحللين العسكريين الأمريكيين[47]، ثم رفعت هذه الدول المعتدية ألوية ثبت كذبها لزرع الديمقراطية والحرية والتعددية... إلخ بالعنف والقوة وإنقاذه فيما زعموا من استبداد عات تقودهم في ذلك المعتقدات الأيديولوجية التي بشروا العالم بتراجعها كذباً وزوراً[48]، وقد وعدوا أثناء زحفهم بإعادة إعمار ما ستدمره حربهم الكاسحة وجعل العراق نموذجاً يُحتذى ولكن عدوانهم أثبت جدواه في شيء واحد هو جعل العراق نموذجاً للدمار والخراب وانتهاك الحقوق، فقد تبددت كل الوعود بعدما حققت الجيوش الغازية هدفها بتغيير النظام ثم اكتشفت أنها علقت في مستنقع أغرقتها فيه المقاومة الباسلة وأصبح أكبر همها أن تفلت منه ناجية بأرواحها لا تلوي على ديمقراطية ولا تنمية ولا حرية، واحترق العراق في نفس الوقت في جحيم الدمار والقتل والسلب والنهب والانقسام والتخلف الذي مازال مشتعلاً حتى اليوم (2014) بعد رحيل قوات الاحتلال التي فشلت في إعادة إعمار ما خربته فضلاً عن السير به في طريق التنمية التي كان يسير فيها بخطوات جادة فيما سبق ثم وُعد بها على الورق في وثائق دستورية وقانونية لن نجد أعذب من عباراتها، في دليل صارخ على الهوة العميقة بين الأقوال والأفعال من جهة والنوايا الحقيقية

---

(47) نعوم شومسكي، النزعة "الإنسانية" العسكرية الجديدة، دار الآداب، بيروت، 2001، ترجمة: أيمن حنا حداد، ص106-107.

(48) الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور، ص33.

والأهداف المعلنة من جهة أخرى، ولو كانت الولايات المتحدة تضمر أدنى خير لمستقبل العراق لما شنت الحرب الشعواء على كوادره العلمية قتلاً وتهجيراً وتهديداً"[49]، وهو ما أصبح من الحديث المتواتر وخرج عن نطاق التداول داخل دوائر خاصة، مما ينفي الادعاءات المعلنة عن دكتاتورية النظام بصفتها سبباً لشن الحرب عليه ويضع الاستهداف الغربي عموماً والأمريكي على وجه خاص للمسيرة النهضوية العراقية في دائرة الاتهام بل الإدانة.

■ التنمية على طريقة أوباما: هل ظهر المهدي المنتظر وأشرقت الشمس من الغرب؟

في خطابه الموجه للعالم الإسلامي من جامعة القاهرة، قدم الرئيس الأمريكي الكثير من الكلام المعسول والوعود الخلابة، ولأول مرة في تاريخ جائزة نوبل يحصل شخص عليها لمجرد أقوال أطلقها في الهواء وقبل تنفيذها، ويمكننا أن نتخيل مثلاً أن يصرح مخترع أفّاق بأنه على وشك اختراع سفينة فضاء تسبق سرعة الضوء، وهو أمر عجزت عنه البشرية إلى الآن، فينال الجائزة قبل تنفيذ وعده، ويبدو أن سحر كلمات أوباما كان من هذا الوزن إذ لم يصدق العالم أن يخرج كل هذا الخير من الولايات المتحدة، وهذه إدانة واضحة لا لبس فيها لماضي أمريكا حتى من مانحي جائزة نوبل وهم غربيون أيضاً، فقد ألقى أوباما مواعظ عن وجوب احترام إرادة الشعوب حتى لو خالفت ما تريده أمريكا التي عليها ألا تفرض نظاماً معيناً على أحد لأنها لا تعرف ما يناسب الجميع، وألقى دروساً في التنمية الاقتصادية وعدم الاعتماد على ثروات باطن الأرض والاهتمام بالتعليم بدل ذلك، كما وعد بوقف استخدام التعذيب وبإغلاق سجن غوانتانامو وبوقف المستوطنات وبإقامة الدولة الفلسطينية وبالالتزام بمنع انتشار الأسلحة النووية... إلخ، وكان من ضمن وعوده ما يتعلق بالتنمية الاقتصادية كمساعدة

(49) نواف الزرو، إبادة منهجية ضد الثروة العلمية العراقية، مقال على موقع التجديد العربي على الإنترنت، 9/ 7/ 2012، قضايا ومناقشات.

العراق على تحقيقها بصفة شريك لا راعي وتقديم المليارات لباكستان وأفغانستان لبناء المدارس والطرق والمستشفيات والمؤسسات التجارية وتوفير خدمات يعتمد عليها الشعب، ووقف الاهتمام الحصري بالنفط والغاز في الشرق العربي الإسلامي ومد هذا الاهتمام إلى التعليم وتأسيس هيئة تطوعية من رجال الأعمال وتأسيس صندوق لدعم التنمية والتطور التقني في البلاد الإسلامية وافتتاح مركز للتفوق العلمي في آسيا وإفريقيا وإرسال وفود للتعاون في برامج تنموية، وغير ذلك من الوعود التي ظن الناس معها أن المهدي قد ظهر وأن الشمس ستشرق من الغرب ونسوا بأن هذه الأحداث من أدلة اختلال نظام الطبيعة واقتراب نهاية الزمان وأن تبدل الطبيعة الأمريكية هي من هذا الباب، ولهذا لم يخيب الرئيس الأمريكي ظنون الكثيرين "الذين تراودهم الشكوك حول قدرتنا على استهلال هذه البداية... الذين يتشككون ببساطة في إمكانية تحقيق التغيير الحقيقي"[50]، فحقق لهم مرادهم ولم ينفذ شيئاً من الوعود الكبرى السابقة، ولم يشعر المواطن العادي في باكستان وأفغانستان إلا بوقع القنابل على رأسه، ولم ير أهل فلسطين إلا رئيساً أمريكياً أكثر صهيونية ممن سبقه حتى من المحافظين الجدد، ولم يأكل أبناء العالم الثالث المن والسلوى، وكل ما حدث أثبت أن أمريكا هي أمريكا ومن المستحيل أن تتغير.

*** خلاصة حديث تنمية الاستعمار الجديد**

إن الولايات المتحدة وغيرها من دول الغرب كانت تسعى للحفاظ على الاستقرار في بلادنا المهيمن عليها حتى تبقى بعيدة عن الاضطرابات المحلية المهددة للمصالح الغربية الاقتصادية، والنفطية منها خاصة، والسياسية والعسكرية والاستراتيجية بما فيها أمن الكيان الصهيوني، وبخاصة مع وجود عدو شيوعي مارد يستغل هذه الظروف لصالحه، ومن هنا نبعت الدعوات الغربية للإصلاحات السياسية والتنمية الاقتصادية لمنح الأهالي مستوى من

---

(50) دوجلاس ليتل، ص728.

المعيشة يبعدهم عن الثورة، ولكن هذه الدعوات كانت تخبو في مواجهة المصالح المادية كما أن تطبيقها عاد بالمشاكل على البلاد التي اتبعتها بشهادة من أعلى مستويات اتخاذ القرارات الاقتصادية في الغرب، وكل ذلك يؤكد أن سياسات التنمية والإصلاحات الغربية ليست سوى أداة من أدوات تحقيق المصالح الغربية التي لا تنطبق أو تتفق مع مصالحنا بالضرورة، حتى لو كانت "مخلصة" في مسعاها، وهذا ما يجب أن تعيه أية ثورة تريد تغيير الماضي الاستبدادي الذي عليها أن تدرك أن الغرب كان جزءاً رئيساً فيه، ونحن لسنا فئراناً لتجارب مصالحه السياسية التي لا نهاية لها والتي يكثر العثار فيها والاعتذار منها، إذ بعد كل فشل يسقطون فيه ويكلفنا الكثير من الخسائر يأتون لنا بفشل جديد مع أسف سمج على ما فات وكأننا خسرنا صندوقاً من البرتقال فقط من تطبيق جداول رغباتهم، في الوقت الذي عليهم أن يكفوا أيديهم عنا ويدَعوننا في حالنا ندبر أمورنا.



أوباما يعلن للمسلمين من جامعة القاهرة (مايو/أيار/ماي 2009) أنه سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ولكن إنجازاته لم تتعد الكلام وحده.

وقد استخدمت الولايات المتحدة وعود التنمية وأحلام المساعدات السخية لتحقيق مصالحها في البلاد العربية ولكن بعيداً عن إنجاز ما وعدت به هذه الدول من تطور اقتصادي، ومن ذلك وعودها بتنمية فلسطين التي كانت هجرة أهلها فيما يبدو شرطاً أمريكياً لتنميتها للصهاينة بمعزل عن أصحابها أولا ثم "تنمية" حياة أهلها بعيداً عنها فيما بعد، ومن هذه الوعود أيضاً ما بذل للابتعاد عن الاتحاد السوفييتي والتصدي لنفوذه وهو ما قبلته كثير من بلاد الشرق العربي الإسلامي وحققت لأمريكا والغرب أهدافها ولكنها لم تحصل على إنجاز للوعود التنموية التي بُذلت بسخاء ومع ذلك أوضح الأمريكيون أن مرادهم من التنمية لم يكن مطابقاً لأحلام الضعفاء، وليس هذا من العجيب لأن "التنمية الاستعمارية" لم تقصد يوماً تطوير المستعمَر، وليس من العجيب كذلك عدم إنجاز الوعود المقدمة على هزالها، أولاً لأن طبيعة المصالح الغربية في بلادنا تؤثر المنافع العاجلة والحلول السهلة ولو على حساب استقرارها في المستقبل، وهو أمر مستقر في الطبيعة البشرية التي تؤثر العاجل على الآجل والتي وجدت أفضل تقنين لهواها في فكرة المنفعة في الحضارة الغربية، ومن هنا كانت استحالة تغير الدولة الأولى الممثلة لهذه الحضارة وهي الولايات المتحدة رغم الأماني العذبة التي سحرت الدنيا بخداع أوباما، والسبب الثاني لعدم إنجاز وعود التنمية هو أن أحلام التنمية على النموذج الغربي مستحيلة التحقيق أصلاً كما سيأتي تفصيله فيما يلي إن شاء الله، وأفضل ما يمكن أن يعمله الغرب هو "عدم التدخل في شئون العالم الثالث بأي حال من الأحوال"[51] كما يقول المفكر الاقتصادي البارز سمير أمين.

---

(51) خليل نخلة، ص20.

■ خرافة أحلام التنمية على الطريقة الغربية في ظل الاستعمار الجديد

❊ عندما كان النموذج الغربي هو الطريق الوحيد إلى التنمية؟

ضمن رؤية الغرب القائمة على تفوقه على غيره والتي تعود إلى عصر الاستعمار والهيمنة، كانت النظريات الاقتصادية تؤكد أن للتطور طريقاً واحداً لا شريك له هو الطريق الذي اتبعه الغرب فوصل به إلى قمة الهرم البشري في التقدم، وحتى النظرية الماركسية التي سعت إلى إزالة الرأسمالية جعلت من نموذج التاريخ الأوروبي كما تصورته نموذجاً عالمياً على جميع المجتمعات أن تمر فيه-وربما تخضع لرأسماليته-قبل أن تصل النهاية السعيدة المنشودة التي أصبحت فيما بعد هي النموذج الرأسمالي في الاستهلاك، وأصبح المطروح أمام دول العالم الثالث التي خرجت من مرحلة الاستعمار طريقين هما في الحقيقة ترجمتان لنص غربي واحد يقيس التقدم بمقياس كمي[52].

وقد دعم انهيار المعسكر الاشتراكي الرؤية الرأسمالية التي أعلنت الوصول إلى النهاية السعيدة بانتصار الليبرالية طريقاً وحيداً للتقدم، ولكن التاريخ رفض إعلان نهايته فقدم حقائق دامغة على حيويته وتجدده مما جعل سدنة إعلان وفاته يرتدّون فيما بعد عن عقيدتهم[53]، وقد احتوى هذا النموذج الغربي في التطور على تناقضات جعلت تكراره مستحيلاً أو مدمراً وهو على كل حال ليس الفردوس الأرضي الموعود.

❊ هل حلت نهاية العقائد (الأيديولوجيا) كما يدعي الغرب؟

بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وتفكك الاتحاد السوفييتي حلا لأتباع الغرب بمدارسه المختلفة أن يعلنوا نهاية عصر العقائد، ولكن فضلاً عما في

(52) صوفي بيسيس، ص112-117.

(53) جيرار ديلودال، الفلسفة الأمريكية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ترجمة: د.جورج كتورة ود.إلهام الشعراني، ص19(من مقدمة المترجمين).

هذا الحكم من تجاوز يغض النظر عن العقائد الغربية التي اكتسحت العالم كفكرة صراع الحضارات وفكرة نهاية التاريخ ومعتقدات المحافظين الجدد الذي تسلموا الحكم في الولايات المتحدة زمن بوش الابن[54]، فإن كبير اقتصاديي البنك الدولي السابق جوزيف ستيغليتز يؤكد في شهادته "خيبات العولمة" أنه حتى في المجال الاقتصادي كانت العقائد هي المنطلق في سياسات المؤسسات الاقتصادية الأبرز في الغرب، وهي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، كسياسة التقشف وسياسة التخصيص وسياسة تحرير الأسواق، وهي سياسات سماها قانون الإيمان ذا البنود المقدسة، وهي تسمية أكدها باحثون آخرون[55]، كما وصف هذه المؤسسات ب"التعصب الأعمى" لهذه المعتقدات الصالحة في نظرها لكل مكان في العالم رغم الكوارث التي نتجت عنها[56]، والتي لا يُكتفى بصرف النظر عن إخفاقاتها بل تقوم هذه المؤسسات بمزيد من الدفع للاستمرار في تطبيقها[57] فيما يشبه تماماً التعصب الكهنوتي المخالف لحقائق الواقع، ويصف الظاهرة بقوله: "والأيديولوجيا تمثل موشوراً يُرى العالم من خلاله، مجموعة من المعتقدات التي يتشبث المرء بها بقوة تجعله لا يبحث عن تأكيد حسي لها، والبراهين التي تناقضها تُرفض باختصار"وهو ما ينطبق على صندوق النقد وأمثاله[58] إلى درجة وصلت إلى الإيمان بالعصمة الذاتية[59]، ولهذا فقد وصف باحث من العالم الثالث المؤسسات الاقتصادية الدولية بالكهنوت العالمي الذي يعتقد بعناد بعصمة عقيدته الواحدة المستمدة من مبادئ إجماع أو توافق واشنطن[60] (اتفاق بين وزارة الخزانة الأمريكية

(54) -الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور، ص33.
(55) صوفي بيسيس، ص206 و190.
(56) جوزيف إ. ستيغليتز، ص21 و36 و37 و58 و252.
(57) نفس المرجع، ص252.
(58) نفس المرجع، ص262.
(59) نفس المرجع، ص270.
(60) أزوالدو دي ريفيرو، خرافة التنمية: الاقتصادات غير القابلة للحياة في القرن الحادي والعشرين، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث(كلمة)، 2011، ترجمة: عمر سعيد الأيوبي، ص80.

وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي على السياسات الاقتصادية التي يجب أن تتبعها الدول النامية)، ولأجل ذلك لم تعترف بالأخطاء ولم تحاول استنباط أفكار جديدة[61] وذلك على عكس ما سمي آلية التصحيح الذاتي في الأنظمة الديمقراطية واتخذت دليلاً على مقدرتها على الاستمرار في النجاح، ولنا ألا نعجب من ذلك لأن الرأسمالية نفسها التي تعمل هذه المؤسسات وفقاً لقواعدها كانت منذ البداية عقيدة مستقلة وقائمة بذاتها، وقد وصفها الخبير الاقتصادي الراحل يوسف صايغ بالعقائدية في رده على من تخوف من هذه الصفة وألصقها بالتجارب الاشتراكية العربية ونسب إليها سبب فشل التنمية في الستينيات[62].

ولم تقتصر النوازع العقائدية على كل ما سبق، فقد استخدمت الولايات المتحدة، ومازالت، العقيدة الصهيونية، الغارقة في الاعتماد على أساطير الماضي الدينية المنافية للعقل العلماني الذي يدعيه الغربيون، في عملية تحقيق مصالحها في الشرق العرب الإسلامي بواسطة الاستيلاء على فلسطين وتنميتها دون أهلها، كما سبق ذكره.

* نفاق التغريب الاقتصادي

يطالب الغرب عموماً والولايات المتحدة خصوصاً دول العالم بتحرير التجارة وكف يد الدولة عن التدخل في الاقتصاد بصفة ذلك وصفة للنمو الاقتصادي والطريق نحو الازدهار[63]، وهذه وصفة لا تقتصر على إغفال تاريخ النمو الغربي إذ أدت الدولة دوراً محورياً في دعم الاقتصاد الوطني[64]، ولم تطبق بريطانيا تحرير التجارة وإزالة الحواجز الجمركية "إلا

(61) جوزيف ستيغليتز، ص154.

(62) الدكتور شاكر مصطفى(إعداد وإشراف)، أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي: وقائع ندوة الكويت ما بين 7-12 نيسان 1974 برعاية جمعية الخريجين وجامعة الكويت، التعليق على محاضرة الأستاذ برهان الدجاني(التخلف الاقتصادي وأبعاده الحضارية) بقلم الأستاذ يوسف صائغ، الطبعة الأولى، صيف 1975، ص520.

(63) أزوالدو دي ريفيرو، ص170.

(64) نفس المرجع، ص13 و79 و121.

بعد أن أعطتها فترة 150 عاماً من الحمائية أفضليات كبرى" جعلت من طرح بضائعها المتطورة والرخيصة خياراً مأموناً في مواجهة بضائع الآخرين، كما كانت الولايات المتحدة "متطرفة" في رفضها فكرة السوق الحرة، وبنت تطورها منذ البداية على ممارسة ضد تطبيق هذه الفكرة[65]، بل إن وصفة حرية التجارة ونظام السوق تنكر على الآخرين ما تشرعه لأصحابها اليوم[66]، فالدول الغربية التي ما انفكت تطالب بتحرير التجارة وإزالة الحماية الجمركية، تمارس هي اليوم هذه الحماية ضد صادرات العالم النامي التي تهدد صناعاتها ويشرع هذا الأمر بقوانين غريبة[67]، ويلاحظ المفكر نعوم تشومسكي أن معاقل التجارة الحرة في بريطانيا والولايات المتحدة وغيرهما لجأت إلى الحماية الجمركية في عشرينيات القرن العشرين ضد الصناعة اليابانية المتفوقة، وعادت أمريكا لنفس الممارسة في عهد الرئيس رونالد ريغان بعد نصف قرن، ولو أنها سمحت لفكرة التجارة الحرة وقوى السوق التي تقدسها في العلن أن تقوم بوظيفتها لما كان هناك صناعة فولاذ ولا سيارات في الولايات المتحدة اليوم[68]، ولا يتردد البنك الدولي مثلاً في انتهاك قواعد السوق الحرة وذلك حين يتدخل بالمليارات لإنقاذ المستثمرين والدائنين الدوليين في بلاد كإندونيسيا وتايلند ملقياً العبء على المواطن المحلي العادي، ولهذا ليس من العجيب ألا ينجز تحرير التجارة وعود الرخاء التي قطعها والتي لا يملك الضعفاء إلا تصديقها بل اعتناقها وإلا تعرضوا للنبذ الدولي، ومع ذلك لا تكون النتيجة إلا مزيداً من البطالة المتفشية والفقر الكارثي وزيادة البعد عن التحول إلى رأسماليات صناعية حديثة[69]، وهذه هي نتيجة التغريب الاقتصادي الذي لا يعامل الآخر-الذي صدعونا بدروسهم المملة عن قبوله-كما يعامل النفس[70] ولا يأمره بما هو

(65) نعوم تشومسكي، 1998، ص64.
(66) جوزيف ستيغليز، ص102.
(67) نفس المرجع، ص82 و206.
(68) نعوم تشومسكي، 1998، ص62-64.
(69) أزوالدو دي ريفيرو، ص76-79.
(70) صوفي بيسيس، ص201-202.

صالح له بل بما يحقق مصالح الغربيين وحدهم، وغاية التجارة الحرة لم تكن مساعدة البلاد المتخلفة في التنمية بل البحث عن الزبائن[71]، كما أن البلاد الوحيدة التي تمكنت من الهروب من التخلف هي البلدان التي مارست فيها الدولة تدخلاً لصالح رأسمالييها مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة وتايوان[72]، وهذه هي قصتنا مع التغريب عموماً منذ البداية، فلم نصب خيراً من اتباع أوامره يوماً.

وقد استخدمت دول الشمال الغنية إمكاناتها المالية الضخمة لدعم صادراتها إلى دول الجنوب المستورِدة بطرق تناقض ما ترضاه لأنفسها أيضاً، فقدمت لها معونات غذائية حولت متلقيها تدريجياً إلى الاستيراد المنتظم ومارست بتوسع سياسة الإغراق (أي بيع المنتجات بأقل من قيمتها في البلد المستورد) مما ترفضه الدول الكبرى داخل حدودها ولكنه يشجع إنتاجها عند ممارسته في الخارج ويضع العوائق أمام التنمية الزراعية للدول المستوردة، وكل ذلك باسم المعونة الإنسانية التي لو وزنت بهذا المعيار فإن الجانب الإنساني منها يكون جزءاً بسيطاً فقط من تلك المعونات الكبيرة "من أجل السلام"![73]

وبعدما قلّت أهمية المعونات الغذائية في نهاية الثمانينيات حل محلها الدعم المالي لأجل التصدير وهي ممارسة تلقى ترحيباً من الدول المتلقية ولكنها تترك آثاراً مدمرة على الإنتاج المحلي[74] ولعلنا نعاين هذه الآثار في البلاد العربية التي كانت سلالاً للغذاء فتحولت مع المعونات إلى أسيرات للدول الكبرى.

وفي الوقت الذي تطالب الرأسماليات الكبرى بحرية التجارة ورفع الحواجز أمام انتقال رؤوس الأموال حين يوافق مصالحها، فإنها تضع

---

(71) أزوالدو دي ريفيرو، ص66.

(72) نفس المرجع، ص81.

(73) صوفي بيسيس، ص206-208.

(74) نفس المرجع، ص208-210.

الحواجز المقننة أمام الهجرة بحثاً عن العمل، كما لا تسمح القوى الغربية الكبرى بانتقال التقنية بقوانين صارمة لحماية الملكية الفكرية[75]، أي أنها تفصّل حرية الساحة الاقتصادية العالمية على المقاس الضيق لمصالحها، وتتناسى مثلاً الدور المحوري الذي أدته الهجرة الحرة من قارة أوروبا في دخولها العالم المعاصر وذلك حين غادرها أكثر من ستين مليوناً من سكانها في غضون قرن تقريباً إلى قارات العالم دون تأشيرات دخول إليها مما أنزل عن كاهل الغرب عبئاً سكانياً ضخماً تحمل الآخرون وزره[76]، كما لم تقف في وجه التقدم الأوروبي عوائق الملكيات الفكرية، ولهذا علقت الباحثة صوفي بيسيس على هذه المفارقات بالقول إن سياسة فرض الليبرالية تسمح للقوى التجارية العظمى بإزالة العقبات التي تعيق التوسع في صادراتها إلى العالم وتمكنها من الاحتفاظ لأنفسها بإمكانية إجراء مناورات حمائية عندما لا تكون متأكدة من أن حرية التجارة مواتية لها تماماً[77].

❊ من أين جاء الضرر؟

يقول جوزيف ستيغليتز إن صندوق النقد الدولي لم يقصد قط أن يؤذي الفقراء وكان يظن أن سياسته ستكون في النهاية مفيدة لهم[78]، وربما نستطيع تعميم هذا الحكم على بقية المؤسسات الاقتصادية الغربية، ولكن من يقول إن الأخطاء البشرية ترتكب بنية الأذى نحو الآخرين؟ إننا لو بحثنا في كبرى الجرائم التاريخية سنجد أن فاعليها ادعوا أنها مفيدة لهم وللضحايا في نفس الوقت: الحروب الكبرى والاستعباد والعنصرية والاستعمار بل حتى الإبادة بررت أحياناً بإنقاذ الضحية أو بأنها ضرر غير مقصود حدث في سياق هدفه المنفعة العامة، "فمن النادر أن نرى في النقاش السياسي العلني،

(75) أزوالدو دي ريفيرو، ص13 و93.وأيضا:
- الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص294.

(76) صوفي بيسيس، ص237.

(77) نفس المرجع، ص211.

(78) جوزيف ستيغليتز، ص246.

أناساً يبررون مواقفهم صراحة بالحرص على مصالحهم الشخصية، فكل شيء يُعرض بكلام عن المصلحة العامة»[79] كما يقول بنفسه دون أن يصل إلى النهاية المنطقية بفضح الخطيئة في هذه الازدواجية التي لا تجهل نتائج أفعالها وتصر على غض النظر عن أخطائها كما سبق الاقتباس عنه.

مشكلة الإنسان منذ بدء الخليقة ليست تعمده الإضرار بغيره بلا سبب، فلا أحد يعتدي على غيره بلا مصلحة إلا المرضى وهؤلاء لا حكم لهم إلا عند الأطباء، معضلة الإنسان هي كيف يهذب أهواءه بطريقة تمنعها من العدوان حين تقتضيه مصالحه، وهنا يكون الفارق بين الصالح والطالح، وكما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري لا يكون الحكم على النازية في طوكيو مثلاً حيث تبدو مجرد فكرة تدافع عن حقوق الألمان وتراثهم، بل يكون الحكم عليها في البلاد التي اعتدت عليها حيث الإبادة والتشريد والاغتصاب والنهب والدمار وغير ذلك مما اقتضته المصالح كما شخصها هتلر، وكذلك لا يبرأ المؤسسات الاقتصادية الدولية أنها لم تنو الإضرار بالفقراء، فهدف النازية أيضاً لم يكن إحداث الضرر بل الوصول إلى المجتمع الألفي السعيد، وما يدينها أنها سعت لخدمة مصالح الآريين دون اهتمام بغير المصطفين عندها، وكذلك المؤسسات الاقتصادية الدولية حين ركزت الاهتمام على المصالح التجارية والمالية للأسرة المالية المكونة من أوساط محددة داخل الدول الصناعية المتقدمة كما يقول ستيغليتز نفسه، وغضت هذه المؤسسات النظر عن كل النتائج الوخيمة التي ترتبت على سياساتها الضارة بالفقراء وذلك استجابة لإيمانها بأولوية مصالح الدائنين[80]، والشر ليس أكثر من هذه الأنانية: إهمال الآخرين، أو جعل مصالحهم ملحقة، حين تدعو مصالح الذات لذلك.

والفرق بين الغرب وبقية الحضارات التي سبقته أنه شرع المنفعة وأعطاها أولوية شرعية على القيم والمثل، وذلك رغم كل مساحيق التجميل

---

(79) نفس المرجع، ص257-258.

(80) نفس المرجع، ص41 و246-247.

التي صورت الأمر بأنه المنفعة العامة فما استقر السلوك الاجتماعي عليه هو المنفعة الذاتية بلا رادع سوى القانون الذي لا يكون رادعاً في العلاقات الدولية وذلك لعدم توفر هيئة تنفيذية فوق الدول، فأصبح الإنسان فيه حراً طليقاً في "البحث عن السعادة" ولو على حساب أية قيمة أو مثل أعلى وهو ما كان في السابق من الأخطاء مهما تعمد الإنسان الانتهاك وغلا في العدوان إذ ظل الميزان سليماً يدين الهوى أما في حضارة الغرب فقد أصبح الهوى هو الميزان أي الخصم هو الحكم فمن أين يأتي رادع بعد ذلك خارج إطار عصا القانون عندما يغيب فرضه بالقوة كما يحدث على الساحة الدولية مثلاً؟

*** ماذا تبقى من الديمقراطية في ظل الأرستقراطية الاقتصادية الجديدة؟**

رغم الصراخ المستمر الذي يصم الآذان عن ضرورة الديمقراطية وحقوق الشعوب في المشاركة والرقابة على حكوماتها، فإن النظام الدولي الذي صنعه الغرب لم يبق شيئاً ملموساً من جوهر الديمقراطية التي اكتسحتنا جيوشه لفرضها علينا، فالشركات متعددة الجنسيات أصبحت تمتلك قوة متزايدة في تقرير مصير كثير من القضايا التي كانت حتى الأمس القريب من اختصاص الحكومات كقيمة العملة وأسعار الطاقة والغذاء والمواد الأولية، وبات الأشخاص المجهولون غير المنتخبين يتحكمون في مفاصل الحياة اليومية دون أية مسئولية عليهم سواء في زيادة البطالة أو تخريب البيئة أو دعم الأنظمة القمعية، ولم يعد المواطنون يؤثرون في إدارة شئونهم لأن حكوماتهم عاجزة عن التغيير بل إنها تعمل وكلاء لصالح هذه الشركات العملاقة[81]، ولهذا أطلق عليها الباحث البيروفي أزوالدو دي ريفيرو لقب الأرستقراطية العالمية الجديدة.

ويشير الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله إلى أن هذه الشركات عابرة القارات هي أهم آليات العولمة، ولكن لا يُشار إلى أن غالبيتها

---

(81) أزوالدو دي ريفيرو، ص56-71.

العظمى غربية الانتماء[82] ومعظمها أمريكية مركزها واشنطن، وعالميتها تعني انتشار فروعها في أنحاء العالم حيث ساحة عملها وليس هويتها[83]، ولهذا لم يكن من الغريب أن تتحول الحكومات الغربية إلى وكلاء عن هذه الشركات[84] رغم التزامها معايير الربح والمنفعة التي لا تؤدي دائماً إلى المصالح العامة لدولها[85]، مما يؤدي إلى اعتراض النقابات-التي ما تفتأ تعلن تضامنها مع عمال العالم-على إجراءات نقل مواقع العمل إلى بلدان العالم الثالث نقلاً يؤدي إلى رفع مستوى العمل فيها وتحمل هذه النقابات هذه البلدان مسئولية البطالة في بلدان الشمال الثرية[86] في الوقت الذي لا تدعم فيه الحقائق والإحصائيات هذه الدعوى[87]، هذا بالإضافة إلى أن تاريخ الغرب يؤكد أنه هو الذي حرم الآخرين من التصنيع حين فكك صناعات الصين والهند وغيرهما لصالح صناعاته وليس العكس هو الذي حدث أو يحدث، ومع ذلك يستنكر الغربيون أن يحدث لهم ما سبق أن فعلوه بالآخرين[88].

*** وماذا تبقى من بقية الديمقراطية في ظل ثيوقراطية الكهنوت الجديد؟**

مر فيما سبق أن المنظمات الاقتصادية الدولية تسير وفق سياسات عقائدية رأسمالية وتفرضها على الدول المدينة دون أن تتحمل مسئولية أمام أحد، ولهذا تقوم الحكومات المتخلفة بالخضوع لهذا الكهنوت-وفق تسمية دي ريفيرو-وتمرر سياساته التي تتحكم في حياة مواطنيها دون موافقتهم ودون تحقيق نتائج إيجابية أيضاً سوى الدمار الاجتماعي والفشل في

---

(82) صوفي بيسيس، ص259-260.
(83) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص294.
(84) أزوالدو دي ريفيرو، ص64
(85) نفس المرجع، ص67.
(86) صوفي بيسيس، ص263-264.
(87) نفس المرجع، 264-268.
(88) نفس المرجع، ص269.

التحديث[89]، وذلك رغم "الطاعة العمياء" التي تبديها هذه الحكومات، ولم تساعد هذه السياسات إلا في زيادة الطلب على منتجات الشركات متعددة الجنسيات[90]، فيما نراه تحالفاً جديداً بين الأرستقراطية والكهنوت العلمانيين الجديدين.

ويسلم جوزيف ستيغليتز بمناقضة هذا الوجه العولمي لمبادئ الديمقراطية عندما يفرض على الدول سياسات لم تخترها، ويشجع هذه الدول على رفض الانصياع بقوله إن البلدان التي رفضت مطالب صندوق النقد الدولي تمكنت من تحقيق نمو أسرع وإنه على الدول أن تقرر الحد الذي لا تقبل بعده بالخضوع لأسواق الرساميل الدولية التي تمثل الديكتاتورية المالية العالمية التي حلت محل النخب الديكتاتورية المحلية[91].

وتجمل الباحثة بيسيس توزيع السلطة في عالمنا المعاصر بين الدول العظمى وبعض دول الجنوب الناهض والشركات الكبرى عابرة القارات والمؤسسات المالية الدولية المهمة ثم تعيد معظم الأمر إلى الدول العظمى بالقول إنها هي التي أملت على المؤسسات المالية والتجارية السياسات المتبعة تجاه الجنوب الفقير في حقول الديون وحرية التجارة وغيرها[92].

■ التنمية على الطريقة الغربية حلم خرافي

في عالم اليوم يملك 20% من سكان العالم، وهم سكان الشمال الغني، أكثر من 80% من موارده، في الوقت الذي يملك 60% من سكان العالم، في الجنوب الفقير، 6% من هذه الموارد فقط، بل إن الخمس الأفقر من سكان العالم يمتلكون أقل من واحد ونصف في المائة من

(89) أزوالدو دي ريفيرو، ص121.
(90) نفس المرجع، ص71-77 و83 و95.
(91) جوزيف ستيغليتز، ص287 و291.
(92) صوفي بيسيس، ص277-278.

الموارد[93]، ومن الطبيعي أن يكون هذا النموذج الاستهلاكي الغربي غير قابل للتعميم على سكان الكرة الأرضية خلافاً لما تروجه وسائل الإعلام من أحلام مستحيلة إلا في حالة وجود عدة كواكب أخرى مماثلة لتزويدنا بموارد إضافية بالإضافة إلى كواكب أخرى للتخلص من النفايات[94]، وكان الاتحاد السوفييتي بكل إمكاناته الضخمة قد حاول اللحاق بمستوى الاستهلاك الغربي، في انحراف عن الفكر الاشتراكي، فكانت النتيجة أن استُنزفت إمكاناته ووصل إلى طريق مسدود انتهى بتفككه وزواله[95]، فكيف يكون الحال مع الدول الفقيرة التي دخلت هي الأخرى بالفعل في دوامة اللحاق بالنموذج الغربي الذي لم يكن أمامها بديل عنه فشجعها على خوض التجربة حزمة المعونات الضئيلة ثم الديون الضخمة التي حصلت عليها فلم تجن هي غير تخريب المصالح الذي أصاب ثلاثة أرباع العالم بالتبعية عن طريق هذه المعونات واستفحال الديون التي أدخلتها بدورها في برامج التكيف الهيكلي التي فرضت عليها إجراءات لا تقبل بها أية حكومة غربية لنفسها (مثل تخفيض ميزانيات الصحة والتعليم وإلغاء دعم المواد الاستهلاكية الأساسية من الغذاء والطاقة) واستفادت من هذه الإجراءات نخب محلية فاسدة في الوقت الذي كانت فيه هذه الديون تعود على الدائنين بمليارات تحوّل من البلاد الفقيرة رغم الزعم أنها لا تسدد ما عليها، كما كانت هذه البرامج التنموية "منجما من الفرص" للغرب سواء في مواقع العمل التي افتتحتها المعونات والديون التي صدّرت مشاريع لا جدوى منها للسكان المحليين

---

(93) روجيه غارودي، كيف نصنع المستقبل، دار عطية للنشر، بيروت، 1998، ص67، نقلا عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية.
- خليل نخلة، ص19، نقلا عن نفس المصدر:
- United Nations Development Program (UNDP), Human Development Report, New York: Oxford University Press, 1992.

(94) الدكتور عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006، ص39.

(95) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص142.
- روجيه غارودي، 1998، ص46.

على طريقة تسليم المفتاح[96]-أي بناء المشروع بخبرات أجنبية دون أن يكون له صلة بالمجتمع المحلي الذي يتسلمه جاهزاً للتشغيل دون استيعاب مكوناته-أو بشراء معدات عسكرية باهظة الأثمان أو بتعزيز الصادرات التي لم يعد لها مشتر في الغرب أو بسداد الديون التي استنزفت المدينين، وبالجملة فقد أهملت هذه المحاولات "المحاكاتية" تاريخ النموذج الغربي والظروف التي أحاطت بنشوئه (داخلياً حيث مرت فترات طويلة من التراكم الرأسمالي الذي دعمته تجارة وزراعة مزدهرتان وخارجياً حيث سيطر الغرب على العالم الذي امتص فائضه السكاني ووفر له ثروات طائلة من المواد الخام والأسواق والمواقع الهامة)، أي أن هذه المحاكاة اهتمت بترقيعات وإسقاطات لم تغير واقع التخلف وعززت التبعية للغرب وزادت من الهوة بين الشمال الغني والجنوب الفقير[97].

❊ ولو كانت التنمية الغربية ممكنة فهي نموذج مدمِّر

1 - لأنه نخبوي يشبع الأقلية الثرية ويغوي ثم يحبط الأكثرية المحرومة : إذ أننا نعيش على هذا الكوكب ولا نملك غيره، ولهذا فإن الرفاهية التي يتمتع بها خمس العالم تتحقق على حساب بقية السكان مما يؤدي إلى تهميشهم وإقصائهم، وأرقام الفقر في هذا المجال مخيفة كما مر، ومن تفاصيلها أنه في عام 2000 كان أكثر من مليار وربع من سكان العالم يعيشون دون مستوى خط الفقر المحدد بدولار يومياً، في الوقت الذي يملك فيه أقل من مليارين فقط من البشر البالغ عددهم آنذاك ستة مليارات نسمة وسائل استهلاك المنتجات والخدمات العالمية، هذا ونجد قريباً من ثلاثة مليارات من البشر لا يملكون سوى التفرج على واجهات المحلات إذ يعيشون بأقل من دولارين في اليوم، ويساوي دخلهم جميعا وهم يؤلفون

(96) الياس توما، التطورات الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي منذ سنة 1950: دراسة مقارنة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1987، ترجمة: عبد الوهاب الأمين، ص194.

(97) صوفي بيسيس، 176-194 و166-167.

45% من سكان الأرض دخل 300 ملياردير فقط في العالم[98]، أي أن الفقر هو القاعدة في عالم تسوده حضارة الغرب، حتى في البلاد التي يشار إلى إنجازاتها التنموية كالصين والهند والبرازيل فضلاً عما يسمى بالنمور الآسيوية الحديثة، إذ أن الزيادة في الناتج القومي الإجمالي لا تصنع شيئاً لتحسين مستوى معيشة غالبية السكان[99]، وقد قدر الفيلسوف الراحل روجيه غارودي نسبة المستفيدين من سكان دول المعجزات التنموية بما بين 2-3%[100]، وإذا كانت نقطة ضعف الاقتصاد الغربي المسيطر على العالم هي فقر العالم الثالث وعدم قدرته على الشراء، رغم سيطرة أحلام الثراء والاستهلاك على معظم فقرائه، فقد تلاءم هذا النظام معها لأنه لا يستهدف الوصول إلى جميع السكان في البلدان المتخلفة بل يقتصر على الأقليات ذات القدرة الشرائية، ومن بين مليار هندي مثلاً، يستهدف السوق الغربي الخمس الأغنى منهم القادر على دفع الثمن، وهو أمر كاف له حالياً، ويستمد هذا السوق قوة حضوره من شدة إغواء الاستهلاك الذي لا يبدي أحد من الأغنياء أو الفقراء في العالم نيته بالتخلي عنه أو عن الحلم به[101]، ولهذا يندفع الجميع نحو الوصول إلى مستويات عالية فيه رغم أن القلة هي التي تتمكن من ذلك فعلاً وربما كثيراً ما رأينا مظاهر الاختلال في أولويات الإنفاق عند الفقراء في سعيهم للوصول إلى هذه الجنة الحصرية مثل مشهد طفل حافي القدمين يحمل هاتفاً نقالاً أو بيت متداع يحمل سطحه عدداً كبيراً من الصحون اللاقطة، أو لاجئ فقد مأواه ويقوم بالتدخين، وإذا كان هذا الإغواء المؤدي إلى الشعور بالحرمان ومن ثم الاختلال الاجتماعي ضاراً بالاستقرار الذي يبحث الغرب عنه للوصول بأمان إلى مصالحه، فمؤسسات العولمة الغربية لا تبحث عن الاستقرار المؤدي إلى النمو ولا

---

(98) جوزيف ستيغليتز، ص47.

(99) أزوالدو دي ريفيرو، ص85-90 و78 و149.

(100) روجيه غارودي، نداء إلى الأحياء، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1981، ترجمة: الدكتور ذوقان قرقوط، ص18.

(101) أزوالدو دي ريفيرو، ص226.

تهتم بالرأسمال الاجتماعي وتتغلب فيها المصالح الخاصة على الأهداف الوطنية والعالمية باعتراف كبير اقتصاديي البنك الدولي سابقاً[102] رغم أن "النقمة التي تولدها هذه الأساليب هي أكبر بكثير من كل ما قد تعود به على الولايات المتحدة" كما يقول بنفسه من موقع خبرته[103]، وسيشير فيما بعد بمعالجة هذه "المشكلة الأساسية" بصفتها أفضل طريق للنمو كما سيأتي بعد قليل، ولكن زعماء الدول الكبرى ورؤساء الشركات متعددة الجنسيات والقائمين على المؤسسات الاقتصادية الدولية لا يشعرون بالتهديد الذي يمثله الفقر والاضطراب الاجتماعي لأنهم لا يشعرون بتأثيراتها التي يعاني منها معظم سكان العالم، ولهذا كان تشخيص الاستقرار المطلوب لا ينطبق مع النظرة بعيدة المدى ويفضل الانتقائية في تشخيص الأخطار حسب قربها من الغرب[104]، في الوقت الذي تزداد الفجوة بين الفقراء والأغنياء في العالم كله[105].

ومن مظاهر النخبوية في الحل الغربي أنه من بين أكثر من مائة وتسعين دولة في العالم لا يحقق شروط النمو الصناعي الحديث من بينها سوى أربعة وعشرين بلداً في مقدمتها الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي واليابان[106]، ومع أنها تحوي نسبة كبيرة من الفقراء يصل عددهم إلى مائة مليون، فإن الفقر في بقية دول العالم يزيد عن ذلك بأضعاف، ففي بداية التسعينيات كان معدل "الفقر" في أمريكا وبريطانيا واليابان، والمحسوب بدخل أقل من 14 دولاراً ونصف يومياً يصل إلى 10% من السكان، ومع ذلك الدخل المرتفع نسبيا فإن معدل الفقر في أمريكا اللاتينية وجنوب آسيا وإفريقيا، والذي يقل الدخل فيه كثيراً عن ذلك "الفقر" الغربي ويحسب بأقل من 1-2 دولار يومياً، يصل إلى أكثر من 35% من السكان[107]، فكيف إذا

(102) جوزيف ستيغليتز، ص202 و205 و209.
(103) نفس المرجع، ص84.
(104) أزوالدو دي ريفيرو، ص202-204.
(105) نفس المرجع، ص78.
(106) نفس المرجع، ص63 و142.
(107) أرقام مستقاة من نسب أوردتها صوفي بيسيس، ص189.

حسبنا من يقل دخله عن 14 دولاراً ونصف؟؟وما زالت الهوة تتسع بين الغنى والفقر، فمن تفاوت في الدخل قدر بنسبة 1: 30 في سنة 1960، أصبحت النسبة 1: 80 في نهاية القرن العشرين[108]، وقد عد الاقتصادي المعروف جوزيف ستيغليتز آنف الذكر، عدم المساواة السائد في اقتصاد الولايات المتحدة السبب الرئيس للضعف الكامن في البنية الاقتصادية المتمثل في قلة الطلب، والعامل الذي يعيق الاقتصاد ومعالجته هي "أفضل وسيلة لتعزيز فرص العمل اليوم والنمو الاقتصادي المستدام في المستقبل"[109].

2 - وعدواني: هذا الثمن الباهظ من التضحية البشرية ليس وحيداً، فقد بنى الغرب الأوروبي والأمريكي نموه على إبادة سكان ثلاث قارات هي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وأستراليا واستعباد سكان الرابعة وهي إفريقيا واستعمار الخامسة وهي آسيا وتدمير حضاراتها الصينية والهندية والإسلامية، وتحويل العالم إلى مجرد سوق للصناعات الغربية ومصدّر للمواد الأولية ومصدر للعمالة الرخيصة، ودون هذا الثمن الباهظ جداً ما كان للغربيين أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم من نمو ومستوى معيشة مرتفع مما جعل المفكر الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري ينفي مقولة التراكم الرأسمالي ويعدلها إلى التراكم الإمبريالي لأن رفاهية الغرب لم تأت من كده وحده بل بنيت على استغلال الآخرين وثرواتهم[110].

3 - وملوّث: ولم يقتصر الأمر على الثمن البشري الذي دفعه ويدفعه العالم نتيجة النموذج الغربي في النمو، لأن الثمن البيئي والإضرار بالحياة باهظ أيضاً، ويتساءل باحث من العالم الثالث عن حجم الضرر الذي سيلحق

---

(108) أزوالدو دي ريفيرو، ص107.

(109) جوزيف ستيغليتز، الازدهار في أميركا يتطلب اللعب على مستوى رفيع جدا، مقال في صحيفة لوس أنجلس تايمز، 22/ 7/ 2012، ترجمة أخبار الشرق الجديد-ناديا حمدان، موقع وكالة أخبار الشرق الجديد 6/ 8/ 2012، ونشرتها نشرة المنظار6/ 8/ 2012، العدد230.

(110) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص289.

بالبيئة والحياة إذا عمم مستوى المعيشة الغربي على جميع سكان الأرض فأصبح كل فرد من سكان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهم ثلاثة أرباع العالم، يستهلك الواحد فيهم ما بين4-7 أطنان من النفط ويطلق من الغازات الملوثة زيادة على ما أطلق منذ الثورة الصناعية لترتفع درجة الحرارة وتحدث تغيرات مناخية إضافية من جفاف وأمطار جارفة وذوبان الجليد وغير ذلك[111] مما سيؤدي إلى كارثة بيئية عالمية[112]، ولهذا رفض الفيلسوف الراحل روجيه غارودي تحميل مسئولية التلوث واستنفاد الموارد الطبيعية لزيادة سكان العالم الثالث وحدها "ذلك أن عشرة ملايين من الغربيين يستهلكون ويلوثون أكثر مما يفعل، على المستوى الحالي، أربعة مليارات من الفلاحين الهنود"[113].

ومن أقوى الأدلة على ثقل العبء البيئي لهذا النموذج الملوث أن الولايات المتحدة رفضت دون بقية دول العالم أجمع الانضمام إلى معاهدة كيوتو الدولية التي تستهدف الحد من انبعاث الغازات المؤثرة على التغير المناخي في دليل ساطع على إصرارها المستعلي على بقية البشرية والمعزول عنها في سبيل المحافظة على أسلوب حياتها المترف الذي يكلف الحياة على الأرض خسائر جمة بلا أي اهتمام بالمستقبل البشري أو اكتراث مسئول بتبعات الانبعاث السام عليه وعلى مستقبل بقية مظاهر الحياة الأرضية في الوقت الذي تصدر معظم هذه الغازات من الداخل الأمريكي وتريد الولايات المتحدة تحميل عبء مسئوليتها على عاتق العالم النامي الذي يصارع أبناؤه لأجل لقمة العيش ويغرق فيه المواطن الأمريكي في الاستهلاك الترفي المنفلت.

4 - **ومفكّك**: وإذا كان الغرب قابلاً بالتكاليف الاجتماعية السلبية التي نتجت عن نموذج نموه كالبطالة وإدمان الكحول والمخدرات وتفكك

---

(111) أزوالدو دي ريفير، ص226-227.

(112) نفس المرجع، ص147.

(113) روجيه غارودي، 1981، ص14.

الأسرة وشيوع العنف وارتفاع معدلات الجريمة والإباحية الوبائية التي صارت توازي مساعدة الآخرين في زاوية الإنفاق المادي كما سيأتي، فليس من حقه أن يقدم هذا الانحطاط بصفته أفضل ما توصلت إليه البشرية، فضلاً عن أن يخوض الحروب المدمرة لإجبار العالم على اتباع مفاسد نموذجه هذا كتعاطي الأفيون مثلاً كما حدث في حربين شهيرتين ضد الصين في القرن التاسع عشر وفي حروب مماثلة امتدت إلى هذا القرن الجديد لتصدير نموذج الحياة الغربي، أو بكلمة أدق: تصدير الانبهار بهذا النموذج، وذلك لأنه لا يملك قدرة تعميم نفسه لأنه نخبوي بالطبع وأقصى ما يستطيعه هو بيع الأحلام للبشر المعوزين واللاهثين خلفه.

5 - ومبذر: كما لا يملك النموذج الغربي الحق في تبذير الإمكانات في حروبه العبثية ليوقع العالم في أزمات اقتصادية يوازي العجز فيها نفقات هذه الحروب كما حدث في أزمة 2008 التي زاد فيها قيمة حربي أفغانستان والعراق(800 مليار دولار) عن قيمة ما قدم لعلاج العجز(700 مليار دولار)، ولعل هذا تلخيص لواقع النمو الغربي الذي لا هدف له سوى الاستهلاك المنفلت والمتحرر من أية قيم، فنرى مثلاً إنفاق مبالغ ضخمة للبحث عن كواكب حية أخرى في الوقت الذي تنفق فيه مبالغ ضخمة أخرى لإفساد هذا الكوكب الحي الذي بين أيدينا بالانبعاث والنفايات السامة والذي لو أنفق في إصلاحه مبالغ التسلح الأحمق الذي بذر ويبذر التريليونات لتكديس أسلحة دمار تستطيع محو الحياة عن الأرض عدة مرات! (عالم فقدان المعنى كما وصفه الفيلسوف غارودي)، أو مبالغ البحث الأبله عن الكواكب الحية الأخرى (لنهاجر إليها بعد أن ندمر كوكبنا !؟ عبثية أخرى)، لعشنا جميعا بكل سعادة واستقرار.

لقد أنفق العالم في عام 2002 على التسلح 794 مليار دولار، وهذا يعادل أن يحصل كل فرد من البشر على 128 دولارا، وفي العام التالي كانت ميزانية الدفاع الأمريكية وحدها تزيد عن 400 مليار دولار، أي أكثر من نصف ما ينفقه العالم كله في هذا المجال بما فيه بقية الدول الكبرى، ويعد هذا السباق حافزاً للأمم الصغيرة للاستثمار فيه مما يزيد من العبء

على المسئوليات الاجتماعية المنهكة أصلاً فيها، ومن المثير أن نعلم مدى الجرم الذي يرتكبه الكبار في هذا التبذير عندما يتبين لنا أن توفير الرعاية الصحية لجميع الشعوب يتطلب 15 مليار دولار، كما أن التخلص من المجاعة مع إقامة مشاريع زراعية دائمة يتطلب 2 مليار دولار فقط، أما "ترف" التعليم الأساسي للجميع فلا تزيد حاجته عن 5 مليارات دولار[114]، فإذا علمنا أن الأمريكيين وحدهم ينفقون على حيواناتهم الأليفة المدللة كثيراً، أكثر من خمسين مليار دولار حسب إحصاء سنة 2011 وحدها، كما نقلت الوكالات في يوم 3 مارس سنة 2012 عن الرابطة الأمريكية لمنتجات الحيوانات الأليفة، وأن البقرة في الاتحاد الأوروبي ينفق عليها يومياً أكثر من دخل الفرد عند 75% من سكان إفريقيا[115]، وأن الولايات المتحدة تنفق على المجلات والعروض الإباحية نفس المبلغ الذي ترصده للمساعدات الخارجية وهو عشرة مليارات دولار[116]، أقول لو علمنا كل ذلك لأدركنا مدى السفه الذي وصلت إليه الحضارة في الغرب.

*** هل يمكن الإصلاح من داخل الحضارة الغربية؟**

لم نعد اليوم نقف في نفس الموقع الذي كنا فيه بعد زوال الاستعمار حيث كنا نأمل أن تأتي حلول المشاكل التي ولدها المجتمع الغربي الصناعي، من داخل نموذجه الاجتماعي الذي تمكن بالاعتماد على الدوافع النفعية الاستغلالية التي تحركه من وقف الحروب الكبرى التي أصبحت تهدد الحياة كلها مع اختراع أسلحة الدمار الشامل[117]، نعم لقد توقف العدوان بين الأقوياء، ولكن لم تظل الصورة بهذه البساطة بعدما أثبتت الدوافع

(114) جيسيكا وليامز، 50 حقيقة ينبغي أن تغير العالم، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2005، ص287-291.

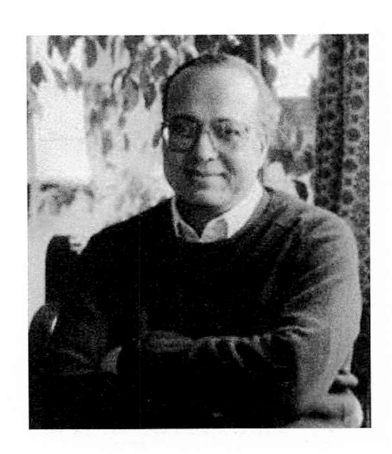
(115) نفس المرجع، ص54.

(116) نفس المرجع، ص278.

(117) الدكتور فؤاد زكريا، الإنسان والحضارة في العصر الصناعي، مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، 1958، ص129.

المادية لمدة أكثر من نصف قرن قدرتها الواسعة على الإفساد، كما مر، حيث لا رادع في متناول الضعفاء الذين يكونون معظم سكان الأرض، وقد باتت نظريات التنمية الغربية تلاقي امتعاضاً واسعاً في العالم الثالث كما يقول الدكتور خليل نخلة، إذ عبر كثير من اقتصادييه عن وجوب التوجه نحو نماذج بديلة للتنمية تتوافق مع الإمكانات المتاحة وتشرك القواعد الشعبية في عملية لا تقتصر على النمو الاقتصادي بل تتيح اكتشاف مختلف الطاقات وتعزيز الثقة بالنفس والكرامة الإنسانية[118].

وقد جلب نموذج العولمة الاقتصادية الغربي على نفسه كثيراً من النقد داخل الحضارة الغربية نفسها من أصحاب الضمائر الحية، فاقترحوا إصلاحات جذرية تمس أسس المؤسسات المالية والتجارية العالمية، ولكن هل العقل والعلم وحدهما كافيان لصد النفس عن الهوى؟ هل يمكننا أن نمنع أي خطأ بمجرد توضيح أضراره على الغير في الوقت الذي يحقق منافع للذات؟ وهل يكفي الضمير وحده ليحل هذه المعضلة؟ يجيب واقع الحال في الشمال الثري بأن "الرأي العام غير مستعد لمناقشة أي من مكتسباته"[119].



الدكتور عبد الوهاب المسيري (1938–2008) : ليست المعرفة هي أساس السلوك الغربي، وآلية التصحيح الذاتي غير فعالة في الحضارة الغربية.

(118) خليل نخلة، ص19 و23

(119) صوفي بيسيس، ص219.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري متحدثاً عن السياسة الأمريكية إن "المعرفة لا تؤثر كثيراً في السلوك الأمريكي... فالثوابت الاستيراتيجية لا يغير منها فهم أو سوء فهم المستشارين، ومدى تعاطفهم مع العرب أو عدائهم لهم"[(120)]، وما ينطبق على السياسة ينطبق أكثر على الاقتصاد حيث المنافع المباشرة التي تسعى السياسة إلى الحصول عليها، ويؤكد الدكتور فؤاد زكريا أن الولايات المتحدة لا ينقصها العلم بفشل نموذجها التنموي- الذي لا يصلح إلا لها-عند تطبيقه على الآخرين وبخاصة الدول الفقيرة "ولكنها، ببساطة، لا تكترث بما يحدث للآخرين"[(121)]، ويظل السؤال المحوري: ما هو السبيل لتغيير السلوك الإمبريالي تجاه الضعفاء في ظل غياب أي رادع دولي كالذي يعمل داخل المجتمعات عموماً والغربية خصوصاً بتطبيق القانون وحماية الضعيف من القوي بعصا الشرطي ومطرقة القاضي؟

التجربة التاريخية تؤكد أن أي إصلاح غير ممكن إلا عند وجود تهديد من أنظمة مقابلة حين يصبح هذا الإصلاح مفيداً مادياً لمن يقوم به، كتحرير العبيد في التاريخ الأمريكي نتيجة الصراع بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي، والتأييد الأمريكي لإزالة الاستعمار بعد الحرب الكبرى الثانية لسحب البساط من تحت أرجل منافسي الولايات المتحدة الأوروبيين، وتنمية اليابان بعد الحرب ذاتها خوفاً من المد الشيوعي، وإلغاء التفرقة العنصرية في الداخل الأمريكي خوفاً من التهديد ذاته[(122)]، أو في حالة الارتباط باقتصاديات الدول الكبرى نتيجة قرب جغرافي مثلاً مما هو غير متاح للجميع ويعطي أفضلية لبعض البلاد التي ترتبط عضوياً بصفة ملاحق بالكبار كالمكسيك للولايات المتحدة، واليونان للاتحاد الأوروبي مع ملاحظة الفرق الكبير بين الأطراف القوية والضعيفة في هذه المعادلة، أو في

---

(120) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار، دار الشروق، القاهرة، 2005، ص466.

(121) دكتور فؤاد زكريا، العرب والنموذج الأمريكي، مكتبة مصر، القاهرة، 1991، ص85.

(122) أناتول ليفن، ص112.

حالة تطور عملية الاستغلال من نظام اجتماعي إلى نظام آخر مما يجعل الطرق القديمة عائقاً أمام تحقيق الأرباح فترفع لافتات الإنسانية للقضاء على هذا الإفساد القديم لتحل محله طرق جديدة في الاستغلال وجني الأرباح كما حدث مثلاً في القضاء على الرق العالمي الذي لم يعد مناسباً لطرق الإنتاج الرأسمالي الذي انهمك بدوره في عمليات استغلال واستعباد شعوب بأكملها بصورة جديدة بنى عليها ازدهاره الداخلي، ولم يفت المصالح الاستراتيجية البحرية البريطانية مثلاً جني المكاسب من محاربة هذا الأسلوب العتيق في الاستغلال-أي الاسترقاق- وتحقيق الأرباح لاحتكارها العالمي[123].

لكل ما سبق يبدو أنه ما لم تكوّن الدول الضعيفة المتضررة من سياسات المؤسسات الاقتصادية الغربية قوة ضاغطة تملك تهديدات فاعلة لنظام العلاقات الاقتصادية الدولية فلا أمل لها بالحصول على معاملة أفضل وستظل رازحة تحت ضغط المصالح الغربية المتنفذة وخاضعة لأهوائها في تقديم "تنازلات" شكلية تفيد في تحسين صورتها أكثر من فائدتها في تقديم حلول جذرية لمشاكل العالم الثالث، وبخاصة أن أجواء التنافس الدولي على ولاء هذه الدول قد انعدمت بسقوط المعسكر الاشتراكي وليس هناك في المستقبل المنظور نهاية حاسمة للقطبية الأمريكية الأحادية التي يرزح العالم تحت وطأتها وإن كنا نرى تململاً مازال ضعيفاً من قبل القوى الصاعدة التي علينا ألا نتوقع وقوفها إلى جانبنا ما لم ننجز نحن شيئاً لأنفسنا فلن يكون صعودها إلا لصالح بلادها كما لم يكن في السابق لصالحنا صعود الولايات المتحدة-الذي أملنا منه خيراً لبرهة-على حساب مستعمرينا الأوروبيين وكما كان صعود الاتحاد السوفييتي وكتلته الاشتراكية لصالحنا ولكن بصورة محدودة وبحسابات دقيقة جداً ولمسافة قصيرة من التأييد السياسي كان يحجم بعدها عن السير في طريق استعادة حقوقنا.

---

(123) إريك هوبزباوم، 2007، ص217-218.

* متطلبات النموذج التنموي البديل للخروج من الأزمة

تعقب الكاتبة جيسيكا وليامز على سفه التسلح آنف الذكر بالقول إنه "ليس من الصعب تخيل العالم حيث يُعطى التطوير والخير الأولوية على تطوير أسلحة جديدة والتي لا تهدف سوى إلى الإكراه والتشويه والقتل، إنها لا تتطلب سوى طريقة جديدة من التفكير"[124]، وهو ما يقوله جوزيف ستيغليتز أيضا[125] ويبني عليه مطالبته بسياسات الإصلاح كما يراها، ويتكرر السؤال: كيف ذلك ومشكلة البشر منذ الأزل تفضيل العاجل على الآجل والنفس على الغير واتباع الهوى الذي جاءت الحضارة الغربية الحديثة لتضفي عليه الشرعية بعدما كان هم جميع الحضارات في السابق هو تهذيبه، كيف يمكننا أن نطالب النفس بمراعاة الآجل بعد أن بنينا كل البنيان الحديث على فكرة العاجل؟ ويجب التنبيه أن هذا الكلام موجه للعلاقات السياسية والاقتصادية الدولية التي سادت فيها قيم المنفعة بلا منازع وليس موجهاً لمنظومة العلاقات الفردية البشرية التي يمكن أن نرى فيها حتى داخل المجتمعات الغربية مظاهر إنسانية وأخلاقية عديدة تنتمي لرقعة الحياة الخاصة للإنسان داخل هذه المجتمعات ويمكن له فيها تجاوز السطح المادي الذي فُرض على حياته العامة والتأكيد على فطرته الإنسانية المتناقضة مع فصل القيم عن الحياة، أو العلمانية الشاملة بوحشيتها وعدميتها، ولكن كل هذا الرفض يقع داخل رقعة من الحياة الخاصة آخذة بالتناقص أمام الزحف المادي كما يقول الدكتور المسيري رحمه الله، ولهذا تلاحظ الباحثة صوفي بيسيس أن المسافة بين الوعي العام في الشمال الغني بأفضلية عدم التبذير والقبول بإجراءات عملية تستهدف تعديل المنطق الاستهلاكي، هذه المسافة مازالت شاسعة إلى الآن[126].

---

(124) جيسيكا وليامز، ص291.

(125) جوزيف ستيغليتز، ص287 و290.

(126) صوفي بيسيس، ص219.



روجيه غارودي (1913-2012): عالم الغرب بلا معنى.

ويرى الفيلسوف غارودي أن مشكلة النمو المعاصر ليست اقتصادية وسياسية وحسب، بل هي في جوهرها مشكلة دينية لأنها تتعلق باختيار معنى وأهداف للحياة ورفض العيش مع نظام اجتماعي ظالم[127]، ويقول في الكتاب الذي يحمل عنوان "مشروع الأمل": "إننا نعاني من العيش في عالم لا هدف له.وما يسمى سياسة النمو هو سياسة غايتها تشغيل الآلة.حتى لو كانت آلة بلا فائدة، أو ضارة، أو مميتة.إن هناك مبدأ واحداً غير معترف به: فكل ما هو ممكن تقنياً، هو ضروري ومرغوب فيه: صنع قنابل ذرية، السفر إلى القمر، تدمير المستقبل بالنفايات الإشعاعية، النشاط في المولدات النووية.

"نمو لماذا؟ نمو لمن؟ لأرباح بعض الأفراد بالتلاعب بالجميع وبتكييفهم.

"ليس صحيحاً أن النمو الاقتصادي يسمح بتجاوز الأزمات: فهو يخلقها.إنه يقود إلى توزيع للسلطة والامتيازات يزداد تفاوتاً.

"وليس صحيحاً كذلك أن بالإمكان وقف النمو في حين لا يملك مليارات البشر في "العالم الثالث" وملايين البشر في البلدان "الغنية" وسائل حياة إنسانية حقاً.

(127) روجيه غارودي، 1981، ص19-20.

"ليس الأمر وقف النمو، بل توجيهه لخدمة تفتح الإنسان، لا انحطاطه"[128].

ثم يفصل مشروعه القائم على التحديد الذاتي للغايات والتسيير الذاتي للوسائل للخروج من قمقم العالم المسير بالقوة بلا هدف معقول، وهو ما قاده فيما بعد إلى تبني الحل الإسلامي الذي يضع هدفاً لحياة الإنسان ويعلي من شأن الجماعة في مواجهة الفردية ويجعل الإنسان مجرد خليفة في ملك الله الذي تعود إليه ملكية كل شيء والقدرة على كل شيء ومعرفة كل شيء[129].

وينتقد الدكتور عبد الوهاب المسيري أنصار الحل العلماني الغربي من العرب لأنهم تلقوا التعريفات الغربية النظرية لنموذجهم المستورد دون أي حس نقدي ودون النظر في العيوب الكبرى التي نتجت عنه والتي جعلت منه نموذجاً مستحيل التكرار أو مدمراً على أقل تقدير كما سبق ذكره، فما زالوا يسبحون في العالم النظري لعلمانية التسامح والحرية والديمقراطية دون ملامسة الواقع الحقيقي والعيوب التي نتجت عنها.

كما يجيب عن المعضلة الناتجة عن السعار الاستهلاكي الغربي بالقول "إن النموذج التنموي الإنساني يجب أن يكون قائماً على معادلة أن ما هو معطى محدود وأن داخل الإنسان مخزون روحي ضخم، وأنه بدلاً من تصعيد الرغبات الاستهلاكية يمكن تصعيد التطلعات النبيلة والتكافل والتراحم والزهد ومختلف القيم الكامنة في ذاتنا الإنسانية الحضارية، وبذا يصبح هدف التنمية هو تحقيق العدل الاجتماعي وضمان حد الكفاية للجميع وتحقيق كل إمكانيات الإنسان الكامنة فيه"[130].

ويرى رحمه الله أن "الكتلة الإسلامية هي أكثر الكتل البشرية مقاومة

(128) روجيه غارودي، مشروع الأمل، دار الآداب، بيروت، 1988، ص136.

(129) عبد الباقي خليفة، الفيلسوف المسلم يكشف جوهر ديننا الحنيف/ 2، مقال في موقع صحيفة الوطن الكويتية 5/ 8/ 2012.

(130) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص143.

للاستهلاكية العالمية والحداثة الداروينية"[131]، وأن العالم الإسلامي هو خط الدفاع الأول ضد عملية إعادة صياغة الإنسان والثقافات والحضارات لتصبح السلعة هي الوثن الجديد والمركز الذي تدور حوله حياة الإنسان، "ذلك أن إطارنا العقيدي لا يزال قائماً حياً، خاصة بين الفقراء، وهم غالبية الشعوب الإسلامية، فهو يحركنا ويصوغ رؤيتنا وأحلامنا وتوجهاتنا في معظم الأوقات، فنحن نشكل خطوط المواجهة والمقاومة ضد الاستهلاكية العالمية"[132] التي "ترى أن التقدم هو تصاعد معدلات الاستهلاك، وأن من حق الأقوى عسكريا أن يستهلك وأن يستغل الآخرين.ولذا ترسل هذه الرأسمالية المتوحشة بجيوشها للاستيلاء على منابع البترول ولإقامة حكومات عميلة تفتح أسواقها له وتدخل في منظومته الاقتصادية العالمية"[133]، ويؤكد المسيري أنه ليس ضد التقدم وأنه يستهدف تحديد مضمونه ووجهته وحدوده ليخرج عن معيار الاستهلاك الغربي[134]، وهو نفس توجه الفيلسوف غارودي كما سبق ذكره.

* صعوبة التنمية ضمن النظام العالمي الحالي

ولكن هذا النموذج العادل غير قابل للتحقيق في موازين القوى العالمية الحالية التي تستأثر فيها عواصم محدودة بسلطة اتخاذ القرار الاقتصادي في نظام معولم تزداد فيه أهمية المنتجات التقنية للعالم الصناعي وتتناقص فيه أهمية موارد العالم الثالث الأولية إلى حد دفع أحد الباحثين إلى الاستنتاج بأن المتاح الآن أمام شعوب العالم الثالث هو اقتصاد "البقاء" : أي التوفير الذاتي للحد الأدنى من الاحتياجات الأساسية كالماء والغذاء والسكن والطاقة، بعيداً عن الأحلام التي راودتها منذ الحصول على الاستقلال بالتحول إلى دول متقدمة تملك نفس مستويات الاستهلاك لدى الدول

---

(131) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (3)، ص32.
(132) نفس المرجع، ص30.
(133) نفس المرجع، ص33.
(134) نفس المرجع، ص30.

الصناعية، وسيكون هذا "البقاء" هو البديل الأفضل من عدم القدرة على البقاء، والتحول إلى كيانات وظيفتها سداد الديون واستيراد الغذاء والوقود والسلع الصناعية والاستهلاكية كافة، والحصول على قسم من رءوس الأموال الأجنبية المضاربة[135].

إن تاريخ التنمية في العالم الثالث بعد مرحلة الاستقلال يؤكد أن عدم التنمية هي القاعدة في الوقت الذي كانت ندرة التنمية هي الشذوذ الذي يثبت هذه القاعدة، ففي الوقت الذي لم ينم 130 بلداً على الأقل، تمثل الاستثناء بكوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ وهي مراكز اضطرت الولايات المتحدة واليابان إلى تعزيز اقتصاداتها لاحتواء الشيوعية التي كانت تهدد بسقوط متتال لأحجار الدومينو، وهو أمر انتهى بسقوط المعسكر الاشتراكي، ومع ذلك فلا يسود في هذه البلدان نفس مستويات المداخيل المرتفعة والتطور العلمي التي تميز الغرب الأوروبي الأمريكي[136].

*** الدمار في العراق هو النموذج الغربي المحتذى كما بشرتنا أمريكا بنفسها**

إذا كانت اليابان بالدرجة الأولى، وبعض البلدان الآسيوية آنفة الذكر بالدرجة الثانية، قد استفادت من منافسات الحرب الباردة لتحقيق شيء من التطور على الطريقة الغربية خارج إطار العالم الأبيض، فإن كثيراً غيرهم لم ينالوا هذه المنزلة، واعتماداً على "نجاح دمقرطة ألمانيا واليابان تحت احتلال الولايات المتحدة"، كُونت "صورة مصيرية مغرية ومشئومة للتحرير باستخدام القوة، انتشرت فيما بعد من فيتنام إلى العراق"[137] الذي يبين مصيره الفعلي بعيداً عن هذه الأحلام الوردية التي تحولت إلى كوابيس مدى التغير الذي أنتجه اختلال ميزان القوى العالمية وتفرد قطب واحد بالتصرف في مصير العالم، فمن دعم تنمية بلد كاليابان في ظل الحرب الباردة ليصبح

(135) أزوالدو دي ريفيرو، ص17.
(136) نفس المرجع، ص167-169.
(137) أناتول ليفن، ص382.

عملاقاً اقتصادياً يسبب الصداع لمحتليه، إلى "تنمية" عراقية بعد الزوال السوفييتي تُبنى بتصفية العلماء وسرقة مليارات إعادة الإعمار فيما وصفه المفتش الأمريكي الذي عينه الكونجرس بأنه أكبر حادث سرقة في تاريخ الولايات المتحدة[138]، وهو إنجاز كبير ولاشك يكشف حقيقة النموذج الذي بشرونا به بأنفسهم قبل شروعهم في صناعته، وترك العراق يغرق في الدماء والفساد والنهب والتخلف والانقسام لينبئ عن حقيقة التنمية التي يريدها الغرب للآخرين خارج عالمه الحصري بما يصدق الشعار الذي رفعته مظاهرة عراقية احتجاجية: "العراق أغنى دول العالم وشعبه أفقر شعوب العالم"، وتبلغ المفارقة أوجها عندما تنفق القوات الأمريكية التي تفننت في قتل وتعذيب وإهانة الشعب العراقي، وبخاصة في مدينة الفلوجة المنكوبة، أكثر من ثلاثين ألف دولار لنقل حمار من هذه المدينة إلى أمريكا وذلك "لإنقاذه من واقعه المزري" كما جاء في الخبر[139]، وبهذا حصل الحمار في العراق على "تنمية" لم ينلها الإنسان العراقي في ظل النظام العالمي الذي استجد بعد أزمة الخليج سنة 1990 وانهيار المعسكر الاشتراكي وبُني على الحق والقانون وعدم القبول بالعدوان (!)

* مازالت أوراق بأيدينا ولكن إلى حين

ولكن حتى بهذه النظرة المتشائمة والتي تستمد قوتها من نتائج التاريخ المعاصر، فإن للدول التي تملك ثروات استراتيجية كالنفط أو مواقع مهمة كقناة السويس ومضيق هرمز، ميزات تمكنها من توفير شروط الاقتصاد القابل للحياة وهي الطبقة المتوسطة والسوق المحلية الموحدة[140] وذلك لو استخدمت الهوية الثقافية الواحدة والجاهزة في توحيد الأمة وإيجاد الدولة[141] التي تمثلها، بدل الحنين إلى أيام الاستعمار الذي تحس به دول

(138) أحمد أبو دقة، كيف سرقت أموال العراق، مقال في مجلة البيان 12 رجب 1432.
(139) صحيفة الشرق الأوسط 16/ 5/ 2011.
(140) أزوالدو دي ريفيرو، ص25.
(141) نفس المرجع، ص29-30.

من العالم الثالث[142] لأنها تفتقد اليوم المجال الموحد الذي كان يضمها أيام الاحتلال فظنت أن العودة إليه هو الدواء مما تغرق فيه اليوم من مشاكل كبرى، وبخاصة أن لنا تجربة تاريخية طويلة في الوحدة يمكن استخدامها اليوم ليكون لبلادنا قوة تفاوضية أكبر من غيرها من دول العالم الثالث الفقيرة[143]، ولكن هل يمكننا فعلاً استخدام هذه المزايا لتحقيق مطالب أمتنا في ظل التجزئة والشرذمة وتبعية القرار السياسي ما لم نغتنم الفرصة قصيرة الأجل بالمقياس التاريخي والتي منحها الله لنا بتدفق النفط الذي لن يستمر طويلاً وبخاصة بعد أن أضعنا فترة طويلة من الفرصة التاريخية كان من الممكن استغلالها في تحديث اقتصادنا تقنيا[144]؟ أم أن مطالبنا ستستمر مقتصرة على توفير السلع الاستهلاكية، ولن تزيد على شراء البضائع الترفية مما هو غير متاح لدول "البقاء" الفقيرة؟

*** خلاصة المفارقات العشر للتنمية في ظل الاستعمار الجديد**

تتلخص مفارقات النموذج التنموي الغربي الذي اتبعته معظم دول العالم بما يلي:

1 - أنه نموذج عقائدي في الوقت الذي يبشر فيه بإلغاء باقي المعتقدات البشرية، وبخاصة لو كانت مناوئة له.

2 - أن الغرب المسيطر، وفي سبيل المحافظة على مصالحة الأنانية، حظر على بقية الأمم أن تسير في نفس الطريق الذي سار فيه وأن تطبق نفس الإجراءات التي طبقها لتحقيق الازدهار والثراء (مثل تدخل الدولة الفاعل في حماية وتنظيم الاقتصاد والحماية الجمركية والهجرة المفتوحة وانسياب المخترعات) في نفس الوقت الذي يقدم فيه نفسه بصفته طريقاً وحيداً إلى هذه التنمية[145].

(142) نفس المرجع، ص24.
(143) نفس المرجع، ص235.
(144) نفس المرجع، ص139.
(145) صوفي بيسيس، ص249.

3 - وتبلغ المفارقة ذروتها عندما يأتي هذا الحظر من جانب عمال الشمال الغني الذين يعلنون تضامنهم مع شعوب الجنوب ثم يعترضون على أي إجراء من شأنه تحسين مستوى العمل لديها ويحملونه مسئولية بطالتهم في الشمال.

4 - أن هذا الطريق "الوحيد" الذي رسمه الغرب للتنمية يستحيل تكراره بسبب تكاليفه التاريخية الباهظة (مثل إبادة الشعوب أو استرقاقها أو استعمار بلادها وتدمير حضاراتها وتلويث الطبيعة والتباين الفاضح في امتلاك الثروات) والتي لا يمكن أن تتوفر متطلباتها (من الموارد ومكبات النفايات) مرة ثانية إلا في الخيال وذلك لو أردنا الوصول إلى مستوى الثراء والاستهلاك الغربي ولهذا فشلت كل محاولات تقليد الغرب ومحاكاته سواء من الشرق القوي أو الجنوب الضعيف.

5 - سياسات التكيف الهيكلي التي يفرضها الغرب على الدول المدينة بحجة أنها ستقود إلى الازدهار، سياسات قاسية لا يقبلها الغربيون لأنفسهم وثبت فشلها في تحقيق النمو وهي نابعة من إيمان المؤسسات المالية بعصمتها العقائدية ورفضها المستمر مراجعة أفكارها بجذرية.

6 - كلما قلّ استهلاك الفرد من الطاقة أدى ذلك إلى عدم قدرة الدولة على الحياة وفي نفس الوقت فإن ارتفاع نصيبه من استهلاك الطاقة يؤدي إلى عدم قدرة الحضارة والحياة على الاستمرار نتيجة عبء التلوث والتخريب البيئي الذي يمارسه هذا النموذج[146].

7 - وقد أدى استمتاع الغرب بهذا النموذج ومطالبته الآخرين بالخضوع له إلى تفريغ مبادئه الديمقراطية والعلمانية-التي يدعي أنه حامي حماها- من مضامينها في ظل تعصب واستبداد المؤسسات المالية والتجارية الدولية التي تتصرف بدوغماتية ظاهرة (أي تتعسف في القطع بآرائها من غير مبرر كاف).

---

(146) أزوالدو دي ريفيرو، ص227.

8 - إذا كان النموذج الغربي قد لاءم نفسه مع المفارقة بين بيع أحلام الرفاهية للجميع والاهتمام بقلة من المستهلكين، فإن تبعات الإحباط غير المفكر فيه لا يمكن التنبؤ بها مع زيادة هوة الفقر بين صفوة المالكين وعموم المعدمين الذين لن يظلوا متفرجين على بؤسهم وتنعّم غيرهم إلى الأبد، وقد وصفت تبعات هذه الإحباطات بأنها يمكن أن تكون أمواجاً متلاطمة وزلازل وانفجارات شعبية[147].

9 - في الوقت الذي يتصاعد فيه الوعي بالتكاليف الباهظة للنموذج التنموي الغربي، يصر الغربيون على تقديمه للآخرين بصفته طريق التنمية الوحيد، مع حرمانهم من متطلباته التي لا غنى له عنها كانبعاث الغازات بغزارة، وتبرز هنا مفارقة الحجة الأمريكية في تفرد الولايات المتحدة برفض الانضمام لاتفاقية كيوتو حيث يرفض الأمريكيون المتطورون أن تكون التزاماتهم بتقليص الانبعاثات الغازية، أكبر من التزامات الأمم النامية التي مازالت تكافح للتطور وحاجتها للتصنيع أكثر إلحاحاً من حاجة الأمريكيين، فكيف يطالب الغرب الآخرين بأن يظلوا مجرد ناقلين عنه وفي نفس الوقت أن لا يسيروا في الطريق الذي سبق له أن سار فيه؟[148]

10 -لا يبدي الغرب أي استعداد للتنازل عن مستويات استهلاكه المنفلت رغم انتشار الوعي بأضراره على الحياة عموماً على كوكب الأرض مما يكوّن حالة نموذجية للتناقض بين المنفعة-محفزة السلوك الغربي-والعلم الذي ثبت أنه غير فعال في دفع هذا السلوك، ولا يكف الغربيون في الوقت نفسه عن هدر الإمكانات في البحث عن الحياة خارج نطاق كوكبنا وكأنهم قد عزموا الأمر على تدميره.

---

(147) صوفي بيسيس، ص288.
(148) نفس المرجع، ص251.

* النتيجة المتعلقة بأحلام التنمية في ظل الاستعمار الجديد

وبهذا نرى أنه جواباً على سؤال: هل من الممكن تحقيق مستوى الازدهار المادي والثراء المالي لدول الغرب الأوروبي-الأمريكي مرة ثانية بإتباع مساره التنموي؟ أن من المستحيل أن يتكرر نموذج التنمية الغربي سواء بسبب رفض رعاته في الغرب منح مزاياه لأطراف تنافسهم وبخاصة بعد نهاية الحرب الباردة، أو بسبب التكاليف الباهظة التي تكلفها بناء هذا النموذج، ونتج عنه دمار هائل جعل منه نموذجاً مدمراً حتى لو افترضنا نظرياً إمكان تطبيقه مرة أخرى، وقد تمكنت دول قليلة من تحقيق تنمية ناقصة داخل هذا النموذج بسبب الظروف الخاصة للحرب الباردة في الوقت الذي ظلت فيه معظم دول العالم تجري خلف سراب التقدم بلا تقدم، أما بقية "النمور" فما زال بينها وبين تحقيق الحلم مئات الملايين من المعدمين وتخطي حواجز عالية جداً أمام تغيير معادلة القوى الراهنة، وقد أدى التغريب الاقتصادي الذي اتبعته معظم بلاد العالم مجبرة إلى نتائج كارثية لأن الغرب عاملها بغير ما عامل نفسه وأعطى ذاته امتيازات لم يسمح بها للآخرين مما فرغ مبادئه الديمقراطية والعلمانية والليبرالية الاقتصادية من مضمونها الحقيقي عند ترويجها ولم تعد أكثر من أدوات لتحقيق المصالح الغربية على حساب الآخرين، أي أن النموذج التنموي الغربي لن يتكرر سواء بالارتباط بالغرب الاستعماري الجديد أو بالاستقلال عنه.

ويمكن لدول العالم الإسلامي أن تكون نواة المقاومة للنموذج الاستهلاكي المادي الذي يتبناه الغرب وأن تطرح بديلاً له من ثقافتها المتناقضة مع الاستهلاكية الداروينية التي تشن الحرب على كل من لا يجعل الاستهلاك مقياس التقدم في الوقت الذي تحرم غالبية البشر من ممارسته ثم تصم بالإرهاب كل من يتمرد على هذا الخلل، وما زالت متمسكة بنمط حياتها المبذر وترفض الاستغناء عنه، كما يمكن لدول عالم الإسلام أن تحقق موقعاً تفاوضياً أفضل من غيرها ضمن النظام العالمي الحالي لو أحسنت استثمار الفرصة التاريخية الناتجة عن امتلاكها سلعة مهمة كالنفط بالإضافة إلى احتوائها على مواقع استراتيجية مهمة، ولكن هذه القفزة بحاجة

إلى تغيير أوضاع التشرذم التي تغرق فيها دول الاستقلال والتجزئة، فإنه ضمن النموذج التنموي الغربي "كل ما يمكن أن يحدث هو أن بعض بلاد الجنوب الكبرى ستبدل مراكزها القديمة كمستعمرات إلى دول ذات مكانة أقل تدنياً وأكثر ربحاً وكشريكة في بعض المجالات والتي يتعين على الشمال أن يعمل لها حساباً من الآن فصاعداً"[149]، ولكن هل يتوقف الزمن عند رغبات أقوياء لحظة ما؟ ولو فعل ذلك هل كان من الممكن أن تتعاقب الامبراطوريات على مره وألا تقف لحظاته عن التبدل؟

■ هل يفلح العقل في وقف العدوان: "اكتشافات" المؤرخين المراجعين بشأن المظالم التي ارتكبها الغرب

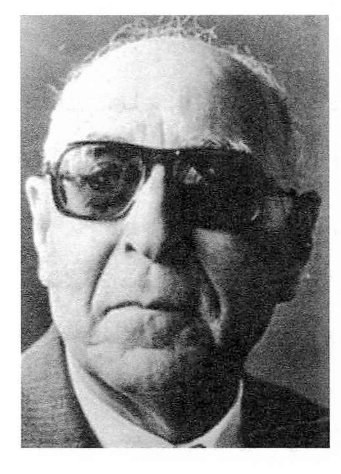
رغم أن العقل من سمات الحضارة الغربية الحديثة، فإن معناه واستخدامه يختلف في ميدان العلم التجريبي عنه في مجال العلوم الإجتماعية ومنها السياسة، ففي العلوم البحتة تسود الحقائق والمعادلات والتراكيب التي يتفق العلماء عليها ويبنون عليها ويصححون أخطاءها في منهج خطي يبني اللاحق على السابق، ولا تتعدد الأقوال إلا في حدود الكشف العلمي، فلا يوجد فيزياء فرنسية وأخرى بريطانية وثالثة هندية وهكذا، أما في العلوم الاجتماعية فإن العقل البشري ليس محايداً فنجد أن السياسة العقلانية حسب التصور الروسي تختلف عن السياسة العقلانية حسب التصور الأمريكي لأن العقل الذي يحدد الأهداف ليس صفحة بيضاء محايدة ومتشابهة عند الجميع، بل هو عقل يتأثر بالبيئة والأهواء والمصالح والميول، فكيف إذا أصبحت المنفعة هي الموجه الرسمي لسلوك الإنسان حسب ما وصلت إليه الحضارة الغربية الحديثة؟ من الطبيعي حينئذ أن تكون المبادىء الميكيافيلية، وقد وصف صاحبها بأنه من العقلانيين[150]، وليس المثالية الإنسانية، هي الموجه للساسة فلا يتورع رجل الدولة عن الإتيان، باستعمال العقل، كل ما

---

(149) نفس المرجع، ص261.

(150) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، سلسلة عالم المعرفة (82)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر 1984، ترجمة: شوقي جلال، ص149.

تأباه المثالية، لأن دور العقل حتى في الحضارة العقلانية هو البحث عن أقصر الطرق للوصول إلى الهدف الذي تحدده الرغبة وحدها كما قال المفكر العربي زكي نجيب محمود في افتتاح ندوة أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي سنة 1974[151]، وهو ما أطلق عليه الدكتور عبد الوهاب المسيري فيما بعد عقلانية الوسائل (كيف تقتل؟) ولا عقلانية الغايات (لماذا تقتل؟)[152].



الدكتور زكي نجيب محمود (1905-1993): وظيفة العقل في الحضارة العقلانية هو الوصول إلى الرغبة بكفاءة وليس تحديد هذه الرغبة

هذا ما مارسه الغرب علينا منذ بدء سيطرته، فلم يكن العقل المثالي المجرد هو الموجه للسياسات الغربية، بل المصالح المادية التي أنتجت الاحتلال والاستعمار والنهب وسفك الدماء والتخلف والاستبداد، وطالما رفع الغربيون شعارات تغاير أفعالهم وهاجموا رفض الشرقيين سياساتهم ووصفوهم بالتعصب والإرهاب، ففي بداية القرن العشرين أصدرت بريطانيا وعد بلفور بإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وفي الوقت الذي أدرك فيه العرب وأهل فلسطين البسطاء النهاية المنطقية لهذا العمل، وهي اقتلاع الفلسطينيين من وطنهم، راحت بريطانيا تؤكد وتقسم وتبرهن علمياً

(151) الدكتور شاكر مصطفى، ص21 (محاضرة الدكتور زكي نجيب محمود: الحضارة وقضية التقدم والتخلف).

(152) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص31.

على أن الوطن القومي لا يعني دولة يهودية ولا يعني سيطرة يهودية على أهل فلسطين بل إنه سيجلب الرخاء والتقدم والحضارة للبلد والمنطقة وسيعيش أهلها حياة رغيدة نتيجة الهجرة اليهودية وما ستقدمه من مزايا لهم، وذهب الغضب بصاحب الوعد المشئوم، اللورد بلفور رئيس مجلس اللوردات، في خطاب له في المجلس سنة 1922 أثناء دفاعه عن صك الانتداب حد اتهام العرب بإنكار الجميل البريطاني الذي حررهم من الاستبداد العثماني وأقام لهم عدة ممالك مستقلة -أي أنه يمن علينا بالتجزئة(!)-والقول بأنهم يرفضون وعده بدافع التعصب وحده، وفند كل مخاوفهم من خطر الوطن القومي وقال إن اتهام بريطانيا بمعاداة العرب هو أغرب اتهام وجه إليها بالإضافة إلى كونه ظلم فادح لها[153]، مع أنه صرح بنفسه منذ البداية بأن التزامات الحكومة البريطانية لكل من العرب واليهود متناقضة ومناقضة للحقائق وأنه أعطى اليهود "فرصتهم الكبيرة "وعليهم القيام بعمل جيد في فلسطين "ويؤسسوا في آخر الأمر دولة يهودية"[154]، أي أنه في الوقت الذي كان يغرقنا فيه بتحليلاته وإثباتاته وأدلته وتقريراته العلمية والعقلية عن الإنصاف البريطاني والشجاعة البريطانية والمهارة البريطانية والكفاءة البريطانية والأفضال البريطانية، كان يدرك بعقله عدم جدية كل هذه الأدلة ومع ذلك يتصرف بما يناقض العقل المثالي حين اعترف بأنه ليس مهمّاً كون الصهيونية صواباً أم خطأ،خيراً أم شراً بل المهم هو"الحاجات القائمة والآمال المستقبلة" المعلقة عليها[155]،أي ما تمليه المنفعة والرغبة وحدها، وهذا ما أقر به الصهاينة المستفيدون من الوعد حين أقرت الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في سنة 1921 أن القيمة الاستراتيجية لفلسطين في نظر بريطانيا هي التي كان لها "الوزن الراجح عند إصدار وعد بلفور"[156]، وظهر في نهاية المسرحية وبعد عشرين لجنة تحقيق بين ذهاب وإياب كانت

(153) الدكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص532-533.
(154) د. جيرمي سولت، ص154.
(155) رجاء جارودي، ص345.
(156) الدكتور حسن صبري الخولي، ج 1 ص210.

تتساءل ببلاهة بعد كل انتفاضة نفس السؤال الذي ما يزال يحير الغرب : لماذا يكرهوننا (!؟) أقول ظهر أن إدراك العرب البسطاء المتخلفين في نظر بلفور وقومه، هو الذي تحقق بعدما حلت النكبة بفلسطين وشعبها وثبت بطلان الدقة العلمية لبريطانيا العظمى التي جهدت لتثبت لنا وهم المسلّمة التي اتضحت حتى لأطفالنا آنذاك بأن الإتيان بشعب غريب في أرض شعب آخر ينتج عنه كارثة.

وفي نهاية القرن العشرين قامت الولايات المتحدة بتدمير بلد عربي آخر وحصاره سنوات عجاف طويلة كسنوات الانتداب البريطاني في فلسطين، وكان ذلك هذه المرة بحجة وجود أسلحة الدمار الشامل لدى العراق، وجهد الأمريكان بإغراقنا بأدلتهم وإثباتاتهم وتقريراتهم وحساباتهم المؤكدة والموثقة بأن العراق يخفي أسلحته وبهذه الحجة استمر الحصار القاتل في نفس الوقت الذي كان المسئولون الأمريكان فيه يصرحون بالهدف الحقيقي لاستمراره وأنه لن يلغى قبل سقوط نظامه الذي كان معادياً للخطط الأمريكية، ووصل الاستهتار يوماً بوزيرة الخارجية الأمريكية للقول سنة 1996 بأن موت نصف مليون طفل عراقي هو ثمن مقبول لتحقيق الهدف الأمريكي، في نفس الوقت الذي لم يكفوا فيه عن نعت النظام آنذاك بالدموية والاستبداد وسفك دم شعبه الذي جاءوا هم لإنقاذه بقتل نصف المليون المذكور(!)، ورغم هذا السقوط الواضح ظل العالم يدور في دوامة أسلحة الدمار الشامل وظلت الإثباتات الأمريكية تتوالى سواء من بتلر أو البرادعي أو غيرهما من الأدوات إلى عشية الغزو سنة 2003 عندما قام وزير الخارجية الأمريكي سفاح العامرية بمسرحية هزلية في مجلس الأمن مثّلها أبطاله من شاحنات جوالة "لا شك" في وجودها وإخفائها الأسلحة المحظورة[157]، ثم لبس مسوح الرهبان برياء مضحك وقال، على خطى المحسن السابق بلفور: "الولايات المتحدة والدول الأخرى لم تفعل شيئاً

---

(157) الحرب على العراق: يوميات-وثائق-تقارير(1990-2005)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 836.

لتستحق هذا التهديد"(!!)[158] ويلاحظ المكر في حشر الدول الأخرى مع الولايات المتحدة في صف واحد رغم المعارضة العالمية للموقف الأمريكي حينذاك، وثبت فيما بعد أن كل ما قاله أكاذيب وأساطير كانت نتيجتها الدموية تدمير العراق وإغراقه في الدم والتخلف والانقسام والاحتلال والنهب والتعذيب ولم يبق لنا نحن الضحايا سوى أن نفرح بمحاولة غسل كولن باول جريمته بالجلوس على كرسي الاعتراف مقراً بعاره ولكن بعد فوات الأوان وتنفيذ الجريمة ونيل المراد[159]، ومرة أخرى يثبت كلام الشرقيين المتخلفين الذين كانوا يؤكدون خلو العراق من أسلحة الدمار، مع أن امتلاكها من حقوقنا في مواجهة الترسانة الغربية والصهيونية، وذهبت الإثباتات العلمية للمتحضرين الأمريكيين والبريطانيين أدراج الرياح.

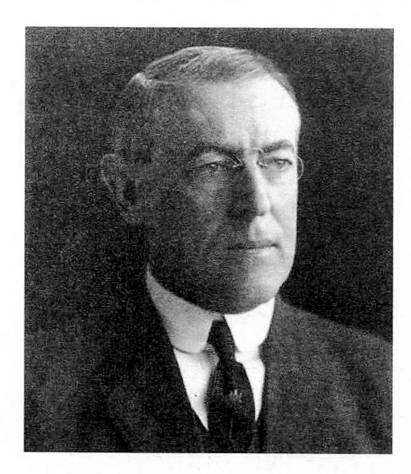
سردت هذين المثلين من بداية القصة ونهايتها لنعتبر من دروس تجاربنا ولنقول للاهثين خلف سراب العقلانية والعلمية الغربية بأن هذه الشعارات لا يجب أن نفسرها بشكل مطلق لأن للغربيين تفسيراتهم الخاصة بهم والتي يرونها مناسبة لهم ولكنها ليست بالضرورة مطابقة للمثل المطلقة أو على الأقل مناسبة لنا، وأن العقل السياسي الغربي هو العقل الميكيافيلي النفعي الذي تحدد الرغبات أهدافه وليس المثالية الإنسانية، وأن أي إصلاح يدافع الغربيون عنه لا بد أن يخدم مصالحهم، ولو أردنا التوسع لقلنا كما يقول المؤرخان ستانفورد وإيزل شو في كتابهما عن تاريخ الدولة العثمانية إن الدول الغربية الكبرى تدافع عن الإصلاحات ما دامت مصالحها غير متضررة[160]، ولهذا رأينا رائد السياسة المثالية الأمريكية التي لا يزال التغزل بها إلى يومنا وهو الرئيس ويلسون يطالب على مستوى النظرية بحق الشعوب في تقرير مصيرها بعد الحرب الكبرى الأولى 1914-1918 وبرفض الاتفاقيات الاستعمارية السرية ثم ينقلب عملياً على ما قاله، أو على

(158) نفس المرجع، ص836.

(159) باسيل يوسف بجك، ص408.

(160) Stanford j. Shaw & Ezel Kural Shaw, Vol. 2, p. 211.

الأقل يخضع مبادئه للانتقاء والمساومة، بتأييده اقتسام القوى الاستعمارية الأوروبية البلاد العثمانية، كما أيد وعد بلفور رغم تناقض كل ذلك صراحة مع حق تقرير المصير، وقد أثار موقفه هذا عجب بلفور نفسه(161)، وإذا كان مقبولاً أن نُخدع في بداية الطريق فتطالب شعوبنا بالانتداب الأمريكي عليها نتيجة جهلها فإنه ليس من المقبول أن نظل مخدوعين إلى نهاية الطريق وندمر أنفسنا نتيجة هذه السقطات المتكررة، وإن مما له دلالة أن زعيماً وطنياً كبيراً كجمال عبد الناصر وقع في هذا الفخ كما قال في مقابلة مع الكاتب الفرنسي بنو ميشان سنة 1957: "القدوة التي أسترشد بها ليست هتلر ولا ستالين، إنها جورج واشنطن.... لما وصلت إلى مقام الحكم كنت ميالاً إلى الأمريكيين... وكنت معجباً بما حققه الأمريكيون على الصعيد الفني، بل كنت أظن أن طريقة الحياة الأمريكية هي أفضل ما يمكن أن يكون، وبكل سذاجة كنت مقتنعاً بأن الأمريكيين هم أعداء الاستعمار.. ثم بدأت أيأس لكثرة ما استقبلت منهم وما تفاوضت مع ممثليهم"(162).



الرئيس الأمريكي صاحب السمعة المثالية وودرو ويلسون (1913-1921) نادى بمثل عليا على المستوى النظري ولكنه أخضعها للانتقائية والمساومة فتعجب من تأييده وعد بلفور صاحب الوعد نفسه.

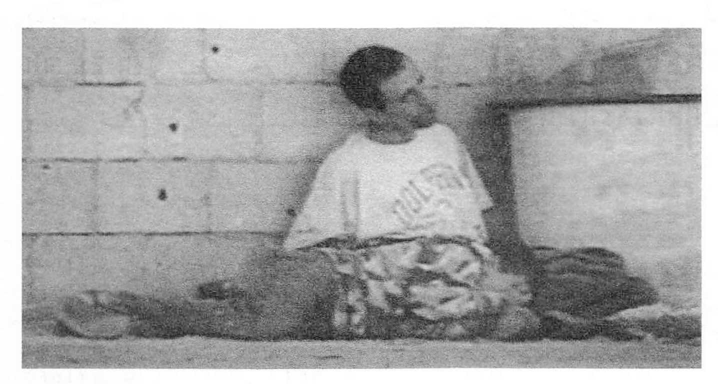
---

(161) رجاء جارودي، ص346.

- حمدان حمدان، 1997، ص65-67.

(162) بنو ميشان، ص24-25.

وإن القرار الذي أصدرته لجنة التحقيق الصهيونية، في مقتل الشهيد محمد الدرة (2000) الذي أثار ضجة إعلامية أربكت الصهاينة، هذا القرار الذي" أثبت" بعد تدقيقات وتمحيصات وقياسات علمية دقيقة إن الفلسطينيين هم الذين قتلوا هذا الطفل، ومن لا يعجبه ذلك سيُدعى لمزيد من العجائب الصهيونية على شكل اكتشاف أن الشهيد مازال حياً وفقاً لرئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو نفسه[163] (!)، كل هذا لمثل واضح على مصير اللهاث خلف العقلانية العلمية الدقيقة للسياسة الغربية تجاهنا، هذا بالإضافة لموقف القاضي غولدستون الذي احتفينا به في بداية الأمر ورفعنا له الرايات ودققنا له الطبول وبلغنا به سدرة المنتهى فإذا به، بعد إزالة الغشاوة عن عينيه، يكتشف بتدقيقات وتمحيصات "علمية" دقيقة أيضاً، براءة الكيان الصهيوني وحقه في الدفاع عن نفسه ضد "إرهاب" أصحاب البيت، ويعلن توبته الصهيونية النصوح التي أربكت كل متعلق بالعدالة الغربية من ضحاياها، لا بل وجدنا أخيراً من صدق هذه الشعوذة من مقلدي الغرب فعابوا على أمتهم "إرهابها" واصطفوا في الجانب الصهيوني تبريراً ودعماً وتحالفاً وتمويلاً (!؟)



الطفل الشهيد محمد الدرة أرادت العقلانية الصهيونية أن تقنعنا بأدلة "علمية" أن الفلسطينيين هم الذين قتلوه ثم أراحت نفسها بإنكار موته أصلاً

(163) موقع العربية: إسرائيل تزعم أن الطفل محمد الدرة حي يرزق (20/ 5/ 2013)
http://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world

ويلاحظ متتبع "اكتشافات" المؤرخين المراجعين الذين يقلبون الطاولة على رءوس الروايات الغربية الرسمية بشأن جرائم الغرب في المشرق في القرنين الأخيرين، أن كل هذه "الاكتشافات" : كزيادة عدد الضحايا المسلمين على ضحايا الأرمن في "المجزرة الأرمنية" (جستن مكارثي)[164]، والدور الصهيوني المتعمد في التطهير العرقي في فلسطين 1948 (إيلان بابه)[165]، ودور الغرب في الاضطرابات التي ثارت في المشرق منذ قرنين (جيرمي سولت)[166]، وغيرها من الاكتشافات، تعتمد على عمليات توثيق غربية عاصرت الأحداث، وكان المسلمون وساستهم يصرخون في زمنها بوقوعها[167]، ولكن لم يسمعهم أحد آنذاك، أي أن المعلومات ليست جديدة، وهو ما يصح أيضاً على "الاكتشافات" الأمريكية فيما يتعلق بتاريخ الإبادة ضد الهنود الحمر[168]، ولكن "آلية التصحيح الذاتي في الحضارة الغربية" والتي يطرب التغريب بترديدها، لم تعمل إلا بعد فوات الأوان، وهذا يؤكد ما قاله الدكتور عبد الوهاب المسيري عن وجود كثير من الدارسين "خاصة المعجبين بالغرب، يرون أن الغرب قادر على تصحيح أخطائه أولاً بأول، وأنا شخصياً أشك في ذلك وإن كنت أتمناه، لأن هذا يعني أنه سيتخلى عن مستواه الاستهلاكي المرتفع الذي لا يتناسب مع حجم الموارد الطبيعية في العالم، وإذا تخلى الغرب عن منظومته القيمية التي تدور حول المنفعة واللذة والقوة-وأدعو الله أن يحدث ذلك- وتبنى منظومة أكثر إنسانية تدور حول فكرة التوازن والتآلف والتراحم فذلك

---

(164) جستن مكارثي، 2005.

(165) إيلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2007، ترجمة: أحمد خليفة.

(166) د. جيرمي سولت، 2011.

(167) السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية 1891-1908، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979.

- مصطفى كامل باشا، 1909.

(168) Gray Clayton Anderson, p. 10.

- دي براون، 1982.

في مصلحة الجميع، ولكني أعود وأكرر أني أشك في ذلك، وعلى أية حال الأزمة آخذة في التفاقم والاتساع"[169] وأيضاً "أن المعرفة لا تؤثر كثيراً في السلوك الأمريكي... فالثوابت الإستراتيجية لا يغير منها فهم أو سوء فهم المستشارين"، ومدى تعاطفهم مع الأعداء أو عدائهم لهم[170]، ولهذا حذر من تصور أن الغرب "عقلاني" وأننا يمكننا أن نقارع الحجة بالحجة ونقنعه بعدالة قضيتنا وخلل نموذجه وسلوكه الإمبريالي، فالغرب ليس مسيحياً ولا إنسانياً، بل هو وثني يدرك العالم بواسطة حواسه الخمس، ولا بد أن تأتيه شواهد مادية وليس مقولات عقلية، ولهذا كان من المستحيل إقناع أمريكا بأن غزو العراق سيضر بمصالحها ويفجر مشاكل عديدة، لأن جماعات الضغط من شركات النفط ومصانع السلاح كانت تضغط على النخبة الحاكمة وتزين لها المكاسب المادية من جراء العدوان، وكان لا بد من تصاعد المقاومة وتكاليف الحرب ووصول جثث الجنود حتى يبدأ الشعب الأمريكي بمراجعة نفسه وتبدأ السلطة الحاكمة بإعادة إجراء حسابات الربح والخسارة[171]، وقد رأينا أن إزالة الاستعمار جاءت في سياق ظروف قاهرة للمستعمِرين القدامى لم يستطيعوا تجاوزها، وقد تؤدي الجهود الإنسانية إلى نتائج ولكن بعد فوات الأوان وزوال المنافع من القضية محل الطلب، كما حدث في الأمثلة السابقة عن المؤرخين الجدد والتي تظل معلقة حتى تنفد منافعها فيعاد النظر في المظالم التي وقعت فيها، وهذا ما يدركه المجرمون أنفسهم فيحلمون بتلاشي أثر جرائمهم مع مرور الزمن مهما بلغت من الفظاعة، وقد تنبه الأديب الصهيوني عاموس عوز إلى هذه المسألة وقال في حديث مع مسئول كبير من الصهاينة: "ماذا لو قتلنا مليوناً من العرب، أو حتى ستة ملايين؟ إن التاريخ سينسى ذلك (ولكنه بالتأكيد لن ينسى الملايين الستة من اليهود ضحايا المحرقة النازية !)، ويأتي أدباؤنا ويكتبون روايات عظيمة عن المذابح التي ارتكبناها في حق العرب ومشاعر الذنب التي تنتاب

---

(169) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص45-46 و219.

(170) عبد الوهاب المسيري، 2005، ص466.

(171) الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص32.

الجيل الجديد، ويحصلون على جوائز نوبل في الأدب»[172].

وهذا بالضبط ما يحدث للكتاب الأمريكيين الذين رفضوا اضطهاد الهنود في زمنهم ويحتفى بأعمالهم اليوم ويصبحون، مثل هيلين هنت جاكسون (1830-1885)، رصيداً للمجتمع الذي ذبح الهندي ومع ذلك انطلقت منه أصوات حرة مثلها لترفض الجريمة[173] (!)، وهذا ما يريده الصهاينة لو انتصر مشروعهم لا سمح الله ليحتفوا بأعمال المؤرخ إيلان بابيه مثلاً بصفته دليلاً على مدى الحرية التي توفرت في المجتمع الديمقراطي الصهيوني (!) ولأن المجتمع الصهيوني لم يفرغ من الصراع بعد فمن الصعب أن نجد لديه هذا الإحساس الزائف بالذنب، وإن كنا نلمس فوارق في العدوانية بين سكان الكيان المحتل عام 1948 الذين طردوا أهل فلسطين من بينهم وسكان المستعمرات الاستيطانية المنهمكين يومياً في العراك مع الفلسطينيين، وقد لاحظنا أن بعض من قام بالاكتشافات المعاصرة كالمؤرخ الصهيوني بني موريس تراجع عن إنسانيته وعاد صهيونياً متشدداً ومطالباً بقمع الفلسطينيين[174] رغم كشوفه[175] عن الظلم الذي لحق بهم وذلك لأن المصالح ما زالت قائمة ولم تصبح ماضياً تاريخياً.

---

(172) الدكتور رشاد عبد الله الشامي، الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1988، ص177.

(173) دايان رافيتش (تحرير)، مختارات من الفكر الأمريكي: كلمات حركت أمة باسرها، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 1998، ترجمة: نمير عباس مظفر وصادق إبراهيم عودة، ص360-366.

(174) د. جيرمي سولت، ص437.

(175) بني موريس، طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين: وثيقة إسرائيلية، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمّان، 1992.

الباب الخامس

هل كانت الدولة العثمانية استعماراً؟
ولمن كانت إنجازاتها؟ وما هو حجم هذه الإنجازات؟
وهل تنطبق على هذه الدولة مواصفات الاستعمار؟
أم أنها وصفت بالاستعمار والتتريك بأثر رجعي
لإعادة رسم الماضي وفق رغبات الحاضر؟

الفتح الإسلامي والفتوح الاستعمارية ودلالة أعياد المسلمين وأعياد الاستقلال والجلاء:

تحاول بعض الدوائر الاستعمارية الغربية (مستشرق المحافظين الجدد برنارد لويس مثلاً: From Babel to Dragomans: Interpreting the Middle East, Oxford University Press, 2004, p.344) والتي لا تستطيع تبرئة أنفسها من الأطماع أن تصم المسلمين وبقية الحضارات بالإمبريالية لتلقي عن كاهلها أعباء الاتهامات فتقول: "لا فرق بيننا فكلنا يا عزيزي لصوص، ومع ذلك فنحن الأفضل"، ولكن الفرق شاسع جداً بين الفتوح الاستعمارية والفتح الإسلامي، الفتوح الاستعمارية الاستيطانية (الأمريكتان وأستراليا والجزائر وفلسطين وجنوب إفريقيا) قامت على طرد أو إبادة السكان الأصليين والحلول محلهم، الفتح الإسلامي سواء في الأندلس أو بقية البلاد لم يفعل شيئاً من هذا، كان القتال بين جيوش عسكرية واستمرت الحركة الاجتماعية على ما هي عليه في القاعدة، المسلمون في البلاد المفتوحة لم

يكونوا من العرب الخلص، كانوا من اختلاط هؤلاء بسكان البلاد الأصليين أو من السكان الأصليين أنفسهم الذين اعتنقوا الإسلام، لم يطرد المسلمون أحداً من أرضه، حتى الفرنجة الصليبيون ترك المسلمون لهم الخيار لمن يريد البقاء منهم في الشام بعد سقوط ممالكهم، وهناك بعض المواقع السكانية مازالت إلى اليوم معروفة بكونها من بقايا الفرنجة رغم أن أهلها مسلمون، الصهاينة طردوا الأهالي ليحلوا محلهم وهذا بعيد عن ممارسات المسلمين، أساس الاستعمار حتى غير الاستيطاني هو الاستغلال الاقتصادي والاستراتيجي لصالح المركز الاستعماري، ولهذا نرى البلاد المستعمِرة نهضت على حساب المستعمرات وهناك فرق شاسع بين أوضاع الطرفين بعد نهاية الحقبة الاستعمارية (فرنسا والجزائر مثلاً، مصر وبريطانيا، الهند وبريطانيا... وهكذا) أما المسلمون فأساس فتوحهم ضم الآخرين إلى عالمهم (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) مع تفاوت في التطبيق الذي يشوبه العيوب البشرية، ولهذا لا نرى تفاوتاً بين الأمم الإسلامية في التطور، لم يكن هناك فرق بين الأناضول وبقية البلاد العثمانية، ليس هناك سيد وتابع، الجميع عثمانيون، وحتى في البلاد غير المسلمة لم يكن العثمانيون محتلين أو متسلطين، ففي البلقان جلب الحكم العثماني الوحدة والأمان بدلاً من الصراع والفوضى السابقين، وتمتع الفلاحون بحرية أوسع كثيراً من العهود السابقة، ومنع تطبيق القانون العثماني تركيز ملكية الأراضي وتفتتها، وقد منح العثمانيون الأمان والازدهار لمجال العمل الفلاحي مما جعلهم يرثون نفس الولاء الذي دان به الفلاحون للبيزنطيين، وكان ذلك الأمان والازدهار تعويضاً عن جوانب نقص أخرى في الحكم العثماني (نفس المرجع السابق، ص 118)، وعندما حاول الأمويون تشجيع الاستعلاء العربي على الشعوب لم تدم دولتهم أكثر من عمر رجل واحد (92 سنة) ثم تلقف الأعاجم رسالة الإسلام وقام صرحها على أكتافهم، الحضارة الإسلامية قامت على أكتاف الآخر (غير العرب)، أما الحضارة الغربية فقامت على جماجم الآخر (غير الأوروبي)، ولهذا نرى أن الأمم الأجنبية غير العربية التي دخلها الإسلام ما زالت تحتفل بأعياد المسلمين لأنها متمسكة بالإسلام، أما الأمم التي دخلها

الاستعمار فإنها تجعل من فراق المستعمِرين عيداً قومياً (أعياد الجلاء والاستقلال في كل العالم الثالث)، ويمكن أن نلحظ تناقض الأثرين الإسلامي والأوروبي فيما تركه الطرفان في بلد واسع كشبه القارة الهندية حيث التغلغل الإسلامي وقلة الوجود المسيحي رغم قرون الهيمنة ورؤية البعض المنحازة أن الطرفين سواء وهما دخيلان، ونرى مثالاً لتمسك الأمم الأجنبية بالإسلام في الحرب الضروس التي احتاجت إسبانيا لشنها على الموريسكيين كي تقتلع الإسلام منهم ومازال منهم اليوم بعد 500 سنة من العنف من يتمسك بجذوره الإسلامية، في الوقت الذي شنت الأمم المقهورة حروب مقاومة ضروساً على المستعمِرين الأوروبيين لتخرجهم من بلادها، وحتى من بهر بالحضارة الغربية لم تبهره معاملة الأوروبيين لغيرهم.

وغالباً ما يكون الانطباع العام عن الدولة العثمانية تعميماً مخلاً لما تركته آخر أيامها من انطباعات في ذهنية الأجيال المعاصرة، فليس من النادر أن نسمع أنها عملت على تتريك العرب، مع أن هذه كانت سياسة جمعية الاتحاد والترقي بعد سنة 1908، ولو كانت قد انتهجت هذه السياسة منذ أربعمائة سنة لما ظل هناك من يتكلم العربية وبخاصة عند المقارنة بنتائج سياسة الفرنسة التي طبقتها فرنسا في المغرب العربي مدة أقل من ذلك، بل إن هناك من يرى أن عدم انتهاج سياسة التتريك هو ما أدى إلى المآسي التي تعرض لها العثمانيون في القرن التاسع عشر من القوميات المسيحية في أوروبا وروسيا[1]، إذ لو كان العثمانيون قد قاموا بتتريك هذه المناطق وإجبار أهاليها على الرحيل لو رفضوا ذلك لما ظل هناك من يناوئ الدولة وتستعمله الدول الكبرى ضدها في مراحل ضعفها المتأخرة، وفي ذلك يقول المؤرخ مجيد خدوري: "ولم يفرض الإسلام نفسه على أتباع الديانات الأخرى، بل كانت الأقليات الدينية، برغم بعض القيود الخاصة بالشرع، تتمتع بحرية واسعة في ممارسة حقوق دينية ومدنية عزت على الأقليات في

(1) جستن مكارثي، ص36-37.

المجتمع الأوروبي المعاصر، وثابر السلاطنة العثمانيون على تطبيق هذه السياسة في أقاليم أوروبا الشرقية التي احتلوها، فبقيت تسكنها أكثرية مسيحية، ذلك لأن الإمبراطورية العثمانية ورثت الطابع المسكوني الذي يميز المجتمع الإسلامي، فأجازت لغير المسلمين التمتع بحرية دينية واسعة"، هذا عن العناصر الأجنبية، أما الأتراك والعرب، وهما العنصران السائدان في امبراطورية دينية في جوهرها، فقد وجدا "ارتياحاً روحياً في ظل سلاطين أثبتوا أنهم خير ورثة للخلفاء العرب"[2].

وقد حظي العرب بمنزلة خاصة داخل الدولة، وعن مكانتهم في الدولة العثمانية، يتحدث المؤرخ زين نور الدين زين في كتاب "نشوء القومية العربية" عن التعميمات المخلة التي طبعت أفكار الأجيال عن العلاقات العربية التركية في ظل الدولة العثمانية فيقول إنه "ليس صواباً القول إن العرب المسلمين ظلوا طوال أربع مئة سنة أمة مستضعفة تحت نير الأتراك، أو إن البلدان العربية نُهبت خيراتها وخيم عليها الفقر من جراء الاحتلال التركي. كذلك ليس صواباً القول إن العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم أن يتقلدوا سلاحاً أو أن ينضووا تحت العلم العثماني للخدمة العسكرية، ذلك لأن جيوشاً عربية وضباطاً عرباً من ذوي المراكز العسكرية العالية كانوا يعملون في الجيش العثماني... وقد شغل عدد كبير من العرب وظائف عالية حساسة في الإمبراطورية العثمانية... والواقع إن الأتراك كانوا عندما يتكلمون عن العرب يقولون عنهم (قوم نجيب)، كذلك كان العثمانيون في بادئ أمرهم ينظرون إلى الولايات التي يتكلم أهلها العربية نظرة إكرام لم ينظروا بها إلى سائر الولايات التي دخلت امبراطورية السلطان وذلك لسبب واضح وهو أن سكان الولايات العربية يتكلمون اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وأكثرهم كانوا مسلمين"[3] نقلاً عن كتاب المجتمع الإسلامي والغرب

(2) الدكتور مجيد خدوري، 1985، ص24-25.

(3) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، 1986، ص26-27.

للمستشرقين جب وبوون اللذين فندا التعميمات والعبارات الجارفة التي كتبت عن القرون الأولى من الحكم العثماني والتي كان مروجوها يجهلون وفرة الوثائق التاريخية التي يجب أن يطلع عليها الباحث كما كانوا على كثير من التحيز والتعصب كما يقول زين نقلاً عن هذين المستشرقين اللذين اعتنقا تلك التعميمات المخلة عن العثمانيين في بداية دراستهما ثم تبدلت آراؤهما بعد عرض الوثائق والمعطيات العلمية "تبديلاً تاماً"[4]، ومن الظلم أن نعمم فترة التتريك القصيرة التي حكمت فيها جمعية الاتحاد والترقي (1908-1918) على أربعمائة سنة خلت من ذلك حتى أن رئيس وزراء العراق السابق نوري السعيد الذي اشترك في الثورة العربية على حكم الاتحاديين شهد أن العرب بصفتهم مسلمين كانوا يعدون " شركاء للأتراك، كانوا يشتركون معهم في الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصري، وكانت الوظائف العليا في الدولة سواء العسكرية أم المدنية مفتوحة للعرب، وقد كان للعرب ممثلون في مجلسي البرلمان العثماني، أصبح كثير منهم رؤساء وزارة، ومنهم من كان شيخ الإسلام ومن أصبح قائداً عسكرياً أو والياً، فكنت ترى الموظفين العرب في جميع دوائر الدولة"[5].

وكما مات العرب في حروب الدولة بطريقة رفضها بعض المعارضين بسبب ما وصفوه بزج العرب في حروب بعيدة عنهم، فقد مات الأتراك أنفسهم أيضاً دفاعاً عن العرب، ومن أمثلة ذلك استشهاد 10 آلاف تركي في معركة خاسرة عندما هجمت فرنسا على الجزائر سنة 1830 كما يقول المؤرخ السوفييتي فلاديمير لوتسكي[6].

ونجد في آثار الأستاذ أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، والذي مثل دولاً عربية في الهيئات والمحافل الدولية، تحسراً كبيراً على العهد العثماني ومن ذلك قوله: "كان العرب هم العنصر النجيب

(4) نفس المرجع، ص21.
(5) نفس المرجع، ص20-21.
(6) لوتسكي، ص188.

كما كان يسميهم الأتراك، وفي مدينتي عكا كان الأطفال الأتراك ..يعرفون أنفسهم بأنهم عثمانيون، ولم أسمع أحداً يقول إنه تركي"[7].

أما عن اللغة العربية فيؤكد المؤرخ زين ابتداء أن الأتراك لم يحاولوا تتريك الأعراق البشرية التي دخلت ضمن دولتهم[8]، ويورد المؤرخ نفسه دلائل عديدة طبعت الدولة العثمانية بطابعها الإسلامي "وأظهرت ما كان للغة العربية من شأن عظيم في تلك الامبراطورية"، فأسماء السلاطين كانت عربية، وأختامهم كان عليها كتابات عربية، ورايات الدولة تتعدد ألوانها وأحجامها "لكن هناك أمراً واحداً مشتركاً بينها وهو أن على حواشي الرايات آيات قرآنية عربية مطرزة... فليس في هذه الرايات أثر أو طابع تركي، بل عربي إسلامي"،ومن هذه الدلائل أيضاً أسماء السفن والبواخر العثمانية التي نقشت على لوحات مازال ثلاثون منها في استانبول إلى اليوم تحمل أسماء عربية مثل سليمية ومحمودية ومجيدية[9]، وكل ما سبق يتعلق برموز الدولة التي تدل على هويتها ولم يتطرق الحديث إلى إتقان السلاطين اللغة العربية إلى درجة نظم الشعر بها، أما لغة التعليم في الدولة فقد كانت حتى التنظيمات التغريبية (1839) هي اللغة العربية كما يقول الدكتور فاضل بيات في كتابه دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ويقول أيضاً إنه على الرغم من استخدام العثمانيين اللغة التركية في الأمور الرسمية فإنهم لم يدرسوها في أية مؤسسة من مؤسساتهم بل جعلوا اللغة العربية لغة التعليم في المدارس وظلت لغة التدريس في المدارس الإسلامية في جميع الممتلكات العثمانية طوال العهد العثماني ولم تدخل اللغة الفارسية والتركية فيها إلا بعد سنة 1908[10]، ويقول المؤرخ فيليب كورتن إن معظم رعايا

---

(7) أحمد الشقيري، ج1 (المذكرات-1) ص720 (حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء ص8).

(8) زين نور الدين زين، 1986، ص21.

(9) نفس المرجع، ص24-25.

(10) أ. د. فاضل مهدي بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003، ص372-373.

الدولة العثمانية كانوا لا يجيدون التركية كإجادتهم لغاتهم رغم أن اللغة التركية هي لغة المعاملات الرسمية[11].

وكانت القاهرة هي المدينة الثانية في الدولة، فكانت تلي العاصمة اسطنبول مباشرة في الأهمية تليها مدينة حلب، العربية أيضاً[12]، ويصف الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم مصر العثمانية بأنها كانت "محور العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب... وهي مركز لعمليات التصدير والاستيراد مع كل من البلدان الأوروبية والإفريقية والآسيوية"[13]، كما يصف المؤرخ روجين روجان وضع حلب داخل العالم العثماني بالقول إن أهلها لم يكونوا يعرفون "أن الفتح العثماني سيأتي لمدينتهم بعصر ذهبي يمتد حتى القرن الثامن عشر، تصبح فيه المدينة واحدة من أهم مراكز التجارة البرية بين آسيا ودول البحر المتوسط... وأصبحت من أكثر مدن العالم العربي عالمية"[14]، فهل احتفى المستعمرون البريطانيون بالقاهرة وجعلوها تلي لندن في امبراطوريتهم، أم هل اهتم الفرنسيون بحلب وجعلوها تلي باريس في الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية؟

وسيطول الحديث لو تكلمنا عن مكانة العرب في زمن السلطان عبد الحميد في آخر أيام الخلافة عندما جعلهم مركز مشروع الجامعة الإسلامية وأكثر من رجالهم في المراكز العليا حتى أصبح القصر السلطاني يوصف بأنه تحت سيطرتهم. وقد رفض السلطان عبد الحميد بيع فلسطين لهرتزل تقديراً

---

(11) فيليب كورتن، العالم والغرب: التحدي الأوروبي والاستجابة فيما وراء البحار في عصور الإمبراطوريات، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007، ترجمة: رضوان السيد، ص273.

(12) إدهم إلدم ودانيال غوفمان وبروس ماسترز، المدينة العثمانية بين الشرق والغرب: حلب-إزمير-إسطنبول، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004، ترجمة: د. رلى ذبيان، ص67.
- أندري كلو، سليمان القانوني: مثل من التمازج بين الهوية والحداثة، دار الجيل، بيروت، 1991، ترجمة: البشير بن سلامه، ص376.

(13) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العصر العثماني 1517-1789، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد التاسع، المجلد الثالث، شتاء 1983، ص16-17.

(14) يوجين روجان، ص37.

لتضحيات جنوده السوريين والفلسطينيين في معارك الدفاع عن دولتهم جميعا، وهو ما يوحي بأن التضحيات كانت موضع تقدير وليس كما حدث عند المستعمرين الذين جندوا أبناءنا في حروبهم العبثية ثم قتلوهم لما طالبوا بحريتهم (مجازر 8 مايو/ أيار/ ماي في الجزائر 1945 مثلاً)، كما انعدم هذا التقدير حتى عند زعامات التجزئة الوطنية، ويقول المؤرخ فيليب مانسل إن "عبد الحميد الثاني عمد إلى توفير المال وتركيز الاهتمام على الأقاليم العربية بحيث فضّلها على العديد من المناطق التركية"[15]، وأكد ذلك المشاريع الحيوية التي قام بها وبدأ بعضها بالبلاد العربية قبل الأناضول كسكة الحجاز إضافة لسكة بغداد وتطوير بيروت وحيفا ومعان وتبوك ودرعا وبناء بئر السبع لمواجهة الاحتلال البريطاني في مصر وبناء العمارة والناصرية في العراق قبل ذلك وكلها مشاريع حيوية لو استمرت لأحدثت تطوراً كبيراً للحالة الوحدوية التي كانت تجمعنا ولكن دول الاستقلال والتجزئة العربية أوقفتها أو هدمتها أو عطلتها بالتعاون مع الاستعمار.



السلطان عبد الحميد الثاني (1876–1909) شهد عهده صعود مكانة العرب في الدولة العثمانية انسجاماً مع فكرة الجامعة الإسلامية، هيمن الأتراك على الوزارة ولكن العرب هيمنوا على القصر السلطاني ذاته، ويجمع المؤرخون على أن فكرة الانفصال القومي العربي عن الدولة لم تظهر إلا ابتداء من سنة الثورة عليه وبداية حكم الاتحاديين (1908)، الصورة للسلطان قبل توليه الحكم (1867).

(15) سوسن آغا قصاب وخالد عمر تدمري، بيروت والسلطان: 200 صورة من محفوظات عبد الحميد الثاني 1876-1909، منشورات تراب لبنان بالتعاون مع بلدية بيروت، بيروت، 2002، ص7.

كل ما سبق من الحقائق لا يتفق مع مفهوم الاستعمار الذي حاولت بعض الكتابات إلصاقه بالحكم العثماني في البلاد العربية، لاسيما أن العثمانيين هم الذين صدوا الغزوات الاستعمارية منذ بدايتها عن أجزاء واسعة من العالم العربي في المشرق والمغرب بدعوات استغاثة من العرب أنفسهم ضد الإسبان والبرتغاليين، وإن أساس ذلك المفهوم الذي يعرّف الاستعمار هو الفصل الحاسم والتناقض الواضح بين حال المستعمِر (المركز) والمستعمَر (الأطراف) في ظل الحكم الاستعماري، لأن إمكانات المستعمَر تكون مسخرة لمصالح المستعمِر فيحصل من ذلك تقدمه وتطوره على حساب المحكوم الذي يصيبه التأخر والتخلف من هذا الاستنزاف.

ولم نجد أن الحكم العثماني فضّل مركزاً تركياً (الأناضول مثلاً) على بقية أنحاء الدولة، بل وجدنا أحياناً تفضيل "الأطراف" العربية على "المركز" التركي، كما سبقت الإشارة، والأصح أن وحدة المصير هي التي حكمت تاريخ هذه الدولة، فما أصاب التركي من نِعم أو مصائب أصاب بقية القوميات أيضاً، وفي نهاية الحكم العثماني في الأقطار العربية لم يكن حال الأناضول أفضل من حالها، كما أن الفكرة القومية التي ترفض حكماً من خارج دائرتها لم تكن معروفة حتى أواخر العهد العثماني الذي سيطر فيه الولاء الديني على الولاءات القومية وغيرها[16]، ولهذا يصبح توصيف الحكم العثماني بالاستعمار هو من باب المفارقة التاريخية التي تجمع نقيضين لم يجتمعا في زمن واحد كعبارة التلفزيون الإغريقي أو الهاتف الفرعوني، والدليل الأقوى على ذلك أن معظم أصحاب الشأن، وهم العرب الذين عاصروا دخول بلادهم ضمن الدولة العثمانية "نظروا بعين الرضا لوضعهم في ظل الإمبراطورية العالمية التي سادت في ذلك العصر على اعتبار أنهم مسلمون في إمبراطورية إسلامية عظمى" كما يقول المؤرخ يوجين روجان[17]، ويؤكد المؤرخ السوفييتي نيقولاي إيفانوف ذلك بالقول

---

(16) زين نور الدين زين، 1986، ص60.

(17) يوجين روجان، ص18.

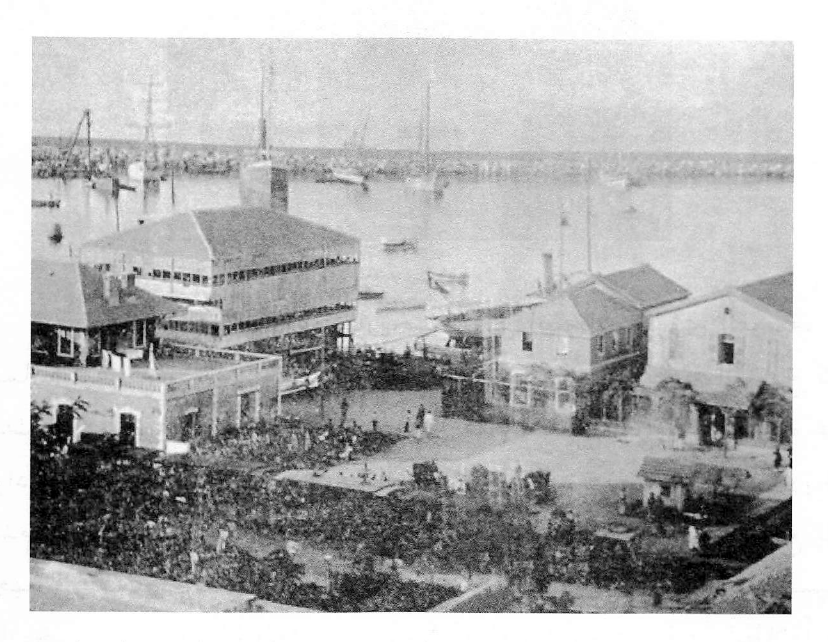
إن العرب عندما التحقوا بالسلطنة العثمانية "لم يشعروا أنهم في وضع الشعوب المحرومة من الحقوق أو المضطهدة، وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظلوا يعارضون اعتبار الفتح العثماني استعباداً أجنبياً، وقد أشار أحد أكبر أيديولوجيي القومية العربية الحديثة، المؤرخ السوري المرموق ساطع الحصري في مؤلفاته إلى أن العرب اعتبروا حكم السلاطين العثمانيين استمراراً مباشراً للخلافة الإسلامية وأنهم لم يشعروا بأنهم شعب مستعمَر تابع لسلطة أجنبية"[18]، وذلك خلافاً لنظرة العرب إلى حكم الاحتلال الأوروبي الذي حل بهم بعد ذلك، وفي توصيف حكم العثمانيين بالاحتلال مزايدة لم يشعر المعنيون بها بالحاجة إليها في زمنهم وهي إسقاط آراء مستقبلية على وضع ماض لم يكن لها مكان فيه، وليّ لعنق التاريخ ليناسب أهواء لحظة معينة تود أن ترسمه بما يناسب رؤاها وحدها بغض النظر عما حدث فعلاً، فيصبح التأريخ حينئذ ليس مجرد تدوين الحوادث الماضية بأمانة بل إعادة تركيبها بما يناسب حاجات الحاضر، وهو إجراء يشبه إلى حد ما ما يفعله من يريدون اليوم تقديم الاعتذار للاستعمار الغربي بسبب عدم تفهم أجدادنا لمقاصده الخيرة، ومقاومتهم إياه، رغم أن هؤلاء المعتذرين لم يجرءوا، حتى الآن على الأقل، على الزعم أن بلادنا رحبت بالمستعمرين !!

وقد واجهت فكرة الاستعمار العثماني معضلة كبرى كان لا بد من حلها وهي طول فترة الحكم العثماني للبلاد العربية، وكان سكوت العرب طوال أربعمائة سنة مدعاة لإحراج أصحاب هذه الفكرة[19] فكانوا بين خيار رفض هذا الواقع ومن ثم تخيل البديل في "قرون من المقاومة العربية" لا توجد إلا في خيالهم الذي حوّر الطموحات الشخصية لبعض الزعماء

(18) نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، دار الفارابي، بيروت، 2004، ترجمة: يوسف عطا الله، ص315.

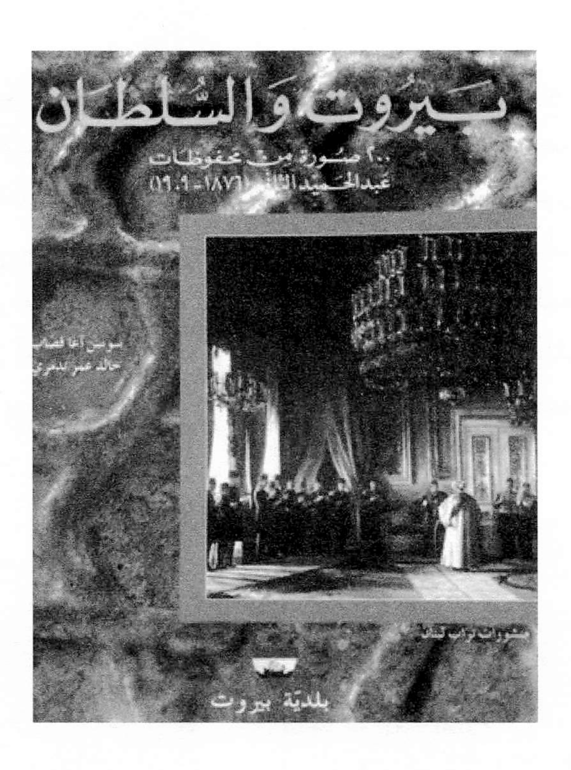
(19) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني (الدراسات الخاصة)، هيئة الموسوعة الفلسطينية، بيروت، 1990، ج 3 (دراسات الحضارة) ص666 (الأستاذ فكتور سحاب، الفكر السياسي الفلسطيني بعد عام 1948: الكتابات السياسية الفلسطينية حول قضايا أخرى).

المحليين-وكثير منهم من غير العرب[20]- لتصبح هبّات ثورية قومية، فكيف أمكن لدولة ضعيفة معزولة راكدة، كما وصفوها، التغلب على مقاومة الجماهير الكاسحة في وقت لم تستطع أقوى الامبراطوريات الحديثة الاستمرار في حكم قطر من الأقطار الثائرة لهذه الدولة الشاسعة، وهو الجزائر، أكثر من 132 سنة، وهي أطول مدة استعمارية لقطر عربي؟ أما الخيار الثاني أمام أنصار فكرة الاستعمار العثماني فهو القبول باستكانة الجماهير العربية لعبودية هذا الاستعمار ووصم أمتهم بالخضوع الذليل هذه المدة الطويلة.



حصلت مدينة بيروت في زمن السلطان عبد الحميد الثاني على اهتمام خاص أدى بها إلى تطورات عمرانية وتعليمية وصحية وفي المواصلات البرية والبحرية والبنية التحتية كالمياه والإنارة والمرافق التجميلية كالحدائق والمنتزهات مما جعلها درة آل عثمان كما وصفها الإمبراطور الألماني ويلهلم الثاني، وقد وثق هذا الاهتمام بكتاب خاص أصدرته بلدية بيروت سنة 2002 ومنه صورة المرفأ الذي مر بتطورات ملحوظة كما جاء في ألبومات السلطان عبد الحميد.

(20) يوجين روجان، ص65-67.



ولأن هذين الخيارين غير تاريخيين نحى أصحاب الرؤى القومية، بل والماركسية أيضاً، التي تتسم بالواقعية التاريخية، أي بفهم التاريخ كما حدث لا كما ترغب الأيديولوجيات، إلى عدم إسقاط العناوين الجاهزة على حوادث مغايرة لأصولها، والاعتدال في النظر إلى هذه المرحلة التاريخية وعدم الحماس لوضعها داخل القوالب الجاهزة للفكر المستورد، مع بذل الجهد في محاولة تعديله وفقاً لمتغيرات تاريخنا، ذلك لأن إغفال السياق التاريخي لنشوء الدولة العثمانية ومحاولة فهم الحوادث فيها انطلاقاً من معايير قومية أوروبية "أحدثا اضطراباً في تحليل كثير من المؤرخين العرب" كما يقول المفكر العربي الأستاذ فكتور سحّاب[21]، وقد حدث ذلك في مرحلة تميزت بسيادة النقل العام عن الشرق والغرب دون محاولة تعديل الأفكار لتلائم تغيرات الواقع.

---

(21) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج 3 ص666.

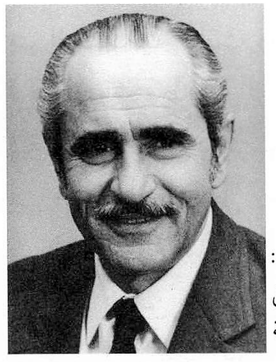
ولعل أبرز الأصوات القومية في هذا المجال هو الأستاذ أحمد الشقيري الذي رفض وصف الحكم العثماني بالاحتلال أو الاستعمار وأبرز مزاياه للعرب مقارنة بما حل بعده من انتداب وتجزئة وأكد أن الأمة العربية ابتهجت بانتقال الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين الذين كانوا يمثلون القوة والمنعة والنصر للإسلام، وأن العرب تعاطفوا مع هذه الدولة ورضوا بوضع الخلافة بين يديها وتناسوا الشرط الديني بأن يكون الخليفة عربياً قرشياً لأن الانتصارات العثمانية تحت راية الجهاد لم تترك مجالاً للنقاش حول مؤهلات الخليفة وشروطه، وأن الدولة العثمانية كانت دولة مشتركة وليست هيمنة أحادية ولهذا أحس العرب أنها دولتهم وخلافتهم وتمتعوا فيها بمزايا المشاركة في الحكم والتمثيل وحرية التنقل، بل إنه ذهب إلى وصفها بأنها آخر تجليات الوحدة العربية وأن عاصمتها كانت عاصمة لوحدة العرب، وأن سير الحوادث كان من الممكن أن يتجه إلى الأفضل لولا حكم جمعية الاتحاد والترقي الذي فصل بين الشعبين[22].

وعلى الضفة الماركسية ينحو القائد الشيوعي الفلسطيني إميل توما إلى تحليل غير مقيد بالإملاءات المستوردة ويقول عنه الأستاذ سحّاب إن "توما الماركسي التقليدي، يدهشك بموقف من الدولة العثمانية، لم يدركه معظم الكتّاب القوميين، وهو أن الدولة العثمانية ليست حكماً أجنبياً بالمعايير الذاتية لسياق الدولة الإسلامية التاريخي... غير أن توما، وهو يؤكد هذا الأمر بشجاعة وحصافة فكرية، توقف عند هذا، ولم يوغل في الاستنتاج المترتب على هذا القول، وهو أن كثيراً من القيادات القومية العربية، بل إن كثيراً من الأفكار القومية العربية يحتاج إلى إعادة نظر وتقويم في ضوء هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن السلطنة العثمانية لم تكن استعماراً بالمعنى الذي نعرفه اليوم للاستعمار الأوروبي، ولا كانت حوافز الحركة القومية آنذاك

---

(22) أحمد الشقيري، ج 3 (الكتب والدراسات القومية-1) ص2525-2544 و2561 (علم واحد وعشرون نجمة) وج 4 (الكتب والدراسات القومية-2) ص3382 (صفحات في القضية العربية).

حوافز تستحق الإكبار الذي تستحقه منا اليوم حركة التحرير الاستقلالية الذاتية غير الموحى بها لمصالح أجنبية معينة"[23]، وتصل المفارقة منتهاها عندما يصف ورثة توما الفلسطينيون الدولة العثمانية بالاحتلال العثماني في نفس الوقت الذي يصادقون فيه على "حق" الكيان الصهيوني في معظم أرض فلسطين ولا يصفونه بالاحتلال، ولو مجرد وصف لفظي خال من التبعات العملية !!



القائد الشيوعي الفلسطيني إميل توما (1919–1985): الدولة العثمانية لم تكن حكماً أجنبياً في السياق التاريخي للدولة الإسلامية

ومن الأصوات الأكاديمية المنصفة التي نفت الصفة الاستعمارية عن الدولة العثمانية المؤرخة المصرية نيللي حنا التي استندت في رأيها هذا إلى مقارنة الحكم العثماني بالحكم الاستعماري البريطاني والفرنسي، فوجدت أن العثمانيين لم يحاولوا تغيير اللغة المحلية أو تغيير النمط الاقتصادي بما يخدم اقتصادهم، أما الفرنسيون فقاموا بفرض لغتهم في الجزائر وقام الإنجليز بنفس العمل في مصر، هذا بالإضافة إلى تغيير النمط الاقتصادي في البلاد التي احتلوها لتصبح مزارع لمصانع المراكز الاستعمارية، كما فعلت بريطانيا بزراعة القطن في مصر مثلاً، ومن كل هذا تخلص المؤرخة حنا إلى أن عدم حدوث هذه التغيرات في الحقبة العثمانية يجعل من وصفها بالاحتلال وصفاً غير دقيق[24].

---

(23) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج3 ص679.

(24) موقع صحيفة "اليوم السابع" الإلكترونية (الثلاثاء 30 إبريل 2013)
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=1043199 (6/3/2014)



الدكتورة نيللي حنا: صفات الاحتلال لا تنطبق على الدولة العثمانية وعهدها من أقل الفترات التي شهدت فتناً طائفية.

والخلاصة إن مقولة "الاحتلال العثماني" لا تسر صاحبها، فمن يروج لمقولة "الاحتلال العثماني" لا يدري أنه يذم أمة العرب من حيث هو يريد أن يمدحها وينصرها، لأن كلامه يستلزم أنها أمة استكانت أربعة قرون لاحتلالها رغم القوى الكبرى المحيطة التي كانت تستغل أية بادرة ثورة لتذكيها ومع ذلك استغرق الحكم العثماني هذه المدة الطويلة، فهذا يعني وفقاً لهذا التحليل أن العثمانيين حكموا أمة جبانة ضعيفة مستكينة ذليلة كانت في انتظار ظهور لورنس المنتظر ليملأ أرجاءها قسطاً وعدلاً بعدما ملأها العثمانيون ظلماً وجوراً، هذا هو مضمون مقولة "الاستعمار العثماني"، وعلى مروجيها أن يعوا ذلك جيداً قبل الاسترسال في نشرها، فالأتراك لم يكونوا بقوة الفرنسيين أطول المستعمرين بقاء في بلادنا بعد نهوضهم والذين لم يستطيعوا المكوث في بقعة محدودة من العالم العربي كالجزائر أكثر من قرن واحد وثلث، وكل المستعمرين الكبار كانوا أقل استمراراً من ذلك، ومع ذلك ظل العثمانيون في الوطن العربي كله أربعة قرون، فعلى من يتبنى وصف الدولة العثمانية بالاحتلال الإجابة عن السؤال: أين كان العرب الأبطال الصناديد آنذاك !؟ ولا يبقى لدينا إلا الخيار الآخر والذي يؤكده المؤرخون المحايدون وهو أن الحكم العثماني لم يكن احتلالاً ولا استعماراً، على الأقل من وجهة نظر العرب الذين عايشوه، وإن أرغم ذلك أنوفاً حاولت تعديل مسار التاريخ بالإنجليز والفرنسيين والطليان ... بل والصهاينة أيضاً(!)

رغم الفروق بين الإمكانات العثمانية والاستعمارية، لم تتخلف الإنجازات العثمانية عن "التنمية الاستعمارية" مع الفارق في الهدف.

تميل بعض الدراسات "المحايدة"، بل المتأثرة بالمدرسة الاستعمارية التي تعدد "إنجازات" مراحل الاحتلال الأوروبي وفقاً للحسابات المادية وحدها دون الاهتمام بالقهر الذي مارسه على السكان الأصليين، وهي مفارقة بحاجة إلى تفسير مقنع لم يقدم حتى الآن، فإذا كان الاستعمار حاملاً الفوائد لمن يحكمهم، ففيم استخدام القهر وسلب الحرية؟ ومتى كانت هذه الوسائل هي سبل الإفادة في نظر الغرب الذي ادعى دوماً نشر الحرية ومحاربة الاستبداد؟

ولو عدنا إلى المقاييس المادية المجردة سنجد أن بلادنا الموحدة تحت اللواء العثماني نالها من التطور ما نالته مصر تحت الاحتلال البريطاني بسبب تطوير مصالحه فيها، وفي ذلك يقول المؤرخ زاكري كارابل: "أدى الاحتلال البريطاني لمصر في العام 1882 إلى فترة طويلة من التطور الاقتصادي (سبقت الإشارة إلى الأسباب والمستفيدين من ذلك)، وبالرغم من عدم توزيع الأرباح بالتساوي، فإن الاقتصاد شهد مع ذلك فورة تشبه ما في كبريات العواصم الأجنبية، كما أن أمراً مماثلاً حدث في الإمبراطورية العثمانية التي كانت ما تزال مستقلة آنذاك، حيث عمدت في أواخر القرن تحت حكم السلطان المستبد والماكر عبد الحميد الثاني إلى الميل إلى ألمانيا ذات القدرات المتنامية الموازية في ثقلها لفرنسا وإنكلترا وروسيا، وعملت البنوك الألمانية بشكل وثيق على إنشاء خط بغداد الحديدي، لربط أقاليم العراق بتركية المركزية وإسطنبول"[25]، والسؤال البديهي بعد ذلك هو: مع التسليم جدلاً بتساوي الخيارات أمامنا، وإذا كانت التنمية قادمة مع الاستقلال والاحتلال، فلماذا نختار الاحتلال ونفضل خسارة الحرية على الاستقلال والوحدة والقوة؟

---

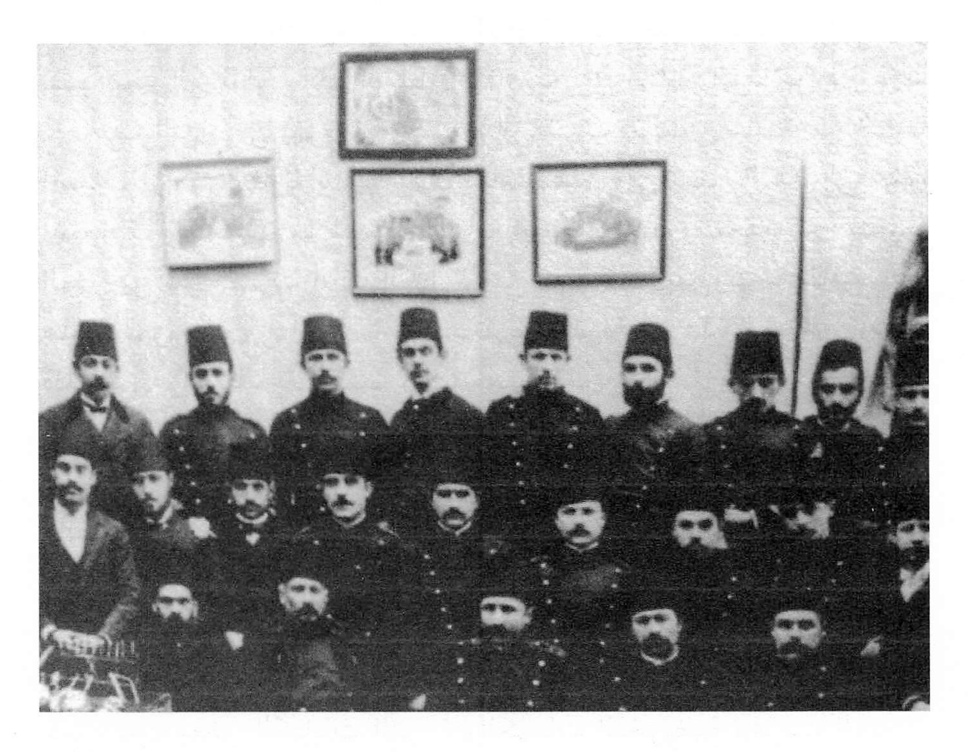
(25) زاكري كارابل، ص290.

وتؤكد تجربة نمو التعليم في الدولة العثمانية بعيداً عن جيوش الاحتلال أن التطور لم يكن بحاجة لحلول الجيوش الاستعمارية في بلادنا وأننا كنا بصدد تحقيق هذا التطور لو لم يقطع الاستعمار طريقنا لأجل مصالحه، وعن هذه التطورات يقول المؤرخون كلاماً كثيراً منه على سبيل المثال إنه تم في زمن السلطان عبد الحميد الثاني تأسيس كليات الهندسة، والطب، والعلوم، والآداب، والحقوق، والعلوم السياسية، والفنون الجميلة، والتجارة، والزراعة، والبيطرة ومعاهد المعادن، والغابات، والتجارة العسكرية، والمعلمين واللغات، كما تم بناء المدارس الابتدائية ونشرها في قرى السلطنة، بالإضافة إلى المدارس المتوسطة في مراكز الأقضية والمدارس الثانوية في مراكز الألوية، هذا بعد أن كان بناء المدارس يسير ببطء إلى بداية حكم السلطان وقد نتج عن انتشار المدارس في عهده تضاعف أعداد من يقرءون ويكتبون إلى نسب عالية وصلت إلى خمسة أضعاف أو أكثر مقارنة ببداية القرن التاسع عشر وفي بعض المدن إلى عشرة أضعاف(26)، فكان ما شهدته الدولة انفجار أو فورة تعليمية- بتعبير المؤرخيْن شو- نشرت آلاف المدارس في كل مكان فيها ونهضة ثقافية عدها هذان المؤرخان من أغزر ما شهده تاريخ الدولة في هذا المجال، وتمثل ذلك في غزارة طباعة الكتب والصحف والمجلات: "زيادة معرفة القراءة والكتابة في زمن السلطان عبد الحميد ساهمت في نمو النشاط الثقافي، فقد بنيت كثير من المكتبات العامة، وازدهرت الطباعة بآلاف الكتب والدوريات والصحف والكتيبات التي غمرت أيدي جمهور متعطش للقراءة، وباستعمال الطباعة، احتل المؤلفون مكان العلماء بصفتهم قادة الثقافة وساهموا في التعليم الجماهيري العام"، وبعد الحديث عن الرقابة التي أسسها السلطان في وزارة التعليم ومنعت انتقاده مع السماح بنقد الوزراء نقداً غير عنيف، كما منعت بعض الكتابات الثورية والكلمات التحريضية وغرمت الصحف المخالفة، وهي الممارسات التي جعلت من السلطان عدواً للصحافة عند الثوار، يعود المؤرخان للاستدراك بما يلي: "ولكن في الحقيقة أن غزارة

---

(26) يلماز أوزتونا، ج2ص146.
- دونالد كواترت، ص299.

المطبوعات غمرت الرقابة مما جعل تطبيق القوانين الرقابية متقطعاً، واعتباطياً وبشكل أخرق تعوزه البراعة ولكنه خال من (الفعالية) التي أصبحت تسم جهود الرقابة حول العالم حديثاً: فالكتب الممنوعة كانت تمر تحت عناوين أخرى، والمواد المحرضة كانت تروغ من الرقابة، وكثير من الأعمال كانت ترسل بالبريد الأجنبي، وقد تمكن كثير من الكتّاب من تلبية حاجات الجمهور دون خرق القوانين وهو ما نتج عنه عدد ضخم من الروايات والمقالات والكراسات وكتب أخرى مختلفة ومنتشرة وهو ما جعل هذه الحقبة واحدة من أكثر الحقب الثقافية حيوية في التاريخ العثماني ولا يبزها إلا ما جاء بعدها"[27].



كان التعليم يسير بخطى ثابتة في بلادنا المستقلة دون الحاجة "لجهود" الاستعمار: مدرسة الطب السلطانية في اسطنبول سنة 1900 [28]

(27) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw, Vol. II. pp. 251-252, 255.

(28) دونالد كواترت، ص301.

وفي هذا المجال يقول المؤرخ بيتر مانسفيلد إن المفصل الأكثر فعالية من الإصلاحات التي أطلقها السلطان عبد الحميد وسيطر على إدارتها أكثر من أسلافه كان التحسن المتواصل والمتوسع في مجالات التعليم والتثقيف المدني والعسكري على حد سواء[29]، وإن الإصلاح في حقل التعليم العام كان هو الأكثر نجاحا لاسيما في المستويات العليا، وقد اتسع انتشار كليات تدريب الخدمة المدنية وكليات التدريب الحربية، كما تم تأسيس وتحسين أكثر من ثماني عشرة مدرسة للتعليم العالي والتعليم الحرفي، وفتحت جامعة اسطنبول أبوابها بعد طول تأخير وقد وصفت آنذاك بأنها الجامعة الحديثة الأولى في العالم الإسلامي على الرغم من أنها لم تباشر عملها حتى عام 1900، وانتشر التعليم الابتدائي والثانوي أيضاً، إلا أن المدارس كانت بحاجة إلى تجهيز وكوادر لم تستطع كليات التدريب بطبيعة الحال سوى تقديم جزء من المطلوب وظل التعليم العام هدفاً بعيد المنال إلا أن أجيال النخبة تدربت وتعلمت واستطاعت في نهاية القرن التاسع عشر أن تبدع في مجالات عديدة[30].

لقد كانت الأمية هي الصفة الغالبة في معظم المجتمعات في العالم، المتطورة منها فضلاً عن غيرها، وفي هذا يقول المؤرخ هوبزباوم إن الغالبية العظمى من الأوروبيين وغيرهم كانت غير متعلمة في عام 1840 ولا يمكننا وصف أي من الشعوب بالعلم آنذاك ما عدا الألمان والهولنديين والاسكندينافيين والأمريكان، ويمكن وصف بعض الشعوب بالأمية آنذاك كالروس والسلاف الجنوبيين وكانت هناك شعوب شبه أمية كالإسبان والبرتغاليين ووصلت نسبة الأمية في بريطانيا وفرنسا وبلجيكا في أربعينيات القرن التاسع عشر إلى ما بين 40-50%[31]، وهذه الحقائق يفسرها غلبة الطابع الزراعي على معظم مجتمعات العالم في ذلك الزمن وكون غالبية

(29) بيتر مانسفيلد، ص192.

(30) نفس المرجع، ص122.

(31) إريك هوبزباوم، عصر الثورة: أوروبا 1789-1848، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ترجمة: د. فايز الصياغ، ص265.

سكانها من الريفيين[32] الذين لا يتطلب كسب عيشهم معرفة القراءة والكتابة ومحو الأمية، ولم يكن بين سكان الأرياف غير قلة قليلة من المتعلمين خارج بعض أنحاء أوروبا الغربية والوسطى وأمريكا الشمالية[33].

ويضيف هوبزباوم إن الزمن الممتد بين 1870-1914 كان عصر التعليم الابتدائي في أكثر الدول الأوروبية[34]، وفي بلد مثل بريطانيا ظل يفتقر إلى نظام للتعليم الابتدائي العام إلى سنة 1870 ولم يصبح هذا التعليم إلزامياً إلا بعد عشرين عاما من ذلك[35]، وفي هذه الفترة نهض التعليم العثماني كما رأينا.

هذه الحقائق تبين لنا الصورة الكاملة لوضع الأمية في القرن التاسع عشر حين تقدمت مجتمعات لمحوها وتأخرت أخرى وتوسطت ثالثة ولم يكن الوضع العثماني شاذاً بين هذه الأوضاع فقد أفاقت الدولة العثمانية على ضرورة نشر التعليم وقامت في عهد السلطان عبد الحميد على وجه الخصوص نهضة تعليمية وثقافية لاحظها المؤرخون وعدوها من أهم إنجازات عصره إذ تضاعفت نسبة التعليم خمس مرات على الأقل بين بداية القرن التاسع عشر ونهايته وتشير المصادر إلى وجود خمسة آلاف مدرسة ابتدائية يدرس فيها أكثر من 650 ألف تلميذ وتلميذة في نهاية القرن التاسع عشر[36]، ذلك الزمن الذي بدأ العمل فيه من الصفر تقريباً ومع ذلك حقق هذا الإنجاز في وقت قصير، ويجب التأكيد على أن هذه الأرقام هامة في زمنها ويجب ألا تقارن بأرقام زمن لاحق أصبحت أكبر مما مضى بكثير ولكنها متخلفة عن عصرها أكثر بكثير من تخلف العثمانيين عن عصرهم،

---

(32) نفس المرجع، ص318.
- إريك هوبزباوم، 2011، ص184.

(33) إريك هوبزباوم، عصر رأس المال 1848-1875، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ترجمة: د. فايز الصياغ، ص340.

(34) إريك هوبزباوم، 2011، ص292.

(35) نفس المرجع، ص344.

(36) دونالد كواترت، ص300.

ومازالت الأمية تعشش في بلادنا بأرقام وبائية بعد قرن من تسلم الاستعمار ودولة التجزئة زمام أمورنا، والخلاصة أن هذه هي حالنا مقارنة بمحيطنا العالمي عندما كنا مستقلين وكنا في طريق تقدمنا دون الحاجة إلى "تنمية" استعمارية، وتلك هي حالنا عندما كنا تحت هيمنة الاستعمار مقارنة بإمكاناته الضخمة ووضعه المتقدم داخل دوله، فما كان أغنى بلادنا عن التعليم الاستعماري الذي وُصف بكونه الإنجاز الأكبر للاستعمار، وعن إنجازاته الأصغر كما مر.

* الفرق بين مشاريع التنمية العثمانية (سكة حديد الحجاز) ومشاريع التغريب الاستعمارية (قناة السويس)

الدولة العثمانية قدمت أبناءها الأتراك لإنشاء مشروع حيوي في أرض العرب لإفادة كل المسلمين حتى قال محمد كرد علي المعارض لسياسات السلطان عبد الحميد صاحب المشروع: "إن هذا الخط مدين بإنشائه للجنود العثمانية التي بذلت في سبيله الجهود العظيمة بل النفوس الكريمة"[37]، الغرب استعمل مليوناً من أبناء العرب لإنشاء مشروع لأجل مواصلاته الإمبراطورية خلال بلادهم وليس في أراضيه، فمات منهم 125 ألفاً في سبيل المصالح الاستعمارية التي أضرت بالعرب أنفسهم، دمر بعض العرب بمساعدة الغرب المشروع العثماني (1916) المفيد لنا وقاتلوا الدولة العثمانية وانفصلوا عنها ولم يتم إحياء السكة إلى اليوم، استولت بريطانيا على القناة بعد إفلاس الخديو المبهور بأوروبا واحتلت واستنزفت مصر سبعين عاماً ثم شنت عليها حرباً ضروساً للاحتفاظ بالقناة (1956) والتي مازالت تعمل في خدمة الدول الكبرى وتمر سفنهم بها كلما أرادوا العدوان على بلد من بلادنا ولا نستطيع الاعتراض، أي أننا هدمنا هدية قدمت لفائدتنا وحرسنا سلاحاً لطعن ظهورنا، ولا ننسى أيضاً أن الغرب أقام الكيان الصهيوني في البداية لأسباب تهمه جداً كان منها حراسة قناة

(37) محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 2007، ج 5 ص184.

السويس[38]، وكان كل ما سببه الصهاينة من دمار في بلادنا نتيجة لهذه "التنمية" الاستعمارية.

❊ التغني بمشاريع التغريب الاحتلالية وطمس مشاريع العثمانيين

التغريب مازال يحيي ذكرى لحظة تأسيس مشروعه النهضوي بجلب المطبعة على يد الحملة الفرنسية التي أذاقت مصر الأمرين مع أن الفرنسيين أخذوها معهم وهم منسحبون من مصر[39]، ويتناسى المتغربون كل جرائم الاحتلال مقابل هذه الجزئية التي تمكنت بلادنا من تعويض خسارتها وأسست مطابعها الخاصة على يد محمد علي باشا، وعلى كل حال كانت الطباعة قد دخلت الدولة العثمانية قبل الفرنسيين بزمن، أي أن إنجازهم ليس رائداً، ومع ذلك يجد من يبخر له ويحتفي به ويدق له الطبول ويرفع لواءه إلى سدرة المنتهى، أما مشاريع البنية التحتية الكبرى التي أقامها العثمانيون لتمتين روابط بلادنا كسكة حديد الحجاز وسكة حديد بغداد والتي حافظوا عليها من اعتداءاتنا نحن حتى آخر لحظات بقائهم بيننا ولم يأخذوها أو يدمروها مع انسحابهم وتركوها لنا، فقد قام التغريب في دولنا بتدميرها بمشورة الاستعمار وما زلنا عاجزين عن إعادة ما كان قائماً قبل قرن من الزمان ولا نجد من يبكي على آخر أيام وحدتنا الفعلية التي لم نستطع حتى اليوم تعويضها ولم يفعل التغريب سوى إحالتها إلى عالم الأموات بعدما كانت في عالم الأحلام والأغاني، دون أي مراسم عزاء، فأيهما الأحق بالتقدير والأسف عليه: جزئية سحبها المتحضرون معهم ونفسوها علينا فتمكنا من تعويضها، أم مشاريع كبرى دمرناها بأيدينا ولم نستطع تعويضها؟

---

(38) أ. د. محمد عيسى صالحية، مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275-1368/ 1858-1948، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2009، ص63.
- سحر الهنيدي، ص15-16 و109.

(39) د. أحمد زكريا الشلق، ص117.

الخاتمة

الاستنتاج العام من مجموع أجزاء الدراسة: لو تركنا الاستعمار وشأننا لكان أفضل لنا، ولكن ليس له، ومنفعته الذاتية هي معياره في النهاية

ليس المراد من كل ما سبق هو حصر مساوئ الاستعمار بل وصف الظاهرة الاستعمارية وفق ما كانت لتجنب الحرج عند مواجهة بعض تحديثاتها، فالمستعمِرون لم يأتوا لمجرد الإضرار، بل جاءوا في سبيل الاستغلال والمصالح، وكما قال شارلز ديلك أحد أبرز منظري الاستعمار البريطاني: "حيث تكون المصالح، تكون دواعي السيطرة"[1]، وذلك منذ نشأة مشاريع السيطرة الأوروبية من البداية مع إسبانيا في القرن الخامس عشر إلى الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين[2]، وكان الإضرار نتيجة طبيعية لاحتكار المصلحة الذي مارسه المستعمرون، ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض الإنجازات التي استفاد منها المستعمَرون ولم يكن هذا هو الهدف الرئيس للاستعمار منها، فهي فوائد هامشية بدليل أنها لم تنجز للضحية ما أنجزته للسادة[3]، وغير مقصودة أيضاً لأنها مورست إلى جانب كثير من الإضرار المناقض للإفادة، فالإيجابيات المتحصلة منها هي كالنفع الذي يأتي من الضرر[4]، وعند البحث في النوايا الاستعمارية، كنوايا

(1) فردريك معتوق، ص127.

(2) نفس المرجع، ص127.

(3) د. والتر رودني، ص163 و360.

(4) د. أحمد زكريا الشلق، ص180.

الفرنسيين من حملتهم على مصر مثلاً، نجد أنه "ليس ثمة ادعاء في مصادر الحملة أن الفرنسيين جاءوا لأسباب إنسانية، ولا يستشف منها أي عاطفة أو رغبة في نهضة المصريين أو مساعدتهم لمجرد ذلك" فهل يمكننا ادعاء ما لم يدعه القائم بالاستعمار نفسه والذي لم يتحدث إلا عن الصراع مع بريطانيا وتأسيس مستعمرة تابعة؟ وإن ثمة فارقاً جوهرياً بين تطوير مصر بصفتها هدف الغزاة، وتطوير حياة المصريين الذين أصابهم القليل بما يتفق مع شروط الغزاة ومع مشروعهم الاستعماري[5] الذي تقدمت حاجاته الملحة على الإصلاحات المثالية طويلة الأمد[6]، ولهذا فإنه من الصواب ما قاله مؤرخون بأن تقويم الدور الذي قام به المستعمِر يكون في ظل الأسباب التي جاء من أجلها ومجموع ما قام به وليس بأحكام مسبقة ومادة علمية مختارة[7]، وإنه من الممكن وجود تضاد بين نوايا سياسة ما ونتائجها، لكن هذا لا يعني تجاهل تلك النوايا بالنظر إلى النتائج فقط، لاسيما إذا نتج أيضاً عن تلك النوايا السيئة الكثير من المساوئ كالمذابح والتمييز والعنصرية ومصادرة الأملاك[8] والتي تطغى على المحاسن، "وإن طرح القضية بأسرها في أبعادها التاريخية يتيح أن ندرك أن الرأسمالية كانت تعرقل على الدوام التطور التكنولوجي في أفريقيا، كما كانت تمنع وصول التكنولوجيا الخاصة بها إلى أفريقيا... إن الرأسمالية لم تنقل إلى أفريقيا سوى تلك الجوانب المحدودة من ثقافتها المادية التي كانت ضرورية لتحقيق استغلال أكثر حدة، غير أن الاتجاه العام للرأسمالية تمثل في إفقار أفريقيا في مجال التكنولوجيا"[9] ولهذا "فإن ما قدمه الاستعماريون ينبغي أن يوضع في مقابل ما أعاقوه وما دمروه من الناحية الفعلية والمحتملة"[10].

(5) نفس المرجع، ص66.
(6) نفس المرجع، ص178.
(7) نفس المرجع، ص9.
(8) مارك فرو، ص24.
(9) د. والتر رودني، ص157.
(10) نفس المرجع، ص355.

وللاستدلال على مدى الضرر ودوافعه يمكننا أن نجيب على هذه الأسئلة:

1 - أين كنا مقارنة بمستويات الدول الاستعمارية قبل أن نحتك بها وأين أصبحنا بعد تجربة الاستعمار الطويلة؟ وقد تمت الإجابة على ذلك عند الحديث عن قطع الغرب الطرق الحضارية للآخرين، ويكفي أن نتذكر حال السكان الأصليين في أمريكا وإفريقيا وحضاراتهم المزدهرة التي اندثرت بفعل الاحتكاك بالغرب.

2 - هل تعيش الدول الاستعمارية السابقة والدول الكبرى حالياً وفقاً لمواردها الذاتية وعمل سكانها فقط أم أنها تستهلك أكثر مما تتيحه هذه الموارد؟ إذ "من الضروري، بشكل مطلق، أن نعرف هل نتج مستوى المعيشة في أي بلد صناعي من موارد الداخلية الخاصة أم أنه حصيلة استغلال بلدان أخرى، والولايات المتحدة، على سبيل المثال، تشكل نسبة ضئيلة من سكان العالم، ولديها ثروة طبيعية قابلة للاستغلال، ولكنها تنعم بنسبة ضخمة من الثروة الناتجة عن استغلال العمل والموارد الطبيعية في العالم بأسره"[11].

3 - اعتماداً على حقيقة عدم وجود سابقة تاريخية حتى اليوم لمركز استعماري مزود بالمعرفة الحديثة وموجه حصرياً بمصالح المحكومين قام بقيادتهم نحو التطور الاجتماعي والاقتصادي[12]، يمكننا أن نسأل: هل كانت السياسات الاستعمارية التي استمرت زمناً طويلاً جداً ليس لها باعث محدد؟[13]

ونجد أجوبة في قول رئيس الوزراء الإيطالي في سنة 1888 إن "المستعمرات إحدى ضرورات الحياة العصرية"[14]، بالإضافة إلى أقوال أخرى سبق استعراضها.

(11) نفس المرجع، ص41.
(12) Charles Issawi, p. 223.
(13) مارك فرو، ص278.
(14) موريس كروزيه، ج 6 ص212.

4 - هل نجح الاستعمار في إنجاز مهمته "الحضارية" تجاه الآخرين بأية نسبة نجاح مقبولة مقابل نجاحه الواضح في إنجاز القسم الخاص باستفادته الذاتية من هذه المهمة؟ فقد جاء في الاتفاق الذي عقد في مؤتمر برلين 1885 حيث تم تقسيم إفريقيا: "تتعهد كافة القوى التي تمارس حقوق السيادة أو نفوذها على الأراضي المذكورة، بالمحافظة على السكان المحليين وعلى تحسين ظروفهم المعيشية، المعنوية والمادية،... وستعمل على حماية وتشجيع كافة المؤسسات والشركات... التي تستهدف تعليم السكان المحليين وتعريفهم بمزايا الحضارة ليقدروها"[15].

5 - هل قدم الاستعمار أية إيجابية لم يكن بمقدور دولة قوية توحد بلادنا أن تقوم بها لو تُركت وشأنها دون عرقلة أو تدخل أو تطفل أجنبي؟ وإن تاريخ الإنجازات التقنية العثمانية حتى في زمن الانهيار يؤكد أنها قامت بمشاريع عجزت التجزئة رغم كل "الرعاية" الاستعمارية عن أدائها أو حتى العودة إلى ما كان قائماً زمن الخلافة بالفعل، وسكتا حديد الحجاز وبغداد أوضح الأمثلة على ذلك، وإن كل "إنجازات" الاستعمار والتجزئة كانت في متناول أيدينا لو حكمنا كيان قوي مخلص بدل الأغراب أو العملاء، ولماذا نفترض أن دولة التجزئة على ضعفها أقدر من دولة الوحدة على القيام بإنجازات صحية أو تعليمية أو تجارية أو غير ذلك، وإذا كانت الدولة المجزأة قد قامت بإنجازات فمن المؤكد أن دولة الوحدة أقدر منها على ذلك كما تشهد المشاريع العملاقة للخلافة والتي عجزت التجزئة عن مجرد إحيائها فضلاً عن منافستها، ولهذا تنسجم مصالح الاستعمار مع التجزئة أكثر من الوحدة، ولماذا نفترض أن الدولة الاستعمارية الغريبة التي تعمل لمصالحها الذاتية أقدر من أصحاب الشأن على رعاية أنفسهم؟ ولهذا فإن جميع الاستدلالات عن "الفضائل" الاستعمارية التي يتشدق بها كهنة عصابات غربية احتلت

(15) صوفي بيسيس، ص65.

بلادنا وضياعنا وألقتنا في الزنازين ثم منت علينا بفتاتها الذي ألقته لنا من وراء القضبان التي كبلتنا بالاستعمار[16] لا محل لها من المصداقية في ظل شل يد صاحب الشأن بالقوة عن رعاية نفسه، ويستنتج الدكتور أحمد زكريا الشلق من ذلك أن "كل شر يحمل في ثناياه بعضاً من الخير الذي يأتي عرضاً، ولكن ليس معنى ذلك أن الشر (الغزو العسكري والاحتلال) ضروري دائماً لجلب الخير"[17].

وفي النهاية وجدنا أن الاستعمار قتل حيث أفاده القتل واحتل حيث أفاده الاحتلال وعمّر حيث أفاده وحده الإعمار وناهض الاحتلال والرق حيث أفاده وحده ذلك، وكل ما قدمه الاستعمار من "إيجابيات" كالصحة والزراعة والمواصلات[18]، لم تصنع لنا ما صنعته له، وبغض النظر عن أهدافه الأنانية منها كالحصول على الغلال الزراعية وتسهيل وصول الخامات إلى دوله وإعداد الكوادر المتعلمة لخدمة وجوده الاستعماري[19]، والأهم من كل ذلك بناء دولة التجزئة التي ستحرس مصالحه بعد رحيله وتتسبب في أذى أمتها باستمرار علاقات الاستغلال والتبعية الاستعمارية دون وجود احتلال عسكري[20]، فإن كل هذه "الإيجابيات" لم تفد في إحداث النهوض الذي ادعى الاستعمار أنه حل بنا لينجزه، ولم يدخلنا إلى اليوم في جنته، بل إن مكاننا على جدوله يتضح من نظرته الطبقية للآخرين والتي تطورت عن عنصرية الألوان في الماضي باتخاذه العالم الثالث مكباً لنفاياته السامة التي يستفيد من استخدام موادها ويرفض تحمل أعباء مخلفاتها، وفي ذلك دلالة واضحة على خلاصة موقعنا من نهضته حيث ينظر إلينا كمزبلة يستفيد منها لتنظيف بيته ويضرها في نفس الوقت بقاذوراته ويبقيها خارج

---

(16) سعد محيو، ص106.

(17) د. أحمد زكريا الشلق، ص176.

(18) سعد محيو، ص237-238.

(19) نفس المرجع، 238.

(20) د. تميم البرغوثي، الوطنية الأليفة: الوفد وبناء الدولة الوطنية في ظل الاستعمار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2007، ص17-29.

إطار عالمه النخبوي المزدهر، كما كان دأب الاستعمار دائماً، فلماذا نختاره ونثني على إنجازاته مع أن المحصلة النهائية لقدومه هي قطع الطريق على بديلنا الذاتي، فلو كنا نعيش حالة استقلال حقيقية عن مصالحه لقامت أية دولة تشمل منطقتنا بتحقيق هذه الإيجابيات على حقيقتها بل وأفضل منها مما ثبت وقوعه حتى في زمن التراجع والضعف والهزيمة الذي عانت منه الدولة العثمانية في آخر أيامها (الملحق الثالث)، ولقد عرقل الاستعمار ما كنا بصدد إنجازه لو تركَنا وشأننا[21] كما ثبت من عمليات قطعه الطرق الحضارية، بل إننا نجد في هذه "الإنجازات" الاستعمارية ما يقدم حجة على المستعمِرين وليست لهم، فإذا كانوا قادرين على القضاء على الأوبئة في العالم فلماذا لم ينشر الاستعمار بقية الفوائد التقنية بنفس النسبة من النجاح؟ وإذا كان قادراً على النهوض بمثال فريد لا شريك له كاليابان، فلماذا لم تكن بقية النتائج الاستعمارية مشابهة للنتيجة اليابانية؟ ولماذا رفض وأنكر بصراحة أن يكون هدفه هو النهوض بتصنيع الدول الفقيرة عندما سرت إشاعة بهذا الشأن زمن برامج المساعدة الأمريكية (1950) كما سبق ذكره؟ لأن نظر الاستعمار كان متمركزاً حول الذات وحدها ولم يحاول ضم الآخرين لعالمه فكان من الطبيعي أن تزيد المساوئ كثيراً عن المحاسن وأن لا يكون الحل الاستعماري الخارجي هو علاج مشكلة التخلف في عالم المستعمرات، فالتنمية لا تتحقق إلا "بأن تضيف إلى ما وصلك من تراث، وأن تتقدم بالتدريج، بشرط ألا يأتي أحد "لتمدينك""[22]، ومن هنا كان الحنين الحديث إلى أيام الاستعمار ليس سوى رد فعل عاطفي، وغير مبني على أسس راسخة، على فشل دولة التجزئة التي كانت نتيجة مباشرة للاستعمار الذي اختلقها وألحقها بدوله، وكل إخفاقاتها محسوبة عليه وعلى برامجه، ولو تجاوزنا هذه الحقيقة فإنه مهما كان فشل الأسرة في حل قضايا معيشتها كبيراً فهذا ليس مبرراً لأي متطفل أن يقتحم دارها وينصب نفسه رباً

---

(21) سعد محيو، ص239، نقلاً عن الأستاذ جلال أمين.

(22) د. والتر رودني، ص192.

جديداً لها ويسيرها وفق مصالحه الذاتية بدعوى حفظ مصالحها، أو حتى يقوم بطردها من البيت كما فعل الصهاينة بحجة إهمال سكان فلسطين لأرضهم، أو أن يقوم بهدم البيت على من فيه بحجة استبداد الأب الأصلي، ومن الأفضل لضحايا الغرب ألا يبحثوا عن صدقة مادية أو اعتذار معنوي يقدَّم إليهم بعد كل تلك المعاناة، وأن يتكلوا على هممهم في بناء مستقبلهم، إذ بغض النظر عن استحالة تغير الطبائع البشرية التي أنتجت كل أهوال الماضي بعد تمكن القوي الطامع من ضحيته، فإن التراجع الحقيقي عن هذه الخطايا، وليس مجرد الانتقال من شكل استغلال إلى آخر، مكلف مادياً لحضارة تعودت الحياة بأعلى من مستوى إمكاناتها، ومهين معنوياً لاستكبار لا يرى في تحديد عيوبه أو الاعتذار عنها أية علامة عظمة ما لم يكن في التراجع فوائد مادية مرتقبة، وكل ما يقال عن آلية التصحيح الذاتي في الحضارة الغربية خارج إطار تحسين كفاءة الاستغلال هو محض هراء، فلم تنجح أية معارضة إنسانية في وقف عدوان على الضحايا منذ أيام الاستعمار إلى زمننا المعاصر.

ملاحق

(1) هل يكرر الغرب النموذج الياباني؟

أثار نموذج النهوض الياباني اهتمام الكثير من الناس الذين عاصروا بداياته واستمر الاهتمام إلى هذا اليوم، وضمن الذين اهتموا به فئة من متغربي بلادنا الذين أرادوا أن يستدلوا بهذا النموذج على فائدة التعاون مع القوى الكبرى كالولايات المتحدة التي يعزى إليها الفضل في إنهاض اليابان بعد دمار الحرب الكبرى الثانية 1939-1945 إلى درجة أن أحد هؤلاء كتب عن مآثر "الخضوع" حرفياً وأنه لا محالة سيؤدي لنا ما أداه لليابان من تقدم وازدهار.

قد يكون من الصعب علينا أن نأخذ دعوة كهذه على محمل حسن النية في وقت نعاين فيه تكالب القوى الكبرى على احتلال بلادنا ونهب ثرواتها وتدمير منجزاتها وتقسيم كياناتها بما يوافق مصالح المستعمِرين وحدهم دون أدنى اهتمام بمصالحنا وطموحاتنا وأحلامنا وكرامتنا، ثم يخرج علينا من يطالبنا في ساعة الشدة هذه بالخضوع والاستسلام أمام العدو، ومع ذلك سنناقش هذه الأطروحة على ظاهرها دون الدخول في النوايا الخفية التي قد لا يدركها بعض من يردد هذا الكلام لمجرد الانبهار.

نقول أولاً إن أمتنا جربت بالفعل الخضوع للاحتلال زمنا طويلاً رغم إرادتها وليست بحاجة لنصائح عن تجربة المجرب، فقد استعمرنا الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون وأخيرا الأمريكيون وهذه نماذج مما أسفر عنه الإستعمار.

احتل الإنجليز مصر ما يقارب سبعين عاماً ابتداء من سنة 1882 وكان اللورد كرومر في زمنه الحاكم المطلق في البلاد، ولكنه بدلاً من القيام بما يفرضه "عبء الرجل الأبيض" من جلب الحضارة "للمتخلفين" بما ينهض بحياتهم عموماً، فإنه كان لا يتصور مصلحة مصر بمعزل عن مصلحة بريطانيا، لاعن طريق الأخوة والتكافؤ، ولكن عن طريق الاستتباع والذيلية، فما يناسب بريطانيا يناسب مصر رغماً عنها، و"كرومر وحده هو الذي يحدد ما يعتبر من مصلحة الاقتصاد المصري"[1]، ولهذا لم يهتم بقطاع التعليم لكي لا تفسد الأفكار التحررية المصريين[2] حتى أنه لم يهتم بإعداد موظفين بدلاً من الموظفين الاستعماريين البريطانيين[3]، وكان يفضل عدم تعليم المصريين على تعليمهم دون وجود وظائف لهم مما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار[4]، ولم يهتم بالقطاع الصناعي المصري[5]، بل إنه وضع ضرائب على الصناعات القطنية المصرية كي لا تنافس الصناعات البريطانية مما ساهم في ركودها[6]، واهتم بجعل مصر تزرع محصولاً واحداً هو القطن لتزويد مصانع بريطانيا بالخامات على حساب بقية المحاصيل التي يعيش الناس عليها مثل الحبوب ممهداً بذلك "لجملة من المشكلات التي كانت مصر ستبتلى بها في القرن العشرين"[7]، واهتم بالقطاعين المالي والإداري لتمكين البلد من دفع ديونها للدائنين الأجانب، وكانت المنافسة الأوروبية وبخاصة الفرنسية تعمل عمل الرقيب على أعمال الإنجليز في مصر[8]، فتحفز الإنجاز لصالح الفرنسيين وتعطله لو اقتضت مصالحهم ذلك حتى لو كان في صالح أهالي البلاد[9].

---

(1) روجر أوين، ص414.

(2) ز. ي. هرشلاغ، ص154.

(3) Stanford J Shaw & Ezel Kural Shaw, Vol. 2, p. 195.

(4) روجر أوين، ص419.

(5) Charles Issawi, p. 67.

(6) روجر أوين، ص417-418.

(7) إريك وولف، ص406.

(8) Charles Issawi, p. 67.

(9) نفس المرجع، ص226.

ويلخص مؤرخ اقتصادي يرصد الاحتلال بمحاسنه ومساوئه بكل حياد بعيداً عن حق الأمم في تقرير مصيرها بقوله وهو يرد على من يتهم الإنجليز بتحطيم إنجازات محمد علي وخلفائه: "على الأكثر يمكن أن يقال أنه فيما عدا في المجال المالي والنقدي، فإن الحكم الإمبريالي البريطاني بمراعاته مصالحه الأنانية، لم يبذل أية محاولة جدية لإصلاح الضرر الذي وقع على البلاد على أيدي حكامها، بمن فيهم محمد علي، ولا أن يمنح مصر الدفعة الكبيرة نحو انطلاق صناعي حديث"[10]، فالخضوع لاحتلال الإنجليز لم يساهم في التقدم حتى باعتراف من يدافع عنهم.

أما الاحتلال الفرنسي للجزائر فقام بالفعل بإنجازات تطورية، ولكن من استفاد منها هم المهاجرون الأوروبيون الذين استوطنوا البلاد التي ألحقت بالبر الفرنسي، ويقول الباحث الاقتصادي المعروف شارل عيساوي وهو بالمناسبة لا يكن عداء للغرب: "إن تجربة شمال إفريقيا تظهر أن السيطرة الأجنبية المباشرة يمكن أن تقود إلى تطور كبير في الموارد بفوائد قليلة جدا للسكان الأصليين"[11]، ومن صور ذلك أنه في سنة 1945 كان عدد الطلاب الجزائريين في جامعة الجزائر150 فقط من أصل خمسة آلاف[12]، مع أن المستعمرين الأوروبيين المستوطنين الجزائر لم تتعد نسبتهم 14% في أي وقت من الأوقات[13].

أما الاحتلال الأمريكي الذي حل بالعراق فبدلاً من تطويره على النموذج الياباني قام بتدمير إنجازات الدولة العراقية وإرجاع البلد إلى عصر ما قبل الصناعة فأصبح المواطن في دولة تضم أكبر احتياطي نفطي في العالم يقف في الطابور الطويل لملء سيارته بالوقود ولا يجد الكهرباء في بيته، فنعم الخضوع إذن.

---

(10) ز. ي. هرشلاغ، ص166.

(11) Charles Issawi, p. 226.

(12) نفس المرجع، ص111.

(13) نفس المرجع، ص82.

ولا ننسى في سرد تجارب الاستعمار أن نعرج على ما جناه الفلسطينيون من فوائد الحضارة التي نجمت عن الاحتلال الصهيوني المدعوم بالطيف الغربي السياسي كله، فما أصابه من قتل وشتات ونهب ممتلكات ومصادرة أراض واعتقال آلاف لا ينفك عن الوعود التي بذلوها لهذا الشعب بالفائدة من الهجرة الصهيونية التي لن تؤلف أي خطر عليه بل ستزيد رفاهيته وسعادته بما سيجنيه من مجالب هذه الهجرة، والبؤس الذي يعيش فيه أهل فلسطين اليوم في الضفة المحتلة وغزة التي تُقصف كلما رفعت رأسها قليلاً في غنى عن الشرح الذي يضيف لنا نموذجاً يابانياً آخر في بلادنا.

هذا عن تجارب الخضوع للاحتلال ونتائج الاستعمار في بلادنا التي يطالبنا بعض كتاب المارينز بدخول دوامات جديدة من أفلام الرعب التي أحيانا الغرب بها، فماذا عن اليابان وكيف وصلت إلى ما هي عليه رغم هزيمة الحرب؟

نلاحظ أولاً أنه ليس هناك إلا يابان واحدة، فمن ضمن شعوب كثيرة احتك بها الأمريكان كالسكان الأصليين من الهنود الحمر والأفارقة ودول أمريكا الوسطى والجنوبية ودول شرق آسيا الأخرى كالفلبين وفيتنام، إضافة لشعوبنا العربية والإسلامية، لم يخرج سوى اليابانيين بهذه النتيجة الباهرة رغم أن الأمريكان ملكوا نواصي الأمور في بلاد كثيرة مما يجعل اليابان في حكم الشاذ الذي يثبت قاعدة الاستغلال والتأخير وليس التقدم والتحضير، ومع ذلك ما سبب هذه الحالة الشاذة؟ إذ كما يلاحظ المؤرخ شارل عيساوي أنه ليس هناك دولة قامت بدور الرعاية الخيرية المستنيرة التي يقوم فيها المركز بتقديم العلم غير المتوفر للأهالي المحكومين حسب ما تقتضيه مصالحهم لا مصالحه ويقودهم نحو التطور والتقدم[14]، فإذا كانت الدوافع الخيرية غائبة، ولاشك في غيابها عند دولة إمبريالية كالولايات المتحدة، فما الذي أدى إلى الظاهرة اليابانية تحت الاحتلال؟

---

(14) نفس المرجع، ص223.

لقد بدأت مسيرة التحديث الياباني قبل فترة طويلة من الاحتلال الأمريكي وذلك منذ ستينيات القرن التاسع عشر وبنت على المراحل السابقة لتخرج قوة إقليمية كبرى بل من دول العالم الإمبريالي العظمى ولها مطامع فيما جاورها ودخلت الحرب الكبرى الثانية على هذا الأساس، وكل من كتب عن تجربة التحديث الأولى أشار إلى موقع اليابان البعيد عن التدخلات الأوروبية بصفته الميزة التي ساعدت على اكتمال هذه التجربة دون إعاقة كالتي واجهتها تجارب التحديث في بلادنا بدءاً من محمد علي باشا إلى اليوم، وكان السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) يتمنى وهو يقوم بتحديث دولة الخلافة العثمانية أن تتمتع دولته بالبعد عن مخالب أوروبا لمدة عشر سنوات على الأقل لتعيش في أمان واطمئنان مثل اليابانيين ولتحقق ما حققوه من تطور وتقدم بدلاً من الإنفاق على إخماد دسائس الدول الكبرى[15]، وتاريخ هذا التصريح هو سنة 1902، وما زال الباحثون في هذا الموضوع يؤكدون أهمية البعد الجغرافي إلى يومنا هذا[16].

يذكر الدكتور مسعود ضاهر في دراسته عن النهضة اليابانية المعاصرة أنه بعد نهاية الحرب الكبرى الثانية سنة 1945 ظلت سياسة الاحتلال الأمريكي في اليابان قائمة على أساس العقاب الصارم ضد اليابانيين بما فيها من قرارات تطهير وحل المؤسسات ومعاقبة العسكريين والإداريين بصفتهم مجرمي حرب إلى أن انقلبت هذه السياسة رأساً على عقب بعد الانتصارات التي حققها المد الشيوعي في الصين وكوريا ثم فيتنام وحاجة الأمريكان لوقف التوسع السوفييتي مما حوّل اليابان من العدو رقم واحد إلى الدولة الأكثر رعاية و"القاعدة الصلبة التي بنت عليها الإدارة الأمريكية الكثير من مخططاتها السياسية لمحاربة الشيوعية في منطقة جنوب وشرق آسيا"[17]،

(15) السلطان عبد الحميد الثاني، ص96.

(16) الدكتور مسعود ضاهر، النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربياً، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002، ص390.
- سعد محيو، ص87.

(17) الدكتور مسعود ضاهر، ص17.

وقد ترتب على ذلك تقديم الدعم الاقتصادي والمالي والحماية العسكرية[18]، وفتح المجال أمام اليابانيين لاستيراد التقنية بالإضافة إلى إرسال بعثات علمية يابانية للدول الغربية وغير ذلك من إجراءات أحسن اليابانيون استغلالها لصالح مشروعهم وحاولوا قدر الإمكان ملاءمة الظروف لصالحه بما لا يقطعهم عن ماضيهم وشخصيتهم وفي نفس الوقت يحقق لهم التقدم المنشود بالاستفادة من طاقاتهم التي تراكمت في تجربة التحديث الأولى وتمكنوا من استعادة دورهم في السياسة العالمية بعد أن عاملتهم الولايات المتحدة خلافاً لبقية سكان المستعمرات ولم تفرض عليهم إجراءات تؤدي إلى تغريبهم واستلاب شخصيتهم[19] وألغت القرارات الانتقامية، وحافظت على المؤسسة الامبراطورية التي ترتبط بالكرامة اليابانية، ويجب أن نلاحظ تناقض كل هذه الأفعال مع ما تمارسه الولايات المتحدة مع بلادنا العربية والإسلامية، كل هذا رغم المنغصات التي تكدر اليابانيين كالوجود العسكري الأمريكي في بلادهم ومحاولات الأمريكان الإيقاع بينهم وبين جيرانهم ومحاولاتهم المستمرة إضعاف اليابان وعدم اعترافهم بالدور الياباني في نهضة بلاده واضطرار اليابان تمويل المغامرات العسكرية الأمريكية وغير ذلك، الأمر الذي يؤكد الجانب الأناني الأمريكي فيما حدث في اليابان وألمانيا بعد هزيمتهما في الحرب الكبرى وأن الخوف من المد الشيوعي الذي كان يدق أبواب العالم الرأسمالي بقوة وليس الخجل من الاحتلال هو الذي دفع الأمريكان للتخفيف من وطأتهم على اليابانيين والألمان، وإذا كان الأمريكان والأوروبيون قد ضاقوا بالمنافسة اليابانية الاقتصادية[20]، فإننا لن ندخل عالم النبوءات والخيال المضخم عن احتمالات الصدام بينهم رغم وضوح محاولات الغرب إضعاف اليابان بالإيقاع بينها وبين محيطها[21]، أو بالضغوط على حلفائها من النمور

(18) نفس المرجع، ص168.

(19) نفس المرجع، ص284.

(20) نفس المرجع، ص19 و400 و427 و431.

(21) نفس المرجع، ص155 و409.

الآسيوية لإضعافها مما يشبه ما مارسه الغرب تجاه الإتحاد السوفييتي في السابق إلى أن سقط وتلاشى[22]، ولكننا نتساءل: هل سيعمد الغرب إلى تكرار التجربة التي انتهت به إلى الصداع الياباني فيعمد إلى تقوية كيان عربي إسلامي خاصة في زمن الرعب من "الخطر الإسلامي" وبحث الغرب عمن يحميه منه؟؟

بكلمة السر في نظرة الحضارة الغربية إلى سلوك الإنسان في الحياة، أي"المنفعة"، نحل لغز السياسة الأمريكية في كل مكان: منفعتهم قضت إبادة الهنود الحمر للحصول على أراضيهم وثرواتها فأبادوهم ولم يطوروهم على النموذج الياباني، ومنفعتهم قضت استعباد الأفارقة فتاجروا بالملايين منهم واستعبدوهم إلى أن قضوا منهم وطراً وأصبح الرق أسلوباً بالياً وتطور الاستغلال إلى أشكال جديدة فاقتضت المصالح الجديدة "إعادة" العبيد السابقين إلى إفريقيا ثانية وإنشاء كيان لهم يكون قاعدة للنفوذ الأمريكي في غرب القارة في مواجهة نفوذ الأوروبيين، ولم تتطور إفريقيا على النموذج الياباني في البداية بل استنفدت قواها، ولم تصبح أي من قواعد الأمريكيين والأوروبيين الجديدة: ليبيريا وسيراليون وساحل العاج، يابانا أخرى رغم اتخاذها قواعد للغربيين وحاجتهم إليها، وقضت مصالح الأمريكان باستغلال مزارع الدول الأمريكية اللاتينية فزرعوا فيها استبداديات عاتية رتعت في البلاد ومارست أقسى أنواع الإرهاب لمصلحة الشركات الكبرى، ولم تتطور هذه الدول على النموذج الياباني رغم أنها تقع في الحديقة الخلفية للبيت الأبيض، وقضت مصالحهم باستغلال نفط إيران فنصبوا عليها شاهاً من أعتى المستبدين دهراً كاملاً يسوم شعبه سوء العذاب ولم يحول إيران إلى النموذج الياباني رغم آلاف المستشارين الغربيين الذين كانوا يرتعون فيها، وقضت مصالحهم باحتلال الفلبين، أو كما قالوا إنهم أُجبِروا على احتلالها وسيقوا إلى السيطرة عليها رغما عنهم، فتحكموا فيها دهرا طويلا 1901-1946 وكان التعليم والصحة والمواصلات وغيرها من المجالات بأيدي أمريكية،

---

(22) نفس المرجع، ص195.

وهاهي الفلبين لم تتطور على النموذج الياباني رغم قربها من اليابان، ولم تبرز إلا في تصدير العمالة الرخيصة الباحثة عن لقمة العيش.... إلى آخر التجارب المريرة التي ذاقتها الشعوب المسكينة ولم تحصل على ما حصل عليه اليابانيون نتيجة ظرف طاريء لا يتكرر كثيراً في التاريخ ولا يمكن أن نحكم على تجارب الاستعمار به وحده، أما نحن فإن الأمريكيين والغرب من خلفهم لا يخفون نوايا التخلف تجاهنا بالإعلان المستمر والإصرار على تفوق الكيان الصهيوني على الدول العربية مجتمعة، أما الدولة القُطرية المنكفئة على نفسها والمهملة محيطها والمسالمة عدوها فلن يمنحها الأمريكان والصهاينة أكثر مما منحت الأنظمة المستسلمة على مدار أكثر من ثلاثين عاماً من عملية السلام، وهي عطايا لا تعدو مساعدات مشروطة أو غذاء ممنوع الزراعة أو مياهاً ملوثة أو أمراضاً معدية أو المن على هذه الأنظمة بسرقة ثروات بلادها كالغاز والنفط، المهم أن النتيجة بعد عشرات السنين أبعد ما تكون عن التجربة اليابانية رغم حصول هذه الأنظمة على أعلى درجات القبول أمريكياً وصهيونياً، أي ليس بالإمكان الأمريكي أبدع مما كان، هذا إذا افترضنا جواز تخلي العرب والمسلمين عن حقوقهم في فلسطين وتركهم جميعاً شعب فلسطين وأن لا يتحمس أي فرد منهم لمساعدته مما قد يجر الشعب كله انتصاراً له، أي أن فصل الحلقات عن بعضها مستحيل رغم حدود ونواطير سايكس بيكو، وعلى من يحلمون بالهبات الحضارية الصهيونية أن يشاهدوا مصير الشعب الفلسطيني الذي كان الأسرع في دخول الجنة العبرية، والأفضل أن نلتفت لتطوير نموذجنا الخاص وفق حاجاتنا الخاصة وليس الانتظار لأن نعيش في ظل أحد من أصحاب الظلال الثقيلة أمريكياً كان أم أوروبياً أم صهيونياً.

(2) لماذا يحطم الغرب نهضاتنا وليس له مصلحة في نمونا؟

"إن العراق يملك أفضل قاعدة اقتصادية وبشرية في الشرق الأوسط وإنه يمكنه بمجرد الانتهاء من إعادة التعمير (بعد الحرب مع إيران) والقضاء على عدم الكفاءة الإدارية، أن يصبح أول مرشح في المنطقة للانضمام إلى مجموعة الدول الصناعية الجديدة" عبد اللطيف الحمد وزير المالية الكويتي ورئيس الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية أمام ندوة دولية نظمها في لندن اتحاد الصناعات العربية واتحاد المصرفيين العرب (صحيفة الحياة 22/ 2/ 1989)[23].

"لمدة أكثر من نصف قرن، وجهت عدة أهداف أمنية السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط : منع أية قوة في المنطقة من الظهور والهيمنة، ضمان تدفق موارد الطاقة التي مازالت ضرورية لتشغيل الاقتصاد العالمي، ومحاولة القيام بدور الوسيط بين إسرائيل وجيرانها من أجل قيام سلام دائم" وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر في مقال بعنوان: "توجه جديد للتدخل" (صحيفة الواشنطن بوست 31/ 3/ 2012).

"إذا احتفظ (صدام) بقبضته على الكويت، فسيكون العراق قوة نفطية على مستوى الكوكب، وسيخضع منتجو النفط الآخرون لما يمليه... لن يستغرق صدام حسين طويلاً ليحول العراق إلى قوة إقليمية وربما قوة عالمية عظمى... كان النفط أساسياً في الأزمة، ليس "النفط الرخيص"، على الأرجح، النفط كعنصر خطير في ميزان القوى الدولي، كما كان أبداً منذ الحرب العالمية الأولى، وكان هذا هو أحد الدروس العظيمة للقرن العشرين" الباحث الاقتصادي ورئيس مؤسسة أبحاث الطاقة في جامعة كامبريدج دانييل يرغن[24].

" قال الرئيس العراقي جلال طالباني إن الأميركيين جاءوا إلى العراق

---

(23) رغيد الصلح، 1997، ص274.

(24) دانييل يرغن، ص940-941.

من أجل القضاء على صدام حسين لأنه كان ديكتاتوراً خطيراً يهدد حلفاء أميركا في المنطقة ولا يهدد الشعب العراقي فحسب، ولفت طالباني ... الانتباه إلى الأهمية البالغة التي توليها واشنطن لمنطقة الخليج ونفطها، وقال إن صدام حسين كان يشكل خطراً على الكويت والسعودية ونفطهما، كما كان يشكل خطراً على حليف أميركا الأساسي "إسرائيل"، وأضاف أن أميركا بالقضاء على صدام أنجزت عملاً مهماً بالنسبة لمصالحها في المنطقة... واعتبر طالباني كسب الأميركيين حلفاء عراقيين مهمين جداً بالنسبة لمخططاتهم في المنطقة من أهم نتائج التدخل في العراق" (صحيفة الدستور الأردنية وصحيفة النهار الكويتية، طالباني: أميركا احتلت العراق من أجل إسرائيل والنفط 25/ 12/ 2008)

■ تطور المصالح الغربية في الشرق العربي الإسلامي:

منذ ظهور علامات الضعف على الدولة العثمانية التي كانت توحد كيان المشرق العربي، لم تكن مصالح الغرب الجمعية تنسجم مع بروز كيان قوي مرة أخرى، ولهذا قامت الدول الغربية على اختلافها بوأد أية محاولة نهضوية تنشأ في بلادنا لأنها ستهدد المصالح الغربية كما شخصها أصحابها، وقد تغيرت هذه المصالح مع تغير الظروف العالمية ولكنها كانت تقتضي باستمرار عرقلة قيام كيان قوي: فموقع المشرق العربي كان منذ قديم الزمن ملتقى طرق التجارة العالمية وموضع اهتمام الكيانات القائمة على أطرافه، وقد استمر هذا الاهتمام في العصر الحديث، إذ أن موقع الدولة العثمانية بين البحر المتوسط والهند، درة التاج البريطاني، وضعها في مواجهة مباشرة مع بريطانيا التي تريد ضمان الوصول إلى مستعمرتها باحتلال مواقع عثمانية مثل عدن(1839)، والتمدد داخل الخليج، وهذا ما كوّن سياستها المعارضة لمشروع محمد علي في البلاد العربية إذ كانت تريد الإبقاء على ضعف الدولة العثمانية وعدم تجديد شبابها كي لا تقف في وجه الوصول إلى الهند، ولما اكتملت الثورة الصناعية وزاد رأس المال الأوروبي سعت الدول الاستعمارية الغربية لتسويق بضائعها واستثمار رأسمالها في بقية العالم وهذا

ما جعل لها مصلحة في عرقلة أية صناعة محلية بالإضافة إلى حاجتها لتأمين وصول المواد الأولية إلى مصانعها في الغرب، ولما حفرت قناة السويس وأصبحت طريقاً مختصراً إلى الهند اهتمت بريطانيا بالسيطرة عليها بعد شراء أسهمها من الخديو اسماعيل الذي ورطته الاستثمارات الأجنبية بالديون، فأصبح لبريطانيا في مصر أكثر من مصلحة: قناة السويس بصفتها معبراً، وأموال الدائنين، فاحتلتها سنة 1882، وفكرت منذ هزيمة محمد علي بإنشاء كيان يهودي حاجز أمام طموحاته المستقبلية ثم حارس لقناة السويس وطريق الهند، وهذا كله قبل اكتشاف النفط، فلما اكتشف أصبحت السيطرة على مصادره المتركزة في المشرق العربي مصلحة جديدة للغرب تقتضي عدم التعامل مع جهة شرقية واحدة قوية تتحكم بآباره أو بعوائده الضخمة أو بالتجارة العربية، وأصبحت قناة السويس هي المعبر الرئيس للنفط إلى بريطانيا الأمر الذي سيبقي على أهميتها حتى بعد استقلال الهند، وبقيام الثورة البلشفية في روسيا (1917) وفشل العدوان الغربي عليها لوأدها، أصبح الحفاظ على بلادنا خارج النفوذ الشيوعي مصلحة جديدة للغرب في بلادنا اقتضت إقامة القواعد العسكرية التي لن يقبل بها نظام قوي مستقل ولكن أنظمة التجزئة ترحب بها بصفتها حماية لوجودها ومصدراً لرزقها حين تقبض ثمن أجرتها، كما اقتضى إبعاد الخطر الشيوعي دعم الكيان الصهيوني الذي أقيم في البداية لغايات مختلفة تماماً ولكنه احتفظ بأهميته الاستراتيجية نتيجة للتقارب الحضاري مع الغرب بل أصبح مصلحة غربية مستقلة قائمة بذاتها في هذه المنطقة الحيوية حتى بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وأصبحت الملاحة في قناة السويس مصلحة حيوية لهذا الكيان الذي هو بدوره مصلحة أخرى تقتضي تركيع كل منطقتنا لقيادته مع ما يستلزمه هذا من منع القوة بكل أشكالها عن بلادنا كي لانقاومه أو حتى نهدده من جهة، ولا ننافسه من جهة أخرى، وعلى هذا المنطق سارت سياسة الغرب المعاصر كما سيأتي.

كما استمر الاهتمام الغربي بموقع "الشرق الأوسط" بين قارات العالم القديم وكونه صلة الوصل بينها وهو بذلك "أهم المناطق الاستراتيجية في العالم" ولهذا "نحن ملزمون بإعطاء الشرق الأوسط أولوية عالية جداً، ولا

نستطيع أن نتخلى عن وضعنا الخاص في المنطقة ... والسماح لوضعنا بأن يكون عالة على ترتيبات ذات طابع دولي" كما قال رئيس الوزراء البريطاني السابق أنتوني إيدن في مذكرة حكومية عندما كان وزير خارجية وعضواً في لجنة قناة السويس ويرد فيها على اقتراحات التخلي عن المسئوليات الامبراطورية سنة 1945 [25]، وإذا كانت الأمور قد سارت بعد ذلك بغير ما يشير هنا فكلامه يدل على التوجهات البريطانية التي حكمت فيما سبق، ورفض الترتيبات الدولية يدل على النزعة الاحتكارية التي حكمت السياسة البريطانية في بلادنا وعملت على استمرار التفرد بها، وفي سنة 1947 حدد ناحوم غولدمان الذي سيصبح رئيس المنظمة الصهيونية أهمية فلسطين قائلاً إن اهتمام اليهود بها ليس لأسباب دينية أو اقتصادية "بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية، والمركز العسكري الاستيراتيجي للسيطرة على العالم"[26]، وفي نفس العام أجمع موظفو الخارجية البريطانية على رفض فكرة الانسحاب من الشرق الأوسط ووصفوا جعله حيادياً بالحماقة[27]، فما بالنا ببروز قوة محلية مستقلة؟، وهو أيضاً ما يشير إلى النزعة الاستئثارية التي تميزت بها السياسة البريطانية في شرقنا زمناً طويلاً، كما جاء في اجتماع لحلف شمال الأطلسي سنة 1965 على لسان الممثل الأمريكي أن الشرق الأوسط هو الجناح الأيمن لأوروبا عسكريا ويحتوي على ثلثي احتياطيات النفط المعروفة آنذاك[28].

ويمكننا أن نضيف إلى سلسلة المصالح السابقة قرب "الشرق الأوسط" من أوروبا ووقوعه في دائرة الأطماع الإقليمية لدولها حيث خُيل لفرنسا في العصر الحديث أن الجزائر جزء منها، وأن لها روابط تاريخية

(25) الدكتور علي محافظة، ص31-32.
(26) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، دراسة الدكتور عبد الوهاب المسيري: الصهيونية، ص334.
(27) الدكتور علي محافظة، ص45.
(28) نفس المرجع، ص195.

بسوريا تعود إلى حروب الفرنجة، كما حدث الأمر نفسه لإيطاليا مع ليبيا، هذا إضافة إلى أطماع روسيا في البلقان بإسم الجامعة السلافية وباسطنبول ومضائقها بحجج دينية تخفي أسباباً استراتيجية، وبشرق الأناضول بحجة الأرمن رغم أنها تقمعهم في بلادها، وأطماع امبراطورية الهابسبورغ النمساوية في البلقان أيضاً، وإضافة إلى ذلك أطماع الاستعمار التقليدي كأطماع بريطانيا في مصر والعراق، وأطماع فرنسا في تونس، كل هذه الأطماع الإقليمية كلفت الدولة العثمانية حروباً طاحنة وثورات عاتية ومعارك حامية أدت إلى استنزافها ولم يكن من مصلحة الغرب الأوروبي أن تقف هذه الدولة ثانية على رجليها وذلك كي لا تستعيد ما سُلب منها، ومن أدل الوقائع على ذلك رفض أوروبا مجتمعة تدخل محمد علي باشا بصفته والياً عثمانياً لإخماد الثورة اليونانية بقوته الصاعدة وقيامها بتحطيم الأسطول العثماني المصري في معركة نافارين(1827)، وكانت فرنسا التي دعمت الوالي المصري سابقاً على رأس مهاجميه في المعركة لأنها كانت تريد قوته في سبيل مصالحها[29]، أي أن يكون عميلاً لها وينفذ مخططاتها، كحملة على شمال إفريقيا مثلاً حيث ستحتل الجزائر قريباً، وليس لأجل القوة الذاتية للعثمانيين.

وتدل حوادث الثورات العربية الأخيرة على محاولات الغرب الحثيثة الإبقاء على نفوذه وعدم إحداث تغييرات ثورية في أوضاعنا، يشهد على هذا بقاء نفس الأطقم القديمة في مواقع اتخاذ القرار وهي الوجوه التي اعتاد الغرب على التعامل معها والاطمئنان إليها فيما سبق ولا يغير من الأمر أن يكون شخص واحد من هذا الطقم أو ذاك قد اعتزل حتى لو كان رأس النظام، ولو استعملنا التعبير الماركسي فإن الأنظمة "الجديدة"، أو أدوات الإنتاج "الجديدة"، لم تفرز علاقات إنتاج جديدة، هي نفسها مازالت في كل مكان.

وخلاصة الأمر أنه رغم تغير المصالح الغربية في منطقتنا، من الوصول

(29) الدكتور جوزف حجار، ص29 و32.

إلى الهند والشرق الأقصى إلى صد التوسع الروسي ثم السوفييتي إلى تأمين وصول إمدادات النفط إلى الغرب، فإنها لم تفقد بريقها رغم استقلال الهند وزوال الاتحاد السوفييتي وتطور وسائل المواصلات والأسلحة الجوية التي قللت من أهمية الحدود البرية والحواجز الطبيعية، ولم تصرف أنظار الغربيين عن بلادنا بل تطورت مصالحهم بما يزيد من تشبثهم بالهيمنة عليها مع مرور السنين وتغير اللاعبين، وفي هذا المجال يشير المؤرخ زين نور الدين زين إلى "خطورة الدور الذي يلعبه الموقع الجغرافي في مشكلات العالم" ولهذا كان جملة من الكتاب البارزين يؤمنون أن دراسة الجغرافيا أمر ضروري لفهم تطور أي بلد من البلدان، ويضيف قائلاً إن "الجغرافيا تعد من أقل العوامل تعرضاً للتغير في تاريخ الشعوب"[30].

وقد عبر الرئيس الأمريكي السابق ترومان عن أهمية منطقتنا في سنة 1946 بقوله في خطاب الجيش : "في هذه المنطقة موارد طبيعية هائلة، فضلاً عن أنها منطقة تقع عبر أفضل الطرق البرية والمواصلات الجوية والمائية، فهي لذلك بقعة ذات أهمية اقتصادية وستراتيجية عظيمة، غير أن شعوبها ليست من القوة بحيث أن الدولة الواحدة، أو كلها مجتمعة تستطيع أن تقاوم العدوان القوي إذا أتاها من الخارج"[31]، وهذه هي نظرية الفراغ التي يعتنقها وينشرها الغربيون لتبرير تطفلهم على بلادنا التي لم تكن على الدوام ضعيفة ومقسمة بل كانت فيما سبق دولة واحدة قوية "تشيع الرعب في أوروبا" ووصفها المؤرخ جيبون بالصاعقة العثمانية التي نشأت عنها "المسألة الشرقية" التي كانت في مرحلتها الأولى تعني "مشكلة القضاء على قوة الإسلام السياسية"-وفقا لإدوارد دريو- بعدما أنشأ الأتراك العثمانيون أكبر وأقوى امبراطورية إسلامية منذ ظهور الإسلام [32]، وذلك قبل أن يضعف الكيان العثماني وتتحول المسألة إلى طريقة تقسيمه بين الطامعين فيه

---

(30) زين نور الدين زين، 1977ن ص9.

(31) نفس المرجع، ص17.

(32) نفس المرجع، ص23.

من أسلاف ترومان الذي أتى فيما بعد ليعيرنا بضعفنا الذي كان الغرب مساهماً رئيساً فيه ثم مستغلاً وحيداً له، فما هو الدور الغربي في هذا التحول؟

■ **البداية: تخريب ما هو قائم والحؤول دون عودة الروح إليه**

لقد استفادت الدول الكبرى كثيراً من الضعف الذي طرأ على الدولة العثمانية التي تخللت جيوشها الظافرة أوروبا فيما سبق ووصلت أسوار فيينا عاصمة امبراطورية الهابسبورغ، وأرادت لها بريطانيا وفرنسا أن تكون في مرحلة ضعفها حاجزاً في وجه الأطماع الروسية بالإضافة إلى استخدامها سوقاً لترويج البضائع الغربية المصنعة بعد اكتمال الثورة الصناعية(33)، ولكن بقاء الكيان العثماني الموحد حمل في طياته خطر عودة الروح إلى هذا المجال الهائل الذي وصفه مؤرخ بارز بأنه لم يكن في القرن التاسع عشر بأي حال من الأحوال كياناً عاجزاً لا حول له ولا طول، من الناحية العسكرية على الأقل(34)، وتمتع جنوده "بسمعة رفيعة بوصفهم جنوداً أشداء، وكان لهم دور حاسم في التصدي الفاعل لعدوهم الأخطر، وهو الجيش الروسي، والدول الأوروبية المتنافسة، وفي الحيلولة دون تفكك الامبرطورية العثمانية أو إرجائه على الأقل"(35)، وكان الأوروبيون الذين لا يعجبهم إلا المقاتلون"يكنّون احتراماً مشوباً بالحسد تجاه الامبراطورية العثمانية، لأن قوات المشاة لديها كانت قادرة على الوقوف في وجه الجيوش الأوروبية"(36)، وذلك في أوج التوسع الاستعماري الأوروبي حين بقيت الدولة العثمانية "أقوى دولة إسلامية صامدة في وجه الإمبريالية الأوروبية"(37) كما يقول مؤرخ آخر، وظل الجيش العثماني حتى لحظاته

(33) Resat Kasaba, The Ottoman Empire and the World Economy, State University of New York, 1988, p. 52.

(34) إريك هوبزباوم، بيروت، 2007، ص212.

(35) إريك هوبزباوم، 2008، ص215.

(36) إريك هوبزباوم، 2011، ص164.

(37) دونالد كواترت، ص161.

الأخيرة في الحرب الكبرى الأولى سنة 1917 "أبعد ما يكون عن الهزيمة"[38] رغم انتصارات الحلفاء في قول مؤرخ ثالث.

وكانت دول أوروبا لاسيما بريطانيا تفضل مصالحها التجارية على مصلحتها في استغلال بقاء الدولة العثمانية ولو بصورة هزيلة[39]، وقد تجسد هذا التعارض الموضوعي في المصالح في وقوف الغرب الأوروبي ضد كل مشاريع الإحياء التي نفذتها أو حاولت تنفيذها دولة الخلافة مثل فكرة الجامعة الإسلامية ومشروع سكة الحجاز أو سكة حديد بغداد أو مشاريع الإصلاح الاقتصادي والقضائي التي مست الامتيازات الأوروبية في الدولة العثمانية، حتى أن السلطان عبد الحميد الثاني تمنى في سنة 1902 أن تحظى دولته بفترة هدوء لمدة عشر سنوات فقط تتوقف فيها مؤامرات الدول الكبرى عليها ليتمكن من السير في الطريق الذي سارت فيه اليابان البعيدة عن "الوحوش الأوروبية الكاسرة" التي صرف العثمانيون الملايين على إخماد مؤامراتها بدل "أن تصرف على مشاريع حيوية نستفيد منها"[40]، ولم يكن تصدي الغرب لهذه المشاريع من باب الشر المحض الذي يبغي إلحاق الأذى بالآخرين بلا سبب بقدر ما كان تعبيراً عن التناقض الموضوعي بين مصالح كيانات الغرب ونهضة كيان يجمع بلاد الشرق تحت لواء واحد، وتبدى هذا التعارض أيضاً في سياسة التصدي العنيف لأية محاولة نهضوية في البلاد العثمانية كما سيأتي شرحه، وفي الزحف التدريجي واحتلال البلاد العثمانية الواحدة تلو الأخرى في سياسة اتخذت من فكرة الاستقلال قناعاً لفصل الولايات عن الدولة تمهيداً لوقوعها في براثن الهيمنة الغربية كما حدث مع الجزائر وتونس ومصر وبلدان الخليج.

هذا الزحف التدريجي اتخذ صورة عنيفة مع انفجار الحرب الكبرى الأولى سنة 1914، حين خطت الدولة العثمانية بدخولها الحرب خطوة

---

(38) مايكل أورين، ص335.

(39) Resat Kasaba, p.54..

(40) السلطان عبد الحميد الثاني، ص96.

مصيرية هدفت إلى تحرير نفسها من كل القيود التي فرضتها حالة الضعف عليها كسوء استخدام الامتيازات الأجنبية والديون، والعودة إلى مكانتها السابقة بين الكبار واستعادة كل ما سلب منها من أقطار، ورغم الانتصارات التي حققتها جيوش الخلافة في هذه الحرب على جبهات اسطنبول والعراق وفلسطين والحجاز والقوقاز والبلقان، كانت النتيجة النهائية في غير صالحها، وقد أفصح ضابط المخابرات التابعة للجيش البريطاني لورنس العرب من ميدان المعارك التي انهمك فيها ضد الدولة العثمانية عن الأهداف الحقيقية لبلاده في هذه الحرب.

■ **اعترافات رسول العناية البريطانية لبلادنا في بداية القرن العشرين:**

ففي تقرير كتبه لورنس في يناير/ كانون الثاني/ جانفي 1916 تحت عنوان سياسات مكة قال: "إن تحرك (الشريف حسين) يبدو مفيداً لنا، لأنه ينسجم مع أهدافنا المباشرة: تحطيم الجبهة الإسلامية الموحدة وهزيمة وتمزيق الامبراطورية العثمانية، ولإن الدول التي سيقيمها (الشريف) خلفاً لتركيا ستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل أن تصبح أداة في أيدي الألمان.إن العرب أقل توازناً من الأتراك، وإذا عولج أمرهم بشكل مناسب فإنهم سيظلون في حالة من الشرذمة السياسية، نسيج من الإمارات الصغيرة المتحاسدة غير القابلة للتوحد، ومع ذلك يمكنها الاجتماع في مواجهة أية قوة خارجية"[41]، وهذا الاجتماع الذي يقلق لورنس ورؤساءه هو ما يعمل الغرب جاهداً لمنعه منذ تلك الأيام.

ويختم تقريره قائلاً إن الشريف حسين "يفكر يوماً بالحلول محل السلطة التركية في الحجاز، ولو تمكنا من ترتيب هذا التغير السياسي ليكون بالعنف، سنقضي على خطر الإسلام بجعله ينقسم على نفسه في عقر داره، وسيكون هناك خليفة في تركيا وخليفة في الجزيرة العربية في حالة حرب

(41) Phillip Knightley and Colin Simpson, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, McGraw-Hill Company, New York, 1969, p. 60-61.

دينية، وسيصبح عجز الإسلام كما كان عجز البابوية عندما كان الباباوات في أفنيون"[42] (وهي فترة تراجعت فيها هيمنة البابوية وسميت الأسر البابلي للكنيسة 1309-1377 تشبيها بأسر بني إسرائيل على أيدي البابليين في القرن السادس ق.م، وقد أعقبها انقسام وصف بالعظيم نتيجة وجود بابا في روما وآخر في أفنيون 1378-1417).

وفي تقرير حمل عنوان "لو تم احتلال سوريا" وكتبه لورنس سنة 1916 أيضاً لاقتراح حل للمشكلة التي يسببها إعلان الخليفة العثماني الجهاد ضد الحلفاء الذين يحتلون بلاداً يقطنها ملايين المسلمين، قال لورنس: "مهما نتج عن هذه الحرب، فإنها يجب أن تقضي تماماً ونهائياً على السيادة الدينية للسلطان"[43].

إن الضربات المتلاحقة التي وجهت للدولة العثمانية تثبت النوايا الغربية بشكل يلغي الحاجة إلى إثبات أن بريطانيا اشترطت أو لم تشترط إلغاء منصب الخلافة الإسلامية على الجانب التركي في مؤتمر لوزان سنة 1923، لأن الموقف الغربي عموماً والبريطاني خصوصاً لم يقتصر على لحظة واحدة فقط من التآمر السري على منصب أصبح هزيلاً وشبيهاً بوزارة أوقاف في ظل إعلان قيام الجمهورية التركية، بل كان عداء علنياً اتضح بسياسة الدول الغربية تجاه إضعاف الخلافة ونهش أطرافها لمدة تزيد على قرن من الزمان أثبتت فيها الحوادث والحروب الكبرى حقيقة النوايا التي اختلفت فيما بينها فقط على طريقة اقتسام الغنائم، التي هي بلادنا، ولم تختلف على فكرة التقسيم ذاتها، وكان هذا هو محتوى "المسألة الشرقية" التي تريد حلاً، أو كما قال مراقب أكاديمي أمريكي عاصر الحرب الكبرى الأولى وكتب في سنة 1917 أن"الأمم الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر اجتمعت كالصقور حول الجثة لاقتطاع ما يمكنها من الامبراطورية التركية"[44].

---

(42) نفس المرجع، ص70-71.

(43) نفس المرجع، ص66.

(44) Morris Jastrow, The War and the Bagdad Railway, BiblioLife, Breinigsville, Pennsylvania, 2010, p. 118.

ويلاحظ المؤرخ جستن مكارثي أن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر كانت مطوقة بخصوم أقوياء لم يتيحوا لها "فسحة للتنفس" لترتيب بيتها الداخلي ببناء دولة حديثة وجيش قوي واقتصاد صناعي، واضطروها لخوض حروب متتالية في الأعوام التالية كالحرب مع روسيا (1806-1812) والحرب الثانية مع روسيا أيضاً (1828-1829) والحرب مع محمد علي باشا التي أججتها أوروبا ومنعت التفاهم بين طرفيها[45] (1832-1833) و(1839-1840) وحرب القرم مع روسيا (1853-1856) والحرب الرابعة مع روسيا كذلك (1877-1878) والحرب مع اليونان (1897) وحروب البلقان (1911-1913) والحرب الكبرى الأولى (1914-1918) وحرب الاستقلال (1919-1923)، إضافة إلى حوادث العصيان المسلح الكبرى في مصر عام (1804) والانتفاضة الصربية (1815-1817) والثورة اليونانية (1821-1830) والثورة في جزيرة كريت (1866-1868) والثورة في بلغاريا (1875) و(1876) والتمرد الأرمني (1896-1897)، وهلكت الجيوش العثمانية التي كانت في طور التدريب وأجبرت على خوض الحروب وهي غير مهيأة، وأنفقت الموارد المالية الازمة للتحديث على هزائم أدت إلى خسارة الأرض والدخل، فكان الضعف هو سبب خسائر العثمانيين التي أبقتهم أضعف من القدرة على النهوض[46].

وإن مصير المشرق العربي بعد الحرب الكبرى الأولى، حين اتفقت أوروبا على اقتسام بلادنا وفق اتفاقيات التجزئة والوعود للصهيونية ونكثت بوعود التحرر التي بذلتها للعرب ولم تف بوعود إقامة الخلافة العربية التي طالما منت العرب بها ليثوروا على العثمانيين كما بخلت عليهم بالدولة الموحدة المصغرة التي وعدتهم بها في المشرق العربي، يؤكد أن عداء أوروبا ليس مع كيان سياسي محدد، كما ادعت كذباً لتغوي العرب، بقدر ما

---

(45) د. جوزف حجار، ص133.
- بيتر مانسفيلد، ص93.
(46) جستن مكارثي، ص27-28.

هو عداء مع أي وحدة شاملة تلم شعث بلادنا، وها نحن مازلنا في نتائج تلك الحقبة المريرة إلى اليوم.

■ **الآثار السلبية لزوال المجال السياسي الموحد على احتمالات النهوض:**

كان انهيار الحكم العثماني في بلادنا سنة 1918 أول زلزال كارثي يصيب مشرقنا في القرن العشرين كما يقول الدكتور وليد الخالدي، قارناً إياه بزلازل سنوات 1948 و1967 و1990 [47]، فقد أدى إلى هبوط مكانتنا السياسية الدولية من دولة عظمى، انتقلت في آخر أيامها وأسوأ حالاتها إلى مؤخرة الدول العظمى ولكنها ظلت بينهم تحاول جاهدة التخلص من مظاهر الضعف وتصارع الظروف لاكتساب أسباب القوة والمحافظة على استقلالها السياسي والاقتصادي والحضاري ومسايرة الزمن علمياً وتقنياً وصناعياً[48] لحماية نفسها، محكومة في ذلك بمنطق الدولة العظمى الذي يوجه النقد إليها لو تخلفت عن أقرانها الكبار[49]، فأصبحنا بعدها مجالاً مستباحاً للاحتلال والانتداب والحماية ثم الاستتباع دولاً صغيرة متحاسدة ومتفرقة ومتصارعة، تماماً كما أراد لورنس، أقصى أماني أحدها أن تكون وكيلاً إقليميا عن دولة كبرى وحامياً لمصالحها، أما البقية فيكفي أحدها أن تعيش في ظل الحماية الغربية من أطماع جيرانها مقدمة إمكاناتها وثرواتها قرباناً لأطماع أعدائها كي يضمنوا أي شكل من بقائها، وأي تطلع نحو أكثر من هذا الدور لم ولن يكتب له النجاح لسبب بسيط هو عدم توفر مستلزمات

---

(47) وليد الخالدي، فلسطين وصراعنا مع الصهيونية وإسرائيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية والنادي الثقافي العربي، بيروت، 2009، ص255-256.

(48) أكمل الدين إحسان أوغلي(إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 1999، ترجمة: صالح سعداوي، ص736-741.

- Jonathan S. McMurray, p. 123.

(49) روجر آلن (تحرير)، إبراهيم المويلحي: الأعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007، ص29.

- أكمل الدين إحسان أوغلى، ج1ص429.

الحضور الدولي الفاعل لدولنا القائمة على مساحات ذرية، كالعمق البشري والجغرافي والموارد الاقتصادية اللازمة لدعم القرار السياسي المطلوب لفرض الإرادة في مواجهة الدول الكبرى، فلا يخفى على أي ملاحظ أن الموارد المالية في وطن العرب في جهة، والموارد البشرية في جهة مختلفة، والإمكانات الزراعية في جهة ثالثة، والإمكانات العلمية منبوذة تبحث عن التفتح في جهات خارجية رابعة، والمواقع الحيوية لا تجد من يدافع عنها فيسوّق الغرب فكرة الفراغ الذي عليه أن يملأه.

ولأن الضعف سمة ملازمة لبنية هذه الدويلات المجهرية، فإنها حولت الإمكانات الهائلة التي هبطت عليها باكتشاف الثروات الطبيعية التي منحتها رأس المال، وبزيادة أعداد سكانها، إلى مصادر ضعف وتبعية، مع أن العهد العثماني كان يتوق إليها وكان نقصها نتيجة المحددات الطبيعية آنذاك من أسباب الضعف الرئيسة فيه[50] وكانت الدولة في أشد الحاجة إليها في مجالها الأكثر ملاءمة لاستخدامها من المجال المجزأ الذي خلفها، فلما ظهرت عند دول التجزئة هذه الإمكانات الجديدة، التي تعد مصادر قوة في بلاد أخرى مستقلة، أصبح الجو غير ملائم لاستغلالها في أقطارنا المقسمة بعدما فقدنا المجال الجغرافي الواسع والموحد والمستقل الذي يتيح الفرصة للإفادة المثلى من موارده كافة، وأصبح العدد الكبير من البشرعبئاً نتيجة العجز عن الاستفادة منه في ظل قلة الموارد الاقتصادية لدول الاكتظاظ السكاني، وصارت الثروة الاقتصادية مصدر ضعف في مواجهة الأطماع الخارجية بها في ظل قلة الموارد البشرية والامكانات الاستراتيجية لدول الوفرة المادية، أي أن هذه الموارد الحيوية لم تفدنا في دعم مكانتنا الحضارية بل كانت نقمة في ظل التشتت وسوء الإدارة والتدخل الأجنبي[51] وأدت إلى مزيد من التبعية بدل الاستقلال، وزيادة التخلف المقنّع بدل التنمية الحقيقية، وذلك نتيجة ما أسماه الدكتور نادر فرجاني منذ بداية ثمانينات القرن الماضي: هدر الإمكانية.

---

(50) دونالد كواترت، ص238.

(51) الياس توما، ص63و260.

وقد دفعت المصالح الغربية في بلادنا دول الغرب إلى العمل على إنشاء الوطن اليهودي في عقر دارنا "وأزالت هزيمة العثمانيين آخر العقبات أمام هجرة اليهود وشرائهم للأراضي" كما يقول المؤرخ الأمريكي الصهيوني مايكل أورين[52]، وعد الدكتور وليد الخالدي انتقال السيادة على فلسطين من العثمانيين إلى بريطانيا "الحدث الفصل" في بناء الدولة اليهودية في الفترة الواقعة بين انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1897 وقيام الكيان الصهيوني سنة 1948 [53]، ورحبت القيادات الجديدة التي خلفت العثمانيين في العالم العربي، سواء القيادات السياسية المجزأة، أوالقيادات الفكرية المتغربة، والمتحالفة جميعا مع بريطانيا، رحبت بالتعاون مع الغرب لتحقيق الحلم الصهيوني مما زاد من أسباب التشرذم والاستنزاف والتبعية والضعف في بلادنا[54].

■ **اعتراف الأب الروحي للسياسة الخارجية الأمريكية المعاصرة : تواصل العرقلة**

في مقال نشرته الواشنطن بوست في 31/ 3/ 2012 يتساءل عن حقيقة ظهور سياسة جديدة للتدخل الأمريكي تُراجع السياسات التقليدية، اعترف وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر الذي مارس نفوذاً كبيراً حتى بعد مغادرته منصبه، أن سياسة بلاده في "الشرق الأوسط" اهتدت لمدة أكثر من نصف قرن بأهداف جوهرية تتعلق بأمنها: 1)منع أية قوة في المنطقة من الظهور والزعامة، 2)تأمين التدفق الحر لموارد الطاقة الحيوية لتشغيل الاقتصاد العالمي، 3)محاولة التوسط لإحراز سلام دائم بين "إسرائيل" والعرب بمن فيهم الفلسطينيون.

هذه الأهداف مترابطة من جهة ولها متطلباتها من جهة أخرى، فمنع

---

(52) مايكل أورين، ص409.

(53) وليد الخالدي، ص288.

(54) محمد شعبان صوان، دراسة: آثار التغريب السياسي على المجتمع العثماني، التحدي والاستجابة (الجزء الثالث: الهجرة الصهيونية بين دعم الغرب وتبعية التغريب والمقاومة العثمانية الرسمية والاجتماعية) موقع أرشيف الدولة العثمانية (3/ 2/ 2014)

ظهور زعامة قوية من المنطقة يقتضي منع انتقال التقدم العلمي إلينا لاسيما القوة العسكرية، وتأمين تدفق الطاقة يقتضي منع ظهور زعامة تتولى توحيد السياسة النفطية لدول المنطقة، وفرض الحل الأمريكي على قضية فلسطين يقتضي منع ظهور قوة تتحدى الوجود الصهيوني أو حتى على الأقل تفرض شروطاً غير الشروط الأمريكية للحل، ولهذا لا يخفي الأمريكان تمسكهم بالتفوق الصهيوني النوعي على كل البلاد العربية بصفته ضماناً لأمن الكيان.

وأشار كيسنجر في مقاله أيضاً إلى ضرورة التعامل مع مواقف حكومات المنطقة من هذه الأهداف الأمريكية "بغض النظر عن الآلية الانتخابية التي وصلت بها هذه الحكومات إلى السلطة"، أي بغض النظر عن الديمقراطية التي يمكن الاهتمام بها إلى جانب القيم الإنسانية ولكن "ضمن إطار هذه الحدود" أي حدود المصالح، فقد تجد الولايات المتحدة نفسها أمام حكومة إسلامية منتخبة ديمقراطياً، ولكن أمريكا يجب أن تكون حرة في اتباع أحد القواعد الثابتة تقليدياً في السياسة الأمريكية الخارجية وهي "ربط موقفها بمدى تطابق مصالحها مع سياسات هذه الحكومة"، فليس الالتزام الديمقراطي هو الحاسم بقدر المصالح المادية.

ثم يمن علينا بموقف الولايات المتحدة التي أنجزت عملاً مهما في نظره بعدم إعاقة الثورات العربية (حقاً؟ ولم تلتف عليها أيضاً؟!)، ولكنه يعود لوضع هذه الديمقراطية في حجمها بإرشاد الإدارة الأمريكية إلى أن تقويم السياسة الأمريكية سيكون أيضاً وفق ما ينتج عن الربيع العربي من التزام تجاه النظام الدولي (الذي تسيطر عليه أمريكا) والمؤسسات الإنسانية (التي تسيرها أمريكا أيضاً)، وهذا يفسر المساعي الأمريكية والغربية المحمومة للتحكم في مستقبل سير الأحداث الثورية، تلك المساعي الواضحة للجميع والتي ترد على مخاوفه المبالغ فيها بحدوث تحولات جذرية في السياسة الخارجية الأمريكية.

كل هذه الملامح، أي التعامل مع بلادنا وفق المصالح التي حددتها الأهداف الثلاثة السابقة وتبعية شعارات المبادئ لهذه المصالح، شاهدتها أجيالنا التي عاشت في النصف الثاني من القرن العشرين بوضوح، ولكنها

تمتد أبعد من ذلك في تاريخنا إلى اللحظة التي بدأ فيها احتكاكنا بالغرب، ولم تقتصر على السياسة الأمريكية وحدها.

■ عودة إلى الوراء

في يوم 29/ 1/ 1991 وأثناء احتدام حرب الخليج الثانية، استقال وزير الدفاع الفرنسي جان بيير شوفنمان اعتراضاً على ما رآه انحرافاً في الحرب عن الهدف المعلن وهو تحرير الكويت، والتحول نحو تدمير العراق، وقد قال ذلك رغم أن الحرب التي ستستمر أكثر من ثلاثة عشر عاماً كانت ما تزال في بدايتها، ولكن ما رآه الوزير من أهوال كانت كافية للوصول إلى هذه النتيجة التي ربطها بأحداث تاريخية سابقة ومشابهة فقال إنه لأربع مرات في غضون قرن، ابتداء من محمد علي باشا ومروراً بالشريف حسين، فعبد الناصر وانتهاء بصدام حسين، يحطم الغرب بوحشية السلاح حلم نهضة عربية ودخولاً عريضاً إلى خط صناعة التاريخ العالمي المعاصر[55]، ولسنا هنا في مجال مناقشة من المسئول عن عدم نهضتنا: العوامل الداخلية أم الخارجية؟ ولكننا أمام حقيقة تاريخية ملفتة هي وقوف الغرب أمام كل المحاولات التي بذلت للخروج من حالة التخلف والذي يرجعه ساسة الغرب إلى عيوب في الشرقيين، وهو ما لم يغفل عنه الوزير شوفنمان ورد عليه قائلا: "لدينا اليوم هنا في أوروبا موضة جديدة وهي أن نرد مصائب العرب إلى دناءاتهم، فهم يشكون من الإذلال ومرد ذلك هو تخلفهم الطبيعي ورفضهم كل حداثة سواء تعلق الأمر بالعلمانية أو بوضع المرأة أو بقيمة العمل ... وقد نسي الغرب موجه الاتهام أنه في كل مرة كان نظام عربي أو إسلامي يحاول الانفتاح على الحداثة كان الغرب يقطع عليه الطريق أو يحطم رأسه، فأمس مع محمد علي، والسلاطين (العثمانيين) المجددين، وأقرب من الأمس كان عبد الناصر، علماً أن تجربة مصدق في إيران لن تسقط من الذاكرة"[56]، أما أن هذه النهضات لم تلب المقاييس

(55) حمدان حمدان، 1993، صالغلاف الخلفي.

(56) نفس المرجع، ص684-685.

القياسية الغربية للقبول[57] فهو ما لا يجب أن نأخذه على محمل الجد كثيراً، لأننا سنرى أن المصالح هي الفيصل بين الفرقاء، إذا تأمنت بلع الغرب أي عيب وإذا هُددت ضخم أي خطأ، والمصالح المقصودة ليست موارد العيش بل مستلزمات الهيمنة على "الآخر" الذي لا يجد الاهتمام من متغربينا إلا لو كان غربياً أو صهيونياً، هذا بالإضافة إلى أنه ليس من حق الغرب ولا غيره أن يصوغ الآخرين بقوالبه، فيحيي من يعجبه ويميت من يرفضه، وإن كان هذا هو ما حدث مع الأسف في غابة الغرب الداروينية التي كانت القوة فيها هي فصل المقال، ولكن الأعجب أن نجد من يسمي هذه الغابة فردوساً أرضياً.

ومع ذلك ليس لنا أن نتوقع أن الغربيين يتقمصون دور شخصية الساحرة الشريرة في قصص الأطفال والتي لا هم لها سوى إلحاق الأذى بالطيبين، لأن النفس البشرية عندما تقوم بعمل ما تغلف فعلها بمبررات وربما أساطير تخرجه في صورة مقبولة، ويكون ما يكشف عن الحقيقة هو الفعل ونتائجه، وهذا ما يحدث حتى مع أشنع الجرائم كجريمة الرق والتمييز العنصري التي قامت على أسس "علمية" عن تميز الأعراق الذي يقتضي هيمنة العرق الأبيض على غيره، "لمصلحة الجميع" طبعاً، وأن استرقاق السود هو الأمر "الطبيعي" الذي يناسب تكوينهم ويجعل الطاعة العمياء هي فضيلتهم الأسمى، ولهذا لا نتوقع فيما يتعلق بنا أن يقول الغربيون: إننا أشرار ونريد إلحاق الأذى بنهضة الشرق لكي لا يعيش أهله في تبات ونبات، بل نتوقع كثيراً من المبررات والمقدمات الخيرية والإنسانية بل والعلمية أيضاً والتي لن تفضحها إلا الحقائق والمفارقات على الأرض، ومع ذلك لن يخلو الأمر من اعترافات صريحة في بعض لحظات التجلي ووقوف ساسة الغرب أمام الحقيقة المجردة وبخاصة بعدما جعلت الحضارة الغربية الحديثة المنفعة الأنانية حافزاً مشروعا لسلوك الإنسان.

ومن استقراء المحاولات النهضوية السابقة نجد أن الخلاف بين

---

(57) فردريك معتوق، ص55.

مصالح الغرب وبروز قوة شرقية عربية أو إسلامية، مهما كان توجهها نحو الغرب، هو السبب في الدمار الذي ساقه الغربيون لهذه المحاولات، ولم يكن العداء للغرب هو الذي ساق الغربيين للهجوم عليها، ولا تهديد مصالحه المشروعة في التبادل المتكافئ، ولكن كما قال المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري إن هناك فرقاً بين المصالح المجردة وتشخيص المرء مصالحه حسب رؤيته وميوله[58]، وربما كانت مصلحة الإنسان في جهة بينما يرى هو أنها في جهة مختلفة فيتصرف على أساس تشخيصه لا على أساس المصلحة المطلقة، وقد شخّص الغرب مصالحه في بلادنا على أساس الهيمنة لا المعاملة المتكافئة، واستبعد القبول بأية حالة مستقلة فيها، ولهذا نرى دفاعه دائماً منصباً على الحفاظ على سيطرته بغض النظر عن مصالح أصحاب البلاد، وإن غلف سعيه هذا برايات الحضارة والتمدن بل وربما الحرص على الشعوب، ولكنه كالحرص على مصلحة الأفارقة باستعبادهم، وسنسمع في بعض اللحظات الإدراكية، كما يسميها المسيري رحمه الله، الحقيقة المجردة، وقد وصف الدكتور جيرمي سولت بإنصاف هذه النظرة الغربية القائمة على نظريات عرقية نبعت من غطرسة التاريخ التوسعي الامبريالي: "نحن نهاجم وأنتم المهجوم عليكم، نحن نجتاح وأنتم من يتعرض للاجتياح، نحن نحتل وأنتم من تحتل بلادكم، نحن نهدد وأنتم ترتعبون، نحن نحاضر وأنتم تستمعون، نحن نقتل وأنتم القتلى"[59].

1 - مشاريع مصر:

ولو بدأنا بمشروع محمد علي باشا لوجدناه استفتح بالحرص على الاتفاق مع أوروبا، وبخاصة بريطانيا وفرنسا، وكان هو في تلك اللحظات موضع القبول والرضا بل والتشجيع ولم يثر في وجهه أي من الاعتراضات التي يسطرها المتغربون اليوم في دفاعهم عن مواقف أسيادهم النهائية من

(58) الدكتور عبد الوهاب المسيري، 1996، ص3-4.
(59) د.جيرمي سولت، ص450.

مشاريع نهوضنا[60]، وكان مراد أوروبا من دعمه بداية هو شطر الدولة العثمانية إلى شطرين، ولكنه عندما أفصح عن أهدافه النهائية إلى القناصل طالباً بسذاجة عون أوروبا -بدل التنسيق مع السلطان العثماني الأقرب وصاحب المصلحة المباشرة- في "إيقاظ طاقة الأمة الإسلامية الراكدة وإلى إقامة الإمبراطورية العثمانية على أسس جديدة"[61] انقلب الدعم إلى إعاقة والصداقة إلى عداوة، ولم يكن السبب في ذلك الخشية من أن يقوم محمد علي بغزو بريطانيا مثلاً بل بسبب الأوضاع التي ستنشأ بعد قيام دولة قوية ترفض تسليم مواردها إلى النهب الأجنبي الذي كان قائماً في ظل الإدارة العثمانية الضعيفة، أي أن بريطانيا ومن خلفها أوروبا خشيت أن يستولي الباشا "على عرش العثمانيين عزيز الجانب موفور الهيبة"[62] في منطقة حساسة تقع على طريقها إلى الهند وتتمتع فيها بامتيازات تجارية واسعة لن تقبل بها حكومة قوية، كما كان الوجود المصري في الخليج والجزيرة العربية مناقضاً للمكانة التي تحاول بريطانيا تعزيزها هناك، وتحت شعار الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية، أهمل الأوروبيون كل التقارير التي تحدثت عن التطور في إدارة الوالي والتحسينات التي دخلت على أراضيه ونسوا كل تبجحاتهم التي كانت تتحدث عن جلب الحضارة للمتخلفين، ولم تنفع كل التنازلات التي بذلها لمصالحهم تحت سلطته -كتيسير الحج المسيحي وتسهيل أعمال الإرساليات والموافقة على تنازلات اقتصادية- في قلب الموقف، كما لم ينفعه حرصه الشديد على عدم الاصطدام بأوروبا، لأن التناقض كان موضوعياً وليس شخصياً، ووقفوا يتفرجون على السباق بينه وبين السلطان العثماني محمود الثاني ثم عبد المجيد الأول في بذل التنازلات لكسب التأييد الغربي لأحدهما ضد الآخر، وحرصوا على الإمساك بخيوط التفاوض وعدم السماح باتفاق الطرفين وعلى تأجيج الصراع بينهما حسب القاعدة اللازمة لأي استعمار وهي فرق تسد، وحتى فرنسا

---

(60) فردريك معتوق، ص55.

(61) الدكتور جوزف حجار، ص96.

(62) نفس المرجع، ص162.

التي دعمته بقوة فضلت التناغم مع أوروبا على متابعة مصالحها مع الوالي منفردة، وأُعلنت الحرب الشاملة ضد الباشا ورفعت شعارات تناسب الموقف كتحرير الأهالي من "النير المصري"، إلى أن قلصت سلطته إلى حكم مصر وحدها ودُمرالأساس الاقتصادي لنهضته[63] وفي لحظة هزيمة مشروعه نشأت لدى بريطانيا فكرة الوطن اليهودي في فلسطين ليكون حائلاً ضد أية مخططات "خبيثة" في المستقبل لمحمد علي أو لخلفائه بإقامة دولة تحكم مصر والشام والجزيرة العربية[64]، وهكذا ولدت مصلحة قديمة مصلحة جديدة، والكل نابع من الحتميات الجغرافية والاستراتيجية، والجيولوجية فيما بعد بظهور النفط، والتي ولدت المصالح الاقتصادية والسياسية.

وتحولت مصر إلى ولاية ضعيفة ما لبثت أن وقعت في فخ الديون التي بذلها الأوروبيون للخديو إسماعيل بكل سخاء حتى إذا أفاق وحاول استدراك ما فاته بالحد من تدخلهم تحول إلى عدو قاموا بشيطنته وعملوا على إقصائه بعدما جاروه في خططه للاستقلال عن الدولة العثمانية في عملية إحياء الخطة التي جربوها مع جده ولكنها لم تنفعهم آنذاك بسبب طموحات محمد علي وقوته، أما إسماعيل فكان ضعيفاً ولم يزده "استقلاله" إلا ضعفاً، إذ انفرد الأوروبيون به وشجعوه على هذا الاستقلال الذي يكشفه أمامهم، ومع أنه لم يجد من يقف إلى جانبه من شعبه[65] أو الدولة العثمانية صاحبة السيادة التي تبنى صدرها الأعظم خير الدين التونسي عملية عزله وأيده السلطان في ذلك[66]، فإننا يجب أن نفرق بين دوافع كراهية الغرب له وكراهية العثمانيين والمصريين له، ففي الوقت الذي عاداه مواطنوه بسبب أخطائه ولم يغفروا له توريط مصر بشباك الأوروبيين، ورأوا في رحيله إنجازاً، كان الغرب يعاديه بسبب لحظات الإفاقة الأخيرة التي لم يضمن فيها

---

(63) ز.ي.هرشلاغ، ص119.

(64) رفيق شاكر النتشة، الاستعمار وفلسطين، دار الجليل للنشر، عمّان، 1984، ص177.

(65) تيودور رتشتين، تاريخ المسألة المصرية 1875-1910، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950، ترجمة: عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، ص87.

(66) الصادق الزمرلي، أعلام تونسيون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص106-107.

المصالح الغربية وكان الغربيون يرغبون في استمرار الغيبوبة التي كرّهت المصريين والعثمانيين في إسماعيل، وبكلمات أخرى لقد كره المصريون والعثمانيون إسماعيل بسبب التدخل الغربي وكرهه الغربيون بسبب محاولته وقف هذا التدخل، أي أن هناك تضارب مصالح موضوعي بين مشاعر الشرقيين والغربيين وإن اتفقوا في لحظة غفلة على فعل عابر، وبهذا أصبح إسماعيل في عيون الغربيين مستبداً لا لأنه أرهق فلاحيه -وهو أمر كانوا يقبلون به ما دام متماشياً مع مصالحهم المالية-بل لأنه استعمل حقه في إقالة الوزارة المصرية التي يشترك الأوروبيون فيها، أي أنه لم يقِل وزارة أوروبية في أوروبا بل أقال تدخلاً أوروبياً في مصر، وعند إقالته لم يضع الأوروبيون مشروع دستور مصري على قائمة أولوياتهم وعاد توفيق بن إسماعيل إلى الحكم المستبد الذي لم يكن "إلا استبداد الماليين الأوربيين" كما يقول تيودور رتشتين ويعلق قائلاً : "ذلك هو الشكل الذي تأخذه عادة غيرة أوربا على الإصلاح إذا ما تأثرت بعوامل الربح والمنفعة "[67]، ولكن بما أن معارضة إسماعيل زالت فإن اللورد كرومر لا يرى استبداداً إلا فيه وليس في نفسه، كما رأى اعتزاله "إيذاناً بالقضاء على حكومة الفرد المطلقة في مصر"[68].

ولما قام الجيش المصري بزعامة أحمد عرابي بالثورة على استبداد الخديو سنة 1882، ثورة بدأت بالمطالبة بحقوق محدودة ثم اتسعت للمطالبة بحقوق المصريين كافة، لم تتلقاها أوروبا بالترحيب، وليس سبب ذلك ذاتياً، فقد طمأن عرابي باشا الغربيين على أنفسهم وحقوقهم، بل كان لديه ثقة في رئيس الوزراء البريطاني غلادستون واعتقاد بحب الإنجليز الحرية وأنهم إذا اطلعوا على الحقائق سيقفون إلى جانب المصريين[69]، وهو اعتقاد سيتكرر عند ساستنا وثوارنا كثيراً فيما بعد، ولكن المشكلة أن

---

(67) تيودور رتشتين، ص107.

(68) نفس المرجع نقلاً عن كتاب مصر الحديثة لكرومر.

(69) ألفريد سكاون بلنت، التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008، ص285.

التناقض كان موضوعياً بسبب الخلاف على تحديد هذه الحقوق: هل هي فقط الأموال التي أقرضتها أوروبا لمصر أم أنها تشمل هيمنة الغربيين عليها والذين سمح لهم ضعفها باتباع سياسات السلب والنهب؟ هذا بالإضافة إلى موقع مصر وقناة السويس على طريق الهند الذي تعده بريطانيا حقاً من حقوقها المكتسبة، وقد تنبه صاحب تاريخ المسألة المصرية إلى هذا التناقض الموضوعي بين مصالح مصر التي يمثلها أي حكم وطني والمصالح التي يرى الغربيون أنها من حقوقهم وهي ليست كذلك، فقال: "مهما حسنت نيات القائمين بالحركة الوطنية (تجاه أوروبا) فإنهم لا بد أن يمسوا مصالح الأوربيين الكثيرة التي تمثلها الرقابة الأوربية وكثرة الموظفين الأوربيين والمزايا الكثيرة التي يتمتع بها الأوربيون بعبثهم بالامتيازات الممنوحة لهم، وكانت أوربا تعلم حق العلم أن مصالحها في مصر قائمة على النهب والسلب، وأنه إذا استقلت مصر واشتد ساعدها عاجلاً أو آجلاً فلا بد أن يضحى بهذه المصالح من أجل ما هو أهم منها ألا وهو مصالح الأمة المصرية"[70]، ولهذا لم تنفع كل جهود عرابي في طمأنة الغربيين كما لم تنفع من قبل طمأنة محمد علي إياهم، كما لم ينفعه تصديق الوعود الفرنسية وعدم المبادرة إلى الهجوم على الجيش البريطاني في إثبات نواياه السلمية مع أن الإنجليز محتشدون أمام سواحل مصر وليس أمام سواحل بريطانيا[71]، وفشل الفرنسيون في الالتزام بوعدهم بالتصدي للإنجليز إذا لم يبدأ الجيش المصري بالهجوم[72]، وهذا الموقف السياسي سيتكرر في مواجهاتنا مع الغرب فيما بعد لاسيما سنة 1967، وهجم الإنجليز على مصر مرتكبين القتل والقصف والذبح، بحجة الدفاع عن النفس، مع أن الجيش المصري لم يغز لندن، وسنسمع حجة الدفاع عن النفس هذه كثيراً بعد ذلك منهم ومن ورثتهم الأمريكان في بلادنا، وحجة مناصرة السلطة الشرعية الممثلة بالخديو، ونسوا كل دروسهم المضادة للاستبداد كما تجاهلوا

(70) تيودور رتشتين، ص135.
(71) ألفريد سكاون بلنت، ص286.
(72) نفس المرجع، ص287.

المحاولات المستميتة التي بذلتها السلطة الشرعية ممثلة بالدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر لدرء كل محاولات التدخل الأجنبي، وأسلوب "المساعدة" الإجبارية هذا ليس غريباً عمن كانوا يجلبون التحضر لشعوب بإبادتها، ووقعت مصر كغيرها في أسر الاحتلال البريطاني الذي ادعى أنه أتى مرغماً، وسيظل مؤقتاً، بل لقد نفى رئيس الوزراء البريطاني أن تكون حرب قد قامت أصلاً في مصر[73] (!)

وبذل الإنجليز العشرات من وعود الجلاء واحترام الاستقلال، تماماً كما سيحترم الأمريكان فيما بعد سيادة العراق واستقلاله في نفس الوقت الذي كانوا يغزونه فيه، ولم ينفذ شيئ من وعود الإنجليز[74]، حتى خرجوا من مصر مرغمين ولكن بإرغام يختلف عن "الإرغام" الذي دخلوا به، أما عن حصيلة هذا الاحتلال الذي جاء إلينا "مرغماً" ليمدننا فيقول المؤرخ هرشلاغ الذي لا يكن عداء للظاهرة الاستعمارية ويعدد منجزاتها وإخفاقاتها بحياد بارد بعيداً عن مفهوم الاستقلال القومي ويرفض تحميل الاحتلال وزر تحطيم إنجازات حكام مصر، يقول : "على الأكثر يمكن أن يقال أنه، فيما عدا المجال المالي والنقدي، فإن الحكم الإمبريالي البريطاني، بمراعاته مصالحه الأنانية لم يبذل أية محاولة جدية لإصلاح الضرر الذي وقع على البلاد على أيدي حكامها، بمن فيهم محمد علي، ولا أن يمنح مصر الدفعة الكبيرة نحو انطلاق صناعي حديث"[75]، ولسنا في مجال مناقشة رأيه أو إثبات أنه حتى المجال المالي والنقدي كان من المصالح الأنانية للاحتلال ولكن يكفي أنه حتى من لم ير جرماً في هذا الاحتلال لا يستطيع الدفاع عن "إنجازاته" فضلاً عن إثبات أنه قام بمهمته التمدينية، وفي هذا دليل آخر على تباين المصالح بيننا وبين الغربيين الأمر الذي لا ينتج النهايات السعيدة المرجوة من أي التقاء مصالح بين الطرفين، وبسبب الميل الكبير في ميزان

---

(73) د.جيرمي سولت، ص58.

(74) القضية المصرية 1882-1954، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1955، ص21-28.

(75) ز.ي.هرشلاغ، ص166.

القوى لصالح الغرب، لسنا بحاجة إلى منجّم يكشف لنا عن الطرف الفائز في أي لقاء من هذا النوع.

ولما قام الجيش المصري بثورة يوليو/تموز/ جويليه 1952 لم تكن قيادة الثورة تحمل عداوة إلا للمحتلين بلادها من الإنجليز، ولم يكن لديها تصورعن معاداة الغرب كله، بل إن الرئيس جمال عبد الناصر يحكي للكاتب الفرنسي بنو ميشان عن إعجابه الابتدائي بالثورة الأمريكية وإنجازات التجربة الأمريكية، إعجاباً يذكرنا بإعجاب عرابي بالحرية الإنجليزية : "وبكل سذاجة كنت مقتنعاً بأن الأمريكيين هم أعداء الاستعمار"[76] كما قال بنفسه، بل إن الثورة في البداية ظنت إمكان الالتفات إلى علاج وتطوير الشأن المصري الداخلي في وجود عدو ككيان الصهاينة على الحدود[77]، وعندما أعلن أنتوني إيدن رئيس الوزراء البريطاني مبادرة سنة 1955 لتسوية النزاع العربي الصهيوني وفق قرارات الأمم المتحدة، "لم يلبث جمال عبد الناصر أن أعلن أنها فكرة جديرة بالنظر وأنه سيقوم بدراستها"[78] كما يتذكر وزير الخارجية المصري السابق محمد إبراهيم كامل، والمراد من هذه الشواهد إثبات حسن النية لدى قيادة الثورة ابتداء والظن أنها من الممكن أن تُترك وشأنها لتحسين شئون بلدها، ولكننا نعود مجدداً إلى التناقض الموضوعي الذي لا يعتمد على النوايا الذاتية والذي تحدث عنه تيودور رتشتين زمن الثورة العرابية، وهو ما يجب أن يستفيد منه دعاة الانكفاء على القضايا المحلية في يومنا هذا، فالكيان الصهيوني لم يكن في تلك الفترة، كاليوم تماماً، راغباً في أي سلام قد يفتح ملفات حدوده الممتدة خلف خطوط التقسيم أو مسألة اللاجئين وهما قضيتان علق قبول الكيان في الأمم المتحدة على القبول بقراري 181 و194 بشأنهما، ولهذا أعلن بن غوريون

(76) بنوميشان، ص25.

(77) جوناثان ديمبلبي ودونالد ماك كوين، الفلسطينيون، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص114.

(78) محمد إبراهيم كامل، ص53.

رفضه مبادرة إيدن التي "لايبررها القانون ولا الأخلاق ولا المنطق"(!)[79]، وهو درس كان ينبغي على كل المعتدلين من أنصار قرارات الأمم المتحدة الاعتبار به منذ تلك اللحظة.

وظل الصهاينة يصعدون التوتر الذي وصل ذروته باحتلال منطقة العوجة والغارة على غزة سنة 1955 مما جعل الرئيس عبد الناصر يعيد حساباته بشأن حقيقة "إسرائيل" واكتشف أنها ليست حدوداً مسروقة خلف خطوط الهدنة فقط وإنما هي في حقيقة أمرها رأس حربة للاستعمار، كما قال في خطابه يوم 22 يوليو/ تموز/ جويليه 1957، أما الولايات المتحدة، فبعيداً عن دعمها المطلق للكيان الصهيوني، قد عاملت قيادة الثورة، التي ابتدأت معجبة بإنجازات في التجربة التاريخية والحضارية الأمريكية، بالغطرسة الاستشراقية المعروفة التي لا تقبل إلا أن يكون الغربي سيداً والآخرون أتباعاً[80] بعيداً عن أي تكافؤ في العلاقة، وقد فوجئ الأمريكيون من رفض الرئيس ناصر عرض نفسه للبيع "وأيدت السي آي إيه حملة طويلة وبطيئة من الإفساد ضد مصر" كما أفادت وثائق المخابرات الأمريكية[81]، وظل الخلاف يتصاعد إلى أن ضربت التجربة النهضوية برمتها سنة 1967 بعد الركون إلى طلب مشابه للطلب الذي قدم لأحمد عرابي بألا يكون البادئ بالهجوم، وكان الخلاف الأمريكي الصهيوني في هذه الحرب خلاف أشقاء رغم ما حدث للسفينة الأمريكية ليبرتي، الأمر الذي يختلف عن التناقض الذي حدث بين الطرفين أثناء العدوان الثلاثي سنة 1956، وهو ما منح الصهاينة حرية الحركة هذه المرة دون التخوف من رد فعل أمريكي حاسم[82]، وفي لحظة صراحة تدل على ثقة مطلقة بالنفس المتغطرسة أمام

---

(79) الدكتور علي محافظة، ص145.

(80) بنو ميشان، ص25-26.

(81) تيم واينر، ص181-182.

(82) د.جيرمي سولت، ص279. وأيضا:
- مايكل أورين، ص511. وأيضا:
- دوجلاس ليتل، ص198

هزيمة ضحيتها، اعترف الإرهابي الذي اعتلى سلطة الكيان الصهيوني مناحيم بيغن بحقيقة الموقف آنذاك عندما قال في سنة 1982وهو يتحدث عن الحروب التي خاضها كيانه : "كان لدينا الخيار أيضاً في يونيو (حزيران/ جوان) 1967، فتجمعات الجيش المصري في ممرات سيناء ليست برهاناً على أن ناصراً كان في الحقيقة على وشك أن يهاجمنا، ولنكن صادقين مع أنفسنا، لقد قررنا نحن أن نهاجمه"[83].

لا نسوق هذه الأمثلة الآن لنثبت حسن نوايانا وبياض صفحتنا أو نستخرج شهادة حسن سلوك دولي لأنفسنا، وهذا لسبب بسيط هو ثبات عقم هذه السياسة التي جربت على مدار عشرات السنين وفي حوادث كثيرة وفشلت في إحداث أي تقدم لنا، وثبت فيها أن التناقض الموضوعي بين مصالح أمتنا والمصالح كما يحلو للغرب أن يراها غير قابل للتقريب بين وجهتي النظر على قاعدة التكافؤ بين طرفين متعادلين يسعيان لتبادل المنافع، وأنه ما دام في المعادلة قوي وضعيف وما دام الغرب متمسكا بوجهات نظره المتعلقة بالمصالح المهيمنة وبالنظرة الدونية إلى غيره فلا أمل في التفاهم إلا على قاعدة الاستتباع الذي يقبل التابع فيها أن يكون منفذاً لما يؤمر به من برامج المتبوع على حساب مصالحه العليا وأهدافه البعيدة ويمكن له أن يقنع في ظل هذا الظرف بأن يعيش آكلاً شارباً نائماً في حياة استهلاكية تختلف درجاتها حسب الظرف ويعيش فيها العاجل على حساب الآجل كالعجل الذي يسمّن ليؤكل ولا يكون له أي دور في التقرير الحقيقي لمصيره ومصير أجياله.

2 - المشروع العراقي:

ودارت الأيام ليقع العراق في نفس المعضلة بين طموحه نحو مكان لائق بين الأمم ورغبة غربية جامحة للهيمنة على هذه البلاد، وبدأ كما بدأت

---

(83) بول فندلي، الخداع، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1993، أشرف على الترجمة: الدكتور محمد يوسف زايد، ص85.

غيره من القيادات الثورية، راغباً في علاقات متوازنة مع الغرب أو كما قال الوزير سعدون حمادي لوزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر سنة 1975: "العراق ليس مغلقاً بوجه الولايات المتحدة وليس هناك اعتراض على تطوير العلاقات مع الولايات المتحدة على المستويين الاقتصادي والثقافي، ولكن فقط على أساس عدم التدخل في الشئون الداخلية"[84]، ويجب ملاحظة أن هذا الكلام كان أثناء انقطاع العلاقات السياسية بسبب عدوان الكيان الصهيوني في حرب 1967، وقد استعان العراق في بناء نهضته بجهات غربية مختلفة[85] لم تبطئ في المساعدة وبخاصة أثناء المواجهة العراقية الإيرانية التي كرر الغرب فيها موقفه من المواجهة المصرية العثمانية زمن محمد علي باشا حين منع الغربيون اتفاق الطرفين وصبوا الزيت على نار الحرب بينهما، وهذا لا يبرئنا من التبعة أو يعفينا من المسئولية التي يجب أن تتوجه نحو تحديد أكثر دقة للأعداء وتوجيه أكثر فاعلية للقدرات، وقد أدركت القيادة العراقية هذه الحقيقة عندما كشر الغربيون عن أنيابهم فحاولت مد الجسور مع إيران لمواجهة العدو المشترك منذ الغزو الصهيوني للبنان سنة 1982 مما جعلها هدفاً للوبي الصهيوني فيما بعد[86]، ثم جددت محاولتها بعد اندلاع أزمة الخليج سنة 1990[87]، ولكن لم يشخص الطرف الإيراني مصالحه بنفس الاتجاه مع الأسف وفضل التعامل مع العراق بمنطق الثأر حتى لو أدى هذا إلى الاصطفاف مع الشيطان الأكبر ومردته الصغار، وقد أثبتت وثائق المخابرات الأمريكية أن السي آي إيه حاولت العمل مع أول

---

(84) الدكتور خير الدين حسيب، العراق من الاحتلال إلى التحرير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص460.

(85) حمدان حمدان، 2004، ص161-168.

(86) تمام البرازي، كيف دخل عرفات البيت الأبيض، المكتبة الثقافية، بيروت، 1997، ص925.

(87) فؤاد مطر (إشراف)، موسوعة حرب الخليج: اليوميات-الوثائق-الحقائق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ومركز فؤاد مطر للإعلام والتوثيق والاستشارات والدراسات، لندن، 1994، ج 2 (وثائق الأزمة والصراع على الكويت والحرب على العراق) ص94-95 (الوثيقة رقم 49: رسالة من الرئيس صدام إلى الرئيس على هاشمي رافسنجاني).

رئيس حكومة في إيران بعد الثورة، كما حاولت التأثير فيه "وتعبئته ضد صدام حسين" و"إنه تم إجراء محادثة ما حساسة، وحساسة جداً وسرية على مستوى رئيس الوزراء، وبلغنا في الواقع حد الجلوس معهم وإعطائهم معلومات استخباراتية سرية للغاية عن العراق" كما أفاد القائم بأعمال السفارة الأمريكية في طهران بروس لينغن[88]، والغريب أن تتبع القيادة الإسلامية فيما بعد خطى القيادات التي وصفتها بالعلمانية والخيانة وأقصتها من مناصبها بعد كشف صلاتها وتخابرها مع الأمريكان، واستمرت حرب طويلة وطاحنة مع العراق أهدرت فيها الأرواح الغالية والإمكانات الثمينة، ولما خرج الطرفان ضعيفين من المعركة سنحت الفرصة للغربيين للاستفراد بكل واحد منهما على حدة لمنع طموحاته الضارة بالهيمنة الغربية، وقد نجحت هذه السياسة حتى الآن لسوء حظنا.

وقد انتهت سياسة غض النظر الغربي عن النهضة العراقية مع بداية أزمة الخليج سنة 1990 والتي نظر إليها الغربيون من زوايا النفط والكيان الصهيوني وامتلاك أمتنا ناصية قوة غير موجهة من البعد الغربي، أما موضوع الكويت فلسنا بحاجة لكثير من التأمل لنعرف أنه لم يكن على قائمة الاهتمامات الغربية إذا تذكرنا السخرية التي تحفل بها الثقافة الغربية عموماً بشخصية العربي وردائه التقليدي وسلوكه الترفي وغناه المالي واستهتاره الخلقي والتي صنعت إسقاطاً نموذجياً لرؤاها الاستشراقية هذه على الفرد الخليجي، وقد دلت بعض المواقف النادرة في صراحتها على هذه الأمور كتصريح أحد مستشاري بوش : "إن أول غبي يمكن أن يدرك المبدأ، نحن بحاجة إلى النفط، من الجميل أن نتحدث عن الحرية، ولكن الكويت والسعودية ليستا بالتحديد ديمقراطيتين، ولو كان هذان البلدان يصدران البرتقال، لكانت استمتعت واشنطن بالإجازة في شهر آب/ أغسطس/ أوت، ولم يكن هناك أي تردد حول هذا الموضوع"[89].

(88) تيم واينر، ص499.

(89) باسيل يوسف بجك، ص178-179.

أما زاوية النفط فقد سبق مبدأ كارتر سنة 1980 أزمة 1990 بجعل تهديد الخليج ونفطه تهديداً للولايات المتحدة، ومع أن العراق لم يمنع النفط فإن الرؤية الأمريكية تعارض امتلاك جهة واحدة في بلادنا الناصية النفطية وتفضل التعامل مع شراذم متفرقة من الباعة، وقد جاء في تقرير لجنة الطاقة والموارد الطبيعية في مجلس الشيوخ الأمريكي في 7/ 11/ 1979 المقدم إلى الرئيس كارتر: "يجب ألا نسمح بظهور دولة عربية قوية سياسياً واقتصادياً قد تفرض سياسات وطنية على دول الخليج وترفع من أسعار النفط، كما يجب ألا نسمح باستقرار الأحوال السياسية والعلاقات العربية-العربية"(90)، ولهذا صرح الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون قبل اندلاع الحرب سنة 1991 بأيام بحقيقة الموقف لصحيفة الهيرالد تريبيون وفند الأقوال المرائية بشأن الدافع الأمريكي: "إنه من الرياء الإيحاء بأننا نأمل بهذا الأمر إقامة الديمقراطية في الكويت... كذلك كون صدام قائداً مستبداً لايبرر تدخلنا... إن الولايات المتحدة تجيء إلى الخليج لسببين رئيسين: الأول أن لصدام أطماعاً غير محدودة في السيطرة على أهم المناطق الاستراتيجية في العالم، وإذا كان السيناتور بول قد قال بأن النفط هو سبب مجيئنا إلى الخليج وعد وزير الخارجية بيكر أننا في الخليج لأداء واجبنا، وإذا كان قد جرى انتقادهما لتبريرهما تصرفاتنا على أسس أنانية، فإنني أقول إنه ليس علينا أبداً الاعتذار لدفاعنا عن مصالحنا الاقتصادية الحيوية، إننا لا يمكن أن نسمح لصدام حسين بأن يبتزنا ليكرهنا على القبول بغاياته وتركه يمسك بصمام الطريق الحيوية لنفطنا"(91)، وأضاف: "لولا التدخل الأمريكي في الخليج (فإن خارجاً عن القانون) سيضع يده على أربعين في المائة من الموارد النفطية العالمية"(92)، ويتضح من هذا الكلام أن الغرب يعارض أية حالة تمسك فيها جهة محلية واحدة صمام "نفطه"، وهو ما أكده الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب منذ بداية أزمة الخليج:

(90) الحرب على العراق: يوميات-وثائق-تقارير(1990-2005)، ص711.

(91) حمدان حمدان، الخليج بيننا، ص55.

(92) باسيل يوسف بجك، ص179.

"إن فرص عملنا وطريقة حياتنا وحريتنا وحرية البلاد الصديقة في العالم ستتضرر بألم إذا أصبح معظم احتياطي النفط تحت يدي صدام حسين"[93]، ويجب الالتفات هنا إلى أن المعارضة الغربية ليست موجهة ضد شخص معين بقدر ما هي موجهة للحفاظ على "نفطهم" من الوقوع تحت سيطرة جهة واحدة، أيا كانت هذه الجهة ومهما كانت دوافعها: سواء شخصية أم استبدادية أم وحدوية، وهذا ما يعيدنا إلى التعارض الموضوعي بين مصالحنا في التجمع والنهوض ومصالحهم في شرذمتنا ونهبنا متفرقين بغض النظر عن العوامل الشخصية وإرادة التفاهم من جانبنا.

لقد كان وجود نفط الكويت تحت سيطرة العراق إيذاناً بتحول العراق إلى قوة كبرى كما يقول دانييل يرغن، فقضية النفط ليست رغبة الغرب في الحصول عليه بأسعار رخيصة، بل في القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي يحصل عليها من يسيطر عليه[94]، لقد "غزا صدام حسين، حاكم العراق، وأحد ديكتاتوريي القرن العشرين، البلد المجاور، الكويت، لم يكن هدفه مجرد إخضاع دولة إماراتية، بل الاستيلاء على ثرواتها أيضاً، ولو نجح في مسعاه لكانت الجائزة عظيمة جداً: فالعراق سيصبح أكبر دولة مصدرة للطاقة، وسيهمين على العالم العربي وعلى منطقة الخليج، حيث يتركز احتياطي العالم من النفط الخام، وستجبر قوته الجديدة وغناه وسيطرته على النفط بقية العالم على أن يحترم طموحاته، وسيكون بوسعه بمصادر الثراء الكويتية أن يتحول إلى دولة نووية مرعبة، وربما إلى دولة عظمى، وستكون النتيجة نقلة درامية في توازن القوى الدولي، باختصار كانت السيادة ذاتها هي المكافأة"[95]، وهو ما ليس لدى الغربيين أي استعداد لتقبله، ومن هنا نبعت كل محاولاتهم لإجهاض ظهور قوة في بلادنا سواء كانت قوة خارجية منافسة أم محلية ناشئة.

---

(93) نفس المرجع، ص179.

(94) دانييل يرغن، ص939-941.

(95) نفس المرجع، ص6.

كما كانت الدوافع الاقتصادية هي الأهم في موقف بريطانيا التي واصلت موقفها التقليدي-الذي كان يعارض رغبات حتى ألصق "أصدقائها" مثل نوري السعيد- والقاضي بإعداد القوات البريطانية للدفاع عن الكويت "الغني، المستقل، الصديق لبريطانيا" كما جاء في مذكرة حكومية بريطانية سنة 1961 أكدت على منع وقوع الكويت تحت سيطرة أية دولة من دول الشرق النفطية كالعراق أو السعودية أو إيران أو لجوئه إلى أية دولة مجاورة كالسعودية أو مصر للحصول على ضمانات أمنية، وقد كانت المصالح الاقتصادية البريطانية، والأمريكية، تقضي بالعمل "على إضعاف أي قوة أخرى يمكن أن تبسط نفوذها على المنطقة" رغم أن بريطانيا تحولت في فترة إلى تصدير النفط بدل استيراده بعد اكتشافات بحر الشمال، إلا أن الحرص على فوائض النفط حافظ على الاهتمام البريطاني بالخليج، كما يقول الأستاذ رغيد الصلح، كما أن الحالة السياسية القائمة في المنطقة سمحت لبريطانيا أن تتبع سياسة نفطية "متعارضة مع مصالح" دول منظمة الأوبك دون أن تخشى عاقبة ذلك بسبب نفوذها بين الدول العربية المنتجة للنفط، رغم أن هذه السياسة البريطانية "أدت إلى إلحاق خسائر مالية كبرى بالدول العربية المنتجة للنفط طوال عقد الثمانينات"، وقد هدفت بريطانيا من الحرص على عزل الكويت عن أي تأثير مجاور هو ضمان استمرار تدفق النفط الخليجي بشروط ملائمة، أو "بسعر القاذورات" كما وصفته مجلة التايم، وبخاصة مع تزايد اعتمادها عليه بعد زمن من الاكتفاء بنفط بحر الشمال، وتدفق فوائضه أيضاً والتي حرصت على ألا تقع في يد العراقيين "فيتصرفوا بها على نحو ينسجم مع مصلحة العراق دون المصلحة البريطانية" كما يقول الأستاذ الصلح، هذا بالإضافة إلى الحرص على الأسواق العربية التي زادت أهميتها مع زيادة العائدات النفطية وارتفاع عدد السكان، وقد تميز الموقف البريطاني بعد اندلاع الأزمة في الخليج سنة 1990 بالتشنج والمزايدة على التشدد الأمريكي والعمل على وأد الحلول السلمية والحماس الكبير في عملية تدمير المنشآت العراقية بعد اندلاع الحرب والحرص على إثبات الوجود والمشاركة في إخراج القوات العراقية من الكويت لتأمين أكبر

قدر ممكن من عقود إعادة الإعمار[96].

وأما الزاوية الصهيونية في الحرب فقد عبر عنها قائد قوات التحالف الجنرال شوارتزكوف حين قال في حديث مع مراسل إذاعة الجيش الصهيوني في واشنطن: "لقد قدمت إسرائيل لنا مساعدات قيمة وهامة جداً في حربنا ضد صدام حسين، ولا أريد الكشف عن تفاصيل مثيرة ولكنني أقول إن إسرائيل قدمت لنا أكثر بكثير مما طلبنا منها... إن الحرب التي خاضها رجالنا في منطقة الخليج ضد صدام حسين كانت من أجلكم ... من أجل إسرائيل، وقد عمل الرجال على تحطيم عدوكم، العدو الرئيسي لكم في المنطقة"[97]، أما زاوية رفض امتلاكنا ناصية قوة ما فقد استبق الكيان الصهيوني الموقف الغربي عندما دمر المفاعل النووي العراقي سنة 1981 أما بعد ذلك فإنه لا تحرير الكويت ولا حماية جيران العراق كان يتطلب إرجاع العراق إلى عصر ما قبل الصناعة كما هدد جيمس بيكر، وتم تنفيذه في حرب 1991 وما بعدها، ولكن ما يتطلب ذلك هو ما كان تعلنه وتطبقه دول الغرب بكل وضوح ودون مواربة من ضرورة احتفاظ الكيان الصهيوني بالتفوق النوعي على مجموع العرب، مع الحفظ في الذاكرة الدور الأمريكي في صب الزيت على نار الحرب العراقية الإيرانية بأسلحتها التي مُنحت للطرفين[98]، كما صرح الرئيس بوش في يوم 2 نوفمبر 1990 أثناء احتدام الأزمة في الخليج: "إننا نسعى إلى إزالة خطر القوة العراقية من المنطقة أساساً... وإن هذا الهدف لن يتغير حتى إذا قرر صدام أن يسحب قواته من الكويت"[99]. ويجب أن نتذكر هذا دائماً وأن إنقاذ الكويت ليست من أولويات الرئيس كما يصرح بنفسه لأن عينه كانت على صمام "نفط

(96) معلومات الفقرة كلها عن الموقف البريطاني ملخصة ومقتبسة من: رغيد الصلح، 1997.

(97) محمود أمين العالم ومصطفى بهيج نصار، ياسر عرفات: أزمة الخليج، قضية فلسطين، الأمن العربي، دار العالم الثالث، القاهرة، ص108-109.

(98) مايكل أورين، ص544-545 و584. وعن تزويد العراق بالأسلحة:
- الدكتور علي محافظة، ص346.

(99) حمدان حمدان، الخليج بيننا، ص387.

الغرب"، كيف لا وأدبيات الأصولية المسيحية تدخل الكويت ضمن الأرض الموعودة التي تضمها حدود إسرائيل الكبرى وتنادي بذلك أمام الملايين[100] ولا يعترضها أحد هناك، فهل كان الرئيس الأمريكي سيهب لنجدة الكويت لو كان الصهاينة هم الذين احتلوها بأمر التوراة؟؟ أم "سيسارع المعلقون إلى القول بأن صيانة مملكة شرق أوسطية من طراز القرون الوسطى في بلد اقتطعه السادة البريطانيون الاستعماريون من العراق، قضية غريبة جداً لا تستدعي المخاطرة بالأرواح الأمريكية" كما تخيل الاقتصادي الأمريكي لستر ثورو تسلسل الأحداث لو وقعت أزمة الخليج بظروف مغايرة لما حدث فعلاً[101].

تكشفت العوامل السابقة بشكل واضح بعد خروج القوات العراقية من الكويت ومع ذلك استمرت الحرب بقصف الجيش المنسحب واستمرار الحصار والقصف بعد ذلك لمدة ثلاثة عشر عاماً تحسنت أثناءها علاقة العراق بمعظم جيرانه الذين يدعي الأمريكان الحرص عليهم ورفض غالبيتهم المشاركة في غزوه في سنة 2003على الأقل بالكلام مما يؤكد عدم شعبية التعاون مع أمريكا آنذاك، وسقطت معظم الأقنعة ومنها قناع القرارات الدولية التي كانت ضد احتلال الكويت فإذا بها تضفي الشرعية على احتلال العراق ولم يبق في الساحة سوى العوامل الحقيقية في تدمير النهضة العراقية وهي العامل الصهيوني والنفط وعرقلة قوة عربية إسلامية يمكن أن يتفاقم أمرها في مسار مضاد للهيمنة الغربية الساحقة، أي المجالات التي سيتخذ أي نظام محلي مستقل إجراءات فيها ضد المصالح الغربية كما شخصها الغربيون وهذا ما أسميناه التعارض الموضوعي الذي ينشأ بين المصالح الشرقية والغربية ولا يعتمد على النوايا الذاتية.

استمر العامل الصهيوني نشطاً أثناء فترة الحصار، ويجب الإشارة هنا

---

(100) رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم، مكتبة الشروق، القاهرة، 2001، ص121.

(101) لستر ثورو، مستقبل الرأسمالية، دار المدى، دمشق، 1998، ترجمة: عزيز سباهي، ص176.

إلى أن فكرة حصار العراق نشأت قبل أحداث الكويت وحض عليها زعيم الأقلية الجمهورية آنذاك في مجلس النواب الأمريكي نيوت غينغريتش، صاحب المواقف الصهيونية الشهيرة والمستمرة إلى اليوم، في مؤتمر اللوبي الصهيوني، الإيباك، في يونيو/ حزيران/ جوان 1990 وطلب من اللوبي "حث الكونغرس والإدارة الأمريكية على فرض حصار اقتصادي وسياسي شامل ضد العراق " لأن "العدو الأول والأخير لإسرائيل هو العراق" كما جاء في تقرير الصحفي تمام البرازي من الاجتماع[102]، بل إننا نجد أن تقسيم العراق وإضعافه كان بنداً رئيساً على جدول "خطة إسرائيل في الثمانينات" كما نشرت في الكيان الصهيوني سنة 1982 قبل الخلاف على الكويت بزمن طويل[103].

ولما استمر الحصار بعد انتهاء مشكلة الكويت ظل الصهاينة يحاولون جر العراق إلى حظيرتهم، ويكشف الناشط الحقوقي إسرائيل شاحاك في مقال نشر في 21/ 2/ 1994 أنه بعد نهاية الحرب سنة 1991 تألف في الكنيست الصهيوني ائتلاف واسع من الاتجاهات السياسية كافة يقترح الاعتماد على الخيار العراقي وذلك خشية قيام امبراطورية شيعية تمتد من إيران إلى الأراضي المحتلة ونقل عن معلقين محاولة الكيان الصهيوني استغلال نفوذه في واشنطن لإقناع الولايات المتحدة بالموافقة على الخطة[104]، أي محاولة تكرار مناخ الحرب العراقية الإيرانية ثانية، وترافق ذلك مع طرح مشروع توطين لاجئي لبنان الفلسطينيين في العراق منذ سنة 1993 مقابل الحصول على مساعدة اللوبي الصهيوني في رفع الحصار عنه[105]، ورغم ما في هذه العروض من بريق ذهبي لقيادات عربية أخرى،

---

(102) تمام البرازي، ص925.

(103) مجلة الثقافة العالمية ملحق العدد12 سبتمبر1983، الكويت، ص17.

(104) إسرائيل شاحاك، أسرار مكشوفة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998، ص102، مقال بناء الائتلاف المناهض لإيران، 21/ 2/ 1994.

(105) الدكتور عادل سمارة، اللاجئون واستدخال الهزيمة، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2001، ص39و94.

سابقة وحالية، تحس بنشوة مسكرة لو تطلع الأمريكي أو حتى الصهيوني إليها بعين القبول وتستميت لنيل الرضا الغربي وتتحرق للقيام بخدمات للصهاينة فقد جاء رفض القيادة العراقية آنذاك قاطعاً في رسالة نشرها الدكتور خير الدين حسيب، رغم أنه ممن لحقهم الأذى من حكم البعث، في كتابه العراق من الاحتلال إلى التحرير ص462 وتاريخ الرسالة 15/ 5/ 1994 أي بعد طرح مشروع التوطين سنة 1993 وبعد كتابة مقال الدكتور شاحاك عن المحاولات الصهيونية لاستخدام العراق ضد إيران، وقد جاء في رد الرئيس صدام خطياً على كل ما سبق أنه "ضياع في وهم التصور أن هناك إمكانية لتغيير موقفنا من الصهيونية تحت التلويح بإمكانية أن يأتي الفرج عن طريقهم ألا خسئوا وخابوا... ولذلك يعتبر هذا الباب مغلقاً إلا إذا حاول شقيق بطرس (غالي) فتحه فلا مانع من اللقاء به ولكن بشرط عدم طرح موضوع اللوبي الصهيوني معنا أبدا" أي أن القيادة مستعدة لبحث رفع الحصار دون التطرق للوبي الصهيوني الذي كان يعول على الخيار العراقي لصد التوسع الشيعي كما سبق ذكره وكان من الممكن أن يجد استجابة من قيادات عربية كثيرة أخرى كما حدث هذا بالفعل مجاناً فيما بعد، ولو قدرت إيران آنذاك هذا الموقف العراقي لما كنا اليوم قد سقطنا في هوة الفتنة المذهبية التي حفرها الغربيون لنا وتتسابق فيها القيادات العربية على الارتماء في أحضان الصهيونية ضد البعبع الإيراني.

وقد استمر الإصرار الأمريكي الصهيوني على طرح موضوع التوطين والانضمام إلى عملية السلام بصفتهما شرطين من شروط رفع الحصار إلى سنة 1998، ولكن القيادة العراقية استمرت بالرفض مدعومة برفض القيادة الفلسطينية آنذاك[106]، مما جعل بعض الباحثين يربطون بين عدوان ثعلب الصحراء على العراق في ذلك العام وحنق الإدارة الأمريكية على موقفه من

- Laura Drake, The Future of Palestinian Refugees in Lebanon, In: Joseph Ginat and Edward J. Perkins (Ed), The Palestinian Refugees: Old Problems-New Solutions, University of Oklahoma Press, Norman, 2001, p. 206.

(106) Laura Drake, p.206-207.

التوطين[107]، والغريب أن محاولات الضغط الصهيونية استمرت على الرئيس صدام حتى بعد أسره والحكم عليه وعرضت عليه تخفيف حكم الإعدام مقابل التخلي عن الدفاع عن القضية الفلسطينية ولكنه رفض بكل إباء كما يؤكد محاميه بديع عارف[108].

■ **التناقض الموضوعي ينفي أوهام التقاء المصالح:**

ربما اتصفت القيادات العربية الثورية بالفردية كما اتصفت بذلك قيادة الخديو إسماعيل ومن قبله محمد علي باشا، وهي فردية اقتضتها ظروف البناء السريع الذي حاولت هذه الأنظمة إنجازه[109]، ولهذا فإننا يجب أن نفرق جيداً بين مآخذ شعوبنا ومآخذ الغرب على تلك القيادات، فكما نقل الكاتب الصهيوني تسفي بار إيل عن جهات في الاستخبارات الأمريكية والصهيونية في صحيفة دافار 24/ 7/ 1994 إن سعي الولايات المتحدة إلى تغيير النظام في العراق لم يكن بسبب ما نسب إليه من خرق لحقوق الإنسان، بل لأنه يمثل تهديداً لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط[110]، وهذا ما يجب أن نعيه جيداً: الغرب يغضب من إيجابيات حكامنا في حين أن شعوبنا تغضب من السلبيات، وهذا ليس غضباً مشتركاً ولا التقاء مصالح كما يظن البسطاء والعملاء، لأن أي نظام محلي مستقل سيقدم على ما أقدمت عليه تلك القيادات لمصلحة شعوبها وأمتها وضد مصالح الغربيين، الذين يطمعون في الهيمنة ومصادرة الموارد لصالحهم، وهو ما لن تقبل به شعوبنا وأي نظام ينبثق من اختياراتها الحرة ويكون أكثر التصاقاً بالجماهير ممن سبقه، ولهذا فإن أي تعاون بتوهم التقاء المصالح محكوم عليه بالفشل كما فشل فيما سبق كل من حاول التعامل مع الغرب

---

(107) الدكتور عادل سمارة، ص39.

(108) صحيفة القدس العربي23/ 4/ 2010.

(109) منير شفيق، 1992، ص46.

- الدكتور عبد الوهاب المسيري، حوارات (2)، ص208.

(110) إسرائيل شاحاك، ص115.

بتكافؤ بدءاً من محمد علي وأحمد عرابي وإلى اليوم، وسينتهي طريق التعاون إلى مفترق بين اثنتين، بين الذلة والسلة، ومن يرفع شعار هيهات منا الذلة ستكون أمامه المقصلة الغربية، ومن يرضى بالذلة فلن يضيف إلى تاريخ أمتنا إلا رقماً جديداً في لائحة ملوك الطوائف وإن تمتع أياماً معدودة على عرش مزيف.

لقد دمر الغرب محاولاتنا النهضوية لابسبب فردية حكامنا، فقد كانت الحجج الاستشراقية تدور مع المصالح حيث دارت: فإذا كان الزعيم هو الذي يضر بمصالح الغرب، فالغرب حينئذ ضد الدكتاتورية والفردية والاستبداد ومع الديمقراطية، فيصبح الرئيس جمال عبد الناصر من هذا المنظور هتلر النيل والرئيس صدام حسين هتلر الفرات بل أسوأ من هتلر... إلخ، وليس للغرب عداء مع الشعوب، ولكن في الحقيقة يداس الشعب كما يقاتَل رئيسه ويصبح قتل مئات الآلاف مبرراً للتخلص من الرئيس كما جاء على لسان وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت، وكأن هذه الآلاف ليست من الشعب الذي يدّعون حمايته والحرص عليه، وإذا كان الشعب هو الذي يقف في وجه هذه المصالح، فإنه يصبح شعباً شرقياً متخلفاً غير خليق بمُثل الغرب وديمقراطيته كالشعب الفلسطيني الذي رصد للإبادة والتهجير، في نفس الوقت الذي يدعي الغربيون والصهاينة حرصهم عليه وعدم معاداته، ولكن الوقائع تكشف حقيقة الموقف، بل ربما وقف الغرب إلى جانب المستبد الدكتاتور في وجه الشعب المطالب بالحرية المناقضة للمصالح الغربية كما حدث مع الخديو توفيق والشعب المصري وتجارب أخرى إلى هذا اليوم حين دعم الغرب استبداد مبارك لعشرات السنين انتهت ببكاء ديمقراطيي الصهيونية عليه بحرقة شديدة لما خلع، وقد دافع كيسنجر في مقاله آنف الذكر عن هذه الممارسة الغربية والأمريكية في "التعاون مع أنظمة غير ديمقراطية في المنطقة من أجل أهداف أمنية" وذلك لأنها أحدثت "تحولات استراتيجية حاسمة"، للغرب طبعاً وليس لنا، كتخلي مصر عن تحالفها مع الاتحاد السوفييتي ثم توقيع اتفاقيات كامب ديفيد، وتذوب حينئذ كل دعاوى الحرية ودروس الديمقراطية، ولا يخلو الجراب الاستشراقي من

حجج تبرر المصالح حتى لو كان اللجوء إلى الكذب الصريح كما فعلت أمريكا قبل احتلال العراق عندما ألقت الإدارة الأمريكية ما يقارب 935 بياناً كاذباً وفقاً لدراسة لمركز السلامة العامة في واشنطن[111]، وقد صنف ثلاثة من المؤلفين الأمريكيين هذه الأكاذيب تحت خمسة عناوين وألفوا فيها كتاباً مستقلاً هو كذبات بوش الخمس الكبيرة التي أخبرنا بها عن العراق[112]، وهذا استمرار للأكاذيب التي أطلقها الأمريكيون منذ أزمة 1990 وأُنفق عليها الملايين فكان لها أثر حاسم في مجرى الأحداث، ورغم أنها فُضحت رسمياً فإن هذا حدث بعد فوات الأوان كالعادة ودون أي اعتذار أو تراجع عما جنته هذه الأكاذيب علينا، ككذبة الصور المزورة عن وجود الحشود العراقية على الحدود السعودية التي جُلبت القوات الأجنبية إلى المنطقة بموجبها، وكذبة حاضنات الأطفال التي هيأت الكونجرس والرأي العام الأمريكي لفكرة شن الحرب على العراق، وكذبة التلوث في الخليج التي شيطنت القيادة العراقية أمام الرأي العام إلا من اكتشف أنها صورت طيوراً لا تعيش في منطقتنا أصلاً، وهكذا بنى الغرب مشروعه التدميري في بلادنا على الكذب علينا مما يؤكد تناقض الرؤى والمصالح بين الطرفين.

وليس هناك ما يدل على أن الساسة الغربيين يقيمون وزناً لشعوب المنطقة أكبر من الوزن الذي أقاموه للشعب الفلسطيني لما اقتضت المصالح الغربية إبادته وتهجيره وسلبه لزرع الصهاينة مكانه، وإذا كان شعب فلسطين هو الأكثر تضرراً، فهذا لا يعني عدم سريان المصالح الغربية بأشكال مختلفة على بقية الشعوب كما دلت على ذلك الأشكال المختلفة من الاحتلال والانتداب والتجزئة والحصار والحروب ونهب الثروات والديون ودعم المستبدين وتدمير الإنجازات وعرقلة النهوض، والاستتباع وتقييد الاستقلال وغير ذلك، كما لا يوجد ما يدل على اختلاف النظرة الغربية عن النظرة

---

(111) صحيفة القدس العربي25/ 1/ 2005.

(112) كريستوفر شير وروبرت شير ولاكشمي شاوذري، كذبات بوش الخمس الكبيرة التي أخبرنا بها عن العراق، دار الكتاب العربي ونينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2004، ترجمة: محمود علي عيسى.

الصهيونية التي ترى مصلحتها في تفتيت بلادنا وإضعافها[113]، يثبت ذلك الموقف الغربي من تقسيم السودان بالإضافة إلى إحياء النعرات التي قد تتبعه بتقسيمات جديدة فيه وفي بلاد أخرى، أو كما علق بن غوريون يوما على بيان لأحد الفلسطينيين في سنة 1949 يطالب بوحدة الأمة وتعزيز الصناعة والتعليم وتوحيد الجيوش وفتح مصانع الأسلحة وتنظيم الدعاية، فقال في يوميات الحرب: "هذا هو الطريق الذي ينشده العرب، وأنا أتخوف من أن يقوم زعيم عربي بقيادة العرب على هذا الطريق"[114]، ويلاحظ أن الزعيم الصهيوني يعترف في هذه الملاحظة بالتناقض الموضوعي لا مع قائد بعينه لدكتاتوريته أو استبداده أو دمويته كما حاول إسحق شامير أن يخدع الوفود العربية في مؤتمر مدريد، بل بتناقض مشروعه مع الطريق الذي "ينشده العرب"، ولتذهب الديمقراطية إلى الجحيم إذن مادامت ضد مصلحة قومه، ولهذا كان من المضحك لمن يعرف طبيعة الكيان الصهيوني أن يسمع شامير وهو يلقي على الوفود العربية موعظة بضرورة الكف عن تعذيب المخالفين في الرأي ووجوب بناء مساكن لائقة للاجئين (!)[115]، ولا بد أن من سمع هذا الكلام أمس ومن يسترجعه اليوم بعد ذلك السجل المظلم من تعذيب الفلسطينيين وقصف بيوتهم وقتلهم وتشريدهم وسلب ممتلكاتهم، أن يستلقي على ظهره من الضحك من نفاق الصهيونية وأربابها الذين لم يدخروا وسعاً منذ تأسيس كيانهم إلى اليوم في تعذيب الفلسطيني ليس لاختلافهم معه في الرأي بل لمجرد وجوده على ظهر البسيطة حيث يطمعون في الاستيطان على حسابه، وهذا يؤكد كذب الشعارات التي يطرحها الغربيون وأنها ليست سوى وسائل لتحقيق المصالح الدنيئة المناقضة موضوعياً لمصالح أبناء المنطقة.

كما لا يوجد دليل على مناهضة غربية جدية لمشاريع التفتيت الصهيونية

---

(113) أ.د. أحمد سعيد نوفل، دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2010.

(114) وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب 1948، دار النهار، بيروت، 1998، ص152.

(115) سعيد الحسن، حول اتفاق "غزة-أريحا أولاً" (وثائق ودراسات)، دار الشروق، عمّان، 1995، ص93.

التي تمارس ضدنا بدعم أية حركة انفصال وهي سياسة تعود بجذورها إلى تفتيت اتفاقيات التجزئة، إن لم يكن هناك دعم غربي ظاهر لهذه الخطط كما حدث في السودان ويحضر لبلاد أخرى، ولا ننسى أن الكيان الصهيوني هو ممثل الحضارة الغربية في بلادنا وسلوكه هو سلوك غربي وسياسته مكوّن رئيس من مكونات السياسات الغربية تجاهنا بل هي مؤشر للإرادة الغربية التي لا يحيا الكيان الصهيوني بلا دعمها، وللغرب السبق في فصل أجزاء أمتنا عن بعضها مما لا نزال نعيشه إلى اليوم، والخلاصة أن هناك تعارضاً موضوعياً بين مصالح أمتنا ومصالح الغرب كما يراها ولن يتغير الموقف ما لم يغير القوي الغربي صاحب الإرادة والمبادرة رؤيته للآخر وتشخيصه مصالحه أو يتغير ميزان القوى فيصبح الضعيف اليوم قوياً غداً والقوي ضعيفاً، ولن يتحول الشيطان إلى ملاك بين عشية وضحاها ولا بين دهر وآخر.

وإذا كانت الولايات المتحدة تدرك هذا التناقض الموضوعي، فما هي حقيقة شعار نشر الديمقراطية في المشرق وما هو الهدف منه؟

■ **الديمقراطية المشروطة وإلا فالمنبوذة**

يقول عميل المخابرات الأمريكية مايلز كوبلاند الذي كان له دور كبير في صناعة السياسة في بلادنا إنه في منتصف خمسينيات القرن العشرين لم يكن نشر الديمقراطية في العالم غير الغربي مقبولاً لدى السياسة الأمريكية لأن المفاهيم الديمقراطية لم تكن جزءاً من الثقافات المحلية، أما الحالات القليلة التي كانت فيها الانتخابات الحرة نموذجاً مقبولاً في بعض تلك المجتمعات المحلية، فإن الديمقراطية كانت "خطراً مباشراً على مصالحنا لأن الشعوب التي تكره الأمريكيين ستصوت باستمرار لصالح المرشحين الذين يعدونها بتدميرنا في كل دورة، في مثل هذه المناطق، ليس من مصلحتنا تشجيع الدعوات إلى حرية التعبير كتلك التي نسير عليها داخل بلادنا" و "كنا نراقب ونستمع لضجيج زملائنا من وزارة الخارجية حول كيف يمكن أن يؤدي إنشاء حكومات منتخبة ديمقراطية في البلدان العربية إلى

اتخاذها مواقف أكثر اعتدالاً إزاء دولة إسرائيل الجديدة"[116]، أي أن شعار الديمقراطية خاضع لتأثير المصالح الأمريكية كما أكد كيسنجر، ويبدو أن هذا الهاجس ظل يلاحق الأمريكيين إلى الوقت الحاضر، فقد كتب نائب مدير مكتب الاستخبارات والبحوث في وزارة الخارجية الأمريكية واين وايت في مارس 2003، أي عشية العدوان على العراق تقريراً سرياً ملخصه أن التغيير في العراق لن يحدث الأثر المطلوب في الشرق العربي، لأنه من الصعب تحقيق الديمقراطية الليبرالية في بغداد، كما أنها يمكن أن تكون عرضة لاستغلال العناصر المعادية لأمريكا، وقال وايت بعد ثلاث سنوات إن استنتاجاته كانت عادية إلى حد كبير لأن الدبلوماسيين الأمريكيين كانوا دائماً على علم بأن "شعوب المنطقة كانت، ومازالت، في غالبيتها معادية لأمريكا وإسرائيل، وذات توجهات إسلامية متشددة أكثر من حكوماتها" مما يعني أن ما حدث من انقلاب في أوضاع العراق سيفشل في إطلاق إعصار ديمقراطي في المنطقة[117]، فإلي أي حد نجحت أو ستنجح الولايات المتحدة في تحقيق الهدف وتجاوز العقبات؟

وعلى كل حال فإن أمريكا تقنع نفسها بأنها تريد أن تصنع توماس جيفرسون مسلم ولكنها تجد في مقابلها زعماء معادين كصدام حسين ومعمر القذافي وآية الله الخميني[118]، ولكن هذا التبرير للسياسة الأمريكية ليس صحيحاً من جذوره لأن هناك زعماء آخرين دعمتهم الولايات المتحدة وظلوا على إخلاصهم لها حتى لحظاتهم الأخيرة ومع ذلك لم تتوفر فيهم صفات جيفرسون ولم يصنعوا لبلادهم ما صنعه جيفرسون للولايات المتحدة، فمن يجرؤ على القول إن أنور السادات أو حسني مبارك اللذين حصلا على الدعم الأمريكي الضخم[119] صنعا لمصر ما صنعه جيفرسون لأمريكا من

---

(116) مايلز كوبلاند، ص187 و255.

(117) دوجلاس ليتل، ص527-528.

(118) نفس المرجع، ص331.

(119) نفس المرجع، ص229-230.

- سعد محيو، ص214.

ثورة واستقلال وتوسع وبناء امبراطورية ؟ ومن يقول إن شاه إيران كان كتوماس جيفرسون لبلاده؟ أليس هو السبب في ظهور شخصية الإمام الخميني الذي يتساءل الأمريكيون ببلاهة لماذا وجدوه وهم يبحثون عن جيفرسون؟ ومن يقارن بين حميد كرزاي في أفغانستان وعملاء الاحتلال في العراق من جهة وتوماس جيفرسون من جهة ثانية؟ فمن الذي يشبه الإمبراطور بالحاشية؟ ثم أليس حلفاء الغرب من الزعماء العرب هم سبب الانفجار في العالم العربي؟

ولهذا فإن أية تجربة جديدة تنطلق من حسن النوايا بالغرب والولايات المتحدة خاصة، سيكون مصيرها الفشل وذلك لأنها ستجرب المجرب ولن تعتبر بالماضي المرير، فلن تقبل أمريكا يوما بالعلاقات المتكافئة، ولن ترضى بالتبادل على قدم المساواة، ولن تقبل أن تتركنا وشأننا، ولن تتردد في استعمال القوة باختلاف أنواعها حسب الحالة ضد من لا ينصاع لإرادتها، ولكنها تقبل أن تستغل من يثق فيها ويصدق شعاراتها لتصل إلى تحقيق أهدافها، فهي لا تعرف الصداقة مع من هو أضعف منها، فإما أن يكون عميلاً لها أو يكون عدواً ضدها، وفي النهاية فإن توماس جيفرسون حارب الإمبراطورية البريطانية التي هيمنت على أمريكا وحقق الاستقلال عنها، فهل يقبل الأمريكيون الباحثون عن جيفرسون مسلم بهذه المواصفات فيه: أي أن يحارب المستعمِر ويحقق الاستقلال عنه ويبني امبراطورية كبرى لأمته؟ وعلينا ألا نقع في الفخ من جديد بعد الأهوال التي مرت بنا والخسائر التي دفعنا ثمنها، لأن المشكلة ليست مشكلة أشخاص جانحين في الولايات المتحدة، بل هي مشكلة "نظام لا يملك إلا أن يسير في هذا الطريق، لأنه هكذا بدأ، وهكذا نما وتوسع، وهكذا يتحتم عليه أن يسير"[120] كما يقول الدكتور فؤاد زكريا.

(120) الدكتور فؤاد زكريا، 1991، ص87.

■ مؤامرة؟

يجدر بنا تسجيل ملاحظة مهمة كي لا يغضب منا أعداء نظرية المؤامرة، فتكرر ظاهرة تدمير المحاولات النهضوية لا تستلزم وجود مؤامرة أزلية غربية ضدنا، ونلجأ في هذا المجال إلى تفريق المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري بين المؤامرة والمخطط، فالمؤامرة كما يشرحها هي خطة سرية يضعها في الظلام أفراد دوافعهم شريرة ويحاولون الحفاظ عليها طي الكتمان، أما المخطط فهو خطة تعبر عن مصالح دولة أو دول وتتبدى من تكرر ظاهرة لها مسار يعبر عن منطق داخلي يمكن فهمه والتصدي له[121]، ورغم حضور المؤامرات السرية في تاريخ تعاملنا مع الغرب في أكثر من حادثة، كاتفاقية سايكس- بيكو السرية سنة 1916 والاتفاق بين أطراف العدوان الثلاثي سنة 1956، فإن المخطط هو الحاضر الدائم الذي يكرر التاريخ في مسار واحد في كل مواجهة لأنه يعبر عن منطق المصالح الغربية كما تصورها أصحابها، ولهذا فإن إنكار وجود المؤامرة لا يستدعي إنكار وجود المخطط كما يقول المسيري رحمه الله، فمحاولة أي نظام حاكم في موسكو سواء كان قيصرياً أم شيوعياً الوصول إلى المياه الدافئة لا يعني وجود مؤامرة أزلية بهذا الخصوص بل وجود مصالح مستمرة بالوصول إلى تلك المياه نتيجة الحتمية الجغرافية التي أحاطت روسيا بمياه متجمدة معظم أيام السنة مما يدفع أي نظام مستقل ومسئول للتعبير عن هذه المصالح باستمرار المحاولات للوصول إلى البحار الدافئة، ونفس الكلام ينطبق على الغرب معنا، فإدانة الغرب في موضوع أزمة 1990 مثلاً لا تستلزم أن يكون مجموعة من الأشرار الغربيين قد اجتمعت في غرفة مظلمة لتوريط العراق مع الكويت ثم الهجوم عليه وتدميره، ولسنا أيضاً في حاجة للدخول في متاهة تصريحات السفيرة الأمريكية في بغداد، التي اكتشفت بعد ثمانية عشر عاماً

---

(121) د.عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، القاهرة، 2003، ص203-204.

من الأزمة أنها يجب أن تغير أقوالها الموثقة فتنفي اليوم[122]، بعد صمت طويل، ما تواتر عنها في الأمس*، أي استدراج العراق لدخول الكويت، إذ

(122) مقابلة مع صحيفة الحياة اللندنية نشرت على يومين 15و16/ 3/ 2008.

(*) الدكتور سامي عصاصة، هل انتهت حرب الخليج، مكتبة بيسان، بيروت1994، ص89، نقلا عن كتاب الملف السري لحرب الخليج لبيير سالنجر الذي كان متحدثاً باسم البيت الأبيض ورئيساً لشبكة تلفزيون ABC ومصدر محضر الاجتماع بين الرئيس صدام والسفيرة الأمريكية والذي سلمه إلى صحيفة الواشنطن بوست ونشرته في 24/ 9/ 1990 ص19 وينقل الدكتور عصاصة عن السيد سعد البزاز الذي شغل منصب المدير العام للإذاعة والتلفزيون في العراق ومؤلف كتاب "حرب تلد أخرى"، أن بلاده هي التي سربت محضر الاجتماع بواسطة الدكتور سعدون حمادي إلى سالنجر شخصياً، ولكن الغريب في الأمر أن تصمت السفيرة ثمانية عشر عاماً قبل أن تفكر بدحض الرواية بعد وفاة محدثها وأسر ومرض الرجل الذي اتهمته بتزوير الحديث وهو الوزير طارق عزيز الذي لم يعد يملك آلة إعلامية ضخمة ترد على الادعاءات الطنانة للسفيرة التي استيقظت متأخراً رغم الأهوال التي نتجت عن الأزمة وارتبطت بالمحضر المسرب مما يلقي بظلال من الشك على نفيها المشبوه، في تأجيله على الأقل، هذا إذا غضضنا النظر عن المصالح المرتبطة به والتي تحتم ظهوره الآن لتبييض الصفحات المظلمة، ويمكننا أن نضيف أيضا استحالة أن يسرب العراق أثناء الأزمة محضراً مزوراً وذلك لسهولة افتضاح الكذبة بقيام المتهمة بتكذيب ما جاء فيه، أما وإن هذا التكذيب لم يصدر إلا بعد وفاة الطرف الآخر في الحديث وهو الرئيس صدام -الذي أصر حتى لحظاته الأخيرة على "أن أمريكا كانت تبعث لنا برسائل شفوية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الوسطاء الذين حاولوا حل الأزمة بين العراق وأمريكا قبل دخولنا الكويت، تؤكد بأنها لن تتدخل في قضايانا العربية، لكنها نكثت بوعودها وغدرت بنا" كما جاء في رواية المحامي خليل الدليمي، صدام حسين من الزنزانة الأمريكية: هذا ما حدث، دار الواضح، دبي، 2010، ص125-فمن حقنا حينئذ أن نشك برواية السفيرة المتأخرة وبخاصة أن المنطق يحتم صدق رواية الرئيس لأنه من غير المعقول أن تكون الولايات المتحدة قد اتخذت موقفاً واضحاً، كما ادعت السفيرة بعد موت محدثها، ثم يقدم العراق على موقف انتحاري بمواجهتها مواجهة تؤدي إلى هزيمة حتمية مع ما عرف عن القيادة العراقية من اهتمامها الشديد بتحقيق الانتصارات، فلا بد أن تكون هذه القيادة قد تحسبت من الموقف الأمريكي مسبقاً في قضية الكويت الحساسة جداً عند الأمريكان-بسبب النفط كما هو معلوم للجميع فضلاً عن كبار الساسة لا سيما في العراق (رغيد الصلح، ص333)- وجاءتها طمأنة ما، بل تطمينات عديدة إن لم تكن عمليات تحريض، ليمضي العراق قدماً إلى الكويت غير ملتفت وراءه، هذا هو التسلسل الطبيعي والمنطقي للأحداث وليس ادعاءات السفيرة الاستعراضية: "لا تحتل الكويت"!!، والتي ظهرت بعد فوات الأوان بصورة تناقض ما قالته السفيرة نفسها في الولايات المتحدة لما أنكرت-لبرهة وفي رد فعل غريزي-محضر الاجتماع العراقي وسألها عضو الكونجرس الديمقراطي من =

يكفينا الطريقة التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع حدث الخلاف بين الطرفين لفضح نواياها المدمرة، وكيف سدت، أمام عيون العالم كله، كل منافذ الحلول العقلانية -بما فيها الاقتراحات التي نبعت من دول مؤيدة للكويت مثل السعودية كمبادرة الأمير سلطان-بغطرسة لا يفتقدها أي باحث في يوميات الأزمة وذلك بسبب واضح هو أنها لم تكن تبحث عن إقرار السلام بل عن المصالح التي شخصتها بالسيطرة على النفط وتدمير قوة عربية إسلامية والحفاظ على الكيان الصهيوني، كما جاء في اعتراف كيسنجر، ولهذا قامت أيضاً بقصف الجيش المنسحب وفرض حصار قاتل ثم احتلال العراق نفسه مما لا علاقة له بسيادة الكويت وتحريرها بل يناقض المنطلق الذي جيّش العالم سنة 1990 ضد احتلالها ثم ما لبث "المحرر" أن قام بعملية احتلال بنفسه سنة 2003، إن الخلافات تحدث يومياً بين الدول المختلفة في العالم، ولكن الطريقة التي يعالج بها أي خلاف هي التي تثده

= إنديانا لي هاملتون "ما إذا كانت قد قالت لصدام : إذا اجتزتم الحدود ودخلتم الكويت فسوف نحارب؟" فأجابت: "لا..لم أقل ذلك"، (دوجلاس ليتل، ص423)، ولعل هذا هو سر عدم اهتمام الولايات المتحدة أثناء احتدام الأزمة بتكذيب الرواية العراقية، وهو أمر يجب أن يعيد التفكير فيه كل من ظن وقوف أمريكا إلى جانبه وتدخلها لنصرته في الوقت الذي كانت تتاجر به فيه، وتتخذ من جماجم العرب جميعاً، حلفاء وأعداء، سلماً لمصالحها المادية، ومن الجدير بالذكر أن اعتراف العراق بوقوعه بالفخ الأمريكي لم يكن من صالحه طبعا-وهو ما يضفي على المحضر مزيدا من الصدق والثبوت-ولكنه حاول درء العدوان عليه سنة 1990 باتباع أخف الضررين، ولو كان فيه أي شك لقرعت الإدارة الأمريكية وقتها كل نواقيس الإعلام لكشف "أكاذيب صدام"، ومما يؤكد حرج العراق مما جرى في الاجتماع أنه بعد وقوع الكارثة سنة 1991عاد الوزير طارق عزيز، شفاه الله وفك أسره، محاولا التخفيف من وطأة هذا الاعتراف قبل غزو 2003 بالقول إن لقاء الرئيس بالسفيرة كان لقاء دبلوماسياً لم تبحث فيه قضايا حاسمة، مستدلاً على ذلك بحدوثه أثناء الإجازة الأسبوعية في الدوائر الأمريكية مما يعني عدم وجود اتصال بين السفيرة وواشنطن لتلقي تعليمات معينة، وهو ما يدل على أن الاعتراف بالفخ لم يكن مصلحة عراقية وأن العراق عندما أقدم عليه كان يحاول فقط درء مصيبة أكبر، وأن مصلحته في الإخفاء وليس في اختلاق أحداث تحرجه قبل أن تدين عدوه، ولما لم يعد هناك أهمية للإخفاء فضح الرئيس صدام أمريكا في حديثه الأخير لعل هناك من يفيق ويعتبر، وتسلسل الأحداث وصمت المتهمة الذي تبعه صمت أمريكي زمناً طويلاً-بل اعترافها بالحقيقة منذ البداية ولو بشكل خجول-يثبت المحضر كما مر.

أو تنميه حسب مصالح الأطراف المعنية، ووأد الخلاف العراقي الكويتي، وإن كان في صالحنا، فإنه لم يكن في صالح الغرب وبخاصة الولايات المتحدة كما دلت على ذلك سياستها التصعيدية منذ 2 أغسطس/ آب/أوت على الأقل، هذا إذا أهملنا المقدمات الاستفزازية الواضحة قبل ذلك كما مر في أقوال سيء الذكر غينغريتش.

هذا المخطط الأمريكي الذي كفانا كيسنجر عبء إثباته، ليس من الضروري أن ينطبق على جميع دول العالم، فما هو متبع مع اليابان قد يختلف عما هو متبع مع الهند أو الصين وعما هو متبع مع البرازيل وغيرها من القوى الصاعدة كل حسب ظروفه الاستراتيجية ووزنه في ميزان المصالح الأمريكية، مع التسليم بأن السياسة الأمريكية تسعى للبقاء في موقع القطب الأوحد دون منافسة حتى من شركائها الأوروبيين والحؤول دون ظهور أية أقطاب جديدة بعد زوال الخطر السوفييتي[123].

■ **الخلاف بين الغربيين داخلي وأخوي ولا ينال عناصر الإجماع وبخاصة في أزمان الأزمات:**

ليس الغرب كتلة واحدة بالطبع، وهناك تعدد في الآراء داخل معسكره، ولكن هذا يجب ألا يضيعنا في دوامة اختلاف الآراء طمعاً في مكسب لديهم، فما يجب أن نعيه، أن الخلاف بين الغربيين داخل الدولة الواحدة لا يؤثر على التزامهم جميعا المصلحة العليا للبلاد، ففي الحرب الكبرى الأولى (1914-1918) اختلفت دوائر الحكومة البريطانية على السياسة واجبة الاتباع تجاه العرب، فالبعض يفضل التعامل معهم والبعض يراهم غير أهل للثقة، وهو ما تجسد في الخلاف بين وزارة الهند ووزارة الخارجية[124]، ولكن كما هو واضح ليس الخلاف على تجسيد المصالح البريطانية بالهيمنة العالمية بل على طريقة الوصول إلى هذه الهيمنة، وهذا

---

(123) منير شفيق، 1992، ص8.

(124) Phillip Knightley and Colin Simpson, p. 65.

الكلام يقال عن الخلاف على سياسة أوباما التي يمثل كيسنجر الرأي المناقض لها، فهل الخلاف بين الرأيين على فكرة الهيمنة من أساسها أم على الوسائل لتحقيق التفوق الأمريكي المطلق الذي لا يمكن أن يتحقق إلا على حساب الآخرين؟ ويمكننا أن نضع في هذه الخانة أيضاً معارضة بريجينسكي مستشار كارتر للأمن القومي لاحتلال العراق لأن هذا الاحتلال أثبت ضرره على الزعامة الأمريكية، وهي ليست موضع خلاف عنده، أما الأصوات المثالية والإنسانية فلا قيمة لها في السياسة وليس أمام أصحابها سوى الاستقالة تاركين عجلة القتل تدور بلا منغصات كما فعل وزير الدفاع الفرنسي زمن عدوان 1991 أو وزير الخارجية البريطاني زمن عدوان 2003 وكما استقال قبل ذلك وزير الخارجية البريطاني زمن العدوان الثلاثي وقبله الوزير جون برايت من وزارة غلادستون عندما ضربت الاسكندرية في بداية احتلال مصر سنة 1882، وقد نسمع نغمات المعارضة المثالية من سياسيين خارج المنصب ولكنهم ما أن يباشروا مهامهم الرسمية حتى تتغير وجوههم وتزول أقنعتهم، مثلما فعل اللورد كرومر الذي كان في بداية حياته السياسية مناصراً للديمقراطية في المستعمرات فلما تسلّم حكم مصر صار مستبداً أوحد، [125]، ولعل الرئيس أوباما أقرب مثال على ذلك عندما صور نفسه أمام العالم في بداية أمره بصورة المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملأها أسلافه ظلما وجوراً، وخدع العالم بمكر إلى درجة أن حصل على جائزة نوبل لأول مرة في تاريخها على مجرد أقوال ووعود وليس أفعالاً وإنجازات، ولكنه ما لبث أن سار على سيرة أسلافه ناكثاً وعوده زائداً في ظلمه، ومثله رئيس الوزارة البريطانية زمن الاحتلال البريطاني سنة 1882 وليم غلادستون الذي كان يعارض التدخل المسلح في مصر و"الخصم الرئيس في الماضي" لاحتلالها [126]، ولكنه تنازل عن رأيه أمام ضغط الوزارة إبقاء على منصبه[127]، وهناك أصوات يصحو ضميرها بعد ترك

---

(125) روجر أوين، 2005 ص17.

(126) ز.ي. هرشلاغ، ص151.

(127) ألفريد سكاون بلنت، ص194.

المناصب وزوال المسئولية، ولا ندري أين كانت عندما كان الحل والعقد بيدها ولماذا لم تنفذ شيئاً مما أصبحت تبشر به فيما بعد، فهل كانت اتفاقيات كامب ديفيد التي عقدت تحت رعاية الرئيس كارتر تمهد فعلاً لمشروع السلام في فلسطين وإزالة التفرقة العنصرية الذي ينادي به اليوم؟ وهل يكفي اعترافه بعد خروجه من الحكم بعدم تنفيذ الصهاينة وعودهم بشأن فلسطين في الاتفاقية لتبرئة ساحته من جريمة تمكينهم من ذلك وهو في سدة السلطة؟ وهل لو عاد إلى السلطة سيحتفظ بآرائه الأخيرة أم ستعود حليمة إلى عادتها القديمة؟

كما ثبت لدينا في الصراع مع الكيان الصهيوني عقم المراهنة على الخلافات الداخلية بينهم لأنها لا تمس ما يطلق عليه المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري الإجماع الصهيوني على عدة عناصر كوحدة "الشعب اليهودي" وحقه في "أرض إسرائيل" والهجرة إليها وعرضية الوجود الفلسطيني فيها ووجوب اتباع سياسة الأمر الواقع مع العرب ومكانة القدس الموحدة بصفتها عاصمة أبدية وأهمية الدعم الغربي وغير ذلك من العناصر التي قد يختلفون في وسائل تحقيقها ولكنهم لا يختلفون فيها، كما قد تهتز هذه العناصر في مواجهة المقاومة ولكنها تظل رؤية الغالبية العظمى من سكان الكيان[128].

أما فيما بين الدول الغربية فلم يصل الخلاف يوما إلى حد التصادم فيما بينها لأجلنا ولإنقاذ مشروع من مشاريعنا، فماذا فعلت فرنسا لأجل مشروع محمد علي باشا الذي ساندته في البداية بقوة ثم تغير موقفها في مواجهة الإجماع الأوروبي ضده؟ نعم اصطدم الغربيون فيما بينهم، ولكن على اقتسام الغنائم المادية وليس على حماية المبادئ الإنسانية، وهذا ما حصل في الحربين الكبريين(العالميتين)وفي العدوان الثلاثي سنة 1956، وهي على كل حال مراحل انتهت بمعرفة كل دولة غربية حدودها وإمكاناتها

---

(128) عبد الوهاب المسيري، 1999، المجلد 7 الجزء الأول ص19-20.

في مواجهة القطب الأوحد، وهذا ما حدث فيما بعد: فماذا فعلت المعارضة الأوروبية لاحتلال العراق؟ وماذا فعلت المعارضة الفرنسية لفرض مناطق حظر الطيران فوق العراق قبل احتلاله؟ وماذا فعلت الولايات المتحدة لثني الصهاينة عن ضرب مصر سنة 1967؟ وذلك رغم تعهداتها السابقة بعدم القبول بتغيير حدود الدول في "الشرق الأوسط"؟ ورغم تظاهرها بمعارضة الحرب وتوسطها لنزع فتيل الأزمة فإن الرئيس جونسون نظر إلى الكيان الصهيوني كما ينظر أب فاسد بعجز وقبول ضمني إلى ابنه المدلل وهو يسيء الأدب في حق الآخرين: "لقد فشلت، سيفعلونها، سيبدءون الهجوم ولا يمكننا القيام بشيء إزاء ذلك"[129]، وحتى عندما ضربت السفينة الأمريكية ليبرتي "تدافعت المقاتلات الأميركية من حاملات الطائرات في الأسطول السادس، ثم أمرت بالانسحاب عندما تحقق للأميركان أن الزوارق والطائرات المهاجمة كانت إسرائيلية"[130]، وماذا فعلت لنا بريطانيا عندما اصطدمت سياسة الوطن القومي بأطماع الصهاينة المدعومة أمريكياً بالتفرد في فلسطين؟ وهل أزعجت نفسها بالوقوف إلى جانبنا في الوقت الذي كان فيه الصهاينة يقتلون جنودها ويعلقونهم على الأشجار؟ ألم تقلّ فترة "حردها" عن سنة واحدة امتنعت أثناءها عن الاعتراف بالكيان الصهيوني الوليد ثم ما لبثت أن سلمت بالأمر الواقع[131] وانسجمت معه إلى حد التحالف؟ وماذا فعلت المعارضة الأمريكية لانتشار أسلحة الدمار الشامل في "الشرق الأوسط" وهي ترى النشاط الصهيوني في هذا المجال منذ ستينيات القرن العشرين، ماذا فعل الأمريكيون إزاء ذلك غير محاولات مستمرة لإرضاء وطمأنة الصهاينة بسيل دافق من الأسلحة التقليدية ليقتلوننا بها؟ نعم هكذا يحلّون خلافاتهم على حسابنا: فإذا أراد الأمريكيون دفع الصهاينة للمفاوضات فإنهم لا يملون عليهم ما يجب فعله بل يسلكون معهم سبيل الإرضاء بتزويدهم بالأسلحة حتى يصبح كيانهم قوياً

(129) مايكل أورين، ص511.

(130) د.جيرمي سولت، ص282.

(131) الدكتور علي محافظة، ص77 و421.

ولا يخشى التفاوض، ولكن ليس قوياً إلى الحد الذي يغنيهم عن المفاوضات[132]، فأي دلال هذا وإلى أي حد يختلف عن سياسة الإملاء العنيف علينا؟ وإذا أرادت الولايات المتحدة لجم الاندفاع الصهيوني لضرب إيران فرضت العقوبات على إيران، لإرضاء الصهاينة وإشباعهم، وليس على الكيان الصهيوني حتى لو كانت مختلفة معه، وذلك لأن الأمريكيين يعاملون نظراءهم من "السادة المحترمين" معاملة تختلف عن تعاملهم مع من يرونهم مخلوقات من الدرجة الثانية ليست جديرة سوى بالتبعية وتلقي الأوامر، ولهذا ردوا على احتلال الكويت، الذي لم يأمروا به، بالطائرات والقنابل خلافاً لردهم على احتلال الأراضي العربية-الذي ارتكبه أبناؤهم المدللون- بعمليات سلام مستمرة إلى الأبد تهتم بإرضاء الجاني أكثر من إنصاف المظلوم، وذلك رغم تشابه الحالتين من منظارهم القانوني، وتعاملوا مع شبح أسلحة الدمار الشامل في العراق بالاحتلال والقصف خلافاً لتعاملهم مع وجودها فعلاً لدى الصهاينة بالدلال الذي لا يعرف حدوداً، ثم ألم نعتبر من مصير كل المراهنات الفاشلة على توتر العلاقات بين أجزاء الغرب وبخاصة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني[133] في كل مرة تعود العلاقات أكثر التصاقاً وحميمية بعد سحب الصيف العابرة التي كنا ننتظر سيولها الجارفة؟ ألم نلحظ أنهم يحلون الخلافات فيما بينهم على حسابنا وبضربنا بدل ضرب بعضهم بعضا كما يحدث في الأفلام الفكاهية عندما يضرب متنازعان قويان طرفاً ثالثاً ضعيفاً بينهما ربما لم يكن أكثر من عابر سبيل ساقه حظه العاثر إلى طريق الذئاب؟

■ **الهزيمة ليست قدراً أبدياً**

رغم كل ما سبق من هزائم حاقت بنا، فإنه باستلهام تجارب غيرنا يمكننا القول إن الهزيمة لن تكون قدرنا إذا أحسنا التصرف وتعلمنا من

---

(132) دوجلاس ليتل، ص207.

(133) نفس المرجع، ص210-218.

التجارب وبخاصة في ظروف ثورات شعوبنا التي يمكن لها أن تتواصل وتمتد لتصل إلى رأس الأفعى الغربية التي تحاول أن تسخّر ما يحدث لصالحها كما تدخلت من قبل بعنف كاسح ضد الثورة البلشفية لنصرة النظام القيصري ولكن مقاومة الشعب العنيدة التي اتخذت عمقاً جغرافياً واسعاً استطاعت صد الهجمة الغربية وقام نظام مهما قيل فيه فلا يمكن إنكار أنه نقل البلاد السوفييتية إلى دولة عظمى في مدة قياسية اعترف فيها حتى ألد أعداء ستالين، وهو الثائر ليون تروتسكي، بأهمية الإنجازات التي حصلت تحت حكمه[134] (وهو درس في المعارضة الشريفة التي تهدف للحصول على الأفضل لبلادها بغض النظر عن المشاعر الشخصية)، كما لايمكن إنكار أن روسيا التي انقلبت على الشيوعية مازالت تتمتع بالإنجازات العلمية التي وصل إليها الحكم الشيوعي، ولولاه لكانت روسيا اليوم مثل تركيا التي قامت الثورة الكمالية فيها في وقت مقارب لقيام الثورة البلشفية ومن موقع كانت فيه الدولة العثمانية قريبة من موقع روسيا في الاعتماد على الاقتصاد الزراعي، والتخلف الصناعي وكون البنية التحتية في بدايتها، وفي الوقت الذي انشغلت فيه الثورة الكمالية الاجتماعية بتوافه الأمور، كإحلال القبعة مكان الطربوش، وركزت على تبديل الهوية التركية أكثر من التركيز على الإنجاز المادي مستخدمة العنف كنظام ستالين ولكن لأهداف مختلفة، كما تخلت عن القاعدة الجغرافية العثمانية العريضة، انشغل السوفييت بالعمل والمقاومة وبناء الذات وتوسيع القاعدة الجغرافية الموحدة بدل تقليصها فكان شتان بين النتيجتين، فقد جعل العنف الستاليني الاتحاد السوفييتي دولة عظمى ترعب الغرب، ولم تحصل تركيا على درجة ذيل لأوروبا حتى اليوم.

وقد عانت الثورة الصينية سنة 1949 من الغرب أيضاً ولكنها فرضت نفسها باعتمادها على عمقها وبنت دولة أصبحت اليوم كابوساً يؤرق الغربيين، وهذا القول ينطبق على الثورة الكوبية والثورة الفيتنامية اللتين لا

---

(134) ليون تروتسكي، الثورة المغدورة: نقد التجربة الستالينية، دار الإلتزام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1991، ترجمة: رفيق سامر، ص10.

يمكن إنكار إنجازاتهما لبلادهما رغم العوائق العالية ورغم تراجع الاشتراكية، ويمكن لأجيالنا التعلم من هذه التجارب في التغلب على عقبات الدول الكبرى مما يفيد مستقبل بلادنا بدل تقليد الغرب في توافه الأمور التي لا صلة لها بقضايا التقدم الحقيقي في مجتمعاتنا.

■ الخلاصة:

تغيرت المصالح الغربية في منطقة الشرق العربي الإسلامي على مر السنين، ولكن ذلك لم يؤد إلى فقدانها أهميتها، بل إن ما حدث هو تطور وزيادة في تشبث الغربيين بها، وإذا قبلنا المبدأ القائل إن المصالح هي التي تدير السياسة وتوجهها، فيمكننا القول جازمين بأن الغرب لا يرى مصلحة له في نهضة بلادنا كما تدل على ذلك سياسته في العصر الحديث الذي ضربت فيه جميع محاولاتنا النهضوية، وذلك لأن هناك تعارضاً موضوعياً وبعيد المدى بين مصالح بلادنا في استثمار مواردها الاقتصادية والاستراتيجية والجغرافية بطريقة تساعدها على الخروج من حالة التخلف الحضاري، كطموح أية أمة في النهوض، أو على الأقل بطريقة تحفظ لها حقها في التصرف بعوائدها، وبين المصالح الغربية التي تسعى للهيمنة على هذه الموارد وعوائدها مع استمرار تصريف صناعاتها بيننا، كما يوجد تناقض بين مصلحة أمتنا في الخروج من حالة الفرقة والتبعية والاستغلال إلى حالة تشبه بقية أحوال الأمم المتكتلة وبين سياسة الغرب تجاهنا والتي تسعى لإدامة التجزئة واستحداث المزيد منها لكي لا يعترض كيان قوي منا على نهب ثرواتنا واحتلال أرضنا في فلسطين أو في أية بقعة تجثم عليها قاعدة أجنبية أخرى، كما يرفض الغرب تمسكنا بحقنا في مقاومة احتلاله أرضنا ويصر على دعم كيان غاصب يستولي على حقوقنا ويقف لحراسة مصالح غيرنا في بلادنا، فيقوم المسئولون الأمريكيون خاصة والغربيون عامة بمواصلة الإعلان عن تمسكهم بالتفوق الصهيوني النوعي على مجموع الدول العربية ضماناً لأمن الكيان، وفي هذه السياسة وحدها إقرار غربي جماعي بالسعي الدءوب لإبقاء بلادنا ضعيفة متخلفة.

ولا يخفى كذلك التناقض الواضح بين الحضارة الغربية بأبعادها المادية الداروينية وما يسميه الدكتور المسيري رحمه الله العلمانية الشاملة التي تفصل القيم عن الحياة وبين الحضارة الإسلامية القائمة على الإيمان والتي تقيم الحياة على أساس القيم التي تحتقرها حضارة الغرب، ومهما قيل عن صراع بين الحضارات عموماً فمن الواضح أن إرث حروب الفرنجة الصليبية مازال حياً كما أثبت لنا اللنبي عند دخوله القدس في الحرب الكبرى الأولى وغورو عند دخوله دمشق بعدها بقليل وبوش عند احتلاله كابول وبغداد في بداية هذا القرن ومازال هذا الإرث مهيمناً على العقلية الغربية بعد تخليها عن المسيحية التقليدية وتبنيها الصيغة المهوّدة منها وأن عداء مراكز اتخاذ القرار في الغرب تجاه الحضارة الإسلامية، بكل مكوناتها الديمغرافية بما فيها المسيحية الشرقية التي نالت حصتها من الاحتقار الغربي الاستشراقي، لا تدانيه نظرتها المتحفية تجاه البوذية أو الطاوية أو الكونفوشيوسية أو الهندوسية أو السيخية مثلاً والدليل على ذلك أن عالم الإسلام هو الذي ورث العداء الذي كان موجها للمد الشيوعي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، ولن يتغير هذا التناقض مادام القوي مصراً على الهيمنة والضعيف متمسكاً بحقه رغم كل التدخلات الغربية المسلحة التي حالت حتى الآن دون تبوؤ بلادنا المكانة التي تتيحها لها إمكاناتها المادية والمعنوية.

(3) سياسات آخر أيام الخلافة:
قضايانا بين الوحدة والتجزئة

■ **أين كنا قبل أن يقطع الغرب طريقنا وأين أصبحنا؟**

"في كل مرة كان نظام عربي أو إسلامي يحاول الانفتاح على الحداثة كان الغرب يقطع عليه الطريق أو يحطم رأسه، فأمس مع محمد علي، والسلاطين المجددين، وأقرب من الأمس كان عبد الناصر، علماً أن تجربة مصدق في إيران لن تسقط من الذاكرة"(135) من كتاب "فكرة ما عن الجمهورية تقودني إلى..." لوزير الدفاع الفرنسي السابق جان بيير شوفنمان الذي استقال احتجاجاً على حرب الخليج الثانية (1991).

"إن القوى الأوروبية لم تكف عن عرقلة أي محاولة تحديث للمناطق التي تود وضعها تحت وصايتها، وتقدم مصر محمد علي، والإمبراطورية العثمانية، أمثلة معروفة عن تلك العراقيل، لا يمكن بطبيعة الحال أن نعرف إن كان تحديث مصر لأكثر من ثلاثين عاماً على يد الباشا ذي الأصول الألبانية أو إن كانت التنظيمات العثمانية بإمكانها أن تؤدي -وبعد أي مدة زمنية- إلى تحولات حاملة لحداثة اجتماعاتية، ولكننا نعرف في المقابل، أن القوى الاستعمارية قد وضعت حداً، وبأسرع ما يمكن، وبالقوة في أغلب الأحيان، لمثل هذه المشاريع" المؤرخة التونسية ذات الأصول اليهودية صوفي بيسيس(136).

■ **إجابات أسئلة النهضة**

لا يزال النقاش بين المدارس الفكرية في أمتنا حول طريقة الخروج من نفق التخلف، في نفس المربع الذي بدأ فيه منذ مدة طويلة جداً(137)، ورغم

---

(135) حمدان حمدان، 1993، ص684-685.

(136) صوفي بيسيس، ص74.

(137) منير شفيق، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات: ثورات-حركات-كتابات،دار القلم، الكويت، 1993، ص19.

وجود تيار قوي عارض في البداية فكرة الإصلاح، فإن الوضع الآن مختلف، حيث تجمع مختلف التيارات على ضرورة التغيير ولكنها تختلف في هويته: هل يتم بالمحافظة على الهوية والأسس الحضارية لأمتنا مع مقاومة التدخل الأجنبي؟ أم بالذوبان في الغرب وخدمة مصالحه والتبعية له فكرياً وسياسياً واقتصادياً؟[138] أما التنمية وفقاً لمنهج التغريب ولكن بالاستقلال عن مراكز القرار الغربية فقد قطع الغرب نفسه الطريق عليها ودمر محاولاتها منذ التنظيمات العثمانية إلى محاولات النهضة العربية التي قادتها التجارب الناصرية والبعثية كما سبق ذكره في الملحق الثاني، ولم يستفد النقاش الدائر بين المدارس المختلفة من الحوادث والنكبات التي مرت على أمتنا وكان من الممكن أن تلقي ضوءاً على حقيقة صراع القوى وأهداف أطراف هذا الصراع بما يفيد في تحديد اتجاه الطريق الذي ينبغي السير فيه، وقد كانت مجتمعاتنا في آخر أيام الخلافة مستعدة للدخول في العصر الحديث وخطت خطوات مهمة في هذا الاتجاه ولو قدر للإجابة الحضارية التي قدمها عصر السلطان عبد الحميد الثاني أن تكتمل وأن تصل إلى نهايتها المنطقية دون تدخل خارجي يقطع الطريق عليها فإنها كانت مدخلاً معقولاً إلى النهضة والتحديث في المجالات السياسية الداخلية (الوحدة) والخارجية (الاستقلال) والاقتصادية (التنمية المستقلة) والاجتماعية (التعايش)، ولأنجزت كل ذلك أفضل مما قامت به دول الاستقلال الوهمي والتجزئة المجهرية فيما بعد، ولكن أوروبا لم تترك الدولة العثمانية تلتقط أنفاسها للحظة، وأدخلتها في دوامة مستمرة من المؤامرات والصراعات الداخلية والخارجية أدت في النهاية إلى إلغاء الكيان الجامع المتمثل في الخلافة نفسها وضرب المشروع الحضاري والانحدار بنا من سافل إلى أسفل على يد دول الاستقلال والتجزئة التي أقامها الاستعمار على الأنقاض العثمانية حتى وصل بنا الحال إلى ما نشاهده من فساد وذل وتبعية وشرذمة لا يبدو لها قرار في هذه الهوة السحيقة.

- الدكتور كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: عربي- إنجليزي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2000، ص347، مادة: عبد الله العروي.

(138) عادل مناع، 1999، ص206.

وقد كتب الكثير عن مظاهر الضعف والتراجع في آخر سني الدولة العثمانية، ولكن مع ذلك فقد حققت الخلافة في آخر أيامها الكثير من الإنجازات رغم كل العقبات، وإن كانت الأجيال الحديثة لا تذكر سوى رفض بيع فلسطين للصهاينة، إلا أن المتتبع يتبين له أن هذا الإنجاز لم يكن سوى أحد إنجازات أخرى كثيرة بل لم يكن أكبرها، وهو لا يحتل سوى مكان ضئيل في مذكرات السلطان عبد الحميد وفي التأريخ لعهده، وسبب تضخمه لدينا هو انبطاح دولة التجزئة التي استسلمت للمستعمرين الذين اختلقوا كارثة الكيان الصهيوني فيما بعد، أما دولة الخلافة فكان ذلك الإنجاز، الضخم عندنا، إنجازاً ضئيلاً من إنجازاتها حتى في آخر أيامها زمن الضعف والتراجع والهزيمة، ولعل أهمها بالنسبة إلينا هي أن بلادنا العربية تمتعت بآخر مظاهر وحدتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لم تستطع الدول التي نشأت بعدها وفقاً لاتفاقيات التجزئة كسايكس بيكو (1916) والحكم الثنائي (1899) والعقير (1922) وحداء وبحرة (1925) حتى مجرد العودة إلى هذه المظاهر فضلاً عن تحقيق ما هو أفضل منها، هذا بالإضافة إلى مشاريع التنمية العملاقة، وفيما يلي ملخص لما كنا فيه وكان مرشحاً للتطور لولا قُطاع الطرق الحضارية من الغربيين:

■ الإصلاح والتنظيمات والتحديث

بدأ شعور العثمانيين بالخلل الذي تسلل إلى دولتهم في منتصف القرن السادس عشر[139]، ومنذ ذلك الوقت جرت محاولات للإصلاح اتخذت مع الزمن طابع الإعجاب بأوروبا ومحاولة تقليدها ولكن هذا التقليد لم يتخذ طابعاً رسمياً إلا مع تطبيق سياسة التنظيمات في النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان هدف هذه السياسة على الصعيد النظري إصلاح أحوال الدولة والقضاء على الفساد والتخلف اللذين استشريا فيها، أما عملياً فإن

---

(139) برنارد لويس، الإسلام في التاريخ: الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ترجمة: مدحت طه، ص329-345.

هدفها كان محاولة إرضاء دول الغرب الأوروبي في زمن ظُن فيه أن إرضاء أوروبا يعني وقف تدخلها ويساعد الترقي المكتسب من معارفها على الوصول للقوة الرادعة، وبخاصة بعد أن وقف الغرب إلى جانب السلطنة في إيقاف زحف والي مصر محمد علي باشا الذي كان يسابق السلطان في كسب رضا الأوروبيين، أما في المجال النظري فقد اتخذت إجراءات سطحية لا تمس جوهر التخلف مثل تغيير الأزياء والتشبه بالعادات الغربية وبناء القصور المكلفة على الطراز الأوروبي والاهتمام بالموسيقا الأوروبية، وأما فيما يتعلق بالجوهر وهو الحصول على رضا الغرب فقد اتخذت إجراءات تشريعية نتج عنها تكريس الضعف السياسي والتبعية الاقتصادية للسوق الأوروبية وإيجاد وسائل جديدة للتدخل في شئون الدولة العثمانية رغم أن هذه النتائج لم تكن مقصودة منذ البداية بل كان الهدف هو التمكن من التصدي للهيمنة الغربية[140]، ومع ارتقاء السلطان عبد الحميد الثاني سدة حكم السلطنة 1876م اتخذت عملية الإصلاح منحى جديداً نبع من إيمانه أولاً: بأن الإسلام هو "القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء"[141]، وثانياً: بأن أوروبا لا تريد الخير لدولته، "إنها دسيسة كبرى اختلقوها وسموها إصلاحاً"[142]، "كان الإنجليز يعرفون أن الإصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تغرق الدولة العثمانية سريعاً، تماماً مثلما أعرف أنا"[143]، وثالثاً: بأن ظروف الدول مختلفة، فما يصلح لواحدة قد يضر أخرى، "الدواء الناجح يصبح سماً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء"[144]، ورابعاً: بأن مسار التقدم الأوروبي ليس هو المسار الوحيد للتقدم ومن يملك حضارة أخرى جديرة بالسيادة كالحضارة الإسلامية يمكنه صناعة نموذج آخر للتطور، "الأوروبيون

(140) بيتر مانسفيلد، ص181.

(141) الدكتور محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، 1990، ص83-84.

(142) السلطان عبد الحميد الثاني، ص89.

(143) مذكرات السلطان عبد الحميد، دار القلم، دمشق، 1991، ترجمة: محمد حرب، ص197.

(144) نفس المرجع، ص197.

يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً، مع أن أكثر رجال العلم يعترفون أن الثقافة العثمانية الإسلامية جديرة بالهيمنة، كالثقافة الغربية على أقل تقدير، ولاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا"[145]، وخامساً: بأن التطور يجب أن يكون نابعاً من الحاجات الداخلية وليس بفرض إرادة خارجية، "الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها، ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج"[146]، ولهذه العوامل كان يرفض عملية التقليد للغرب وإن كان يرى أن الإسلام لا يمنع اقتباس العلوم والتقنية وأسباب القوة بشرط أن يكون الاقتباس حسب الحاجة الداخلية للدولة وليس تنفيذاً لأوامر من الخارج[147]، فالغرب لا يسير إلا خلف مصالحه الذاتية ولهذا فإنه لن يساعد في تقديم المساعدة العلمية للدولة مادام يمكنه بيعها جاهزاً ما تود هي تصنيعه[148]، هذا فضلاً عن أنه يسعى لتفتيت الدولة العثمانية والقضاء عليها ولذلك فقد أثبتت التجربة أن اتباع نصائح أوروبا وتنفيذ أوامرها لن يأتي إلا بالهزيمة والدمار[149]، هذا إلى جانب أن ما يصلح لدولة تتكون من عنصر واحد قد يكون سمّاً لدولة تتكون من عناصر شتى من السكان[150]، وظروف دولة تقع في أقصى الأرض تختلف عن ظروف دولة تقع في وسط الوحوش[151].

ولو قارنا هذا الاعتزاز، بانبهار الزعامات العربية الوطنية بالأجانب لتملكنا العجب، ويمكننا أن نختار الزعيم المصري جمال عبد الناصر وهو

---

(145) السلطان عبد الحميد الثاني، ص194.
(146) الدكتور محمد حرب، ص80.
(147) السلطان عبد الحميد الثاني، ص193 و197.
(148) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص147، الهامش.
(149) نفس المرجع، ص130.
(150) نفس المرجع، ص145.
(151) نفس المرجع، ص195.
- السلطان عبد الحميد الثاني، ص96.

من أكثر الزعماء العرب استقلالية ومع ذلك يقول عن نفسه: "القدوة التي أسترشد بها (في سياسة عدم الانحياز)... ليست هتلر ولا ستالين، إنها جورج واشنطن ... لما وصلت إلى الحكم كنت ميالاً إلى الأميركيين. إني أحسن التكلم بالإنكليزية. كنت أقرأ المجلات الأميركية وكنت معجباً بما حققه الأميركيون على الصعيد الفني. بل كنت أظن أن طريقة الحياة الأميركية هي أفضل ما يمكن أن يكون. وبكل سذاجة كنت مقتنعاً بأن الأميركيين هم أعداء الاستعمار. ومن ثم بدأت أيأس لكثرة ما استقبلت منهم وما تفاوضت مع ممثليهم"[152]، وللأسف فإن هذا الانبهار ترك أثره على السياسة إلى ما بعد هزيمة حزيران.

■ **المعرفة والعمران**

قام السلطان عبد الحميد بمحاولة نهوض شامل في كافة أرجاء السلطنة وتحديثها -دون تغريب- مركزاً على محورين: المعرفة والعمران، وذلك كما يقول المؤرخ يلماز أوزتونا، مع محاربة التأثيرات الفكرية والسياسية الغربية التي -إضافة إلى أنها نابعة من حضارة أوروبا التي لا سبيل إلى جمعها مع حضارة الإسلام في رأيه[153] ـ فتحت الباب لاستقطاب الولاء للغرب بين العثمانيين، ولهذا حاول إعطاء هذه النهضة محتوى إسلامياً بدعم نشر الفكر والرابطة الإسلاميين؛ فتحت بند المعرفة: تم تأسيس كليات الهندسة، والطب، والعلوم، والآداب، والحقوق، والعلوم السياسية، والفنون الجميلة، والتجارة، والزراعة، والبيطرة ومعاهد المعادن، والغابات، والتجارة العسكرية، والمعلمين واللغات، كما تم بناء المدارس الابتدائية ونشرها في قرى السلطنة، بالإضافة إلى المدارس المتوسطة في مراكز الأقضية والمدارس الثانوية في مراكز الألوية، هذا بعد أن كان بناء المدارس يسير ببطء إلى بداية حكم السلطان وقد نتج عن انتشار المدارس في عهده

---

(152) بنوميشان، 2002، ص23-25.

(153) الدكتور محمد حرب، ص83.

تضاعف أعداد من يقرءون ويكتبون إلى نسب عالية وصلت إلى خمسة أضعاف أو أكثر مقارنة ببداية القرن التاسع عشر وفي بعض المدن إلى عشرة أضعاف[154]، فكان ما شهدته الدولة انفجار أو فورة تعليمية- بتعبير المؤرخيْن شو- نشرت آلاف المدارس في كل مكان فيها ونهضة ثقافية عدها هذان المؤرخان من أغزر ما شهده تاريخ الدولة في هذا المجال، وتمثل ذلك في غزارة طباعة الكتب والصحف والمجلات[155]، ومازالت دولة الاستقلال والتجزئة في العالم العربي تعاني من أعلى معدلات الأمية في العالم وتبلغ نسبة الأمية فيها ضعف معدلها العالمي، وتشمل عشرات الملايين الذين يتزايد عددهم ويؤلفون اليوم ربع سكان البلاد العربية حسب إحصاءات 2013 (موسوعة ويكيبيديا) رغم مرور قرن تقريباً على زوال الحكم العثماني الذي ألصقت به تهم الجهل والأمية، ورغم كثرة مظاهر التحديث والعصرية في هذه البلاد التي انبلج فيها فجر الاستقلال وتحول سكانها من رعايا إلى مواطنين وفقا لدعاوى أنصار الدولة القُطرية، ورغم أن أمماً غيرنا عبرت الفجوة ووصلت قمة العالم في هذه الفترة الطويلة، ولكننا ما زلنا مشغولين بالندب بسبب حظنا العثماني (!).

وقد حرص السلطان على أن يكون محتوى التعليم إسلامياً بمراقبة المناهج واستبعاد أصحاب الميول الغربية والانفصالية من هيئات التدريس[156]، كما عمل على نشر الفكر الإسلامي عن طريق طباعة وتوزيع الكتب الإسلامية، ومن أمثلة ما حرص عليه شخصياً: أمره بطباعة صحيح البخاري سنة 1892 في المطبعة الأميرية في مصر، وكذلك أمره بطباعة كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي الذي يحتوي على مناظرات مع المبشرين، ولعل في هذين المثلين ما يصور طبيعة نظرته المؤكدة على الفكر

---

(154) يلماز أوزتونا، ج2ص146.

- دونالد كواترت، الدولة العثمانية 1700-1922، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004، ترجمة: أيمن أرمنازي، ص299.

(155) Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw, Vol. II, pp. 251-252.

(156) الدكتور محمد حرب، ص200-205.

الإسلامي ووجوب التصدي للتأثير التبشيري الذي لم يكن آنذاك منفصلا عن الهيمنة الاستعمارية، ومن المرافق العلمية كذلك: المدارس الصناعية ومدارس الصم والبكم والمكتبات: كمكتبة بايزيد ومكتبة يلدز، والمتاحف كمتحف الآثار القديمة والمتحف العسكري.

أما عن العمران: فقد شمل المشاريع المائية، والبريدية، وسكك الحديد، والمعامل المختلفة، والمستشفيات، والغرف التجارية، والصناعية، والزراعية، ودور العجزة والنفوس، كما تم في هذا العهد إدخال الهاتف، والسيارة، والترام، والتلغراف، في مواصلات واتصالات الدولة. وشهد زمن السلطان عبد الحميد كذلك مشاريع عمرانية كبرى كسكة حديد بغداد التي كان من المخطط أن تصل عواصم أوروبا باسطنبول فبغداد فالكويت والتي بذلت بريطانيا كل ما في وسعها لتعطيلها، وأدت هذه السكة مع سكة الحجاز إلى إعمار كثير من المناطق التي مرتا بها في الأناضول والهلال الخصيب والجزيرة العربية، كما أنشئت سكك الحديد الأخرى في بلاد الشام التي تفوقت على الأناضول في نسبتها، ومدت شبكة التلغراف في أنحاء الدولة، وشهدت مدن عربية مثل بيروت عمراناً استثنائياً، وعمرت المواقع الفلسطينية المهجورة لمناهضة الاستيطان الصهيوني، وبنيت مدينة بئر السبع (1900) لتوطين العشائر البدوية التي شهدت عملية استقرار ملحوظة في أنحاء الدولة التي شجعت هذه العشائر على ذلك بمد العمران (بناء الناصرية والعمارة في جنوب العراق مثلاً)، كما استهدف بناء مدينة بئر السبع مناهضة تمدد الاحتلال البريطاني من مصر حيث دعم السلطان عبد الحميد الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل باشا ضد الاحتلال البريطاني دعماً مطلقاً كما سيأتي.

■ مجالات أخرى شملها التحديث في عهد السلطان عبد الحميد

لم تقتصر النهضة الحميدية التحديثية على المعرفة والعمران، بل شملت نواح أخرى لاقت درجات متفاوتة من النجاح منها:

❁ الاقتصاد

شهدت العهود التي سبقت عهد السلطان عبد الحميد تسللاً واسع النطاق للنفوذ الاقتصادي الغربي في الدولة العثمانية نتيجة لما أحدثته سياسة التنظيمات ولجوء الحكام إلى الاقتراض الموسع من الدول الغربية، ورغم تأكيد بعض الباحثين على استمرار اندماج اقتصاد الدولة في العهد الحميدي بالاقتصاد الأوروبي الرأسمالي ـ بشكل تابع طبعاً ـ وذلك لعدم قدرة السلطان على وقف الموجة العاتية، فقد رأيناه يتخذ كثيراً من الإجراءات للحد من النفوذ الغربي، ولعل أهم هذه الإجراءات هو تقليص نفقات الدولة، وقد شمل ذلك العديد من النفقات غير الضرورية التي كانت تهدر في السابق، مع عدم المساس بالسلع الرئيسة التي يعتمد المواطن عليها كالخبز مثلاً[157]، وكان هدف سياسة الترشيد هذه هو عدم اللجوء للاقتراض من الخارج، هذا الاقتراض الذي أفلس الدولة وقيد استقلالها وجعل مواردها بأيدي أعدائها، وقد حاول تنظيم سداد الديون بإنشاء لجنة الديون العمومية التي مثلت الدائنين في سنة 1881 ودخل في مفاوضات معها جعلها تخفض الدين إلى ما يقارب النصف (56,6%) وتخفض الفائدة إلى 5% كذلك، وتم وضع بعض موارد الدولة تحت تصرف هذه اللجنة وأصبحت الديون تسدد بانتظام، وشجع مقاومة الهيمنة التي حاول الدائنون فرضها على زراعة التبغ وتغاضت الدولة عن عمليات التهريب التي ضربت احتكار الدائنين في الصميم، ومن تلك الإجراءات المناوئة للنفوذ الاقتصادي الغربي أن السلطان كان يحجم عن تنفيذ بعض المشاريع إذا أحس بالخطر من تسرب رأس المال الأجنبي بواسطتها، أو يتوجه إلى جهات غير طامعة لتنفيذ هذه المشاريع، كطلبه من اليابان التنقيب عن النفط في الموصل بعد رفضه إعطاء الامتياز للإنجليز وغضبه من خداع حلفائه الألمان[158]، وقد استمر

---

(157) عمر فاروق يلماز، السلطان عبد الحميد خان الثاني بالوثائق، دار نشر عثمانلي، 1999، ترجمة: طارق عبد العزيز السيد، ص276.

(158) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص154-158.

الاقتصاد العثماني في عهده بالاعتماد على قاعدة الذهب والفضة وكانت النقود الذهبية والفضية متداولة أكثر من العملة الورقية وحتى هذه كان بالإمكان تحويلها إلى معادلها من الذهب في كافة أنحاء العالم(159).

وتمكنت الدولة من تحقيق إنجازات اقتصادية أخرى إذ حافظت إلى آخر أيامها على أهمية التجارة بين ولاياتها وكانت التجارة الداخلية مقدمة على التجارة الخارجية وهو ما تفتقده بلادنا في زمن التجزئة إذ يسيطر الغرب على معظم تجارتها ولا تكوّن التجارة بين البلاد العربية إلا 8% من مجموع تجارتها، كما حافظت الدولة على درجة عالية من الاكتفاء الذاتي الغذائي على عكس دول التجزئة التي تستورد معظم غذائها حتى لو كانت بلاداً زراعية تقليدية وتخضع لسلاح الغذاء الذي يشهره الغرب في وجه العرب إذا حاولوا استعمال سلاح النفط لنصرة قضاياهم، ولم تعتمد الدولة العثمانية على تصدير منتج واحد بل نوعت منتجاتها الزراعية على عكس حالة التجزئة العربية التي صنعها الاستعمار، وقاومت الدولة كذلك تمدد الصناعات الغربية فحافظت على كثير من الصناعات الحرفية التي ظلت توفر معظم الحاجات لسكانها، ودخلت عصر التصنيع الآلي رغم الصعوبات الاقتصادية وشهد عهد السلطان عبد الحميد وما بعده إنشاء كثير من المصانع* حتى في مجال التسلح الذي كان العثمانيون يصدرونه إلى الخارج إضافة للاستخدام الداخلي، ولم تستسلم الدولة لمطالب الدائنين بعد إفلاسها سنة 1875

---

(159) نفس المرجع، ج2ص145.

(*) من ضمن المصانع الكثيرة (السلاح والقماش والخزف الصيني والآجر والقرميد والزجاج والجلود والورق والخيوط والسجاد والحرير) التي بنيت في زمن السلطان عبد الحميد مصنع للطرابيش التي كانت من ضمن اللباس العثماني، ولكن أحد الصحفيين في الزمن المعاصر اختزل إنجازات السلطان الكثيرة وحصرها في بناء هذا المصنع مقللاً من قيمة هذا الإنجاز وساخراً من تجربة حاولت تحقيق الاكتفاء الذاتي في صناعة الملابس العثمانية القومية، هذا مع أن البلاد العربية وبخاصة الثرية منها ما زالت إلى اليوم، رغم ثرائها، وبعد أكثر من قرن من المحاولة العثمانية، عاجزة عن تحقيق الاكتفاء الذاتي في هذا الحقل البسيط الذي يتعلق بالزي الوطني الذي هو رمز هويتها الوطنية والقومية وتستورد لباسها العربي من الخارج وتفاخر به عندما يكون من صناعة بريطانيا أو سويسرا (!) صحيفة الوطن الكويتية 21 أغسطس 1979 ص5.

وفرض السلطان عبد الحميد عليهم تسوية ألغت نصف الديون كما مر وتجنبت الدولة بذلك مصير ولاياتها التي أصرت على الاستقلال عنها مثل مصر وتونس مما أدى إلى تفرد المستعمرين الدائنين بهما فوقعت في براثن الاحتلال الأجنبي البريطاني والفرنسي، وتمكن برنامجه الاقتصادي من زيادة الإيرادات بنسبة 43% في غضون ربع قرن مما أثار انتباه المؤرخين، كما جذب الاقتصاد العثماني في هذه الفترة استثمارات أجنبية في البنية التحتية ولكنه لم يستسلم لمتطلبات المصالح الأجنبية وتمكن من فرض المصالح العثمانية على عملية إنشاء المشاريع الاستثمارية، وكانت الدولة قادرة على الاختيار بين عروض الاقتصاديات الغربية عندما تمكن السلطان عبد الحميد من تحويل المنافسات الاستعمارية على بلاده إلى منافسات اقتصادية لتطويرها، وكانت الدولة الكبرى التي تعادي الدولة العثمانية يتضاءل نفوذها التجاري أو الاستثماري أو المالي تبعاً لذلك كما حدث مع بريطانيا،والعكس يحدث مع الدول التي تعرض صداقتها دون أطماع طاغية كما حدث مع ألمانيا[160].

* **الجيش**

كان السلطان عبد الحميد يرى أن الإعمار أهم من دخول الحروب حتى لو تم إحراز النصر فيها، لأنها تأتي بالويلات والدمار للبلاد، والمجد المتحصل منها زائف[161]، ولهذا فإنه لم يدخل مختاراً في حرب إلا دفاعاً عن النفس ولكن ذلك لم يمنعه من تحديث جيشه تحسباً ليوم عصيب، فزوده بالأسلحة الحديثة واستدعى المدربين والمستشارين العسكريين للإفادة من خبراتهم، وقد أثبت الجيش فعاليته في حرب اليونان 1897م، ومن إنجازات السلطان تمويله لتجارب الغواصات التي نتج عنها النجاح في إعادة تركيب

(160) تفاصيل الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة في المرجع التالي: محمد شعبان صوان، السلطان والمنزل: الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة العثمانية ومقاومتها لتمدد الرأسمالية الغربية، دار الروافد الثقافية، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، 2013.
(161) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص98.

الغواصتين عبد المجيد 1887 وعبد الحميد 1888 في استانبول بعد شرائهما من بريطانيا مفككتين[162]، ومن إنجازاته أيضاً تحصين مضائق العاصمة بطريقة مكنت القوات العثمانية من صد هجمات الحلفاء في سنة 1915م أثناء الحرب العالمية الأولى وتحقيق الانتصارات المشهورة في شبه جزيرة غاليبولي.

وظل الجيش العثماني محتفظاً بقدر كبير من التماسك والعناد حتى آخر أيامه وارتفع عدد جنوده من 24 ألفاً سنة 1837 إلى 120 ألفاً سنة 1908[163]، وصمد في وجه روسيا (1877-1878) وانتصر على اليونان (1897) ثم دخل الحرب الكبرى الأولى (1914) ليستعيد ما احتله الحلفاء من قبل وليخلص الدولة من قيود الامتيازات الأجنبية التي ألغيت بالفعل منذ بداية الحرب، وشرع في عملية الاسترداد فعلاً في كل من مصر (1915) وليبيا (1916) وتمكن من تحقيق انتصارات مهمة على جبهات مضائق استانبول (غاليبولي) والقوقاز والبلقان وفلسطين (غزة) والعراق (كوت العمارة) والجزيرة العربية (سكة الحجاز)، وقد لمس البريطانيون في أثناء الحرب "خطورة الجيش العثماني"[164] الذي دربه الألمان وأثبت أنه "قوة ضخمة لم تكن في الحسبان"[165]، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين إن الجيش العثماني قام بأداء جيد طوال الحرب : فقد هزم البريطانيين والأستراليين والنيوزيلنديين على ضفاف غاليبولي وأجبر الغزاة البريطانيين على الاستسلام في كوت العمارة وصد الغزاة الروس والجيوش البلقانية ومنعهم من التقدم[166]، ويقول مؤرخ آخر إن الجيش العثماني أثبت أهميته أكثر من توقعات الجميع وقاتل تحت إمرة أنور باشا في خمس جبهات

(162) http://www.submarineheritage.com/history.html .

(163) دونالد كواترت، ص127.

(164) ب.ج. سلوت، ص389.

(165) نفس المرجع، ص522.

(166) Andrew Wheatcroft, The Ottomans: Dissolving Images, Penguin Books, London, 1993, p. 206.

متفرقة وانتقل تحت تأثير النجاحات إلى الهجوم لاسترداد الحدود السابقة للدولة[167]، ويقول مؤرخ ثالث إن القوات العثمانية هاجمت "مواقع بريطانية في منطقة قناة السويس في بداية الحرب، وهزمت قوات الفرنسيين والبريطانيين وقوات الكومنولث في معركة جاليبولي عام 1915، وأجبروا القوات الهندية في بلاد الرافدين على الاستسلام عام 1916، واحتوى العثمانيون ثورة عربية اندلعت بطول خط السكة الحديد في الحجاز في الفترة بين 1916 و1918، وكذلك أجبروا البريطانيين على الحرب من أجل كل شبر من أرض فلسطين حتى خريف عام 1918"[168]، ولكن الانتصار في معارك لا يعني الانتصار في الحرب وبخاصة أمام غيلان الغرب المتحالفة التي صممت على تدمير دولة تمثل آخر مظاهر وحدة المسلمين كما أكد على ذلك بلفور ولورنس في أثناء الحرب.

* القضاء

كان السلطان عبد الحميد يؤمن بأن العدل هو الأساس الذي قامت عليه الدولة العثمانية التي لو كانت قد جلبت الظلم لتفتتت منذ البداية[169]، ولهذا حاول القيام بإصلاح في مجال القضاء هدف إلى تحقيق المساواة بين الجميع أمام القانون وكفالة تطبيق العدالة بأسرع وقت عبر التنظيم التشريعي والإداري، ومن الإجراءات التي اتخذها في هذا الحقل: إنشاء كلية الحقوق لإعداد رجال قانون متخصصين، وتنظيم وزارة العدل وعلاقاتها بمختلف أنواع المحاكم ووضع برنامج للإصلاح استهل بقوانين صدرت بداية من سنة 1879؛ ويقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي عن أثر هذه الإصلاحات نقلاً عن المؤرخين شو : "وقد حققت هذه القوانين وغيرها مستوى رفيعاً من العدالة والنزاهة والنظام في البنيان القضائي لم تشهد الدولة له من قبل مثيلاً. وكان جميع المتقاضين في المحاكم المدنية على اختلاف

---

(167) Jonathan Mcmurray, pp. 115.

(168) يوجين روجان، ص192.

(169) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص181.

درجاتها وكذلك جميع المتهمين أمام محاكم الجنايات متساوين أمام القانون بصرف النظر عن دياناتهم أو مذاهبهم أو مراكزهم الاجتماعية"[170]، ولكن الغرب لم يكن سعيداً بهذه الإصلاحات لأنها وضعت العثماني والأجنبي أو المتمتع بالحماية الأجنبية داخل الدولة العثمانية على قدم المساواة، وأصرت الدول الأوروبية على عدم تطبيق القوانين الجديدة على رعاياها مستندة في ذلك إلى معاهدات الامتيازات الأجنبية[171]، ويؤكد المؤرخان شو أنه رغم تدخل القصر في بعض القضايا المتعلقة برجال مشاهير، فإن ذلك لم يؤثر على انتشار العدالة الذي أدى إلى حماية حقوق الجماهير بصورة أكثر اتساعاً وشمولاً من الماضي[172]، وهو ما يؤكد أن الإصلاح الإسلامي لم يكن من هموم أوروبا وكانت تقف ضده إذا لامس مصالحها وهو أمر مازلنا نعاينه إلى يومنا هذا.

■ **ثمار الإصلاح الحميدي في تقويم المؤرخين**

يقول المؤرخ العربي الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى سنة 1982 في كتابه "في أصول التاريخ العثماني": "انتهى منذ زمن طويل اعتبار عصر السلطان عبد الحميد مجرد فترة يغلب عليها الطابع الرجعي"[173].

ويصف المؤرخ نيكولاس دومانيس عصر السلطان عبد الحميد بقوله إن خسارة أراض بلقانية واسعة لصالح الانفصاليين المسيحيين في بداية عهده (1878) أدت إلى أن تفسح القومية العثمانية مكانها إلى فكرة الجامعة الإسلامية، فقد ركز النظام الجديد اهتمامه على رعاياه المسلمين مثل

---

(170) أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997، ج3ص1171.

- Shaw & Shaw, p. 248.

(171) نفس المرجعين السابقين.

- بيتر مانسفيلد، ص123.

(172) Shaw & Shaw, pp. 248-249.

(173) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، 1982، ص240.

الأتراك والأكراد والعرب والتتار والشركس والألبان بصفتهم أساساً لدولة ناهضة، وقد استمر تحديث هذه الدولة وتركيز السلطة فيها وتمكن السلطان بحلول نهاية عهده من إحكام السيطرة على الموارد البشرية والمادية أكثر من أي من أسلافه، وأقيمت مرافق الدولة المختلفة على أسس رشيدة وعقلانية بشكل ملحوظ في كل من الجيش والإدارات المحلية والتعليم العام والاتصالات مثل السفن البخارية والطرق وسكك الحديد وشبكة البرق الكهربائي (التلغراف) بالإضافة إلى القصر السلطاني نفسه. وبدأ المجتمع العثماني واقتصاده بإظهار مميزات المجتمع الحديث، فبحلول سنة 1900 طغت السكك الحديدية والسفن البخارية على النقل الحيواني والشراعي، وتضاعفت بين 1830-1914 أعداد السكان في استانبول وإزمير وسالونيك في الوقت الذي تضاعف فيه عدد سكان بيروت بين 1800-1914 خمسة عشر ضعفاً من 10 آلاف إلى 150 ألفا، وكان هذا التمدد المديني ناتجا عن انتشار زراعة التصدير التي تبعها توسع في التجارة الداخلية والخارجية، وبينما عانت الصناعة العثمانية من تمدد البضائع الغربية الرخيصة بين 1800-1870، فقد شهدت نهضة كبيرة بعد ذلك وانتشرت المصانع حول مراكز المدن لاسيما في استانبول وسالونيك وإزمير وبيروت، كما انتشرت التنظيمات العمالية واحتجاجات العمال. وفي سنة 1908 امتلكت اسطنبول 285 مطبعة، وصحافة نقدية نابضة بالحياة تراوحت انتقاداتها بين السياسة وبعض مساوئ الحياة العصرية(174).

ويقول المؤرخ دونالد كواترت إن حكم السلطان عبد الحميد الثاني أعاد القوة للسلطنة في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، وإنه تخلى عن موقف الأقلية الليبرالية وتبنى رد فعل إسلامياً على سياسة التنظيمات ولكنه واصل الإصلاحات التكنولوجية التي بدأها أسلافه وأعاد التركيز على مواجهة التغريب الثقافي بعد بعث الوعي الإسلامي "ومع نهاية القرن، كانت الحكومة قد استخدمت نصف مليون موظف مدني على الأقل. ولم يديروا

(174) Robert Aldrich(Ed), p. 39.

الأموال فحسب، بل اضطلعوا أيضاً بوظائف ترتبط الآن بالواجبات العادية للدولة الحديثة. لقد أدار موظفو الدولة المستشفيات، ومراكز الحجر الصحي، ومئات من المدارس العلمانية (أي التي تضيف إلى مناهجها علوماً غير متصلة بالشريعة الإسلامية مباشرة كالجغرافيا والمحاسبة والهندسة واللغات الأجنبية)، وكذلك المزارع النموذجية والمدارس الزراعية، ناهيك عن بناء الطرق السريعة، وخطوط التلغراف، والسكك الحديدية وصيانتها"[175].

ويقول المؤرخ أندرو ويتكروفت إن إنجازات السلطان كانت ضخمة في المجال المالي والمجال العسكري اللذين تولى السلطة وهما يشغلان الدولة بسبب الإفلاس والحرب مع روسيا، ورغم أن خطابه الإسلامي ينتمي إلى الماضي، فقد كان أكثر مجددي المجتمع العثماني فعالية وأثراً، ورغم تعطيل العمل بالدستور زمناً طويلاً، فإن هذا المؤرخ يذهب إلى أن كثيراً مما يرتجى من هذا الدستور تحقق فعلاً في زمن السلطان، فقد زود الدولة بالبنية الأساسية للتعليم الثانوي، وبشبكة من السكك الحديدية، وبخطط لتطوير شبكة الطرق في أواخر عهده، ومدت شبكة البرق الكهربائي فوق أرجاء الدولة ووصلت إلى المدن الصغرى، وتمكن من توجيه موظفي الدولة بشبكة ضخمة من الموظفين التابعين للقصر وصل عددهم إلى 12 ألفاً، وبواسطة عيونه المبثوثة في كل مكان كان قادراً على معرفة ما يدور في الأماكن الريفية البعيدة أكثر من المسئولين المباشرين لها، كما كان السلطان عبد الحميد من أوائل الذين قدروا أهمية الصورة الشمسية التي مكنته من تقويم المعلومات التي تصله، فقد تبين له جسراً غير مكتمل البناء في الوقت الذي يخبره فيه حاكم المنطقة أنه مكتمل، أو تريه سوقاً فارغاً في الوقت الذي تصله فيه أخبار كاذبة عن توفر الطعام في هذا السوق، أو تصور له مدرسة مهجورة كان من المفترض أنها مليئة بالطلبة[176].

(175) خليل إينالجيك (تحرير)، ج2ص496-497.

(176) Andrew Wheatcroft, pp. 191-202.

وقال المؤرخان شو إن السلطان عبد الحميد عد نفسه مصلحاً وكان كذلك بالفعل رغم أنه لم يكن يؤمن بالحكم الديمقراطي نتيجة استغلال القوى الكبرى والأقليات لوجود البرلمان لأغراضها الخاصة بعيداً عن المصالح العثمانية مما استنتج منه عدم استعداد الدولة في ذلك الوقت لتطبيق هذا الشكل من الحكم بعدما كان مستعداً في البداية له، ولهذا فمن الخطأ الافتراض أنه جلس على العرش بنيّة تطبيق الحكم الفردي، وإنه تمكن بحكمه الفردي هذا من جمع شتات دولته والدفاع عنها، وإحياء مجتمعها والوصول بمعظم الإصلاحات إلى نتائج ناجحة، وأصبح بذلك آخر رجال إصلاحات التنظيمات الخيرية[177].

ويقول المؤرخ بيتر مانسفيلد إنه رغم أن السلطان كان يتبنى ذهنية رجعية (بالمفهوم الغربي)، فإنه يمكن عده وفقاً للشروط الحديثة مجدداً ومحدثاً ولكن ليس متغرباً، وقد كان له إنجازات لا يمكن تجاهلها طوال تاريخ حكمه الممتد[178].

ويلخص المؤرخ عباس العزاوي المحامي إنجازات السلطان بالقول إنه "قام بأعمال قد يقصر عنها غيره"[179].

■ السلطان عبدالحميد والوحدة الجامعة

ارتبط اسم السلطان عبد الحميد في معظم الدراسات بفكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها واتخذها سياسة رسمية له، وقد توصل إلى ضرورتها بعدما رأى تكالب دول الغرب على العالم الإسلامي داخل الدولة العثمانية وخارجها، وكان لرأي القانوني العثماني الكبير أحمد جودت باشا (1823-1895) واضع مجلة الأحكام العدلية مساهمة كبرى فيما وصل إليه

---

(177) Shaw & Shaw, p.212.

(178) بيتر مانسفيلد، ص121 و195.

(179) عباس العزاوي المحامي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004، ج8 (العهد العثماني الأخير 1872-1917) ص212.

السلطان، وذلك بعدما خاب أمل الباشا في سياسة التنظيمات وتقليد الغرب فتوجه مثل الكثيرين غيره إلى الفكر الإسلامي لاستلهام وسائل إصلاح الدولة العثمانية ولم شمل المسلمين "للوقوف صفاً واحداً أمام غطرسة العالم الغربي وعمله الدءوب في استعمار البلاد الإسلامية ونهب خيراتها والتدخل في شئونها"[180]، وهو ما أشار إليه المؤرخان شو عندما قالا إن السلطان عبد الحميد تبنى فكرة الجامعة الإسلامية لمواجهة الإمبريالية الغربية والحركات القومية التي هددت دولته، بل إنهما يؤكدان وجود وانتشار الفكرة الجامعة في الفترة التي سبقت عهد السلطان عبد الحميد، إذ كانت ردة فعل على اضطهاد المسلمين في القرم والبلقان والهند والجزائر والذي قورن بالتسامح الذي يعامل به غير المسلمين في الإمبراطوريات الإسلامية، كما كانت ردة فعل على نتائج سياسة التنظيمات التي تخلت عن المثل الإسلامية وجلبت الأزمة المالية للدولة العثمانية واستغلتها أوروبا لتدمير الصناعات التقليدية وجعل العثمانيين يعتمدون على القروض مرتفعة الفوائد، ثم جاء احتلال فرنسا لتونس واحتلال بريطانيا لمصر ليؤكدا النفور من الغرب، ثم أتى الاحتجاج الصاخب من قبل ساسة وصحافة أوروبا على عمليات القتل المحدودة التي طالت المسيحيين في الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي غض فيه الغرب النظر عن المذابح واسعة النطاق التي وقعت للمسلمين في البلقان وآسيا الوسطى فيما بدا أنه بعث لتعصب القرون الوسطى، فكان كل ما سبق هو ما أدى إلى انتشار فكرة الجامعة الإسلامية بين المسلمين في رأي هذين المؤرخين[181]، وقد عمل السلطان عبد الحميد على جمع المسلمين تحت راية الخلافة وربط قلوبهم جميعا باسطنبول لعلهم يتمكنون من صد الهجمة الاستعمارية التي كانت في ذروتها إبان عهده ولم يستثن أحداً من المنتمين للإسلام من دعوته مهما كان مذهبه أو قوميته أو موقعه الجغرافي، وإذا كان الأعداء قد تغلبوا على قوة المسلمين المادية فإن قوتهم

---

(180) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، دار الجيل، بيروت، 2005، ج5ص528.

(181) Shaw & Shaw, pp.259-260.

المعنوية ستبقى صامدة في رأيه ولا أمل لهم إلا بالوحدة التي ستجعل المحتلين تحت النفوذ الإسلامي خوفاً من إعلان الجهاد ضدهم[182]، وقد تجاوبت مع دعوة السلطان طوائف وقوميات من المستحيل أن نرى لها مرجعية واحدة اليوم في الزمن الأمريكي كما كانت الخلافة الإسلامية مرجعيتها جميعاً فيما مضى.

■ السلطان عبد الحميد والشيعة والأباضية والدروز

وقد صار العهد الحميدي تطوراً ملحوظاً عن الماضي فيما يتعلق بالعلاقة بين أهل السنة والشيعة حين حاول إزالة الاحتقان الذي رسبته قرون من سوء التفاهم والعداوة، وقد بدأت بوادر هذا التقارب في دعم الدولة انتشار القيم الإسلامية مهما كانت سنية أو شيعية بين أبناء العشائر في جنوب العراق لحثهم على الاستقرار والزراعة كما وظفت الدولة السلطة المعنوية لعلماء النجف وكربلاء والسادة لمساعدتها على تحقيق هذا الهدف وكف أيدي العشائر عن الغزو والنهب والإغارة وحثها على الالتزام بأحكام الشريعة، ومدت السلطة العثمانية يد العون كذلك لعلماء الشيعة في تصديهم للحركة البابية في منتصف القرن التاسع عشر[183]، ثم فتح السلطان عبد الحميد للشيعة أبواباً كانت مغلقة مثل حرية التعبير والنشر والدعوة وإحياء المناسبات حتى في عاصمة الخلافة حيث أراد اتخاذ الطائفة الشيعية فيها "واجهة للوحدة الإسلامية في السلطنة" كما تقول الدكتورة صابرينا ميرفان[184]، وهو توجه بدأ قبله ولكنه تعزز مع اتخاذ الجامعة الإسلامية سياسة رسمية، كما غض النظر عن تشيع كثير من أبناء جنوب العراق ولم

---

(182) السلطان عبد الحميد الثاني، ص175.

(183) بشير موسى نافع، العراق: سياقات الوحدة والانقسام، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص100-101 و164-165.

(184) صابرينا ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي: علماء جبل عامل وأدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان، دار النهار، بيروت، 2003، ترجمة: هيثم الأمين، ص292.

يعد ذلك توجهاً معادياً للخلافة مما أثار حفيظة بعض المتشددين من أبناء السنة في هذا الشأن، ولكنه فضل الرد على ذلك ببناء المدارس وتأهيل الدعاة وفي ذلك يقول الأستاذ بشير موسى نافع إن "التوجه الرئيس للدولة العثمانية في عصر السلطان عبد الحميد (1876-1909) كان توجهاً وحدوياً إسلامياً، وتحت جناح الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والحاجة لمواجهة التحديات الغربية للإسلام وأهله، مضى سنة العراق وشيعته نحو أفق جديد لعلاقاتهم"[185]، وقد امتد أثر الجامعة الإسلامية إلى مراجع الشيعة في إيران وهو أمر لم يسر السفير البريطاني*، فكتب تقارير خاصة ومفصلة عن تأثير سياسة السلطان على الأوساط الإيرانية ولاحظ بلهجة لا تخلو من الخبث البريطاني المعروف "أن الكراهية والغيرة القديمتين بين المحمديين السنة والشيعة قد تضاءلت كثيراً في الوقت الحاضر رغم أنها لم تصبح بعد من مخلفات الماضي، وهذا الوضع الجديد يعزى إلى أعمال السلطان الذي يقوم سفيره في طهران بالاحتفاظ بعلاقة وثيقة بقادة الاتجاه الديني، كما يقوم السلطان نفسه بإرسال هدايا إلى كبار العلماء الإيرانيين ويقال بأن واحداً من أبرزهم عميل سياسي سري له.... وقد فوجئت لسماع الثناء على السلطان الذي كان إلى فترة قريبة يعد مستحقاً للعنات بصفته خليفة عمر،

---

(185) بشير موسى نافع، ص98و104-105. وأيضا:
- عمر فاروق يلماز، ص119-121. وأيضا:
- الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مكتبة الصدر، قم، 2004، ج3ص101-102.

(*) يبدو أن اتفاق المسلمين كان دائما لا يسر الإنجليز فيتدخلون بوقاحة للإفساد بينهم، وذلك كما حدث في القصة التي رواها الدكتور علي الوردي (ج3ص109-111) عن الفتنة التي كادت أن تندلع في سامراء بين الشيعة والسنة سنة 1893 لولا حكمة المرجعية الممثلة بالميرزا حسن الشيرازي (صاحب فتوى التنباك الشهيرة) وحكومة الخلافة الإسلامية، وقامت فيها الدبلوماسية البريطانية بدور مشبوه في التحريض الذي لم يلق استجابة عند الميرزا الذي قال للقنصل البريطاني: "نحن مسلمون فلا حاجة لتدخلكم بيننا" فتجاوبت الحكومة مع هذا الموقف وشكرت المرجعية على جوابها وتدخلت لإصلاح ذات البين بشخصية والي بغداد بنفسه.

ولا بد أن هذا الثناء ليس مخلصاً جداً"[186](!!) كما قام مجموعة من العلماء بدعم اقتراح حركة الجامعة الإسلامية بأن يكون السلطان عبد الحميد على رأس العالم الإسلامي، ولأول مرة منذ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، يخاطب علماء الشيعة طوعاً خليفة سنياً بلقب أمير المؤمنين[187]، طالبين إليه "التدخل بصفته خليفة للمسلمين في مواجهة الشاه وحلفائه الروس، وقد وقعت هذه البرقية بعلماء الفرقة الجعفرية"[188]،وخلافا لاستنتاج الدكتورة ميرفان، فإن ذلك لم يكن ليحدث لمجرد تطبيق الدستور في الدولة العثمانية، فهناك دول غربية كثيرة لديها دساتير أعرق من الدستور العثماني كان يمكن الاستنجاد بها كما حدث في زمننا، ولو كانت توجه السلطان عبد الحميد كتوجه جده السلطان سليم الأول مثلاً تجاه الشيعة لما تمت هذه الخطوة الجريئة، كما أن أحداثاً أخرى أكدت وجود هذا التوجه الوحدوي وذلك عندما بدأ الغزو الإيطالي لليبيا سنة 1911 "فاجتاحت بغداد عاصفة من الغضب وحالة غير مسبوقة من التضامن العلمائي والشعبي السني والشيعي وأصدر علماء السنة والشيعة بما في ذلك كبار علماء النجف فتاوى الجهاد وضرورة بذل النفس والنفيس لنصرة الدولة... كما نظم سنة بغداد وشيعتها مسيرات مشتركة"، ولما قامت الحرب الكبرى سنة 1914 اتبعت جمعية الاتحاد والترقي سياسة السلطان عبد الحميد في التضامن الإسلامي فأعلن علماء العراق السنة والشيعة الجهاد لنصرة الخلافة العثمانية وقاد المراجع وكبار العلماء قوافل المجاهدين[189]، وذلك خلافاً للحجاز السني الذي أعلن الثورة على العثمانيين (1916)، وأفادت تقارير ضباط الاستخبارات العسكرية البريطانية "أن الثورة التي نشبت في الحجاز لم يكن لها أي وقع في نفوس القبائل

(186) Gokhan Cetinsaya, Ottoman Administration of Iraq, 1890-1908, Routledge, New York, 2006, p. 118.

(187) نفس المرجع، ص118 و122.

(188) صابرينا ميرفان، ص163.

(189) بشير موسى نافع، ص113-116.

العراقية التي كانت في معظمها من الشيعة"[190]، وكانت القبائل "تقدم العون للأتراك وتشترك معهم في القتال"[191].

ويمكننا أن نتعرف على نبض الحياة اليومية في الشارع الشيعي من شعر السيد جعفر الحلي (1861-1898) شاعر أهل البيت والعراق في زمنه والذي نعثر في ديوانه "سحر بابل وسجع البلابل" الذي حققه مرجع الشيعة الأكبر في زمنه آية الله الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء على قصائد عديدة في مدح السلطان عبد الحميد بصفات بعضها ذات دلالة مميزة في عقائد الشيعة مثل "إمام العصر" و"خليفة عصرنا" و"حامي الدين" و"حارس الإسلام" و"من لك بيعة في عنق كل موحد"، ويذكر في هذه القصائد إنجازات السلطان كالانتصار على اليونان الذي هو انتصار الإسلام، بالإضافة إلى رعاية النجف الأشرف، ويحتفي الحلي بذلك وهو من كان مديحه "لا يعرف الخضوع"[192] مما يدل على ما لا يمكن أن نراه اليوم من التواصل الاجتماعي الذي كان قائماً بين طوائف المسلمين دون تشنج أو أسوار عالية كالتي عرفها الزمن الأمريكي، وكل ما سبق مما يلفت الانتباه في ظل العصبيات الطائفية التي نعيشها اليوم في المكان نفسه (العراق)، كما حاول السلطان عبد الحميد التقارب مع إيران لتفويت الفرصة على بريطانيا وروسيا اللتين تطمعان في أراضي الدولة العثمانية وإيران معا، وقد أسف في مذكراته السياسية لعدم قيام تعاون عثماني-إيراني بالمستوى المطلوب مؤكداً وجوب "مضاعفة الجهود وبذل التضحيات لجعل ذلك الأمر المنشود حقيقة ملموسة" لأن جوهر الإسلام واحد، مثنياً على جهود السيد جمال الدين الأفغاني في هذا المجال[193] وذلك قبل أن يكتشف ارتباطاته البريطانية

---

(190) عبد الله فهد النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، 1990، ص105.

(191) نفس المرجع، ص96.

(192) السيد جعفر الحلي النجفي، سحر بابل وسجع البلابل، دار الأضواء، بيروت، 1988، تحقيق: الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، ص11، 80، 105، 185، 246، 275، 303.

(193) السلطان عبد الحميد الثاني، ص175-176.

بواسطة ويلفرد بلنت، بل إن دعوته لم تستثن حتى الدروز، ويحكي الأمير شكيب أرسلان أنه عندما كان جماعة من مشايخ دروز حوران في اسطنبول أمر السلطان بأن يُصلوا الجمعة خلفه في جامع يلدز[194].

كما اتصلت الخلافة بزعماء عُمان الأباضيين لإبعاد النفوذ الإنجليزي عن المنطقة وقد توثقت هذه الاتصالات بعد احتلال مصر سنة 1882 كما جاء في ندوة العلاقات العمانية العثمانية المنعقدة في اسطنبول في أكتوبر 2012، وكان عضو مجلس المبعوثان فيما بعد سليمان باشا الباروني أبرز أعلام الأباضية من رجال الجامعة الإسلامية.

■ السلطان عبد الحميد والقوميات المختلفة

أما ما قدمه السلطان لدعم دعوته بين قوميات مختلفة من المسلمين، فهو لم يكتف بمطالبتهم بالالتفاف حول الخلافة بل قام بجهود أوجدت أرضية مادية صالحة لانتشار فكرته كما سيأتي، وعلى الصعيد السياسي قاومت الخلافة في زمن السلطان مشاريع التفتيت الغربية بفكرته الإسلامية التي استهدفت التصدي للعدوان الغربي على المسلمين ولهذا أصبحت غولاً مرعباً لأوروبا بتعبير بعض المؤرخين[195]، ولم ينكر حتى الزعيم الشيوعي ومؤسس الاتحاد السوفييتي فلاديمير لينين الطابع التحرري المضاد للإمبريالية الغربية في فكرة الجامعة الإسلامية التي تحاول "توحيد الحركة التحررية ضد الإمبريالية الأوروبية والأمريكية بتثبيت مواقع الخانات والإقطاعيين والشيوخ الدينيين ومن شابههم"[196]، وقد نتج عن تبني هذه الفكرة أن ظلت الهوية

---

(194) الدكتور أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، دار الجيل، بيروت، 1978، ص21.

(195) شاخت وبوزورث (تحرير)، تراث الإسلام (القسم الأول)، سلسلة عالم المعرفة (8)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1978، ترجمة: الدكتور محمد زهير السمهوري، ص85 (دراسة: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية لمكسيم رودنسون).

(196) نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1999، ترجمة: د.

الجامعة هي التي تلم شعث عناصر الدولة المختلفة ولم تظهر الانقسامات القومية إلا بعد خلع السلطان ومجيء القوميين الاتحاديين إلى الحكم 1908-1909، وقد دعم السلطان هذه الفكرة بمشاريع حيوية كسكة حديد الحجاز التي بنيت بأموال المسلمين دون اللجوء إلى الديون الأجنبية وعدّتها بريطانيا مناهضة لمصالحها فعملت على تعطيلها ثم تدميرها فيما بعد ومازلنا عاجزين عن إعادة تشغيلها كما كانت، وبث الدعاة والمبعوثين والمطبوعات في ديار المسلمين لتشجيعهم على الالتفاف حول الخلافة، وقاوم مشاريع الاستيطان الغربية إضافة للاستيطان الصهيوني الذي وعد بتسوية ديون الدولة وهو عرض شديد الإغراء لدولة غارقة في الديون، ورفضت الدولة إلى جانبه مشاريع استيطان فرنسية وبريطانية وأمريكية بل حتى من ألمانيا حليفة العثمانيين التي لم تتمكن من تنفيذ استيطانها لأن الدولة العثمانية فضلت أن توقف الألمان "عند حدهم" وإفهامهم أن عليهم العدول عن فكرة إنشاء مستعمرات في بقاع شتى من الأرض والاكتفاء بمد نفوذهم إلى خليج إيران[197]، لكي تظل الأراضي العثمانية الفارغة مخزوناً للمسلمين المضطهدين في أوروبا وروسيا كالشركس والشيشان والبشناق ومسلمي اليونان وألبانيا وبلغاريا، وظلت الخلافة لا تعترف بالتغيرات السياسية التي صنعها الاحتلال الأوروبي حتى آخر أيامها، ورغم رمزية هذا الإنجاز في مواجهة الآلة العسكرية الاستعمارية فإن الدول الغربية أصرت على انتزاع تخلي تركيا الكمالية عن السيادة العثمانية على ما عدا الأناضول في اتفاقية لوزان (1923) وذلك ليصفو لها جو احتلال هذه البلاد العربية قانونياً[198]، وهو ما حققه لها كمال أتاتورك بكل سهولة واشترى به استقلالاً موهوماً لتركيا ليربطها حقيقة بذيل أوروبا وهو وضع رفضته الدولة العثمانية في أشد ساعات تراجعها وقامت في النهاية بدخول الحرب الكبرى الأولى للوقوف

عماد حاتم، ج1 (من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين) ص347 وج2 (من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969) ص121.

(197) السلطان عبد الحميد الثاني، ص130 و137.

(198) دكتور حسن صبري الخولي، ج1ص426.

ثانية على مستوى بقية الدول الكبرى، وقد كشف الأستاذ أحمد الشقيري رحمه الله عن بطلان التخلي التركي عن الأملاك العثمانية للدول الاستعمارية لأن الجمهورية التركية كيان مختلف عن الدولة العثمانية ولا تؤلف إلا جزءاً منها ولا يحق لها التصرف في كل أملاكها أوالحلول محلها[199].

أولاً: السلطان عبد الحميد والأكراد

كانت بلاد الأكراد في بداية عهد السلطان تموج وتغلي بالثورة على الحكم العثماني، كثورة الشيخ عبيد الله سنة 1879م وثورته الكبرى في السنة التالية التي كان ينوي بها الانفصال عن الدولة وطلب دعم بريطانيا والدول الكبرى لذلك، إلا أن معارضة الزعامات الكردية لهذا المشروع وسياسة اللين التي اتبعتها الدولة تجاهه بالإضافة إلى قيام السلطان بتأسيس "الأفواج الحميدية" من الأكراد سنة 1890م لحمايتهم من الاعتداءات الأرمنية ومعارضته الشديدة لتأسيس دولة أرمنية تهيمن عليها بريطانيا في شرق الأناضول رغم الجهود المتواصلة التي بذلها الإنجليز في هذا المضمار بعد مؤتمر برلين (1878) لفرض إنشاء محمية أرمنية في الدولة العثمانية لتكون مركزاً للنفوذ البريطاني الذي حاول مع أوروبا وروسيا الانتقام من العثمانيين باستخدام بعض الأرمن أدوات لمشروع الهيمنة الغربية والروسية ثم تخلى عنهم بعد أن بذر الخلاف الدموي بينهم وبين المسلمين وقطع حياة طويلة مستقرة استمرت لقرون بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى استجابة الأكراد لوفود العلماء الذين أرسلهم السلطان وحدوث تحول جذري في مشاعرهم تجاه الدولة وقبولهم بالتالي لسلطتها، وبذلك "غابت عن ساحة كردستان العثمانية أية ثورة كردية ذات أثر" كما يقول الدكتور عبد الرءوف سنو[200]، وقد ظلت ذكرى السلطان حية حتى بعد عزله عن السلطة ثم بعد

---

(199) أحمد الشقيري، المجلد الخامس (كلمات وخطب/ 1) ص4034 (قضية قبرص 2ديسمبر 1958).

(200) د. عبد الرءوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877-1881، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص128.

وفاته وذلك حين أعلن الشيخ سعيد ثورته في كردستان على الحكم الكمالي سنة 1925 منصباً أحد أبناء السلطان عبد الحميد ملكاً على الأكراد[201]، وهو مما يلفت النظر في ضوء التوتر القومي الذي أوجده الحكم الجمهوري في الأناضول ومما يلقي ضوءاً على طريقة حل المشكلة التي ما زالت قائمة إلى اليوم في تركيا المعاصرة.

وليس من الصحيح أن الجامعة الإسلامية هي التي حرمت الأكراد من قيام دولة خاصة بهم كما تذهب لهذا بعض الآراء[202]، ذلك أن الدولة العثمانية كانت دولة لكل المسلمين ولا يصح أن توصف حتى بأنها دولة تركية، فلم يكن في عهدها دولة لأية قومية من المسلمين وكانت هي دولة جامعة لهم، فلما أسقطت وقضي عليها كان الاستعمار الغربي الذي سيطر على بلادنا هو الذي قسمها وفقاً لمصالحه وتوازن القوى بين أركانه دون أي اهتمام لرغبات السكان الأصليين، فالعرب مثلاً طالبوا بدولة واحدة فمنحهم الكرم الاستعماري أكثر من عشرين دولة، في الوقت الذي قمع الحكم الكمالي-الذي قطع كل صلاته بالجامعة الإسلامية وتحالف مع الغرب- الأكراد قمعاً دموياً كما قمع الغرب رغبتهم في الدولة وقسم بلادهم بين الدول العربية وتركيا وإيران، بل إن الأرمن الذين طالما أثارهم الغرب للمتاجرة بهم وبقضيتهم تخلى عنهم في نهاية المطاف ولم يمنحهم الدولة حتى قام البلاشفة أعداء الأوروبيين والأمريكيين بمنحهم دولة خاصة ضمن الاتحاد السوفييتي، والخلاصة أن المصالح الاستعمارية هي التي رسمت ملامح المنطقة في النهاية وليس سياسة الجامعة الإسلامية.

---

(201) ديفيد مكدول، تاريخ الأكراد الحديث، دار الفارابي، بيروت، 2004، ترجمة: راج آل محمد، ص305.

(202) د. عبد الرءوف سنو، ص128و135.

ثانياً: السلطان عبد الحميد والقوميات التي ابتليت بالاحتلال الأجنبي

كان السلطان يفتح أراضي بلاده للمسلمين الذين احتلت بلادهم وكانت فيما سبق تابعة للدولة العثمانية، ومن أمثلة ذلك إسكانه لكثير من مسلمي القوقاز في شرق الأردن بعد اجتياح الروس لبلادهم في حرب سنة 1877م، كما أسكن مسلمي كريت بعد طردهم منها بعد الحرب مع اليونان سنة 1897م في أراضي الدولة وخاصة في حي المهاجرين في دمشق، بل إن العاصمة اسطنبول نفسها عجت بأكثر من مئتي ألف من المهاجرين الهاربين من البلقان أثناء الحرب مع روسيا وقدمت الدولة لهم كثيراً من المساعدات والتسهيلات رغم ظروفها الاقتصادية الصعبة آنذاك.

ويقول المؤرخون إن بداية الهجرة من القوقاز والبلقان كانت قبل الحرب العثمانية الروسية، وربما عاد التاريخ بها إلى خمسينيات القرن التاسع عشر، ولكن النزوح وصل قمته بعد هذه الحرب فوزعت الدولة اللاجئين على أنحاء مختلفة منها أرجاء الأناضول وبلاد الشام، ويقول المؤرخ نورمان لويس إن عملية اللجوء استمرت بعد ذلك لأن أهل القوقاز رفضوا التجنيد في الجيش الروسي ودفع الضرائب للحكومة وأنفوا من الحكم القيصري، وقد رحبت الدولة العثمانية بهم بصفتهم جنوداً أو مستوطنين جدداً "واهتم السلطان عبد الحميد شخصياً بأمرهم وأعطيت التعليمات لموظفي الحكومة في اسطنبول والولايات، وبخاصة بعد سنة 1887، لعمل كل ما يمكن للتقليل من المشاكل المصاحبة لتحرك المهاجرين واستقرارهم"، ووزعت عليهم الأموال ومساعدات أخرى بالإضافة إلى الإعفاء من الضرائب والتجنيد كما تم منحهم أراض للاستقرار والزراعة فكانوا أول من أعاد الحياة المستقرة لنواح في شرق الأردن كعمّان مثلاً واستفادت الدولة العثمانية منهم في عملية إنشاء سكة حديد الحجاز وقامت مستوطناتهم بحراسة هذا الخط الذي أنعش الحياة على جانبيه، وقد لاحظت الدبلوماسية البريطانية غيرترود بيل سنة 1902 أن محور سلطة السلطان في منطقة شرق الأردن موجود في النمو السريع والازدهار غير المسبوق للمستوطنات الشركسية التي تلقت العناية والأراضي من الحكومة فجعلت

البرية تزهر كالورد أينما حلت، وأنه قبل عشرين سنة لم تكن هذه المستوطنات قد وجدت بعد، وقبل خمسة عشر عاماً كانت منازلها صغيرة والآن (1902) هي قرى كبيرة ومزدهرة[203].

ومع أن صداماً وقع بين المستوطنين الجدد وعشائر البلاد الأصلية تذكر بتجربة الاستيطان الأمريكي في مواجهة عشائر السكان الأصليين في نفس الفترة في سهول أمريكا، فإن نتائج التجربتين اختلفت جذرياً، ففي التجربة العثمانية أدت المواجهة بين المستوطن والبدوي إلى أن يتغلب البدوي على خوفه من حياة الاستقرار بشكل تدريجي رغم الصدام الأولي ويكون معه فسحة من الوقت ليقوم بذلك فتستوعبه الحياة الجديدة[204] التي لا تستهدف القضاء عليه وإفنائه وسلب ممتلكاته بل إلى تحويله إلى حياة منتجة، أما في الولايات المتحدة فقد أدت المواجهة إلى تدمير العشائر الهندية وإفنائها أعداداً كبيرة منها وسلب ممتلكاتها والتضييق عليها وحصرها في أراض قاحلة لا تصلح للزراعة وإهمال إرشادها وعدم تزويدها بمتطلبات حياة الاستقرار مما يفشل التجربة برمتها حتى لأخلص الراغبين فيها وذلك لأن الهدف من المواجهة كان منذ البداية هو الحصول على أرض الهنود كما صرح بذلك جورج واشنطن أول رئيس أمريكي، وليس جلب الحضارة لهم .

كما قامت الدولة العثمانية بالقضاء على ظاهرة الرق المستخدم في الزراعة والذي كان منتشراً بين المهاجرين القوقازيين ويعود بجذوره إلى عادات اجتماعية وليس إلى الشريعة الإسلامية، ورغم مقاومة ملاك العبيد إجراءات الدولة مقاومة وصلت درجة العنف فإن هذه الإجراءات تمكنت من القضاء بشكل تدريجي على الرق وفقاً لقرار المكاتبة الذي صدر سنة 1867 لمساعدة العبيد على نيل حريتهم بتقديم تعويضات لملاكهم من أراضي الدولة التي يمكنهم الاستمرار في العمل فيها كالفلاحين الأحرار وبذلك

(203) Norman N. Lewis, Nomads and Settlers in Syria and Jordan, 1800-1980, Cambridge University Press, 2009, pp. 96-114.

(204) نفس المرجع، ص106.

يرضى الملاك والعبيد أيضاً وتعمر الأرض، وقد حرصت الدولة العثمانية على وضع حد للتدخل البريطاني في هذا الشأن وإبقاء هذه الإجراءات بعيداً عن متابعة الدبلوماسيين البريطانيين[205] المتطفلين الذين كانوا يتخذون من الرق ذريعة لبسط هيمنتهم الامبراطورية على الآخرين والتدخل في شئونهم بل واستعمار بلادهم لنشر "الحرية"[206].

ثالثاً: السلطان عبد الحميد والعرب

للحديث عن مكانة العرب في الدولة العثمانية يجب أن نتذكر أن عصرها تميز بغلبة الهوية الدينية على الهوية القومية،فلم يكن هناك فاصل بين المسلم العربي والمسلم التركي،ومع ذلك فإن من يتحدثون العربية في الدولة كانوا يوصفون بأنهم "قوم نجيب" لصلتهم بلغة القرآن، وكانوا يحظون بنظرة إكرام لم تحصل عليها بقية الولايات العثمانية، وفي هذا يقول المؤرخ زين نور الدين زين: "ليس صواباً القول إن العرب المسلمين ظلوا طوال أربعمائة سنة أمة مستضعفة تحت نير الأتراك، أو إن البلدان العربية نهبت خيراتها وخيم عليها الفقر من جراء الاحتلال التركي، كذلك ليس صواباً القول إن العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم أن يتقلدوا سلاحاً أو ينضووا تحت العلم العثماني للخدمة العسكرية... وقد شغل عدد كبير من العرب وظائف عالية حساسة في الامبراطورية العثمانية"، وفي هذا المجال يشهد رئيس الوزراء العراقي السابق نوري السعيد الذي عاصر العهد العثماني قائلاً: "كان العرب كمسلمين يعتبرون شركاء للأتراك،كانوا يشتركون معهم في الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصري، وكانت الوظائف العليا في الدولة، سواء العسكرية أم المدنية، مفتوحة للعرب، وقد كان للعرب ممثلون في مجلسي البرلمان العثماني، أصبح كثير منهم رؤساء وزارة، ومنهم من كان شيخ الإسلام، ومن أصبح قائداً عسكرياً أو والياً، فكنت ترى الموظفين

(205) Ehud R. Toledano, Slavery and Abolition in the Ottoman Middle East, University of Washington Press, Seattle, 1998, pp. 81-111.

(206) نيكولاي إيليتش بروشين، ص292-318.

العرب في جميع دوائر الدولة"[207]،وفي رد على من يصور العلاقة العربية التركية بالتوتر في ظل الدولة العثمانية، بل يتخيل البعض نضالاً عربياً مستمراً، لم ينقطع، مدة قرون ضد "الاستعمار العثماني"، يقول زين في نقض ذلك: "وقد وجد العرب أنفسهم جزءاً من أعظم وأقوى امبراطورية إسلامية عرفت منذ ظهور الإسلام... (و) إن كون الامبراطورية العثمانية امبراطورية "تركية" لم يكن في نظر العرب المسلمين حتى مطلع القرن العشرين... أمراً ذا بال، مادامت هذه الامبراطورية التي يعيشون في كنفها امبراطورية إسلامية"[208]، "إن العربي المسلم عندما كان يتكلم عن الامبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها امبراطوريته،لأنها كانت امبراطورية إسلامية،والواقع أن المسلم لم يكن يشعر أنه غريب في وطن غريب عنه"[209]،وأما فكرة الاستقلال التي صورها البعض هدفاً لنضال القرون الطويلة فلم يشترك فيها غالبية العرب المسلمين إلى زمن السلطان عبد الحميد وكان الانفصال فكرة حديثة لأقلية من المثقفين "لم تكن تمثل إطلاقاً رأي الغالبية الساحقة من العرب المسلمين الذين كانوا ينظرون إلى الامبراطورية العثمانية على أنها امبراطورية إسلامية"[210]، كما أن حلم الوحدة العربية "لم يتعد كونه مجرد عقيدة هشة ومتخلفة لطالما بقيت الإمبراطورية العثمانية قيد الوجود، وقد كانت الغالبية العظمى للعرب تسلّم -رغم كثرة شكاويهم ضد الأتراك- على أنه يجب أن تبقى الإمبراطورية متزعمة للعالم الإسلامي" (بيتر مانسفيلد، ص 246)، وحتى بعد اندلاع الحرب الكبرى (1914) ظلت "غالبية العرب الساحقة على ولائها للخلافة وللسلطان العثماني"[211]،ونجد في آثار الأستاذ أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي مثّل دولاً عربية في الهيئات والمحافل

(207) زين نور الدين زين، 1986، ص26-27.
(208) نفس المرجع، ص25.
(209) نفس المرجع، ص60.
(210) نفس المرجع، ص54.
(211) نفس المرجع، ص116.

الدولية تحسراً كبيراً على العهد العثماني ومن ذلك قوله: "كان العرب هم العنصر النجيب كما كان يسميهم الأتراك، وفي مدينتي عكا كان الأطفال الأتراك ..يعرفون أنفسهم بأنهم عثمانيون، ولم أسمع أحدا يقول إنه تركي"[212]، وكانت القاهرة هي المدينة الثانية في الدولة، فكانت تلي العاصمة اسطنبول مباشرة في الأهمية تليها مدينة حلب العربية أيضا[213]،، فهل حلمنا يوماً أن تكون القاهرة هي المدينة التي تلي لندن في الأهمية في الامبراطورية الاستعمارية البريطانية مثلاً؟ أو أن تكون حلب بعد باريس في امبراطورية فرنسا؟ وهل كان نصيبنا من الغرب غير الاستغلال في حين شاركنا العثمانيين في السراء والضراء بحكم أخوة الدين والحتمية الجغرافية، وكما مات العرب في حروب الدولة فقد مات الأتراك دفاعاً عن العرب، ومن أمثلة ذلك استشهاد 10 آلاف تركي في معركة خاسرة عندما هجمت فرنسا على الجزائر سنة 1830[214]، وقد رفض السلطان عبد الحميد بيع فلسطين لهرتزل تقديراً لتضحيات جنوده السوريين والفلسطينيين في معارك الدفاع عن دولتهم جميعا، فهل نرى مثل هذا الاهتمام والتقدير لتضحيات الرعية عند زعامات التجزئة؟

وقد احتل العرب مكانة مميزة في عهد السلطان عبد الحميد، فهم أهل الرسالة وأصحاب لغة القرآن، كما أنهم أحد عنصري الدولة الأساسيين، ولهذا أولاهم السلطان اهتمامه ومنحهم ثقته، وتجلى ذلك في عدة مظاهر منها:

1 - **الإكثار منهم في الوظائف الرسمية:** لم يكتف السلطان بتولية بعضهم بل عمد إلى الإكثار منهم وأحاط نفسه بهم، وفي ذلك يقول المؤرخ الأستاذ محمد جميل بيهم إن السلطان عبد الحميد لما استقر رأيه على الاستعانة بالخلافة للحصول على القوة المنشودة للحفاظ على السلطنة في مواجهة المشاكل والتحديات دعا إلى الجامعة الإسلامية "وعمل على أن

---

(212) أحمد الشقيري، المجلد الأول (المذكرات/ 1) ص720 (حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء).

(213) إدهم إلدم ودانيال غوفمان وبروس ماسترز، ص67.

(214) لوتسكي، ص188.

تكون العصبية العربية سياجاً لسلطنته، فقرب إليه الدينيين والمدنيين من عرب المشرق والمغرب وأسند إليهم كبار المناصب في العاصمة كما بذل لهم العطايا في الولايات"[215]،حتى قيل: إنه إذا كان الباب العالي والوزارة في يد الأتراك فإن القصر أصبح بيد العرب، وهو قول يراه مؤلف كتاب يقظة العرب جورج أنطونيوس قولاً محقاً رغم أنه لا يكن المودة للدولة العثمانية ولا للسلطان عبد الحميد، ومن أشهر رجال العرب في ذلك العهد أحمد عزت باشا العابد الكاتب الثاني للسلطان، وأبو الهدى الصيادي الرفاعي، وشفيق بك المؤيد، وشفيق بك الكوراني، وشكري باشا الأيوبي، وولدا الأمير عبد القادر الجزائري، محمد باشا ومحي الدين باشا، بالإضافة إلى آخرين تطول القائمة بذكرهم، كما اتخذ السلطان من علماء العرب وصوفييهم دعاة للجامعة الإسلامية مثل الشيخ محمد ظافر والشيخ أحمد القيصرلي إضافة لأبي الهدى صاحب ثقته سابق الذكر ولم يقتصر اهتمامه على المسلمين من العرب بل تعداه إلى المسيحيين منهم، وقد بلغ بعضهم رتبة الوزارة كسليم باشا ملحمة الماروني اللبناني الذي صار وزيراً للتعدين والغابات والزراعة، كما وصل آخرون إلى رتب عالية في الدولة ويمكن مراجعة أسماء بعضهم في كتاب السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود لمحمد مصطفى الهلالي[216]، ويشهد لحال المسيحيين العرب قول بطريرك الموارنة إلياس الحويك بعد خلع السلطان سنة 1909: "لقد عاش لبنان، وعاشت طائفتنا المارونية بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولا نعرف ماذا تخبىء لنا الأيام من بعده"[217]، ولا يُظن أن البطريرك كان ينافق سلطاناً معزولاً.

2 - **مشاريع الإعمار في البلاد العربية:** حصلت بلاد العرب على

(215) محمد جميل بيهم، الوحدة العربية بين المد والجزر 1868-1972، الدار العلمية، بيروت، 1973، ص204.

(216) محمد مصطفى الهلالي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود، دار الفكر، دمشق، 2004، ص111.

(217) دكتور حسان حلاق، 1999، ص321.

نصيب كبير من الجهود العمرانية التي قام بها السلطان، ويقول فيليب مانسل في مقدمته لكتاب بيروت والسلطان إن: "عبد الحميد عمد إلى توفير المال وتركيز الاهتمام على الأقاليم العربية بحيث فضلها على العديد من المناطق التركية"[218]، فبالإضافة إلى المدارس التي نشرها في كافة أرجاء السلطنة كما مر، قام بعمليات نهوض عمراني طال مختلف المناطق العربية مثل مدن الحجاز التي تم فيها مشاريع تجديد وإصلاح وترميم وتوسعة للحرمين الشريفين شملت الكعبة والمطاف ومقام إبراهيم والمسعى والمسجد النبوي ومساجد المدينة الأخرى، كما شملت بناء مستشفى وصيدلية في منى وتسوية الطرق المؤدية إلى جبل ثور، وإنشاء مطبعة في مكة لطباعة الكتب بكافة لغات المسلمين، وربط مكة بجدة والطائف ومعان بخطوط البرق، وتزويد مكة وجدة بمياه العيون النظيفة، وقد استمر العمل لمدة ثلاث سنوات ونصف بثلاثة آلاف وخمسمائة عامل في جدة لتزويدها بمياه عين الوزيرية وتخليصها من الشرب من مياه الحفر المتعفنة ولا ننسى في هذا المجال مشروع سكة حديد الحجاز الذي هدف إلى ربط عاصمة الخلافة بالمدن الحجازية وتيسير الحج على المسلمين، واستمر العمل فيه من 1900 إلى 1908 حتى بلغ المدينة المنورة وبلغ إجمالي كلفته أكثر من أربعة ملايين ليرة جمعت بحماس شديد من المسلمين في كافة أنحاء العالم، وكان يراد لهذا الخط الوصول إلى اليمن مروراً بمكة المكرمة، إلا أن معارضة الشريف حسين وعزل السلطان عبد الحميد حالا دون إتمامه[219].

وقبل بدء العمل في سكة حديد الحجاز،التي وصلت دمشق بالمدينة المنورة، تم تدشين خط سكة حديد بين القدس ويافا في سنة 1892، ثم بين بيروت ودمشق سنة 1895، وبين دمشق وحلب سنة 1903، ونتج عن ذلك ثم عن مد فروع لخط الحجاز في أنحاء الشام وإنشاء خطوط البرق والبريد ازدهار المدن الشامية، ففي مدن فلسطينية مثل القدس وبيت لحم ويافا ازدهرت السياحة وتحسنت الأوضاع الاقتصادية ببناء الفنادق وانتشار

(218) سوسن آغا قصاب وخالد عمر تدمري، ص7.

(219) الدكتور محمد حرب، ص205-224.

صناعات التحف وأعمال التشييد والبناء التي وسعت مدينة القدس خارج حدود الأسوار وأوجدت فرص عمل للأهالي من المدينة والريف على حد سواء، كما أدى إنشاء خط بين درعا وحيفا متفرع من خط الحجاز في 1905 إلى ازدهار الأخيرة التي أصبح ميناؤها مركزاً لتصدير المحاصيل الزراعية إلى أوروبا، وازدهرت محطات سكة الحجاز على طول الخط مثل درعا وعمّان ومعان وتبوك، وفي سبيل مد سلطة الدولة ومقاومة المحاولات البريطانية لمد نفوذ الاحتلال من مصر إلى الشام قام السلطان بفصل قضاء النقب عن غزة وجعل مركزه مدينة جديدة أنشأها في بئر السبع سنة 1900 والتي أخذت تتطور منذ ذلك الوقت ثم ازدادت أهميتها بعد وصول خط الحجاز إليها.

وأما بيروت "فتحولت إلى واجهة عربية للنظر في الإمبراطورية العثمانية، وقد أطلق عليها الإمبراطور غليوم الثاني إسم: الجوهرة في تاج السلطان، وفي سنة 1888 ارتقت إلى مرتبة عاصمة للولاية وتحولت من مدينة تنتمي إلى القرون الوسطى إلى عاصمة إقليمية عصرية، ولأول مرة منذ الإمبراطورية الرومانية أصبحت المرفأ الرئيس على شرق البحر الأبيض المتوسط وارتفع عدد سكانها من حوالي 80 ألف نسمة سنة 1876 إلى نحو 150 ألف نسمة عام 1908، ومع إنشاء الكليات الأمريكية والفرنسية إلى جانب العثمانية فيها، أصبحت بيروت - كما أعلن عن ذلك إسماعيل كمال بك سنة 1892- ينبوعا للثروة والتقدم والتعليم العصري"[220] كما قال المؤرخ مانسل آنف الذكر في مقدمة كتاب بيروت والسلطان الذي صدر سنة 2002 بالتعاون مع بلدية بيروت لتوثيق المشاريع العسكرية والدينية والتعليمية والصحية والترفيهية ومشاريع البنية التحتية التي تمت أثناء العهد الحميدي في المدينة ونقلتها تلك النقلة الواسعة.

وعند الحديث عن إعمار البلاد العربية يمكننا ذكر ما فعله السلطان بأملاكه الخاصة فيها، إذ يذكر الباحث شارل عيساوي نقلاً عن خطط الشام لمحمد كرد علي: أن السلطان كان يملك مليون هكتار فيها نحو120 قرية

---

(220) سوسن آغا قصاب وخالد عمر تدمري، ص7-9.

ومزرعة شرقي حمص وسلمية، ونصف مليون هكتار في أنحاء حلب فيه أكثر من 500 قرية ومزرعة، وسبع قرى في حوران إضافة إلى بيسان وبعض قراها، المهم أنه "كان يوطد الأمن في هذه المملكة الخاصة الواسعة ويعفي الزراع المستأجرين من الجندية ويحميهم من تعدي أرباب الوجاهة ويسلفهم المال بلا ربا حتى عمرت تلك الأنحاء بعد أن كانت منازل للعربان يعيثون فيها فساداً"(221)، وعند حديثه عن الأراضي السنية في العراق يذكر عيساوي أنها كانت ملكاً للسلطان عبد الحميد "بوسائل مشكوك فيها أحياناً، وعلى كل، ما كاد يحصل على هذه الأراضي حتى تولى رعايتها جيداً، وذكراه موضع تقدير كبير في العراق كنموذج للمالك الذي كان أباً لقومه"(222)، ويذكر الدكتور زكريا قورشون إجراءات مماثلة اتخذها السلطان نحو أراض في الإحساء، وذلك بتسجيل مساحات من الأراضي لخزينة المالية مقابل مبالغ معينة ثم نقلها للخزانة الخاصة، ويلمح للانتقادات التي وجهت لهذا الأسلوب، ويعقب قائلاً: "ولكن يبدو أن مراقبة هذه الأراضي كانت عملية غاية في الصعوبة بسبب بعدها، ولذلك اتبع فيها الأسلوب المذكور وأمكن إعمارها لسنوات طويلة"(223).

وهناك مشروع كبير لو تحقق فإنه كان سيعود على الدولة العثمانية وولاياتها العربية بفوائد جمة، وهو بقية مشروع سكة حديد برلين - بغداد الذي عرضه الإمبراطور الألماني غليوم الثاني على السلطان عبد الحميد أثناء الزيارة الثانية التي قام بها الإمبراطور للدولة سنة 1898م، وتحمس السلطان للمشروع الذي كان قد أنجز الجزء الأكبر منه وربط قسمه الأوروبي إسطنبول بأوروبا ثم امتد في قسمه الآسيوي من إسطنبول إلى أنقرة فقونية ولم يتبق إلا مده إلى نهايته في الكويت على ساحل الخليج (خليج البصرة وفقا للتسمية العثمانية)، وقد رأى السلطان في هذا المشروع فرصة للإفادة من التقدم

---

(221) شارل عيساوي، ص421.

(222) نفس المرجع، ص530.

(223) أ. د. زكريا قورشون، العثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثماني 1745-1914، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005، ص236.

العلمي الألماني ونشر الازدهار على طول الطريق الذي ستمر به سكة الحديد بالإضافة إلى مواجهة النفوذ الأجنبي في شرق الدولة ولكن بريطانيا وفرنسا وروسيا وقفت متحدة في مواجهة هذا المشروع وأثارت المشاكل ضده ووضعت العراقيل السياسية والمالية في طريق تحقيقه خشية على مصالحها الاستعمارية، وكانت بريطانيا هي زعيمة المعارضة، وتمكن هذا الحلف من تعطيل المشروع أولاً ثم وقفه نهائياً بقيام الحرب سنة 1914.

وهناك فرق كبير بين مشاريع التنمية العثمانية (مثل سكة حديد الحجاز) ومشاريع التغريب الاستعمارية (مثل قناة السويس) : الدولة العثمانية قدمت أبناءها الأتراك لإنشاء مشروع حيوي في أرض العرب لإفادة كل المسلمين حتى قال محمد كرد علي المعارض لسياسات السلطان عبد الحميد صاحب المشروع: "إن هذا الخط مدين بإنشائه للجنود العثمانية التي بذلت في سبيله الجهود العظيمة بل النفوس الكريمة"[224]، الغرب استعمل مليوناً من أبناء العرب لإنشاء مشروع لأجل مواصلاته الإمبراطورية خلال بلادهم وليس في أراضيه،فمات منهم 125 ألفاً في سبيل المصالح الاستعمارية التي أضرت بالعرب أنفسهم، دمر بعض العرب بمساعدة الغرب المشروع العثماني (1916) المفيد لنا وقاتلوا الدولة العثمانية وانفصلوا عنها ولم يتم إحياء السكة إلى اليوم، استولت بريطانيا على القناة بعد إفلاس الخديو المبهور بأوروبا واحتلت واستنزفت مصر سبعين عاماً ثم شنت عليها حرباً ضروساً للاحتفاظ بالقناة (1956) والتي مازالت تعمل في خدمة المواصلات النفطية للدول الكبرى وتمر سفنهم بها كلما أرادوا العدوان على بلد من بلادنا ولا نستطيع الاعتراض، أي أننا هدمنا هدية قدمت لفائدتنا وحرسنا سلاحاً استخدم لطعن ظهورنا بدلاً من إفادتنا، ولا ننسى أيضاً أن الغرب أقام الكيان الصهيوني في البداية لأسباب تهمه جداً كان منها حراسة قناة السويس[225]، وكان كل ما سببه الصهاينة من دمار في بلادنا نتيجة لهذه "التنمية" الاستعمارية.

---

(224) محمد كرد علي، ج 5 ص184.

(225) أ. د. محمد عيسى صالحية، ص63.

- سحر الهنيدي، ص15-16 و109.

3 - **مقاومة المشاريع الإستعمارية في البلاد العربية**: تميزت فترة حكم السلطان عبد الحميد بشراسة الهجمة الإستعمارية الأوروبية على العالم غير الغربي كله، وقد نال الولايات العربية في الدولة العثمانية نصيب كبير من هذا الهجوم، فقد احتلت فرنسا تونس سنة 1881، وجيبوتي سنة 1888، واحتلت بريطانيا مصر والسودان سنة 1882، وفرضت الحماية على الكويت سنة 1899، وحاولت السيطرة على جنوب البحر الأحمر بإثارة المتاعب للعثمانيين في اليمن سنة 1905، ولما فشلت حاولت السيطرة على شماله بمد نفوذها من مصر إلى العقبة وطابا سنة 1906، وشرعت إيطاليا بمساندة بريطانية في احتلال أريتريا وجنوب الصومال في 1884 - 1885 وأتمت السيطرة على الأولى في سنة 1896 وعلى الثانية في 1910 وإذا كان السلطان قد أُجبر على الاعتراف باقتطاع أجزاء من دولته في أوروبا في معاهدة برلين سنة 1878م بعد هزيمة الدولة أمام روسيا، فإنه تمسك بولاياته العربية ولم يستسلم أمام أية محاولة لاحتلالها، وحاول بكل وسيلة يملكها- سياسية غالباً وعسكرية أحياناً- الدفاع عنها، فنجح حيناً وفشل أحياناً أخرى ولكنه لم يقدم صك اعتراف بالتنازل عن أي منها واحتاج الأمر إسقاط الدولة ومجيء الحكم الكمالي ليتم تسليم البلاد العربية بشكل رسمي ونهائي للاستعمار الأوروبي في معاهدة لوزان سنة 1923، وقد تأسف محمد كرد علي بسبب هذا "الكرم" التركي الذي منح العرب "استقلالهم" وهم على شفير الهاوية الاستعمارية بلا حول ولا طول، ولم يجر ذكر الشام في المعاهدة إلا عند ترتيب الحدود بصورة سرية بين تركيا وفرنسا (خطط الشام، ج3ص181)، وهو ما يدل على التناقضات داخل المدرسة التغريبية والتنافر بين الاتجاهات داخلها فيما يتعلق بمصائر بلادنا حيث يتشبث كل منها بمصالحه الإقليمية الضيقة بعيداً عن التوجهات الوحدوية التي كانت سائدة في العالم العثماني.

ففي المسألة التونسية حاول السلطان في بداية الاحتلال إثارة الخلافات بين دول أوروبا ليحقق جلاء الفرنسيين، ورغم فشله في الحصول على نتيجة مهمة، ورغم محاولات فرنسا المتواصلة للحصول على أي

اعتراف منه أو تصريح رسمي مباشر أو غير مباشر بقبوله احتلالها، فإنه لم يُقدم على تقديم هذا التنازل مطلقاً وظلت النشرة العثمانية الرسمية السنوية "السالنامة" تعد تونس ولاية تابعة للدولة وواقعة تحت الاحتلال.

وفي مسألة مصر والسودان لم تقر الدولة بالاحتلال ولم تتورط في تأييد المشاريع البريطانية التي حاولت جر السلطان لإرسال جيش عثماني لإخماد الثورة العرابية، ورغم اضطراب سياسته في بداية الأمر؛ إذ منح أحمد عرابي الباشوية وأيده ثم أعلن عصيانه في خطوة اختلف الباحثون في تقويمها، فإن هذا التردد كان نابعاً من محاولة درء الاحتلال بأية صورة وفي نفس الوقت رفض إرسال جيشه بالاشتراك مع الجيش البريطاني لإخماد الثورة، وذلك على عكس دولة التجزئة التي كثيراً ما رافقت المستعمرين بل حرضتهم ضد إخوتها وجيرانها وقاتلت إلى جانب المحتلين أحياناً وبالنيابة عنهم أحياناً أخرى وموّلت حروبهم على الأمة وسهلت عبور جيوشهم، ولما وقع الاحتلال لم يستسلم السلطان له، ولهذا ظلت بريطانيا تدّعي من سنة 1882 إلى سنة 1914 أن احتلالها لمصر مؤقت ولم تلغ السيادة العثمانية عليها وأصدرت عشرات الوعود بالجلاء عنها ولكنها لم تف بأي منها، وقد حاول السلطان بكل جهده تعكير صفو الأجواء على الاحتلال و"أنفق أموالاً كثيرة لعمل دعاية مضادة في مصر وفي السودان لمنع النشاط الإنكليزي هناك... ولم يترك شيئاً يستطيع استخدامه ضد بريطانيا العظمى إلا واستخدمه"[226]، كما لجأ إلى مساندة القوى المناهضة للاحتلال وعلى رأسها الزعيم مصطفى كامل باشا حيث استدعاه عدة مرات إلى عاصمة الخلافة وأنعم عليه بالألقاب والأوسمة في إشارة إلى دعمه السياسي له، وكان هذا الزعيم الوطني الكبير من القلائل الذين تفهموا السلطان في حياته، وكان يراه "سيد الحكماء وقدوة الساسة" وأنه "أشد حناناً على مصر من أحب أبنائها وأصدقهم نحوها"[227] وهذه الشهادة من زعيم لا شك في إخلاصه ونزاهته

(226) الدكتور محمد حرب، ص121 نقلا عن كتاب تركيا وإنجلترا لسليمان قوجة باش.
(227) نفس المرجع، ص185-186.

ورجل دخل المعركة مع الاحتلال بكل أهوالها تؤكد لنا أن موقف السلطان الأخير من عرابي لم يكن يعني القبول بسياسة المحتل بل كان محاولة يائسة لدرء الاحتلال، وقد أنشأ السلطان مدينة بئر السبع في صحراء النقب بفلسطين لمواجهة المحاولات البريطانية للتمدد من مصر، كما يجمع المؤرخون على أن احتلال مصر قد غيّر مكانة بريطانيا في الدولة العثمانية عامة وعند السلطان عبد الحميد خاصة والذي نقم على الإنجليز انتزاعهم جزيرة قبرص منه سنة 1878 واحتلالهم مصر سنة 1882، وكانت أهم ولاية عربية ينحسر عنها النفوذ العثماني المباشر بعد انقضاء 366 سنة من فتحها كما يقول الدكتور عبد العزيز الشناوي (ج3ص1434)، وقد أصابه هذا الاحتلال بألم حز في نفسه مدى الحياة وبات معادياً لبريطانيا وكارهاً للإنجليز بعنف كما يقول المؤرخ إرنست رامزور ومتوجساً منهم أكثر من توجسه من الروس أعدائه التقليديين[228]، وأصبحت سياسته توصف بكونها Anti-British أي معادية لبريطانيا التي عزى إليها مشاكله السياسية مع الأقليات[229]، ولم يكن يفوت فرصة للعمل ضد مصالح بريطانيا كما يذكر ذلك المؤرخ جون هاسلب[230].

وأخمدت الدولة العصيان الذي أثاره الإنجليز في اليمن، وقاومت محاولتهم الاستيلاء على العقبة وطابا، فنجحت في الاحتفاظ بالأولى بالقوة، ودخلت معركة سياسية طويلة للاحتفاظ بالثانية ودرء الاحتلال عن سيناء دون نجاح في ذلك، والملاحظ أن غالبية المصريين بزعامة مصطفى كامل باشا وتياره الوطني وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية وأيدوا مطالبها في طابا رغم الادعاءات البريطانية بالحفاظ على حقوق مصر وحدودها الشرقية[231]، لأن أولوية شعوبنا آنذاك كانت هي العمل على صد التدخلات

---

(228) جون هاسلب، السلطان الأحمر عبد الحميد، دار الروائع الجديدة، بيروت، 1974، ترجمة: فيليب عطا الله، ص213.

(229) دكتور حسان حلاق، ص168.

(230) جون هاسلب، ص213.

(231) رءوف عباس، ص215.

الأجنبية، والحفاظ على الولاء لمركز الخلافة الإسلامية التي تعمل لصالح الأمة كلها، ولهذا لم يُخدع أهل مصر بالتبجحات الوطنية للاحتلال البريطاني وذلك لأنهم عرفوا أنه يدافع عن مصالحه ومواصلاته (قناة السويس) وليس عن حقوقهم التي لم يتردد في انتهاكها عندما حل ببلادهم مستعمراً، وقد اختلف الحال زمن التجزئة عندما أصبح الاستعمار يفسد ما بين الإخوة والأشقاء والجيران باستخدام الحرص على الاستقلال والمصالح الوطنية التي كثيراً ما أدت إلى سفك الدماء ودمار البلاد والرجوع إلى حالة الاحتلال، ونظرة تاريخية سريعة على الحروب التي نشأت بتدخل الأجانب بين الدول العربية تكفي لبرهنة هذا الزعم.

أما في مسألة الكويت؛ فإن الدولة العثمانية لم تعترف بفرض الحماية البريطانية عندما علمت بأمر معاهدة 1899 التي عقدت سراً، وحاول السلطان ثني الشيخ مبارك الصباح عن ارتباطه بالإنجليز، واستعمل في سبيل ذلك مختلف وسائل الترغيب والترهيب، ولكن الشيخ كان مصمماً على الاستقلال عن العثمانيين والارتباط بالإنجليز، وتطورت علاقته ببريطانيا من عقد المعاهدة بالسر إلى طلب الحماية البريطانية الدائمة والسافرة على الكويت سنة 1901، إلى استقبال حاكم الهند اللورد كيرزون سنة 1903، إلى قبول وكيل سياسي بريطاني في الكويت سنة 1904، إلى محاولة تغيير علم الكويت العثماني سنة 1905، وأعطى بريطانيا مجموعة من الامتيازات لمنع وصول سكة حديد برلين - بغداد إلى الكويت-رغم الفوائد التي كانت الإمارة ستجنيها من بناء ميناء عالمي فيها-توجت باتفاق سري آخر عقد سنة 1907 لتأكيد معاهدة 1899، ويعلق الأستاذ عبد العزيز الشناوي على علاقة مبارك بالدولة العثمانية وبريطانيا قائلاً: "ومن الصعب القول بأن الشيخ مبارك كان يدفعه شعور قومي بالاستقلال، لأنه حين جاهر برفضه السيادة العثمانية على الكويت، ارتمى في أحضان بريطانيا وعقد معها الاتفاقية المانعة سنة 1899م"[232]، ويقول أيضاً: "لقد كان مبارك في قرارة نفسه

---

(232) أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي، ج3ص1409.

عميلاً مخلصاً لبريطانيا، لصيقاً بها، مطواعاً في تنفيذ أوامرها" (ج3ص1388)، بل إن الباحثة الكويتية الدكتورة سلوى الغانم تروي في كتابها الصادر باللغة الإنجليزية "عهد مبارك الصباح" ؛ استناداً إلى وثائق بريطانية، أن مبارك ذهب إلى أبعد مما سبق حين حاول قبل وفاته سنة 1915 أن "يهب الكويت لبريطانيا" وذلك بتسليم جميع الموارد الكويتية للإنجليز لإدارتها بأنفسهم وخصم كلفة الإدارة لحسابهم وتسليم الباقي له، الأمر الذي أربك المسئولين البريطانيين أنفسهم ووصفته الباحثة المذكورة بأنه "من أغرب ما قدم لمسئول بريطاني خلال قرون من الانهماك البريطاني في الخليج"[233]، ولم ينفذ الاقتراح نتيجة الرفض البريطاني الممزوج بالذهول، ورغم فشل مشروع وصول سكة الحديد إلى الكويت، فإن السلطان رفض الإقرار بالوضع الذي أوجدته بريطانيا في الخليج وظل الأمر بين شد وجذب إلى قيام الحرب الكبرى سنة 1914، ولم يقر السلطان كذلك لفرنسا وبريطانيا وإيطاليا اقتسامهم أريتريا والصومال ولم يتم هذا التنازل إلا بعد انهيار الدولة العثمانية وتوقيع مصطفى كمال معاهدة لوزان مع المحتلين سنة 1923[234].

4 - موقفه من فلسطين والحركة الصهيونية: كان اليهود التقليديون يعتقدون أن عودة ملكهم في فلسطين والذي وردت به النبوءات في الكتب المقدسة وبخاصة أسفار دانيال وأشعيا، سيتم بمعجزة إلهية على يد المسيح المنتظر، وأن الله وحده هو الذي يحدد وقت هذه العودة، وأي تدخل بشري في تحقيق ذلك كفر وهرطقة، أما الكنيستان الأرثوذكسية والكاثوليكية المسيحيتان فكانتا تفسران هذه النبوءات تفسيراً مجازياً، ولما قامت حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر وأخذت بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس ضمن حملتها لجعل الصلة بين الفرد والدين خالية من تدخل رجال الدين، ظهرت إلى الوجود فكرة عودة اليهود الجسمانية إلى

(233) Salwa Al-Ghanim, p. 197.

(234) يلماز أوزتونا، ج2ص865.

فلسطين بصفتها مقدمة لعودة المسيح وتحقيقاً للنبوءات، ثم اتخذت طابعاً علمانياً بوجوب التدخل البشري لتسريع المشيئة الإلهية بذلك.

وظلت هذه الفكرة في حيز الأمنيات والأحلام إلى أن تلقفها الساسة الاستعماريون الأوروبيون بشكل جاد في أواخر القرن الثامن عشر لأنهم رأوا في دولة يهودية في فلسطين وسيلة نافعة لخدمة مصالح دولهم، وكان أول من حاول تنفيذها نابليون بونابرت الذي اشتهر بتلاعبه بالورقة الدينية في دعايته السياسية وذلك ليقطع طريق الهند على الإمبراطورية البريطانية عدوته الأولى، ولكنه لم ينجح في مشروعه بعد هزيمة حملته على مصر والشام، ولما نجح محمد علي باشا في إقامة دولة قوية في منطقة تصر أوروبا على إبقائها ضعيفة ومجزأة، بعث هذا الأمر الفكرة الصهيونية في عقول ساسة بريطانيا وشرعوا بالتحضير لإنشاء الكيان اليهودي ليكون "حائلا بين محمد علي وخلفائه وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل"،وتزامن هذا مع تفاقم المسألة اليهودية في أوروبا نتيجة تعثر التحديث في دول شرقها وفقدان اليهود دورهم الوظيفي التقليدي في تلك المجتمعات وزيادة أعدادهم وتدفقهم على دول الغرب الأوروبي وأمريكا التي رأت فيهم تهديداً لاستقرارها فأرادت التخلص من هذه الجماعة الوظيفية التي أصبحت بلا وظيفة فتكونت بذلك المسألة اليهودية كما شرح ذلك بالتفصيل الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله في مؤلفاته العديدة.

ومع زيادة اضطهاد اليهود في شرق أوروبا بدأ التفكير بين نخبهم في ضرورة إيجاد بقعة من الأرض يلجئون إليها، وهنا ظهرت الفكرة الصهيونية اليهودية بعد أكثر من ثلاثة قرون من ظهور الصهيونية المسيحية لتكون حلاً علمانياً إذ رفضها معظم اليهود المتدينين لأنها تدخّل في الإرادة الإلهية، ونشأت حركات تعمل على "إعادة" اليهود إلى "وطنهم"، واستوطن عدد منهم بالفعل في فلسطين بداية من سنة 1868، ولكن الهجرة اتخذت الطابع الجدي بعد اغتيال القيصر الروسي سنة 1881 وما تبع ذلك من هجوم واضطهاد لليهود، ولما شعرت الدولة العثمانية بذلك الخطر، بدأ السلطان عبد الحميد بوضع العراقيل أمام الهجرة بطريقة تدريجية تتناسب مع تعاظم

حجم الخطر، مثل منع اليهود من أوروبا الشرقية من دخول فلسطين ثم منع اليهود عامة من دخولها إلا للزيارة والحج ولمدة محدودة لا تتجاوز ثلاثة أشهر يسلّمون قبلها جوازات سفرهم ويمنحون جوازات حمراء مؤقتة، كما حظر بيع الأراضي والعقارات لهم مهما كانت جنسياتهم، ووضع سنجق القدس تحت الإشراف المباشر للباب العالي، وغير ذلك من إجراءات كانت تنتهك برشوة الموظفين الفاسدين وتدخل القناصل الأوروبيين، وفي هذه الفترة ظهر مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل الذي اكتشف أن المشروع الصهيوني لن يتحقق ما لم تتبناه دولة كبرى، وعمل على الاتصال بقادة الدول العظمى لإقناعهم بتنفيذ فكرته عارضاً على كل واحد منهم خدمات الدولة اليهودية التي يريد إنشاءها، فحاول الاتصال بالسلطان عبد الحميد الذي تقع فلسطين في دائرة سيادته، وزار اسطنبول خمس مرات بين 1896-1902 قابل أثناءها السلطان مرة واحدة أو مرتين بالإضافة إلى لقاء مسئولين عثمانيين آخرين، وقد عرض عليهم خدمات مغرية جداً مثل تسوية ديون الدولة العثمانية ومساعدتها في القضية الأرمنية التي تسبب لها المشاكل داخلياً وخارجياً، وذلك بكبح جماح الثوار الأرمن وتحسين صورة العثمانيين في الإعلام الغربي، هذا بالإضافة إلى كبح جماح معارضة "تركيا الفتاة"، كما قدم لهم وعوداً زائفة عن عدم تطلع اليهود في فلسطين للاستقلال عن السلطنة والتزامهم طاعة السلطان ونيتهم جلب المنافع والتقدم للبلاد وعدم نيتهم المساس بالقدس، كما سيقف الكيان اليهودي ضد أية حركة عربية تقوم ضد الدولة العثمانية، كل ذلك مقابل وعد من السلطان يتمكن به هرتزل من جمع المال من أثرياء اليهود لتقديمه للدولة العثمانية، وكان رد السلطان هو رفض إقامة دولة يهودية في فلسطين مع الموافقة على هجرة محدودة ومراقبة وموزعة على أنحاء متفرقة من السلطنة مثل الأناضول والعراق بشرط تخلي المهاجرين عن جنسياتهم وحمل الجنسية العثمانية والالتزام بقوانين الدولة، وذكّر السلطان هرتزل بالمعاملة الحسنة التي تلقاها اليهود في الدولة العثمانية وأن ظروفهم فيها أفضل من سواهم، وأنه لا يمكنه تقديم أكثر من ذلك، وقد أوضح السلطان في مذكراته ضرورة بقاء العنصر العربي هو

السائد في فلسطين، ويعد موقف السلطان عبد الحميد من الحركة الصهيونية هو الأبرز والأشهر على صعيد محافظته على بلاد العرب، وذلك بسبب ما أصاب فلسطين من كوارث بعد رحيله، وقد كتب الكثير عن موقفه هذا ورفضه بيعها للصهاينة، وأصبحت محاضر لقاءاته معهم وردوده عليهم معروفة للجميع وفي متناول كل باحث، ولهذا لن نأتي بجديد إذا أعدنا سردها ويمكن الرجوع إليها في مظانها[235]، ولكن يمكننا الإشارة إلى بعض النقاط التي لم يتم التطرق إليها كثيراً:

النقطة الأولى: أن السلطان أدرك منذ البداية حقيقة المشروع الصهيوني وأنه لن يجلب الخير للمنطقة كما كان أصحابه يزعمون كاذبين: إذ "إن هؤلاء اليهود لا يمارسون العمل في الزراعة والفلاحة بل ينوون إلحاق الأضرار بالأهالي"، وأنه لو استجاب لطلبهم الاستيطان في فلسطين فإنه يكون قد وقع "قراراً بالموت على إخواننا في الدين"[236]؛ هذا في وقت لم يدرك كثيرون ـ قبله وحتى بعد خلعه عن العرش واشتداد الهجمة الصهيونية ـ الأبعاد الحقيقية لها، فنرى مثلاً محمد علي باشا الذي سُمي رائداً للنهضة العربية الحديثة ومع ذلك طلب من الصهيوني موسى مونتفيوري أن يكون وكيل أعماله، ووعده "وهو يدخن نرجيلته المرصعة بالجواهر، بأية قطعة من الأرض معروضة للبيع في سوريا ووافق على فعل أي شيء يستطيع فعله ليسانده في مشروعه" وهو ضمان 100 أو 200 قرية في فلسطين ودفع إيجار زائد بنسبة 10-20% وتأسيس شركة لزراعة الأرض وتشجيع اليهود على الهجرة إليها، ولم يحبط هذا المشروع الصهيوني الأولي سوى أن سلطة الباشا ضعفت بعد سنة من اللقاء "وعادت سوريا إلى السلطان" ولم تحن فرصة أخرى آنذاك لعودة اليهود (1840)[237]،وقد شكك الدكتور محمد

---

(235) محمد شعبان صوان، دراسة: آثار التغريب السياسي على المجتمع العثماني، التحدي والاستجابة (الجزء الثالث: الهجرة الصهيونية بين دعم الغرب وتبعية التغريب والمقاومة العثمانية الرسمية والاجتماعية) موقع أرشيف الدولة العثمانية (3/ 2/ 2014).

(236) السلطان عبد الحميد الثاني، ص34-35.

(237) باربارا توخمان، الكتاب المقدس والسيف: إنجلترا وفلسطين من العصر البرونزي =

أنيس في ميول محمد علي بالقول إنه يستحيل أن ينسب له أي تفكير قومي عربي في الوقت الذي كان يفاوض فيه فرنسا لحسابها على الجزائر وغزة[238]،(يذكر المؤرخ السوفييتي فلاديمير لوتسكي أنه في سنة 1829 وافق محمد علي وهو من أهم حلفاء فرنسا في الشرق على الهجوم على الجزائر، إلا أن المساومة لم تتم بسبب ضآلة التعويض)[239]،ومن الذين لم يدركوا أبعاد المشروع الصهيوني زمن السلطنة بعض أهل فلسطين نفسها فنسمع عن بعض الصحف العربية التي ظهرت في عهد الإتحاد والترقي في فلسطين تناصر الصهاينة وتتغنى بالمدارس والمصارف والكروم والمحاريث التي أتوا بها للبلاد، ولم يكن أصحاب هذه الأقلام يدركون أن كل هذا التقدم سيكون من نصيب الوافدين الجدد ولن يجني أهل البلاد إلا الدمار، وإننا نعجب حين نعلم أن مفكراً بحجم أحمد لطفي السيد ـ الذي نصّب أستاذاً لجيله ويفترض فيه الوعي ـ يحضر حفل افتتاح الجامعة العبرية سنة 1925م إلى جانب بلفور واللنبي وهربرت صموئيل وحاييم وايزمان، وكان السلطان عبد الحميد قد علم منذ البداية أن "الغاية من إنشاء هذه الجامعة سياسية واستيطانية أكثر منها ثقافية"[240] كما يقول الدكتور حسان حلاق، ولهذا السبب منع إنشاءها رغم محاولة الصهاينة إغراءه بأنها ستغنيه عن إرسال الشباب إلى أوروبا حيث يتأثرون بالأفكار الغربية التي يمقتها، ويزداد عجبنا حين نعلم أن رشيد رضا كتب مقالاً في صحيفة المنار في سبتمبر 1911 مفاده أن سوريا تحتاج العلم والمال اليهوديين وعليها استقبال اليهود استقبالاً حسناً بشرط ألا يؤدي ذلك إلى سيطرة الحركة الصهيونية على فلسطين (!) وأفتى بشرعية تحالف الهاشميين مع "أهل الكتاب" البريطانيين

= إلى بلفور، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ترجمة: د. منى عثمان ومحمد طه، ج2ص68.

(238) الدكتور محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (1514-1914)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1993، ص256.

(239) لوتسكي، ص188.

(240) دكتور حسان حلاق، ص184.

والفرنسيين الذين "سخّرتهم" العناية الإلهية لخدمة المسلمين (نفس العقلية السلفية التي استعانت بالولايات المتحدة لتدمير العراق سنة 1990)، هذا التسخير الإلهي الذي فتح أبواب المشرق كله، ومنه فلسطين، للاستعمار الغربي كما كان يحذر العقلاء من أمثال الأمير شكيب أرسلان، ويشبه الدكتور النفزاوي موقف رشيد رضا بموقف قطب الاتحاد والترقي طلعت باشا[241]، وهو ما يعني أن المصلح والمجاهد العربي وقف موقف الخائن العثماني.

ومن هذه السلسلة المرتقبة خيراً من الصهيونية أن أديباً كبيراً مثل نجيب محفوظ ظل يحسب الكيان الصهيوني متحضراً إلى أن صحا لبرهة على جرائمه بعد اندلاع انتفاضة الأقصى في مطلع القرن الحادي والعشرين، وكأنها الجرائم الأولى في تاريخ هذا الكيان.

النقطة الثانية هي: تقدير السلطان لتضحيات شعبه العربي، فحين رفض المشروع الصهيوني كان السبب الذي رد به على عرض هرتزل هو أن كتيبتين من جنود الدولة من السوريين والفلسطينيين حاربتا أثناء الحرب مع روسيا سنة 1877م "وقُتل رجالنا الواحد بعد الآخر في بلافنا لأن أحدا منهم لم يرض بالاستسلام"، وهذا نموذج من التقدير الذي لا يناسب شخصية مستبد دموي كما حاول الكثيرون تصويره، إذ رأى أن واجب الرعية نحو دولتهم يتطلب حقاً لهم عليها، ولهذا لم يسلم بلادهم للمحتلين الأجانب.

النقطة الثالثة هي: خطأ ما يدعيه بعض الباحثين عن سلبية المقاومة الفلسطينية للصهاينة في عهد السلطان نتيجة كبت الحريات، فقد أثبت الدكتور حسان حلاق أنه "كان لردود الفعل العربية الأثر الواضح في إصدار مجموعة من القرارات والقوانين العثمانية الخاصة بمنع المهاجرين اليهود من الاستيطان في فلسطين"[242] وهو ما أيده أيضاً المؤرخ ستانفورد شو في

---

(241) د. محمد الناصر النفزاوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، صفاقس، وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2001، ص439 و479.

(242) نفس المرجع، ص234.

كتابه تاريخ اليهود في الإمبراطورية العثمانية والجمهورية التركية، ولن نسرد قائمة بهذه الأحداث وإنما سنأتي بمثل واحد وهو أنه عندما تم تعيين رشيد باشا متصرفاً للقدس سنة 1904 وظهر منه التأييد للاستيطان اليهودي قدمت ضده الشكاوى للسلطات التي أمرته بمنع تملك المهاجرين الأجانب العقارات، ولما لم يستجب تم نقله في سنة 1906 وإحلال علي أكرم بك محله والذي التزم بتطبيق القيود بشدة.

النقطة الرابعة هي: كشف السلطان لنفاق أوروبا التي كانت تطالب العثمانيين بقبول الاستيطان اليهودي في نفس الوقت الذي سدت فيه أبوابها في وجوه اليهود، "وإذا كانت أوروبا المتمدنة تمتنع عن قبولهم وتجلوهم عن بلدانها، فلم نقبلهم نحن؟"[243].

النقطة الخامسة هي أن السلطان لم يحم فلسطين وحدها من الغزو الصهيوني بل حمى سيناء أيضاً رغم وقوعها آنذاك تحت الاحتلال البريطاني، فقد اتجه هرتزل بعد فشل مساعيه مع السلطان ويأسه من الحكومة العثمانية-"لم أحقق أهدافي ولا أريد المزيد من الانتظار"[244]- إلى الحكومة البريطانية سنة 1903 طالباً إليها تحقيق مشروع الاستيطان في شبه جزيرة سيناء، وعلى عكس ما يدعيه بعض المتحاملين على السلطان عبد الحميد بلا دليل، ثبت أن معارضته القوية للمشروع الصهيوني في سيناء- الذي سيكون منطلقاً للوثوب على فلسطين-هي التي دفعت اللورد كرومر حاكم مصر الفعلي لرفضه أيضاً "لأن بريطانيا ليست مستعدة في الوقت الحاضر لمواجهة السلطان العثماني"،وينقل الدكتور حسان حلاق عن مصدر فرنسي "أن اللورد كرومر والحكومة المصرية تخوفا من غضب الباب العالي وعملا على عدم إثارته في هذا الموضوع"[245].

النقطة السادسة: بينما عارض السلطان المشروع الصهيوني إلى آخر

---

(243) أ.د. فاضل بيات، ص453.

(244) Raphael Patai (ed), The Complete Diaries of Theodor Herzel, Thomas Yoseloff, New York, 1960, Vol. IV, p. 1352 (August 23, 1902).

(245) دكتور حسان حلاق، ص188-189.

حياته مما كلفه ذلك عرشه فلم يقبل التنازل لجمعية الاتحاد والترقي التي هددته بإبعاده عن السلطة كما تشير إلى ذلك وثائق وحوادث عديدة، رحب حكام عرب ومسلمون بالهجرة الصهيونية مقابل أثمان أقل مما دُفع للسلطان بكثير، ففي سبيل إرضاء بريطانيا حث الشريف حسين بن علي على استقبال اليهود في فلسطين بكرم العرب، ووقع ابنه فيصل مع حاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية اتفاقاً بهذا الشأن سنة 1919، كما حث عباس حلمي خديو مصر السابق أهل فلسطين على التصالح مع الصهيونية وترك بلادهم والرحيل إلى شرق الأردن وذلك مقابل توسط اليهود ليحسن علاقته بالحكومة البريطانية ويحصل على تعويض عن أملاكه التي خسرها في مصر وراتب سنوي قدره 30 ألف جنيه، ووصل الأمر بمؤسس ولاية الأمر السلفية المعاصرة وأحد الملوك العرب الكبار وهو الملك عبد العزيز آل سعود إلى أن وقع تنازلاً عن فلسطين "للمساكين اليهود" أو حتى غيرهم "كما تراه بريطانيا التي لا أخرج عن رأيها حتى تصبح الساعة" كما تنازل الملوك والرؤساء والأمراء المعاصرون بمن فيهم من ثوريين وتقليديين عن فلسطين بشكل جمعي ورسمي وعلني منذ قدموا مبادرتهم القائمة على الشرعية الدولية في قمة فاس سنة 1982 وكانوا منذ قيام الكيان الصهيوني يطالبون سراً وعلناً بتطبيق قرارات الأمم المتحدة وأخذ حصتهم القليلة فقط من فلسطين، ثم يأتي بعد كل ذلك من يقفز عن كل هذه الحقائق ويحمل السلطان عبد الحميد مسئولية التفريط بفلسطين.

النقطة السابعة أن السلطان عبد الحميد لم تبهره دعاوى الهيمنة اليهودية العالمية التي حاول هرتزل خداعه بها وكانت الصهيونية حريصة على استثمارها ونجحت في ذلك في ساحات دولية عديدة أخرى في الوقت الذي سعت فيه دول عظمى لاستثمار هذه الهيمنة لصالحها -وبخاصة في الحرب الكبرى الأولى- فأصدرت الوعود لصالح المشروع الصهيوني كوعد بلفور البريطاني وتصريح كامبون الفرنسي وتصريحات مشابهة صدرت عن قادة جمعية الاتحاد والترقي والألمان لما وجدوا الكفة تميل لغير صالحهم في هذه الحرب.

النقطة الثامنة هي أن السلطان عبد الحميد لم ينزلق خلف محاولات

الوقيعة بين الدولة والعرب وبدلاً من التحسب منهم واللجوء إلى الصهاينة الغرباء لمساعدته ضد ثورة عربية محتملة، قام السلطان بتقريب العرب ومنحهم المزايا التي سبق الحديث عنها مما أفقد الأفكار الانفصالية رواجها ولم تعد إلى الحياة إلا بعد خلعه عن العرش ومجيء الاتحاديين بسياستهم القومية الطورانية.

النقطة التاسعة: لم يكن من المحتمل نجاح المشروع الصهيوني مع بقاء السيطرة العثمانية على المنطقة، وهي سيطرة معادية تكبل طموحات الهجرة اليهودية وتكوّن بيئة معادية للمهاجرين، ولا ترغب في التنازل عن السيادة على فلسطين طوعاً، فلا عجب أن غادرها عشرات الآلاف منهم بعد وصولهم ثم غادرها عشرات آلاف آخرون بجرة قلم زمن الحرب الكبرى بعد انضمام الصهيونية للحلفاء وتحولهم إلى معسكر أعداء الدولة، ولهذا كان لا بد من انقلاب جذري في الأحوال السياسية ليأخذ المشروع فرصته في النمو وهو ما حدث بالفعل بعد مجيء الانتداب البريطاني الذي ألغى الإجراءات العثمانية ومن ثم اتضح الفرق بين الحكمين لأهل فلسطين الذين أسفوا على العثماني الذي فاتهم ولم يفرحوا بالبريطاني الذي أتاهم.

النقطة العاشرة: رفضت الدولة العثمانية المشاريع الصهيونية المتتالية رغم أنها كانت تُقدم في كل مرة من زاوية المصلحة العثمانية وأنها مما "سيكون مفيداً جداً للسلطان"، سواء لردع محمد علي باشا (مشروع بالمرستون 1840) أو لردع التمدد الروسي (مشروع أوليفانت 1880) وما يصاحب ذلك من إمكانات وخبرات يجلبها اليهود معهم وتؤدي إلى تقدم الدولة وتطورها، حتى أن هرتزل اعترف أثناء تقديم مشروعه للسلطان (1901) والذي يتضمن تسوية ديون الدولة التي تؤلف العقبة الرئيسة أمام استعادة العثمانيين عافيتهم، بأن "القوى الكبرى التي تريد إبقاء الدولة العثمانية ضعيفة، ستحاول بكل نفوذها منع شفائها وستعمل كل ما يمكن لإحباط هذه العملية"[246]، ومع أن السلطان أقر بذلك فإنه لم يوافق على

---

(246) Raphael Patai, Vol. III, p. 1114 (May 19, 1901).

نتيجة هرتزل وهي دعم المشروع الصهيوني، مما يؤكد استقلالية الدولة في تشخيص مصالحها حتى في زمن الضعف سواء كان السلطان ذا ميول تغريبية أو إسلامية، وهو ما يختلف عن حال دول الاستقلال والتجزئة التي ليس لها مصالح مستقلة عن المراكز الغربية.

النقطة الحادية عشرة: لا تؤدي يقظة الدولة وحدها إلى النتيجة المرجوة ما لم تكن مصحوبة بيقظة الشعب وتعاونه، وقد تمكنت الحركة الصهيونية من تثبيت وجودها في فلسطين بالتعاون مع بعض الإقطاعيين والإداريين الفاسدين والأهالي الذين ساعدوها على التملك المحظور، وكانت الدولة تقوم رداً على ذلك -وبخاصة في زمن المتصرف علي أكرم بك في آخر سني السلطان عبد الحميد حين اتضح الخطر الصهيوني- بإصدار الأوامر إلى جميع الملحقات بما "يوجب القصاص الشديد على المختارين وغيرهم من الأهلين الذين يرون أبنية تشيد بغير رخصة رسمية" كما كتب بذلك مراسل صحيفة ثمرات الفنون البيروتية[247].

النقطة الثانية عشرة: بعد دراسة مستفيضة لسياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، يقوّم الدكتور حسن صبري الخولي ما حققته الصهيونية في العهدين العثماني والبريطاني كما يلي: "ولا ريب في أن الانتداب البريطاني كان الأداة التي هيأت الجو الصالح لتنفيذ هذه الأهداف تنفيذاً سريعاً. ولقد ظلت الصهيونية تسعى منذ أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لتنفيذ مخططاتها لتهويد فلسطين، غير أن ما حققته في هذا السبيل كان ضئيلاً لا يمكن أن يؤدي إلى تحقيق أحلام الصهيونية لو سار الأمر على مثل هذه الوتيرة، لأن الحكم العثماني لفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى كان عقبة حالت دون تحقيق الصهيونية برنامجها"[248]، وفي هذا رد على من اقتصر على رؤية ذلك "الضئيل" الذي حققته الصهيونية في ظل العثمانيين فضخمه وجعل منه الحقيقة الدامغة[249] ودليل الإدانة الذي كان

---

(247) دكتور حسان حلاق، ص218.

(248) دكتور حسن صبري الخولي، ج1ص492.

(249) رءوف عباس، ص177-178.

سطحياً مع الأسف لأنه يفتقر للدراسة الشاملة التي يجب أن تدرس ظروف الحدث ومآلاته ودور بقية الجناة بطريقة أعمق من محاولة ضبط أخفهم خطأ في حالة تلبس بل وتزوير الأدلة ضده بالادعاء أنه وافق على الهجرة اليهودية إلى عموم الشام (وهو ما لم يحدث بل وافق على الهجرة إلى عموم الدولة العثمانية، والأناضول على وجه الخصوص، مع استثناء فلسطين كلياً من ذلك[250] كما أجمعت المراجع) وكل هذا التحامل للحكم عليه بالإعدام بسبب مجرد "جنحة" مع أخذ العذر بل مكافأة مرتكبي الجرائم الحقيقية الكبرى.

النقطة الثالثة عشرة: وجوب وضع الأخطار آنذاك في حجمها كما بدت في حينها وليس كما تطورت فيما بعد في مسار لم يكن حتمياً لو استمر الحكم العثماني مثلاً، وبغير هذه النظرة التاريخية سنحكم بالخيانة مثلاً على شخصية وطنية مجمع على نزاهتها وإخلاصها كالزعيم المصري مصطفى كامل باشا الذي اجتمع مع هرتزل أكثر من مرة وأثنى على إخلاص اليهود للدولة العثمانية وعدم استخدامهم من جانب الدول الكبرى[251]، ولكنه لم يطالب بهجرتهم كما فعل غيره من الشخصيات العربية، وكل ما كان يبتغيه هو المقارنة بين وضع اليهود ووضع الأرمن الذين تستخدمهم الدول الكبرى لطعن العثمانيين، وكانت مشكلة التدخلات الأجنبية والمؤامرات مع الأقليات هي الحدث الغالب على الساحة العثمانية يومذاك ولهذا بدت المشكلة الأرمنية أكبر من المشكلة اليهودية، وبغير هذا الإطار التاريخي يمكن لأي متنطع أن يرمي الزعيم بالخيانة كما رُمي السلطان بالتواطؤ.

النقطة الرابعة عشرة: تقوم عمليات الهجوم الحديثة على سياسات السلطان عبد الحميد بشأن فلسطين إلى حد اتهامه بتسهيل الاستيطان الصهيوني على المفارقة التاريخية التي تسقط وضعاً لاحقاً على الماضي

(250) دكتور حسان حلاق، ص177.

(251) نفس المرجع، ص238.

بطريقة غير تاريخية، فجميع المعلومات التي يوردها المهاجِمون عن تطورات الاستيطان الصهيوني في فلسطين (رءوف عباس، ص 177 مثلاً) سبق أن شهدها بل عايشها معارضون سابقون للسلطان عبد الحميد حللوا كل ثغرات حكمه ولكنهم مع ذلك لم ينتقدوا سياسته الفلسطينية ووضعوا الظاهرة الصهيونية في حجمها الحقيقي كما كان في ذلك الزمن لا كما تطور فيما بعد، وعلى هذا سار الباحثون منذ ذلك الوقت وهم على صلة بكل الحقائق التي يدعى المراجعون الجدد "اكتشافها"، ومن أولئك الباحثين الذين أنصفوا السلطان رغم معارضتهم إياه بحدة الأستاذ محمد كرد علي الذي جاء في كتابه خطط الشام (1925) نقلاً عن أحد الواقفين على أسرار الصهيونية وهو السيد عمر الصالح البرغوثي الذي كتب ما ملخصه إن العمل الصهيوني الجدي شُرع فيه سنة 1897 عندما عقد المؤتمر الأول في بازل بسويسرا وهو ما يفسر تسرب بعض الهجرات فيما سبق قبل أن يتضح الخطر وذلك حين كانت المسألة اليهودية خيرية زراعية قبل أن يحولها هرتزل إلى اقتصادية سياسية وكان اليهود مجرد لاجئين من اضطهاد أوروبا الشرقية كبقية اللاجئين إلى الدولة العثمانية التي احترزت منهم رغم كل شيء، وعندما "برزت الروح الاستعمارية بشكل جلي فقاومتها الحكومة العثمانية بوضع العراقيل أمام هجرتهم وقيدتهم بقيود جعلت هجرة اليهود إلى فلسطين في حكم المستحيل تقريباً. . .وانعقد المؤتمر الثالث في بازل أيضاً سنة 1899 وصرح فيه هرتسل بأن مساعيه كانت متجهة للحصول على امتياز من السلطان عبد الحميد ولكنه لم يوفق"، وكادت آمال الصهاينة في فلسطين يقضى عليها بسبب أوامر الباب العالي بتحديد مدة الإقامة لليهود فيها بعدما ثبت له انتعاش الحركة الصهيونية، فاحتجت إيطاليا والولايات المتحدة على الأوامر العثمانية "فرفض الأتراك كل تدخل بهذا الشأن" فتوجه هرتزل في سنة 1901 لمقابلة السلطان عبد الحميد الذي منحه وساماً (لإثارة غيرة الدائنين الفرنسيين والحصول على مكاسب للدولة العثمانية منهم ونجح في ذلك بالفعل) فظن هرتزل أن مهمته أنجزت ولكنه "فشل في سياسته ومفاوضته" رغم كل التنازلات التي منحها للسلطان "وظل اليهود يباشرون بعض

الأعمال الاقتصادية والزراعية في فلسطين في شيء من التقية والتكتم" ودخلت الصهيونية دور الجمود والتراجع بوفاة هرتزل سنة 1904 وشعر قادتها أن "استرداد الأرض المقدسة شيء بعيد المنال حتى إن الحصول على قطعة من الأرض أمر عسير. . . .ولما غُلبت تركيا وحلفاؤها وعقد مؤتمر باريز، دخلت الصهيونية في طور جديد" (خطط الشام، ج3ص198-210)، هذه هي الصورة التي يعرضها أحد المعارضين البارزين للسلطان عبد الحميد، وهذه هي صورة الأحداث كما وقعت في حجمها الطبيعي، وإن المزايدة على ذلك باتهامات مضخمة وصلت إلى نهايتها المنطقية باتهام السلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه بتسهيل الاستيطان اليهودي في فلسطين قبل 800 سنة رغم غرابة هذا الاتهام الذي لم يخطر على بال أحد في زمنه ولكنها روح "المراجعة" التي تدعي الإتيان بما لم يعلمه حتى أصحاب الشأن أنفسهم، وأعتقد أن المزايدة القومية على موقف السلطان عبد الحميد تهدف للتغطية على تاريخ القومية العربية التي رحبت بالهجرة الصهيونية منذ بدايتها ولم تتوقف عن قبولها حتى بعد استفحال خطرها ومع ذلك مازالت تهاجم موقف السلطان ومفاوضاته مع هرتزل رغم عقمها للصهيونية ورغم أنهم لم يبينوا لنا المكسب الذي حصل عليه السلطان مقابل "تساهله" مع الصهاينة لاسيما أن أصدقاءه الألمان الذين يرجو دعمهم ويعتمد على تأييدهم هم الذين تخلوا عن تأييد الصهيونية إكراماً له كما سيأتي، في الوقت الذي كانت الأنظمة العربية، الرجعية التي يعيش المتهمون في ظلها والثورية التي يدافعون عنها، ولأجل مكاسب واضحة، تسلم فلسطين "للشرعية الدولية" أي للاستيطان اليهودي على ثلاثة أرباعها وتتوسل الغرب للقبول بمفاوضات على هذا الأساس، فمن هو الأولى بتهمة الخيانة والاستسلام؟

رابعاً: السلطان عبد الحميد والمسلمون خارج نطاق الدولة العثمانية

رغم أنه لم يكن للدولة العثمانية سيادة سياسية على ملايين المسلمين الذين يعيشون خارج حدودها وكثير منهم تحت هيمنة الاحتلال العسكري

الغربي، فقد حاول السلطان عبد الحميد أن يربطهم جميعا بمركز الخلافة الإسلامية لتحقيق وحدة فكرية وروحية إن لم تكن سياسية، وفي سبيل ذلك أرسل السفراء والمبعوثين والعلماء إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي من جاوة شرقاً إلى المغرب غرباً ومن روسيا شمالاً إلى الحبشة وجنوب إفريقيا جنوباً، مستفيداً بذلك من الطرق الصوفية التي كانت واسعة الانتشار آنذاك، وكان الهدف الرئيس من هذا الجهد هو جعل المسلمين يواجهون الهجمة الاستعمارية الشرسة جبهة واحدة، "فالمسلمون في ألبانيا يهدد بهم النمسا والمسلمون التتر والأكراد يهدد بهم روسيا والمسلمون في الهند يهدد بهم إنجلترا والمسلمون في المغرب يهدد بهم فرنسا" كما يقول الدكتور محمد أنيس[252]، وقد سارت العلاقات بين الدولة العثمانية والمسلمين خارجها في اتجاهين، إذ كان السلطان يرسل إليهم المساعدات المادية لبناء المدارس بشكل خاص (الجامعة الحميدية في بكين مثلاً) ويستقبل طلابهم في المدارس العثمانية كما يرسل إليهم الكتب والإرشادات الدينية ويشارك في رعايتهم سياسياً في مواجهة الأحداث المستجدة وبخاصة عند اقتراب الأخطار، وكانوا هم يستجيبون لإرشاداته ويدعمون الدولة سياسياً كما فعلت الوفود العديدة بعد انتصار الدولة على اليونان،ومادياً إن لزم الأمر كما حدث في إنشاء سكة حديد الحجاز، وقد علق أحد أمناء السفارة البريطانية في اسطنبول على وفود التهنئة التي أمت العاصمة العثمانية في عيد الأضحى الذي تلا النصر على اليونان لتهنئة السلطان بالمناسبتين، بقوله: "لقد أحدث عيد الأضحى هذا تأثيراً بالغاً في نفسي، لقد أثبت هذا العيد أن السلطان له مكانة عظيمة ومقام رفيع بين المسلمين جميعاً، كما أن محاولات الإساءة إليه فاشلة"[253]، وبهذا تمكن من الإمساك بسلاح قدرة الخلافة على تحريك جماهير المسلمين ولوحه في وجوه الأعداء الغربيين وكان يرى فيه سلاحاً سياسياً قوته في التهديد به دون استخدامه فعلاً وهو ما أثبتت

---

(252) الدكتور محمد أنيس، ص243.

(253) الدكتور محمد حرب، ص162.

الأحداث دقته عندما فشل إعلان الجهاد الذي أصدره السلطان محمد رشاد زمن حكم الاتحاد والترقي أثناء الحرب الكبرى الأولى بعد عقود من نجاح تهديدات السلطان عبد الحميد الغربيين به وانتزاع المكاسب منهم بوسيلة التخويف.

* نتائج سياسة الجامعة الإسلامية وثمارها

وكان من ثمار حركة الجامعة الإسلامية ما أجمعت عليه المراجع من أن فكرة الانقسام القومي لم تظهر لدى العرب خاصة إلا بعد الانقلاب على صاحب الفكرة سنة 1908، وفي ذلك يقول الأستاذ عادل مناع إن معظم المؤرخين الذين درسوا جذور الحركة القومية العربية يجمعون على أن رواد اليقظة الأدبية في بيروت "لم يتركوا أثراً كبيراً في الاتجاهات السياسية في البلاد الشامية" رغم أهمية دورهم الثقافي، "فقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني، جراء سياسته الإسلامية وتقريبه الكثيرين من الشخصيات العربية، في كسب ولاء وتأييد الأغلبية الساحقة من سكان المنطقة حتى حدوث الانقلاب وعزله عن العرش"[254]، وقد فصل السفير البريطاني في استانبول في تقريره السنوي لسنة 1907 أثر فكرة الجامعة الإسلامية في مسلمي الدولة العثمانية وبقية المسلمين خارجها بعد إنشاء سكة حديد الحجاز بقوله إن هناك عاملين رئيسين أثرا في السياسة العامة في السنوات العشر السابقة أحدهما هو "تلك السياسة الماهرة التي حدت بالسلطان إلى أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للإسلام، وبث في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة حديد الحجاز... وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء إلى حد لم يسبق له مثيل، وأصبحوا يقبلون عن رضى باستبداده المطلق الذي لم يشهد التاريخ له شبيهاً من قبل... "[255] ولا يخفى ما في حديث السفير من مبالغات

(254) عادل مناع، 1999، ص246.

(255) جورج أنطونيوس، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ترجمة: الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، ص144.

استشراقية ولكن ما يهمنا هو التوثيق لأثر الجامعة الإسلامية وكيف أن وجود مركز واحد يساهم في تجميع جهود ومشاعر المسلمين بصورة أفضل من الشرذمة حول المراكز الإمبريالية الغربية كما حدث فيما بعد، ولا يمكن أن نجعل من تلك الوحدة وضمور فكرة الانفصال في عهد السلطان من نتائج الاستبداد كما ذهب إلى هذا بعض المؤرخين، ذلك أن حكم الاتحاد والترقي كان أشد استبداداً من حكم السلطان عبد الحميد بالاتفاق، ولكن ذلك الاستبداد الاتحادي لم يؤد إلى أن يصبح رعاياه يدينون له بالطاعة العمياء إلى حد لم يسبق له مثيل ولم يجد هذا الحكم من يرضى باستبداده المطلق ولم يجد الدعم من ثلاثمائة مليون مسلم كما كان الحكم الحميدي يجد كل ذلك، فلا بد أن هناك عناصر أخرى غير الاستبداد الاستشراقي توفرت في حكم السلطان عبد الحميد وأمدته بهذا الدعم الشعبي العام وليس من الصعب علينا اكتشافها ولكن ذلك يصعب على المدرسة الاستشراقية-الاستئصالية التي تتمسك بكونها أعلم بمصالح الآخرين من أنفسهم.

وكان لسياسة الجامعة الإسلامية أثرها في السياسة الدولية بما عاد بالنفع على الدولة العثمانية، إذ يقول المؤرخان شو إن توقف العدوان العسكري الغربي عليها بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة 1882 وتحول الصراع الاستعماري من الميدان العسكري إلى التنافس الاقتصادي طوال العهد الحميدي يعود-ولو بصورة جزئية-إلى نجاح السلطان في استخدام السلاح الإسلامي في صد المعتدين الإمبرياليين الغربيين[256]، وتحت عنوان "عبد الحميد يلجأ إلى جامعة إسلامية ذات عصبية عربية" يؤكد الأستاذ محمد جميل بيهم الرأي السابق ويستدرك عليه بالقول إن هذه السياسة ردت عن السلطنة غوائل كثيرة في ذلك الوقت في الداخل والخارج وأفادتها ولاسيما في نطاق جمع كلمة المسلمين حول السلطان وذلك بالتلويح بالأخطار الأجنبية المحيقة بهم "إلا أنها كانت مصدراً لحرب دعائية قوية أثارتها عليه الدول المستعمرة، ومؤامرات ضده في داخل سلطنته اشترك فيها

(256) Shaw & Shaw, p. 260.

شباب الترك الذين أسموا أنفسهم بالأحرار فكان كل ذلك مما أطاح به عن العرش فيما بعد وأطاح بهذا العرش الذي لعب دوراً كبيراً في تاريخ العالم" كما أن سياسة الجامعة الإسلامية ولجوء السلطان إلى هز عصا الخلافة والتفاف العرب حوله كان له آثار سلبية على بريطانيا وفرنسا "زعيمتي دول الاستعمار" اللتين خفتا إلى "محاربة هذه السياسة بالاستناد إلى بعض رجالات العرب على صعيد أن العرب هم أصحاب الحق بالخلافة"[257].

ويذهب المؤرخ ويتكروفت إلى أن السلطان عبد الحميد أصبح في نظر الغربيين تجسيداً لأسوأ السجايا التي ألصقت بالعثمانيين كالوحشية والجبن والشبق، وأنه لم يُمقت أي سلطان بشكل واسع كما مُقت عبد الحميد حتى أطاح به الجيش والسياسيون ونفوذ القوى الغربية الكبرى[258].

※ العلاقات الخارجية في آخر أيام الخلافة العثمانية

استندت سياسة السلطان عبد الحميد الخارجية إلى إثارة الخلافات بين الدول الكبرى للحؤول دون اتفاقها ضد العثمانيين، وكان يسره أن يرى صراع الدول الكبرى في سبيل كسب صداقة الدولة العثمانية "إذ يقلل من الصعوبات التي تعترضنا في حل مشاكلنا السياسية"[259]، وقد سبق ذكر فقرات متفرقة من سياسة الدولة العثمانية الخارجية تجاه العدوان الغربي واحتلاله بلاد المسلمين وأطماعه في المزيد، وملخص الأمر على صعيد السياسة الخارجية أن الدولة العثمانية ظلت في القرن التاسع عشر "قوة يحسب حسابها في السياسة الخارجية في كل من بريطانيا وفرنسا وإمبراطورية النمسا وكذلك ألمانيا وإيطاليا، ومن جهة أخرى فقد بقيت قوى محلية في الهند وآسيا الوسطى وشمال إفريقية تتطلع إلى الدولة العثمانية لحماية مصالحها" كما يقول المؤرخ دونالد كواترت في كتابه الدولة العثمانية[260]،

---

(257) محمد جميل بيهم، ص203-205.

(258) Andrew Wheatcroft, p. 204-206.

(259) السلطان عبد الحميد الثاني، ص132.

(260) دونالد كواترت، ص149.

أما اليوم فنرى دول التجزئة "الكبرى" تتفق فيما بينها على معاونة الاستعمار والصهيونية ضد حقوق المسلمين الضعفاء وتتسابق لإثبات ولائها الاستعماري بحصار وخنق وقتل المسلمين وتمويل العدوان عليهم كما حدث في غزة (2014) إرضاء لكيان حقير كإسرائيل يتباهى بتحالفاته العربية، وقد وصف بعض المؤرخين سياسة الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد بأنها كانت غولاً يرعب أوروبا في ذلك الزمن.

وكانت الدولة الكبرى التي تعادي الدولة العثمانية يتضاءل نفوذها التجاري أو الاستثماري أو المالي تبعاً لمواقفها المعادية كما حدث مع بريطانيا، والعكس يحدث مع الدول التي تعرض صداقتها دون أطماع طاغية كما حدث مع ألمانيا، وهو ما نفتقده في عصر الاستقلال الوهمي والتجزئة المجهرية إذ يزيد نفوذ الغرب لدينا كلما أمعن في معاداة قضايانا ومصالحنا لأنه يجد تربة خصبة في التجزئة لحفز التنافس بين الصغار على إرضائه مهما أجرم في حقوق أمتنا.ورغم الحديث الكثير عن شدة التدخل الأجنبي في شئون الدولة العثمانية، فإننا نجد أن وضعها كان أفضل من وضع الاستقلال الوهمي لدولة التجزئة المجهرية، ويمكننا إثبات ذلك لو قمنا ببعض المقارنات في عدة مجالات :

1 - **التدخل الأجنبي في تنصيب الحكام**: في يوم 4 فبراير 1942 حاصرت دبابات الاحتلال البريطاني في مصر قصر الملك فاروق وفرضت عليه بالقوة تعيين الزعيم الوفدي مصطفى النحاس رئيساً للوزراء، وهو حدث ألّف نقلة نوعية وسابقة لعملية فرض الزعماء على العالم الإسلامي بالقوة المسلحة، وكان الناس يأنفون من فرض الزعماء على أيدي المحتلين سلمياً حتى أن مصر لفظت السلطان حسين كامل (1914) وحاولت اغتياله أكثر من مرة لأنه استمد شرعيته من الاحتلال البريطاني بعدما كان الخديو يستمد شرعيته من تعيينه بفرمان الخليفة العثماني، ثم أصبح الحاكم يعين بالقوة الاستعمارية المسلحة المفروضة على حكام التجزئة دون أن يستطيعوا الاعتراض واستمر هذا الأمر إلى يومنا هذا، ومن لم يقبل خُلع بالقوة، وفي زمن ضعف الخلافة العثمانية حاولت بريطانيا ممارسة هذا الأسلوب في أثناء

الأزمة الأرمنية سنة 1895 حين أرسلت أسطولاً من ثمانية عشر سفينة حربية إلى سالونيك "بقصد إرهاب الدولة العلية وتهديدها"، وفي 9 نوفمبر/تشرين الثاني 1895 وقف اللورد سالزبوري (رئيس الوزراء البريطاني في نهاية عهد الملكة فكتوريا) وألقى خطبة عنيفة في لندن طعن فيها بالسلطان عبد الحميد "وأنذر المسلمين بقرب خلع خليفتهم وأوهم العالم كله بأن دول أوروبا متفقة جميعها مع إنكلترا في خطتها ونواياها" ولكن "شعرت كل أوروبا وقتئذ بأنه يستحيل عليها أن تتداخل تداخلاً عسكرياً وأن مثل هذا التداخل يجر على العالمين المصائب العديدة حيث يكون سبباً لثورة عامة من المسلمين في تركيا وداعية لسفك دماء كافة المسيحيين في الشرق وأصلاً لحرب أوروبية عامة، وقد اضطر اللورد سالسبوري نفسه أن يقول: " مادامت السلطنة العثمانية قائمة فليس لأوروبا قوة تضغط بها على تركيا وكل ما في استطاعتها أن تؤثر على فكر جلالة السلطان" ويعقب الزعيم الكبير مصطفى كامل باشا على ذلك بقوله: "فليقارن القارئ بين هذه اللهجة وبين لهجة اللورد نفسه في خطبة 9 نوفمبر عام 1895 يوم قال إن دول أوروبا كلها متفقة مع إنكلترا وأنذرنا معاشر المسلمين ومعاشر العثمانيين بقرب خلع صاحب الخلافة العظمى!!!"[261]، وأنا أدعو القارئ أيضاً للمقارنة بين تلك اللهجة وفلسفة الغرب في التعامل مع حكام الخليج والتي أفصح عنها المعتمد البريطاني السابق في أكثر من بلد خليجي هارولد ديكسون الذي قال: "إن مكانة بريطانيا وعزها يحددهما مدى الخوف وليس الاحترام"[262]، وهي فلسفة ورثتها الولايات المتحدة في تعاملها مع العرب بغطرسة فاضحة أحياناً، فشتان بين عز الوحدة حتى مع ضعفها وذل التجزئة في أبهتها.

وقد أصبح التدخل الاستعماري المسلح لخلع الحكام أو تنصيبهم على بلدان التجزئة ظاهرة منذ حادث 4 فبراير، وقد تكرر ذلك في عدة بلاد فيما

---

(261) مصطفى كامل باشا، ج2ص242-243.

(262) مي محمد الخليفة، ص507 و627.

بعد، كما أن أسلوب التآمر لتنصيب الحكام وخلعهم لم ينقطع منذ سقوط الخلافة، وكان تدبير الانقلابات أو المؤامرات من أوضح الأمثلة على ذلك في البلاد الثورية أو المحافظة، وقد كشفت الوثائق عن حقائق مذهلة في هذا المجال، والمرة التي حاولت بريطانيا ممارسة هذا الأسلوب خفية أثناء أزمة خلع السلطان عبد العزيز واغتياله واتصال بعض وزراء التغريب بها كان مصيرهم فيها المحاكمة والعقوبة في زمن السلطان عبد الحميد، وبعدما وصلت جمعية الاتحاد والترقي إلى الحكم بدعم أجنبي انقلبت على رعاتها ودخلت الحرب الكبرى للثأر من جرائمهم في حق الدولة العثمانية، أما دول التجزئة فقليلاً جداً ما شاهدنا صيغة الخروج عن المسار الاستعماري فيها.

2 - استفادة المخططات الأجنبية الاستعمارية من السياسة المحلية:

وفي الوقت الذي كان فيه حكام التجزئة مجرد أزرار ينفذون مخططات الدول الكبرى كما تملى عليهم، أكثر بعض المؤرخين من تسقط أخطاء العثمانيين وضخموها للاستدلال على تعاونهم مع الأجنبي، ولعله لم ينل حادثاً من النقد ما نال منشور إعلان عصيان عرابي باشا (1882) الذي حلا لهؤلاء المؤرخين أن يضعوا به كل أوزار الاستعمار على كاهل العثمانيين.

وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع وما أريد إضافته هنا أن إغفال كل تعاون دولة التجزئة مع المخططات الاستعمارية والتركيز على خطأ عثماني واحد ليس من الإنصاف ويدل على عور في الرؤية التاريخية، إذ أين نحن من إفادة الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة من سياسة ثورة يوليو 1952 في محاربة الشيوعية[263]؟ وأين نحن من إفادة الولايات المتحدة من سياسة حكم الرئيس جمال عبد الناصر في محاربة النفوذ البريطاني وقواعده في العالم العربي؟ حتى أنها وقفت إلى جانبه علناً ضد العدوان الثلاثي[264]

(263) بيتر مانسفيلد، ص309.

(264) مايكل أورين، القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ عام 1776 حتى اليوم، كلمة، أبو ظبي، وكلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2008، ترجمة: آسر حطيبة، ص503-504.

وقبل ذلك في إسقاط حلف بغداد(265) وقبله في إنهاء الاحتلال البريطاني لمصر(266)، وأين نحن من سياسات الأحلاف الإسلامية التي تبناها السعوديون وأراد منها الغرب ضرب الأمة بعضها ببعض لصالح هيمنته على الجميع(267)؟ وأين نحن من حرب الوكالة عن الدول الكبرى والتي جرت في اليمن بعد الثورة 1962؟وأين نحن من إفادة الغرب من إشعال الحرب بين العراق وإيران واستمرارها وهو ما يتحمل الطرفان مسئوليته؟ وأين نحن من الجهاد الأفغاني ضد السوفييت ومن وقف وراءه ممولاً بالمليارات وداعماً بآلاف المتطوعين بأمر من الولايات المتحدة؟ وأين نحن من غزو العراق وأفغانستان وما قدمته السياسات "الإسلامية" سواء السلفية السعودية أم الثورية الإيرانية لخدمة المشروعين؟ وأين نحن من السياسات الاقتصادية التي سفحت ثروات الأمة على مذبح المصالح الغربية سواء بضخ الموارد أم بالإنفاق على خطط التدمير والهيمنة، وسياسات التطبيع التي أقرها وشارك فيها أصحاب القضية أنفسهم فخدمت المشروع الصهيوني بل وحرضته على المنافسين من الجيران والأشقاء بل وزايدت على إدراكه لمصالحه وطالبته بمزيد من التشدد والهجوم على أجزاء من مكونات الأمة؟ هذا ولم لم تنج دولة من دول الشرق العربي الإسلامي من التورط في خدمة كل هذه المصالح الاستعمارية التي يخبو أمامها فرمان عصيان عرابي الذي لم يهادن كاتبة الاحتلال البريطاني قط.

وقد لاحظنا فيما سبق أن السياسة العثمانية حرصت في قضية اتفقت فيها توجهاتها مع التوجهات البريطانية كإلغاء الرق على النأي بنفسها عن التنسيق مع الإنجليز وأبقت تطفلهم بعيداً عن الاطلاع على مسار الأحداث الداخلية، خلافاً لدولة التجزئة التي وصل الحال بها إلى عرض تفاصيل

---

(265) بيتر مانسفيلد، ص276.

(266) نفس المرجع، ص280.

(267) نفس المرجع، ص294 و296 و317.

- جاك بونوا ميشان، 2010، ص534-538.
- مايكل أورين، ص501.

دينها على السفارات الأجنبية لنيل قبولها*.

3 - الخضوع للمخططات الأجنبية الضارة بالذات الوطنية: كانت علاقة الدولة العثمانية بالغرب في آخر أيامها علاقة الضحية بالطامعين بها، ولهذا اتخذت هذه العلاقات صورة التوتر الدائم مع العداوة الظاهرة في بعض الأحيان، ومع أن العثمانيين فقدوا كثيراً من أراضيهم في قرنهم الأخير، فإن ذلك لم يتأت عن طريق الخضوع والاستسلام الذي رأينا نماذجه المهينة في دولة التجزئة والتي وصلت الحدود فيها إلى قبول التحكيم الأجنبي بين الإخوة والجيران بل قبول التمثيل الأجنبي للحكام المحليين[268] الذين يقضي الأجنبي في ملكهم دون علمهم وربما اقتطع أنصاف ممالكهم أو أكثر من ذلك مع عدم قدرة صاحب الجلالة أو السمو على الاعتراض إلا بالبكاء للموظف الاستعماري البريطاني الذي يقوم بتوبيخ أعلى مقامات السلطة العربية كأنه يتحدث إلى تلميذ مشاغب في مدرسة للأطفال[269]، ومع ذلك تستمر التبعية ويستمر الانبطاح، أما استيلاء الأجانب على الممتلكات العثمانية فكان يتبعه عداوة وتوتر وعدم اعتراف بأي احتلال ولو طال أمده، ولا يتم التراجع في دولة متهالكة ولكنها كبرى إلا بهزيمة عسكرية أو بعجز عسكري أو بتهديد بخسارة أكبر، وليس بالانصياع والتبعية والمذلة التي رأيناها في الدولة الوطنية، لم يصرح أي سلطان بأنه سيوقع على ما يقترحه "صديقه" الأجنبي دون قراءته كما فعل الرئيس أنور السادات لأجل "خاطر" الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ومستقبله، حتى وصفه وزير خارجيته محمد إبراهيم كامل بالعبد الذليل في

(*) جاء في صحيفة الوطن الكويتية في عدد يوم 12 نوفمبر 2007 في الصفحة رقم 21 العنوان التالي: "الأوقاف أطلعت سفارتي بريطانيا وأمريكا على نهجها في نشر الوسطية"، وتكرر الحدث مرة أخرى في 30 إبريل 2008 الصفحة رقم 10 من الصحيفة ذاتها ولكن مع الجانب الأمريكي والجانب الألماني هذه المرة مع تقديم الشكر للأمريكيين لدعمهم المشروع الوسطي.

(268) وليد حمدي الأعظمي، 1991.

(269) مي محمد الخليفة، سبزآباد ورجال الدولة البهية: قصة السيطرة البريطانية على الخليج العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998، ص423.

حضرة كارتر[270]، ولم يثق بالأجانب إلى درجة التوقيع فعلاً على أوراقهم دون قراءتها كما فعل الملك فيصل بن الحسين[271]، ولم يتوسل بالصهيونية لتحقيق مصالحه لدى الدول الكبرى كما أصبحت "الموضة" في دول التجزئة كبيرها وصغيرها، وكان صمود السلطان عبد الحميد يخرج بنتائج إيجابية أحياناً مثل رفض المحمية البريطانية في أرمينيا ورفض الأمر البريطاني الواقع في الكويت واستبعاد سلطات الاحتلال من العقبة وشمال الجزيرة العربية، هذا مع استمرار اليقظة العثمانية من الأصدقاء فضلاً عن الأعداء، وعدم تسليم الأوراق حتى للأصدقاء والحلفاء كما رأينا في رفض الاستيطان الألماني فضلاً عن البريطاني والفرنسي والأمريكي، وفي سوء ظن السلطان في النوايا النفطية لحليفته ألمانيا، وحتى حين يعرض أحدهم موقفاً مؤيداً لا يتم الانبطاح له كما فعلت دولة التجزئة مع مستغليها، فالسلطان "إذا كان مستعداً للتعاون مع فرنسا عندما تقود حملة ضد السياسة البريطانية في مصر، فهو لا يمكنه القبول برفضها الاعتراف بسيادة سلاطين بني عثمان على أفريقيا الشمالية" وفقاً لجون هاسلب[272].

4 - رفض بيع المواقف السياسية: وعلى العكس من كبريات دول الاستقلال الوهمي والتجزئة المجهرية التي عرضت مواقفها للبيع في سوق النخاسة السياسية العالمية مقابل إسقاط ديون أو منح مساعدات أو قروض ولو على حساب بلاد عربية أخرى يتم حصارها وتدميرها (غزة) أو تقسيمها (السودان) أو تدميرها وحصارها ثم احتلالها (العراق) أو الهيمنة عليها (الخليج) بما يناقض حتى المصالح الوطنية الضيقة للبائعين، كانت الدولة العثمانية ترفض عرض مواقفها للبيع ولو بأثمان باهظة، ولهذا رفض السلطان عبد الحميد التبعية للمواقف الروسية مقابل تنازلها عن تعويضات حرب 1877-1878 وفضل دفع هذه التعويضات لمدة مائة سنة على أن تؤيد

(270) محمد إبراهيم كامل، ص448 و560 و580-584.

(271) محمد كرد علي، ج3ص213.

(272) جون هاسلب، ص220.

الدولة العثمانية روسيا في السياسة العالمية[273]، كما رفض بيع جزء ولو كان صغيراً من فلسطين للحركة الصهيونية ولو كان ذلك مقابل تسوية الديون العثمانية وهي السبب الرئيس في ضعف الدولة آنذاك، كما رفض بيع جزية مصر للاحتلال البريطاني حتى لا تصبح هيمنة الإنجليز على هذا البلد شرعية[274]، وإذا كان السلطان عبد الحميد قد رفض أن يعود لعرشه على أسنة رماح أجنبية، فكم من ملك وأمير وشيخ تعهد لبريطانيا عن نفسه وورثته من بعده، بألا يقيم علاقة دبلوماسية، ولا يبيع، ولا يؤجر، ولا يرهن، ولا يتنازل عن قطعة أرض من أراضيه، ولا يمنح امتياز مورد من موارد بلاده إلى دولة أخرى دون موافقة الحكومة البريطانية، مقابل ضمان نظام حكمه، رغم ما في هذه الشروط من إجحاف ظاهر وباطن كان مدمراً في بعض الأحيان كما سبق الحديث عن سكة بغداد، ومع كل هذا كانت الدولة الوطنية تلقن أجيالها هذه "المفاخر" بمباهاة واعتزاز (!)[275].

5 - العلاقات مع السفارات الغربية والمبعوثين الأجانب: رغم ضعف الدولة العثمانية في آخر أيامها وحلول التراجع والهزيمة بها مقابل التغول الغربي عموماً والبريطاني خصوصاً، فقد وجدنا أن المبعوثين الأجانب كانوا ينتظرون فترات طويلة قبل مقابلة السلطان العثماني ليعرفوا موقعهم[276]، وكان السفير البريطاني ينبه بأن تكون مباحثاته ثنائية وبأن أي إساءة علنية مرفوضة[277]، وعندما يسيء أحدهم الأدب في حضرة السلطان[278] فإن

(273) محمد شعبان صوان، ص101.

(274) د. أمل فهمي، العلاقات المصرية العثمانية على عهد الاحتلال البريطاني 1882-1914، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002، ص143.

(275) دكتور نور الدين حاطوم ودكتور شاكر مصطفى ودكتور جمال زكريا قاسم ومحمد عبد الفتاح عليان، تاريخ العرب الحديث والمعاصر للصف الرابع المتوسط، وزارة التربية، الكويت، 1977-1978، ص83-89.

(276) مايكل أورين، ص250.

(277) جون هاسلب، ص193.

(278) نفس المرجع، ص194.

- مايكل أورين، ص250.

- Salahi Ramsdam Sonyel, p. 193.

الرد يأتيه بعملية "لطع" في غرفة باردة لمدة ساعة يصاب على إثرها بنزلة برد تلزمه الفراش رغم كونه حاملاً رسالة من الملكة فكتوريا نفسها[279]، أو برفض استقباله لدى السلطان مطلقاً[280]، أو برفض تلبية مطالبه وتدخله في الشئون العثمانية[281]، لم يقبل السلطان العثماني أن يأتي بالتدخل الأجنبي المباشر كما جاء ملوك التجزئة، ولم يكن على "علاقة حميمة" مع السفير البريطاني ويجتمع به لتلقي "نصائحه" في كل شاردة وواردة في ملكه[282]، ولم يكن يعمل جاسوساً لأعداء بلاده كما ثبت عن غير واحد من "أشراف" أوطاننا المجزأة في الأردن والمغرب[283]، ولم يكن المندوب السامي يرفع حذاءه في وجهه[284]، ولم يكن يفوض البريطاني بالحديث نيابة عنه دون استشارته ثم يبكي وينهار أمامه في مشهد مسرحي ومحزن[285]، أو ينهار عندما يواجهه الموظف الاستعماري ويحشره في الزاوية[286]، ولم يكن الأمريكيون يؤنبونه ويوبخونه ويمتهنونه "دائماً" كما فعلوا مع زعامات عربية ثورية كبرى[287]، ولم يتوف سلطان عثماني زمن الضعف والتراجع بعد اجتماع بمبعوث غربي كما حصل مع أمير خليجي سابق لا يُدرى حتى اليوم ما الذي وضعه وزير الدفاع الأمريكي اليهودي كوهين على كاهله أثناء اجتماعه به فلم يتحمل ومات من ساعته[288]، ولم يجرؤ مبعوث غربي على

---

(279) صحيفة نيويورك تايمز الصادرة يوم 27/ 1/ 1896
http://query.nytimes.com/mem/archive-free/pdf?res=9B06E0D6173BEE33A25754-C2A9679C94679ED7CF

(280) جون هاسلب، ص196.

(281) مايكل أورين، ص276-277.

(282) أنتوني بايسونز، مذكرات آخر سفير بريطاني في طهران في عهد الشاه 1974-1979، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010، ترجمة: د. خالد سليم أحمد، ص38.
- الدكتور سهيلا سليمان الشلبي، ص126 وما بعدها.

(283)
- http://maghreb.me/showthread.php?p=58370
- http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2795 (23/2/2014)

(284) محمد جلال كشك، ص222.

(285) مي محمد الخليفة، ص423.

(286) وليد حمدي الأعظمي، ص147.

(287) بنوميشان، ص25.

(288) الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور، ص382.

إسكات سلطان المسلمين بكلمة "إخرس shut up" لو خاطبه بأمر يكدر بال الغرب من مصالح المسلمين كما ذكر العقيد الليبي الراحل معمر القذافي عن حاكم عربي شكى له من تسلط الأجانب عليه وإخراسه بتلك الكلمة عندما يفاتحهم بموضوع فك الحصار الذي كان مفروضاً على ليبيا، ولم يكن السلطان العثماني يسلم أهله للأجانب ويثني على "دماثة أخلاق وجم أدب وكمال" المندوب السامي البريطاني الصهيوني، "السياسي المحترم الكامل" الذي جاء ليخبره بأنه تقرر نفي والده (ملك العرب سابقاً) والدموع ملء عينيه وهو يفضي بالنبأ برقة حاشية وتأثر عميق كما يقول ملك عربي في مذكراته عن هربرت صموئيل الذي أسس الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ويخاطب الملك الإنجليز رداً على عدوانهم على أبيه وكأنه يخاطب رب العالمين بقوله إن هذه الدنيا كثيرة المحن وسنصبر ونحتسب (!)[289]، ولم يكن السلطان العثماني يرفع بريطانيا إلى منزلة والديه اللذين أوجداه في الحياة ويقدم نصف مملكته إكراماً لعيونها[290]، ولم يكن المبعوث البريطاني يشرف على اجتماعاته وقراراته كما كان الجنرال كلايتون يفعل في مؤتمرات ملوك ورؤساء التجزئة[291]، ورغم معاهدات الامتيازات الأجنبية وعملية الإشراف المالي على بعض موارد الدولة بعد إفلاسها فلم يصل الاستخذاء إلى ما وصلت إليه دولة التجزئة في عزها ومجدها، وقد تنبه مؤرخ كبير هو عبد الرحمن الرافعي إلى الفارق بين حدود الهيمنة الأجنبية في الدولة العثمانية واتساعها في الولاية المصرية المستقلة، وذلك بسبب النزعة الأوروبية التي اتصف بها الخديو إسماعيل ورئيس وزرائه نوبار وتعلقهما بمساعدة أوروبا، عبر سفرائها، ضد الخلافة العثمانية[292]، ويمكننا أن نضع كل ما سبق من انبهار زعماء التجزئة بالغرب وتبعيتهم له

---

(289) الاثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ص163.

(290) مي محمد الخليفة، ص423-424.

(291) أحمد الشقيري، ج4 (الكتب والدراسات القومية/ 2) ص3135 (الجامعة العربية: كيف تكون جامعة وكيف تصبح عربية).

(292) عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، 1987، ج2ص261-265.

مقابل ما أشار إليه المؤرخ الصهيوني مايكل أورين من أن السلطان عبد الحميد "كان يكره الغربيين ويعاديهم"[293]، والدلائل هي موضوع هذه الدراسة كلها.

■ الحضور الدولي والمكانة بين الأمم

1 - عندما تمكن الرجل المريض من ردع أصحاب الأدب المسيء:

في السنوات الأخيرة من عمر دولة الخلافة العثمانية كان الضعف قد سرى في جميع أوصالها فتراجعت وهُزمت أمام أوروبا التي أطلقت عليها لقب "الرجل المريض" الذي تنتظر وفاته في أية لحظة لتقسيم أملاكه بين هذه الذئاب المحيطة به،

ولكن هذا الضعف الذي نصفه هنا إنما هو مقارنة بزمن قوتها وانتصاراتها لا بزمن كيانات الاستقلال الوهمي والتجزئة المجهرية التي قامت على أنقاضها وولدت ميتة لا حياة فيها وغير قادرة على القيام بأبسط مظاهر الحياة منذ يومها الأول، فلا تستطيع أن تطعم نفسها أو تدافع عن أملاكها إلا بحبل ممدود من الأجنبي الذي أوجدها وأعطاها شهادات ميلادها، على عكس حالة الرجل المريض الذي كان على الأقل رجلاً عملاقاً واحداً وليس مجموعة صغار مشرذمين، وحيّاً ما زالت الروح فيه رغم مرضه وضعفه، ولهذا تمكن من تحقيق انتصارات مشهودة على أعدائه الغربيين حتى في لحظاته الأخيرة في الحرب الكبرى الأولى (1914-1918)، ورغم أن الضعف العثماني كان نكبة في زمانه فإن نظرة على شكوى أبناء ذلك الزمن تجعلنا نعيد تقويم حالة المرض تلك في ضوء حالة الموت السريري التي أُصبنا بها بعدها.

ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ما كتبه الصحفي والكاتب السياسي المصري إبراهيم المويلحي (1844- 1906) في مجموعة مقالاته "ما

(293) مايكل أورين، ص278.

هنالك" التي تتناول السلطان العثماني والحكومة العثمانية والسياسة الخارجية والداخلية بكثير من النقد والسخرية، وكانت كتابتها في الفترة ما بين 1895- 1896 في صحيفة المقطم الموالية لسلطة الاحتلال البريطاني في مصر(294)، ومن مصادر أسى كاتبها أن "دولتنا في ميزان الدول العظام أخفهن على الإطلاق كفة وأقلهن رجحاناً ولا يناقش في ذلك إلا من هو بمعزل عن العالم"(295)، فماذا سيقول أديبنا لو أنه رأى "دولتنا" وقد تحولت إلى "دويلاتنا" التي هي بين جميع الدول حتى الصغيرة والضعيفة منها - وليس بين الدول العظمى وحدها- أخفهن على الإطلاق كفة وأقلهن رجحاناً ولا يناقش في ذلك إلا من هو بمعزل عن العالم؟؟

ومما يدل على ذلك مقارنة بسيطة بين الأحداث الحالية المتصلة بالأعمال الفنية الغربية المسيئة للإسلام ونظائرها التي حدثت في القرن التاسع عشر ولكن مصائرها آنذاك اختلفت عن اليوم نتيجة رد الفعل العثماني عليها رغم ضعف الدولة وتراجعها في زمن تضمن إنجازات كبرى فوصفه الباحث المعاصر موفق بني المرجة بصحوة الرجل المريض في كتابه الشهير الذي حمل هذا الاسم.

ومن ذلك ما يحكيه المؤرخ عمر فاروق يلماز عن مسرحية "محمد" للكاتب الفرنسي ماركي دي بوريز عضو الأكاديمية الفرنسية الذي استعد لعرضها في سنة 1890 وفيها مشاهد تسيء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى الإسلام بصورة ساخرة، فتدخل السلطان عبد الحميد فحُظر عرض المسرحية في جميع أنحاء فرنسا التي لم تدافع عن العمل بحجة حرية الرأي وذكر السفير الفرنسي في اسطنبول للسلطان ما يلي: "أُخبر حضرة السلطان بما ورد في التلغراف الذي تلقيته الآن بشأن المسرحية المسماة "محمد" لماركي دي بوريز التي بدأ عرضها في باريس، بأن الحكومة

(294) من مقدمة المحرر روجر آلن للأعمال الكاملة لإبراهيم المويلحي (الهامش التالي)، ص13.
(295) إبراهيم المويلحي، الأعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007، تقديم وتحرير: روجر آلن، ص29.

(الفرنسية) قد اتخذت في اجتماعها هذا الصباح قراراً بمنع عرضها. وفيما أرجو إبلاغ حضرة السلطان بنتيجة ما حدث، أقدم قناعتي بأنه لا توجد وسيلة أكثر ملاءمة لإبلاغ حضرتكم هذا الخبر وأنا واثق أنه بهذا القرار الذي اتخذته الحكومة لتلبية رغبات حضرة السلطان، سيتعزز الطلب بدوام أسمى العلاقات القلبية مع الدولة العلية، ومن أن السلطان سيقدر ذلك.."، ولنقارن هذه اللغة بلغة الغرب الآمرة الناهية لحكام الاستقلال والتجزئة في أيامنا المعاصرة.

المهم أن االمؤلف دي بوريز انتقل إلى بريطانيا وحاول عرض مسرحيته في لندن "فتدخل السلطان عبد الحميد خان هناك وجعلهم لا يسمحون بعرضها"، وجرت محاولة بعد ذلك بثلاث سنوات لعرضها في لندن أيضاً، ولكنها فشلت كسابقاتها[296].

ويتكلم المؤرخ يلماز نفسه عن مسرحية أخرى إسمها "جنة محمد" أريد عرضها في باريس سنة 1900، فأدى تدخل السلطان إلى تغيير اسمها وحذف مشاهدها المسيئة للإسلام، ويتحدث عن أعمال ومطبوعات معادية أخرى فشل نشرها بسبب التدخل العثماني الفعال - رغم أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يحمل الجنسية العثمانية بمقاييس سدنة الدولة القُطرية- وعن الصدى الحسن الذي قابل به المسلمون حتى من خارج الدولة العثمانية أعمال الدولة التي يعدونها ممثلة لهم جميعاً، كما لم يتبجح الغربيون وقتها بحرية الرأي والتعبير وغيرها من حججهم التي يقذفون اليوم بها في وجوه دول التجزئة بكل استعلاء واحتقار وكأنهم أساتذة أمام تلاميذ مشاغبين لا يُقبل منهم غير الإذعان.

(296) عمر فاروق يلماز، ص212-217.

2 - عندما أصبحت الفنون الهابطة مصالح غربية عليا وجب علينا تبجيلها:

* مسيرة عدوان وهبوط المصالح الغربية: من المواقع الاستراتيجية والمواد الأولية والأسواق التجارية إلى الآيات الشيطانية

لا يخفى على المتأمل في تاريخ الشرق العربي الإسلامي مقدار الأذى الذي ألحقته المصالح الغربية به وبأهله من جراء لهاثها خلف المواقع الجغرافية الاستراتيجية والأسواق لبضائعها المصنعة، والمواد الأولية كالمنتجات الزراعية (الحمضيات والقطن مثلاً) في البداية ثم النفط والغاز فيما بعد، ولن ننسى أنه في سبيل الحفاظ على هذه المصالح قام الغرب برعاية إنشاء الكيان الصهيوني ليكون كلب حراسة عليها.

هذا كله من المحفوظ في تاريخنا الحديث،ومعروف أيضاً الضعف الذي واجهت به دول الاستقلال والتجزئة الهجوم الغربي لانتزاع هذه المصالح من أصحاب البلاد الشرعيين،فسلمت مواردها وأراضيها لقمة سائغة للمعتدين ولم تستطع الحفاظ على حماها بسبب الضعف البنيوي الذي ولدت به في إمكاناتها وقدراتها حتى هان على أعدائها أن يستخفوا بأكثر من مليار ونصف المليار مسلم لأجل حماية كيان يهودي صغير لا تتعدى ملايينه عدد أصابع اليد الواحدة ومع ذلك يقيم الغرب لهم من الوزن أكثر مما يأبه بالمليار مسلم،وقد وصل الأمر من الإسفاف إلى درجة التلذذ غير الضروري بإهانتهم واحتقارهم كما حدث عندما استقبل الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلنتون ورئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير مؤلف الآيات الشيطانية سلمان رشدي الذي استفز مشاعر مئات الملايين من المسلمين ولم يكن بالطبع مستواه الأدبي الفذ الذي لا يبارى هو الدافع إلى هذا التكريم المبالغ فيه،بل هو الاستفزاز المتعمد الذي اتخذ من الحرص المنافق على حرية التعبير برقعاً يتخفى به في الوقت الذي حورب فيه مفكر بارز كروجيه غارودي رغم هذه الادعاءات ولم يحمه هذا الستار الرقيق من الحرية المدعاة.

بسبب فرقتنا، أصبح علينا احترام المصالح الغربية حتى لو كانت رسوما كاريكاتيرية

ووصلت المهزلة قعراً سحيقاً عندما استقبلت المستشارة الألمانية أنغيلا ميركل بنفسها بل وكرمت رسام كاريكاتير مغموراً باسم حرية التعبير (8/ 9/ 2010) والتي أساء بها لمشاعر المسلمين، رغم أن هذا غير مسموح به ضد القلة الصهيونية حتى تحت نفس التبرير، وبهذا أضيفت الرسوم الكاريكاتيرية إلى قائمة المصالح الغربية التي لا يجوز لنا العبث بها وإلا حلت علينا لعنة الفن السابع كما حدث في الفيلم المسيء الشهير، وربما أُضفنا إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة بتهمة ارتكاب جريمة الامتعاض ضد الإنسانية المتمسكة بحرية الرأي والتعبير.

*** ألمانيا من التخلي عن المصالح الكبرى احتراماً لنا إلى التباهي بالتافهات احتقاراً لنا**

أقول هذا وأنا أتطلع إلى الخلف قليلاً لأرى ألمانيا التي استخفت بنا اليوم في ظل انقسامنا كيف كانت تعاملنا بالأمس في ظل وحدتنا، ففي نهاية القرن التاسع عشر كانت ألمانيا قد أنجزت وحدتها وبنت قوتها وتطلعت لمصالحها خلف حدودها متبعة سياسة التحالف مع الدولة العثمانية تحت عنوان "التوجه نحو الشرق" ولأجل ذلك تخلت عن مصالحها الأخرى في تأييد الاستيطان اليهودي بل وأيضاً عن الاستيطان الألماني نفسه في فلسطين وأرجاء الدولة.

فقد قام الإمبراطور الألماني ولهلم الثاني بزيارتين إلى الدولة العثمانية (1889) و(1898)، وفي الزيارة الثانية حاول تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية الحصول على تأييد الإمبراطور لمشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، ولكن لوجود التعارض بين السياسة العثمانية والبرنامج الصهيوني فإن الإمبراطور خلص "إلى أن صداقة الدولة العثمانية أثمن لألمانيا من صداقة الحركة الصهيونية، ولذلك لم يكن في مقدور ولهلم الثاني أن يدلي

في تلك الفترة بتصريح يرضي فيه الأماني الصهيونية، لأنه كان حريصاً الحرص كله على تدعيم صلاته بالدولة العثمانية وبرعاياها المسلمين"[297]، رغم أن ويلهلم كان يرى في تأييد الصهيونية مكسباً كبيراً ومزايا كامنة لألمانيا[298]، فأين جبابرة سايكس بيكو الذين يرى الغرب كله صداقة الحركة الصهيونية اليوم أثمن من صداقتهم جميعاً، بل تصبح صداقتهم مع الغرب تابعة لمدى حرارة علاقاتهم بالصهاينة وفي ذلك فليتنافس المهرولون، ويدلي قادة الغرب بالتصريح تلو الآخر في إرضاء الأماني الصهيونية ولا يبدون أي حرص على دعم صلاتهم بدول التجزئة ورعاياها؟

نعم لقد كان لألمانيا بالفعل مصالح في الدولة العثمانية أبرزها سكة حديد بغداد، ولكنها لم تكن أكبر من المصالح الغربية العريضة في زمننا هذا في الشرق العربي الإسلامي والتي بالرغم منها يفضل الغربيون المصالح الصهيونية على مصالح العرب والمسلمين ويمعنون في إهانتهم كما مر، " فقد كان (السلطان)عبد الحميد أدهى من أن تبهر بصره بطولات حاميه (الألماني) الجديد، ولكنه كان يدرك قيمة مثل هذا الحليف القوي في المحافل الأوروبية، وكان كذلك واثقاً بقدرته (الذاتية)على دفع جميع المخاطر التي قد تنشأ عن رغبة ألمانية في السيطرة"[299]، ولهذا فإن ألمانيا لم تستطع أن تفرض على العثمانيين استيطاناً ألمانيّاً-فضلاً عن الاستيطان اليهودي- في بلادهم، رغم أهميته لها ضمن استراتيجيتها الحيوية لمشروع سكة بغداد الذي تقيمه بأموالها وتصور ساستها أن يحمي طريقه مليونا مستوطن ألماني[300]، ورغم حاجة العثمانيين إلى تحالفهم معها في مواجهة بقية المصالح الأوروبية وبخاصة البريطانية والفرنسية، ولكن كل هذا لم يمنع السلطان من قول "لا" مدوية لا لبس فيها في مواجهة الاستيطان الألماني

---

(297) دكتور حسن صبري الخولي، ج اص79.

(298) الدكتور عبد الوهاب المسيري، أرض الميعاد: دراسة نقدية للصهيونية السياسية، الهيئة العامة للاستعلامات، جمهورية مصر العربية، 1980، ص133.

(299) جورج أنطونيوس، ص147.

(300) Robert Aldrich, p. 247.

بتعبير أحد المؤرخين[301]، وذلك ليبقي أراضي الدولة مخزوناً للمهاجرين المسلمين الفارين من الاضطهاد والاحتلال[302] الذي كان محتدماً في القوقاز والبلقان، وأن يحتفظ لمشروع سكة حديد بغداد ببعده العثماني رغم أهمية الدور الألماني في بنائه[303]، فأين لنا اليوم مثل هذه المواقف القوية في مواجهة المصالح الأجنبية عندما تكون هي في حاجة إلينا فضلاً عن أن نكون نحن في حاجة إليها؟

* قبر صلاح الدين بين زيارتين

وفي نفس الزيارة قام الإمبراطور ولهلم بالمرور بدمشق حيث زار قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي ووضع عليه إكليلاً من الزهور آمراً بصنع مصباح فضي هدية للضريح بصفته معجباً بالقائد المسلم، ولعل مقارنة بسيطة بين هذا الاحتفاء و"زيارة" القائد الفرنسي غورو المهينة لنفس المكان عندما دخل دمشق فاتحاً محتلاً في عهد سايكس بيكو الذي دشنته ثورة العرب (1916) المتحالفة مع بريطانيا، هذه المقارنة كفيلة بإلقاء الضوء على مدى الانحدار الذي سقطنا فيه في مدى سنوات قليلة من التحالف مع الغرب.

* النتيجة: سر الاحترام والاحتقار

إن هذا التباين الواضح في المواقف من الفنون المسيئة بل من المصالح الكبرى بين الأمس واليوم نجد تفسيره في خطبة الإمبراطور ولهلم في دمشق حيث ألقى خطاباً قال فيه: "فليطمئن حضرة صاحب الجلالة السلطان، وليطمئن معه الثلاثمائة مليون مسلم الذين يحترمونه لأنه خليفة المسلمين، إلى أنهم سيجدون في إمبراطور ألمانيا الصديق الدائم لهم"[304]، فمخاطبة حاكم واحد يمثل أمة كبرى عدد أفرادها ثلاثمائة

---

(301) Jonathan S. McMurray, p. 10.

(302) السلطان عبد الحميد الثاني، ص130.

(303) Jonathan s. McMurray, p. 1.

(304) دكتور حسن صبري الخولي، ج1ص79-80.

مليون-في ذلك الزمن-وتمتد بين المحيطات تفرض احترامه على مخاطبه وتختلف جذرياً عن مخاطبة حشد من الصغار أصحاب الهيلمان الكاذب والصولجان الزائف الذين لا يمثل الواحد منهم إلا أفراداً لا يزيد عددهم عن عدد سكان حي في مدينة ألمانية.

* نظام الحكم وحدود الاستبداد

كثر الكلام عن استبداد السلطان عبد الحميد بل ودمويته أيضاً، ولكن اقتراب العدسة من الصورة يؤكد أن إسقاط المصطلح الخاص بالاستبداد العربي المعاصر على استبداد السلطان عبد الحميد فيه الكثير من التجني والتجاوز، ولإثبات ما أقوله عن آخر أيام الخلافة سأروي جانباً من علاقة أحد معارضي السلطان بالدولة في زمن أوج ما وصف باستبداده، وسنرى أنها لم تكن علاقة فريدة في زمنه: كان يوسف ضياء باشا الخالدي(1842-1906) نائباً عن فلسطين في مجلس النواب الأول 1877-1878 "وبرز في مقاومته ونقده لسياسة السلطان عبد الحميد وفي ازدرائه (أي السلطان) للدستور... وصفه يوجين شيلر، القنصل الأمريكي في العاصمة العثمانية، بقوله: لقد أثار يوسف زوبعة في البرلمان بجرأته... إنه ينتقد السلطان والموظفين الفاسدين والأتراك بشكل عام بألفاظ فظة" ف"قرر(السلطان) حل البرلمان... وبعد يومين، تقرر نفي عشرة أعضاء بارزين من المعارضة" ويخيل للمرء للوهلة الأولى أن النفي سيكون إلى ما وراء الشمس حيث لا يصل مخلوق فإذا بنا نفاجأ أنه "نُفي" إلى وطنه ليتقلب في المناصب الرسمية (!)

"وصل يوسف الخالدي إلى ميناء يافا... وانتقل منها إلى القدس، فتسلم رئاسة البلدية مرة أخرى(!) وفي تشرين الأول أكتوبر 1878 أرسله رءوف باشا على رأس أربعين فارساً لإحلال النظام في الكرك (!)... وسافر يوسف إلى فيينا في أواخر أيلول سبتمبر 1879 (!)، بعد أن استقال من رئاسة البلدية.... وفي السنة التالية أصدر في فيينا ديوان لبيد العامري (!)... وعن تعيين يوسف ضياء مدرساً في جامعة فيينا جاء في جريدة الجوائب التي

كانت تصدر في الآستانة، العدد رقم 984 الصادر في 7/ 1/ 1880، ما يلي: إن حضرة عزتلو ضياء أفندي الخالدي الذي كان مبعوث القدس الشريف بالآستانة... (ثم تذكر أخباره وسعيه في نفع بلاده حتى في الغربة)...".

"وفي سنة 1881 عاد يوسف ضياء إلى فلسطين وعين قائمقاماً في يافا (!)، ثم مرجعيون في السنة التالية (!)، وبعدها عين حاكماً على مقاطعة موطكي في الشمال الغربي من بتليس التي يسكنها الأكراد (!)، وهناك أتقن اللغة الكردية فوضع بعد ذلك قاموساً وصدر في الآستانة سنة 1892-1893 تحت اسم الهدية الحميدية في اللغة الكردية (!). ويظهر أن يوسف تصالح مع الباب العالي والسلطان عبد الحميد فعاد إلى الآستانة للعيش فيها (!)" ولنر كيف كانت هذه المصالحة: "ذكره الكاتب البريطاني أمري في مذكراته، ص69-70، بقوله: إن يوسف ضياء، كشاب متحمس، تمتع في الماضي بحرية واسعة في البرلمان في نقد الدولة وسياستها... وحتى في قصر السلطان، وبحضوري، كان هذا الباشا الصريح يردد على مسامع عزت باشا (كاتب السلطان) الحديث عن شرور نظام عبد الحميد، وهذا(أي عزت باشا) يسمعه بخنوع ويطلب منه فقط ألا يرفع صوته عاليا"(!!)، هذا هو السلطان المستبد الأحمر الذي ضاقت الأرض بظلمه: "ينفي" عدوه إلى موطنه ويقلبه في الوظائف والسفريات والرحلات حيث يتعلم اللغات وينشر ما شاء له من مؤلفات وتكتب أخباره بتفخيم صحف العاصمة حيث مركز الاستبداد، ولما يصالح المنفي ظالمه يدخل قصره وينقده بصوت عال فلا يجد من يتصدى له إلا ربيباً يحفظ جميله القديم ويقدم ذلك على الرعب من السلطان الأحمر في عقر داره ويرجو من صاحب الصوت العالي أن يخفض من صوته فقط (!!) فإذا علمنا أن هذا الأسلوب من "العقوبات الرادعة" هو الذي كان متبعاً في خلافة عبد الحميد، أدركنا مدى الاستغفال الذي أقنعنا بمظالمه وتمنينا في نفس الوقت لو كنا من معارضي السلطان لنحظى بتلك الرحلة السياحية التي حصل عليها يوسف باشا الخالدي، ويفترض أنها نفي، لنعود بعدها ونرفع صوتنا المعارض في عقر قصره (!)، وقد اقتبست النصوص السابقة من كتاب أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني ولم أتدخل قدر

الإمكان لأنقل الحقيقة كما سطرت إلا في علامات تعجبي[305].

ومن الأدلة على أن هذا التسامح مع المعارضة هو الذي كان سائداً أننا كلما قرأنا عن معارض للسلطان عبد الحميد ارتبط ذكره بما منح له، فالأستاذ أحمد الشقيري رحمه الله يذكر أنه ولد في "معتقل" والده في قلعة تبنين في لبنان زمن السلطان[306]، وإنه لاعتقال طريف هذا الذي يعيش صاحبه مع أسرته وينجب ما شاء له من الأبناء، والأطرف أن هذا المعتقل، بعدما "حررته" بريطانيا من الاستبداد العثماني، استشرف الأفق المظلم الذي يخبئ الأهوال لشعبه تحت حكم "الحرية" البريطانية، فانتهز الفرصة "للانتقام" من ظالمه العثماني بطريقته الخاصة فكان "يتحدث بحرارة المؤمن المنافح عن أيام الباب العالي في إستانبول وعن الموقف الشهير الذي وقفه السلطان عبد الحميد في رفضه استقبال هرتسل مؤسس الصهيونية"[307]، ويذكر الأمير شكيب أرسلان في رحلته الحجازية أثناء حديثه عن الوصول للطائف: "وقد أنزلتني إمارة الطائف في دار شاهقة كانت تخص أحد أمراء الأكراد ممن نفي إلى الطائف أيام السلطان عبد الحميد"[308]، وفي حوادث سنة 1905 من تاريخ العراق بين احتلالين خبر نفي بعض العلماء منهم ثابت الآلوسي ومحمود شكري الآلوسي إلى بلاد الترك ولكن "لم يطل أمر تبعيدهم ولا تجاوزوا الموصل وإنما تشبث أهل الموصل من علماء وأعيان كما تشبث الأستاذ الحاج علي علاء الدين الآلوسي الذي كان في استنبول في إرجاعهم فعادوا بعد مدة قصيرة"[309].

فهل هذه النماذج وغيرها مما يضيق المقام بها تناسب ما علق بأذهاننا

---

(305) عادل مناع، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني1800-1918، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1997، ص147-149.

(306) أحمد الشقيري، ج1 (المذكرات/ 1) ص122 (أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية).

(307) نفس المرجع، ج1 ص113.

(308) الأمير شكيب أرسلان، الرحلة الحجازية المسماة الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، دار النوادر، دمشق، 2007، ص212.

(309) عباس العزاوي المحامي، ج8 ص180-181.

نتيجة الاستغفال الاستشراقي عن الاستبداد العثماني الأحمر؟ وهل تقارن بما ساد بعدها من مركزية دويلات سايكس بيكو؟ ألسنا بحاجة إلى إعادة النظر في تاريخنا لنبني عليه ما يناسبنا لا ما يملى علينا من مصالح غيرنا؟

*** طريقة مواجهة الثورات والأزمات**

يروي الأمير شكيب أرسلان أنه عندما جرى الانقلاب على السلطان عبد الحميد سنة 1909 نصحه الصدر الأعظم توفيق باشا بعدم المقاومة خوفاً من حرب أهلية، وأنه كان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش الخلص للسلطان، إلا أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة، فخضعوا لمحمود شوكت باشا قائد الانقلاب[310]، وقد أكد السلطان أنه لم يكن يرغب في إراقة دماء جنوده لأن الأمة لم تعد تثق به[311]، ولو كان مستبداً ودموياً إلى الحد الذي صوروه به لما أصغى لتوفيق ولا لأي رفيق، ولسفك الدماء ودمر البلاد في سبيل عرشه.

ورفض طلب العون الأجنبي من سفراء الدول الكبرى القادرين على حمايته "لم أتدن حتى أطلب لنفسي حماية دولة أجنبية وأشخاص أجانب"[312]، كما رفض الهرب والفرار "لم أنحط ولم أتدن إلى درجة الفرار" ورغم توقعه أن يحدث له ما حدث لعمه القتيل السلطان عبد العزيز، ورغم قدرته على الفرار من هذا المصير "ومع هذا، فلو قطعوا لحمي إرباً إرباً، فلن أفكر في اللجوء إلى دولة أجنبية، إن الهروب من الوطن يوجب العار، بل إن أكبر أنواع الانحطاط والسفالة أن يرتكب إنسان مثلي يحكم دولة منذ ثلاث وثلاثين سنة، عملاً مثل هذا، إني مستسلم لله ولقضائه"[313]، ورفض كذلك العودة على أسنة الرماح الأجنبية "لست

---

(310) الأمير شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير ودار التربية، دمشق وبيروت، 2001، ص337.

(311) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص194.

(312) نفس المرجع، ص199.

(313) نفس المرجع، ص200.

بالسلطان الذي يرفعه الإنجليز أو الألمان إلى العرش (رغم صداقته مع ألمانيا)، لا أرى الله حاكماً قط ذلة أن يكون مديناً لدولة أجنبية في ارتقاء لعرش أو لبس لتاج"[314]، ومن الواضح أن الله لم يستجب دعاء السلطان في ملوك التجزئة الذي أتى جميعهم على أسنة الرماح الأجنبية ولم يغيروا ما بأنفسهم فلم يغير الله ما بها، ولما اقتربت جيوش الحلفاء من اسطنبول في الحرب الكبرى وفكرت الحكومة في نقل العاصمة والخروج من المدينة رفض السلطان المعزول عبد الحميد ذلك واستشهد بموقف الإمبراطور البيزنطي الذي مات دفاعاً عن القسطنطينية يوم فتحها، ولما زاره طلعت باشا أحد أركان الاتحاد والترقي لاقتراح الخروج أجابه بالقول: "لا، لست أقل من قسطنطين الإمبراطور البيزنطي، إنني أعرض طاعتي الكاملة لحضرة صاحب الجلالة أخي (السلطان محمد رشاد)، وإني خرجت من سلانيك بناء على إرادته الشاهانية، لكني لن أخرج من استانبول، إني أسترحمه بشرف أجدادنا ألا يخرج هو أيضاً من استانبول"، وقد وصف الباشا حالة السلطان لما طلب إليه الهروب من العاصمة بأنه أصابته حالة أشبه بالجنون مطالباً أخاه بإبداء نفس الصلابة والثبات وحب القسطنطينية التي أبداها الإمبراطور قسطنطين، وهو ما "علينا نحن أحفاد المغفور له السلطان محمد الفاتح"[315].

فأين كل ذلك من استبداد تجزئة سايكس بيكو ومذلتها ومخابراتها وانحطاط أنظمتها الديكتاتورية واللائذة بالحماية الأجنبية؟؟

* السلطان عبد الحميد وآخر أيام الخلافة في الذاكرة

إن كتاب "السلطان الأحمر عبد الحميد" مؤلف استشراقي يحكي قصة حياة هذا السلطان بأسلوب تلخصه صورة الغلاف المليئة بالقتل والدم والرقص والبذخ إضافة لقسوة تعابير وجه السلطان الغارق في كل ما سبق،

---

(314) نفس المرجع، ص210.

(315) نفس المرجع، ص257-258.

وقد أصبح هذا الاختزال من مخلفات الماضي، ولكن المهم ما قاله المؤلف "جون هاسلب" في خاتمة الكتاب تحت عنوان "السنوات الأخيرة" التي أعقبت خلع السلطان عن العرش: "لا نعرف الشيء الكثير عن السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد الحميد... (و) ربما لم يكن عبد الحميد يوماً، أقرب إلى شعبه مما كان عليه في تلك الأيام، حين امتزجت همومه الشخصية بمخاوفه على مستقبل بلاده، في وقت كانت فيه مدافع مدينة غاليبولي تدوي عبر المضايق، ودخول الغواصات البريطانية إلى بحر مرمرا يزرع الذعر في العاصمة... ثم تتابعت الكوارث، وأخذ الناس يترحمون همساً وبأصوات منخفضة، على زمن سعيد مضى، زمن كان فيه "البابا حميد" جالساً على عرش سلاطين بني عثمان"[316].

ويؤكد ذلك الأستاذ سعيد الأفغاني الذي كتب من دمشق في مجلة العربي الكويتية تحت عنوان "عبد الحميد في ذاكرة شعبه": "إني أعي في طفولتي-وقد نزل من ويلات الحروب وضياع البلاد والمجاعة والقحط أيام الحرب العامة الأولى- الناس وهم لا يملون من ذكر أيام عبد الحميد بالخير والرحمات، وكانت كلمة (سقى الله تلك الأيام) لازمة تتردد على الألسنة كلما ذكر عبد الحميد وعهده، ولقد كان عندهم خلع عبد الحميد هو الباب الذي منه تدفقت على البلاد المصائب والشدائد والضياع، ومالي أرجع إلى عهد الحداثة (أي صغر السن) وأنا الآن كلما جلست إلى معمر أو أصغيت إلى حديث يدور بين طاعنين في السن أسمع الترحم على عبد الحميد وعلى أيامه، حتى صار اسمه حناناً في قلوب الناس، تجسد فيه عزهم السابق ورخاؤهم وأمنهم وسلامة مقدساتهم"[317].

(316) جون هاسلب، ص342.

(317) سعيد الأفغاني، سبب خلع السلطان عبد الحميد: وثيقة بتوقيعه، فريدة مجهولة تصرح بالسبب، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، عدد 169، ديسمبر 1972، ص157.

❊ الاستنتاج

كانت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر "تكافح لإصلاح ذاتها والحفاظ على وجودها دولة حديثة"[318] كما يقول المؤرخ جستن مكارثي، فقامت بإنجازات عديدة رغم الظروف المعاكسة، ولكن أعداءها لم يتركوا لها "فسحة للتنفس"، وأصروا على استنزافها حتى لحظاتها الأخيرة، وكان الاستنزاف الغربي للدولة يستهلك نسبة عظمى وصلت إلى 95% من ميزانيتها في خدمة الديون والإنفاق على الجيش لحماية الدولة[319]، وفق أرقام بداية القرن العشرين، ولو قدر لبلادنا الاحتفاظ بوحدتها والسير في تقدمها بنفس المعدل منذ آخر أيام الخلافة لكنا في مكان آخر اليوم ولكن القضاء على وحدة مجالنا السياسي أصبح هدفاً لقوات الحلفاء في الحرب الكبرى ولهذا تم تقطيع أوصال الدولة العثمانية بعد الحرب بطريقة لم تطبق حتى على ألمانيا زعيمة دول الوسط، مما أدى إلى قطع الطريق على إنجازاتنا السابقة وأفقدنا إمكانات البناء الموحد المتأتية من تنوع الموارد الاقتصادية في المجال الجغرافي الواسع وأدى فرض التجزئة الاستعمارية إلى تدمير المشاريع الوحدوية الكبرى التي وصلت بين أرجاء أمتنا ومنع احتمالات قيام مشاريع جديدة، كما أدى فرض الهيمنة الأجنبية الانتدابية إلى فرض التبعية للقوى الغربية المهيمنة على اقتصاديات بلادنا التي أصبحت عاجزة عن الاكتفاء الذاتي لقلة مواردها الناتجة عن صغر مساحات كياناتها المجهرية بالإضافة إلى فرض نمط من التطوير الاستعماري الذي لم يأخذ في الحسبان إلا مصالح المراكز الإمبريالية المهيمنة ولذلك كانت جميع مظاهر التطوير متجهة لخدمة هذه المصالح الغربية فلم تؤد إلى تغيير الهياكل الاقتصادية في دول التجزئة لصالح تنمية اقتصادية مستقلة وهو عجز يشير إليه واقع هذه البلاد بعد نهاية الانتدابات بكل وضوح، وكل ما سبق يعطي

---

(318) جستن مكارثي، ص22.

(319) Shaw & Shaw, p. 225.

- د. محمد الناصر النفزاوي، ص118.
- Andrew Wheatcroft, p. 192-193.

أجيالنا درساً موثقاً عن أهمية الوحدة وإنجازاتها، لأن منطق الوحدة والكيان الجامع حتى مع الضعف الطارئ أفضل من منطق التجزئة والفرقة الملازم للاستسلام والتبعية، فالكيان الكبير يفرض على أصحابه منطق الدولة العظمى الذي يقتضي الاستقلال والتميز عن بقية القوى الدولية والعمل المستمر على البقاء في المقدمة ويتمكن من ذلك بالإمكانات الكبيرة المتوفرة لديه من الاتساع الجغرافي كما نرى في الدول الكبرى اليوم، أما الكيانات الصغيرة العاجزة عن إطعام أنفسها والدفاع عن حدودها وتلبية حاجات مواطنيها لقلة إمكاناتها فإنها لا ترى حل مشاكلها إلا في التبعية للدول الكبرى المعادية لقضايانا والتي حققت اكتفاءها على حساب ثرواتنا المبعثرة بين أيديها بعد عجز أصحاب هذه الثروات عن حسن استغلالها وحماية حقوقهم فيها.

(4) الحوار الحضاري في التاريخ الأمريكي:
هل انتقلت التنمية والحضارة والتقدم الأوروبي إلى السكان الأصليين؟

عندما تلتقي أي جماعتين بشريتين على أرض واحدة ينشأ بينهما حوار حضاري إذ يتعلم كل منهما من الآخر ما يراه مفيداً لحياته، وإذا كان هذا الوصف صحيحاً في العلاقات السلمية كالسياحة والتجارة والهجرات، فإنه صحيح أيضاً في مجال الصدامات إذ لا تمنع الحرب بين فريقين، وبخاصة إذا طال أمدها، عملية الاقتباس المتبادل بينهما، وإن كانت درجته تختلف حسب تفوق كل منهما، ذلك أن الطرف الأضعف مولع بتقليد الغالب كما أكد ابن خلدون، وقد عرفنا مثل هذه الحوارات في تاريخنا الإسلامي أثناء حروب الفرنجة الصليبية التي كانت مناسبة للتبادل الحضاري الذي كان نصيب الفرنجة منه أكبر بحكم التفوق الإسلامي، والغزوات المغولية التي انتهت بإسلام الغزاة فكان ذلك ثغرة في القاعدة الخلدونية، وأيضاً أثناء الفتوحات الإسلامية حين لم يتردد المسلمون في تمثل الحضارات التي دخلوا أراضيها من موقع القوة والاقتدار.

وبحلول عصر الكشوف الجغرافية انطلقت أوروبا في القرن الخامس عشر وما تلاه في آفاق العالم محاولة دعم مواجهتها مع عالم الإسلام فعثرت في محاولتها هذه على عوالم أخرى ما لبثت أن دخلت في مواجهات معها لاستنزاف مقدراتها، سواء لدعم دول المركز الأوروبي أو لتأسيس كيانات جديدة قائمة بنفسها في تلك الأصقاع، وكانت المواجهة في القارة الأمريكية مع سكانها الأصليين نذيراً لما سيصيب بقية أنحاء العالم بعد ذلك سواء في استرقاق إفريقيا أو استعمار آسيا أو إبادة أستراليا أو تقسيم العالم الإسلامي وكل ذلك جرى نموذجه البدئي في القارة الأمريكية لأنها شهدت أول تطبيق لرؤية عالم النهضة الغربية والأنوار الأوروبية والعقل الحديث على العوالم غير البيضاء، ومن هنا كانت أهمية دراسة هذا الموضوع في التاريخ الحديث.

■ الحوار الحضاري في ظل صراع الوجود

منذ بداية اللقاء بين العنصرين الأوروبي الوافد والهندي الأصلي في أمريكا اتضح أنه سيكون هناك صراع بين الطرفين لأن إسبانيا في البداية اهتمت بالحصول على ثروات أمريكا الوسطى والجنوبية، واهتم مهاجرو إنجلترا بالحصول على أرض الهنود، وربما لم يكن واضحاً لدى الجميع في بداية القرن السابع عشر أن الأوروبيين سيكتسحون القارة كلها ويستوطنونها ويطردون جميع سكانها، ولكن الواضح آنذاك أن الأوروبيين يصارعون أهل البلاد على أرضهم أينما حلوا، وعدم وجود مخطط أوروبي في ذلك الزمن للاستيلاء على القارة كلها لا يبرئ الأوروبيين من سبق الإصرار، وذلك على عكس ما يحاول إثباته الساعون للحصول على صكوك الغفران الحضارية بأثر رجعي، فبؤس المشهد المحلي الذي صاحب جميع تجارب الاستيطان الأولي في أمريكا، وما لازمه من نهم لا يشبع لابتلاع الأرض لم يتوقف إلا أمام المحيط الهادي، يثبت أن مصير السكان الأصليين كان إلى زوال أينما حل القادمون الجدد، وما حدث في القرون التالية لجميع السكان الأصليين ليس سوى إعادة مملة للفيلم الذي عرضته أولى المستعمرات في أمريكا، سواء في فرجينيا (منذ 1607) أو بلايموث (منذ 1620).

وقد لخص أحد المؤرخين حقيقة التناقض بين السكان الأصليين والمهاجرين الأوروبيين بتوضيح جانبها الاقتصادي الذي لخص المشكلة الهندية بالسؤال التالي: كيف يمكن الحصول على موارد الهنود؟ وبالقول أيضاً إن جميع أوجه العلاقة بين الطرفين اشتقت من قضية جوهرية واحدة هي الصراع على الأرض، أو التمدد الأمريكي في أرض الهنود ومقاومة هؤلاء هذا التمدد، وقد ألفت العلاقة بين الهندي والأرض مصدر هويته الشخصية والثقافية والاجتماعية، وكانت الرأسمالية التي يعتنقها المجتمع الأمريكي تجعل الأرض إحدى عناصر الإنتاج الرئيسة (مع رأس المال والعمل)، ولا يمكن تحقيق التراكم الرأسمالي إلا بفك قيود الروابط بين الهندي وأرضه والتي تناقض حرية السوق، ولم يكن من الممكن تحقيق ذلك إلا بأحد حلين: تغيير جذري في المجتمعات الهندية أو إزاحتها من

الطريق[320]، ولكن ما هو موقف السكان الأصليين من هذا الطوفان؟

تشير حوادث التاريخ إلى أن كثيراً من المجتمعات الهندية قبلت السير على نهج التغيير وتبني طريقة حياة الرجل الأبيض، وقطع بعضها خطوات واسعة جداً في هذا السبيل كما هو موضح فيما سبق، ولكن المجتمع الأمريكي لم يترك لهذه المجتمعات فرصة للحياة حتى على صورته وظل يطمع بما في يدها من بقايا الممتلكات التي حصرها فيها في مراحل سابقة ودمر كل إنجازاتها التي وصلت إلى محاولة الدخول في الاتحاد بولاية خاصة تمتلك جميع المقومات.

ولما كانت الأرض التي يعيش عليها الهندي هي الهدف الذي يتطلع إليه الرجل الأبيض في صراعه مع غريمه كما حدد ذلك الرئيس الأمريكي الأول ومؤسس الجمهورية جورج واشنطن[321]، موجزاً بذلك طبيعة العلاقة في كلمات قليلة ومبدداً أوهام الهداية الدينية وجلب الحضارة والتعايش، فقد كان من الطبيعي أن يتخذ الصراع طابعاً دموياً، يتراجع الهندي بقدر ما يتقدم غريمه، ولكن هذا الصراع لم يتم في برهة قصيرة بل امتد مئات السنين وأعطت هذه المدة فرصاً لنشوء حوار حضاري اقتبس فيه الطرفان من منتجات بعضهما الثقافية والمادية ما يعين كل منهما على حياته ويقويه في صراعه، وقبل أن تتحدد نتيجة هذا الصراع شاهدنا تبادلاً مثيراً منه على سبيل المثال ما جعل شباب المستوطنين الإنجليز في أرياف المستعمرات يباهون بارتداء ملابس الهنود (المئزر والجوارب الجلدية) ويذهبون بها إلى اجتماعات الكنيسة حيث يلفتون انتباه الفتيات[322]، ومن الطبيعي ألا يحدث ذلك إلا بين أمتين متعادلتين حضارياً قبل أن تميل الكفة وتهزم إحداهما، كما حدث اختلاط كبير في الدماء نتيجة الزواج المختلط لاسيما بين رجال

---

(320) Jack Utter, American Indians: Answers to Today's Questions, University of Oklahoma Press, Norman, 2001, pp. 48-49.

(321) Wiley Sword, p.27.

(322) Colin G. Calloway, The American Revolution in Indian Country, Cambridge University Press, 1995, p. 18.

الحدود من تجار وصيادين ووكلاء ونساء الهنود مما نتج عنه سلالة عملت وسيطاً بين الحضارتين ولكنها اصطفت في كثير من الأحيان إلى جانب الرجل الأبيض فسهلت له تنفيذ برامجه وكانت لعنة على السكان الأصليين رغم أنها كانت بائسة وفقيرة ومستبعدة مثلهم، ويكوّن اليوم ذوو الدماء المختلطة معظم من يصنفون أنفسهم من أصول هندية[323]، وقد تم التبادل الحضاري في الماضي وفقاً لما يلي:

■ **ما اكتسبه الأوروبي والأمريكي من عالم الهندي الأصلي:**

في البداية لا بد من التنبيه إلى أن أهم ما اكتسبه الرجل البيض من الهندي كان الأرض التي يعيش عليها، وهي الجائزة الكبرى التي دار الصراع عليها وحولها، وفي أثناء ذلك وقعت الفوائد المساعدة التالية:

1 - الاعتماد على المساعدات الغذائية الهندية: كان ما قدمه السكان الأصليون من مساعدات حيوية للوافدين الجدد ضرورياً لبقاء المهاجرين على قيد الحياة، وقد ظلت مستعمرة فرجينيا بعد نشوئها بسنوات طويلة تعتمد على الهنود في التزود بالذرة لغذائها[324] في نفس الوقت الذي كانت فيه مستعمرة بلايموث تحتفل مع السكان الأصليين بالنجاة بعد أول حصاد يمر عليها بمساعدتهم (1621).

2 - تعلم الحياة في البيئة الجديدة: ذلك أن المهاجرين الأوروبيين وجدوا أنفسهم في بيئة قاسية لما وصلوا العالم الأمريكي الجديد عليهم، ولم يتمكنوا من النجاة إلا بفضل المساعدة التي قدمها لهم السكان الأصليون عن طرق الحياة فيه والتي سميت "مهارات البرية"، كصناعة الفخاخ والصيد وبناء القوارب وإشعال النيران وصيد الأسماك وصناعة الأحذية الخاصة بالسير على الثلوج، هذا بالإضافة إلى زراعة النباتات

(323) Russell Thornton, p. 176.

(324) Wilbur R. Jacob, Dispossessing the American Indian: Indians and Whites on the Colonial Frontier, University of Oklahoma Press, Norman, 1985, p. 160.

الغذائية التي لم يكن الأوروبي يعرفها في الوقت الذي يعتمد عليها الهندي في غذائه كما سيأتي، وقد تعلم المهاجرون مسالك القارة وطرقها ومصادر المياه فيها من السكان الهنود، وموجز الأمر أن الوافدين الجدد "تعلموا كيف يبقون على قيد الحياة بالتلاؤم مع الطبيعة باستخدام التقنية الهندية"[325].

3 - التعرف إلى نباتات جديدة: حفلت البيئة الجديدة التي وجد المهاجرون الأوروبيون أنفسهم فيها بنباتات لم تكن معروفة في العالم القديم ويقدر عددها بأكثر من أربعين، وقد تعلموا من السكان الأصليين استخدامات عديدة لها تراوحت بين الغذاء والدواء والملبس، ومن هذه المحاصيل الجديدة الذرة والبطاطا والطماطم والكاكاو والفول السوداني والتبغ والقرع واليقطين ودوار الشمس واللوبيا وغيرها من المحاصيل التي تكون اليوم ثلثي الإنتاج الزراعي البشري[326].

4 - التعلم من الطب الهندي: على عكس ما هو شائع عن طب المجتمعات "البدائية" الموسوم بالسحر والخرافة عادة، تعلم المهاجرون الأوروبيون استعمال ستين نبتة برية من الهنود الحمر للاستخدامات الطبية وعلى رأسها الكوكايين والكينين[327]، وقد عد أحد المؤرخين مائة وسبعين دواء كان الهنود يستعملونها مازالت على قائمة الاستعمالات الحديثة في وقت كان الطب لدى المهاجرين الأوروبيين مازال ساذجاً وخرافياً مقارنة بحقيبة الطبيب الهندي[328]، ويقول مؤرخ آخر إن الطب الهندي في أمريكا كان معقداً ومركباً وفعالاً في علاج الأمراض المعروفة في القارة قبل الهجرة الأوروبية ولكنه لم يكن كذلك مع الأمراض الوافدة[329].

---

(325) Arnold Marquis, A Guide to America's Indians, University of Oklahoma Press, Norman, 1987, p. 22.

(326) نفس المرجع، ص21.

(327) نفس المرجع، ص22.

(328) Wilbur R. Jacob, pp. 163-164.

(329) Russell Thornton, p. 47.

5 - فنون القتال: أدت إعادة اكتشاف مآثر الهندي بعد فوات الأوان وزوال خطره إلى الاهتمام بمنجزاته الحضارية التي اكتشف منها أنه أثناء المواجهات العسكرية بين السكان الأصليين والوافدين الأوروبيين كان "أكثر المقاتلين الأوروبيين نجاحاً هم الذين تبنوا طرق الهنود في الحرب لتصبح طرقهم الذاتية" وأن "نجاح الأوروبيين في حروب التخوم كان متوقفاً على قدرتهم على تحقيق التوازن بين تقاليدهم العسكرية وطريقة الهنود في الحرب" لأن "التطور العسكري الأوروبي في حد ذاته لم يكن ضماناً لإخضاع القارة"[330]، ويحكي أحد الجنود الأمريكيين متذكراً الحروب الهندية (1865-1890) التي أعقبت الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) أن سرعة الهندي في إطلاق سهامه كانت تفوق سرعة الجندي في إطلاق رصاصه من بنادق ذلك العصر[331]، وكما تأقلم الوافد مع فنون القتال الهندية فقد عدل السكان الأصليون من طرقهم القتالية لتكون أكثر فعالية في مواجهة الأسلحة النارية[332].

6 - التنظيم السياسي: بعد سبعين عاماً من هزيمة المقاومة الهندية المسلحة ضد الاستعمار الأمريكي وزوال خطر السكان الأصليين على الوافدين الأمريكيين، اعترف الرئيس الأمريكي جون كينيدي بالأثر الهندي في بناء النظام السياسي الأمريكي الذي استلهم آباؤه المؤسسون (ومنهم بنيامين فرانكلين) في عملية بنائه، شكل التحالف السياسي الذي جمع قبائل الإيروكوي في شمال شرق الولايات المتحدة(نيويورك)[333] وذلك من مشاهداتهم المباشرة أو من قراءتهم للفلاسفة الفرنسيين (ومنهم جان جاك روسو) الذين تأثروا بمشاهدات الرحالة بين قبائل الهنود وتكلموا عن نزعتهم

---

(330) Armstrong Starkey, European and Native American Warfare, 1675-1815, University of Oklahoma Press, Norman, 1998, pp. viii, back cover.

(331) John D. McDermott, A Guide to the Indian Wars of the West, University of Nebraska Press, Lincoln, 1998, p. 33.

(332) Francis Jennings, The Invasion of America: Indians, Colonialism, and the Cant of Conquest, Norton, New York, 1976, p. 166.

(333) Jack Utter, p. xxxiii.

للمساواة والحقوق الطبيعية والتقاليد الديمقراطية التي تشبه الحكم البرلماني ذا المجلسين[334]، وقد اعترف الكونجرس الأمريكي بفضل الهنود في ذلك سنة 1988[335].

7 - المكاسب اللغوية: دخلت كثير من كلمات اللغات الهندية العديدة في حياة الرجل الأبيض سواء بصفة أسماء لكثير من الولايات التي تزيد عن نصف مجموع الولايات الأمريكية (داكوتا، أوكلاهوما، ميسوري، أيوا، كانساس، ... إلخ) والمدن(شيكاغو، سياتل، ميامي... إلخ) والمعالم الجغرافية كالبحيرات (ميتشيغان... إلخ)والأنهار (ميسوري، ميسيسيبي... إلخ) والخلجان والجبال وغير ذلك، وقد عد بعض المختصين أحد عشر ألف مكان سمي في الولايات المتحدة بأسماء هندية[336]، نقل بعضها حرفياً وبعضها الآخر ترجم إلى اللغة الإنجليزية بما تؤديه المعاني في اللغات الهندية، هذا إضافة لأسماء البيئة الاجتماعية الهندية كالمساكن والملابس والأطعمة التي ظلت في اللهجة الأمريكية بنفس أسمائها الهندية، كما دخلت عبارات اختص السكان الأصليون باستخدامها في لغة الإنسان الأبيض مثل "الحديث بلسان مشقوق" كناية عن الازدواجية والنفاق و"السير على درب الحرب" كناية عن إعلان الحرب و"دفن البلطة" كناية عن اختيار السلام وغير ذلك من عبارات[337].

وقد استفادت الولايات المتحدة في زمننا المعاصر فوائد جمة من لغة قبيلة النافاجو-كبرى القبائل الهندية-ولغات قبائل أخرى وصل عددها إلى 16 في الحرب الكبرى الأولى(1914-1918) وفي الحرب الكبرى الثانية (1939-1945)[338] وقد تميز النافاجو في الحرب الثانية حين عينت

(334) Wilbur R. Jacob, p. 168-170.

(335) Jack Utter, p. 435.

(336) William Bright, Native American Placenames of the United States, University of Oklahoma Press, Norman, 2007.

(337) Arnold Marquis, p. 22.

(338) Jack Utter, p. 111.

الحكومة الأمريكية ما يقارب ألفي هندي من القبيلة في سلاح الإشارة الذي كان يتخاطب بلغة القبيلة التي لم تتمكن جيوش المحور من فك رموزها[339] مما تسبب في تحقيق انتصارات هامة للحلفاء في نفس الوقت الذي كان يحرم فيه على الطلاب الهنود التحدث بلغاتهم في المدارس الأمريكية المخصصة لتمدينهم، ومن المفارقات أن أحد الطلاب من قبيلة النافاجو كان يعاقب لأنه تكلم بلغته في نفس الوقت الذي كان والده يعمل ضمن سلاح الإشارة في الجيش الأمريكي حيث يستخدم اللغة نفسها لتحقيق النصر لأمريكا[340] (!)

8 - **بعض ملامح الحياة في أمريكا**: يوجه بعض المؤرخين الأنظار إلى أن الاحتفاء بالحرية في الحياة الأمريكية (داخلياً على الأقل وراية إعلامية في مواجهة الخصوم خارجياً من وجهة نظري) مدين للحرية التي عاشها الهندي ودافع عنها حتى آخر سلاح في جعبته، وليس فقط للحرية التي بشرت بها الأنوار الأوروبية، كما أن الاهتمام الواسع بمنح المساعدات مدين بفضيلة المشاركة التي تميزت بها الحياة الهندية التي كانت تحض على العطاء (وهنا أيضاً أرى مبالغة في التشبيه بين فضيلة أخلاقية هندية أصيلة قد تنزع كل ما يملكه المرء لأجل الآخرين بوسيلة أمريكية حديثة خاضعة لحسابات المنفعة وكثيراً ما استخدمت لإخضاع الآخرين وسلبهم أكثر من إعطائهم، مما يسبغ عليها الطابع المادي أكثر من الأخلاقي الذي إن وجد فهو في الداخل الأمريكي وليس مع الخارج)، ويعزو أحدهم الاهتمام الأمريكي بالسلام (على الطريقة الأمريكية طبعاً كما تعلمنا من المسألة الفلسطينية) إلى فضيلة هندية كانت تفضل إحلال السلام على شن الحروب، وبالطبع فإن كل الفضائل السابقة كانت جزءاً أصيلاً من حياة الهندي وقد يضحي بالمادة لأجلها ولكنها في الحياة الأمريكية خاضعة لحسابات المنفعة، وإن كان هدف الاستشهاد هو الأهمية الإعلامية التي تصاحب

---

(339) Arnold Marquis, p. 22.

(340) Jack Utter, 144.

الدعاية لها خارجياً ومكانتها في الحياة اليومية الداخلية التي لا يحس بها المواطن العالمي في الخارج، ومن هذه الفضائل الهندية أيضاً استيعاب الأغراب ضمن القبيلة والتي يرى المؤرخون أن استيعاب المهاجرين إلى القارة الأمريكية هو ترجمتها المعاصرة، وكذلك الاهتمام واسع النطاق بالبيئة والحياة البرية والذي يلتقي مع نظرة السكان الأصليين باحترام وتبجيل بل تقديس إلى الطبيعة وضرورة التوازن مع عناصرها وعدم الإضرار بها[341]، وهو أمر إن اكتسب شعبية فإنه مازال بعيداً عن الجداول السياسية واهتمامها بتحقيق السبق الاقتصادي والسياسي على بقية الأمم، وجل ما كسبته هذه الحركة هو نقل عناصر الخلل والتلوث البيئي من البيئة الأمريكية إلى دول العالم الثالث حيث تجد الشركات الكبرى راحة في فرض شروطها المخلة بالطبيعة على تلك البيئات الفقيرة الباحثة عن كسب لقمة العيش، ومما اكتسبه الأمريكي من الهندي كذلك ونسخه في مجتمعه الاهتمام بالحركة الكشفية التي تعود بجذورها إلى مهارات الكشافة الهنود في التخفي واقتفاء الأثر والحياة في البرية[342]، والخلاصة من هذا البند أن المجتمع الأمريكي وملحقه الكندي اكتسبا كثيراً من أخلاق السكان الأصليين ولكن بعد تحويرها بالطبع لما يلائم مجتمعا علمانياً مادياً ولهذا اختلفت الصورة عن الأصل كثيراً.

9 - **القتال في حروب الرجل الأبيض:** قاتل السكان الأصليون إلى جانب الرجل الأبيض في جميع حروبه، سواء التي شنها ضد القبائل الهندية التي كان منافسوها من القبائل الأخرى ينضمون إلى جانب البيض، أو التي شنها البيض ضد بعضهم وكانوا يستعينون بالهنود في الجانبين مثل الحروب الاستعمارية بين الإنجليز والفرنسيين ومعارك الثورة الأمريكية ثم معارك الحرب الأهلية، ولولا المساعدة الهندية لما تمكن الإنجليز من شن الحرب على الفرنسيين في أمريكا[343]، كما شهد بذلك الرئيس الأمريكي الأول

---

(341) Wilbur R. Jacob, pp. 158-168.

(342) Arnold Marquis, p. 22.

(343) David Reynolds, p. 40.

جورج واشنطن[344]، ثم حارب الهنود إلى جانب الأمريكيين في حروبهم الدولية ومنها الحربين الكبريين وقد وصلت نسبة ضحايا الهنود في الحرب الثانية 10% مقابل 3% لبقية الجيش[345].

ويجب الالتفات إلى ملاحظتين في هذا الموضوع: الأولى أنه لم يكن جميع الهنود إلى جانب البيض في حروبهم ولا حتى أغلبهم، فقد ظل صراع الوجود يفصل المجتمعين ويذكر الضعيف بتهديد وجوده باستمرار، وعندما كانت الأغلبية تقاتل إلى جانب أحد الفرقاء من البيض فإن ذلك يكون مبنياً على تشخيص وضعه بأنه أقل خطراً من غريمه على مجموع الهنود، مثل القتال إلى جانب الفرنسيين الذين لا يؤلفون خطراً استيطانياً على أراضي الهنود ضد الإنجليز الأكثر خطراً، ثم القتال إلى جانب الإنجليز ضد المستوطنين الأمريكيين، والملاحظة الثانية أن من انضم من الهنود إلى الرجل الأبيض لم يكن مصيره عند الطرف المنتصر أفضل من الهندي الذي قاتل البيض وعاداهم، وذلك مثل كثير من القبائل التي وضعت معاداتها مع أبناء جلدتها قبل قضية أرضها المهددة ومع ذلك اكتسحها الطوفان الأبيض كغريماتها، وذلك لأن هذا المصير اعتمد على البرامج السياسية التي تبنتها الأطراف الأوروبية ثم الأمريكية ولم يكن لها علاقة بدرجة ولاء الهندي أو عدائه بل بالمصالح السياسية والرغبة في الاستحواذ على الأرض وثرواتها، ولهذا تخلت فرنسا عن السكان الأصليين بعدما قاتلوا إلى جانبها في حرب السنوات السبع (1756-1763)، ثم تخلى الإنجليز عنهم أيضاً بعد انتصار الثورة الأمريكية، ولهذا أيضاً لم تُمنح المواطنة الأمريكية للهنود رغم خدمات كثير منهم إلا بعد زوال خطرهم والاستحواذ على أراضيهم، وكان ذلك في سنة 1924، وفي جميع الأحوال كان الهندي المهزوم يعاني أكثر من حليفه الأبيض المهزوم، أما المقاتل الهندي مع الجانب المنتصر فلم

(344) Robert A. Williams, Jr., The American Indian in Western Legal Thought: The Discourses of Conquest, Oxford University Press, New York and Oxford, 1990, p. 280.

(345) Arnold Marquis, p. 23.

يحصد إلا الخيبة والخسران تماماً كما خسر زميله الهندي المهزوم، وهذا ما حصل مع حلفاء الأمريكيين أثناء الثورة على بريطانيا، وما حدث لحلفاء الشمال في الحرب الأهلية، وكل هذا يذكرنا بتجارب عربية وإسلامية حديثة مرت بنفس التسلسل سآتي على ذكرها في الاستنتاج.

10- **الموارد الطبيعية**: في عصر التوسع القاري الأمريكي انتهكت كثير من المعاهدات وقامت كثير من الحروب لأجل الحصول على الموارد الطبيعية كالذهب والفضة والفراء، وحين خصصت الحكومة الأمريكية أراض قاحلة لمحميات توطين القبائل الهندية بعد هزيمتها أمام الطوفان الأمريكي في القرن التاسع عَشر، لم تكن تعلم أنها تحتوي على ثروات طبيعية ثمينة، ويأتي حالياً عُشر الفحم الأمريكي وسدس الغاز الطبيعي وكميات كبيرة من النفط ونصف اليورانيوم من أراضي السكان الأصليين الذين لا توجد هذه الموارد إلا في أراضي ثلث عددهم، وتتعرض هذه الأراضي لما وصفه أحد المؤرخين بالغزو الذي تقوده الرأسمالية الأمريكية على الموارد الطبيعية للقبائل التي تخوض صراعاً لحماية ممتلكاتها وحقوقها في وجه الخداع والجشع والعنف الذي يمارسه الباحثون عن الثروات من الشركات والأفراد، ويلخص أحد القرويين الهنود موقفه الرافض لاستغلال موارد القبيلة بقوله: "لا تحدثني عن أزمة الطاقة، فأنا أعيش في قرية ليس فيها حتى الكهرباء"[(346)].

■ ما أعطاه الرجل الأبيض للسكان الأصليين:

1 - **الأمراض**: أبرز ما منحه الوافدون الجدد لسكان القارة الجديدة هو أمراض العالم القديم التي فشت بين السكان الهنود كانتشار النار في الهشيم، فقد قامت أمراض الجدري والحصبة والطاعون والكوليرا والتفوئيد والدفتيريا والحمى القرمزية والسعال الديكي والالتهاب الرئوي والانفلونزا

(346) Donald L. Fixico, The Invasion of Indian Country in the Twentieth Century: American Capitalism and Tribal Natural Resources, University of Nebraska Press, Lincoln, 1998, p. 145.

والأمراض الجنسية وغيرها بحصد قبائل كاملة في بداية الاستيطان الأوروبي، وظلت نسبة الدمار الذي تحدثه هذه الأمراض تتراوح بين 55% و90% بين الهنود حتى بعد اكتسابهم قدراً من المناعة في مطلع القرن العشرين في الوقت الذي كان أثرها على الوافدين الأوروبيين يقدر بنحو 15% فقط، ويقدر عدد الأوبئة الكبرى التي اجتاحت السكان الأصليين بثلاثة وتسعين وباء، كما تقدر نسبة اجتياح الجدري بمرة كل سبع سنوات تقريباً، وقد قضت الأمراض على أربعة أخماس السكان الأصليين في منطقة نيو إنجلاند حيث بدأ الاستيطان في القرن السابع عشر، وكان أثرها أكثر فتكاً بالهنود من أسلحة الرجل الأبيض[347].

وربما يظن المرء للوهلة الأولى أن هذا الانتشار كارثة عرضية لم يكن للمهاجرين نية ولا يد فيها، ولكن هذا الاعتقاد يتبدد بقيامهم بكثير من الممارسات القمعية الرسمية التي كانت تساعد على إنهاك الهنود بالأمراض ونشرها بينهم ضمن وسائل الحرب عليهم للحصول على أراضيهم كالترحيل القسري والحشر في محميات قاحلة والتجويع بالقضاء على مصادر الرزق ووسائل العيش (إبادة الجاموس أوضح مثال) وما يتبع ذلك من إهمال سياسي يؤدي إلى تأخير المساعدات الغذائية عن القبائل مما كان يقود إلى اندلاع العنف قهراً، بل سجل التاريخ نشر الأمراض عمداً عن طريق توزيع البطانيات الملوثة في بعض الحوادث الموثقة، وتؤكد مؤرخة معاصرة أنه في القرن الثامن عشر كان الأوروبيون في أمريكا يملكون المعرفة والتقنية والإرادة لنشر مرض الجدري بين السكان الأصليين، وأن تكرار هذه العملية المتعمدة ربما كان أكثر مما أقر به المؤرخون فيما مضى[348]، وتشير الأبحاث الحديثة إلى أثر الممارسات الاستعمارية الإنجليزية في الجنوب الأمريكي على انتشار الأمراض بين السكان الأصليين فيه، فقد أدى استرقاق الهنود وتجارة الرقيق وما صاحبها من نقل أعداد كبرى من السكان الأصليين

(347) Russell Thornton, pp. 45, 47, 64, 72, 78.

(348) Paul Kelton, p. 260.

للمتاجرة بهم والعنف الذي رافق ذلك إلى أن تتمكن جراثيم الأمراض الفتاكة من "الوصول إلى أقصى درجات إمكاناتها القاتلة" التي لم تكن لتصل إلى هذه النتائج الكارثية في الجنوب الأمريكي لولا تجارة الرقيق التي جعلت أحد المؤرخين يؤكد أن تبعات الاستعمار الإنجليزي المأساوية فاقت تبعات الغزو الإسباني الدموي لتلك المنطقة[349]، بل أن انتشار الأمراض الوبائية لم يكن عملية نتجت تلقائياً بمجرد وصول الرجل الأبيض والتقائه بالسكان الأصليين، إذ تدخلت العوامل البشرية كأساليب الاستيطان والنشاطات الاقتصادية التي تحكمت في درجة حدوث اللقاءات بين أفراد العالميْن، في جعل الجراثيم تقوم بتأثيراتها القاتلة[350]، وأن هذه الآثار الفتاكة حدثت بعد انتشار النفوذ الأوروبي وليس قبله[351]، ولا ننسى هنا ما سببته سياسة استرقاق الأفارقة من نشر أمراض وبائية جلبها تجار النخاسة من إفريقيا كالملاريا والحمى الصفراء، كما أدى الاحتكاك بين الأوروبيين والسكان الأصليين إلى اكتساب الهنود عادات مرذولة جلبت الأمراض الفتاكة معها كإدمان الكحول كما سيأتي الحديث عن نتائجه القاتلة، والتفسخ الجنسي، وكان الأثر الأمضى لأمراضه العديدة هو إضعاف الخصوبة لدى السكان الأصليين.

وبكل هذا لم يكن من الغريب أن أوائل طلائع المهاجرين الأوروبيين عدوا أن الأوبئة التي سبقت وصولهم إنما هي نعمة من الله أيد بها شعبه المختار وأخلى له الأرض من أعدائه ثم حسم الخلاف حولها بمزيد من الأمراض التي لم تبق منهم أحداً، وسرهم كثيراً منذ البداية مشهد الأكواخ المليئة بالجثث، وعزوا هذا التدبير إلى المسيح الذي يرعى كنيسته[352]، وفي الوقت الذي سبقت رذائل البيض وصولهم إلى القارة الجديدة فإن مزايا حضارتهم كالتطعيم ضد الأمراض كانت تصل الهندي متأخرة جداً عن

(349) نفس المرجع، ص222-223.
(350) نفس المرجع، ص36.
(351) نفس المرجع، ص99.
(352) كارلهاينتس دشنر، ص57.

ظهورها لدى مخترعيها بسبب عدم اكتراث الساسة الأمريكيين به[353]، ولم تفده كما أفادت غريمه، ووصله التطعيم بعدما أخذ الموت مأخذه منه ووصلت أعداد الهنود حافة الانقراض.

2 - الخمر: رغم أن المسكرات كانت معروفة في القارتين الأمريكيتين قبل وصول كولمبس، فإن تأثير الخمور التي أدخلها المهاجرون الأوروبيون إلى العالم الجديد كان قاتلاً بشكل يقرنه المؤرخون بالأمراض الفتاكة وحروب الإبادة والتهجير وتدمير مصادر الرزق الذي أدى للمجاعات وسوء التغذية، وكان الشراب يحول الشاب العاقل داخل القبيلة إلى شيطان قابل لارتكاب أفظع الموبقات، وقد استغل الرجل الأبيض نهم الهندي للمسكرات فاستخدمها وسيلة للغش التجاري إذ كان التجار يعلمون أن السكران أكثر قابلية للاستغلال فيقومون بتقديم الخمر لزبائنهم الهنود قبل عملية الشراء ومن ثم يستولون على فرائهم ويهربون، كما كانت الخمور من وسائل الغش السياسي وكثيراً ما عقدت معاهدات التخلي عن الأرض تحت تأثير الخمر، وقد أدت هذه الممارسات إلى العنف الذي يتولد نتيجة شعور الهنود بالغبن والخداع، كما أدت الخمور، المغشوشة في كثير من الأحيان، إلى تدمير مجتمعات هندية بأكملها نتيجة ترك المزارعين بيوتهم وحقولهم والدخول في أعماق البرية للحصول على المسكرات من التجار، كما كان الصيادون يبالغون في صيد الطرائد لدفع ثمن المشروبات بما أخل بالتوازن البيئي وأدى لاختفاء أعداد كبيرة من الحيوانات كانت مصدر رزق لهذه المجتمعات فيما سبق، وكثيراً ما ارتكبت الموبقات كدفع النساء إلى الرذيلة، وسرقة الجياد والماشية، وتحدي سلطة الزعماء وتجاهل جميع التعاليم الأخلاقية، بل وإلى شن الحروب للحصول على الأسرى ودفعهم إلى تجار الرقيق، ويقول أحد المؤرخين البارزين إن التجار جلبوا بكحولهم الموت والتمزق للمجتمعات الهندية، ونقل عن أحد معاصري الأحداث من زعماء القبائل الهندية في الجنوب الأمريكي قوله إنه فقد أكثر من ألف

(353) Russell Thornton, pp. 82, 100-101.

شخص ماتوا بسبب الإفراط في الشراب في غضون سنة ونصف فقط، وشهد مبعوث بريطاني إلى أرض الهنود سنة 1777 أنه لم يشاهد في القرى إلا شرب الخمر ونساء يبكون أمواتاً من شرب الخمر[354].

وكان أثر هذه المسكرات واضحاً منذ البداية للمسئولين الاستعماريين الأوروبيين وجرت محاولات منع بيعها للهنود ليس حرصاً عليهم بل لما سببته عمليات الغش التجاري والسياسي من ردود أفعال عنيفة من جانبهم، ولكن المصالح المادية السريعة والسهلة التي كانت تنتج من عمليات البيع كانت تغري حتى التجار "المحترمين" على معارضة إجراءات الحظر، ورغم تعهدات الحكومة الأمريكية بعد انتصار الثورة بحماية الهنود من الممارسات المسيئة في كلامها المنمق، فإن "الحقائق كذبت الانطباع الظاهري" في قول أحد المؤرخين الذي يصف حال من كان يحاول من المسئولين في التخوم فرض القانون بأنه سينتهي للوقوع تحت المساءلة في المحاكم بتهم التعدي أو الاعتقال غير القانونيين، ورغم أن الخمر كانت من أكبر مصادر الصعوبات في التجارة مع السكان الأصليين، وكان المسئولون الأمريكيون على وعي تام بمضارها، فإنه لم تتخذ الإجراءات الكافية لمنع بيعها للهنود، والسبب في ذلك كما يعزوه أحد المؤرخين ليس إلى سوء النوايا وتعمد الإساءة أو عدم الاكتراث بالهنود ولكن مرة أخرى إلى المصالح الاقتصادية والنظام الفدرالي الأمريكي الذي كان يوزع السلطات بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات[355]، ولكن هذه الحجج ترتد على قائلها لأنه ليس هناك إساءة في الحياة البشرية تنبع من تعمد الأذى إلا عند أصحاب الحالات المرضية أما الأذى في الحياة اليومية فنابع من الحرص على

---

(354) عن آثار الخمر على المجتمعات الهندية يمكن الرجوع إلى هذه المراجع:
- Russell Thornton, pp. 54, 66, 132.
- Wilbur R. Jacob, pp. 33, 39.
- Paul Kelton, p. 207.
- Colin G. Calloway, pp. 13-14.
- Clark Wissler, Indians of the United States, Anchor Books, New York, 1989, pp. 292-297.

(355) Francis Paul Prucha, The Great Father, pp. 20, 26, 30, 94-102.

المصالح الذاتية دون مصالح الآخرين، ولماذا لم يؤد النظام الفدرالي مثلاً إلى سلبيات في حياة الأمريكيين بحجم ما اقترفه من جرائم ضد السكان الأصليين؟

لقد عبرت القضية عن أزمة حضارية أكثر من تعبيرها عن أزمة سياسية أو اقتصادية لحكومة عاجزة، فطوفان الخمور الذي اكتسح الهنود رغم قوانين الحظر الشامل التي لاقت نجاحاً محدوداً، والعقوبات المشددة التي برع التجار في التحايل عليها يؤكد عموم الانحراف وليس شذوذه[356]، بل إن التاجر الأمين كان يجد نفسه خاسراً في تجارته لو التزم القانون[357] فيضطر لبيع الخمر ليحصل على ماله كما يربح التاجر الغشاش[358]، وقد وصف أحد المؤرخين هذه الأزمة العامة بالقول إن كبح جماح التجار الغشاشين كان صعباً كوقف تيار الاستيطان والتمدد في أرض الهنود[359]، وهذا لم يمنع من وجود استثناءات أثبتت أن توفر النزاهة كان كفيلاً بالقضاء على الفساد[360]، ولكن هذا كان الاستثناء وليس القاعدة في حضارة نفعية غلبت فيها التأثيرات الاجتماعية السلبية التي تركت أثرها على المجتمعات الهندية الأصلية من القرب من المستوطنات البيضاء والاحتكاك بعموم سكانها مما وسع الأزمة وجعلها أكثر من مجرد طمع تاجر شره هنا أو هناك، وقد اعترف المجتمع الأمريكي وقيادته بذلك حتى أصبح إبعاد الهنود عن الاحتكاك بمجمل الأمريكيين حجة "إنسانية" شائعة ومقبولة لعملية طرد هنود القبائل من أراضيهم وسط التجمعات السكانية البيضاء والاستيلاء على ممتلكاتهم وإبعادهم إلى البرية المعزولة في الغرب، وذلك لأجل "سعادتهم" و"رفاهيتهم" بالتخلص من الضغط والإغواء وغيرهما من المساوئ المترتبة على وجودهم وسط المجتمع الأمريكي[361]، ولكن عندما

---

(356) نفس المرجع، ص313.

(357) Wilbur R. Jacob, p. 38.

(358) Clark Wissler, p. 293.

(359) Wilbur R. Jacob, p. 38.

(360) Clark Wissler, p. 294.

(361) Francis Paul Prucha, p. 312.

حصر السكان الأصليون في المحميات كما سيأتي أصبحت الخمر هي وسيلة التنفيس عن الحياة البائسة فيها[362]، أي أن حضارة الرجل الأبيض أدخلت الهندي في حلقة مفرغة من البؤس بدل استيعاب أعداده القليلة.

ومما يؤكد هذه الأزمة الحضارية في التعامل مع الآخر والتي جعلت القمع مبرراً لقمع آخر، والبؤس تنفيساً عن بؤس آخر، أنه عندما منح الهندي المواطنة الكاملة التي تقتضي المساواة العامة ببقية أفراد المجتمع الأمريكي أصبح منعه من المسكرات متناف مع المساواة[363] (!) فأصبح بإمكانه الحصول عليها "قانونياً" منذ سنة 1953 [364]، وبهذا استمرت المأساة من المساواة وأصبحت الخمر اليوم من الأسباب الرئيسة و"المشروعة" لارتفاع معدلات الوفاة بين السكان الأصليين لما تسببه من انتحار وحوادث طرق وأمراض السكر والتليف الكبدي، ومن المفارقات أن الخمر تحدث اليوم أضراراً بالهنود تزيد عن أضرار حروبهم مع الأمريكيين في الماضي[365]، وهي معدلات لا تحقق المساواة بمعدلات بقية المجتمع الأمريكي، وذلك على عكس ما قصد منها.

3 - **الحصان**: كان الحصان يعيش في القارة الأمريكية منذ زمن بعيد وانقرض لمدة طويلة لأنه كان غير مدجن ويُصطاد للغذاء، فلما وصل الإسبان إلى أمريكا أتوا بالجياد التي ساحت في سهولها وتعرفت القبائل على ترويضها فشاع استعمالها مع نهاية القرن السابع عشر وبعد قرن كانت صورة الهندي راكب الحصان كما عرفها العالم بعد ذلك قد اكتملت، وبهذا فإن الهندي الفارس حامل البندقية في الحرب والصيد ليست صورة موغلة في القدم كما يظن البعض، إذ أنها نشأت مع نشوء مجتمعات هندية جديدة في سهول أمريكا، وصنع الحصان بذلك ثورة في حياة الهنود، إذ استعملوه

---

(362) Clark Wissler, p. 294.

(363) Francis Paul Prucha, pp. 654-655.

(364) Clark Wissler, p. 324.

(365) Jon Manchip White, Everyday Life of the North American Indians, Dorset Press, New York, 1979, p. 245.

بدلاً من الكلب للحمل والنقل فثقلت حاجياتهم وطالت خيامهم واتسعت مجالاتهم وبعدت مسافاتهم وقل استقرارهم وأصبحوا أكثر تنقلاً وأصبح امتلاك الجياد دليلاً على المكانة الاجتماعية بين أفراد القبيلة، وتنافس الفرسان في إظهار مهاراتهم الفروسية في الحرب والصيد اللذين انقلبت طرقهما وتغيرت تغيراً جذرياً عما سبق وأصبح اصطياد العدو والطرائد أكثر سهولة من استعمال الأقدام، ويصف أحد المؤرخين الأثر الذي تركه الحصان في المجتمعات الهندية بأنها أعمق من الأثر الذي صنعته السيارة في المجتمعات الحديثة[366].

وسواء كان إدخال الحصان إلى حياة السكان الأصليين عمداً أم صدفة، فإن الرجل الأبيض محا الأثر الإيجابي الذي تركه هذا الإسهام منه في حياة الهندي، وعندما اقتربت جحافل مستوطناته وجيوشه دمرت المجتمعات الهندية التي استفادت فيما سبق من الجواد ومن البندقية ومن كثير من البضائع الأوروبية ثم الأمريكية التي صنعت انقلابات في حياتها، وفي هذا درس عن حصول الاستفادة من الغرب عن بعد والتي يدمرها الاقتراب أكثر من اللازم.

4 - البندقية : صنع وصول البندقية إلى يد الهندي تغيرات كثيرة في حياته، وقد وصلته عن طريق التجارة لأجل تسهيل حصوله على الفراء الذي يبيعه للتجار البيض، وكانت أيضاً جزءاً من المساعدات التي تقدم للقبائل مقابل تخليها عن أجزاء من أراضيها وقبولها مسالمة الحكومة والمستوطنين لمساعدتها على الصيد وإطعام أنفسها قبل انقراض الطرائد ولكن الهنود استخدموها في معاركهم وبرعوا في استخدامها ومع ذلك ظل هناك عيب قاتل في هذه العملية وهو أن الهندي لم يكن قادراً على صناعة البندقية أو إصلاحها أو صناعة الرصاص والبارود وهو ما جعله دائماً أسير احتكار الرجل الأبيض للتقنية ومن ثم جعله معتمداً عليه وفي حاجة لاستمرار العلاقة معه وجعل مقاومته غير قادرة على الاستمرار والنمو لأن سلاحه ليس

---

(366) Clark Wissler, p. 289.

من صنعه، وبهذا أصبح مصير الصراع محكوماً بالتقدم التقني الذي لم تكن حتى الوحدة الهندية قادرة على صده(367).

5 - تشجيع المساوئ ومحاربة المزايا الهندية: أدى الاحتكاك بالرجل الأبيض إلى نمو مساوئ عديدة عرفتها المجتمعات الهندية، فقد شجع الفرقة والانقسام بين القبائل وإثارة الحروب التي أخذت أبعاداً جديدة(368) مدمرة بينها بعدما كان القتال بين قبيلتين قد يستغرق سبع سنوات لا يقتل فيها سبعة رجال(369)، وذلك ما دفع أحد مقاتلي المستوطنين إلى أن يصف مشهد الحروب بين الهنود بأنه تسلية أكثر منه فتح أو إخضاع، وداخل القبيلة الواحدة شجع الرجل الأبيض المنافسة بين الأحزاب والزعماء على عادة كل المستعمرين في اتباع القاعدة المعروفة: فرق تسد، ووجدناه أيضاً يشجع عادات همجية كسلخ فروة الرأس التي كان الأوروبيون والأمريكيون يدفعون لمن يأتي بها من أجساد أعدائهم مبالغ طائلة وصلت أحيانا إلى مقدار الدخل السنوي للفرد من الطبقة المتعلمة(370)، وتشير المصادر إلى أن عادة سلخ الرؤوس لم تكن منتشرة بين القبائل الهندية حتى قام الرجل الأبيض بتشجيعها ونشرها(371) بواسطة المكافآت المجزية إمعاناً منه في العمل على القضاء على أعدائه الهنود.

---

(367) نفس المرجع، ص287.

(368) Russell Thornton, p. 48.

(369) Richard Drinnon, Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating & Empire-Building, University of Oklahoma Press, Norman, 1997, p. 43.

(370) Raymond William Stedman, Shadows of the Indian: Stereotypes in American Culture, University of Oklahoma press, Norman, 1982, p. 255.
- Colin G. Calloway, p. 49.

مقارنة بالدخل السنوي للفرد من الطبقة الوسطى في:
- جون ستيل جوردون، إمبراطورية الثروة: التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية، سلسلة عالمة المعرفة(357)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 2008، ج1ص169.

(371) William Brandon, p. 328.
- Frederick E. Hoxie, p. 572.

لقد تميز العالم الجديد الذي صنعه الأوروبيون في أمريكا بزيادة غير مسبوقة في درجة ممارسة العنف التي نتجت عن التمزق الاجتماعي الذي أدى إلى العنف الفردي العشوائي، كما وصلت الحروب مستويات عالية في شدتها، وقد حارب الهنود بعضهم البعض في سبيل الحصول على أسلحة البيض التي وجهوها نحو أعدائهم، كما أدى الاعتماد على الأوروبيين في الحصول على وسائل المعيشة والدفاع إلى الانخراط في الحروب الأوروبية داخل أمريكا حيث تعاملت أوروبا مع الهنود بمنطق بيع الولاء وشرائه مما أدى إلى زيادة الحروب بين القبائل والتي كان الأوروبيون يحدون منها أو يغذونها[372]، حسب ظروف مصالحهم.

ومن العادات المرذولة التي نشرها تشجيع الرجل الأبيض أسر الأفراد واسترقاقهم لاسيما في الجنوب الأمريكي حيث لعب البيض على وتر الخلافات الهندية وشجعوا الهنود على شن الغارات على بعضهم البعض- حتى لو كان الضحايا حلفاء لهم-لجلب العمالة للمستعمرين واتخذت هذه الممارسة أبعاداً تجارية وأدت إلى دمار مجتمعات عديدة في تلك المنطقة وقعت ضحية هذه الممارسة وما نتج عنها من تبعات كانتشار الأمراض الفتاكة[373]، ومرة أخرى، وفي غير مجال الخمر تقف السلطة عاجزة عن كبح انتهاكات مواطنيها ضد السكان الأصليين حتى فيما تحرّمه بنفسها[374]، وهو عجز لازم السياسة العامة التي اتبعتها الحكومات البيضاء تجاه جميع انتهاكات الحقوق التي تعرض لها السكان الأصليون لا سيما من قبل المستوطنين الذين كانوا كثيراً ما يعتدون على أراضي الهنود ويخدعونهم ومع ذلك تقف السلطة عاجزة عن اتخاذ خطوة رادعة بل نجد رجالها ممن يشاركون في الانتفاع الشخصي بهذه الانتهاكات[375]، وهذا كله يشير بعلامة

---

(372) Collin G. Calloway, pp. 5-6.

(373) Paul Kelton, pp. xviii, 128, 213, 214, 221-224.
- Alan Gallay, The Indian Slave Trade: The Rise of the English Empire in the American South 1670-1717, Yale University Press, New Haven, 2002, p. 354.

(374) Paul Kelton, pp. 111, 127-133.

(375) Stuart Banner, pp. 53-54, 63-64,67, 69, 96-99.

استفهام إلى حقيقة المهمة الحضارية التي نذر الرجل الأبيض نفسه لها ومع ذلك قام بتشجيع الهمجية ونشرها بين تلاميذه "البدائيين" وقصر في الدفاع عن حقوقهم التي ادعى الوصاية عليها.

ولم يقتصر الأمر على نشر الرذائل الهندية بل لقد أدى الاحتكاك بالمجتمعات البيضاء إلى تفسخ الهنود باكتسابهم العادات الرديئة الخاصة بالبيض مما أدى إلى فقدانهم محاسنهم الذاتية التي كانت لهم في الماضي، ويكتب أحد المؤرخين قائلا: "وكان مما أخذه الهنود عن البيض قلة الشرف، وفنون الكذب، فكان تفكيرهم وقانون أخلاقهم، وثقافتهم تنتهي إلى الاندثار فالانحطاط والاضمحلال، ويكتب بيتر لي قائلا: ما كان حسناً عندهم كان يتعرض للخنق"[376].

6 - **التجارة والمساعدات والعلاقات الاقتصادية**: عندما التقت الأمتان وجد الأوروبي ثم الأمريكي عند الهندي الفراء والجلود الثمينة ووجد الهندي عند الرجل الأبيض بضائع مصنعة كالملابس والسكاكين والمرايا والبلطات والدبابيس والخرز، وأهم من ذلك البندقية والأهم منها الخمور، وكانت توهب له في البداية مجاناً وعلامة على "الصداقة"، فلما يعتاد على استعمالها وتصبح ضرورية لحياته ينقطع الإمداد فيضطر إلى شرائها بالثمن الذي يحدده التاجر من الفراء والجلود[377] بل ومن الأسرى للاسترقاق[378]، وقد استنفد الصيد المكثف موارد الأرض الحيوانية شيئاً فشيئاً وكان يدفع الهنود دائماً نحو الغرب للحصول على مزيد من الطرائد فيصطدمون بقبائل جديدة وتنشب الحروب بينهم، وكان التاجر الأبيض يهتم بجعل زبونه الهندي في حالة ديْن مستمرة[379]، وكان الهندي يتمكن من دفع ديونه في البداية ثم ينغمس في شراء الخمر فيصبح عاجزاً عن الدفع[380]،

(376) كارلهاينتس دشنر، ص57.

(377) Wilbur R. Jacob, pp. 33-34.

(378) Paul Kelton, p. 103-104.

(379) نفس المرجع، ص34.

(380) Clark Wissler, p. 293.

وكثيراً ما أدت الديون إلى سداد أثمانها من أراضي الهنود[381]، وشُنت الحروب لتأمين أسرى لدفعهم لتجار الخمور والرقيق ثمناً لتلك الديون[382]، وقد كان التنافس بين أمم أوروبا على التجارة الهندية المربحة من مسببات كثير من المنافسات والحروب التي نشأت بينها على القارة الأمريكية لاسيما بين فرنسا وبريطانيا، وملخص الأمر أن التجارة كان لها عواقب وخيمة على مجتمعات السكان الأصليين في أمريكا: فقد رفعت درجة الاعتماد على الرجل الأبيض، وحفزت على العنف، ونشرت الأمراض التي حفزها الاسترقاق كما مر[383]، وقد قدر أحد المؤرخين أبعاد ذلك بقوله إنه باعتياد الهنود على استعمال الأدوات المتطورة التي جاء بها الأوروبيون لم يعد لمهاراتهم البدائية مكان، وبعد فترة قصيرة لم يكن أمامهم مفر من التبادل التجاري بشروط ازدادت إجحافاً مع الزمن، فخسروا سيادتهم الاقتصادية وجلب ذلك بداية انحسار السيادة السياسية وكل ما ميز حضارتهم[384].

ورغم بعد المسافة فقد تشابهت كثيراً تبعات التجارة وديونها في الشرق والغرب إلى حد بعيد، إذ أن كل تلك الأحداث تذكرنا بغزو التغريب الذي أتى بالسلع المصنعة إلى ديار العرب والمسلمين في الشرق وما تبعها من دوامات الديون ثم سيطرة أجنبية ثم احتلالات عسكرية وحروب المنافسة الاستعمارية، وقد ثقلت وطأة هذه الديون على بلادنا في الزمن المعاصر حتى رفع الأخ سلاحه وقتل أخاه سداداً لديون الأجنبي (1991)، تماماً كما حدث مع الهنود في الغرب، وكما كان المستعمرون يدخلون بضائعهم إلى بلادنا تحت ستار حرية التجارة ثم يسعون لاحتكار أسواقنا، كذلك كانوا يفعلون مع زبائنهم الهنود[385].

---

(381) Stuart Banner, p. 71.

(382) Paul Kelton, p. 207.

(383) نفس المرجع، ص101.

(384) جون ستيل جوردون، ص19.

(385) Mark Diedrich, Sitting Bull: The Collected Speeches, Coyote Books, Rochester, MN, 1998, p. 160.

7 - المسيحية والحضارة والتعليم: لما كانت الأرض هي محور الصراع بين السكان الأصليين والمهاجرين الوافدين، فإن تحسين أوضاع الأهالي الهنود لم يكن ضمن جدول المستعمرين كما لم يكن ضم الهندي إلى مجتمع الرجل الأبيض ضمن أولويات هذا الأخير[386]، وكان التمثيل السياسي والقانوني واضحاً في أنه محصور بالمستوطن والمهاجر دون صاحب الأرض الشرعي[387]، وإذا كانت الطبيعة التبشيرية للمسيحية قد فرضت نفسها على المستوطنين، فإنهم قد قاموا بتحويرها بما يناسب تطلعاتهم إذ لم يكن الهدف من التبشير إلا إيجاد عملاء هنود لأهداف المستوطنين[388]، مثل استخدامهم في الحروب كالأدوات[389]، كما أن عداوة الرجل الأبيض لوجود الهندي وليس لمجرد ضلاله خفض من عدد المهتدين لأن الهندي لم ير العدالة في رب الرجل الأبيض الذي يأتي بخلاص المعتدي ويتخلى عن الضحية، ولم يكن للهنود المتنصرين أية حرمة عند إخوانهم البيض، فقد واجهوا القتل والدمار والتهجير والسلب والاحتلال مثلما واجه كل ذلك من بقي على دينه من بقية الهنود[390].

أما الحضارة فقد قتل الرجل الأبيض جميع احتمالات نشوئها بين السكان الأصليين وضيق على من حاول تبنيها منهم وحصرهم في بقاع قاحلة لا يرغب فيها أحد بحجة تعليمهم الاستقرار والزراعة ولكن لم يزودهم بشيء من مستلزمات ذلك، وكان الهندي في مراحل مختلفة يتساءل عن جدوى شروعه في حياة الاستقرار على أرض ستنتزع منه عاجلاً أم آجلاً بحكم البندقية[391]، ثم جعل الرجل الأبيض الهنود يعيشون عالة على بطاقة

(386) Reginald Horsman, Expansion and American Indian Policy 1783-1812, University of Oklahoma Press, Norman, 1992, p. 107.

(387) Stuart Banner, p. 82.

(388) منير العكش، 2009، ص143-144.

(389) Collin G. Calloway, p. 14.

(390) منير العكش، 2009، ص138 و143.

(391) Reginald Horsman, pp. 104, 118.
- Paula Mitchell Marks, p. 255.

التموين التي تصرف لهم مؤناً لا تصلح للاستعمال الآدمي في كثير من الأحيان وبكميات قليلة، وكثيراً ما كانت تتأخر عن موعدها وتسبب مآس كبرى، وقد شبهت المحميات بمعسكرات اعتقال حيث الجوع والمرض والبطالة والغش والإهمال، وقد وصف مؤرخون عديدون الحياة فيها بأنها "محنة"[392] و"حزن لا يمكن وصفه"[393] "في أرض قاحلة"[394]، فأصبح العجب ليس من عدم تحضر الهنود فيها بل من مجرد نجاة جنسهم بعد مروره بهذه المحن التي لم يكن نفس الرجل الأبيض ليتحملها[395].

وأما التعليم الذي حاولت الولايات المتحدة فرضه على أبناء السكان الأصليين فقد كان شعاره "قتل الهندي وإنقاذ الإنسان" أي تخليص الهندي من كل ما له علاقة بهويته وجعله إنسانا آخر، وهو ما وصفه أحد المؤرخين بالتعليم من أجل الانقراض[396]، وجسدت هذه الفلسفة المدارس الداخلية التي أرسل إليها أبناء الهنود ووصف بعض المؤرخين الأعمال الوحشية التي كانت تمارس فيها ضد الصغار بأنها إبادة جماعية راح ضحيتها نصف التلاميذ[397]، أما الذين ظلوا أحياء فخرجوا منها بجروح نفسية عميقة شوهت حياتهم من جراء التعرض للإهانات النفسية والجسدية وذلك لأن سياسة الانقراض التي اتبعت في هذه المدارس جعلت من الإهانة المستمرة سياسة متبعة تهدف إلى الحط من شأن الهندي وفي نفس الوقت لم تؤد إلى بناء مقابل مثل كل السياسات الحكومية في ذلك الوقت والتي أفقدت الهندي ما في يده ولم تعوضه ببديل عنه.

---

(392) Donald J. Berthrong, The Cheyenne and Arapaho Ordeal: Reservation and Agency Life in the Indian Territory, 1875-1907, University of Oklahoma Press, Norman, 1992.

(393) David J. Wishert, An Unspeakable Sadness: The Dispossession of the Nebraska Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1994.

(394) Paula Mitchell Marks, 1998.

(395) Clark Wissler, pp. 311, 318.

(396) David Wallace Adams, Education for Extinction: American Indians and the Boarding School Experience, University Press of Kansas, Lawrence, 1997.

(397) Ward Churchill, Kill the Indian save the man: The Genocidal Impact of American Indian Residential Schools, City Light Publishers, San Francisco, 2004.

وسجل التاريخ أن كثيراً من الهنود رغبوا أن يعيشوا حياة الرجل الأبيض لاسيما بعدما دمرت موارد رزقهم ووسائل عيشهم، وحتى أكثر زعماء المقاومة تطرفاً لم يمانعوا في الحصول على مستوى معيشة البيض بالعمل مثلهم، كما أن جميع الهنود بعد هزيمة المقاومة المسلحة أجبروا على هذا الخيار، وكان العقلاء منهم يوصون أتباعهم باتباع محاسن الرجل الأبيض وترك مساوئه مع التمسك بحكمة الأسلاف التي عاشت وصمدت دهوراً[398]، ولكن مشروع التحضر عن طريق المحميات فشل فشلاً ذريعاً حتى باتباع "سياسة السلام" التي طبقها "أصدقاء الهنود" والتي أصرت على تجريده من هويته وأملاكه وقذفه في مجتمع تنافسي لا يعرف ولا يعترف بشيء من القيم التي نشأ الهندي عليها وتناقض الفردية الرأسمالية[399]، وكان من المتوقع أن تتم هذه التغيرات الفجائية في لمح البصر، مع أن أي تغير اجتماعي لا بد أن يأخذ وقته في التحول كما قال مراقب اجتماعي بارز في ذلك الزمن هو الكاتب والمؤرخ الفرنسي أليسكيس دي توكفيل في كتابه الشهير الديمقراطية في أمريكا[400]، وقد أدت السرعة الفائقة -لو افترضنا حسن نيتها- إلى فشل التحولات وترك السكان الأصليين ضحايا تقلب السياسات التي تستهدف "صالحهم"، دائماً، ولكن النتيجة الأوضح أنه في كل مرة كان الهندي يخسر فيها شيئاً من موارده ضمن برامج تمدينه كان هناك من يربحها على الجانب الأمريكي، فالأرض ربحها المستوطنون، والأموال التي خصصتها الحكومة لدعم برامج التحضير تقاسمها الفاسدون من أركان "الحلقة الهندية" وهم التجار والسياسيون والموظفون الحكوميون المتولون أمر الهنود في المحميات، والذين انقضوا على المال المخصص لتهيئة الهندي لحياة التمدن وراكموا ثروات ضخمة منه على حساب قوته، كما أن قطعان الجاموس التي أبيدت لإجبار الهنود على الاستسلام للحضارة ذهب فراؤها

---

(398) Donald L. Fixico, p. 151.

(399) Clark Wissler, p. 318.

(400) أليكسيس دي توكفيل، 2004، ص299-303.

إلى أسواق أوروبا وأمريكا وربح الصيادون والتجار والشركات من ذلك مبالغ طائلة، وذهب الذهب الذي انتهكت المعاهدات بعد اكتشافه في أراض الهنود المضمونة لهم إلى خزائن الرجل الأبيض الذي كان يبشر نفسه بحل أزماته الاقتصادية.

وخلاصة التفاعل الحضاري من وجهة نظر الهندي أنه عند وصول الأوروبيين كانوا هم يملكون الكتاب المقدس والهندي يملك الأرض، وفي النهاية أصبح الهندي يملك الكتاب المقدس والأوروبي يملك الأرض[401]، أما من وجهة النظر الأوروبية فإن "الأوروبيين لم يجدوا صعوبة في إقناع أنفسهم بأنهم قدموا تعويضاً مجزياً للهنود بمنحهم المسيحية والحضارة"[402] بدلا من سيادتهم وممتلكاتهم (!)

■ **استمرار الاستغلال والشعور الزائف بالذنب:**

المتأمل في مشهد المجتمع الأمريكي المعاصر تلفت نظره ملاحظة جديرة بالاهتمام، فعلى الرغم من الدعاية الضخمة التي تصاحب عملية استقبال عشرات الآلاف من المهاجرين الباحثين عن السعادة من جميع أقطار العالم سنوياً والقادمين ليندمجوا في "بوتقة الصهر" التي تتقبل الجميع نظرياً، يظل صاحب الأرض الشرعي، وهو المواطن الهندي الأصلي، خارج هذه الجنة الموعودة رغم قلة عدد السكان الأصليين مقارنة بمجموع سكان الولايات المتحدة (1,5% فقط وفقاً لتقديرات موسعة) وبمجموع المهاجرين الذين يفدون برخص رسمية كل عام إلى أرض الميعاد هذه، مما يجعلنا نستنتج أن الاستيعاب داخل الحضارة الغربية التي تمثل الولايات المتحدة قمتها في عالمنا المعاصر، ليس مرتبطاً بقدرتها على هذا الاستيعاب أو بإمكاناتها الضخمة التي تستطيع بكل تأكيد أن تشمل العدد الضئيل من

(401) Vine Deloria, JR., Custer Died For Your Sins: An Indian Manifesto, University of Oklahoma Press, Norman, 1988, p. 101.

(402) Jack Utter, p. 17.

سكان أمريكا الأصليين كما تشمل أعداداً ضخمة من غيرهم كالأقلية اليهودية مثلاً التي يحسن مقارنة عددها بعدد الهنود ونفوذها بتهميشهم، ولكن هذا الاستيعاب لم يحدث إلى اليوم بعد أكثر من قرن من هزيمة الهندي أمام قوة "الحضارة" الزاحفة وزوال خطره بإغلاق منطقة الحدود بين "المدنية" و"الهمجية" رسمياً ومع ذلك مازال المجتمع الأمريكي مصراً على نبذ صاحب الحق رغم أنه لا يؤلف عبئاً يذكر على إمكانات هذا المجتمع الكبيرة.

ورغم القوانين الكثيرة التي ادعت إلغاء سياسات القهر الماضية ومنح السكان الأصليين حق تقرير المصير والحرية الدينية، وتأسيس لجان النظر في الحقوق والمطالبات، ورغم المظاهر الاحتفالية التي يقوم بها الرؤساء الأمريكيون مثل التقاط الصور مع الهنود واستقبال زعمائهم لأول مرة في البيت الأبيض وإطلاق الأمنيات بأن يكون المستقبل أكثر إشراقاً من الماضي والتوقيع على إعلان الأمم المتحدة الخاص بحقوق السكان الأصليين، فإن واقع الحال مازال بعيداً عما توحي به هذه المظاهر، ومازال الهنود يعيشون على هامش المجتمع الأمريكي ويعانون من الإهمال الاجتماعي، ومن تفاصيل هذا الحال أن مجتمعات السكان الأصليين اليوم تتميز بمعدلاتها العالية من البؤس والحرمان التي تفوق معدلات المجتمع الأكبر حولهم بكثير، "ولا أحد يستطيع إنكار أن السكان الأصليين مازالوا أكثر الأقليات حرماناً في الولايات المتحدة"، فظروف المعيشة في محمياتهم تشبه ظروف العالم الثالث وتكوّن استثناء وسط مجتمع من العالم الأول يتميز بالوفرة، وتتراوح نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر في هذه المحميات بين 38-63% وتسودها أوضاع صحية فقيرة جداً حيث من الممكن أن يعيش ثلاثة أجيال أو أكثر (قد يصل عدد أفرادها إلى 25) في مكان ضيق (غرفتين مثلاً) بلا تبريد أو تدفئة أو مطبخ وأكثر من نصفها بلا صرف صحي، وفي بعض المحميات يضطر ساكنوها إلى قطع 30 أو 40 كيلومتراً لملء خزان المياه و150 كيلومتراً للوصول إلى مستشفى.

أما عن ظروف العمل فتتراوح البطالة في المحميات بين 50-70% وقد تصل إلى أعلى من 80%، وقد وصلت البطالة في بعض محميات داكوتا-حيث يعشش الفقر-في التسعينيات إلى 93%، في الوقت الذي كان فيه معدل البطالة في أمريكا لا يتجاوز 5%، ولم يكن من العجيب أن تتنافس المحميات في تسجيل أعلى معدلات الفقر حيث سجلت المقاومة الهندية آخر وقفاتها البطولية ضد الغزاة الأمريكيين في القرن التاسع عشر.

ومن بين جميع الأعراق في الولايات المتحدة يتربع السكان الأصليون على المركز الأول في كل من: معدل التسرب من المدارس (54%)، ومعدل وفيات الأطفال (60% أعلى من معدل السكان البيض)، ومعدلات الانتحار (60% أعلى من المعدل العام في أمريكا)، وحمل المراهقات، وانخفاض معدل الأعمار (55 عاماً فقط)، وفي بعض المحميات تصل نسبة الأسر المبتلاة بمشاكل الخمور إلى 80%.

ومن الدلائل الطريفة على الشعور الزائف بالذنب لدى الدولة الأمريكية أن المحميات الهندية معفاة من دفع الضرائب بصفتها موطناً لأصحاب الأرض الشرعيين الذين لا يملكون في الأغلب ما يدفعونه أو يدفعون عنه الضريبة، والأطرف من ذلك أن الهندي الذي يغادر المحمية يعاد فرض الضريبة عليه إذ يصبح لديه ما يقدمه بعد خروجه من أحزمة الفقر تلك.

وتعيش هذه المحميات على أموال المساعدات كدول العالم الثالث، ومثل هذه الدول أيضاً لا يصل من المساعدات لمواطنيها إلا 12% [403]، والمهارة الوحيدة التي أخلص الرجل الأبيض في نقلها وأبدع في تعليمها للهندي هي القمار الذي تفوق فيه التلميذ على أستاذه فأصبحت المحميات الهندية تدر ثلث مجموع أرباح القمار الأمريكي كله حسب إحصاء سنة

(403) نفس المرجع، ص236.

2009، ولكن مثل أموال كل مؤسسات العولمة لم تؤد هذه الأموال إلى رفع شأن الهندي العادي والمجتمعات الهندية الفقيرة عموماً.

وفي الوقت الذي يستخرج فيه نصف اليورانيوم الأمريكي من محميات الهنود فإن80% من النشاط النووي الذي تقوم به الولايات المتحدة يقع في أراضي الهنود أو قريباً منها، وكما يحدث مع العالم الثالث، تقوم الحكومة الأمريكية بإغراء السكان الأصليين بالمال لدفن المخلفات المشعة والسامة في أراضيهم، وقد تسرب التلوث إلى المياه والتربة والغذاء ثم إلى أجسام السكان الأصليين أنفسهم في بعض المناطق[404].

هذا النمط من التبادل الحضاري الأعرج الذي يستثني الغير من المزايا ويصب عليه المساوئ، كان هو النمط السائد في علاقة السكان الأصليين بالمهاجرين الأوروبيين منذ وطئت أقدامهم هذه القارة الجديدة عليهم، فقد تميزت هذه العلاقة باستئثار الجانب الأوروبي ثم الأمريكي بالمحاسن في نفس الوقت الذي صب فيه المساوئ على الجانب الهندي الضعيف، وإذا كان هذا هو السائد اليوم بعد انقضاء عصر المقاومة الهندية المسلحة وزوال الخطر الهندي على الاستيطان الأمريكي، فمن باب أولى أن يسود ذلك أيضاً في عصر الصراع الدامي على الأرض حين كان الطرف الهندي مازال قوياً بعض الشيء ويهدد المستعمرين بمقاومته ولهذا فإن حرمانه من المزايا الحضارية كان أكثر إلحاحاً وأهمية للجانب الأمريكي.

---

(404) معلومات وأرقام واقتباسات هذا القسم مستقاة من المواقع التالية ما لم يذكر خلاف ذلك:
http://www.nrcprograms.org/site/PageServer?pagename=naa_livingconditions
- http://www.cbn.com/cbnnews/337439.aspx
- http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems
- http://www.guardian.co.uk/world/2012/apr/22/un-investigate-us-native-americans
- http://www.franz-marc-gymnasium.de/mobil/englisch/englisch11/seiten/na_nativea.htm
- http://planetearthandhumanity.blogspot.com/2012/05/who-is-1-in-gambling.html

■ إمكانات التغير في أوضاع السكان الأصليين في الولايات المتحدة وعلاقتها بسبب الصراع

أقر الرئيس الأمريكي السابق جون كينيدي بثقل الماضي ووطأته في تعطيل الجهود لتحسين ظروف الحاضر والمستقبل فيما يتعلق بالسياسة القومية تجاه معاملة السكان الأصليين وفقاً لعلاقتهم الخاصة بالحكومة الاتحادية[405]، ولا أعتقد أن الرئيس كان يتحدث عن مجرد استمرارية الماضي بفعل القصور الذاتي، فإن الأهم من ذلك هو أن تصحيح ذلك الماضي يتطلب إدانة الرموز التاريخية المقدسة التي صنعت بؤس الهندي واضطهاده لتبني عليه وجود المستوطن وازدهاره، وليس من السهل أن يقر الإنسان بفشل إنجازاته ويدينها، فكيف يمكن لأمريكا اليوم أن تدين آباءها المؤسسين كجورج واشنطن وتوماس جيفرسون أو ثورتها أو توسعها الإقليمي أو دستورها أو مؤسسي ديمقراطيتها كأندرو جاكسون أو صائني وحدتها ومحرري رقيقها كأبراهام لنكولن ورجاله، وكل هذه الرموز كانت سلبية تجاه السكان الأصليين وهي التي صنعت مصيرهم المظلم.

ولقد حسب أحد المؤرخين المدة اللازمة لعودة أملاك الهنود التي ضمنتها المعاهدات لهم كما كانت سنة 1887، وذلك قبل أن تسلب هذه البقية الباقية لتوزع منها حصص على الأسر الهندية تحت شعار تمدين الهنود وتعليمهم الاستقرار والملكية الفردية وفقاً لقانون دوز، وتذهب بقية الأرض إلى المستوطنين الطامعين، وكان الهنود حينئذ يمتلكون 7% من مجموع الأرض الأمريكية التي كانت كلها يوماً لهم، فوجد هذا المؤرخ أنه وفقاً "للتقدم" الذي حصل منذ التراجع عن القانون السابق سنة 1934 إلى بداية القرن الحالي فإن الأمر يتطلب ستمائة سنة للعودة إلى ما كان قائماً سنة 1887[406]، مع أن هذا الوضع بدوره كان نتيجة قرون من سفك الدماء والنهب والسلب والهزائم وانتهاك الحقوق والمعاهدات، ومع ذلك فإن

---

(405) Jack Utter, p. xxxiii.

(406) نفس المرجع، ص217-218.

"التقدم" من سيء إلى أسوأ جعله حلماً بعيد المنال، ومن أمثلة القضايا التي رافقتها أجواء إعلامية احتفالية كبرى توقيع الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر سنة 1980 على قانون بمنح إحدى القبائل الهندية مالاً يكفي لشراء 2% فقط من أراض واسعة طالبت بها في ولاية مين، وقد حدث هذا "الإنجاز" بعدما قضى الرئيس وقتاً في معالجة القضية أكثر مما قضاه أي رئيس أمريكي في قضايا الهنود منذ بداية القرن العشرين[407]، ومازالت الولايات المتحدة تحجم عن اتخاذ حتى خطوات رمزية لصالح السكان الأصليين مثل تقديم اعتذار أدبي[408] وذلك رغم زوال خطرهم منذ زمن بعيد واستحواذ الرجل الأبيض على معظم بلادهم وثرواتهم وحصول كثير من الضحايا والأقليات على اعتذارات مماثلة في أنحاء العالم.

■ **ولكن لماذا مازال الهندي يؤلف مشكلة للمجتمع الأمريكي؟**

وقد وصف أحد المحللين "المسألة الهندية" في المجتمع الأمريكي بأنها إصرار الهندي على أن يتمسك بهويته وأن يكون مختلفاً في مجتمع يدعي تقديم فرص للجميع ولكن ما يعرضه في الحقيقة هو التماثل بينهم وهو ما لا يلائم مجموعة تصر على أن تختار (على أرضها) ما يلائمها وترفض ما يفرضه الآخر عليها أي ما يراه الهنود في المقابل "المسألة البيضاء"[409]، وهذا حق تراه بلا ريب مستمد من جذورها في هذه الأرض وكون أفرادها أصحابها الشرعيين وتظل متميزة عن المجتمع المحيط حتى وهو يتحول إلى أغلبية من الأقليات التي تنظر للمسألة الهندية من زاوية تختلف عن نظرة السكان الأصليين رغم كونهم أقلية بدورهم، كما أن النهوض بوضع الهنود يتضمن إدانة الماضي الذي سحقهم، وهذا الماضي الذي يتضمن الآباء الحجاج ثم المؤسسين والثورة الأمريكية والدستور والقدر الجلي والحرب

(407) Clifford E. Trafzer (Ed), American Indians American Presidents: A History, Smithsonian, New York, 2009, p. 196.

(408) http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems

(409) Jack Utter, p. 48.

الأهلية كله مقدس وفي نفس الوقت كله دنس بالنسبة للهنود لأن أي تقدم للمستوطن الأوروبي كان يعني تراجع الساكن الأصلي، ولكنه في نفس الوقت ماض تقوم عليه شرعية الحاضر بما فيها من أساطير الاستثنائية والحرية والإنسانية والديمقراطية والخيرية، ولهذا أصبح تقديم الاعتذار للهندي فضلاً عن تحسين وضعه الاجتماعي باهظ الكلفة من الناحية النفسية أكثر منه من الناحية المادية ويتطلب إعادة صياغة هذا المجتمع الظالم من أسسه.

■ مدى أهمية أي تغير مستقبلي

وبغض النظر عن بؤس الواقع الحالي للسكان الأصليين، وعن آفاق التحسن في هذا الواقع، فإن الثابت والمؤكد أن الهندي الأصلي ظل طوال عهد الطمع الأبيض بأرضه وثرواتها، ومقاومته هذا التمدد، محل عداء للمجتمع الأمريكي الذي يخفف قيوده وكراهيته إلى حد ما كلما قل ما في يد الهندي وقلت خطورته على ما في يد الأمريكي، حتى إذا استجدت الأطماع نتيجة كشف ثروة جديدة أو مطالبة الهندي بحق قديم، عادت الكراهية من جديد وعاد العداء إلى سيرته الأولى(410)، مما يؤكد أن الهندي الصالح اليوم هو الهندي المعدم الذي لا يملك ما يُطمع به، بعدما كان الهندي الصالح في عهد المواجهات المسلحة هو الهندي الميت الذي لا يقاوم الطمع في ممتلكاته وحقوقه، وهذا الوضع التاريخي الذي يصر الهندي اليوم على تصحيحه كما مر، هو الذي يضعه في تناقض مع حال اليهودي مثلاً الذي يناظره عدداً ويناقضه وضعاً، وحتى لو تم دمج السكان الأصليين في المجتمع الأمريكي فيما بعد فأصبحوا جزءاً منه وممثلاً له، وهو أمر لا يبدو احتمالاً قائماً في المستقبل القريب ولا حتى البعيد في ظل ما سبق، فإن هذا لن يكون تراجعاً عن شرور الماضي ولا عن الاستعداد لتكرار المظالم لو استجدت مصالح في أية بقعة من العالم، بل حتى لدى الهندي

(410) Wilbur R. Jacob, p. 150.

نفسه كما أثبتت بعض الانتكاسات الرجعية منذ القرن العشرين، وليس من الفضائل أن يقلع المرء عن الخطايا بعد زوال منافعها، وذلك لأن المصالح البشرية تتجدد ما دام الإنسان حياً، وعودة المصلحة تعني العودة للخطيئة.

■ محددات التغير في السياسات الظالمة

وكل ما سبق يؤكد أن مسيرة التقدم في العلاقة بين الأمريكي (الذي يمثل الحضارة الغربية) والهندي (الذي يمثل أي آخر موضع طمع) محكومة بدرجة المنفعة والقدرة على تحقيقها، وليس بتطور المفاهيم وتقدم الأفكار، إذ كما بينت في دراسة سابقة منشورة (أمريكا مدينة على تل أم صنم على جبل 1و2)، لم نحاكم الشخصيات الرمزية في التاريخ الأمريكي والمتهمة بارتكاب المظالم، وفقاً لمفاهيم زمنية لاحقة، بل إذا نظرنا إليها وفقاً لمفاهيم عصرها بل وفقاً لاعترافاتها الذاتية فإن الهوة بين القول والفعل واسعة وعميقة جداً، ليس بسبب القيود الفكرية للعصور التي عاشت فيها وقصرت مفاهيمها كما قوّمها من جاء في القرن العشرين، بل بسبب المصالح والأطماع التي اقتضت ارتكاب الظلم واستمراره ومنعت اتخاذ إجراءات عادلة والقضاء على الإساءات التي كان من الممكن وقفها كما أثبتت الحرب الأهلية الأمريكية والحرب الباردة ولكن ذلك لم يحدث إلا عندما تقضي المصالح والأطماع الجديدة وليس مجرد الإحساس بالخطيئة والندم عليها.

■ صراعات من أجل المصالح المادية وليس اختلافات فكرية بين الأزمنة

ومن هنا فإن المظالم التي ارتكبتها الولايات المتحدة ورموزها ضد الهنود الأصليين والأفارقة المستعبدين لم تكن مجرد التزام بمفاهيم عصر متخلف عما بعده ويسير قدماً نحو الأفضل، فمن الذي يريد أن يقنعنا بأن الإبادة التي حلت بالسكان الأصليين والاضطهاد الذي وقع على الأفارقة هما ذروة ما وصل إليه التقدم البشري في القرن التاسع عشر مع أنهما يذكران بهمجية فجر التاريخ وقد سبقهما حضارات أكثر تقدماً في معاملة

الآخرين؟ ومن الذي يريد أن يقنعنا أن الإبادة كانت هي القيمة السائدة والمقبولة خارج إطار الممارسات النفعية التي وإن كانت القيمة المطلقة في المجتمع الرأسمالي فإنها لم تلوث الفطرة النظرية التي عبرت عنها الوثائق الرسمية وآراء غير المنتفعين واعترافات المسئولين، لقد كان الاضطهاد نفاقاً اجتماعياً وظلماً مؤسسياً عبر عن الهوة الكبيرة بين القول والفعل نتيجة غلبة المصالح والأطماع المادية، وهي سمة ملازمة للمجتمعات الرأسمالية، واعترافات رجال ذلك العصر تثبت أنهم كانوا يرون ظلماً ما نراه نحن اليوم ظلماً، ويعترفون بالمظالم بصفتها منكرات كما نراها نحن اليوم كذلك أيضاً، وكونهم كانوا يرتكبونها فهذا لا يدل على أنهم كانوا يرونها صواباً وأنهم كانوا منسجمين مع رؤاهم، بل على الازدواجية البشرية التي طبعت الإنسان منذ بدء الخليقة بين المبادئ والمصالح لاسيما في مجتمع أصبحت المنفعة فيه هي القيمة العليا، ولهذا لم يكن يجرؤ على رفض هذا الظلم إلا من تحررت مصالحه من المواجهة مع الهنود، كسكان الساحل الشرقي في القرن التاسع عشر والذين ازدهرت بينهم المواقف الإنسانية تجاه الهنود بعدما تم تطهير المنطقة كلها منهم ولم يعد السكان الأصليون يؤلفون أي خطر على سكانها الذين أصبحوا يعيبون العنف الجاري بعيداً في الغرب ضد الهنود[411]، في الوقت الذي كان فيه سكان الغرب يتبنون الحل الإبادي لأنهم منهمكين في صراع لا يهدأ مع السكان الأصليين[412]، وكانوا يعيبون بدورهم على أهل الساحل الشرقي صحوة ضميرهم المتأخرة بعد فوات الأوان ورفضهم اليوم ما فعله أجدادهم بالأمس[413]، أي أن الاختلاف بل التناقض الفكري كان بين الأماكن المختلفة حسب توزع المصالح بينها وليس بين الأزمنة المتعاقبة حسب تطور الأفكار، وكان من الممكن وضع حد لهذه المظالم كما أثبتت الحرب الأهلية التي أثبتت أيضاً أن المصالح هي التي

(411) والتر أ. مكدوجال، أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ 1776، دار الشروق، القاهرة، 2001، ترجمة: رضا هلال، ص135.

(412) Robert M. Utley, p. 102.

(413) William w. Savage, JR (Ed), Indian Life: Transforming an American Myth, University of Oklahoma Press, Norman, 1977, p. 90.

تحرك القدرة على التغيير، وأوضح دليل على ذلك أن الشمال حرر العبيد لأن ذلك يدعم حربه على الجنوب وفي نفس الوقت قام نفس الرجال الذين حاربوا لأجل حرية الرقيق بالقضاء على حرية وحياة الأمم الهندية التي كانت تقف في وجه التوسع الأمريكي في الغرب القاري،، وتبدو المفارقة الواضحة بين مختلف الآثار الإنسانية في السياسة الأمريكية فيما حدث لكل من العبيد والسكان الأصليين في نفس الفترة في ظل المشاعر الإنسانية، ففي الوقت الذي صدر إعلان تحرير العبيد بتشجيع من الإنسانيين الذين حفزتهم رواية كوخ العم توم، أدت المشاعر الإنسانية تجاه الهنود والتي حفزتها كتابات أدبية إنسانية أخرى منها رواية رامونا طمحت كاتبتها إلى أن تجلب للهندي ما جلبته رواية كوخ العم توم للعبد الإفريقي من تعاطف، ولكن المفارقة أنها أدت إلى تطبيق سياسة "تمدينية" جسدها قانون دوز (1887) الذي شرّع سلب ثلثي ما بقي من أراض قليلة للهنود بعد معاهدات واتفاقات رسمية أقرت بقاء هذه الأراضي لهم بعد قرون من التوسع الأوروبي والأمريكي والقتل وانتهاك الحقوق، وهذا توضيح لا لبس فيه عن عبثية العوامل الإنسانية في ظل المصالح والمطامع في المجتمعات الرأسمالية.

كما أثبتت تجارب أمم أخرى أكثر "تخلفاً" من الولايات المتحدة وعاصرت حروب الهنود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجود خيارات أخرى غير الحل الإبادي الذي تبنته أمريكا، ومن ذلك تجربة توطين العشائر البدوية في الدولة العثمانية كما شرحت ذلك في دراسة أخرى سابقة ومنشورة (آثار التغريب الاجتماعي على المجتمع العثماني).

والجدير بالملاحظة أن صحوة الضمير في المجتمع الأمريكي عامة لم تحدث كما يقول أحد المؤرخين إلا "بعد زمن طويل من زوال الخطر الهندي تماماً"[(414)]، وذلك بهزيمة المقاومة المسلحة وسلب ممتلكات الهنود، ولكن ما يكشف زيف الشعور بالذنب وأن الظلم لم يكن نتيجة القيود الفكرية للعصور الماضية، أنه كلما ظهرت دواعي الصراع مجددا على

---

(414) Jon Manchip White, p. 241.

أي حق من حقوق الهنود عادت المشاعر السلبية القديمة وعاد العنف مرة أخرى[415]، وبرز إلى العلن السؤال الاستنكاري التهكمي الذي لا يدل على الندم على مظالم الماضي فيقول: "هل نحن بصدد إعادة أمريكا إلى الهنود ثانية؟"[416]، وإذا كان الظلم الماضي قد حدث بسبب اختلاف القيم عن قيم عصرنا، فما بال الظلم مستمراً إلى اليوم ولم يفض انبثاق الوعي الحديث إلى تغير في سياسة واشنطن تجاه محميات الهنود، كما لم يؤد الوعي بمظالم سكان أستراليا الأصليين إلى أية تأثيرات عملية[417].

لقد تبنى المهاجرون الأوروبيون والأمريكيون سياسة التوسع منذ البداية، وكان هذا هو الذي فرض عليهم اتباع سياسات خاصة، وهو الذي فرض السياسات اللازمة لتحقيق هذا الهدف حتى في رأي من اعتقد أن سكان الحدود هم الذين منعوا تطبيق سياسات متنورة وجدت عند السياسيين في واشنطن[418]، فقمع السكان الأصليين كان متضمناً في استمرار هدف التوسع[419] وسلب أراضيهم وهو أمر لن يقفوا منه موقف المتفرجين، فكان رد فعل الحكومة الاستيطانية "الصالحة" هو ما أوضحه أحد الجنرالات الأمريكيين لمواطنين مكسيكيين أثناء الحرب الأمريكية المكسيكية (1846-1848) عند حديثه عن عجز الحكومة المكسيكية عن الدفاع عنهم ضد هجمات الهنود: "إن حكومتي ستصحح كل ذلك، ستصد الهنود وتحمي أرواحكم وممتلكاتكم"[420]، وهذا كان هو معيار صلاح الحكومة الاستيطانية التي عليها إثبات جدارتها بواسطته وتتنافس مع غيرها من الحكومات المشابهة في تحقيقه حتى على لسان شخص ذي تجربة كما وُصف ذلك الجنرال في التاريخ، فكيف هو الحال مع عامة الناس؟[421]،

(415) Francis Paul Prucha, p. 1185.

(416) Alvin M. Josephy, p. 209.

(417) فرو، ص20.

(418) Richard Drinnon, p. 108.

(419) Robert M. Utley, p. 31.

(420) نفس المرجع، ص31.

(421) نفس المرجع، ص31-32.

ومن هذه الحرب وغيرها من الحروب التي قامت بين البيض أنفسهم كالثورة الأمريكية والحرب الأهلية يتبين أن الأمريكيين تصدوا لجميع من وقفوا ضد توسعهم، سواء كانوا من السكان الأصليين أم البريطانيين أم المكسيكيين أم الجنوبيين، ولهذا قال أحد المؤرخين إن العنصرية لا تصلح لتفسير التاريخ الأمريكي كله-وإن استفاد الأمريكيون منها في تبرير توسعهم على حساب الهنود- لأن حروبه طالت البيض كما طالت غيرهم، وقد كان المحرك للأمريكيين هو الحرية والبحث عن الفرص (ولو على حساب الآخرين) والانتقام من مقاومة الهنود[422]، وهي صورة طريفة للحرية التي تبنى بإبادة الآخرين تماماً كما دافع الجنوب عن"حريته" باستعباد الأفارقة، كما أنها صورة طريفة لعذر (هو العنصرية) يماثل الذنب (وهو التوسع) قبحاً ومرارة.

لقد كان هذا الصراع على الأرض هو الأرضية الخصبة التي نمت فيها الصورة الاستئصالية (المقابلة للاستشراق في الشرق العربي الإسلامي) والتي صورت السكان الأصليين بصورة تبرر حربهم والقضاء عليهم واستئصالهم وسلبهم كما كان الاستشراق الذي اخترعه الغرب يبرر إخضاع الشرق وحكمه والهيمنة عليه للاستيلاء على المصالح الغربية فيه.

وبهذا نرى أن علاقة الغرب بالآخرين، ونحن من ضمنهم، ليست محكومة بتطور المفاهيم وتقدم الأفكار نحو الإنسانية والعقلانية كما يظن أنصار التغريب الذين يتهمون غيرهم باستعجال الجنة الآتية ببطء من الغرب، بل بنوعية المصالح وقدرة الغرب على فرضها على غيره، وقد أقر الرئيس كينيدي بأهمية القوة في معادلة الصراع فقال: "عندما كان الهنود يتحكمون بميزان القوى، كان المستوطنون الأوروبيون مجبرين على أخذ وجهة نظرهم في الحسبان، فكانوا يتعاملون معهم بالمعاهدات والأدوات الأخرى... وعندما فقد الهنود قوتهم، وُضعوا في محميات كانت غالباً أراض غريبة عنهم، وصرفت بقية الأمة اهتمامها عنهم إلى قضايا أخرى"[423]، ومن هنا

(422) والتر أ. مكدوجال، ص134-135.

(423) Jack Utter, p. xxxiii.

فإن استعادة حقوقنا ليست مرهونة بعطف يستجد علينا في الغرب بل بقدرتنا على تحقيق مصالحنا في وقت مازالت فيه المصالح الغربية ثابتة في بلادنا وإن كان كثير من حملة الشعارات المثالية في الغرب يعارضونها، وهذه معارضة خيالية لن يلبث نفس دعاتها أن يتخلون عنها عندما يوضعون في موضع المسئولية المسئولة عن تحقيق المصالح لا تطبيق المبادئ، وفي كل الأحوال لن يقاتل لأجلنا أو بالنيابة عنا أحد ما لم نبدأ نحن بالدفاع بأنفسنا عن حقوقنا.

■ الاستنتاجات

■ توزيع المحاسن والمساوئ في الحوار الحضاري: الحضارة الغربية حضارة حصرية غير مستعدة لدمج الآخرين فيها رغم حديثها المستمر والممل عن ضرورة قبولهم، ومن أقوى الأدلة على ذلك استثناء السكان الأصليين من جنة بوتقة الصهر الأمريكية التي تذوب فيها كل الفروق بين البشر ومع ذلك تضيق بقلة من أصحاب البلاد الشرعيين الذين سارت العلاقة التاريخية الحضارية بهم في اتجاه واحد، فحصد المهاجرون البيض كل المزايا وكانت المساوئ من نصيب الهنود، فقد أعطوا محاسنهم للوافدين الجدد الذين لم يكتفوا باستغلال هذه المحاسن لأنفسهم وتدميرها عند أصحابها بل قاموا أيضاً بحرمان الهنود من محاسن الحضارة الأوروبية رغم توق كثير منهم للدخول في جنتها، ولو حصل الهندي على مزية من الوافد بطريقة غير مقصودة فإن هذا الوافد سرعان ما سيدمر ما أشادته هذه المزية في حياة الهندي عندما يقترب من حدوده، كما قام الأوروبيون بتشجيع مساوئ الهنود والاستفادة منها وبتصدير المساوئ الأوروبية إليهم أيضاً، وبهذا حرم الهنود من جميع المحاسن واستنفدتهم المساوئ في الوقت الذي استفاد الأوروبيون من كل ما تصوروه حسناً سواء عندهم أم عند سكان البلاد حتى أنهم تجرءوا على حرمان الهندي مما كانوا هم يستفيدون منه من مزايا الهنود الذين أصبحوا محرومين من حقهم في ذواتهم المباحة للغير.

وقد رأينا أن كل شعارات التقدم والتنوير التي صنعت ازدهار الرجل

الأبيض، صنعت العكس تماماً للهندي الأحمر، فقد أدى استقلال الأمريكي عن بريطانيا إلى فقدان الهندي استقلاله[424]، وما أن فاز الأمريكي بحريته حتى شرع في استعباد الهنود[425]، وكان تحقيق الديمقراطية للبيض يستلزم نهب الأرض التي يعيش عليها الهنود[426]، كما أدت الديمقراطية البيضاء إلى تشريع هذا النهب[427]، أما تمدين الهنود بقرارات شبهت بالإنجازات الغربية الكبرى كالماجنا كارتا والاستقلال وتحرير الرقيق فقد أدى إلى تدمير إنجازاتهم الحضارية على طريق تبني الحياة الأمريكية، أما الإنسانية البيضاء فقد كانت الطليعة التي شرعت إلغاء إنسانية الهندي وهويته تمهيداً لاستباحة حقوقه بطرق غير إنسانية[428].

■ الكيان الصهيوني نموذج مصغر للتجربة الأمريكية: وإن تجربة الكيان الصهيوني الذي يلخص مجموع التجربة الأمريكية بعدما كرر السوابق الأمريكية تجاه السكان الأصليين كما شرحت ذلك في دراسة منشورة (السوابق الأمريكية للسياسات الصهيونية 1 و2)، وكما لم يكن للهندي مكان في العالم الذي صنعته الثورة الأمريكية، ولم تكن مبادئها "التقدمية" تنطبق عليه ولا على العبد الإفريقي[429]، كذلك لم يكن للفلسطيني مكان في العالم الذي صنعه الصهيوني بمساعدة الغرب كله، وتؤكد التجربة الصهيونية هذه الحقيقة حيث يحرم العربي الفلسطيني من العودة إلى داره في جنة أرض الميعاد التي تستقبل الوافدين الغرباء من أقاصي الأرض إلا أنها تضيق بصاحب الحق في الأرض، كما أن العجز الذي ينتاب "المجتمع الدولي" في مواجهة الانتهاكات الصهيونية لحقوق شعب فلسطين مقابل الشدة في

---

(424) Eric Foner, Give Me Liberty: An American History, W. W. Norton & Company, New York and London, 2005, Vol. 1, p. 219.

(425) Colin G. Calloway, p. 300.

(426) Richard Slotkin, The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890, University of Oklahoma Press, Norman, 1994, pp. 248,252.

(427) William J. Bennett, p. 243.

(428) Colin G. Calloway, p. 298.

(429) نفس المرجع، ص298 و300.

مواجهة أية مقاومة فلسطينية يؤكد أن السلطة في الحضارة الغربية تمثل دائرة مواطنيها وغير معنية بضم الآخرين إليها أو معاملتهم على قدم المساواة وهو أمر يعيد إلى الأذهان عجز السلطات الأوروبية والأمريكية في القارة الأمريكية أمام انتهاكات مستوطنيها لحقوق الهنود الذين ادعى البيض أنهم يسعون لدمجهم في حضارتهم، وهذا يؤكد أن الحصرية في الحضارة الغربية ليست نتيجة لقلة إمكانات استيعاب الآخرين ولكنها مرتبطة بجدول المصالح الخاصة غير القابلة للتعميم كما تتصورها النخبة المستفيدة في هذا المجمع الحضاري.

■ مصير الانحياز للحضارة الغربية: ولم يكن نصيب الذين انحازوا إلى حضارة الرجل الأبيض أفضل من مصير من قاومها ووقف ضد أطماعها، فقد سلبت أرض المقاوم وانتهى إلى الفقر والطرد أيضاً مَن تعاون مع البيض ببيع أرضه أو بالقتال إلى جانبهم، وهذا ما حدث مع بلادنا حين انحاز العرب إلى جانب الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى (1916) فكان مصيرهم فقدان حريتهم، وتقسيم بلادهم، واحتلال أرضهم، لأن المصالح الغربية اقتضت ذلك بغض النظر عن المواقف الذاتية، ولهذا علينا التيقن بأن قبولنا بخطة تقسيم فلسطين (1947) لم تكن لتدرأ عنا النكبة لأن خطط الأعداء لم تكن رهينة مواقفنا أو ردود أفعال عليها، وفي الحرب الأولى أيضاً كان مصير الدولة العثمانية التي كانت تهمتها هي التحالف مع الألمان أسوأ من مصير ألمانيا ذاتها في تكرار لتجارب الهنود التي كان المهزوم منهم فيها يعاني أكثر من حليفه الأبيض (الفرنسي أو البريطاني أو الأمريكي الكنفدرالي).

■ أين نحن من التجربة الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً؟: ينادي أنصار التغريب بأن علينا أن نقتبس التجربة الغربية التي قامت بإنجازات أوصلت-على سبيل المثال-شخصاً من أصل إفريقي إلى منصب الرئاسة الأمريكية، والحقيقة أن هذه المباهاة فيها كثير من التجاوز على حقوق ملايين البشر التي سحقتها ومازالت تسحقها حتى اليوم الولايات المتحدة وأتباعها، وليس من الإنصاف أن يحمل الضحايا ثمن فاتورة تطور صنعه

المجتمع الغربي لداخله في الوقت الذي مازال الخارج ينتظر منذ بداية عصر الكشوف الجغرافية والاستعمار والإمبريالية دون تقدم يذكر إلا بعد فوات الأوان دائماً، وليس من العقل أن يطالب الطريد بالإعجاب بما صنعه المغتصب على أرضه المسروقة من إنجازات يتمتع بها وحده دون صاحب الأرض الشرعي، وإذا تململ ورفض وقاوم فإنه يتهم بالعجلة[430] لأن الخير في طريقه إليه والشمس ستشرق من الغرب بعد انتظار دام أعماراً كثيرة واستهلك طاقات كثيرة وأصبح تكراراً مملاً لتجارب متغربين أصروا بعناد دائم على الانحياز للغالب الغربي لتحقيق شيء من الازدهار في ظله من داخل منظومة الهيمنة الغربية، في تجارب انتهت جميعها بفشل ذريع دل على أن مكان "الآخر" في هذه التجربة هو المكان الذي ترسمه المصالح المادية التي تفرضها مبادئ المنفعة التنافسية الاستئثارية وإرادة فرض الهيمنة الحضارية الغربية وتجسد النموذج البدئي لهذه المكانة في التجربة التي خاضها ومازال يخوضها الهندي الأصلي بإقصائه واستبعاده منذ البداية إلى اليوم داخل القارة الأمريكية والذي تكرر مثاله في تنويعات على اللحن الأصلي والتي سمع فيها نغمة هذا اللحن بوضوح في أماكن متفرقة وعديدة في العالم تصر على الدفاع عن حقوقها المادية وهويتها الحضارية المختلفة عن الغرب وبخاصة في عالم العروبة والإسلام حيث تحكم المصالح الغربية والأطماع المتجددة دائماً والخلافات الحضارية مسار علاقتنا بالغرب أكثر من انتخاب مسرحي لإفريقي تشرب مبادئ العولمة وأصبح جزءاً من المنظومة الرأسمالية -كما يجسدها أشد أنصارها حماساً- أكثر من تمثيله مصالح الفقراء والمعدمين والمستضعفين الذين لم يغير هذا الرئيس من منظومة ظلمهم شيئاً، وأقول إن انتخابه مسرحي لأن أصداءه الإعلامية كانت أكبر من إنجازاته الحقيقية.

---

(430) توماس جيفرسون، الديمقراطية الثورية: كيف بنيت أميركا-جمهورية الحرية، دار الساقي، بيروت-لندن، 2011، ترجمة: منيرة سليمان ووليد الحمامصي، ص13 (من مقدمة بقلم حازم صاغية: الراهنية العربية لتوماس جيفرسون).

وعلى كل حال فإذا كان للغرب من حق في أن يأخذ -وفقاً لوعود الانتظار-وقتاً كافياً -قد يصل قروناً طويلة كما مر وإن لم يكن هنالك ضمانات لنهاية المسار- لاستيعاب الغير ودمجه في منظومته الحضارية كما يعدُنا المتفائلون بلا مبرر عملي، فإن على أنصار التغريب هؤلاء ألا يبخلوا على أممهم بأن تأخذ فرصتها الكاملة للتطور وفق مساراتها الذاتية دون أن يقوم قُطاع الطرق من الغرب بفرض مسارهم الذاتي لتحقيق مصالح حصرية لا تشمل الضحايا في نفس الوقت الذي يدعي فيه هؤلاء الغربيون أنهم يفعلون ذلك لصالح الإنسانية كلها ولا يمكننا فهم ذلك إلا إذا كانوا يقصدون بالإنسانية أنفسهم وحدها وهو ما ثبت بالفعل من تحليل الخطاب الحضاري الغربي التاريخي الذي أراد فرض التماثل داخلياً والتبعية خارجياً رغم كل الأحاديث عن التنوع والقبول.

■ هل يمكننا الفصل بين الفكر الغربي التنويري والسلوك الغربي الاستعماري؟ يصر بعض المثقفين على "التمييز بين إشعاعات المنهج الليبرالي التنويرية، والسياسة الليبرالية المتمثلة بالوجه الإمبريالي لاستعمار دول العالم الثالث"[431]، وإذا كان هذا الرأي مردوداً عليه بالوقائع التاريخية كما سيأتي، فإن الأعجب منه أن يتعلق أصحابه بالتجربة الماركسية التي ورثت المنهج الليبرالي دون السياسة الإمبريالية و"مثلت أفضل وأقسى نقد للغرب الاستعماري"[432]، دون الالتفات إلى أن التجربة الماركسية دخلت في طورين أيدت في أولاهما السياسة الاستعمارية بصفتها عامل تحديث للمجتمعات المستعمَرة وذلك على ألسنة المؤسسيْن كارل ماركس وفردريك إنجلز اللذين مدحا الاستعمار البريطاني، وأنصار كومونة باريس(1871) الذين أيدوا سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والأممية الثانية التي ناصرت الإمبرياليات في الحرب الكبرى الأولى (1914-

(431) د. نديم نجدي، أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد-حسن حنفي-عبد الله العروي، دار الفارابي، بيروت، 2005، ص417.

(432) نفس المرجع، ص217-218.

1918)، ثم دخل الطور الثاني الذي قاده البلاشفة في روسيا مؤسسين تجربة تفوقت على تجاربنا في البناء ولكن ثمنها الدموي كان باهظاً جداً مما أدى إلى سقوطها لصالح السياسة الليبرالية الاستعمارية التي خرج السوفييت عليها ثم تعايشوا معها ثم سقطوا بسببها، فلم تعد بذلك تجربتهم بديلاً حقيقياً لها.

ويرد الدكتور عبد الوهاب المسيري على المقولة السابقة عن فصل المنهج الليبرالي التنويري عن السياسة الليبرالية الاستعمارية بالقول إنه "لا يمكن دراسة تاريخ الديمقراطية في الغرب وتاريخ المجتمع المدني دون دراسة المشروع الإمبريالي، فديمقراطية إنجلترا تستند إلى حقيقة أن هذا البلد حقق الأمن الاجتماعي في الداخل، عن طريق تصدير كل مشكلاته إلى الشرق، وما الصهيونية سوى تصدير المسألة اليهودية إلى الوطن العربي"، مستدلاً على ذلك بإحصائيتين تبين أولاهما أن ما نهبته إنجلترا من الهند يفوق كل ما أنتجته في ثورتها الصناعية، فضلاً عن المنهوبات من بقية المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس، وتبين الإحصائية الثانية أن القفزة الهائلة التي حققتها الرأسمالية الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر استندت إلى محصول القطن الرخيص الذي كان ينتجه العبيد الأفارقة الذين سُرقوا من بلادهم وسيقوا للعمل تحت أقسى أنواع الظروف ودون حد الكفاف، ويستنتج قائلا "إن الإمبريالية ليست غزوة استعمارية ولا مجرد انحراف عن مسار الغرب، وإنما هي من صميم هذه الحضارة"[433]، ويؤكد ذلك أيضاً قول المؤرخين إن العمالة الإفريقية والأرض الهندية كانت موارد حيوية للجمهورية الأمريكية[434]، وإن أعظم مساهمة في إشاعة الديمقراطية الاقتصادية والفردية كان توزيع الأراضي ذات الأسعار الرخيصة على المستوطنين، وإن تطبيق هذه السياسة الحرة على مساحات الأرض الشاسعة والخصبة الواقعة خلف الجبال، أدى خلال قرن من الزمن إلى المساواة والديمقراطية الاقتصادية[435].

(433) عبد الوهاب المسيري، 2005، ص446-448.

(434) Colin G. Calloway, p. 300.

(435) دان لاسي، مولد أمة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص141.

أما عن الذين يريدون سلوك السبيل الغربي بحلوه ومره، فلم يعد أمامهم بلاد يستعمرونها ويستغلونها في وجود الغرب القوي الذي يحرس مصالحه ويبعد عنها أي متطفل سواه في كل أنحاء العالم، وهذا الاستغلال هو الذي منح المجتمعات الغربية فرصة الأمان الاجتماعي الذي بني عليه بقية الطقم الحضاري الترفي من حرية وديمقراطية ولهذا ساد التيار الإمبريالي داخل هذه البلاد حيث أمّن لها رغد العيش وهو ما كانت بقية التيارات المثالية والإنسانية المعادية للاستعمار تعجز عن تحقيقه ولهذا ظلت أصواتاً في البرية تزين حديقة "التعددية" و"حرية الرأي" و"قبول الآخر" داخل تلك الحضارة ولكن دون أثر عملي لاسيما أثناء احتدام المواجهات مع الضحايا، ثم يُرجع إلى تراثها بعد فوات الأوان للاستفادة منه (أليست حضارة المنفعة؟!) في إثبات حماية التعددية والحرية داخل تلك المجتمعات حتى في أحلك لحظات الأزمات(!)

■ هل تصلح رموز الولايات المتحدة لنا؟: بناء على ما سبق فإننا لا نجد في الشخصيات التي بنت الولايات المتحدة ما يصلح لأن يكون أمثلة يقتدي بها الضحايا، لاسيما أهل الشرق العربي الإسلامي، فهؤلاء الرموز إن كانوا قد أنجزوا تقدماً لأمتهم فهم غير صالحين لضحاياها، وليس هذا بسبب جرائم الماضي التي ارتكبت ضد السكان الأصليين، رغم فداحتها، ولا بسبب الجرائم التي ارتكبت ضد بلادنا لاسيما ضد الولايات العثمانية في شمال إفريقيا، ولا بسبب الميول الصهيونية لعدد من زعماء أمريكا الأوائل، وكلها كبائر يحلو لأنصار التغريب وحزب التبرير أن يحصروها في دائرة زمنية محددة لن يلبث التقدم أن يمحوها، ولكن استمرار العدوان إلى اليوم بعد قرون طويلة لم تغيره يؤكد أن القضية ليست عداوة محلية تجاوزها الزمن، ولا مجرد انحراف سياسي ارتكبه حاكم أهوج، ولا فكراً عتيقاً ما لبث التطور الفكري أن محا أثره، بل القضية جزء من نظرة الحضارة الغربية الثابتة إلى الآخر والتي تدعمها المصالح المادية والاختلافات الحضارية التي تعجز المثاليات عن التأثير العملي فيها.

وفي هذا السياق يعزو الدكتور حسن الضيقة سقوط عالمية التجربة

السياسية الغربية إلى "سقوط الأساس العقائدي والفلسفي للتجربة الغربية المعاصرة"... التي لم تعمل على إعادة إنتاج العالم غير الأوروبي على صورتها ومثالها، بل حولته إلى مادة أولية عمياء تخدم مؤسسات الأنوار الأوروبية مستخدمة في ذلك كل ما توفر لديها من أدوات قهر مادي ومعنوي"[436]، ومازالت هذه الازدواجية قائمة إلى يومنا هذا، ولهذا مازال "المجتمع الدولي" و"القانون الدولي" لا يمثلان في الحقيقة إلا أمم الغرب فتقع حقوقنا ضحية لحصرية تمثيلهما للدائرة الغربية وحدها وحرصهما على حقوق النخبة الغربية وحدها، ويتمكن المستوطن الصهيوني المنتمي للعالم الغربي من فرض انتهاكاته علينا مسلحاً بعجز المجتمع والقانون الدوليين بل بتأييدهما كما كان المستوطن الأوروبي يفرض انتهاكاته على الهندي مسلحاً بعجز بل بتأييد السياسة والقانون اللذين لا يمثلان الهندي ولا يشملانه بالرعاية، ولهذا أيضاً مازال مشاة البحرية الأمريكية يتغنون بعدوانهم على طرابلس الغرب الذي وقع قبل أكثر من مائتي سنة ويؤرخ بأنه"الحرب الأمريكية الأولى على الإرهاب"[437] التي قادها أبو الاستقلال الأمريكي الرئيس توماس جيفرسون، ومازالت الأحلام والنزعات الصهيونية التي عبر عنها عدد كبير من الرموز الأمريكية كبنيامين فرانكلين والرؤساء توماس جيفرسون وجون آدامز وأندرو جاكسون وأبراهام لنكولن تكون زاوية مهمة من السياسة الأمريكية منذ عهد الرئيس "المثالي" وودرو ويلسون الذي استثنى شعوبنا من جنة تقرير المصير وصادق على وعد بلفور وعبد الطريق لمن أتى بعده من البراغماتيين الذين لا يتحلون بملائكيته، وهذا ليس حكماً يتجاوز طبيعتهم البشرية وكونهم أبناء أزمنتهم كما يصور المبهورون بهم، بل هو وضع لكل منا في مكانه كما كان بالأمس ومازال إلى اليوم وسيظل إلى غد.

---

(436) د. حسن الضيقة، الآخر في منظور الفكر الغربي الحديث، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص100 و151.

(437) Joseph Wheelan, Jefferson's War: American First War on Terror 1801-1805, Carroll & Graf Publishers, New York, 2003.

الخلاصة

عملية استيعاب الآخر داخل الحضارة الغربية ليست متوقفة على قدرة الغرب على الدمج رغم إمكاناته الواسعة، بل هي محكومة بعاملين مهمين يكملان بعضهما البعض: المصالح المادية والاختلافات الحضارية، ولهذا نرى أن بلداً كبيراً وواسعاً ومرحباً بهجرة أعداد كبيرة إليه سنوياً مازال إلى اليوم يضيق بسكانه الأصليين رغم قلة عددهم وزوال خطرهم، وما سرى عليهم يسرى على غيرهم من الأمم التي تتعارض مصالح الغرب مع مصالحها وتصر على هويتها الحضارية المختلفة عن الهوية الغربية، كما أن الحصرية الغربية غير مرتبطة بموقف الآخرين منها سواء كانوا مؤيدين أم معارضين لأنها تمثل دائرتها الخاصة وغير المستعدة لدمج الآخرين في جنتها ومن هنا نبعت ازدواجية مواقفها من أتباعها والآخرين، وهذه الصورة ما زالت حية منذ زمن طويل لم يؤثر فيها تطور فكري أو تقدم معنوي لا صلة له بالمصالح المادية، ومازالت الحصرية مع النبذ والإضرار واضحة في سلوك الغرب المستمر إلى اليوم حين ينظر إلينا كمزبلة خارج إطار عالمه الأسطوري إذ يكب نفاياته السامة في العالم الثالث فيكون قد استفاد من استخدامها لنفسه وحمّل الآخرين عبء وأضرار المخلفات منها والتي لا يقبلها في قصره الرخامي، كما لم يشركهم في فوائدها، وذلك كما كب فيما سبق نفاياته البشرية في فلسطين بعدما أصبح اليهود عبئاً على الحضارة الغربية فقذف بهم إلينا ليحملنا شرورهم ويستفيد من كيانهم، الممارسة واحدة مازالت إلى اليوم.

المراجع

الكتب العربية

- الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين، الدار المتحدة للنشر، بيروت.
- آغا قصاب، سوسن، وتدمري، خالد عمر، بيروت والسلطان: 200 صورة من محفوظات عبد الحميد الثاني 1876-1909، منشورات تراب لبنان بالتعاون مع بلدية بيروت، بيروت، 2002.
- آلن، روجر (تحرير)، إبراهيم المويلحي: الأعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007.
- الإبراهيم، الدكتور حسن علي، الكويت: دراسة سياسية، مؤسسة دار العلوم، الكويت، 1980.
- أبي فاضل، د. وهيب، موسوعة عالم التاريخ والحضارة، نوبليس، 2007.
- أرسلان، الأمير شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير ودار التربية، دمشق وبيروت، 2001.
- أرسلان، الأمير شكيب، الرحلة الحجازية المسماة الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، دار النوادر، دمشق، 2007.
- الأعظمي، وليد حمدي، الكويت في الوثائق البريطانية 1752-1960، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص ولندن، 1991.
- إلدم، إدهم، وغوفمان، دانيال، وماسترز، بروس، المدينة العثمانية بين الشرق والغرب: حلب-إزمير-إسطنبول، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004، ترجمة: د. رلى ذبيان.
- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ترجمة: الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس.
- أنيس، الدكتور محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي (1514-1914)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1993.
- أورين، مايكل، القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ عام 1776 حتى اليوم، كلمة، أبو ظبي، وكلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2008، ترجمة: آسر حطيبة.
- أوغلي، أكمل الدين إحسان (إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 1999، ترجمة: صالح سعداوي.
- أورين، مايكل، القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ عام 1776 حتى

اليوم، كلمة، أبو ظبي، وكلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2008، ترجمة: آسر حطيبة.
- أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1990، ترجمة: عدنان محمود سلمان.
- أوين، روجر، اللورد كرومر: الإمبريالي والحاكم الاستعماري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ترجمة: رءوف عباس.
- إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، دار الفارابي، بيروت، 2004، ترجمة: يوسف عطا الله.
- إينالجيك، خليل، وكواترت، دونالد (تحرير)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ترجمة: د.قاسم عبده قاسم.
- بابه، إيلان، التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2007، ترجمة: أحمد خليفة.
- بايسونز، أنثوني، مذكرات آخر سفير بريطاني في طهران في عهد الشاه 1974-1979، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010، ترجمة: د. خالد سليم أحمد.
- البرازي، تمام، كيف دخل عرفات البيت الأبيض، المكتبة الثقافية، بيروت، 1997.
- براون، دي، تاريخ الهنود الحمر، دار الحوار، اللاذقية، 1982، ترجمة: توفيق الأسدي.
- بجك، باسيل يوسف، العراق وتطبيقات الأمم المتحدة للقانون الدولي (1990-2005)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- البرغوثي، د. تميم، الوطنية الأليفة: الوفد وبناء الدولة الوطنية في ظل الاستعمار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2007.
- بروشين، نيكولاي إيليتش، تاريخ ليبيا، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1999، ترجمة: د. عماد حاتم.
- برينتون، كرين، تشكيل العقل الحديث، سلسلة عالم المعرفة (82)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر 1984، ترجمة: شوقي جلال.
- بلنت، ألفريد سكاون، التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر، مكتبة الآداب، القاهرة، 2008.
- بنوا ميشان، جاك، الملك سعود: الشرق في زمن التحولات، دار الساقي، بيروت ولندن، 2010، ترجمة: نهلة بيضون.
- بنوميشان، ذكريات سياسية 1957-1958، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2002.
- بيات، أ. د. فاضل مهدي، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003.
- بيربي، جان جاك، جزيرة العرب، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001، ترجمة: نجدة هاجر وسعيد الغر (1960).
- بيرلو، فيكتور، وكان، ألبرت إ.، أعمدة الاستعمار الأمريكي ومصرع الديموقراطية في العالم الجديد، دار العلم للملايين، بيروت، 1980، تعريب: منير البعلبكي.
- بيريس، شمعون، الشرق الأوسط الجديد، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1994، ترجمة: محمد حلمي عبد الحافظ.

- بيسيس، صوفي، الغرب والآخرون: قصة هيمنة، دار العالم الثالث، القاهرة، 2002، ترجمة: نبيل سعد.
- بيهم، محمد جميل، الوحدة العربية بين المد والجزر 1868-1972، الدار العلمية، بيروت، 1973.
- الترمانيني، الدكتور عبد السلام، الرق: ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة (23)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، إبريل 1985.
- تروتسكي، ليون، الثورة المغدورة: نقد التجربة الستالينية، دار الإلتزام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1991، ترجمة: رفيق سامر.
- تشومسكي، نعوم، سنة 501: الغزو مستمر، دار المدى للثقافة للنشر، دمشق، 1999، ترجمة: مي النبهان.
- تشومسكي، نعوم، ضبط الرعاع: حوارات أجراها معه ديفيد بارساميان، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1997، ترجمة: هيثم علي حجازي.
- تشومسكي، نعوم، قوى وآفاق: تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، 1998، ترجمة: ياسين الحاج صالح.
- توخمان، باربارا، الكتاب المقدس والسيف: إنجلترا وفلسطين من العصر البرونزي إلى بلفور، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ترجمة: د. منى عثمان ومحمد طه.
- توكفيل، أليكسيس دي، الديمقراطية في أمريكا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962، ترجمة: أمين مرسي قنديل.
- توكفيل، أليكسيس دي، الديمقراطية في أمريكا، عالم الكتب، القاهرة، 2004، ترجمة: أمين مرسي قنديل.
- توما، الياس، التطورات الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي منذ سنة 1950: دراسة مقارنة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1987، ترجمة: عبد الوهاب الأمين.
- ثورو، لستر، مستقبل الرأسمالية، دار المدى، دمشق، 1998، ترجمة: عزيز سباهي.
- جارودي، رجاء، فلسطين أرض الرسالات الإلهية، دار التراث، القاهرة، 1986، ترجمة: دكتور عبد الصبور شاهين.
- الجاسم، الدكتورة نجاة عبد القادر، التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين (1914-1939)، الكويت، 1997.
- الجاسور، الدكتور ناظم عبد الواحد، تأثير الخلافات الأمريكية-الأوروبية على قضايا الأمة العربية: حقبة ما بعد نهاية الحرب الباردة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
- جوردون، جون ستيل، إمبراطورية الثروة: التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية، سلسلة عالمة المعرفة(357)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 2008، الجزء الأول.
- جويس، مريم، الكويت 1945-1996: رؤية إنجليزية-أمريكية، دار أمواج، بيروت، 2001، ترجمة: مفيد عبدوني.
- جيفرسون، توماس، الديمقراطية الثورية: كيف بنيت أميركا-جمهورية الحرية، دار الساقي، بيروت-لندن، 2011، ترجمة: منيرة سليمان ووليد الحمامصي.

- الحاج، الدكتور كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: عربي- إنجليزي،مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2000.
- حاطوم، دكتور نور الدين، ومصطفى، دكتور شاكر، وقاسم، دكتور جمال زكريا، وعليان، محمد عبد الفتاح، تاريخ العرب الحديث والمعاصر للصف الرابع المتوسط، وزارة التربية، الكويت.
- حاماتي، هنري موسى، ملف القبس - 2: سقوط الإمبراطورية الإيرانية، دار القبس للصحافة والطباعة والنشر، الكويت، إبريل 1980.
- حجار، د. جوزف، أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976.
- حرب، الدكتور محمد، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، 1990.
- الحرب على العراق: يوميات-وثائق-تقارير (1990-2005)،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
- الحسن، سعيد، حول اتفاق 'غزة-أريحا أولاً' (وثائق ودراسات)، دار الشروق، عمّان، 1995.
- حسيب، الدكتور خير الدين حسيب، العراق من الاحتلال إلى التحرير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- حسين، الدكتور محمد محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، 1962.
- حلاق، دكتور حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، دار النهضة العربية، بيروت، 1999.
- الحلي النجفي، السيد جعفر، سحر بابل وسجع البلابل، دار الأضواء، بيروت، 1988، تحقيق: الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.
- حمدان، حمدان، إغتيال التاريخ: رداً على نتنياهو في مكانه تحت الشمس، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 1997.
- حمدان، حمدان، الخليج بيننا: قطرة نفط بقطرة دم، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
- حمدان، حمدان، العراق وثمن الخروج من النفق: من محمد علي باشا إلى عبد الناصر فصدام حسين، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، 2004.
- حمدان، حمدان، عقود من الخيبات: كيف وصلنا إلى هنا؟، بيسان للنشر والتوزيع، 1995.
- الحمصي، الدكتور محمود، خطط التنمية العربية واتجاهاتها التكاملية والتنافرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1980.
- الخالدي، وليد، خمسون عاماً على حرب 1948، دار النهار، بيروت، 1998.
- الخالدي، وليد، فلسطين وصراعنا مع الصهيونية وإسرائيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية والنادي الثقافي العربي، بيروت، 2009.
- خدوري، الدكتور مجيد، الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الأفكار والمثل العليا في السياسة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1985.

- خدوري، الدكتور مجيد، عرب معاصرون: أدوار القادة في السياسة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1972.
- الخليفة، مي محمد، سبزآباد ورجال الدولة البهية: قصة السيطرة البريطانية على الخليج العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998.
- الخولي، دكتور حسن صبري، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، دار المعارف بمصر، 1973.
- دشنر، كارلهاينتس، المولوخ: إله الشر-تاريخ الولايات المتحدة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2003.
- الدليمي، المحامي خليل، صدام حسين من الزنزانة الأمريكية: هذا ما حدث، دار الواضح، دبي، 2010.
- ديلودال، جيرار، الفلسفة الأمريكية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ترجمة: د.جورج كتورة ود.إلهام الشعراني.
- ديمبلبي، جوناثان، وماك كوين، دونالد، الفلسطينيون، الدار العربية للموسوعات، بيروت.
- الرافعي، عبد الرحمن، عصر إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، 1987.
- رافيتش، دايان (تحرير)، مختارات من الفكر الأمريكي: كلمات حركت أمة باسرها، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 1998، ترجمة: نمير عباس مظفر وصادق إبراهيم عودة.
- رايلي، كافين، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، سلسلة عالم المعرفة (97)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1986، ترجمة: الدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتورة هدى حجازي، القسم الثاني.
- الرميضي، طلال سعد، الكويت والخليج العربي في السالنامة العثمانية، الكويت، 2009.
- رتشتين، تيودور، تاريخ المسألة المصرية 1875-1910، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950، ترجمة: عبد الحميد العبادي ومحمد بدران.
- رودني، د. والتر، أوروبا والتخلف في إفريقيا، سلسلة عالم المعرفة (132)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1988، ترجمة: د. أحمد القصير.
- ريفيرو، أزوالدو دي، خرافة التنمية: الاقتصادات غير القابلة للحياة في القرن الحادي والعشرين، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، 2011، ترجمة: عمر سعيد الأيوبي.
- زكريا، الدكتور فؤاد، الإنسان والحضارة في العصر الصناعي، مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، 1958.
- زكريا، دكتور فؤاد، العرب والنموذج الأمريكي، مكتبة مصر، القاهرة، 1991.
- زكي، رمزي، الاقتصاد العربي تحت الحصار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989.
- زكي، الدكتور رمزي، التاريخ النقدي للتخلف: دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكون التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة (118)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر 1987.
- الزمرلي، الصادق، أعلام تونسيون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- زين، زين نور الدين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، بيروت، 1977.

- زين، زين نور الدين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، 1986.
- السبكي، د.آمال، تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (1906-1979)، العدد 250 من سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر 1999.
- ستيغليتز، جوزيف إ.، خيبات العولمة، دار الفارابي، بيروت، 2003، ترجمة: ميشال كرم.
- سردار، ضياء الدين، وديفيز، ميريل وين، لماذا يكره العالم أمريكا؟، مكتبة العبيكان، الرياض، 2005، ترجمة: معين الإمام.
- سعيد، إدوارد، وهيتشينز، كريستوفر، إلقاء اللوم على الضحايا: الدراسات الزائفة والقضية الفلسطينية، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، 1991.
- السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية 1891-1908، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979.
- سلوت، ب. ج.، مبارك الصباح: مؤسس الكويت الحديثة 1896-1915، مركز البحوث والدراسات الكويتية، 2008، ترجمة: السيد عيسوي أيوب.
- سليمان، ميخائيل (تحرير)، فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كلينتون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996.
- سمارة، الدكتور عادل، اللاجئون واستدخال الهزيمة، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2001.
- سنو، د. عبد الرءوف، النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877-1881، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 1998.
- سولت، د. جيرمي، تفتيت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، دار النفائس، دمشق، 2011، ترجمة: د. نبيل صبحي الطويل.
- سيمونز، جيف، التنكيل بالعراق: العقوبات والقانون والعدالة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ديسمبر 1998.

- سيمونز، جيف، عراق المستقبل: السياسة الأمريكية في إعادة تشكيل الشرق الأوسط، دار الساقي، بيروت، 2004، ترجمة: سعيد العظم.
- الشامي، الدكتور رشاد عبد الله، الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1988.
- شاحاك، إسرائيل، أسرار مكشوفة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998.
- شاخت وبوزورث (تحرير)، تراث الإسلام (القسم الأول)، سلسلة عالم المعرفة (8)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1978، ترجمة: الدكتور محمد زهير السمهوري.
- الشرباصي، الدكتور أحمد، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، دار الجيل، بيروت، 1978.
- الشريف، الدكتور ماهر، تاريخ فلسطين الاقتصادي-الاجتماعي، دار ابن خلدون، بيروت، 1985.

- شفيق، منير، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات: ثورات-حركات-كتابات،دار القلم، الكويت، 1993.
- شفيق، منير، النظام الدولي الجديد وخيار المواجهة، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، تونس، 1992، نسخة على موقع الموقف على الإنترنت.
- الشقيري، أحمد، الأعمال الكاملة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- الشلبي، الدكتورة سهيلا سليمان، العلاقات الأردنية-البريطانية 1951-1967، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
- الشلق، د. أحمد زكريا، الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق، القاهرة، 2005.
- الشملان، سيف مرزوق، من تاريخ الكويت، ذات السلاسل، الكويت، 1986.
- الشناوي، أستاذ دكتور عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997.
- شومسكي، نعوم، النزعة "الإنسانية" العسكرية الجديدة، دار الآداب، بيروت، 2001، ترجمة: أيمن حنا حداد.
- شير، كريستوفر، وشير، روبرت، وشاوذري، لاكشمي، كذبات بوش الخمس الكبيرة التي أخبرنا بها عن العراق، دار الكتاب العربي ونينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2004، ترجمة: محمود علي عيسى.
- صالحية، أ. د. محمد عيسى، مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) 1275-1368/ 1858-1948، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2009 (نسخة على الإنترنت).
- الصلح، رغيد، حربا بريطانيا والعراق 1941-1991، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1997.
- صوان، محمد شعبان، السلطان والمنزل: الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة العثمانية ومقاومتها لتمدد الرأسمالية الغربية، دار الروافد الثقافية-ناشرون، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، 2013.
- ضاهر، الدكتور مسعود، النهضة اليابانية المعاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002.
- الضيقة، د. حسن، الآخر في منظور الفكر الغربي الحديث، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.
- العالم، محمود أمين، ونصار، مصطفى بهيج، ياسر عرفات: أزمة الخليج، قضية فلسطين، الأمن العربي، دار العالم الثالث، القاهرة.
- عباس، رءوف، صفحات من تاريخ الوطن، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2011.
- عبد الرحمن، د. تهاني شوقي، نشأة دولة تركيا الحديثة 1918-1938، دار العالم العربي، القاهرة، 2011.
- عبد الفضيل، محمود، النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية، سلسلة عالم المعرفة (16)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979 (نسخة مدمجة).
- عبد الوهاب، د. محمد، عبد الناصر والسياسة الخارجية الأمريكية 1952-1956، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006.

- عبوشي، واصف، فلسطين قبل الضياع: قراءة جديدة في المصادر البريطانية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1985، ترجمة: علي الجرباوي.
- عثمان، ناصر عبد الله، قبل أن يأتي الغرب: الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2006.
- العزاوي المحامي، عباس، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004.
- عصاصة، الدكتور سامي، هل انتهت حرب الخليج، مكتبة بيسان، بيروت1994.
- العكش، منير، أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الإنكليزية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2009.
- العكش، منير، أميركا والإبادات الجماعية: حق التضحية بالآخر، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2002.
- العكش، منير، أميركا والإبادات الجنسية: 400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2012.
- علي، محمد كرد، خطط الشام، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 2007.
- عيساوي، شارل، التاريخ الإقتصادي للهلال الخصيب 1800-1914، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ترجمة: د.رءوف عباس حامد، ص346-347.
- غارودي، روجيه، كيف نصنع المستقبل، دار عطية للنشر، بيروت، 1998.
- غارودي، روجيه، مشروع الأمل، دار الآداب، بيروت، 1988.
- غارودي، روجيه، نداء إلى الأحياء، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1981، ترجمة: الدكتور ذوقان قرقوط.
- فرو، مارك (تحرير)، الاستعمار الكتاب الأسود (1600-2000)، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ترجمة: محمد صبح.
- فندلي، بول، الخداع، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1993، أشرف على الترجمة: الدكتور محمد يوسف زايد.
- فهمي، د. أمل، العلاقات المصرية العثمانية على عهد الاحتلال البريطاني 1882-1914، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002.
- فيسي، وليام فيسي، وغرانت جيليان، الكويت في عيون أوائل المصورين، مركز لندن للدراسات العربية، لندن، 1998، ترجمة: أشرف إبراهيم.
- القاسمي، د. سلطان بن محمد، بيان الكويت: سيرة حياة الشيخ مبارك الصباح، الشارقة، 2004.
- قرم، د.جورج، التبعية الاقتصادية: مأزق الاستدانة في العالم الثالث في المنظار التاريخي، دار الطليعة، بيروت، 1982.
- القضية المصرية 1882-1954، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1955.
- قورشون، أ. د. زكريا، العثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثماني 1745-1914، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005.
- كارابل، زاكري، أهل الكتاب: التاريخ المنسي لعلاقة الإسلام بالغرب، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ترجمة: د. أحمد إيبش.

- كامل، محمد إبراهيم (وزير خارجية مصر الأسبق)، السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق.
- كامل باشا، مصطفى، المسئلة الشرقية، مطبعة اللواء، القاهرة، 1909.
- كروزيه، موريس (تحرير)، تاريخ الحضارات العام، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2006، ترجمة: يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر.
- كشك، محمد جلال، ثورة يوليو الأمريكية: علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1988.
- كلو، أندري، سليمان القانوني: مثل من التمازج بين الهوية والحداثة، دار الجيل، بيروت، 1991، ترجمة: البشير بن سلامه.
- كواترت، دونالد، الدولة العثمانية 1700-1922، مكتبة العبيكان، الرياض، 2004، ترجمة: أيمن أرمنازي.
- كوبلاند، مايلز، حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية الأميركية ودوره في مصر وسوريا ولبنان وإيران، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2007، ترجمة: صادق عبد علي الركابي.
- كورتن، فيليب، العالم والغرب: التحدي الأوروبي والاستجابة فيما وراء البحار في عصور الإمبراطوريات، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007، ترجمة: رضوان السيد.
- الكيالي، د. عبد الوهاب (تحرير)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993.
- الكيلاني، ماجد عرسان، التحدي الصهيوني في مناهج التعليم العربي في إسرائيل، مكتبة الأقصى، بيروت، 1972.
- لاسي، دان، مولد أمة، دار الأفاق الجديدة، بيروت.
- -لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، 2007.
- لوريمر، ج. ج.، دليل الخليج، قطر.
- لونجلي، كليفورد، الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003، ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم.
- لويس، برنارد، الإسلام في التاريخ: الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ترجمة: مدحت طه.
- ليتل، دوجلاس، الاستشراق الأمريكي: الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ 1945، المركز القومي للترجمة، 2009، ترجمة: طلعت الشايب.
- ليفن، أناتول، أمريكا بين الحق والباطل: تشريح القومية الأمريكية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ترجمة: د. ناصرة السعدون.
- ماجدوف، هاري، الإمبريالية من عصر الاستعمار إلى اليوم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981.
- مانسفيلد، بيتر، تاريخ الشرق الأوسط، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ترجمة: أدهم مطر.
- محافظة، الدكتور علي، بريطانيا والوحدة العربية 1945-2005، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011.

- محيو، سعد، مأزق الحداثة العربية من احتلال مصر إلى احتلال العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010.
- مذكرات السلطان عبد الحميد، دار القلم، دمشق، 1991، ترجمة: محمد حرب.
- المسيري، د. عبد الوهاب، الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح، دار الحمراء، بيروت، 2002.
- المسيري، الدكتور عبد الوهاب، أرض الميعاد: دراسة نقدية للصهيونية السياسية، الهيئة العامة للاستعلامات، جمهورية مصر العربية، 1980.
- المسيري، الدكتور عبد الوهاب، أسرار العقل الصهيوني، دار الحسام، القاهرة، 1996.
- المسيري، عبد الوهاب، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة، 2002.
- المسيري، الدكتور عبد الوهاب، حوارات (2): العلمانية والحداثة والعولمة، دار الفكر، دمشق، 2010، تحرير: سوزان حرفي.
- المسيري، الدكتور عبد الوهاب، حوارات (3): الهوية والحركية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، 2010، تحرير: سوزان حرفي.
- المسيري، الدكتور عبد الوهاب، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006.
- المسيري، عبد الوهاب، رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار، دار الشروق، القاهرة، 2005.
- المسيري، د. عبد الوهاب، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، دار الشروق، القاهرة، 1997.
- المسيري، د. عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة، 2002.
- المسيري، د.عبد الوهاب، في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، القاهرة، 2003.
- المسيري، الدكتور عبد الوهاب، من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية (أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني)، دار الفكر، دمشق، 2002.
- المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، 1999.
- مصطفى، د. أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين 1945-1949: دراسة وثائقية، دار الشروق، 1986.
- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، 1982.
- مصطفى، الدكتور شاكر (إعداد وإشراف)، أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي: وقائع ندوة الكويت ما بين 7-12 نيسان 1974 برعاية جمعية الخريجين وجامعة الكويت، الطبعة الأولى، صيف 1975.
- مطر، فؤاد (سلسلة أعماله الشاملة)، الخميني وصدام: القرار الصعب والخيار الأصعب، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، 2007.
- مطر، فؤاد (إشراف)، موسوعة حرب الخليج: اليوميات-الوثائق-الحقائق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ومركز فؤاد مطر للإعلام والتوثيق والاستشارات والدراسات، لندن، 1994.

- معتوق، فردريك، مرتكزات السيطرة الغربية: مقاربة سوسيو-معرفية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009.
- مكارثي، جستن، الطرد والإبادة مصير المسلمين العثمانيين (1821-1922 م)، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2005، ترجمة: فريد الغزي.
- مكدوجال، والتر أ.، أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ 1776، دار الشروق، القاهرة، 2001، ترجمة: رضا هلال.
- مكدول، ديفيد، تاريخ الأكراد الحديث، دار الفارابي، بيروت، 2004، ترجمة: راج آل محمد.
- مناع، عادل، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني1800-1918، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1997.
- مناع، عادل، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700-1918، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، دار الجيل، بيروت.
- موريس، بني، طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين: وثيقة إسرائيلية، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمّان.
- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني (الدراسات الخاصة)، هيئة الموسوعة الفلسطينية، بيروت، 1990.
- الموسوعة الفلسطينية: القسم العام، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984.
- المويلحي، إبراهيم، الأعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007، تقديم وتحرير: روجر آلن.
- ميرفان، صابرينا، حركة الإصلاح الشيعي: علماء جبل عامل وأدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان، دار النهار، بيروت، 2003، ترجمة: هيثم الأمين.
- نافع، بشير موسى، العراق: سياقات الوحدة والانقسام، دار الشروق، القاهرة، 2006.
- نجدي، د. نديم، أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد-حسن حنفي-عبد الله العروي، دار الفارابي، بيروت، 2005.
- نخلة، خليل، أسطورة التنمية في فلسطين، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، 2004، تعريب: ألبرت أغازريان.
- النتشة، رفيق شاكر، الاستعمار وفلسطين، دار الجليل للنشر، عمّان، 1984.
- نخلة، الدكتور محمد عرابي محمد، تطور المجتمع في فلسطين 1920-1948، ذات السلاسل، الكويت، 1983.
- نعنعي، دكتور عبد المجيد، تاريخ الولايات المتحدة الأميركية الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.
- النفزاوي، د. محمد الناصر، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، صفاقس، وكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2001.
- النفيسي، عبد الله فهد، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، 1990.

- نوفل، أ.د. أحمد سعيد، دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2010.
- هاسلب، جون، السلطان الأحمر عبد الحميد، دار الروائع الجديدة، بيروت، 1974، ترجمة: فيليب عطا الله.
- هرشلاغ، ز. ي.، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، دار الحقيقة، بيروت، 1973، ترجمة: مصطفى الحسيني.
- هلال، رضا، المسيح اليهودي ونهاية العالم، مكتبة الشروق، القاهرة، 2001.
- الهلالي، محمد مصطفى، السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود، دار الفكر، دمشق، 2004.

- الهنيدي، سحر، التأسيس البريطاني للوطن القومي اليهودي: فترة هربرت صامويل 1920-1925، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2003، ترجمة: عبد الفتاح الصبحي.
- هوبزباوم، إريك، عصر الإمبراطورية (1875-1914)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011، ترجمة: فايز الصياغ.
- هوبزباوم، إريك، عصر الثورة: أوروبا 1789-1848، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ترجمة: د. فايز الصياغ.
- هوبزباوم، إريك، عصر رأس المال 1848-1875، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ترجمة: د. فايز الصياغ.
- هيكل، محمد حسنين، حرب الخليج: أوهام القوة والنصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1992.
- وارنر، تيم، إرث من الرماد: تاريخ "السي. آي. إيه"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2011، ترجمة: أنطوان باسيل.
- الوردي، الدكتور علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مكتبة الصدر، قم، 2004.
- وليامز، جيسيكا، 50 حقيقة ينبغي أن تغير العالم، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2005.
- الونداني، مؤيد، الاتحاد العربي في الوثائق البريطانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013.
- وولف، إريك، أوروبا ومن لا تاريخ لهم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2004، ترجمة: فاضل جتكر.
- يرغن، دانييل، الجائزة: ملحمة البحث عن النفط والمال والسلطة من بابل إلى بوش، دار التكوين للنشر والتوزيع، دمشق، 2004، ترجمة: حسام الدين خضور.
- يلماز، عمر فاروق، السلطان عبد الحميد خان الثاني بالوثائق، دار نشر عثمانلي، 1999، ترجمة: طارق عبد العزيز السيد.

الكتب الأجنبية

- Adams, David Wallace, Education for Extinction: American Indians and the Boarding School Experience, University Press of Kansas, Lawrence, 1997.
- Aldrich, Robert (Ed), The Age of Empires, Thames & Hudson, London, 2007.

- Al-Ghanim, Salwa, The Reign of Mubarak Al-Sabah Shaikh of Kuwait 1896-1915, I.B. Tauris, London, 1998.
- Anderson, Gray Clayton, The Conquest of Texas: Ethnic Cleansing in the Promised Land 1820-1875, University of Oklahoma Press, Norman, 200.
- Banner, Stuart, How the Indians Lost Their Land: Law and Power on the Frontier, The Belknap Press of Harvard University Press, Cambridge-Massachusetts, 2005.
- Bennett, William j., America: The Last Best Hope, Thomas Nelson, Nashville, 2006.
- Berthrong, Donald J., The Cheyenne and Arapaho Ordeal: Reservation and Agency Life in the Indian Territory, 1875-1907, University of Oklahoma Press, Norman, 1992.
- Boddington, Tony (Ed), The American West 1840-95, Holmes McDougall Ltd., Edinburgh, Britain, 1977.
- Brandon, William, Indians, The American Heritage Library, New York, 1985.
- Bright, William, Native American Placenames of the United States, University of Oklahoma Press, Norman, 2007.
- Calloway, Colin G., The American Revolution in Indian Country, Cambridge University Press, 1995, p. 18.
- Capps, Benjamin, The Great Chiefs, Time-Life Books, Alexandria-Virginia, 1982.
- Capps, Benjamin, The Indians, Time-Life Books, Alexandria-Virginia, 1981.
- Cetinsaya, Gokhan, Ottoman Administration of Iraq, 1890-1908, Routledge, New York, 2006.
- Churchill, Ward, Kill the Indian save the man: The Genocidal Impact of American Indian Residential Schools, City Light Publishers, San Francisco, 2004.
- Clare, John D, The Age of Expansion 1750-1914, Nelson, Surrey- UK, 1996.
- Debo, Angie, A History of the Indians of the United States, University of Oklahoma Press, Norman, 1983.
- Deloria, JR., Vine, Custer Died For Your Sins: An Indian Manifesto, University of Oklahoma Press, Norman, 1988.
- Diedrich, Mark, Sitting Bull: The Collected Speeches, Coyote Books, Rochester, MN, 1998.
- Douwes, Dick, The Ottomans in Syria: A History of Justice and Oppression, I. B. Tauris, London, 2000.
- Drake, Laura, The Future of Palestinian Refugees in Lebanon, In: Joseph Ginat and Edward J. Perkins (Ed), The Palestinian Refugees: Old Problems-New Solutions, University of Oklahoma Press, Norman, 2001.
- Drinnon, Richard, Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating & Empire-Building, University of Oklahoma Press, Norman, 1997.
- Ehle, John, Trail of Tears: The Rise and Fall of the Cherokee Nation, Anchor Books, New York, 1988.
- Fixico, Donald L., The Invasion of Indian Country in the Twentieth Century: American Capitalism and Tribal Natural Resources, University of Nebraska Press, Lincoln, 1998.
- Foner, Eric, Give Me Liberty: An American History, W. W. Norton & Company, New York and London, 2005, Vol. 1.
- Foreman, Grant, The Five Civilized Tribes, University of Oklahoma Press, Norman, 1934.
- Foreman, Grant, Indian Removal, University of Oklahoma Press, Norman, 1972.

- Gallay, Alan, The Indian Slave Trade: The Rise of the English Empire in the American South 1670-1717, Yale University Press, New Haven, 2002.
- Grant, Bruce, Concise Encyclopedia of the American Indian, Wings Books, New York, 2000.
- Heizer, Robert F., The Destruction of California Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1993.
- Horsman, Reginald, Expansion and American Indian Policy 1783-1812, University of Oklahoma Press, Norman, 1992.

- Hoxie, Frederick E., Encyclopedia of North American Indians, Houghton Mifflin Company, Boston & New York, 1996.
- Issawi, Charles, An Economic History of the Middle East and North Africa, Routledge, London and New York, 2010.
- Jacob, Wilbur R., Dispossessing the American Indian: Indians and Whites on the Colonial Frontier, University of Oklahoma Press, Norman, 1985.
- Jastrow, Morris, The War and the Bagdad Railway, BiblioLife, Breinigsville, Pennsylvania, 2010.
- Jennings, Francis, The Creation of America Through Revolution to Empire, Cambridge University Press, 2000.
-Jennings, Francis, The Invasion of America: Indians, Colonialism, and the Cant of Conquest, Norton, New York, 1976.
- Josephy, JR., Alvin M., Now That the Buffalo's Gone: A Study of Today's American Indians, University of Oklahoma Press, Norman, 1989.
- Kasaba, Resat, The Ottoman Empire and the World Economy, State University of New York, 1988.
- Kelton, Paul, Epidemics & Enslavement: Biological Catastrophe in the Native Southeast 1492-1715, University of Nebraska Press, Lincoln, 2007.
- Knightley, Phillip, and Simpson, Colin, The Secret Lives of Lawrence of Arabia, McGraw-Hill Company, New York, 1969.
- Lamar, Howard R., The Reader's Encyclopedia of the American West, Thomas Y. Crowell Company, New York, 1977.
- Lavender, David, Let Me Be Free: The Nez Perce Tragedy, University of Oklahoma Press, Norman, 1999.
- Lewis, Norman N., Nomads and Settlers in Syria and Jordan, 1800-1980, Cambridge University Press, 2009.
- Macdonald, Fiona, Native Peoples of North America, Collins Educational, London, 1993.
- Marks, Paula Mitchell, In A Barren Land: American Indian Dispossession and Survival, William Morrow and Company, Inc., New York, 1998.
-Marquis, Arnold, A Guide to America's Indians, University of Oklahoma Press, Norman, 1987.
- McDermott, John D., A Guide to the Indian Wars of the West, University of Nebraska Press, Lincoln, 1998.
- McMurray, Jonathan S., Distant Ties: Germany, the Ottoman Empire, and the Construction of the Baghdad Railway, Praeger, London, 2001.
- New Standard Encyclopedia, Feerguson Publishing Company, Chicago, 1999.
- Pamuk, Sevket, The Ottoman Empire and European capitalism, 1820-1913, Cambridge University Press, 1987.

- Patai, Raphael (Ed), The Complete Diaries of Theodor Herzel, Thomas Yoseloff, New York, 1960.
- Prucha, Francis Paul, The Great Father: The United States Government and the American Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1995.
- Reynolds, David, America, Empire of Liberty: A New History of the United States, Basic Books, New York, 2009.
- Rosenbaum, Robert A., The Penguin Encyclopedia of American History, Penguin Group, 2003.
- Salt, Jeremy, Imperialism, Evangelism and the Ottoman Empire 1878-1896, Frank Cass, London, 1993.
- Savage, JR, William W. (Ed), Indian Life: Transforming an American Myth, University of Oklahoma Press, Norman, 1977,
- Segal, Ronald, The Black Diaspora: Five Centuries of the Black Experience Outside Africa, The Noonday Press, New York,
- Shaw, Stanford J. & Ezel Kural, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge University Press, 2002.
- Slotkin, Richard, The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890, University of Oklahoma Press, Norman, 1994.
- Sonyel, Salahi Ramsdam, The Ottoman Armenians: Victims of Great Power Diplomacy, K. Rustem & Brothers, London, 1987.
- Stannard, David E., American Holocaust: The Conquest of the New World, Oxford University Press.
- Starkey, Armstrong, European and Native American Warfare, 1675-1815, University of Oklahoma Press, Norman, 1998.
- Stedman, Raymond William, Shadows of the Indian: Stereotypes in American Culture, University of Oklahoma press, Norman, 1982.
- Strickland, Rennard, The Indians of Oklahoma, University of Oklahoma Press, Norman, 1981.
- Sword, Wiley, President Washington's Indian War: The Struggle for the Old Northwest 1790-1795, University of Oklahoma Press, Norman.
- Thornton, Russell, American Indian Holocaust and Survival: A Population History Since 1492, University of Oklahoma Press, Norman, 1990.
- Toledano, Ehud R., Slavery and Abolition in the Ottoman Middle East, University of Washington Press, Seattle, 1998.
- Trafzer, Clifford E. (Ed), American Indians American Presidents: A History, Smithsonian, New York, 2009.
- Utley, Robert M., The Indian Frontier of the American West 1845-1890, University of New Mexico Press, Albuquerque, 2002.
- Utter, Jack, American Indians: Answers to Today's Questions, University of Oklahoma Press, Norman, 2001.
- Waldman, Carl, Atlas of The North American Indian, Facts On File, Inc, New York, 2000.
- Ward, Geoffrey C., The West: An Illustrated History, Little Brown and Company, Boston, 1996.
- Wheatcroft, Andrew, The Ottomans: Dissolving Images, Penguin Books, London, 1993.
- Wheelan, Joseph, Jefferson's War: American First War on Terror 1801-1805, Carroll & Graf Publishers, New York, 2003.

- White, Jon Manchip, Everyday Life of the North American Indians, Dorset Press, New York, 1979.
- Williams, Jr., Robert A., The American Indian in Western Legal Thought: The Discourses of Conquest, Oxford University Press, New York and Oxford, 1990.
- Wishert, David j., An Unspeakable Sadness: The Dispossession of the Nebraska Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1994.
- Wissler, Clark, Indians of the United States, Anchor Books, New York, 1989.

الدوريات

- الأفغاني، سعيد، سبب خلع السلطان عبد الحميد: وثيقة بتوقيعه، فريدة مجهولة تصرح بالسبب، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، عدد 169، ديسمبر 1972، ص150-157.
- عبد الرحيم، عبد الرحيم، عبد الرحمن، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العصر العثماني 1517-1789، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد التاسع، المجلد الثالث، شتاء 1983، ص 11-46.
- مجلة الثقافة العالمية ملحق العدد12 سبتمبر1983، الكويت.

مواقع شبكة الإنترنت

- موقع أرشيف الدولة العثمانية /http://www.ottomanarchives.info
- محمد شعبان صوان، دراسة: آثار التغريب الاجتماعي على المجتمع العثماني: التحدي والاستجابة، فصل: أوروبا تثير الفتن بأدوات التغريب (16/ 2/ 2014)
-محمد شعبان صوان، دراسة: آثار التغريب السياسي على المجتمع العثماني، التحدي والاستجابة (الجزء الثالث: الهجرة الصهيونية بين دعم الغرب وتبعية التغريب والمقاومة العثمانية الرسمية والاجتماعية) (3/ 2/ 2014)
- موقع التجديد العربي: /http://www.arabrenewal.info
- محمد شعبان صوان، -http://www.arabrenewal.info/2010-06-11-14-22-29/29936
في ذكرى ضياع فرصة مصالحة ذهبية إلى متى سنصغي إلى الأجنبي؟html. (19/ 10/ 2011)
- محمد شعبان صوان، -http://www.arabrenewal.info/2010-06-11-14-13-03/51024
في ذكرى نكبة فلسطين نعم، الكيان الصهيوني هو الديمقراطية الوحيدة في المشرق العربيhtml. (15/ 5/ 2014)
- محمد شعبان صوان، -http://www.arabrenewal.info/2010-06-11-14-13-03/49400من تاريخ اليسار العربي وسياساته اليمينية (1)html. (6/ 2/ 2014)
- نواف الزرو، إبادة منهجية ضد الثروة العلمية العراقية، (9/ 7/ 2012)
- موقع الرأي نيوز، طالباني يعترف: "أنا أول الفاشلين" (30/ 4/ 2011)
- موقع صحيفة "اليوم السابع" الإلكترونية (الثلاثاء 30 إبريل 2013)
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=1043199 (6/ 3/ 2014)
- موقع العربية: إسرائيل تزعم أن الطفل محمد الدرة حي يرزق (20/ 5/ 2013)
- موقع مركز معلومات البنك على الإنترنت http://www.bicusa.org/ar/Institution.8.aspx
- موسوعة المعرفة: ألكسي ده توكفيل (8/ 8/ 2014)
- موسوعة ويكيبيديا العربية: فرحات عباس (8/ 2014)

- موسوعة ويكيبيديا العربية: (المكسيك) و (الحرب المكسيكية الأمريكية) (26/ 7/ 2014).
- وثائق سرية بريطانية: التآمر على بغداد يبدأ قبل 18 شهراً من الاحتلال، 2011
http://www.darbabl.net/akhbarshow.php?id=1905
- صحيفة نيويورك تايمز الصادرة يوم 27/ 1/ 1896
http://query.nytimes.com/mem/archive-free/pdf?res=9B06E0D6173BEE33A25754-C2A9679C94679ED7CF
- http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems
- http://www.nrcprograms.org/site/PageServer?pagename=naa_livingconditions
- http://www.cbn.com/cbnnews/337439.aspx
- http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems
- http://www.guardian.co.uk/world/2012/apr/22/un-investigate-us-native-americans
- http://www.franz-marc-gymnasium.de/mobil/englisch/englisch11/seiten/na_nati-vea.htm
- http://planetearthandhumanity.blogspot.com/2012/05/who-is-1-in-gambling.html
- http://maghreb.me/showthread.php?p=58370
- http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2795
- http://www.submarineheritage.com/history.html
- http://ragazine.cc/2013/03/amerindian-schools/
- http://en.wikipedia.org/wiki/David_Stannard
- http: //yis7ahum.wikispaces.com/Growth+and+Change + in+the+Border-s+of+the+British+Empire

الصحف

- صحيفة الحياة اللندنية : 15و16/ 3/ 2008.
- صحيفة الدستور الأردنية : طالباني: أميركا احتلت العراق من أجل إسرائيل والنفط (25/ 12/ 2008)
- صحيفة الرأي الكويتية، 9/ 10/ 2009، 19/ 3/ 2011
- صحيفة القدس العربي 25/ 1/ 2005، 23/ 4/ 2010.
- صحيفة النهار الكويتية : طالباني: أميركا احتلت العراق من أجل إسرائيل والنفط (25/ 12/ 2008)
- صحيفة الوطن الكويتية 21/ 8/ 1979، 17/ 2/ 2008، 2/ 11/ 2010، 11/ 8/ 2011، 8/ 9/ 2011، 1/ 12/ 2011
- صحيفة الشرق الأوسط 16/ 5/ 2011.
- وكالة الأنباء الكويتية، 19/ 12/ 2006.

مقالات صحفية

- عبد الباقي خليفة، الفيلسوف المسلم يكشف جوهر ديننا الحنيف/ 2، مقال في موقع صحيفة الوطن الكويتية 5/ 8/ 2012.
- جوزيف ستيغليتز، الازدهار في أميركا يتطلب اللعب على مستوى رفيع جدا، مقال في صحيفة لوس أنجلس تايمز، 22/ 7/ 2012، ترجمة أخبار الشرق الجديد-ناديا حمدان، موقع وكالة أخبار الشرق الجديد 6/ 8/ 2012، ونشرتها نشرة المنظار6/ 8/ 2012، العدد230.